التاريخ الإسلامي العام

الجاهلية - الدولة العربية - الدولة العباسية

تأليف

علي ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة
والمفتش الأول للمواد الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم (سابقا)



ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة


محمد خطاب

التاريخ الإسلامي العام

الجاهلية ـ الدولة العربية ـ الدولة العباسية

تأليف

الدكتور علي ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

والنشر

المصرية

القاهرة



الطبعة الأولى ١٩٥٣



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

ألفت كتب كثيرة تبحث فى التاريخ الإسلامى ، سواء فيما يتعلق بناحية خاصة من نواحيه أو بالكلام إجمالا عن ظهوره وتوالى الدول التى كان لها شأن فى تسجيل أحداث ذلك التاريخ . إلا أنه على وفرة ما كتب قديما وحديثاً ، فإن النظرة الشاملة التى تشرف على ذلك التاريخ ، بحيث تحيط به وتضم أطرافه وتفسر أحداثه ، مما يمثل أحدث الاتجاهات فى الوقت الحاضر فى تفسير التاريخ ، هو الذى دفعنا إلى تأليف هذا الكتاب على هذا النحو التركيبى الشامل ، وهو الذى جعلنا نمهد لدراسة التاريخ الإسلامى بالبحث فى العصر الجاهلى ، لأن ظهور الإسلام ـ وهو حَدَث من أخطر أحداث الإنسانية — لا يمكن أن يفهم مستقلا عن ماضى العرب فى جاهليتهم ، لا القريبة فقط بل البعيدة أيضاً ، لأن روح الأمة يمتد عَبْر الزمان حتى لو تقلبت عليها الأديان وتطورت فى لهجاتها ولغاتها وعاداتها .

كان الهدف الذى نرمى إليه إذن هو الكشف عن مقومات هذه الروح الإسلامية ، التى انبعثت من جزيرة العرب ، ثم اتسعت فشملت كثيراً من الشعوب غير العربية التى اتخذت الإسلام ديناً والعربية لسانا ، وانضوت جميعاً تحت لواء الحضارة الإسلامية . وكانت تلك الحضارة قوية حينا ضعيفة حينا آخر ، عنى بها الإسلام فالخلفاء الراشدون ومن نسج على منوالهم ، وفى العصر

الأموى أخذت هذه الحضارة تترعرع ويشتد ساعدها ، ولم يأت صدر الدولة العباسية حتى كانت قد بلغت أوجها ، والتاريخ يحدثنا أن الحضارة الإسلامية فى ذلك العهد فاقت سائر الحضارات المعاصرة لها فى الشرق والغرب[١] .

١٥ / ٤ / ١٩٥٣ — المؤلف

---

(١) وجهت عناية خاصة إلى دراسة التيارات الحضارية والتعليق على الأحداث التاريخية ، لمالها من أثر عميق فى تكييف التاريخ الإسلامى وفهمه على الوجه الصحيح . ولما كنت قد خصصت مصر بكتاب (مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى فى ٥٦٠ صفحة) ، عالجت فيه تاريخها السياسى ودورها الهام فى الحضارة الإسلامية ، رأيت ألا أعود إلى مصر ثانية فى هذا الكتاب .



محتويات الكتاب

الباب الأول

تاريخ الجاهلية السياسى

الباب الثانى

تاريخ الجاهلية الدينى والاجتماعى والاقتصادى

أولا — تاريخ الجاهلية الدينى

ثانيا — تاريخ الجاهلية الاجتماعى

ثالثا — تاريخ الجاهلية الاقتصادى

الباب الثالث

الدولة العربية

من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

البعثة النبوية — الخلفاء الراشدون — الدولة الأموية

أولا — البعثة النبوية

صفحة

صفحة

ثانيا — الخلفاء الراشدون

صفحة

صفحة

ثالثا — الخلافة الأموية

صفحة

الباب الرابع

الدولة العباسية

العصر العباسى الاول — العصر العباسى الثانى

أولا ـ العصر العباسى الأول

صفحة

صفحة

ثانيا ــ العصر العباسى الثانى

الباب الخامس

نظم الحكم والحياة الاجتماعية

من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين — فى العصر العباسى

أولا — من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

صفحة

صفحة

ثانيا ـ فى العصر العباسى

صفحة

المصادر

الخرائط

تاريخ الجاهلية السياسى

جزيرة العرب سهد الساميين :

بلاد العرب قطر فسيح تبلغ مساحته حوالى مليون ميل مربع ، وهى تقع فى الجنوب الغربى من آسيا ويحدها : الخليج الفارسى وبحر عمان شرقا ، والمحيط الهندى جنوباً ، والبحر الأحمر غرباً ، وبادية الشام شمالا . ويبدأ حدها الشمالى بغزة الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، ويمر جنوب البحر الميت حتى شرقى الأردن ، ثم يمر من دمشق إلى الفرات متتبعاً مجراه لينتهى عند الخليج الفارسى .

ومنذ العصر الجوراسى كان المحيط الهندى والخليج الفارسى يفصلان الجزيرة العربية عن الهند وفارس ، اللتين لا يزال تركيبهما الجبلى بارزاً فى منطقة عمان ، وفى العصر الثالث فصلت بلاد العرب عن شمالى إفريقية بظهور البحر الأحمر ، وبذلك صارت بلاد العرب محاطة بالمياه إلا من الشمال ، ومن هنا جاءت تسميتها بشبه جزيرة العرب أو « بالجزيرة العربية » كما يدعوها سكانها أنفسهم .

ولم يكن داخل بلاد العرب معروفا عند الجغرافيين القدماء ، وإنما اكتفوا بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ — بلاد الحِجْر العربية L'Arabie Petrée

٢ — بلاد العرب الصحراوية L'Arabie Deserté

٣ — بلاد العرب السعيدة L'Arabie Heureuse

أما جغرافيو العرب فلم يعدوا بلاد الحِجْر من أقسام الجزيرة العربية ،

مع أن الناحية الجغرافية والناحية الإثنوغرافية تجعلان بلاد الحجر قسما من أقسام الجزيرة (١) وتتألف بلاد الحجر العربية من جزيرة طور سيناء الممتدة من حدود فلسطين إلى البحر الأحمر ، ويتوسطها طود من حجر الصوان يحيط به بقاع صخرية قليلة النبات .

أما بلاد العرب الصحراوية ، فهى البادية الكبرى التى تمتد من حدود سورية والعراق إلى المحيط الهندى محاذية الخليج الفارسى . وليست طبيعة هذه الصحراء متشابهة من الناحية الأوروجرافية ، بل تتنوع إلى أنواع ثلاثة :

١ — النوع الأول : الصحراء التى يطلق عليها العرب « بادية السماوة » وتقع فى الشمال بين الكوفة والشام وهى أرض مستوية لا حجر بها (٢) وليس بها إلا قليل من آبار وعيون . ويقع جنوبى بادية السماوة جبلا أجا وسلمى ، ويعرفان اليوم بجبل شمّر وهما نتوءان بارزان من جبال السراة الغربيـــة ويتجهان نحو الشرق وينفذان إلى السهول الواقعة شمالى المدينة(٣) .

٢ — النوع الثانى من الصحراء هى المسماة « بالرّبع الخالى » وهى تقع فى الجنوب ، وتتصل ببادية السماوة فى الشمال وتمتد شرقا حتى الخليج الفارسى ، وهى صحراء رملية كبيرة يغلب عليها الجدب والقفر . وقد اخترقها برترام توماس Bertram Thomas لأول مرة ســـنة ١٩٣١ م ثم تبعه فيلبى St. John Philby فاخترقها سنة ١٩٣٢ م ، وفى قليل من بقاع هذه البيداء أشجار ونخيل ، وليس بها من الأودية ذات المياه إلا عدد قليل مثل وادى سرحان فى الشمال ووادى الرمة ووادى الدواسر فى الجنوب ، وهى تعمل جميعها على

---

(١) Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, p. 12.

(٢) ياقوت : معجم البلدان . مادة سماوة جـ ٥ ص ١٢٠ .

(٣) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 1.

تنويع مظاهر السطح فى هذه الصحراء . وقد تسقط بها بعض الأمطار فتمتلىء الأودية بالمياه ، ثم لا تلبث أن تجف بعد أن تضفى شيئاً من الخصب على بعض هذه البقاع(١) . وقد سمت العرب هذه الصحراء جملة أسماء : فالجزء الذى بين شرق اليمن وحضرموت يسمى صيْهَد ، والذى بين شمالى حضرموت وشرقيها يسمى الأحقاف ، والذى فى شمالى مهْرة يسمى الدهناء(٢).

٣ — النوع الثالث من الصحراء هى الحرار التى أحدثتها البراكين . والحرار جمع حرة وهى كل أرض فيها حجارة سود ورمل»(٣) وذكر ياقوت أن الحرة « أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار »(٤). وتكثر الحرار فى بلاد العرب ولا سيما حول المدينة ، وعد منها ياقوت فى معجمه نحواً من ٢٩ حرة ، أشهرها : حرة تبوك ، وحرة سليم ، وحرة ليلى ، وحرة أوطاس ، وحرة غلاس ، وحرة واقم(٥) .

أما بلاد العرب السعيدة فتشتمل على نجد والحجاز واليمن وعمان . وتقع نجد فى جنوب بادية الشام ، وتشتمل على وسط جزيرة العرب بين الحجاز والأحساء مع إقليم اليمامة أو العروض حيث كانت مدينة هجر ، ويفصل نجداً عن آكام عمان الجبلية صحراء الربع الخالى .

ويقع الحجاز فى جنوب جزيرة سيناء ، ويمتد على طول البحر الأحمر من أيلة ـ وهى المعروفة اليوم بالعقبة ـ إلى اليمن . وسمى حجازاً لأنه يفصل

---

(١) كما نرى فى تيماء وخيبر على طرف المناطق الحرارية الواقعة فى الشمال الغربى .

(٢) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ص ٢ .

(٣) ياقوت : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٩٣ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان . « مادة حرة » ج ٣ ص ٢٥٦ .

(٥) إحدى حرتى المدينة وهى الشرقية ، وفيها كانت واقعة الحرة فى أيام يزيد بن معاوية .

تهامة ، وهى الأرض المنخفضة على شاطىء البحر الأحمر ، عن نجد وهى الأرض المرتفعة شرقا . وقيل إن الحجاز « ما حجز فيما بين اليمامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد »(١)، وسمى حجازاً « لأنه فصل بين الغور والشام وبين البادية »(٢) ، وإنه «ماحجز بين تهامة والعروض»(٣) . وهو على العموم قطر فقير تكثر به الأودية التى تمتلىء بالمياه بعد سقوط الأمطار ، ومناخه شديد الحرارة ، إلا أنه يعتدل فى بعض بلاده كالطائف المعروفة بجنة مكة(٤). ويستوقف الحجاز نظر المؤرخين ، لاشتماله على المدينتين الكبيرتين : مكة والمدينة ، وقد أصبح بحق « مهد الإسلام » والبقعة التى انتشر منها الدين الجديد ، فنال لذلك من عناية الباحثين والدارسين الشىء الكثير .

وتقع بلاد اليمن جنوبى الحجاز ، وهى قطر غنى عرف منـــذ القدم بالخصب ، وفيه تجود الزراعة عن طريق توفير المياه المتجمعة من الرياح الموسمية وحسن تصريفها ، وأشهر مدنها صنعاء وعدن ونجران ، وفى شرق اليمن تقع حضرموت على ساحل المحيط الهندى ، وتكثر بها الجبال والوديان . وتقع ظفار شرق حضرموت وهى من أعمال الشحر وتشتهر بالتوابل والطيب ولاسيما اللّبان ، وكان التجار يجلبون منها البخور للمعابد والهياكل المصرية .

وفى أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من جزيرة العرب تقع عمان ، وهى كورة عربية تشمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع(٥) ، واشتهر سكانها بالمهارة فى الملاحة فكانت حركة التجارة فى المحيط الهندى بين

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ١٠ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة « الحجاز » ج ٣ ص ٢١٨ .
(٣) مراصد الإطلاع ج ١ ص ٢٢٠ .
(٤) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome 1. p.12.
(٥) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٥١ .

سواحل الجزيرة الشرقية والهند منظمة منذ زمن بعيد وكانت السفن تحمل المنتجات الموسمية من الهند إلى ساحل عمان . وفى الشمال الغربى من عمان تقع البحرين أو الأحساء ، وتمتد على طول الخليج الفارسى من حدود عمان إلى الفرات .

هذه هى جزيرة العرب مهد الساميين ، أو البقعة التى نزحوا منها إلى ما حولهم من أقاليم . وقد انقسمت الآراء حول الوطن الأول للعنصر السامى . ويرى بعض المؤرخين ، أن جميع التقاليد السامية تدل على أن الجزيرة العربية هى المهد الأول للساميين ، وأن جزيرة العرب ولاسيما الأصقاع الوسطى منها لم تكن قاحلة جرداء كما نراها اليوم ، بل كانت خصبة فى العصور القديمة تصلح للعيش والحياة والسكنى ثم اعتراها الجفاف فطمس معالمها وأزال حضارتها ، ومن هؤلاء المؤرخ كينج [١] . وليس من السهل أن نقرر ما إذا كان مناخ الجزيرة العربية — كما استنتج بعضهم — كان أكثر اعتدالا خلال التاريخ ، ثم انتهى مع الأيام إلى جفاف تدريجى أم لم يكن [٢] . على أنه قيل كذلك إن نجداً هى المهد الأول الذى درج فيه الساميون وإنها هى التى وسمتهم بميسمها ، وطبعتهم بطابع الصحراء الذى لا يمحى ، وأن الأمم الزراعية لا ترجع القهقرى إلى طور البداوة والقيام على الأنعام وأن العكس فى ذلك صحيح . ورأى دى غوية De Goeji أن وسط جزيرة العرب هو المسكن الأول للجنس السامى على العموم [٤] .

---

(١) King : History of Babylon, pp. 116—120.

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 2.

(٣) المرحوم محمد محمود جمعه : مهد الساميين ، بحث مستخرج من صحيفة دار العلوم ، السنة الرابعة ، العدد الأول ، سنة ١٩٣٧ .

(٤) فى خطابه لدى المجمع العلمى سنة ١٨٨٢

العصر الجاهلى :

يعرف عصر ماقبل الإسلام فى الجزيرة العربية عند جمهور المؤرخين والمحدثين وأصحاب السير « بالعصر الجاهلى » ، ويقصد به عادة « زمن الجهل وعدم المعرفة » ، وهو عين مانُعتت به الأزمنة السابقة للنصرانية فى الآية الثالثة عشرة من الإصحاح السابع عشر من سفر أعمال الرسل(١) . ولقد ورد لفظ الجاهلية فى أربع آيات من آى القرآن الكريم(٢) ، ويتبين لنا إذا ما دققنا النظر فى هذه الآيات الأربع . أن المعنى المقصود بالجاهلية ليس هو الجهل الذى هو ضد العلم ، ولكنه الجهل الذى هو السفه والغضب والأنفة(٣) . وفى الحق أن لفظ الجهل ضد العلم قد ورد كثيراً بهذا المعنى فى قول الشعراء القدماء أو الجاهليين كما يسمونهم ، والشعراء المحدثين على السواء ، ومن ذلك قول عنترة فى معلقته : « إن كنت جاهلة بما لم تعلمى »

ويطلق لفظ « الجاهلية » على الحال التى كانت عليها العرب قبل ظهور الإسلام ، يؤيد ذلك قول المؤرخين المحدثين : يقول الدكتور فيليب حتى « تفسر كلمة الجاهلية عادة بعصر الجهل أو الهمجية ، ولكنها فى الحقيقة تعنى تلك الفترة التى كانت فيها الجزيرة العربية خالية من أى قانون أو نبى موحى إليه أو كتاب منزل »(٤) :

The term Jahillia usually rendered time of ignorance or barbarism. In reality, means the period in which Arabia had no dispension, no inspired prophet, no revealed book.

---

(١) الموسوعة الإسلامية — مادة جاهلية

(٢) قال الله تعالى « أفحكم الجاهلية يبغون » المائدة آية ٥٠ ، « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » آل عمران آية ١٥٤ « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » الفتح ٢٦ ، « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »

(٣) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ص ٨٣ — ٨٤

(٤) Hitti, ph : History of the Arabs, p. 87.

وبيّن نيكلسون أن المسلمين يطلقون لفظ «الجاهلية» على كل الفترة الواقعة من فجر التاريخ العربي حتى ظهور الإسلام(١) .

واختلف العلماء فى تحديد العصر الجاهلى ذاته ، فذهب بعضهم إلى القول بأنه «العصر الذى خلا من الرسل بين عيسى ومحمد(٢)». ويرى بعض المفسرين أن المراد بالجاهلية فى قوله تعالى «وقَرْنَ فى بيوتكن ولا تبرجن تبرجَ الجاهلية الأولى» إنها الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام حيث كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال(٣) ، وروى عن الحكم بن عُيَيْنَة أن الجاهلية كانت بين آدم ونوح وهى ثمانمائة سنة(٤) . وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس(٥) ، وروى عن ابن خالوية أن هذا اللفظ أطلق فى الإسلام على الزمن الذى كان قبل البعثة(٦) ، ويرى نيكلسون أن الجاهلية تشمل فى الحقيقة كل الفترة منذ آدم إلى محمد ولكنها قد تستعمل فى دائرة محدودة للإشارة إلى عصر ما قبل الإسلام للأدب العربى(٧) .

بذلك يتضح صعوبة تحديد العصر الجاهلى كعصر معين من عصور التاريخ ، لأنه ليس زمناً متصلاً بعضه ببعض ، بل هو فترات متقطعة تقع حيناً بعد حين ، وكل فترة منها تكوّن طائفة وثنية لها شعائرها ، ولها خصائص عباداتها التى تعبر عن شعور الأمة حسب دواعى البيئة(٨) .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 30.

(٢) الموسوعة الإسلامية — مادة جاهلية .

(٣) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ١٧٩ .

(٤) الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب ج ١ ص ١٧ .

(٥) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ١٧٩ .

(٦) الألوسى : نفس المصدر ج ١ ص ١٥ .

(٧) راجع مقدمة نيكلسون فى كتابه المسمى «تاريخ العرب الأدبى» .

(٨) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٣ .

العرب :

يظهر أن المعنى الحقيقي للفظ عرب «Arab» هو صحراء «desert»، كما يظهر أن كلمة « Arabya » – كما جاءت فى نقوش الملك داريوس هيستاسبيس Darius Hystaspes – تعنى صحراء الجزيرة وسورية وشبه جزيرة سيناء»[١].
وكثيراً ما نصادف فى المؤلفات اليونانية لفظى «Arab» و « Arabia » وإن كانت أفكار الشعراء عن موقع ذلك القطر خيالية كلها . وكان هيرودوت عارفاً بالجزيرة العربية . كما درس معاصروه من المؤرخين من أمثال اكزينوفون Xenophon لفظ «عرب» وقالوا إنه يطلق على صحراء الجزيرة العربية بوجه خاص كما يطلق على البدو كلمة أعراب ، وكان أهل التاريخ القديم من الفراعنة والآشوريين والفينيقيين يريدون بالأعراب أهل البادية فى القسم الشمالى من جزيرة العرب وشرق وادى النيل فى البقعة الممتدة بين الفرات فى الشرق والنيل فى الغرب[٢] .

وفى العصور المتأخرة نسبياً كان أهالى الجزيرة العربية يعرفون عند الغربيين بإسم « Saracens » ، وأطلق أهالى الولايات البيزنطية هذا اللفظ على القبائل العربية بسبب تعديهم على القوافل المارة ببلادهم أو لفرضهم الضرائب الفادحة عليها ، واستمر أهالى الجزيرة يعرفون عند الغربيين بهذا الإسم ، نظراً لكثرة استعماله فى آدابهم ، حتى أن المسلمين لم يسلموا من النعت به فيما بعد[٣] . على أن لفظ Saracens قد يكون إسم قبيلة من سكان أعالى الجزيرة ، يظن أنها منحوتة من « الشرقيين » ، لأن تلك القبيلة

---

(١) Noldeke : Historians' History of the World, vol. 8. p.2
(٢) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣١ .
(٣) Noldeke : Historians' History of the World, Vol. 8. p.4

كانت تقيم فى شرق جبل السراة (١) .

وأطلق الروم على العرب لفظ «ساراقينوس» ، ومعناه عبيد سارة ضغنا منهم على هاجر وابنها إسماعيل . وقيل إن هذا اللفظ قد يكون محرفا عن Sarakinos اليونانى وأن هذا اللفظ الذى استعمل فى آداب القرن الأول الميلادى يدل على اسم شعب كان يسكن سورية أو شرق الأردن أو شبه جزيرة سيناء ، ثم توسع المؤرخون اليونان فى استعماله حتى شمل كل الشرقيين ، وأصبح اسم Saracens يطلق على العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، وهو تحريف للفظ Sarakinos اليونانى(٢).

وعرف العرب كذلك بلفظ «Taits» الذى أطلقه السريانيون من أهل الرها وسكان بابل على جميع العرب ، والظاهر أن المقصود بهذا اللفظ قبيلة طىء لشهرتها فى الجاهلية ، والتى كانت تقيم أصلا فى شمال نجد ثم انتشرت فى جهات خارج بلادهم(٣) .

وينقسم العرب إلى قسمين عظيمين أو طبقتين كبيرتين : أما الطبقة الأولى فهى العرب البائدة ، ويريدون بها القبائل التى هلكت ودرست آثارها وانقطعت أخبارها ، وهى عندهم تسع : عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم وجاسم وعمليق ، وأشهرها الأربعة الأولى ويسمونها العرب العاربة . أما الطبقة الثانية فهى العرب المتعربة أو المستعربة وهم أبناء إسماعيل ابن إبراهيم . ويذهب بعضهم إلى تقسيم العرب إلى عاربة وبائدة وهم عاد وثمود وطسم وجديس ، وتسمى قحطان عربا متعربة وعدنان عربا مستعربة .

---

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣١ .

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٧ — ١٨ .

(٣) Noldeke : Historians' History of the World, Vol. 8. p. 4.

أما العرب العاربة فسموا لذلك لرسوخهم في العربية ، ويعتبرهم المؤرخون أقدم سكان جزيرة العرب ، كما يعدونهم ساميين من نسل إرَمْ بن سام ، إلا العمالقة فيقولون إنهم من نسل لاوذ بن سام أخي إرم(١) ، ويقال إن قوم عاد ومعظم العمالقة القدماء من نسل حام(٢)، وقد ورد ذكرهم في القرآن مثلا للكبرياء والجبروت اللذين أديا بهم إلى التهلكة . ولا تتعرض التوراه لأصل هذه القبائل ، وقد حاول بعض مفسريها تطبيق أسماء هذه القبائل البائدة على بعض الأسماء الواردة بالتوراه فلم يستطيعوا ذلك إلا بتكلف ماحوظ .

أما عاد ، فكان موطنها حضرموت التي تتاخم بلاد اليمن على حدود الصحراء المسماة بالأحقاف ، ولا يمكن تحديد ما إذا كان قوم عاد من الجنس السامي من سلالة الإرميين ، أم أنهم يمثلو ثقافة غير سامية خلفت إرم ذات العماد ؟ وكان قوم عاد من أشد الناس بطشا . شيدوا أبنية شاهقة تدل على حضارتهم ومدنيتهم ، وكانوا يعبدون الأصنام ويقترفون شتى الموبقات ، فلما بعث الله فيهم أخاهم هوداً نبياً ورسولا لم يؤمن به إلا القليل ، وقالوا له « ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » (٣) ثم نزل بهم قحط شديد ، وساق الله عليهم العذاب فأفناهم جميعاً إلا فئة قليلة لبت نداء هود وأجابته إلى دعوته ونبذت عبادة الأوثان . وعلى مر الزمان ظهر شعب آخر يدعى بقوم عاد الثانية ، وكان مقرهم اليمن ، وينسب بناء سد مأرب إلى ملكهم لقمان بن عاد الذي حاك حوله المؤرخون العرب طائفة من الخرافات .

وكان ملك ثمود في شمال بلاد العرب بين الشام والحجاز ، وكانوا يسكنون بيوتا نحتوها في الجبال ، ولا تزال آثارهم المنحوتة في الصخور قائمة في مدائن

---

(١) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣٧

(٢) Caussin de Perceval : Histoire des Arabes, Vol. I. p. 7.

(٣) سورة هود : ٥٢ — ٥٤

صالح على مسيرة أسبوع من شمال المدينة والتى تدل عليها النقوش النبطية (١) التى عثر عليها فى القبور ، ولما طغوا أرسل الله إليهم صالحاً نبياً ، فهزأت ثمود من نبيها صالح وأبت أن تطيعه حتى يأتى بمعجزة خارقة ، فأخرج لهم صالح من الصخر ناقة وفصيلها وأمرهم ألا يمسوها بسوء ، بيد أن أحد أشرارهم عقرها وذبحها ، فأرسل الله عليهم صيحة من السماء فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، وسار صالح إلى فلسطين ثم إلى الحجاز مع من بقى من قومه المؤمنين .

وأشار ديودور الصقلى وبطليموس وغيرهم من القدماء إلى وجود آل ثمود ، أما عاد فلم نجد لهم أثراً يذكر خلال العصور التاريخية ، مع أن آل ثمود قد عاشوا حتى القرن الخامس والتحقوا بجيش الدولة البيزنطية كفرسان ثموديين (٢) . وكانت مساكن طسم وجديس فى اليمامة ، والملك عليهم من طسم ، ثم انتقل الملك إلى جديس ، ولم يدون عن هاتين القبلتين شىء إلا حقيقة هلاكهما والأسباب التى أدت إليه . ويقصد بالعمالقة ، أهل شمال الحجاز مما يلى جزيرة سيناء ، الذين فتحوا مصر باسم « الهكسوس » ، وملكوا بابل أولا ثم نزحوا منها إلى جزيرة العرب ، وقيل إن لفظ « العمالقة » منحوت من اسم قبيلة عربية كانت مواطنها بجهات العقبة أو شماليها حيث كان العماليق (٣) .

---

(١) Doughty : Documents epigraphiques recueillis dans le Nord de L'Arabie, p. 12. sui.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 3.

(٣) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣٨ .

القحطانية والعدنانية :

كان موطن شعب قحطان بلاد اليمن ، وهو ينسب إلى قحطان بن عابر ابن شالح الذى يقال إنه أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج (١) وأطلق على نسل قحطان اليمنيين أو القحطانيين ، بينما أطلق على نسل إسماعيل بن إبراهيم العدنانيين أو النزاريين ، وصار هذان اللفظان يرادفان عرب الجنوب وعرب الشمال . وخلف قحطان ـ جد أعراب الجنوب ـ ابنه يعرب الذى يقال إنه أول من اتخذ العربية لسانا ولقبه الشعراء « رب الفصاحة » ، قال بعضهم :

فما مثل قحطان السماحة والندى ولا كابنه رب الفصاحة يعرب

ومن هنا أطلق على القحطانيين العرب المتعربة ، أما العدنانيون فيقال لهم العرب المستعربة ، لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية . فلما نزلت جرهم من القحطانية بمكة وسكنوا مع إسماعيل تزوج منهم ، وتعلم هو وأبناؤه العربية فسموا المستعربة ، وهم جمهور العرب من البدو والحضر الذين يسكنون أواسط جزيرة العرب وبلاد الحجاز إلى بادية الشام (٢) .

وكان أهل الجنوب يعيشون عيشة قرار ، أما أهل الشمال فغلبت عليهم البداوة والارتحال . وكانت لغة اليمنيين تخالف لغة العدنانيين فى أوضاعها وتصاريفها ، وكما كان لسان أهل الجنوب يشمل لهجات شتى أهمها : المعينية والسبئية والقتبانية والأوسانية والحضرمية ، وهى قريبة من اللهجات الحبشية السامية ، كذلك كان لسان أهل الشمال يشمل أيضاً عدة لهجات نستطيع أن

---

(١) أبكاريوس : نهاية الأرب فى أخبار العرب ص ٦ (طبع مرسيليا) .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٥ .

نميز بين أربعة أنواع منها وهى اللحيانية(١) والثمودية(٢) والصفوية(٣) والنبطية . وتمتاز اللهجات الثلاث الأولى بخطوطها المشتقة من الخط العربى الجنوبى ، بخلاف اللهجة الرابعة المنقوشة بخط آرامى ، كما تمتاز اللحيانية والثمودية أيضا باشتمالها على كلمات وصيغ لا تختلف كثيراً عن اللغة العربية الفصحى، على حين أن اللهجة الرابعة هى لهجة آرامية اختلط بها صيغ وكلمات عربية (٤).

ولقد سبق عرب الجنوب عرب الشمال فى إنشاء حضارة خاصة ، بينما ظل معظم الشماليين يعيشون فى بيوتهم التقليدية المصنوعة من الشعر ، وينتقلون من مكان إلى آخر طلبا للعيش والحياة ، ولم يظهر عرب الشمال على المسرح العالمى إلا ببزوغ شمس الإسلام الذى تعتبر أرضهم مهده الأول . وهناك فرق بين عرب الشمال ـ بما فيهم عرب نجد ـ وبين عرب الجنوب من من الناحية الجنسية : فعرب الشمال ينتسبون لجنس البحر الأبيض المتوسط ، أما عرب الجنوب فينسبون للجنس الألبى المسمى أيضا بالجنس الحيثى أو العبرى ومن مميزاته الفك العريض والأنف الأقنى والخد المنبسط والشعر الكثيف (٥) .

وكان العداء مستحكما بين العدنانيين والقحطانيين منذ القدم حتى أن كان كلا منهم اتخذ لنفسه شعاراً فى الحرب يخالف شعار الآخر ، فاتخذ المضريون العمائم الحمر والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفر والرايات الصفر (٦).

---

(١) سمى العلماء هذه اللهجة العربية الشمالية باللحيانية لأنه ذكر فيها بنو لحيان .

(٢) سميت بهذا لشهرة بنى ثمود قبل الإسلام فى نجد وشمال جزيرة العرب .

(٣) إسمها مأخوذ من جبل الصفاء الموجود فى بادية الشام .

(٤) أنوليتمان : لهجات عربية شمالية قبل الإسلام. بحث مستخرج من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى، ج ٣ ، ١٩٣٦ .

(٥) Hitti : History of the Arabs, p. 30.

(٦) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ص ٧ .

وكان توالى الحوادث والوقائع الحربية يزيد فى العداء بينهم ، ولم يزل الاختلاف واضحا بينهم على الرغم من محاولة الإسلام توحيد الأمه العربية وجمع شملها تحت لوائه ، وقد كان لهذا الاختلاف شأن كبير فى إضعاف معنويات الدولة العربية .

الممالك العربية فى الجاهلية

لم تعرف بلاد العرب قبل الإسلام نظام الدولة السياسى ، ولم يكن بها حكومة مركزية تهيمن على كافة شؤونها ، وإنما اكتظت بالوحدات السياسية المستقلة التى عرفت بالقبائل . والظاهر أن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم شعور بأنهم أمة بالمعنى الصحيح ، إنما كان الشعور القوى عندهم شعور الفرد بقبيلته ، التى يتبعها حلت أو رحلت ، ويذب عنها غارة المغير وظلم المعتدى . والشعر الجاهلى مملوء بالشعور القبلى ، فالعربى يمدح قبيلته ويعنى بانتصارها ، ويعدد محاسنها ، ويهجو القبيلة الأخرى من أجل قبيلته ، ولكن قل أن نجد شعراً يتغنى فيه العربى بأنه عربى ويفخر فيه على غيره من الأمم(١).

ولم تكن الجزيرة العربية قبل الإسلام وحدة متماسكة من الناحية الجنسية واللغوية والدينية ، فضلا عن وسائل المعيشة التى كانت تختلف فى جهة عن الأخرى . فمن الناحية الجنسية نجد أن عرب الجنوب قد اختلطوا منذ القدم بالأحباش وشعوب إفريقية الشرقية ، حتى تميزوا عن عرب الشمال فى خلقتهم ولونهم . ومن الناحية اللغوية نرى أن لغة الجنوب التى اتسمت

---

(١) أحمد أمين بك : ضحى الإسلام ج ١ ص ١٧ .

بالطابع الحبشى السامى ، كانت تخالف لغة الشمال القريبة من اللغة العبرية والنبطية . ومن ناحية الدين نشعر بالاختلاف البين بين عبادة أهل الجنوب وأهل الشمال : فأهل الجنوب كانوا يعبدون الأجرام السماوية ، أما أهل الشمال فقد عبدوا الأصنام المنحوتة . وخلت الجزيرة العربية من وجود هيئة خاصة من كبار زعمائها ، تكون بمثابة الحكومة فى العصر الحديث ، لها قوة تنفيذ أوامرها على كافة الأفراد . واستعان زعماء العرب فى الجاهلية بالفُتّاك والخلعاء والصعاليك على تنفيذ خططهم أو نصب المهالك لأعدائهم ، وكانت القبائل كثيراً ماتخلع هؤلاء الشُّذّاذ ، فتبرأ من جرائرهم ، وتتخلص من تبعة أعمالهم(١) .

وقد نشأ بأطراف جزيرة العرب قبل الإسلام بعض الدويلات ، مثل : ممالك اليمن فى الجنوب ، ومملكة الحيرة فى الشمال الشرق ، ودولة الغساسنة فى الشمال الغربى . أما وسط بلاد العرب فقد سادت فيه الحياة القبلية بأجلى مظاهرها ، حيث كانت القبائل تحيا حياة سياسية فطرية . وامتاز الحجاز عن غيره باشتماله على عدة مدن ذات حياة سياسية خاصة مثل مكة والمدينة والطائف .

ولم تكن الجزيرة العربية خالية من طبقة الحكام ، وإنما كان يحكمها بعض الملوك المتوجين مثل ملوك معين وسبأ (٢) من أولاد قحطان ، كما

---

(١) Lammens : Le Berceau de L'Islam, Vol. 1.p. 193—194.

(٢) سبأ اسمه عبدشمس. وقيل اسمه عامر وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان . وسبأ اسم يجمع القبيلة كلها كما يكون اسم رجل بعينه . راجع ابن دريد : كتاب الاشتقاق ص ٢١٧ .

كان رؤساء العشائر يقومون بما يقوم به الملوك تماما، وكان لهم ما للملوك من الحكم والسلطان . وكان ببلاد العرب بعض البيوتات المشهورة بالكبر والشرف مثل: بيت هاشم بن عبد مناف بيت قريش ، وبيت آل حذيفه بن بدر الفزارى بيت قيس ، وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بيت شيبان ، وبيت بنى الديان من بنى الحارث بيت اليمن . وكان لرؤساء هذه البيوتات مكانة مرموقة بين العرب سكان البادية والحضر . ولم يعد العرب قبيلة كندة المشهورة بين أهل البيوتات ، وإنما عدوهم من الملوك(١) ، وكان موطنهم حضرموت الواقعة فى الجنوب الشرقى ، وقد امتد سلطانهم إلى الحجاز واليمن ، على أن أمر هذه هذه المملكة لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما دب الضعف إليها واختفت من مسرح الجزيرة العربية تماما .

١ — مملكة معين

ازدهرت فى جنوب بلاد العرب منذ الألف الثانى قبل الميلاد ، حضارة راقية ، حيث كان المناخ ملائماً كل الملاءمة للزراعة والرى ، كما اعتمدت تلك الحضارة على التجارة أيضاً . ومن بين الممالك التى نشأت فى هذه البقعة من جزيرة العرب : مملكة معين وتقع فى جوف اليمن بين نجران وحضرموت(٢) ، وكانت سبأ تقع بين معين فى الشمال وقتبان فى الجنوب ،

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٧ ص ١٠٦ — ١١٠

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 52.

أما حضرموت فتقع شرق هذه المالك الثلاث(١) .

نزح المعينيون مع غيرهم من القبائل إلى جزيرة العرب حيث استوطنوا منطقة الجوف ، وما أن أطل عليهم الألف الثانى قبل الميلاد حتى كانوا قد تَوَسّعوا فى مستعمراتهم التجارية بعيداً نحو الشمال (٢) . على أنه إذا كان المؤرخون القدماء لم يذكروا أسماء ملوك معين أو شيئاً من أخبارهم وأحوال مملكتهم ، فإن رجال الآثار أزاحوا شيئاً من الغموض الذى خيم على هذه المملكة ، ومنهم من قام بالبحوث الطويلة عن نظمها السياسية والاجتماعية معتمدين على النقوش وحدها التى كشفت حديثاً فى جنوب جزيرة العرب ، حتى كشفوا عن أسماء ستة وعشرين ملكا من ملوك معين(٣) ، واستدل من النقوش المعينية على أن نظام الحكم فيها كان ملكيا وراثيا ، حيث كانت السلطة تنتقل من الأب إلى الابن ، وقد يشترك الإثنان معا فى الحكم .

وكانت منتجات معين الوطنية وهى البخور والمر عظيمة القيمة فى مصر ، وكان موقعها الجغرافى العظيم على البحر الأحمر مركزاً تجاريا هاما منذ القدم(٤)،

---

(١) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhammed, p. 93.

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 3.

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 54.

(٤) Hell : Die Kultur der Araber, English Translation by Khuda Bukhsh, p. 4.

وامتد مجال نفوذها حتى بلغ غزة شمالا على البحر الأبيض المتوسط، وانتشرت محطات تجارتها ومخازن أسلحتها على طول الطريق . ومن ثم كانت مملكة معين من القوة والغنى ما يفوق مملكة سبأ ، التى اشتهر أمرها فى التاريخ ، لأنها ظهرت فى وقت كان فيه الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية مزعزعا وأقل أمناً فى عالم التجارة . ولقد أشار ديودور الصقلى إلى المعينيين بأنهم كانوا يجلبون البخور من جنوب جزيرة العرب إلى شمالها ، ثم حذا حذوهم السبئيون فدوا الهياكل المصرية بالبخور فى عهد البطالسة (١) .

٢ — مملكة سبأ :

ترجع أقدم معلوماتنا عن ممالك جنوب جزيرة العرب إلى الجغرافى اليونانى إراتوستنيس Eratosthenes الذى ذكر أسماء سكانها ، وهم : المعينيون والسبئيون والقتبانيون وأهل حضرموت . وكان السبئيون أكثرهم شهرة ، إذ كان لفظ « سبء » يطلق عادة على جميع تجار العرب ، كما كان يستعمل كثيراً فى العهد القديم . وقد تتبع استرابون أسماء المعينيين والسبئيين والقتبانيين ، من الشمال إلى الجنوب(٢) .

امتد حكم سبأ حول سنة ٩٥٠ إلى سنة ١١٥ ق . م ، وقد حكم ملوكها الأول فى نفس الوقت الذى حكم فيه آخر حكام معين ، ولم تلبث أن انتزعت

---

(١) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhammad, p. 94.

(٢) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhammad, p. 86.

سبأ سلطان معين ، وآلت إليها السيادة على الجزء الجنوبى من جزيرة العرب ، وأصبح ملوكها حكاما على هذه البلاد فى أزهى فترة من تاريخها (١) .
ولا يصح أن يطلق اسم سبأ على كل بلاد العرب السعيدة ، لأنها لم تسكن سوى إقليم منها ، وإن كانت أقوى تلك الممالك شكيمة وأهمية(٢) .
وتنسب مملكة سبأ إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان جد عرب الجنوب ، ويلقب سبأ بعبد شمس ، وكان ملكا مهيباً كثير الغزوات وإن سكتت الآثار عن ذكر غزواته ، ويقال إنه حمل السبايا إلى بلاد اليمن فقيل له لذلك سبأ(٣) ، وهو الذى أغار على بابل وفتحها وأخذ أتاوتها ، وفيه يقول بعض الشعراء :

لقد ملك الآفاق من حيث شرقها   إلى الغرب منها عبد شمس بن يشجب
سمى بالجياد الأعوجية والقنا   إلى بابل فى مقنب بعد مقنب

وكان لسبأ ولدان : حمير وكهلان . وقبل موته قسم الملك بينهما ، ونصب ولده حمير ملكا مكانه بعد أن جمع أهل مملكته وأجلس ولده حمير عن يمينه وكهلان عن يساره ، وطلب من شعبه أن يعطى حمير من ملكه ما يصلح لليمين وكهلان ما يصلح للشمال(٤) ، ومن ثم كانت لحمير السيادة والملك ، أما كهلان فكانت له حراسة التخوم وشن الغارات على الأعداء .

---

(١) Hitti, ph. : History of the Arabs, p. 54.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 4.

(٣) أبكاريوس : نهاية الأرب فى أخبار العرب ص ٨ (طبع مرسيليا) .

(٤) خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار ملوك التبابعة ص ٩ ، وهى شرح على القصيدة الحميرية لأبى الحسن نشوان بن سعيد . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٢٩٧ ح .

ويرى بعض المؤرخين ، ومنهم فون كريمر ، أن هذه القصة ترمز إلى تشعب السبئيين إلى فريقين كبيرين هما : حمير وكهلان ، حيث كانت القوة فى يد الأول .

مرت دولة سبأ فى حقبتين : انتهت الحقبة الأولى سنة ٥٥٠ ق . م . وكان الملك رأس الدولة يلقب فى تلك الحقبة « مكرب سبأ » . ولقد عثر فى النصوص على نحو سبعة عشر ملكا نعتوا بهذا اللقب ، وكانت حاضرة سبأ فى تلك الفترة « صراوح » التى تقع على مسيرة يوم غربى مأرب (١).

وامتدت الحقبة الثانية حول سنة ٦٥٠ إلى ١١٥ ق . م ، وفيها كان الحكام يحملون لقب « ملك سبأ » ، وأصبحت حاضرتهم مدينة مأرب التى تبعد ستين ميلا شرقى صنعاء ، وترتفع ٣٩٠ قدما عن سطح البحر (٢) . يقول الهمدانى « قد نظرت بقايا مآثر اليمن وقصورها ، سوى غمدان فإنه لم يبق منه سوى قطعة من أسفل جدار فلم أر مثل ناعط ومأرب وضهر »(٣) . ولقد زار مأرب بعض الباحثين من الاوربيين مثل أرنود Arnaud وهليفى Halèvy وجلاذر Glaser ، فوصفوها وصفا دقيقا وعينوا أماكنها وقصورها القديمة (٤).

ساعد سبأ وخليفتها حمير على الاستقرار وبناء حضارة راقية ، ذلك الخصب الذى امتاز به إقليمهم منذ القدم . ولا تزال بقايا تلك الحضارة ممثلة

---

(١) Hitti : History of the Arabs, p. 54.

(٢) Hitti : Ibid. p. 55.

(٣) الهمدانى : الإكليل جـ ٨ ص ٤١ نشر الأب أنستاس الكرملى .

(٤) راجع الموسوعة الإسلامية مادة Ma'rib .

إلى اليوم فى السدود التى أنشئت لخزن الميـاه والمدن المحصنة والقصور والمعابد . ولقد ذهب بعض المؤرخـين إلى القول بأن الاقليم الجنوبى من جزيرة العرب كان فى عصر علكة سبأ أكثر خصباً عـا هو اليوم . يقول كنج ، لا شك فى أن الرمال المنقولة التى اكتنفت هـذه المنطقة تحت تأثير رياح السموم ، قد لعبت دورها فى إخفاء معالم الحياة الزراعية فيها »(١) .

ولقد قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب الميـاه محملة بالبضائع والمنتجات الموسمية بين موانىء بلاد العرب الشرقية وبين الهند . ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد ، كان لأهالى جنوب الجزيرة العربيـة دراية بالخليج الفارسى ، حيث كانوا ييممون شطر مصر يبيعون فيها بضائعهم . وكانت صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر سببا فى تفضيل الطريق البرى للتجارة بين اليمن وسورية ، وكانت القوافل تقوم من حضرموت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ ثم تتجه شمالا إلى مكربة (٢) ، وتظل فى طريقها من بترا حتى غزة على البحر الأبيض المتوسط . ويقول نيكلسون « من المؤكد أن سبأ كانت دولة تجارية زاهرة لعدة قرون قبل ميلاد المسيح »(٣). كما أن السفن التى بناها البطالمة للسير فى البحر الأحمر لم تستطع أن تؤثر تأثيراً كبيراً فى مصالح أهل سبأ التجارية فقد ظلوا يمدون جميع الهياكل المصرية بالبخور . وظل رخاء السبئيين قائمـا حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك

---

(١) King : History of Babylon, p. 121.

(٢) مكة فيا بعد .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 4.

الطرق البحرية على طول شواطىء حضرموت وخلال مضيق باب المندب . وكانت نتيجة هذا التغير ، الذى يظن نيكلسون أنه حدث فى القرن الأول للميلاد ، أن أخذت قوتهم تضعف شيئا فشيئا ، حتى اضطر جزء كبير من السكان للبحث عن مأوى جديد فى الشمال .

ويظهر أن الأقاصيص الشائعة بين الأمم الغربية عما بلغته مدن سبأ وحمير من الأبهة والعظمة ، لها أساس من الحقيقة[١] . ويرى بركلمان أن نظام الحكم فى سبأ كان يقوم على الأسر الأرستقراطية القوية التى حالت دون نشوء أى سلطة مركزية قوية[٢] .

وقد كثر كلام الباحثين والمؤرخين حول شخصية « ملكة سبأ » التى ورد أمرها فى القرآن الكريم والتوراة ، وهل كانت هذه الشخصية هى نفس بلقيس ابنة شرحبيل كما تقول ذلك المصادر العربية ، أم لم تكن ؟ حدثتنا الكتب المقدسة أن ملكة سبأ قد سمعت عن سليمان الحكيم الجالس على عرش أورشليم ، فأتت من بلادها إلى عاصمة ذلك العاهل العظيم فى قافلة محملة من الطيب والذهب والحجارة الكريمة ، مالا يقع تحت حصر أو يحيط به وصف ، وبعد أن أتمت زيارتها عادت إلى بلادها حاملة أطيب الذكريات . ويرى بعضهم أن تلك الزيارة قد أوحت إلى سليمان « بنشيد الأناشيد »[٣] . وأكب المؤرخون على دراسة أحاديث الكتب المقدسة عن زيارة ملكة سبأ لملك أورشليم ، على أمل أن يمزقوا الستار عن شخصية هذه الملكة .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٣٧ .

(٢) Brochelmann : History of the Islamic Peoples, p. 3.

(٣) راجع « نشيد الأناشيد » فى التوراة .

يظن بعض المؤرخين أن المرأة التى اتصلت بأعظم شخصية عرفها العالم وقتذاك كانت حبشية الجنس ، وأنها قد أتت من جنوب جزيرة العرب . ويذهب بعض المؤرخين مثل « جلازر » و « شريدر » وغيرهم إلى أن الملك سليمان دعا ملكة سبأ للإقامة مدة من الزمن فى مكان ما من هضاب أروم ، لمشاهدة عمال الملك يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة هناك . ولم يتفق علماء الغرب على نسب بلقيس(١) ، التى رأوا أنها الملكة العربية المعاصرة لسليمان الحكيم . غير أن الأب أنستاس الكرملى يرى « أن المحققين من أبناء العصر قد أثبتوا أن بلقيس لم تكن أبداً فى عهد سليمان الحكيم » (٢) ، ولم يتعرض القرآن الكريم لإسمها ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشر إلى إسمها أو نسبها ، فاعتبرها المفسرون «بلقيس ابنة شرحبيل » (٣) ، ولم يفرقوا بينها وبين شخصية ملكة سبأ المعاصرة لسليمان . وهذه الملكة كانت من أشهر ملوك سبأ ، بل من أشهر ملوك الجاهلية أيضاً .

ومن أهم الأعمال التى تقترن بتاريخها ، أن بعض علماء الآثار نسبوا سدود عدن إليها ، إذ أن ملكة سبأ قد راقتها عدن على ما فيها من وحشة وجفاء ، فشاءت أن تعيد إليها الحياة ، ولذلك أمرت بصنع سدود هائلة لا يزال علماء

---

(١) فؤاد افرام البستانى : عدن الفردوس الغابر . بحث مستخرج من مجلة الشرق الكاثوليكية سنة ١٩٤٠ .

(٢) راجع وصف هذه السدود فى ، أمين الريحانى : ملوك العرب ج ١ ص ٣٤٤ (الطبعة الثانية) .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 18.

الآثار يحاولون تأريخها علميا فتضطرب تقديراتهم على مدة ألف سنة ما بين القرن الخامس عشر والقرن الخامس قبل الميلاد ، ولا يتفقون إلا على الإعجاب بها ، إعجابهم بأثر من أروع الآثار الهندسية فى العالم[١] . وكانت تلك السدود تقع فى مضيق منحدر ، فتستند إلى الجبلين محفوراً بعضها فى الصخور ، وتتدرج هابطة الواحد تحت الثانى ، حتى إذا امتلأ الحوض الأعلى صب فضله فى التالى ، وهكذا حتى الخزان الأخير القائم فى سفح الجبلين[٢] .

أما عن سقوط دولة سبأ ، فقد نسبه مؤرخو العرب إلى حادث تصدع سد مأرب ، الذى يقول عنه نيكلسون « إنه يؤرخ فترة من تاريخ بلاد العرب الجنوبية » (٣) ، ولا جدال فى أن سد مأرب كان من أهم مرافق حياتهم الزراعية ، واستطاعوا بواسطته أن يتغلبوا على صعوبة الرى الدائم الذى تحتاج إليه التربة اليمنية (٤) ، ومن ثم أصبح هذا السد من أهم أسباب رخائهم وتقدم بلادهم . ولقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن إنكسار سد مأرب كان فى حد ذاته نتيجه إهمال من جانب أمه آخذه فى الانحطاط ، وأن الخراب الذى حل بسبأ لابد أن يكون قد حدث تدريجيا قبل انهيار السد بزمن طويل ، ومن ثم هاجر عدد كبير من أهل هذه البلاد إلى الجهات

---

(١) جاء فى الموسوعة الإسلامية مادة « بلقيس » أن اسم هذه الملكة عرف عن نوقليس Naukalis الذى أطلقه يوسفوس على ملكته ، ملكة سبأ ، التى كانت فى اعتباره حاكمة على مصر واثيوبيا .

(٢) الهمدانى : الإكليل جـ ٨ ص ٢٤٣ راجع تعليقات الأب الكرملى .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 16.

(٤) Gustave : La Civilisation des Arabes, p. 6.

الشماليه والشرقيه من جزيرة العرب (١) . ومما لاريب فيه أن انكسار السد حادث تاريخى لا يتطرق الشك إلى حدوثه ، كما أن علماء الآثار وبعض المنقبين فى خرائب بلاد العرب الجنوبيه — وعلى رأسهم جلازر — قد أثبتوا أن حادث السد قد وقع فعلا ، ولـكنه لم يحدث مره واحدة بل حدث عدة مرات متعاقبه .

على أن بعض المؤرخين الأوربيين ذهب إلى أن السبب فى إختفاء السبئيين من الجزيرة العربية ، إنما يرجع إلى ما أصاب بلادهم من الضعف التجارى بين القرن الثالث والرابع قبل الميلاد ، على أثر النشاط التجارى الذى قام به الرومانيون فى البحر الأحمر .

٣ — مملكة حمير :

لما سقطت الدولة السبئية ، وتلاشت مدينة مأرب عاصمة ملكهم صارت السلطه ببلاد اليمن متفرقة فى أيدى من بقى فيها من الحكام أو الأمراء الأقوياء . وكان لـكل قصر من قصور اليمن حاكم مستقبل يعرف بإضافه اسم قصره إليه ، فيقال « ذو ريدان » أى حاكم ريدان ، و « ذو ناعط » و « ذو ظفار » وهكذا . وكان القصر وقتئذ كالحصن أو القلعه يقيم فيه صاحبه مستقلا بشؤونه ، كما عرف أصحاب تلك القصور بلفظ « الأذواء » (٢) .

ومن أشهر القصور التى وصلت إلينا أسماؤها ، وبالغ شعراء العرب

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٨ .
(٢) البتانونى : الرحلة الحجازية ص ١٥ .

ومؤرخوهم فى وصفها : قصر ناعط وقصر سلحين(١) وقصر غمدان الذى وصفه الهمدانى يقوله إنه أول قصور اليمن وأعجبها ذكرا وأبعدها صيتا ، وكان عشرين سقفا غرفا بعضها على بعض . . . وكان فيما بين كل سقفين عشرة أذرع ».(٢) أما ياقوت فقد ذكر أن غمدان كان سبعة سقوف بين كل سقفين منها أربعون ذراعا (٣) وهو أقرب إلى الحقيقة من وصف الهمدانى .

كان القوى من أذواء اليمن يتغلب على بعض البلاد التى فى جواره ويكون له الحكم فيها ، وعندئذ يسمى مجموع مملكته محفدا وهو قيلا . وإذا ما اجتمعت عدة محافد مع ما يلحقها من القرى والمزارع فى حكم شخص واحد ، سميت مخلافا وحاكمها ملكا . ولقد استطاع صاحب ريدان — التى عرفت فيما بعد باسم ظفار — فى نهاية القرن الأول قبل الميلاد أن يتغلب على جملة مخاليف ويضمها إلى مخلافه ، وعندئذ تكونت دولة حمير وظهرت إلى عالم الوجود ، ومازال خلفاؤه يعملون على توسيع تلك الدولة حتى استطاع الملك « شمر يرعش » أن يضم إليها حضرموت وماوالاها من البلاد شرقا فى نهاية القرن الثالث الميلادى (٤) .

---

(١) كان سلحين بمأرب وهو قصر بلقيس . الهمدانى : الإكليل ج ٨ ص ٥٩ . وقد ضبط اللغويون سلحين بفتح السين . وقال الهمدانى فى كتابه : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٣ إن سلحين من مشاهير محافد اليمن ، وضبط الكلمة بفتح السين وكسرها معا . ويرى الأب أنستاس الكرملى أنه ضبطها بالكسر ليلحقها بالأوزان العربية ، وضبطها بالفتح إبقاء لها على أصلها الحميرى .

(٢) الهمدانى : الإكليل ج ٨ ص ١٥ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان .

(٤) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٦ .

كانت دولة حمير تقع بين سبأ والبحر الأحمر وقد حلت محل قتبان التى ظهرت قبلها والتى كانت تشغل أقصى الركن الجنوبى الغربى من بلاد العرب(١). ولم تلبث حمير أن استوعبت سبأ وريدان ، وأصبح لقب كبيرهم « ملك سبأ وريدان » ، وظهرت حمير سـنة ١١٥ ق م واستمرت حتى سنة ٣٠٠ م(٢).

ويقسم حكم حمير إلى طورين أوعصرين : فقد عرف ملوك العصر الأول باسم « ملوك سبأ وريدان » ، أما ملوك العصر الثانى الذين تغلبوا على حضرموت وضموها إلى ملكهم فقد عرفوا باسم التبابعة أو ملوك سبأ وريدان وحضرموت . وقيل إن لفظ « تُبع » لا يطلق إلا على كل من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت(٣) ، وليس معنى ذلك أن التبابعة قد اقتصروا فى فتوحهم على جنوب الجزيرة العربية ، بل امتد ملكهم إلى بلاد الحجاز واليمامة ومابينهما من قبائل العرب العدنانية ، بغض النظر عن تلك الفتوحات الخرافية فى إفريقية وآسيا التى ورد ذكرها فى بعض المصادر . وكان التبابعة يقيمون على العرب حكاما منهم يسمونهم ملوكا(٤) ، وأصبح الحميريون تحت حكم ملوكهم المعروفين بالتبابعة ، قوة يرهب جانبها فى الجنوب من بلاد العرب ، كما ظل نفوذهم — ولو ظاهريا — على القبائل الشمالية حتى القرن الخامس بعد الميلاد ، عند ماثاروا بزعامة كليب بن ربيعة وأزالوا قوة اليمن المسيطرة عليهم(٥) .

---

(١) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhammad, p. 96.

(٢) Hitti, ph : History of the Arabs, p. 55.

(٣) ابن كثير القرشى : البداية والنهاية ج ٢ ص١٥٩ ، السهيلى : الروض الأنف ج١ ص١٥ .

(٤) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١٧ .

(٥) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 5. =

أما تبَّع الأول الذى أطلق لقبه على من خلفه من ملوك حمير ، فهو الحارث الرائش الذى سمى بذلك لأنه زين بيوت قومه بالغنائم والأسلاب مما جلبه معه من الهند وأذربيجان(١)، وقد جمع الحارث كل سلطة بيده وتغلب على حضرموت ومهرة وعمان(٢)، « وافتتحت جيوش الحارث الهند والسند وأرض بابل وخراسان والشام والمشرق »(٣).

خلف الحارث ابنه الصعب ذو القرنين ، وهو من أشهر ملوك التبابعة وأبعدهم صيتا ، ونسب إليه الكثير من الفتوحات العظيمة فى الشرق والغرب ، مما يصعب معه التأكد من صحتها . وروى أبو محمد بن هشام عن وهب بن منبه(٤) أن عرشه كان من ذهب صامت مرصع بالدر والياقوت والزمرد والزبرجد(٥) . ويرى نيكلسون أن الصعب شخصية خرافية ، خلط نسابة العرب بينها وبين ذى القرنين المجيب الوارد نبؤه فى القرآن والذى يعتبره غالبية المفسرين نفس الإسكندر الأكبر ، وأن ذا القرنين إنما يقصد به الإلهة السبئية عشتر التى تمثل نجمة الصباح الجميلة

= يرى المستشرق نولدكه فى « المعلقات الخمس » ص ٤٤ من الجزء الأول Fünf Mo'allaqat. Vol 1. p. 44. أن الأخبار العربية التى تمثل كليبا قائدا لفرسان ربيعة فى نزال قوى اليمن لا تمت إلى التاريخ بصلة .

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p.61.

(٢) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, Vol.I. p. 36.

(٣) الهمدانى : الإكليل ج ٨ ص ٢٨٧ نشر الأب الكرملى .

(٤) كان وهب من علماء التابعين وهو من الأبناء ــ أبناء فارس المبعوثين مع سيف ابن ذى يزن لقتال الحبشة فى اليمن ، فهو على الأرجح فارسى الأصل وهو صاحب كتاب « التيجان » الذى رواه أبو محمد عبد الملك بن هشام .

(٥) وهب بن منبه: التيجان فى ملوك حمير، ص ٨١.

وأن « ذا القرنين وبلقيس » ، ما هما إلا إلهان وثنيان من الآلهة الوثنية التي ظلت قائمة في العهد الإسلامي بعد أن تنكرت بأسماء مختلفة (١) .

وهناك رأي آخر ، ذكره الأستاذ حبيب الله المقدسي ، حول « إسكندر ذي القرنين والقرآن » ، قال : « لفت نظري أثناء قراءتي قصة إسكندر ، بضع صفحات أذكرتني بما ورد في سورة الكهف ، الآيات ٥٩ - ٩٨ ، عن إسكندر ذي القرنين وعن موسى وفتاه ، فقابلتهما على بعضهما فإذا بينهما قرابة ظاهرة ، بل اتفاق غريب يكاد يكون في بعض السطور حرفيا مع اختلاف بيّن في تفاصيل القصة ، مصدره على ما أرى أن صاحب القرآن (كذا) لم يأخذ روايته عن إسكندر عن الأصل اليوناني تواً ، أو عن أقدم تراجم هذه القصة ، وهي ولا شك الترجمة السريانية التي شاعت ... بل أخذ إما عن أحد الرواة الذين تعرف عليهم صاحب الشريعة الإسلامية في أحد الأديرة ، أو في تلك المدن التي كان ينزل عندها أو يمر بها في رحلتي الشتاء والصيف ، أو في مكة نفسها وهو الأرجح لأنه قد عرف عن محمد بن عبد الله أنه كان يتردد ، بُكرة وأصيلا ، على شخص أو أشخاص يسمع منهم أساطير الأولين وقصص أبطال فارس واليونان ، وأن هؤلاء الأشخاص أو ذلك الشخص كانوا من الأعاجم بشهادة محمد نفسه (كذا) (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) » (٢)

---

(١) Nicholson : Literay History of the Arabs, pp. 17—18.

(٢) حبيب الله المقدسي : قصة إسكندر ذي القرنين والقرآن . بحث مستخرج من مجلة المشرق سنة ١٩٣٧ ص ٨ - ١٢

على أنه من المعروف عند المؤرخين والباحثين أن المقصود بذى القرنين الواردة قصته فى القرآن الكريم ليس الإسكندر الأكبر المقدونى، بل هو شخصية عربية صرفة لعبت دوراً هاما فى تاريخ بلاد العرب الجنوبية . أما القول بأن صاحب الشريعة الإسلامية قد أخذ رواياته عمن تعرف عليهم فى الأديرة أو المدن التى كان ينزل عندها أو يمر بها ، فهو بعيد عن الصواب . وقد نسب بعض الإخباريين الكثير من الأخبار إلى ذى القرنين العربى ، وهى فى الحقيقة من أخبار ذى القرنين اليونانى ، وإن كان ذلك لا يعنى أن المقصود بذى القرنين فى القرآن هو الإسكندر الأكبر(١) .

ومن أشهر ملوك حمير «شمر يرعش» بن مالك ناشر النعم ، الذى غزا العراق وفارس وخراسان وبلاد الصين ، وخرّب مدينة الصغد فى بلاد ما وراء النهر وسميت «شمر قند» بلغة العجم أى شمر خربها ، فعربتها العرب إلى سمر قند(٢) بعد أن بناها ثانيه . وروى أبو محمد عبد الملك بن هشام أن «شمر يرعش» جعل على فارس ألف درع يؤدونها كل عام ، وجعل على

---

(١) جاء إسم ذى القرنين فى العربية لعدة رجال منهم تبع الأقرن (شمس العلوم ص١٩) وهو والد تبع الأكبر ، وقال نشوان فى مادة صعب من شمسه ص ٦١ : الصعب إسم ذى القرنين السيار ، ويقول عبيد بن شرية ص ٤٣٣ من أخباره : تبع الأقرن وهو ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم وسمى الأقرن وذا القرنين لشيب كان فيه وهو على قرنيه «أى ذؤابتيه» راجع تعليقات الأب الكرملى ناشر كتاب الإكليل للهمدانى ج ٨ ص ٢٣٢،٢٢٢ .

(٢) خلاصة السيرة الجامعة لعجائب ملوك التبابعة ص ٧٠ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٢٩٧ ، أخبار عبيد بن شرية ص ٤٣٢ ، التيجان فى ملوك حمير لوهب بن منبه ص٢٢٧ طبع الدكن سنة ١٣٤٧ هـ .

الروم ألف درع أيضا وكذلك على كل من أهل بابل والبحرين وعمان وأهل اليمن ألف درع »(١) . ويظهر أن مرجع هذه المبالغات التى بالغها اليمنيون ، هو التنافس بينهن وبين العدنانيين الذى استمر حتى صدر الإسلام ، ولما كان النبي العربي الجديد من العدنانيين ، اضطر اليمنيون إلى مطاولتهم بذكر فتوحاتهم القديمة وبالغوا فيها مبالغة كبيرة ، ووضعوا أسفاراً وفتوحات ليس لها ظل من الحقيقة .

وكانت حمير دولة حربية بخلاف سبأ التى اهتمت بمصالحها التجارية ، كما كان موقع حمير البحرى من أسباب سقوطها فى يد الأحباش ، بعد أن ضعفت قوتها الحربية وأصبحت عرضة لغارات الأحباش الذين تم لهم النصر على آخر حكام اليمن وأصبحوا سادة البلاد الحقيقيين .

الغزو الأجنبي لجنوب بلاد العرب

إن بلاد العرب بما فيها بلاد الحِجر العربية بموقعها الجغرافى الممتاز بين الشرق والغرب ، كانت مطمعاً لكل من يستولى على مصر أو العراق ، وفتنت ملوك نينوى Ninive وبابل Babylone . غير أن العرب قاوموا هؤلاء الأعداء ، ونجحوا فى ذلك نجاحا كبيراً ، وحررت كتائبهم العبريين من ربقة الآشوريين أكثر من مرة(٢) .

---

(١) الهمدانى : الإكليل جـ ٨ ص ٢٥٥ — ٢٥٧

(٢) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome 1. p.25.

ولما غزا الإسكندر بابل وتقدم إلى ماوراء نهر السند ، شعر بأهمية الجزيرة العربية من الوجهة الإستراتيجية ، لذلك رأى أن فتح تلك الجزيرة سيتم انتصاراته ويجعله سيد آسيا الغربية ، بيد أن الموت الذى عاجله ، حرمه من تنفيذ ذلك المشروع وأنقذ جزيرة العرب من الوقوع فى قبضته .

وعند ماقُسمت إمبراطورية الإسكندر ، أصبحت البقاع القريبة من حدود مصر وفلسطين والتى كان العرب يسكنونها من نصيب بطلميوس[١] . وقد شايع الأنباط بطلميوس على أنتيجون Antigone الذى فتح أحد قواده بلاد الحجر العربية ، بيد أن الأنباط أبادوا بعدئذ جيش أنتيجون المؤلف من ٤٦٠٠ جندى ، فأرسل إليهم جيشاً آخر بقيادة ديمتريوس Démétrius ولكنه لم يظفر ـ مثل أنتيجون تماما ـ بأى نجاح فيماقام به من محاولات ضد بلاد الحجر العربية(٢) .

وقد بقيت الجزيرة العربية طوال العصر الجاهلى بعيدة عن أيدى الغزاة ، وبدأ العالم الخارجى يمد بصره نحو تلك الأصقاع فى الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد فى عهد العاهل الرومانى أغسطس Augustus ، الذى فكر فى مد أطراف الإمبراطورية الرومانية منذ أن أصبحت مصر خاضعة لنفوذه ، وذلك بالاستيلاء على كل من شبه جزيرة العرب وإثيوبيا ، لأنه كان يظن أن الأولى تنتج التوابل والثانية الذهب (٣) . وعلى هذا الأساس ساق

---

(١) Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, p. 64.
(٢) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, 1, pp. 26-27.
(٣) Playfair, R.L. : History of Arabia Felix, p. 45.

أغسطس جيشا رومانيا تحت قيادة أيلوس جالوس Aelius Gallus حوالى عام ٢٤ ق . م(١) ليرتاد هذين القطرين الغنيين ، وكان غرضه من هذه الحملة أن يعقد العهود مع العرب أو يغزوهم إذا ماجرأوا على الوقوف فى وجه التوسيع الرومانى (٢) .

وبعد مسير ستة أشهر ، أستطاع الجيش الرومانى أن يصل إلى أقصى جنوب شبه الجزيرة بفضل إرشاد دليل من الأنباط ، ولكن شمس الجزيرة المحرقة ومياه الآبار التى لم يتعود عليها الرومان ، كانت من العوامل التى أحبطت المشروع الرومانى وقضت عليه ، إذ سرعان ماضعفت قوة الرومان تحت وطأة الأمراض التى حلت بهم ، ولم يستطيع أيلوس جالوس أن يغزو العرب ، وفشل فى مهمته واضطر إلى العودة مسرعا .

وإذا كانت حملة جالوس قد فشلت من الناحية الحربية فقد كانت لها نتائج أبعد مدى من ذلك ، إذ أنها استطاعت أن تمد العالم المتحضر بمعلومات جديدة عن الجزيرة العربية ، لأن جالوس قائد الحملة قد اصطحب معه صديقه الحميم سترابون Strabon (٣) ، ولما عاد هذا الكاتب المشهور إلى مصر استطاع أن يصف جزيرة العرب وصفاً دقيقاً وأن يصور البيئة العربية

---

(١) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome 1.p.28.

(٢) Arthur Gilman : History of the Saracens, p. 26

(٣) هناك من المؤرخين من يرى أن سترابون لم يذهب إلى جزيرة العرب ، وإنما جمع معلوماته هذه من قصص التجار والمغامرين ، وممن سبقه من كتاب الإغريق ، ويبين استرابون فى هذا الفصل الذى كتبه عن جزيرة العرب أن الماء ينقصها فى جميع أجزائها ، ولعله قصد بذلك أن يبرر إخفاق جالوس أمام قبائل العرب لأنه كان صديقه على ما يقال . راجع
Kiernan : The Unveiling of Arabia, p. 28.

تصويراً شيقاً ، فى الفصل السادس عشر من كتاب هـذا الجغرافى العظيم .

نجـا جنوب جزيرة العرب من الغزو الرومانى الذى لم تستطع بلاد الحجر العربية أن تسلم منه ، فضمت إلى الإمبراطورية الرومانية فى عهد تيبريوس Tiberius ، وأضحت بذلك بلدة رومانية زاهية كما تدل بقاياها (١) .

ولامراء فى أن التنافس الإستعمارى الذى نشأ بين الدولة الساسانية فى فارس والدولة الرومانية الشرقية ، قدظهر أثره فى جنوب بلاد العرب ، وإن ظهر بمظهر الصراع الدينى . فلقد عمد ملوك الدولة الرومانية الشرقية ـ فى سبيل تنفيذ غرضهم السياسى وهو الاستيلاء على ذلك الجزء الجنوبى من جزيرة العرب لما له من موقع ممتاز ـ إلى إرسال وفود من الرهبان إلى تلك البلاد وأمروهم أن يبثوا التعاليم المسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة ، ويمهدوا الأفكار والنفوس لقبول التسلط السياسى الرومانى من جهة أخرى ، كما أنهم استطاعوا أن يجعلوا من الحبشة المواجهة لبلاد اليمن ولاية رومانية مسيحية .

ولقد تنبه ملوك حمير لحيل الرومان وأدركوا مايتعرض له كيانهم السياسى من الخطر الشديد بسببها ، فنشطوا لإحباطها وفكروا فى أمضى الأسلحة التى تمكنهم من القضاء عليها ، فهداهم فكرهم إلى أن يعتنقوا الديانة اليهودية ليقاوموا دينا توحيدياً بدين توحيدى آخر (٢) . كما أن الفرس قد أيقنوا أن الرومان يرمون من وراء نشر المسيحية فى بلاد اليمن إلى غرض سياسى ، فوجهوا عنايتهم إلى تشجيع ملوك حمير على اعتناق الديانة اليهودية .

---

(١) Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, p. 65.

(٢) الدكتور إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص٣٦ .

ولا جدال فى أن اليهودية قد كسبت بعض النفوذ فى دولة حمير ، كما أن الدعاية الرومانية قد أثمرت فيها ، فأصبح فى نجران جالية نصرانية قوية استطاعت أن تثبت للخطوب حتى ظهور الإسلام(١) .

وقد قيل إن أول من تهود من حمير هو الملك تبان أسعد أبو كرب الذى كان كثير الغزوات والحروب ، وإنه غزا أذربيجان وهزم ملك الفرس وعمل بقول حبرين يهوديين من قريظة فطاف بالبيت العتيق بمكة بعد عودته من إحدى غزواته . ولقد أحس زعماء حمير أن الحملات الحربية التى ساقها الملك أسعد أبو كرب ، إنما هى عبء ثقيل عليهم ، فدبروا مؤامرة لقتله وتولية أخيه عمرو مكانه . فامتنع عمرو أول الأمر وأبى الخضوع لرؤساء حمير ، غير أنهم استطاعوا التغلب عليه فطعن تبع بيده ، وخلف أخاه على الحكم وهو آخر ملوك التبابعة(٢) .

وكان الملوك الذين خلفوا عمرا على اليمن ، يختارهم ثمانية أذواء يقال لهم « المثامنة » . وفى عهدهم غزا الأحباش بعض أجزاء مملكة حمير وأرسل النجاشى ولاته المسيحيين ليحكموا باسمه ، حتى قام أخيراً ذو نواس وهو من سلالة تبع أسعد ، وطرد الأشراف الثائرين ، وأصبح حاكما لليمن . وكان يهودياً متعصباً ، فعقد عزمه على أن يستأصل النصرانية من نجران ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة ممن دخلوا فى دينه أفواجا وهناك احتفر عدة أخاديد فى الأرض وملأها ناراً ، فمن تابعه على دينه خلى عنه ، ومن أقام على النصرانية قذفه فيها(٣) .

---

(١) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 3.
(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 19-25.
(٣) وهب بن منبه : التيجان فى ملوك حمير ص ٣٠١

غير أن ذا نواس دفع ثمن نصره غاليا ، فقد هرب رجل يقال له ذو ثعلبان إلى إمبراطور الروم ، وأخبره بما فعل ذو نواس بأهل دينه . وعندئذ كتب الإمبراطور جستين Justinus رسالة إلى نجاشي الحبشة يطلب منه غزو اليمن وإنقاذ المسيحيين . لذلك أرسل النجاشي سبعين ألفاً من الأحباش تحت قيادة أرياط لغزو بلاد اليمن التي كان يتوق إلى فتحها منذ زمن بعيد ، فلم يستطع ذو نواس أن يعتمد على أشراف حمير ، وانتهى الأمر بخذلانه ، ووقوع اليمن في قبضة الأحباش . وأصبح أرياط حاكما حبشيا على اليمن من قبل النجاشي بعد موت ذي نواس .

قامت المنافسة بين ذى نواس وبين أبرهة أحد قواد الأحباش ، ولم يلبث أن قتل أرياط وخلفه أبرهة على اليمن . وفي هذه المعركة التي قامت بين القائدين جرح أبرهة ، وشقت شفته ، ولذلك قيل له « أبرهة الأشرم » ، وما لبث أن أطلق على نفسه « الأمير التابع لملك الحبشة ملك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات وعرب النجاد وعرب السواحل »[1] ، مما يدلنا غاية الدولة على أن الأحباش قد سيطروا تماما على أهم جهات جنوب جزيرة العرب .

عزم أبرهة والى الحبشة على اليمن على أن يصرف الحجاج العرب عن الكعبة إليه ، فكتب إلى قيصر الروم يخبره بما اعتزمه ، وأنه يريد بناء كنيسة في صنعاء . فأرسل إليه القيصر الصناع وأمده بكل ما يحتاج إليه في

---

(١) بول Buhl: الموسوعة الإسلامية مادة Abraha

هذا البناء ، ولما تم بناء الكنيسة كتب أبرهة إلى النجاشى أنه يريد أن يحول تجارة قريش إلى صنعاء ، بعد أن بنى بها القليس[١] وأعدها لحج العرب ، ولما سمع بذلك رجل من النسأة[٢] من كنانة ، أتى القليس ولطخها بالأقذار ، فغضب أبرهة وأقسم ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه[٣] . وعد تدنيس كنيسة صنعاء فى نظر بعض المؤرخين هو سبب حملة أبرهة على مكة ، وقد يكون كما يقول نيكلسون « سبباً يتخذه أبرهة لغزو مكة ، وإن كان يريد من غير شك الاستيلاء على مكة والإفادة بما تدره تجارتها »[٤] .

على أنه يمكن القول أنه لم يكن من السهولة بمكان تحويل العرب عن الكعبة - التى يشتركون جميعا فى تقديسها - إلى كنيسة جديدة فى صنعاء وإن أسرف أبرهة فى تزيينها بالرخام والفسيفساء ، فالعرب لا يخرجون من دين إلى دين آخر ولا يتحولون من عبادتهم إلى عبادة أخرى بمثل هذه السهولة . ثم أن تجارة قريش وما تدره على القرشيين من أرباح لم يكن مصدرها وجود الكعبة فى بلدهم فقط ، وإنما يرجع ذلك إلى وقوع مكة على الطريق

---

(١) القليس : هى الكنيسة التى بناها أبرهة فى صنعاء ، وهو لفظ أخذه العرب عن الروم ثم حرف فيما بعد إلى « كنيسة » . ويظن بعضهم أن القليس لفظ عربى مبنى ومعنى. يقول عبد الرحمن بن محمد « سميت القليس لارتفاع بنيانها وعلوها ، ومنه القلانس لأنها فى أعلا الرؤوس » . معجم البلدان : مادة « قليس »

(٢) النسأة : هم الذين كانوا ينسؤون الشهور على العرب فى الجاهلية ، فيحلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل .

(٣) ابن هشام : السيرة ص ٢٩

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 66.

التجارى بين اليمن وبلاد الحجر العربية ، وهذا الموقع الفريد الذى منحته لها الطبيعة لم يكن من اليسير على أبرهة أن يتحكم فيه ، خاصة إذا علمنا أن مكة تقع فى منتصف الطريق تقريباً بين الشمال والجنوب ، وأصبحت بذلك محطة تجارية طبيعية للقوافل المارة فى هذا الاتجاه .

ويمكن اعتبار هذه الحملة محاولة من محاولات الدولة الرومانية الشرقية الاستيلاء على بلاد العرب ، بعد أن فشلت بيزنطة فى نشر دينها فى جنوب جزيرة العرب ، إذ ليس ببعيد أن تكون بيزنطة قد كلفت أبرهة القيام بهذه الحملة ، بعد أن ثبت أنها كانت ترسل تجارها إلى مكة للتجسس على أحوال العرب . ولقد أثبتت نقوش سد مأرب أن الدولتين المتنافستين : بيزنطة وفارس قد أرسلتا وفودهما إلى مأرب ، لمحاولة كسب أبرهة إلى جانب كل منهما . ولما شبت الحرب بين هاتين الدولتين سنة ٥٤٠ م ، لم يشترك أبرهة فيها أول الأمر ، رغم ما بذله إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من جهد فى سبيل كسبه إلى جانبه .

ولم يلبث أبرهة أن حارب الفرس بجانب الروم ، ولكنه سرعان ما ترك الحرب ، يقول بول Buhl : « نستطيع أن نجد صلة بين هذه الحرب التى لا يمكن أن تكون قد حدثت قبل عام ٥٧٠ م ، وبين تلك القصص العربية التى تعتمد على القرآن ، والتى تشير إلى حملة أبرهة الفاشلة على مكة والكعبة »(١)

---

(١) بول Buhl: الموسوعة الإسلامية ، مادة « أبرهة » Abraha

جرد أبرهة جيشاً عظيما من الأحباش سير أمامه الفيلة ، ويمم شطر الكعبة لهدمها ، ولما اقترب من مكة عسكر فى مكان يقال له المغمس (١) . ثم بعث أبرهة إلى مكة رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود ، فلما وصل إليها ، ساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم بقتاله ، غير أنهم رأوا أن لا طاقة لهم به ، فعدلوا عن قتاله . ثم بعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة ليسأل عن سيدها وشريفها ويخبره بأن أبرهة لم يأت إلا لهدم البيت وليس لحرب أهل مكة، فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش فقيل له عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فجاءه وقال له ما أمر به، فقال له عبد المطلب : «والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله ابراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه ، فوالله ما عندنا دفع عنه»(٢)، وعندئذ أمره حناطة بالانطلاق معه إلى الملك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ، ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ، ففعل الترجمان ، فقال عبد المطلب : حاجتى أن يرد علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى ، فقال أبرهة لترجمانه «قل له كنت قد أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ ، فقال عبد المطلب : « إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه ، فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل

---

(١) المغمس : موضع على ثلثى فرسخ من مكة فى طريق الطائف .

(٢) ابن هشام : السيرة ص ٢٣ .

التى أصابها الأسود بن مقصود ، ولكن عبد المطلب لم يفلح فى رده عن غزو مكة فخرج حانقا حتى جاء إلى الكعبة ومعه جماعة من قريش ، فأنشد :

يارب لا أرجو لهم سواكا ... يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... إمنعهم أن يخربوا قراكا(١)

خذل أبرهة وهزم جيشه ، ومما لاشك فيه أن وباء الجدرى قد انتشر فى جيش أبرهة ، وفتك برجاله فتكا ذريعا ، حتى أن بعضهم يقول إنه لم ينج من هذا الجيش سوى أبرهة نفسه ورجل آخر من الأحباش عاد إلى اليمن وتحدث بما صنع الله بأصحاب الفيل . ويعرف عام هذا الحادث عند العرب بعام الفيل(٢) ، نسبة إلى الفيلة التى استخدمها أبرهة فى غزوته الفاشلة للكعبة .

توفى أبرهه بعد أن عاد إلى اليمن بقليل ، وخلفه ولداه : « يكسوم» ثم « مسروق » ، فاشتدت وطأتها على اليمن وعم أذاهما سائر الناس . فلجأ سيف بن ذى يزن الحميرى إلى قيصر الروم يستنجده على إخراج الأحباش من اليمن ، غير أنه لم يجبه إلى طلبه وقال له : أنتم يهود والحبشة نصارى ، وليس فى الديانة أن ينصر المخالف على الموافق (٣) . فاستنجد سيف بن

---

(١) ابن هشام : السيرة ص ١٩ــ٣٥

(٢) يرى كوسان دى برسفال Caussin de Perceval أن حادث الفيل وقع فى ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ م ، ويعتقد فرعان Freeman فى كتابه Lectures on the Saracens أن سنة ٥٦٩ م هى عام الفيل ، بينما يرى بالمر Palmer أن حادث الفيل وقع فى ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ م ومع ذلك فهو يرى أن عام الفيل غير مؤكد تماما .

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٧ .

ذى يزن بالمنذر بن ماء السماء ، وطلب منه أن يقدمه إلى كسرى أنوشروان ، فلما قابله فى بلاطه طلب منه مساعدته على استرداد بلاده ، فوعده أنوشروان بالنصرة على الأحباش ، ثم صرفه بعد أن أعطاه عشرة آلاف درهم فارسى ، غير أن سيف بن ذى يزن رمى الدراهم التى أخذها من كسرى للخدم ، فلما علم بذلك كسرى ، غضب وأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه قال له : عمدت إلى حباء الملك الذى حباك به تنثره للناس، فأجابه سيف بن ذى يزن : ماأصنع بالذى أعطانى الملك ، ماجبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة ؟. فلما سمع ذلك كسرى طمع فى بلاد اليمن، فأرسل معه جيشاً فارسيا من المساجين تحت قيادة وهرز الديلمى ، الذى وصف بأنه قد بلغ من الكبر عتيا .

تمكن عرب الجنوب بالاتحاد مع الفرس تحت قيادة وهرز من إجلاء الأحباش إلى حين ، وتنصيب سيف بن ذى يزن ملكا عليهم . وفرض كسرى على ابن ذى يزن جزية وخراجا يؤديه إليه كل عام ، وبعد رحيل جيوش الفرس قتل سيف بيد أحد الأحباش ، فلما سمع بذلك كسرى أرسل جيشا ثانيا بقيادة وهرز ، فتلاشت مقاومة الأحباش تماما ، وغدت اليمن إمارة فارسية ، تعاقب على حكمها أولاد وهرز الديلمى من قِبل كسرى ، ثم انتقل حكم اليمن إلى باذان وهو آخر وال فارسى على اليمن ، وقد عاش إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم واعتنق الإسلام ، واعترف بسيادة النبى عليه[١] . ولم تلبث أن شبت القلاقل فى اليمن بعد ذلك وانتشرت بها الفوضى سريعا، ولم يستتب النظام إلا فى عهد أبى بكر .

---

(١) Zettersteen: الموسوعة الإسلامية مادة « الأبناء »

الممالك العربية على التخوم

فى حوالى منتصف القرن الثالث المسيحى ، كانت بلاد العرب تقع بين أعظم إمبراطوريتين فى ذلك الحين : هما الإمبراطورية الفارسية فى الشرق والإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، اللتان تفصلهما صحراء الشام بعضهما عن بعض .

وكانت الإمبراطوريتان المتنافستان عرضة لغزوات البدو الذين كانوا يشنون الغارات على حدودهما بين حين وآخر ، فيستولون على مايصل إلى أيديهم من الغنائم ، ثم يختفون فى الأغوار المتعددة وراء الكثبان المتشابهة بنفس السرعه التى اتسمت بها غاراتهم ، ثم لا يلبثون أن يظهروا مجتاحين تلك الحدود ، مدافعين عن حريتهم التالدة .

ولقد حاول الفرس والروم أن يغزوا الجزيرة العربية ، ولكنهم كانوا يعدلون عن هذا المشروع ، لما يستلزمه من ضحايا فى الأنفس والأموال . وعندئذ رأت فارس أن الضرورة تدعوها إلى إيجاد حامية على حدودها المقابلة للصحراء ، فنجح هـــذا المشروع مؤقتا وصدت غزوات القبائل البدوية وغاراتها(١) .

ولم تكن صحراء الشام التى تفصل بين هاتين الإمبراطوريتين من الامتداد حتى تكون مساحة مقفرة تفصل بين أراضيهما . ولطالما سعى الرومان إلى تأمين حدودهم بخلق مساحات مقفرة تفصل بلادهم عن بلاد أعدائهم ، فاكتسحوا الأراضى على شاطىء الرين وأجلوا البرابرة من السكان على طول المناطق المحتلة حتى يكونوا أراضى خالية ، إن تألبت فيها الجموع المنقضة رأتها العيون وشعرت بها الأرصاد .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 33.

وقد عمدت روما إلى تعزيز حدودها الشرقية وبسط نفوذها على الإمارات المتاخمة لهذه الحدود .

أما فارس فقد شعرت بأهمية غرض روما الذى كانت هى نفسها تهدف إليه على الفرات الأعلى ، فرأت إدخال بعض القبائل المغيرة فى خدمة الإمبراطورية ودفع شىء من المال بانتظام ، فتضبط نزعاتهم وتأمن خطر الغزو المفاجىء من جانب روما . وبهذه الوسيلة تكوّنت إمارة الحيرة على تخوم فارس وإمارة الغساسنة على تخوم الروم ، وقد استطاعا أن يقفا فى وجه الأسد الفارسى بفضل معونة عرب غسان الأقوياء .

١ — امارة الحيرة :

تقع مدينة الحيرة فى جنوبى الكوفة على بعد ثلاثة أميال منها فى موضع يقال له النجف . ولقد اختلف العلماء فى معنى اسم الحيرة : فقيل إنها سميت الحيرة لأن تُبعاً الأكبر لما قصد خراسان خلّف بعض جنده بذلك الموضع وقال لهم : « حيروا به » أى أقيموا به[١] ، وقيل إنما سميت الحيرة لأن تبعا لما أقبل بجيوشه فبلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحير فسميت الحيرة ، ومنهم من ذهب إلى أنها من فعل « تحير الماء » إذا اجتمع وزاد[٢] ، ويرى بعضهم أنها من أصل أرامى بمعنى المعسكر والحصن ، بينما ذهبت طائفة إلى أنها من « الحير » العربى بمعنى الحمى والملجأ ، وقيل إن لفظ « الحيرة » العربى مأخوذ عن كلمة « حيرتا » السريانية التى أطلقت

---

(١) ياقوت : معجم البلدان .
(٢) خزانة الأدب ج ١ ص ٤٢٨ .

فى الأصل على معسكر عرب فارس المتنقل(١) . والحيرة الأرامية والحير العربى من أصل سامى واحد ، إذ أن المضرب والمعسكر والحى ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد(٢) .

سكن وادى الفراتين فى فجر التاريخ جيلان من الناس هما : الشمريون والأكديون ، ويبدو أن الشمريين كانوا من سكان المناطق الجبلية الشرقية ، الذين تقدموا الأكديين فى احتلال هذا الوادى الخصيب . ويقال إن وطن الأكديين الساميين كان بلاد العرب الوسطى التى كانت تصلح للعيش والحياة والسكنى فى هذه العصور(٣) ، والراجح أنهم هبطوا بابل من أطراف جزيرة العرب(٤) فاجتاحوا فى هجرتهم سواحل البلاد السورية ، وخلفوا فيها جماعات منهم عرفوا بعد ذلك بالأموريين . ولم تنقطع هجرات الأكديين الساميين على العراق ، بل ازداد عددها حتى قويت شوكتهم وثبت مقامهم ، وانتهى الأمر باندثار الشمريين والقضاء عليهم قضاء مبرما .

وقد اتصل سكان الجزيرة العربية بالعراق من أقدم عصوره ، سواء أكان هذا الاتصال عن طريق التجارة أو عن طريق الهجرة والارتحال . على أن أخبار العرب فى هذه البقاع لا تزال مغمورة فى ظلمات كثيفة من الغموض والإبهام ، ولا تخرج عن كونها أخباراً مبثوثة فى كتب الأدب والتاريخ .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p.38, Footnote I.

(٢) يوسف غنيمة : الحيرة ص ١١ .

(٣) King : History of Bobylon, pp. 116—120.

(٤) Johns : Ancient Babylonia, pp. 18—19.

وهناك جماعات من العرب نزلوا العراق منذ أقدم عصوره وانبثوا فى شماله ووسطه وجنوبه ، ولكن أسماء قبائلهم وبطونهم غير معروفة على وجه التحديد . على أن أول هجرة عربية محققة ، هى هجرة بنى معد بن عدنان ، الذين كانوا ينزلون تهامة من بلاد اليمن إلى البحرين ، التى سكنها قبلهم قبائل من الأزد ، وهناك « تحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعاقدوا على التناصر والتآزر ، فصاروا يداً على الناس وضمهم إسم التنوخ ، وكانوا بذلك الإسم كأنهم عمارة من العمائر وقبيلة من القبائل »(١) . وكان من أثر اجتماع هذه القبائل بالبحرين أيام ملوك الطوائف الذين ملّكهم الإسكندر ، أن تطلعت نفوس مَن كانوا فى البحرين من العرب إلى ريف العراق ، واغتنموا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف ، فأجمع رؤساؤهم على المسير إلى العراق ، ونزل كثير من تنوخ الأنبار والحيرة حتى الفرات ، فسموا عرب الضاحية (٢) . وكان أول من تملك على تنوخ العراق مالك بن فهم بن غَنْم بن دوس بن عدنان الأزدى(٣) وكان منزله مما يلى الأنبار(٤) واتخذ فى الحيرة قصراً وبستاناً ، وكان خليفته عمرو بن فهم .

انتقل الملك بعد عمرو بن فهم إلى جذيمة الأبرش ، وفيه يقول ياقوت « كان أول من ملك عليهم فى زمن ملوك الطوائف مالك بن فهم أبو جذيمة

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مادة « حيرة » .
(٢) ياقوت : نفس المصدر ، مادة « حيرة » .
(٣) الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ٩٤ .
(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ٧٥٠ .

الأبرش ، ثم مات فملك ابنه جذيمة الأبرش » . (١) وجاء فى خزانة الأدب « قال ابن رشيق فى العمدة : وملك بعد مالك بن فهم ابنه جذيمة بن مالك وهو الأبرش والوضاح وكان ملكه ستين سنة »(٢) . واتصف جذيمة الأبرش برجاحة العقل والاتزان والحزم ، ويقول حمزة الاصفهانى إنه « كان ثاقب الرأى ، بعيد المغار ، شديد النكاية ، ظاهر الحزم »(٣) . ويرى الطبرى أنه « من أفضل ملوك العرب رأيا ، وأشدهم نكاية ، وأظهرهم حزما »(٤) .

وكانت الأحوال السياسية فى العراق وقتئذ موالية لجذيمة لتوسيع مُلكه وتقوية سُلطانه ، فالفتن الداخلية التى قامت بعد وفاة الملك البرثى بلاش الرابع وتنازع أردوان وبلاش ابنى بلاش الرابع الحكم ، مهدت لجذيمة بسط سيطرته فيما بين الحيرة والأنبار وبقة(٥) وهيت(٦) وناحيتها حيث شن الغارات على قبائل العرب هناك ، ويظهر أنه سيطر على معد وبعض اليمن وعلى البحرين كذلك(٧) ، وغزا جذيمة طسما وجديسا فى منازلهما

---

(١) معجم البلدان ، مادة « حيرة » .

(٢) خزانة الأدب جـ ١ ص ٣٢٧ .

(٣) حمزة الأصفهانى ص ٩٥ — ٩٦ .

(٤) الطبرى جـ ٢ ص ٧٥٠ .

(٥) بقة : اسم موضع قريب من الحيرة ، وقيل حصن كان على فرسخين من هيت كان ينزله جذيمة الأبرش . ياقوت : معجم البلدان .

(٦) هيت : بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة . ياقوت : معجم البلدان .

(٧) يوسف غنيمة : الحيرة ص ١١٩ .

ولـكنه لم يكن موفقاً فى هـذه الغزوة بل قفل راجعاً بمن معه أمام خيـل حسان بن تبع أسعد أبى كرب(١) .

ومن حروب جذيمة ، حربه مع عمرو بن ظرب بن حيان بن أذينة والد الزباء المشهورة فى الأدب العربى القديم والذى كان ملـكا على مشارف الشام والمضيق بين الخانوقة(٢) وقرقيسيا (٣) ، فقد قصده جذيمة بجموعه واقتتلوا قتالا شديداً ، قُتل خلاله عمرو بن ظرب وفرت جموعه ، بيد أن جذيمة لم يضم ملـكه إليه واكتفى بقتله ، فاستولت الزباء على بلاد أبيها(٤). ولـكن قلبها أفعم بحب الثأر من قاتل أبيها ، فعمدت إلى الحيلة للتخلص من جذيمة بأن كتبت إليه تخبره بأنها ترغب فى صلة بلدها ببلده وتطمع فى الزواج منه ، فعقد جذيمة مجلسه واستشارهم فى الأمر ، فوافق رجاله على ذهابه إلى الزباء وخالفهم وزيره قصير بن سعد فيما أشاروا به عليه ، غير أن جذيمة عقد عزمه على الذهاب إليها ، فخلف ابن أخته عمرو بن عدى على حكم البلاد ، وسـار مع وجوه قومه إلى الزباء فاستقبلته رسلها بالهدايا ، ولـكنها ما لبثت أن قبضت عليه وقتلته شر قتلة انتقاما لأبيها عمرو بن ظرب .

* * *

وقد انقسم عرب الحيرة فى أوائل القرن الثالث الميلادى ، إلى ثلاثة أصناف:

---

(١) حمزة الأصفهانى ص ٩٦ .

(٢) الخانوقة ـ مدينة على الفرات قرب الرقة . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور ، وعندها مصب الخابور فى الفرات . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) يوسف غنيمة : الحيرة ص ١٢٢ .

تنوخ وينزلون غربى الفرات بين الحيرة والأنبار وهم أصحاب المظال و بيوت الشعر والوبر، والأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها ممن لم يكن من تنوخ الوبر ولا من العباد الذين دانوا لأردشير(١) ، والعباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها المساكن والأديرة وعرفوا بذلك لأنهم كانوا يعبدون الله أو لأنهم اتخذوا « يا آل عباد الله » شعاراً لهم عندما حاربهم سابور الأكبر ، وقيل أيضاً فى تعليل هذا الاسم إنه وفد على كسرى خمسة منهم ، وكانت أسماؤهم تبتدىء بكلمة عبد ، وهم : عبد المسيح ، وعبد ياليل ، وعبد يسوع ، وعبد الله ، وعبد عمرو ، فقال كسرى : أنتم عباد كلكم فسموا العباد(٢) . على أن المقصود بالعباد هم عرب الحيرة النصارى الذين كانوا يعبدون الله فى كنائسهم ، كما أن العصر الذى أطلق فيه العباد على أتباع الدين المسيحى من عرب الحيرة للتميز بينهم وبين الوثنيين من سكانها غير محدد تماما(٣) . وقد سكن اليهود الحيرة أيضاً وبقوا بها حتى الفتح الإسلامى ، فقد قال الحجاج لأهل الكوفة « يا أهل الكوفة ؛ فلا أعز الله من أراد العز بكم ، ولا نصر من أراد النصر بكم ، أخرجوا عنا ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، ألحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى »(٤) . وقد سكن الحيرة إلى جانب العرب واليهود ،

---

(١) حمزة الأصفهانى ص ٢٥ .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم جـ ١ ص ٧٥ .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 39.

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ٩٥٥ .

النبط والفرس . وقد كثر النبط بها كثرة بالغة ، أما الفرس فكانوا سادة البلاد الحقيقيين الذين كانوا يحكمونها فى بعض الفترات من قِبَل الأكاسرة .

البيت اللخمى :

بعد وفاة جذيمة الأبرش انتقل الملك إلى ابن أخته عمرو بن عدى بن نصر الذى يعتبر رأس بيت اللخميين أو المناذرة ، وقد يقال لهم « آل المحرق » ، ويظن أن المحرق اسم إله جاهلى لا نعرف عنه أكثر من ذلك(١) ، ولقد عين سابور الأول عمرو بن عدى من بنى لخم ملكا على العرب فى العراق(٢)، وامتاز عمرو عمن سبقه من ملوك الحيرة باتخاذه الحيرة عاصمة لدولته ، فكان « أول من اتخذ الحـــيرة منزلا من ملوك العرب »(٣) . وقد حاول قصير بن سعد وزير جذيمة الانتقام من الزباء ، فجدع أنفه وهرب إليها وشكا لها حاله ، فلاطفته وأكرمته ، ولما تأكد من وثوقها به طلب منها أن تسمح له بالسفر إلى العراق ليجلب ماله وأمتعته ، فأذنت له وأرسلت معه عيرا ، فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق ، وهناك أخذ من بيت مال الحيرة ما يرضى الزباء التى فرحت به بعد عودته ، وتأكدت من إخلاصه لها ، فأرته ذلك النفق الذى مدته من مجلسها إلى حصن لها داخل مدينتها ، وعندئذ عول على الانتقام منها ، فخرج فى تجارة له ، ولما علم عمرو

---

(١) CL. Huart : Histoire des Arabes, Vol. 1, p. 63.

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 8.

(٣) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ٩٧ .

ابن عدى بأمر تلك التجارة خرج إليه مع ألفى فارس على ألف بعير فى الجوالق ، وتقدم قصير يسبق الإبل حتى دخلت المدينة . ولما رأت الزباء الإبل أنشدت تقول :

ما للجمال مشيها وئيداً أجندلا يحملن أم حديداً
أم صرفانا بارداً جديدا أم الرجال جثما قعودا

ولما توسطت الإبل المدينة أنيخت ، ودل قصير عمرا على باب النفق ، خرج الرجال من الغرائر وصاحوا بأهل المدينة وأعملوا فيهم السلاح ، وقام عمرو بن عدى على رأس النفق . ولما أقبلت الزباء تريد النفق لتدخله أبصرت عمرا فعرفت غرضه ، فمصت خاتمها وكان فيه سم ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو » وتلقاها عمرو بن عدى فجللها بالسيف ، وأصاب كثيرا من أهل المدينة وعاد إلى العراق[1] ، بعد أن خرب المدينة وتركها قاعا صفصفا[2] .

وبعد موت عمرو بن عدى تولى ابنه امرؤ القيس الأول إمارة الحيرة ، وأمه ماوية بنت عمرو أخت كعب بن عمر الأزدى[3] ، وكانت الأحوال السياسية فى فارس ملائمة له فى مد سلطانه وتوسيع ملكه .

• • •

ذلك أنه بعد أن توفى الملك بهرام الثانى سنة ٢٨٢ م لم يحكم خليفته بهرام

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ص ٧٦٦ .
(٢) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ١٨ — ٢٠
(٣) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٠ .

الثالث أكثر من أربعة أشهر ، وبعد وفاته قام النزاع على العرش بين ابنيه : نرسس Narsres وهرمزدز Hormisdas ، انتهى بانتصار نرسس واختفاء هرمزدز من مسرح المنافسة تماما . وفى عام٢٩٦م بعد حوالى ثلاث سنوات من ارتقاء نرسس العرش قام بغزو أرمينيا وطرد ملكها تيريداتيس Tiridates صنيعة روما ، الذى التجأ بدوره إلى الإمبراطور دقلديانوس وكان فى أوج قوته وطلب حمايته ،فأمرجاليريوس Galerius[1] بالتوجه إلى الدانوب وتولى قيادة جيش الشام . وكان نرسس قد غزا الولاية الرومانية بالجزيرة ، فقابله جاليريوس فىسهولها الواسعة ، واشتبك الجيشان فى واقعتين كبيرتين لم تكن لهما نتائج فاصلة ، ولكن فى الواقعة الثالثة تقرر مصير الجيش الرومانى حيث هُـزِم هزيمة منكرة وفر كل من تيريداتيس وجاليريوس بأن سبحا فى مياه الفرات ونجيا من القتل . وفى شتاء العام التالى أرسل الإمبراطور دقلديانوس ، القيصر جاليريوس على رأس فرق حربية من إقليم إليريا Illyria لكى ينازل الفرس ويسترد سمعته الحربية ، وقد استفاد جاليريوس منهزيمته السابقة وتجنبنزال الفرس فىالسهول الواسعة، واستطاع أن يخترق مناطق أرمينيا الجبلية ويفاجئ المعسكر الفارسى ليلا ، ولم يكن نرسس ينتظر تلك الجرأة من الجيش الرومانى ففر من المعركة بعد أن أصيب بجرح بالغ ، ولكن جيشه كان قد أبيد عن آخره ، ووقعت أسرته وبعض النبلاء أسرى فى يد الجيش الرومانى ، وكانت شروط الصلح التى عقدت بين الطرفين شديدة الوطأة على الفرس ، فقد نصت على بتر عدة

---

(١) فى هذه الفترة كانت الإمبراطورية الرومانية يحكمها امبراطوران ، يخضع لهما قيصران أحدهما جاليريوس المذكور .

أقاليم من فارس وألحاقها بممتلكات روما(١) . ولقد انتهى هذا النزاع مع روما والذى أثاره نرسس نفسه ، بمأساة قضت على عرشه ، فقد تنازل عن الحكم سنة ٣٠١م ، بعد أن شاهد هذا التقدم العظيم الذى أحرزته قواته فى الدولة الرومانية مما عجز عنه أسلافه(٢) .

• • •

١ استغل امرؤ القيس الأول هذا الموقف فى فارس : فوالى الساسانيين حتى حفظ عرشه ، وفى الوقت نفسه خضع لنفوذ الرومان فإن النقوش التى وجدت على قبره فى النمارة(٣) تدل على أنه كان خاضعاً لنفوذ الرومان حوالى سنة ٣٢٨م(٤) ، كما أنه أخضع قبيلتي أسد ونزار وهزم مذحج ، ولما بلغ هذا الشأو البعيد ، عظم أمره وقويت شوكته على قبائل العرب حتى استعمل بنيه عليهم وأنابهم عنه لدى الفرس والروم(٥) .

تولى مملكة الحيرة بعد امرىء القيس ابنه عمرو ، ويعرف باسم « عمرو الثانى » ، وأمه هند بنت كعب بن عمرو(٦) ، وقيل إن أمه أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غسان وتعرف بمارية البرية(٧) . ولم يتناول المؤرخون حكم هذا الملك وسياسته فى إدارة شؤون بلاده بشىء من الإفاضة .

---

(١) Sykes : History of Persia, Vol. 1. pp. 441—442.

(٢) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 443 .

(٣) مدينة تقع فى الجنوب الشرقي من دمشق .

(٤) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 8.

(٥) جورجي زيدان : تاريخ الآداب العربية ج ١ ص ٢٨ .

(٦) حمزة الأصفهانى : تاريخ سني ملوك الأرض ص ١٠٠ .

(٧) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣ .

وخلفه على الحيرة ، أوس بن قلام ، ولم يكن من سلالة اللخميين ، بل قيل إنه من العماليق من بنى عمرو بن عمليق[١] ، وقد أقامه سابور ذو الأكتاف ملكا على الحيرة بعد أن رأى تنازع أولاد عمرو بن امرىء القيس ملك أبيهم بعد موته . وعمل أوس بن قلام على استتباب الأمن والضرب على أيدى أولاد عمرو الثانى حتى طردهم من الحيرة ، غير أنهم تربصوا به فى النهاية وقتلوه بعد أن حكم خمس سنوات .

وانتقل الحكم إلى امرىء القيس الثانى ، وهو محرق الأول ، وقيل إنه ملك إحدى وعشرين سنة وثلاثة أشهر[٢].

وتولى مملكة الحيرة بعد وفاة امرىء القيس الثانى ابنه النعمان الأول ، ويقال له ابن الشقيقة ، لأن أمه شقيقة ابنة أبى ربيعة بن ذهل من شيبان[٣]. وكان النعمان من أشد ملوك الحيرة نكاية فى الأعداء . ولقد غزا الشام عدة مرات وأكثر المصائب فى أهلها ، وكانت له كتيبتان يقال لهما « دَوْسر »[٤] وهى لتنوخ والأخرى « الشهباء » وهى للفرس ، وكانتا أيضاً تسميان « القبيلتين »[٥] فكان يغزو بهما من لم يدن له من العرب . وكان للنعمان الأول مقام رفيع فى بلاد فارس ونفوذ عظيم فى قصر الأكاسرة ،

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ص ٨٥٠ .

(٢) حمزه الأصفهانى ص ١٠١ .

(٣) الطبرى ص ٨٥٠ ، حمزة الأصفهانى ص ١٠١ .

(٤) كانت أحسن كتائب النعمان وأشدها بطشا ونكاية ، وسميت « دوسر » اشتقاقا من الدسر وهو الطعن بالثقل ، لثقل وطأتها . الألوسى : بلوغ الأرب جـ ٢ ص ١٩١ ، طبع بغداد.

(٥) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ١٤٦ .

فطلب منه يزدجرد أن يتعهد بتربية ابنه بهرام فى الحيرة ، لأنه لم يعش له ولد قبله[1] فامتثل النعمان لمشيئة يزدجرد ، واختار له « أربع نسوة ذوات أجسام صحيحة ، وأنساب صريحة ، وأذهان ذكية ، وآداب مرضية ، إثنتان منهن من بنات أشراف العرب ، وإثنتان من بنات أكابر العجم »[2] ، فنشأ بهرام بالحيرة وتربى بين ظهرانيها حتى تثقف بالثقافة العربية الخالصة ، وكان ذلك سببا فى كراهية الفرس له بعد موت أبيه يزدجرد . واشتهر النعمان ابن امرىء القيس بأنه بانى الخورنق[3] والسدير[4] ، وكانت لها شهرة عظيمة فى تاريخ الحيرة حتى نسب النعمان إليهما ، ويغلب على الظن أنهما كانا فى مكان واحد فى الحيرة ويطلق عليهما معا اسم الخورنق . وذهب بعض المؤرخين إلى القول باعتناق النعمان النصرانية ، وإن كانت الدلائل لا تشير إلى تنصره ، بل إلى عطفه نحو رعاياه المسيحيين وإطلاقه الحرية الدينية لهم ، دون أن يكون قد تنصر بالفعل .

---

(١) الطبرى ص ٨٥١ .

(٢) الفردوسى : الشاهنامة جـ ٢ ص ٧٥ من الترجمة العربية للبندارى ونشر الدكتور عزام بك .

(٣) الخورنق : قصر بظاهر الحيرة اختلف فى بانيه : قال الهيثم بن عدى إن بانيه هو النعمان ابن امرىء القيس ، وقال ابن الكلبى إن الذى أمر ببنائه بهرام جور بن يزدجرد . معجم البلدان : مادة خورنق .

(٤) السدير : قصر قريب من الخورنق ، اختلف العلماء فى أصل اسمه . قال الأصمعى إن السدير كلمة فارسية بمعنى [ثلاث قباب متداخلة] ، وقيل إنما سمى السدير بذلك : لكثرة سواده وشجره ، من قولهم [إنى لأرى سدير نخل] أى سواده وكثرته . ياقوت : معجم البلدان ، مادة « سدير » .

خلف النعمان على عرش الحيرة، ابنه المنذر الأول، وأمه هند بنت زيد مناه بن زيد بن عمرو الغسانى[١]. وقد تدخل المنذر فى النزاع الذى حدث فى فارس عقب موت يزدجرد الأول، إذ أنه أيد اختيار بهرام جور الذى عارض رجال الدين فى فارس فى توليته[٢] خوفا من ممالأته للعرب المثقف بثقافتهم، ولكن المنذر أمده بالجند حتى تمكن من استرداد ملك أبيه.

وقد امتد اضطهاد النصارى الذى بدأه يزدجرد الأول خلال الأعوام الأخيرة من حكمه إلى عهد بهرام جور بحميّة ونشاط، وبلغ من قسوته أن عبر عدد كبير من النصارى حدود الدولة الفارسية، ووضعوا أنفسهم تحت الحماية الرومانية، فأغضب هذا العمل بهرام جور وطلب منهم أن يخضعوا لحكمه، ولما قوبل طلبه بالرفض شبت نيران الحرب. ولقد كان الرومان هم البادئون بالعدوان، فسارت قواتهم إلى الجزيرة تحت قيادة أردابريوس Ardaburius، واستطاع هذا القائد أن يهزم الجيش الفارسى هزيمة منكرة[٣]. بيد أن المنذر انحاز إلى جانب الفرس وبرهن على أنه تابع مخلص، فكابد سنة ٤٢١ م شر هزيمة[٤] لحقت بجيشه العربى.

انتقل الملك بعد وفاة المنذر إلى ابنه النعمان الثانى، وذكره الطبرى عند

---

(١) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٣.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 41.

(٣) Sykes : History of Persia, Vol. 1. pp. 461—466.

(٤) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome, 1. p. 33.

كلامه عن بهرام جور ، فقال « ثم دعا بهرام بالنعمان بن المنذر وأمره أن يؤذن العرب بإحضار خيلهم من الذكور والإناث على أنسابها فأذن النعمان للعرب بذلك »(١) .

وقد خلفه على الحيرة أخوه الأسود بن المنذر ، وأمه هر ابنة النعمان من بنى الهيجمانة ابنة عمرو بن أبى ربيعة من لخم(٢) ، وقد كان للأسود كتيبة شديدة البأس يقال لها « الملجأ » ، يُظنّ أنه استخدمها فى حروبه مع الغساسنة عرب الشام ، كما قيل إن الفرس أسرت الأسود بن المنذر(٣) عشرين سنة(٤) .

ملك بعد الأسود بن المنذر أخوه المنذر بن المنذر بن النعمان وأمه هر(٥) وكانت مدة حكمه سبع سنوات فى زمن قباذ بن فيروز(٦) .

انتقل الملك بعد المنذر الثانى ابن المنذر الأول إلى النعمان الثالث ابن الأسود ، وقد ذكر كوسان دى برسفال « إن أبا الفداء ومعظم مؤرخى العرب قد أغفلوا ذكر هذا الملك »(٧) ، على أن الطبرى(٨) وابن الأثير(٩)

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ص ٨٥٦ .
(٢) الطبرى : نفس المصدر ص ٨٨٢ . حمزة الأصفهانى ص ١٠٤ .
(٣) CL. Huart : Histoire des Arabes, Vol. 1. p. 66.
(٤) الطبرى : نفس المصدر ص ٨٨٢ .
(٥) الطبرى : نفس المصدر ص ٩٠٠ .
(٦) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٤ .
(٧) Caussin de Perceval : Histoire des Arabes, Vol. 2. p. 67.
(٨) الطبرى : نفس المصدر ص ٩٠٠ .
(٩) ابن الأثير : الكامل جـ ١ ص ١٧٧ .

وحمزة الأصفهانى(١) قد ذكروا النعمان الثالث بين ملوك الحيرة .

كان من شروط الصلح التى عقدت بين الملك يزدجرد الثانى والإمبراطور تيودوسيوس الثانى Theodosius II عام ٤٤٢ م ما يُلزم روما بدفع مبلغ من المال سنويا للدولة الفارسية ، ولكن الدولة الرومانية لم تدفع ذلك المبلغ طوال سنى السلام بين الدولتين . ولما جاء قباذ شعر بحاجته الشديدة إلى المال ، فطلب من الإمبراطور أنستاس Anastasius أن يفى بما تعهد به تيودوسيوس عام ٤٤٢ م ، ولم يكن طبيعيا أن يرضخ أنستاس لمشيئة قباذ على الفور ، فاندلعت نيران الحرب بين الدولتين ، وكاد أنستاس أن يجلو عن العراق بأسره سنة ٥٠٢ م(٢) ، ولكن الحرب ظلت سجالا بين الدولتين حتى انتهت سنة ٥٠٥ م(٣). واشترك النعمان فى تلك الحرب وأرسل عدة حملات حربية سنة ٤٩٨ م إلى سورية على الفرات ، وأقلق الرومان وحلفاءهم العرب(٤) وأبلى بلاء حسناً فى تلك الحروب ، وكان عليه أن يدفع غزو قبائل بلاد العرب الوسطى التى تعرف باسم القبائل البكرية الذى بدأ رئيسها الحارث بن عمرو سيدا للحيرة فى فترة من تاريخها . ولما توفى النعمان عين قباذ ، خليفة له ، رجلا دخيلا ليس من آل نصر ، هو أبو يعفر علقمة .

تولى الحكم بعد أبى يعفر علقمة ، امرؤ القيس الثالث(٥) ، الذى

---

(١) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٤ .

(٢) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome, 1. p. 33.

(٣) Sykes : History of Persia, Vol. I. p. 219.

(٤) Caussin de Perceval : Histoire des Arabes, Vol. 2. p. 68.

(٥) حمزة الأصفهانى : نفس المصدر والصفحة .

يقترن اسمه بقتاله ربيعة بن نزار فى البحرين ونجد قبل بلوغه العرش واختطف منهم ماء السماء التى تزوجها(١) وأنجب منها ابنه المنذر أشهر ملوك الحيرة ، واسم ماء السماء ماوية بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة ، وغلب ماء السماء على اسمها لجمالها وحسنها(٢) وقيل لكرمها ورقة طباعها(٣) .

كانت روما فى أثناء حرب قباذ مع الهون قد تقدمت نحو التخوم الفارسية وأنشأت حصنا قويا فى مدينة دارا ، فأرسل قباذ سفارة إلى روما لتحتج لدى الإمبراطور أنستاس على نقض شروط الصلح التى أبرمت بين الدولتين عام ٥٠٥ م ، ولكن الإمبراطور لم يصغ إلى تلك الاعتراضات وسار فى سياسته العدائية حتى مات سنة ٥١٨ م . وخلفه جستين الأول ، فتابع سياسة سلفه وعقد محالفة ضد فارس مع أحد ملوك الهون ، وقبل خضوع أمير لزقا لنفوذه ، ومع ذلك لم تعلن الحرب بين الدولتين إلا عام ٥٢٦ م عندما غزت روما أرمينيا الفارسية(٤) ، وكان قائد تلك الحملة بليزريوس الذائع الصيت ، ولكنها مع ذلك فشلت فشلا ذريعا ، كما أخفق الرومان فى فتح الجزيرة أيضا ، وفى عام ٥٢٨ م عاود الرومان الكرة تحت قيادة بليزاريوس ، فلم يلاقوا غير الفشل .

ولقد أيقن الإمبراطور جستينيان خليفة جستين أن القوات الحربية الموضوعة تحت تصرف القائد بليزاريوس ضعيفة للغاية ، لذلك أنعم عليه بلقب « قائد الشرق » ، وقام بتجنيد قوة حربية بلغ عدد رجالها خمسة وعشرين ألفا . وكان

---

(١) Caussin de Perceval : Hisoire des Arabes, Vol. 2 p. 73.

(٢) حمزة الأصفهانى ص ١٠٥

(٣) لويس شيخو : النصرانية وآدابها ج ١ ص ٨٨

(٤) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 480—481.

قائد الفرس فى ذلك الوقت يقال له « فيروز مهران Firuz-Mihran » فتقدم صوب دارا واستولى على عدة مدن هامة ، وقبل أن يلتحم الجيشان جرت بعض المراسلات بين القائدين لم تؤد إلى نتيجة ما ، وختم فيروز مهران آخر رسائله طالبا أن يعد له الطعام داخل أسوار دارا (١) ، ولكن الخيالة الرومانية استطاعت بعد قتال رهيب أن تشطر الجيش الفارسى شطرين وأن تنزل به خسائر فادحة .

وفى أرمينيا أيضا هزمت القوت الرومانية جيش قباذ فى معركتين فاصلتين حتى قال المؤرخ سايكس «إن عام ٥٢٩ م كان شؤما على الملك قباذ الذى بلغ من الكبر عتيا ، حتى عجز عن إدارة جيوشه بنفسه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه عاما ذا اعتبار بالنسبة للمنذر ملك الحيرة ، ذلك الملك العربى الشديد البأس الذى جال فى سورية حتى أنطاكية والذى أثار الرعب فى الأقطار المسيحية بذبحه أربعمائة راهبة قربانا للسيار فينوس » (٢) .

وحوالى عام ٤٨٠ م امتد نفوذ قبيلة كندة (٣) التى يظهر أن أمراءها كانوا يخضعون لتبابعة اليمن ، وشمل نفوذها جزءاً كبيرا من وسط بلاد العرب وشمالها ، وكان حجر آكل المرار هو المحرك الأول فى بسط هذا النفوذ ، ولكن مالبث أن تفكك عند ما مات

---

(١) Sykes : History of Perisa, Vol. 1. p. 481.

(٢) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 482.

(٣) كندة : من بنى كهلان وبلادهم اليمن وكان لها ملك بالحجاز واليمن . قال الأصفهانى : « قال أبو عبيدة : حدثنى أبو عمرو بن العلاء أن العرب كانت تعد البيوتات المشهورة بالكبر والشرف من القبائل ، بعد بيت هاشم بن عبد مناف فى قريش ثلاثة بيوت ، ومنهم من يقول أربعة : بيت آل حذيفة بن بدر الفزارى ، بيت آل زرارة بن عدس الدارميين ، وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بن همام ، وبيت بنى الديان من بنى الحارث بن كعب . . وأما كندة فلا يعدون من أهل البيوتات إنما كانوا ملوكا » (الأغانى ج ١٧ ص ١٠٦ — ١١٠) .

حجر ، والتأم الشمل مرة أخرى حوالى سنة ٥٠٠ م على يد حفيده الحارث ابن عمرو . وفى ذلك الحين كانت تعاليم مَـزْدَك الإشتراكية قد اتسع نطاق دعوتها وتغلغلت بين العامة فى فارس ، وانتهى الأمر بأن اعتنقها الملك قباذ نفسه (١) ، الذى دعا المنذر إلى الدخول معه فى ذلك فأبى ، بينما أجاب الحارث بن عمرو الدعوة عند ما وجهها إليه قباذ (٢) . وقد أقصى المنذر عن مملكته زمنا ما ، وليس من البعيد أن يكون إقصاء المنذر عن مملكته راجعاً إلى عدائه للتعاليم المزدكية ، ولـكنه مالبث أن عاد إليه بعد فترة قصيرة .

ولما تولى كسرى أنو شروان عرش فارس قتل كثيرين من أتباع مزدك وطلب الحارث بن عمر فخرج من الأنبار هاربا فى هجائنه وماله ومر بالثُّوَيَّة (٣) ، وتبعه المنذر بالخيل من تغلب وبهراء وإياد ، فلحق بأرض كَلْب فنجا وانتهبوا ماله وهجائنه ، وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفسا من بنى آكل المرار فقُـدِّمَ بهم على المنذر فضرب رقابهم بجفر الأملاك فى ديار بنى مَرِينا العباديين (٤) بين دير هند والكوفة ، وفيهم يقول امرؤ القيس :

ملوكٌ من بنى حُجْر بن عمرو   يساقون العَشِيةَ يُقْتَلونا
فلو فى يوم معركة أصيبوا   ولـكن فى ديار بنى مرينا

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 42.
وتعاليم مزدك مبسوطة فى:
Browne : Literary History of Persia, Vol. 1. pp. 168—172.
(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٩ ص ٧٩ (طبع دار الكتب) .
(٣) الثوية : موضع قريب من الكوفة ، وقيل بالكوفة .
(٤) من أشراف أهل الحيرة النصارى ، وكانوا ينتسبون إلى لخم .

ولم تغسل جماجمهم بغسل ولكن فى الدماء مُرَمَّلينا (١)

أقام الحارث بعدئذ بأرض كلب ، وقيل إنه قتل هناك (٢) بعد أن فرق ولده فى قبائل العرب : فملك أبنه حجرا على بنى أسد وغطفان ، وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وبنى حنظلة بن مالك بن زيد مناه ابن تميم والرباب ، وملك ابنه معديكرب على بنى تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رُمَية ، وملك ابنه عبد الله على عبد القيس ، وملك ابنه سلمة على قيس (٣) .

ولقد ظل المنذر بن ماء السماء يتحين الفرص للانتقام من أولاد الحارث وسنحت له الفرصة عند ما تحزبت القبائل ووقعت الحرب بين شرحبيل وأصحابه وسلمة وأصحابه : فقتل شرحبيل فى يوم الكلاب الأول (٤) ، والتجأ سلمة إلى بنى تغلب فلم يقبلوه بينهم فلجأ إلى بكر بن وائل فأجاروه ورضوا به ملكا عليهم ، فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته ، فأبوا ذلك فسار إليهم المنذر بجيشه واقتتلوا قتالا شديدا بجبل أوارة ، وأسر يزيد بن شرحبيل بعد أن هزمت بكر ، وقد عرفت هذه الواقعة عند العرب بيوم أوارة الأول (٥) .

وقام المنذر بن ماء السماء حليف الفرس بدور هام فى سبيل إخضاع روما . ذلك أن كسرى أنو شروان الذى طبقت شهرته الآفاق ،

---

(١) ملطخين

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٩ ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) الأصفهانى : نفس المصدر والجزء ص ٨١ ــ ٨٢ .

(٤) الكلاب اسم ماء بين الكوفة والبصرة وقيل ماء بين جبلة وشمام . وكان للعرب يومان مشهوران بيوم الكلاب : أما الأول فهو ما قتل فيه شرحبيل بن الحارث ، والثانى كان بين سعد والرباب وبين بنى الحارث بن كعب وقبائل اليمن وقتل فيه عبد يغوث الحارثى .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٢٢٨ .

كان يرغب عند ارتقائه العرش إلى عقد الصلح مع روما ، حتى يشعر بالطمانينة الكافية داخل مملكته ويستطيع بذلك أن يصمد أمام الحملات الأجنبية . وكانت هذه الرغبة متبادلة بين العاهلين الرومانى والفارسى (١) ، فإن جستنيان من ناحيته كان يود أن يأمن الجبهة الشرقية كى يتجه صوب الغرب ورضى بأن تكون المعاهدة فى صالح الدولة الفارسية ، لذلك وضع العاهلان حداً للحرب التى اشتعلت بين الدولتين ثلاثين عاما ، واتفقا على عدة شروط كان أهمها أن روما حليفة فارس إلى الأبد (٢) ، وكان من نتيجة هذا الاتفاق أن استطاع جستنيان أن يغزو إفريقية الشمالية ويقضى على الوندال والقوط الشرقيين بإيطاليا . إلا أن أنباء هذا النصر الذى أحرزه الروم قد ساء كسرى أنو شروان ، فأوعز إلى عامله المنذر بن ماء السماء أن يغزو سورية ، وقامت الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة أمير غسان الذى انتصر له الروم بينما انتصر الفرس للمنذر ، ولم تكن عاصمة سوريا من المناعة بحيث يعجز أنوشروان عن فتحها ، وما لبثت أن سقطت فى يده وراح يعمل فى مبانيها بمعوله ولم يسلم من ذلك إلا ما افتُدى بالمال (٣) .

ونسبت للمنذر بن ماء السماء حرب « يوم عين أباغ » (٤) ، وكانت بينه وبين الحارث بن جبلة الغسانى ، وقيل إن المنذر قتل فى هذه الواقعة مع ابنين له .

---

(١) Sykes : History of Persia, Vol. 1, p. 487.

(٢) Op. Cit. p. 487.

(٣) Op. Cit. p. 488.

(٤) عين أباغ ليست بعين ماء وإنما هو واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام . معجم البلدان ، مادة : عين أباغ .

اختلف المؤرخون فى الكلام عن المنذر وعما إذا كان وثنيا أم نصرانيا . فقال شيخو إنه كان نصرانيا[١] ، وقد ذكر للتدليل على ذلك : أن ساويرس البطريرك السريانى أراد أن يجتذب إلى بدعته ملك الحيرة فأرسل إليه أسقفين ليقنعاه بأن فى المسيح طبيعة واحدة، فسمع الملك كلامهما ساكتاً ثم فض كتاباً كان فى يده فبدت الكآبة على وجهه عند قراءته ، فسأله الأسقفان : ما الأمر ؟ فقال : قد بلغنى كاتب هذه الرسالة أن رئيس الملائكة قد توفى ، فهذا الخبر قد أمعضنى جداً . فضحك الأسقفان وقالا الملك : كيف يمكن أن يموت ملاك لا جسد له فهذا كذب محض . فأردف الملك وقال لهما : وكيف أنتما تزعمان أن المسيح وهو ذو طبيعة إلهية مفردة قد مات ؟ أليس هذا أعظم كذباً وضلالا ؟ ثم رد الأسقفين خائبين[٢] . وهذه الشهادة التاريخية هى مثل من الأمثلة العديدة التى نرى فيها اختلاط التعاليم المسيحية بالفلسفة اليونانية وتوضح مدى الصعوبة التى كان يلاقيها العرب فى فهمها ، وهى فى الوقت نفسه محاولة من المحاولات التى كانت تقوم بها الكنيسة لجذب الوثنيين إلى حظيرتها ، إذ لم يكن المنذر نصرانيا وإنما كان وثنيا .

وقد ذكر بعض مؤرخى العرب ـ فى سبيل التدليل على وثنية المنذر ـ أنه كان يقتل بعض أسراه ويقدمهم قربانا للسيار فينوس ، وأيدهم فى ذلك بعض

---

(١) شيخو : النصرانية وآدابها جـ١ ص ٩٠ .

(٢) شيخو : نفس المصدر والجزء والصفحة .

المؤرخين الأوربيين من يعتد برواياتهم . يقول سايكس : إن المنذر قد ذبح أربعمائة راهبة قربانا للسيار فينوس . [١] وأنكر نيكلسون نصرانية المنـــذر بل نصرانية ملوك الحيرة ، سوى النعمان الثالث ، قال : كان اللخميون بعكس غالبية رعيتهم عريقين فى الوثنية [٢] ، بينما قال شيخو : إن النصرانية عمت ملوك الحيرة وأهلها العرب حتى أن المسلمين لما فتحوا مملكة المناذرة وجدوها مملكة نصرانية فى دينها وآدابها وعاداتها . [٣]

خلف المنذر على مملكة الحيرة ابنه عمرو الثالث ويعرف باسم « مضرط الحجارة » [٤] ، واشتهر باسم أمه هند ابنة الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار [٥] التى تعرف عند المؤرخين باسم هند الكبرى [٦]. ويقال إن عمر بن هند أراد أن ينتقم من غسان بعد قتل أبيه المنذر ، فدعا بنى تغلب إلى الطلب بثأره من غسان ، ولكنهم امتنعوا ، فغضب عمرو ابن هند وجمع جموعا كثيرة من العرب غزا بها بنى تغلب وقتل منهم عدداً كبيراً .

---

(١) Sykes : History of persia, Vol. 1. p. 482.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 49

(٣) شيخو : النصرانية وآدابها ص ٩٢.

(٤) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ١٠٩ .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ص ٩٠٠ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ، مادة : دير هند الكبرى ، ج ٤ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

وحكم عمرو بن هند ، ونسبت إليه الحرب المعروفة بيوم أوارة الثانى(١)، وسببها أن أسعد بن المنذر أخا عمرو بن هند كان مستودعاً فى بنى تميم فقُتل فيهم خطأ . فحلف عمرو ليقتلن به مائة من بنى تميم وأغار عليهم فى بلادهم بأوراة ، فظفر منهم بتسعة وتسعين رجلا ، أوقد لهم ناراً وألقاهم فيها ، فمر رجل من البراجم(٢) وشم رائحة حريق القتلى فظنه قُتار الشواء ومال إليه ، فلما رآه عمرو قال : من أنت ؟ قال : رجل من البراجم ، فقال عمرو : إن الشقى وافدُ البراجم ، وأمر به فألقى فى النار(٣).

كان عمرو بن هند ـ حسب رواية شيخو ـ على النصرانية(٤) ، مستدلا على ذلك بما رواه أبو عبيد البكرى(٥) وياقوت الحموى (٦) فى وصف دير هند الكبرى أم عمرو وابنة الحارث بن عمرو بن حجر . فقد ذكر البكرى أنه : كان فى صدر دير هند مكتوب ، بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو ابن حُجر ، الملكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، أَمَةُ المسيح وأم عبده وابنة عبده فى زمن افرائيم الأسقف ، فالإله الذى بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها ويقومها إلى أمانة الحق ويكون الإله معها ومع ولدها الدهر الداهر » . على أن الحيرة كانت وقتئذ تموج بالمبشرين الداعين للمسيحية ، وليس ببعيد أن تكون هند قد لبت

---

(١) أوارة : اسم ماء أو جبل لبنى تميم .

(٢) البراجم : خمسة رجال من بنى تميم : قيس وعمر وغالب وكلفة والظليم . بنو حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم ، اجتمعوا وقالوا : نحن كبراجم الكف فغلب عليهم .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة : أوراة .

(٤) شيخو : النصرانية وآدابها ص ٩١ .

(٥) البكرى : معجم ما استعجم جـ ٢ ص ٦٠٦ نشر الأستاذ مصطفى السقا .

(٦) ياقوت : نفس المصدر ، مادة : دير هند .

دعوتهم واعتنقت النصرانية ، ثم عملت جاهدة لجذب ابنها إلى دينها فكتبت على ديرها ما كتبت .

ولقد بلغ عمرو بن هند منتهى العجب بعظمته وسطوته على قبائل العرب ، فأهانت امه أم الشاعر عمرو بن كلثوم فى مأدبة أقامها بظاهر الحيرة للشاعر وأمه ورهطه ، فاستشاط الشاعر غضبا وقتل عمرو بن هند فى عقر داره بالحيرة .

تولى الحكم بعد عمرو بن هند ، أخوه قابوس بن المنذر ، وفيه يقول الأصفهانى « إنه لم يملك وإنما سموه ملكا لأن أباه وأخاه كانا ملكين »(١). وكان قابوس بن المنذر ضعيفا لا يصلح لأعباء الحكم حتى سموه «فتنة العرس» ، فلا عجب أن تتطاول عليه الأيدى ويقتله رجل من يشكر .

وبعد قتل قابوس ، استولى على حكم الحيرة رجل دخيل ليس من سلالة اللخميين يقال له السهراب ، ولكنه لم يستمر فى الحكم طويلا .

وعاد النفوذ إلى اللخميين باعتلاء المنذر الرابع بن المنذر أريكة الحكم فى الحيرة ، وقد تضاربت روايات المؤرخين حول شخصيتى المنذر بن ماء السماء وابنه المنذر الرابع، فلم يفرقوا بين هاتين الشخصيتين وإنما نسبوا إلى كلٍّ منهما بعض أعمال الآخر .

بعد موت المنذر الرابع ، تولى الحيرة النعمان بن المنذر الذى يكنى بأبى قابوس وهو آخر ملك لخمى للحيرة ، وقد نشأ فى أحضان أسرة نصرانية فى الحيرة قامت بتربيته وتعليمه ، وكان كبيرها زيد بن حماد أبا الشاعر عدى بن زيد واستطاع زيد بواسطة دهقان يدعى فاروخ ماهان Farrukh Mahan أن يجتذب عطف كسرى أنو شروان بأن صار كاتب ديوانه(٢) . ولما اشتد

---

(١) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ١١٠ .

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 45.

ساعد عدى أرسله أبوه مع ابن الدهقان ليتلق العلوم والمعارف ، فأجاد الفارسية كما أتقن العربية وقرض الشعر وتعلم ركوب الخيل ، مما حببه إلى أنو شروان فقربه إليه واتخذه كاتبا له ومترجما فى ديوانه ، وكان أنو شروان يبعث به إلى القسطنطينية فى بعض السفارات الخاصة نظراً لحبه له وإعجابه بذكائه وذلاقة لسانه . وكان عدى يزور المدائن بين فترة وأخرى ليشرف على أعمال التحرير ، فرأى فى بعض زياراته للحيرة هنــــدا ابنة النعمان فقدرها ، وذلك فى خميس الفصح بعد الشّعَانين(١) بثلاثة أيام(٢) . وكانت تبلغ من العمر وقتئذ إحدى عشرة سنة . ويقال أن عديا خطبها إلى النعمان فأجابه وزوجه منها(٣) . غير أن بعض المؤرخين يرى أن هندا التى تزوجها عدىّ ليست ابنة النعمان وإنما هى امرأة بدوية وأن قصة زواج عدى من هند ابنة الملك النعمان قد بنى بعضها على ما ورد فى قول الشاعر أن صلة عدى بالبيت المالك صلة زواج :

اجْلَ نُعْمى رَبِّهَا أَوَّلَـكُمْ ودُنُوِّى كان منها واصْطِهَارِى(٤)

وجاء ذكر بيت هند فى قول الشاعر :

عرِّجا بى على ديارٍ لهنــــدٍ ليس إنْ عُجْتُمَا المَطىّ كبيراً(٥).

---

(١) خميس العهد : هو أحد أعياد النصارى وهو قبل الفصح بثلاثة أيام ، والشعانين من أعيادهم أيضا ويقع قبل الفصح بسبعة أيام.

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١٢٩ .

(٣) راجع قصة زواج عدى من هند ابنة النعمان ، فى الأصفهانى : نفس المصدر والجزء ص ١٢٩ — ١٣١ (طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) الأصفهانى : نفس المصدر والجزء ص ١٣٣ .

(٥) الأصفهانى : نفس المصدر والجزء ص ١٢٨ . راجع حاشية (١) من كتاب **Nicholson : Literary History of the Arabs, p-48.**

وقد أعان عدىّ ، النعمان على بلوغ الملك ، وهو الذى غضب عليه النعمان بعد أن كاد له أتباع الأسود بن المنذر ، فألقاه فى غياهب السجن ردحا طويلا ثم قتله فى النهاية . وكان لعدى غلام يدعى زيدا ، أشار كسرى أبرويز بأن يخلف أباه فى إدارة التحرير العربى فى ديوان الملك ، وما لبث أن أخذ زيد يترقب الفرص للأخذ بثأر أبيه بإثارة مكامن الحقد فى قلب كسرى على النعمان ، وذلك بأن ذكر لكسرى أبرويز ، محاسن نساء آل المنذر ووصفهن له فكتب إلى النعمان يأمره بأن يبعث إليه بأخته ، ولما قرأ النعمان كتابه قال لزيد بن عدىّ رسول كسرى : يا زيد أما لكسرى فى مَهَا السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات ؟ فقال زيد : « إنما أراد الملك إكرامك ابيت اللعن بصهرك ولو علم أن هذا يشق عليك لما فعله ، وسأحسن ذلك عنده »(١).
غير أن زيداً لم يف بوعده وكاد له كسرى ، ولما بلغ النعمان غضب كسرى عليه ، أخذ سلاحه وماله ونزل على بنى شيبان ببلدة ذى قار ، فلقيه هانئ بن مسعود الشيبانى فأودعه أهله وماله ، ثم ذهب إلى كسرى ليطلعه على حقيقة الحال ، غير أن كسرى زج به فى السجن وولى مكانه إياس بن قبيصة الطائى وهو ليس من البيت المالك ، وما لبث كسرى أن طالب هانئ بن مسعود بودائعه فامتنع ، وكان ذلك سبب يوم ذى قار(٢) المشهور بين قبيلة بكر من جهة وبين الفرس ومن انضم إليهم من العرب من جهة أخرى وفيه دارت الدائرة على الفرس

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥ ـ ٢٧
(٢) ذو قار : واد متاخم لسواد العراق على طريق الفرات إلى الشام .

فى ذلك اليوم المشهور وصانت قبيلة بكر استقلالها فى البحرين[١] . ومع أن القوات التى اشتركت فى يوم ذى قار كانت صغيرة العدد نسبياً ، فقد عد العرب هذا النصر فاتحة عهد جديد ، كما أن قبائل الصحراء التى كانت حتى ذلك الوقت تستظل بلواء الإمبراطورية الساسانية ، ويكبح جماحها ملوك الحيرة الأقوياء ، قد وثقت فى قدرتها على الوقوف موقفا عدائيا وبدأت تظهر الكراهية والاحتقار لهذا الشبح الذى لم تعد تخشى بطشه والذى زال نفوذه منذ عدة سنوات حتى وطئوه بأقدامهم فى النهاية(٢).

وقد كان لموقعة ذى قار نتائج خطيرة ، فقد حدثت عند ما بدأ محمد عليه السلام فى الدعوة لرسالته ، ولو أن النصر الذى كان حليف العرب فى هذه الواقعة انتقل إلى جانب الفرس ، لكانت متاعب المجاهدين من العرب فى فتح العراق عظيمة للغاية[٣] . وكان لهذه الموقعة فضل كبير على الإسلام ، ورنة فرح تجاوبت أصداؤها فى الجزيرة العربية ، ويتمثل لنا ذلك الفرح فى قول محمد عليه السلام عند ما سمع بهذا النصر الذى أحرزته قبيلة بكر : هذا أول يوم انتصف فيه العرب على العجم .

ولقد أصبحت الحيرة بعد تلك الموقعة مرزبة فارسية يدير شؤونها نائب لكسرى من الفرس ، غير أن المناذرة ما لبثوا أن استعادوا سلطتهم على الحيرة ، فولى حكمها المنذر بن النعمان بن المنذر وظل واليا عليها حتى دخلها الإسلام .

---

(١) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome 1, p. 34.
(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 70.
(٣) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 522.

٢ — مملكة تدمر :

خضع عرب بادية الشام لتيارات السياسة العالمية قبل إخوانهم عرب الجزيرة بزمن طويل . فمنذ عهد الملك الآشورى تجلاثفلاسر Tiglath Pileser (٧٤٥ - ٧٢٨ ق.م) كان للعرب هناك مملكة عاصمتها الجوف ، وكانت مقاليد أمورها بيد ملكات كن يتعاقبن على العرش ، ولكنهن كن يخضعن لمملكة آشور حتى عهد إسرحدون Esarhaddon (٦٨١ - ٦٦٩ ق . م)(١) .

وفى عهد الآخيمنيين Achaemenians المتأخرين نشأت دولة الأنباط ، واحترف أهلها التجارة قبل ميلاد المسيح بزمن طويل ، كما سيطروا خلال الحقبة الهيلينية على تجارة القوافل بين جنوب بلاد العرب وشمالها . وكان الأنباط يتكلمون اللغة العربية ، وورد فى أحد نقوشهم أنهم كانوا يستعملون اللغة الآرامية فى الكتابة(٢) . ويرى أنوليتمان إن النبطية لهجة آرامية اختلط بها صيغ وكلمات عربية ، لأن الناس الذين كتبوها كانوا من العرب العاربة ، وأخذوا لغتهم المكتوبة وخطهم المكتوب من الآرام . (٣) وذكر بركلمان أن لغة الأنباط الرسمية كانت اللغة الآرامية حتى فى عهد الآخيمنيين ، وهى نفس اللغة التى وجدت منقوشة على قبورهم المنحوتة فى الصخر(٤) .

---

(١) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 6.

(٢) راجع مقدمة كتاب Nicholson: Literary History of the Arabs

(٣) أنوليتمان : لهجات عربية شمالية قبل الإسلام . بحث مستخرج من مجمع اللغة العربية الملكى سنة ١٩٣٦ .

(٤) Brockelmann: Op. Cit.

وكان للأنباط مركز محترم بين الدول الهيلينية التى أعارتهم ألقاب موظفيهم وزعمائهم العسكريين . ولما ظهر الرومان فوق المسرح العالمى لم يتعرض أباطرتهم أول الأمر لاستقلال الأنباط . إلا أنهم قضوا على هذا الاستقلال سنة ١٠٦ م وضموا مملكتهم إلى الإمبراطورية الرومانية حيث عرفت عندهم باسم « الولاية العربية » .

هكذا دالت دولة الأنباط وتحولت إلى ولاية صغيرة تابعة للحكم الرومانى . واستطاع أذينة بن السميدع وهو شيخ عشيرة عربى أن ينشىء دولة عربية مستقلة فى سورية الشرقية ، أطلق عليها مملكة تدمر . واختلف المؤرخون فى عوامل تسمية هذه المملكة باسم « تدمر » : يقول الهمدانى «إنما سميت تدمر بتدمر بنت حسان بن أذينة »(١) . وقيل إن تدمر تخفيف « تدمرتا » بالآرامية ومعناها « الأعجوبة والمعجزة » لأنها كانت أعجوبة مدن الأرض كلها ، وذهب الأب أنستاس الكرملى إلى أن أصل الكلمة مأخوذ من « التمر » وكذا فى الآرامية فيكون معناه « مدينة النخل » أو «مدينة التمر» لكثرته فيها يومئذ فإن لفظ بلميرا Palmyra يعنى النخلة فتكون هذه اللفظة منقول الكلمة الشرقية(٢) .

وكانت تدمر أسعد حظا من دولة الأنباط ، إذ كانت السيادة فيها للعرب ، على الرغم من أن الآراميين المتأثرين بالحضارة الإغريقية كانوا يؤلفون غالبية سكانها(٣) . ولقد ساعد أذينة ، ڤاليران فى أثناء حربه مع

---

(١) الهمدانى : الإكليل جـ ٨ ص ١٣١ .

(٢) نشر الأب أنستاس مارى الكرملى وحقق الجزء الثامن من كتاب الإكليل للهمدانى . راجع تعليقاته على تسمية تدمر ، فى هذا المصدر جـ ٨ ص ١٣٢ .

(٣) **Broekelmann : History of the Islamic Peoples. p. 7.**

كسرى سابور الأول ، واستطاع أن يطرد المغير من سورية ويقتفى أثره حتى أبواب المدائن عاصمة فارس سنة ٢٦٥ م ، فأنعم عليه الإمبراطور جاليانوس Gallienus بلقب أغسطس Augustus[١] واعترف به قسيما على المشرق Co-emperor of the Orient[٢] .

واستطاعت دولة تدمر أن تسيطر على شؤون التجارة كما سيطر عليها الأنباط ، وعززت مركزها الاقتصادى بمد نشاطها التجارى إلى كثير من البلدان النائية مثل روما وداقيا وبلاد الغال وأسبانيا . وتدل الآثار التى خلفتها تدمر على الدور الهام الذى قامت به خلال ذلك العصر وتشير إلى عظيم اهتمامها بمرافق الحياة الاقتصادية بها حتى عدها بعض المؤرخين مستودعا كبيراً لتجارة الشرق ، واعترف بأن آل أذينة كانوا معاصرين لأمراء الحيرة والأنبار الأولين(٣) .

واعتلت زنوبيا حكم تدمر بعد وفاة زوجها أذينة ، فإن حكمه لم يطل وسرعان ما اغتيل فى عامه التالى لما أحرزه من النصر العظيم على الفرس ، وكانت زوجته زنوبيا المعروفة عند مؤرخى العرب باسم الزباء خير خلف له ، واعتلت عرش تدمر سنة ٢٦٧ م واتبعت سياسة الحياد بين الإمبراطورية الفارسية وروما ، بينما كانت تسعى لتشييد إمبراطورية شرقية كبيرة . غير أن نجاحها فى هذا المشروع لم يكن أعظم من نجاح كليوباترا التى حاولت مثل هذه المحاولة(٤) . وظلت زنوبيا تصرف شؤون تدمر حتى سنة ٢٧٣ م عندما

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 33.

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 7.

(٣) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, Vol. 1. p. 31.

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 33—43.

خرب الإمبراطور أورليانوس Aurelianus مدينة تدمر[١] واقتاد ملكة الشرق أسيرة أمام عربته فى شوارع روما عام ٢٧٤ م . وفوض الرومان أمور حكومة العرب فى سورية بعد سقوط زنوبيا ، إلى أمراء من التنوخيين ثم إلى السليحيين الذين أزالت قبيلة غسان ملكهم عام ٢٩٢ م[٢] .

٣ — مملكة غسان :

انتهى عهد الدول العربية المستقلة فى الشمال بقضاء أورليانوس على تدمر. ولما كانت سورية تؤلف منطقة الحدود الشرقية فى الإمبراطورية الرومانية ، كان على قياصرة الرومان أن يهتموا بهذه المنطقة ويعطوها من عنايتهم النصيب الأوفر . ولذلك أغدقوا الأموال على بعض القبائل العربية هناك ، حتى استطاعوا اتخاذهم صنائع لهم على تخوم البادية ، يستعينون بهم فى صد غارات البدو الذين كانوا يغزون المناطق المتحضرة وينهبونها .

وكانت قبيلة قضاعة أول من قدم الشام من العرب فى صحبة مليكهم مالك ابن فهم بن تيم الله[٣] ، وقيل إن الرومان قد ملّكوا القضاعيين على من ببلاد الشام من العرب بعد أن دخلوا فى النصرانية وأصبحوا صنائعهم ، ولم يلبث أن انتقل الملك إلى بنى سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، الذين استمروا على ذلك زمانا حتى تفرقت الأزد من بلاد اليمن على أثر انكسار سد مأرب ، فسار بطن منهم إلى الشام ونزلوا أرض البلقاء وأقاموا على ماء هناك يقال له غسان فسموا غسان[٤] .

---

(١) كان تخريب تدمر فى عهد أورليانوس عام ٢٧٢ م . راجع :
Gustave : La Civilisation des Arabes, 65.

(٢) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, Vol. 1, p. 31.

(٣) تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٦٧ .

(٤) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ١١٤ — ١١٥ .

ولما نزلت غسان في جوار سليم فرضوا عليهم الأتاوة ، وظل الغسانيون يؤدونها لهم حتى وقعت الحرب بينهم ، وانتصرت غسان على سليح وانفردت بالسلطان دونها . يقول الأصفهاني «إن أول من ملك من غسان ، جفنة(١) بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء ... وكان الذي ملكه على عرب الشام ملكا يقال له نسطورس ، فلما ملك جفنة قتل ملوك قضاعة من سليح الذين كانوا يدعون الضجاعمة ، ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم وبنى جلّق والقرية وعدة مصانع » (٢) .

وكان الحارث بن جبلة أول أمراء بنى جفنة وأعظمهم شأنا بلا منازع ، وقد اختاره الإمبراطور جستنيان حوالى عام ٥٢٩ م ليكون بجانبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة(٣). ولقد رفع الإمبراطور جستنيان الحارث إلى مرتبة الملوك وبسط سيادته على كثير من قبائل العرب بالشام حتى يقيم خصما قويا فى وجه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة . ويستبعد أن يكون الحارث أو أحد خلفائه قد حمل رسمياً لقب « ملك » لأن هذا اللقب كان خاصا بالقيصر وحده ، كما أن الوثائق التى تمثل لغة الحكومة الرسمية أطلقت على الحارث وخلفائه لقب بطريق Patricius أو رئيس قبيلة Phalarch(٤).

وكان تاريخ غسان مضطربا أشد الاضطراب وتميز بعدم الاستقرار إذا ما قيس بتاريخ الحيرة ، إذ أن هناك اختلافا كبيرا فى عدد

---

(١) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الارض والأنبياء ص ١١٥ـ١١٦ .

(٢) كان يطلق أحيانا على جفنة مؤسس البيت الغسانى ، اسم « ثعلبة » .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 51.

(٤) نولدكة : أمراء غسان ص ١٤ ، ترجمة الدكتور بندلى جوزى والدكتور قسطنطين زريق .

ملوك هذه الدولة فضلا عن مدة حكمها . يقول نيكلسون « من الصعب الاعتماد على الأخبار العربية الخاصة بدولة الغساسنة لما فيها من اضطراب ، ولأنه قل أن يجد الباحث مادة يؤلف من شتاتها صورة تاريخية تقريبية يمكن أن تضاف إلى تلك المعلومات المبعثرة فى كتب المؤلفين البيزنطيين »(١) . وسبب هذا الاضطراب فى أقوال مؤرخى العرب هو عدم استقرار حياة الغساسنة الذين لم يكن لهم ملك ثابت ، حتى أنهم اتخذوا أكثر من عاصمة .

وحالف الروم الغساسنة محالفة الند للند ضد الفرس والعرب المغيرين على أطراف مملكتهم ، واشترطوا أن يمدهم الروم بثلاثين أو أربعين ألفاً إذا حاربهم العرب ، وأن يمدوا الروم بعشرين ألف مقاتل إذا تحاربوا مع الفرس(٢) .

وفى أواخر القرن السادس الميلادى ، نشبت الحرب بين الحارث وبين المنذر أمير الحيرة على البادية الواقعة جنوبى تدمر . فقد ادعى أمير الحيرة أن القبائل العربية النازلة فى تلك الأراضى خاضعة لسلطته ، فنازعه الأمير الغسانى، ومن ثم نشبت الحرب بينهما . وانتصر كسرى الفرس لأمير الحيرة فى هذه الحرب ، ويقال إنه أوعز إليه بالتوغل فى سورية ، فامتثل المنذر لهذا الأمر وجال فى سورية حتى أنطاكية (٣) . ورأى جستنيان نفسه مضطراً لأن يكل أمر الدفاع عن هذه الأقاليم إلى الحارث بن جبلة الغسانى (٤) .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 51.

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٥٤٩.

(٣) Sykes : History of Persia, Vol. I. p.482 .

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 43.

وفى سنة ٥٤١ م حارب الحارث بن جبلة فى العراق بجانب الروم تحت قيادة بليزاريوس وعبر نهر دجلة على رأس جيشه ، ثم عاد فارتد إلى مركزه السابق ولم تؤد حملته إلى نتيجة تذكر . ولم يمض على هذه الغزوة زمن طويل حتى عاد الأميران العربيان إلى القتال حوالى سنة ٥٤٤ م ، ووقع فى هذه الحرب أحد أبناء الحارث فى يد المنذر ، فقدمه ذبيحة للعزى وقد استمر القتال بين الأميرين العربيين حتى أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً فى معركة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ م . ومع أن الحارث خسر فى هذه المعركة أحد أبنائه فقد قتل من الجانب الآخر المنذر ملك الحيرة نفسه(١) .

كان الحارث مسيحياً يعقوبيا ، وقد دافع عن مذهبه بحماس وتوفيق عظيمين ، فى وقت كان التعلق بأهداب هذا المذهب مجازفة خطيرة . كما أنه كان لا يدخر وسعا فى الدفاع عن أصحاب الطبيعة الواحدة وتحريرهم من الاضطهاد الذى كان يقع عليهم . وقد تمكن الحارث من تعيين يعقوب البرادعى ، مؤسس الكنيسة السورية القائلة بالطبيعة الواحدة ، أسقفا فى المقاطعات السورية العربية ، فتوطدت بذلك دعائم الكنيسة اليعقوبية بعد أن كانت مهددة بالخطر(٢) . وفى أخريات أيام الحارث زار القسطنطينية ليتفق مع السلطة الحاكمة عمن يخلفه من أبنائه ، واستطاع أن يجتذب إليه عطف الكثيرين ، كما ترك أثراً كبيراً فى نفوس أهلها وخاصة ابن أخى الإمبراطور جستين Justinus(٣) .

وتسلم المنذر بن الحارث زمام الحكم بعد وفاة أبيه ، فسارع لمحاربة

---

(١) نولدكة :أمراء غسان ص ١٨.
(٢) نولدكة : نفس المصدر ص ٢١.
(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 52.

عرب الحيرة الذين كانوا قد أغاروا على سورية بعد وفاة الحارث ، وانتصر على ملكهم قابوس عام ٥٧٠م . ولم يمض على هذا النصر الذى أحرزه المنذر ابن الحارث مدة طويلة حتى كانت العلاقة بين مملكة الغساسنة والروم قد ساءت إلى حد بعيد . ولم يكن الإمبراطور جستين راضيا كل الرضى عن عن الأمير العربى ، ورفض إمداده بالمال ، وأوعز إلى البطريق مرقيانوس أن يحتال عليه ويقتله . ولكن المنذر أحس بهذه المؤامرة ، فشق عصا الطاعة على الروم وظل ثائراً عليهم مدة ثلاث سنوات ، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة وأغاروا على سورية ، وعاثوا فيها ماشاءوا حتى اضطر الروم إلى استرضاء الأمير العربى ليقف فى وجه هؤلاء الغزاة ويُثبتَ أقدام الرومان فى سورية ، منطقة الحدود الشرقية فى الإمبراطورية الرومانية .

ولقد وصل المنذر إلى القسطنطينية ، حيث استقبل هناك بكل مظاهر التبجيل والاحترام وأطلق عليه بعض الكتاب الغربيين لقب : المنذر ملك الشرقيين(١) . غير أن المنذر لم يتمتع طويلا بهذا المركز الذى وصل إليه ، إذ سرعان ماقبضت عليه الحكومة البيزنطية ، وأرسلته أسيرا إلى القسطنطينية . ويرجع السبب فى سخط الدولة الرومانية عليه إلى فشل إحدى حملاتها فى غزو إحدى ولايات الفرس ، فعزت الحكومة البيزنطية هذا الفشل إلى المنذر واتهمته بتواطئه مع العدو .

ولم يكتف الروم بنفى المنذر فحسب ، بل عمدوا إلى قطع الإعانة السنوية التى كانوا يقدمونها لأسرته من آل جفنة . ولذلك سخط على الإمبراطور الرومانى أبناؤه الأربعة ، وشقوا عصا الطاعة على دولته ، وأخذوا يشنون الغارات على أراضيها تحت قيادة أخيهم الأكبر النعمان(٢) . ولكنهم لم يجنوا

---

(١) نولدكة : أمراء غسان ص ٢٦ .
(٢) نولدكة : نفس المصدر ص ٣١ .

من وراء اتباع تلك السياسة شيئاً يذكر ، فسرعان ماتمكن القائد البيزنطى الذى أرسله الإمبراطور ضد هؤلاء الثائرين من القبض على النعمان وأرسله أسيراً إلى العاصمة كماأرسل أبوه من قبل . ومنذ ذلك الوقت حتى الفتح الفارسى لفلسطين عام ٦١٤م ، عمت الفوضى أرجاء مملكة الغساسنة ، وصارت القبائل المختلفة تنتخب رؤساءها الذين كانوا غالباً فى بعض الأحيان من آل جفنة ، ولكن الأسرة الحاكمة كانت فى حقيقة الأمر قد اندثرت تماما(١) . غير أن الروم مالبثوا أن انتصروا على الفرس واستردوا بلاد الشام منهم . وفى ذلك يقول بركلمان : إن أباطرة الروم عند ما انتصروا على الفرس تركوا حكم البلاد (سوريا) إلى أهلها(٢) .

وكان جبلة بن الأيهم هو آخر ملوك غسان ، ويقال إنه أسلم فى عهد عمر بن الخطاب على أثر انتصار العرب فى اليرموك سنة ١٣ هـ (٦٣٦ م) ، غير أنه مالبث أن تحول إلى النصرانية وعاد إلى جانب الروم . ويرجع سبب ارتداده إلى النصرانية ، أن أحد العامة وطىء ذيل إزاره بينما كان يطوف بالكعبة ، فما كان من جبلة إلا أن لطمه لطمة شديدة حتى هشم أنفه ، فشكاه إلى عمر بن الخطاب ، فأمر أن يضربه كما ضربه جبلة ، فعز عليه ذلك واحتال على الهرب مع خمسمائة رجل من قومه ، وذهبوا إلى ملك الروم حيث تنصروا عن آخرهم .

ولقد استطاع الغساسنة أن ينشئوا حضارة أعظم من حضارة اللخميين، وذلك لتأثرهم بالثقافة الهيلينية ، بينما استطاعت الطبيعة البدوية أن تسم اللخميين بميسمها وتؤثر فيهم أعظم التأثير(٣) .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 52.

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 7.

(٣) Nicholson : Op. Cit . p.54.



خريطة قبائل العرب
والإمارات العربية قبل الإسلام

مـــــدن الحجـــــاز

١ — مكة :

تأسست مكة حول منتصف القرن الخامس الميلادى ، وتقع فى قلب الحجاز فى منخفض من الأرض تحيط به بعض التلال . ويمتد وادى مكة من الشمال إلى الجنوب ، وتقع معظم المدينة فيما يشبه الحوض ، ويبلغ عرضه نصف ميل وطوله حوالى ميلين(١) ، وكانت لانخفاضها عرضة لمياه السيول التى تنحدر من التلال حولها ، ومن هنا نرى أن تاريخ مكة تكثر فيه أخبار السيول . ومناخها حار ، ولهذا كان يلجأ إليها جماعات كثيرة من أهل الحجاز، فيتخذونها مشتى لهم بعدأن يكون بعضهم قد قضى صيفه فى الطائف :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وكانت مرافق الحياة فى وادى مكة الضيق ـ وادى الغور ـ شاقة للغاية ، لتعرضه للفح السموم وخلوه من الماء ومن الهواء اللطيف ومن الشجر ، ونعته القرآن بأنه « غير ذى زرع » حتى تذمر بعض كبار مكة من مناخها ، وقالوا ماقاله صفوان بن أمية وزملاؤه من رجال مجلس الشورى القرشى « ليس لنا بها مقام » ، هذا على الرغم من أنهم كانوا يتمتعون بالراحة الطويلة مدة الصيف فى قصورهم البهجة فى الطائف(٢) وجبل السراة . قال ياقوت الحموى يصف مكة : مكة مدينة فى واد ، والجبال مشرفة عليها من جميع

---

(١) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 115.

(٢) Lammens : Taif à la Veille de l'Hégire, Chap. III, p. 45.

النواحى ، محيطة حول الحرم ، وليس بمكة ماء جار ، ومياهها من السماء ، وليست لهم آبار يشربون منها ، وأطيبها بئر زمزم ، وليس بجميع مكة شجر مثمر إلا شجر البادية (١) .

ومكة هى بيت الله الحرام ، ويقال مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت . قال زيد بن أسلم : بكة الكعبة والمسجد ، ومكة ذو طوى وهو بطن الوادى ، ولها عدة أسماء : فهى أم القرى كما سماها الله تعالى فى قوله (لتنذر أم القرى ومن حولها) ، وهى البلد الأمين فى قوله تعالى أيضاً (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) .

كان العمالقة أول من سكن مكة ، ولما أنزل ابراهيم ولده اسماعيل مكة مع أمه هاجر ، كان موضع البيت رَبْوة حمراء ، فأمر ابراهيم هاجر أن تتخذ عليه مسكنا لها ، ثم أنبع الله لها زمزم ، فتفرق العمالقة وجرهم فى البلاد ومن هناك من بقايا عاد . وذهب بنو كركر وهم من العمالقة إلى مكة واستأذنوا هاجر فى النزول بها ، فأذنت لهم . ولما علمت جرهم الثانية بنزول بنى كركر الوادى وما هم فيه من الخصب بادروا نحو مكة ، ونزلوها واستوطنوها مع اسماعيل ومن تقدمهم من العمالقة ، وتكلم اسماعيل العربية خلاف لغة أبيه (٢) .

وقد زار ابراهيم مكة مرتين ، وفى المرة الثانية أمره الله تعالى ببناء البيت ، وساعده فى بنائه ابنه اسماعيل ، (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل) ، وبينما كانا منهمكين فى عملهما هذا جاءهما جبريل وأوصاهما بأداء فريضة الحج . ويؤكد مؤرخو العرب أن الله تعالى

---

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٢٥٨ .

قد أمر آدم بإعادة بناء الكعبة فى وادى مكة الذى كانت الملائكة قد شادتها فيه قبل خلق الإنسان(١) ، وحينما طغى الطوفان وطوى فى لجته كل ما على الأرض ، ورفعت الكعبة إلى السماء ، حتى إذا غاض الماء ، أعاد بناءها فى مكانها السابق اسماعيل وابراهيم(٢) .

ولقد اختلف المؤرخون فى أمر الملك على الحجاز بين جرهم وبين اسماعيل : فقيل إن المُلك كان فى جرهم ومفاتيح الكعبة وسدانتها فى يد ولد اسماعيل ، كما قيل : إن قيدار بن اسماعيل توجته أخواله من جرهم وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز (٣) . وقام بأمر البيت بعد اسماعيل ابنه نابت وهو أكبر أولاده ، ثم قام من بعده أناس من جرهم ، لغلبتهم على ولد اسماعيل ، ويظن أن ولايتهم قد استمرت حتى سنة ٢٠٧ م(٤) .

ولما طالت ولاية جرهم نالوا من الحرم ما لم يكونوا ينالون واستخفوا بحرمته ، وكلما عدا سفيه منهم على منكر ، وجد من أشرافهم من يمنعه ويدفع عنه (٥) . وبعد تفرق سبأ على أثر سيل العرم ، خرج عمرو ابن عامر الذى يقال له مزيقياء بن ماء السماء ، هو وقومه من اليمن وساروا من بلد إلى بلد حتى قاربوا مكة ، فأبت جرهم أن تسمح لهم بالإقامة فى مكة ، وقالت : لا والله ما نحب أن تنزلوا معنا فتضيقوا علينا مراتعنا ومواردنا ، فارحلوا عنا حيث أحببتم ، فلا حاجة لنا بجواركم . ونشبت

---

(١) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 117.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 63.

(٣) صبح الأعشى : جـ ٤ ص ٢٦١ .

(٤) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome, 1. pp.41-42.

(٥) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من آثار جـ ١ ص ٤٦ (طبعة مكة) .

الحرب بين الفريقين واستمرت ثلاثة أيام ، وانتهى الأمر بهزيمة جرهم[١].
وبقى ثعلبة بن عمرو بن عامر بمكة وما حولها حتى أصابتهم الحى ، فدعوا طريفة الكاهنة وأخبروها ما حل بهم ، فدعتهم إلى التفرق فى أرجاء الجزيرة العربية . وعندئذ افترقوا من مكة : وتوجهت فرقة إلى عمان وهم أزد عمان ، وسار ثعلبة بن عمرو بن عامر نحو الشام فنزلت الأوس والخزرج ابنا حارثة ابن عمرو بن عامر المدينة ، ومضت غسان فنزلوا الشام ، وانخزعت خزاعة(٢) بمكة فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر فولى أمر مكة وحجابة الكعبة .

وكان سبب تولية خزاعة أمر البيت أنه « لما ثارت الحرب بين إياد ومضر ابنى نزار ، وكانت على إياد ، قلعت الحجر الأسود ودفنته فى بعض المواضع ، فرأت ذلك امرأة من خزاعة ، فأخبرت قومها فاشترطوا على مضر أنهم إن ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم ، فَوَفَّوْا لهم بذلك ، ووليت خزاعة أمر البيت »(٣) . وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحى ، فعلت مكانته بين العرب حتى أصبح قوله دينا متبعاً لا يخالف . وكان عمرو أول من غير دين ابراهيم وبدله حين خرج إلى الشام ورأى قوما يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنما نصبه على الكعبة . ولما أكثر عمرو ابن لحى من نصب الأصنام حول الكعبة ، غلب على العرب عبادتها ، وانمحت الحنيفية منهم ، وفى ذلك قال سحنة بن خلف الجرهمى :

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ٨ .
(٢) هم قوم ربيعة بن حارثة بن عمرو ، الذين سموا خزاعة لانخزاعهم .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٦ .

ياعمرو ، إنك قد أحدثت آلهةً   شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربٌّ واحد أبدا   فقد جعلت له فى الناس أربابا
لتعرفن بأن الله فى مهـــل   سيصطفى دونكم للبيت حجاباً .

استمرت خزاعة على ولاية البيت نحوا من ثلثمائة سنة وكان آخرهم حليل ابن حبشية بن سلول الذى زوج ابنته حبي من قصى بن كلاب . ولما حضرت حليلا الوفاة جعل ولاية البيت الحرام لقصى وأسلم إليه المفتاح ، فاستولى قصى بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام من يد خزاعة ، وأجلاهم عنها بما كان له من العصبية ، فرحلت خزاعة ونزلت فى بطن مر(١) ، ويقال إن قصيا كان فى زمن بهرام جور بن يزدجرد(٢) .

ما قبيلة قريش فكانت وقتئذ متفرقة فى بنى كنانة . ويقول لامنس إن قريشاً كانت « قبل أن ترتقى إلى مركزها الحالى(٣) ترود حول منطقة الحرم فتؤجر دوابها وتسير فى خدمة القوافل هاديةً محافظةً ، هذا إذا لم ترابط مستترة فى غورى تهامة منتظرة مرور القوافل فتهجم عليها وتنهبها ، وطال عهدها بحياة التشرد ومرن أربابها على الاحتيال والنهب ، حتى أهاب بهم قصى وأخرجهم عن نطاق الفوضى والاضطراب ، وأدخلهم قلب مكة فأقامهم فيها أسياداً » (٤) .

---

(١) وادى فاطمة .

(٢) أبو هلال الحسين العسكرى : الأوائل ص١٣ . مخطوط بدار الكتب المصرية ، محفوظ تحت رقم ٢٧٧٣ تاريخ .

(٣) أى قبل أن تصبح سيدة مكة وحاملة زعامتها .

(٤) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Mecque au Siécle de L'Hegire . Journal Asiatique, Onzieme Série, tome VIII. 1916. pp. 425—482.

واختلف المؤرخون فى تسمية قريش بهذا الاسم. قال ابن هشام : النضر هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشي ومن لم يكن ولده فليس بقرشي ، وقيل إن فهر بن مالك هو قريش ، وأوضح الأكثرون من نسابة العرب أنه النضر بن كنانة (١) .

أما اشتقاق قريش فقيل من التقرش بمعنى التجمع بعد التفرق ، وذلك عندما كانت قريش متفرقة فى بنى كنانة فجمعهم قصى بن كلاب من كل أوب، فسموا قريشاً وسمى قصى مجمعاً (٢). قال حذافة بن غانم بن عامر القرشى(٣):

قصى أبوكم كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

وقيل سميت قريش من التقرش وهو التكسب والتجارة . قال هشام ابن الكلبي : « كان النضر بن كنانة يسمى قريشاً لأنه كان يقرش عن خلة الناس وحاجتهم ، فيسدها بماله ـ والتقريش هو التفتيش ـ وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة ، فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم ، فسموا بذلك قريشاً »(٤) . وقيل أيضا إنما سميت قريشا بدابة فى البحر تسمى « القرش» ، فشبه بنو النضر ابن كنانة بها لأنها أعظم دواب البحر قوة .

كذلك عرفت قبيلة قريش فى الجاهلية بعدة أسماء ، منها : العالمية ، قال أبو هلال العسكرى « كانت قريش تسمى فى الجاهلية « العالمية» ، لفضلهم وعلمهم (٥) ، قال الفضل بن عباس بن عتبة :

ألسنا أهل مكة عالميا وأدركنا السلام بها رطابا

(١) ابن كثير القرشى : البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣١٢ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ١ ص ٢١ ، النسخة الشمسية المحفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١١٠٣ تاريخ .

(٤) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ص ٢٠١ .

(٥) أبو هلال العسكرى : الأوائل ص ٧٤ ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٧٧٣ تاريخ .

ويقول ابن عبد ربه : كانت قريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله (١) ، وفى ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم :

نحن آل الله فى ذمته لم نزل فيها على عَهْدٍ قدَمْ
إن للبيت لرباً مانعا مَنْ يُرِدْ فيه بإثم يخترمْ

ومن أشهر الأسماء التى لُقبت بها قريش فى الجاهلية وعرفت بها لفظ « السخينة »(٢) ، وظل هذا الإسم يلازمها حتى فى العهد الإسلامى ، قال كعب بن مالك :

جاءت سخينة كى تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب(٣) .

وقال خداش بن زهير

ياشدة ما شددنا غير كاذبةٍ على سخينة لولا الليل والحرم

ووجد صدى هذا اللقب بعد الهجرة فى أهجية مرة للنجاشى ، لذع فيها القرشيين ، حتى أن ابن قتيبة قال عنه : هجا قريشا لعنه الله (٤) ، ومن هذه الأهجية :

سخينةٌ حتى يعرف الناس بها قديما ولم تعرف بمجدٍ ولا كرمْ
فيا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها إذا ولى الملك التنابلة القدَمْ

وبعد أن جمع قصى بن كلاب قريشا من سهول مكة ، وأسكنها منطقة الحرم ، أصبح سيد قريش وشريفها ، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره من

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٣١٣

(٢) السخينة : نوع من الطعام يتخذ من الدقيق ويؤكل فى شدة الدهر وغلاء السعر ، وكانت قريش تأكله فعيبت به وهجت حتى لقبت بالسخينة .

(٣) ابن هشام : السيرة ص ٧٠٥

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٩٠ ، طبعة De Goege .

المناصب ، فكان بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة(١) :

١ — الحجابة هى سدانة الكعبة ، فلا يفتح بابها إلا هو ، كما أنه يلى أمر خدمتها .

٢ — والسقاية هى إسقاء الحجيج الماء العذب ، وكان عزيزا بمكة يجلب إليها .

٣ — والرفادة هى إطعام الحجاج ، حيث تمد لهم الأسمطة فى أيام الحج ، وتستمر حتى تنقضى .

٤ — والندوة هى نادى قريش ومجمع الملأ والسراة فيها ، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام ، فسيحة وسيعة ، وفيها كانت قريش تقضى شئونها العامة :

ا — فلا تزوج امرأة إلا فى دار الندوة .

ب — ولا يعقد لواءٌ إذا خرجت قريش للحرب إلا فى دار الندوة .

حـ — ولا يعذر غلام ولا تُدرع جارية إلا فيها . وكان الغرض من ذلك هو مجرد إحصاء وتسجيل للبالغين من قريش ، الذكور والإناث(١) .

د — ومن دار الندوة ترحل قوافل قريش للتجارة ، وفى فنائها تحط هذه القوافل حمولتها إذا رجعت .

هـ — وتعتبر دار الندوة دار مشورة قريش ، فيها يجتمع ملؤها للتشاور فى أمورها ، ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بنى قصى إلا من بلغ

---

(١) عبد الحميد العبادى بك : دار الندوة . إحدى موضوعات كتاب « صور من التاريخ الإسلامى ، العصر العربى » ص ٦ — ١٢ .

أربعين سنة ، فى حين كان يدخلها بنو قصى وحلفاؤهم جميعا ، وقد أصبحت دار الندوة بعد بنى عبد الدار إلى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد فباعها فى الإسلام بمائة ألف درهم(١) .

٥ — واللواء هى راية يلوونها على رمح ، وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو ، فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها .

٦ — والقيادة هى تولى إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب .

ولقد جعل قصى مكة أرباعاً وزعها بين قومه ، وأبقى لكل فريق منهم منازلهم التى استقروا عليها . وكان لقصى عدة أبناء ، من أشهرهم عبد الدار وعبد مناف . فأجمع قصى على أن يقسم أمور مكة الستة ، التى فيها الذكر والشرف والعز ، بين ابنيه : فأعطى عبد الدار السدانة وهى الحجابة ودار الندوة واللواء ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة (٢) وبقيت قريش على ذلك زمانا . ثم أن عبد مناف رأى فى نفسه وولده ، وهم : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، من النباهة والفضل ما دلهم على أنهم أحق من عبد الدار بالأمر ، فأجمعوا على أخذ ما بأيديهم من الوظائف ، وهموا بالقتال فتفرقت قريش إلى فريقين : مال فريق منهم إلى بنى عبد مناف ابن قصى ، أما الفريق الآخر فقد رأى أن لا ينزع من بنى عبد الدار ما أسنده قصى إليهم . فمشى الأكابر بينهم ودعوا إلى الصلح ، على أن تظل السقاية والرفادة لعبد مناف ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار ، وتعاقدوا على ذلك حلفا مؤكدا . فأخرجت بنو

---

(١) السهيلى : الروض الأنف ج ١ ص ٨٨ .

(٢) أبو البقا محمد بهاء الدين : تاريخ مكة المعرفة ص ٤٩ . مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٠٥٧٠ تاريخ .

عبد مناف ومن تابعهم من قريش ، وهم : بنو الحارث بن فهر وأسد ابن عبد العُزى وزُهرة بن كلاب وتيم بن مُرة ، جفنة مملوءة طيبا وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة توكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين . وأخرجت بنو عبد الدار ومن تابعهم ، وهم : مخزوم بن يقظة وجمح وسهم وعدى بن كعب ، جفنة مملوءة دماً وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة ، فسموا الأحلاف « ولعقة الدم »(١) .

وزعت الوظائف التى اختص بها بنو عبد مناف بين هاشم وأخيه عبد شمس : أما هاشم فكانت إليه الرفادة(٢) مع السقاية لأنه كان موسرا ، فإذا ما حضر موسم الحج قام فى قريش وقال : « يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وإنكم يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله ، يعظمون حرمة بيته ، وهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به ، حفظه منكم وأفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره ، فإنهم يأتون شُعْثاً غبرا من كل بلد على ضوامر(٣) كالقداح(٤) وقد أزحفوا وتفلوا وقملوا وأرملوا(٥) ، فأقروهم وأغنوهم وأعينوهم »(٦) . وكان هاشم يأمر بحياض من أدم فتجعل فى موضع زمزم ثم يستقى فيها من الآبار التى بمكة فيشرب الحاج ، وما يزال يطعم حجاج البيت ويسقيهم حتى يتفرقوا لبلادهم .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان

(٢) الرفادة : من الرفد وهو الإعانة ، رفد يرفده رفدا أى أعطاه .

(٣) ضوامر : جمع ضامر وهو الجمل الذى هزل .

(٤) القداح : مفردها قدح وهى السهام .

(٥) أزحف الرجل إذا أعيت إبله ، وتفل إذا ترك الطيب ، وقمل أى كثر قمله ، وأرمل أى احتاج فيقال رجل أرمل أو امرأة أرملة أى محتاجة .

(٦) المقريزى : النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم ص ٨ ، تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

أما عبد شمس فإنه نظرا لكثرة أسفاره وقلة إقامته بمكة ولأنه كان رجلا مقلا وله ولد كثير، فقد تولى القيادة دون الرفادة، وتولاها من بعده ابنه أمية بن عبد شمس ثم حرب بن أمية، فقاد الناس يوم عكاظ وغيره. ثم قاد أبو سفيان بن حرب قريشا بعد أبيه حتى كان يوم بدر. فقاد الناس عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فلما كان يوم أحد قاد الناس أبو سفيان ابن حرب، وقاد الناس يوم الأحزاب وكانت آخر واقعة لقريش حتى جاء الله تعالى بالإسلام(١).

كان هاشم بن عبد مناف يسمى عمرا، وإنما قيل له «هاشم» لهشمه الخبز لقومه بعد أن حدث جدب شديد في مكة، فخرج هاشم إلى الشام واشترى خبزا وأتى به إلى مكة، وصار يهشمه لقومه، فسمي هاشماً. ولقد حدثت منافرة(٢) بين هاشم بن عبد مناف وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس، وسببها أن أمية كان ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من إطعام قريش، فعجز عن ذلك، وشمت به ناس من قريش وعابوه. فنافر هاشما على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي جد عمرو بن الحمق وكان منزله عُسْفان، وخرج مع أمية أبو همهمة حبيب ابن عامر بن عميرة، فقال الكاهن الخزاعي: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر»(٣)، فأخذ هاشم الإبل فنحرها

---

(١) ابو التقا محمد بهاء الدين، تاريخ مكة المشرفة ص ٥٨ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٠ تاريخ.

(٢) المنافرة أي المحاكمة، يقال: نافرت فلانا إلى فلان فنفرني عليه أي غلبني... وكانت المنافرة عند العرب أن يسأل الخصمان الحكم ... أينا أعز نفرا وأكثر فخراً؟

(٣) الإبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف جـ ١ ص ١٠٠.

وأطعم لحمها من حضر ، وخرج أمية إلى الشام فأقام به عشر سنين ، فكان هذا أول عداوة وقعت بين بيت هاشم وبيت أمية(١) ولما توفى هاشم خلفه أخوه المطلب فى إقامة الرفادة والسقاية ، وكان ذا شرف فى القوم وفضل ، وكانت قريش تسميه « الفيض » لسماحته وفضله(٢) . وقد خلف المطلب فى الرفادة والسقاية ابن أخيه « شيبة » بن هاشم المشهور بعبد المطلب الذى لقب « بشيبة الحمد » لكثرة حمد الناس له ولأنه كان مفزع قريش فى النوائب وملجأهم فى الأمور ، فكان شريف قريش وسيدها كمالاً وفعالاً غير مدافع(٣). ولما توفى عبد المطلب قام بالرفادة والسقاية العباس بن عبد المطلب ، ولم يزل يتولاهما حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة سنة ٨ هـ فأبقاهما فى يده .

أما بنو عبد الدار فقد اختصوا بالحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة . ولم تزل الحجابة بيد عبد الدار حتى توفى ، بعد أن جعل الحجابة بعده إلى ابنه عثمان بن عبد الدار ، ودار الندوة إلى ابنه عبد مناف بن عبد الدار . ولم يزل بنو عثمان بن عبد الدار يلون الحجابة دون ولد عبد الدار حتى كان فتح مكة ، فقبضها رسول الله من أيديهم وفتح الكعبة ودخلها ، ثم خرج رسول الله من الكعبة ومعه مفتاحها ، فقال له العباس بن عبد المطلب « بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أعطنا الحجابة مع السقاية » . فأنزل الله تعالى على نبيه (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، فدعا رسول الله عثمان بن طلحة ، ودفع إليه المفتاح وقال « خذوها يابنى أبى طلحة بأمانة الله

---

(١) المقريزى : النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم ص ١٠ .

(٢) ابن هشام : السيرة ص ٨٨

(٣) قيل إنه سمى بشيبة الحمد لأنه ولد وفى رأسه شيبة ، أو سمى بذلك تفاؤلا بأن يبلغ سن الشيب .

سبحانه ، واعملوا فيها بالمعروف، خالدة تالدة لا ينزعها من أيديكم إلا ظالم»(١) .
أما اللواء فكان فى أيدى بنى عبدار كلهم ، يليه منهم ذوو السن والشرف ،
حتى كان يوم أحد فقتل عليه من قتل منهم .

علاقة قريش بقبائل العرب فى الحجاز :

قام القرشيون بعدة محاولات فى سبيل السيطرة على قبائل العرب . وكان
موقع مكة الجغرافى على الطريق التجارى بين حضرموت وبلاد الحجر
العربية مما أعان كثيراً على ذلك . وكانت مكة مدينة تجارية عظيمة ، لأهلها
رحلات تجارية شتوية وصيفية ، والقوافل تذهب إلى مختلف الجهات حاملة
البضائع من قطر إلى آخر وبلغ عددها نحو ألفين وخمسمائة جمل فيها ما بين
المائة والثلثمائة رجل(٢) .

وبلغ امتداد تجارة قريش بين مختلف القبائل إلى هاشم بن عبد مناف .
يقول أبو هلال العسكرى : كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو
مكة وما حولها ، فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، فنزل بقيصرية ،
وكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويدعو من حوله ، فكان من
أتم الناس وأجملهم ، فذُكر ذلك لقيصر فأحضره ، فقال له هاشم « أيها الأمير
إن قومى تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لى كتاباً تؤمنهم به فيقدمون
عليك ما تستطرف من أمتعة الحجاز فيكون ذلك أرخص لكم ، فكتب
قيصر كتاب أمان لمن يقبل منهم . فخرج هاشم به ، فكلما مر بحى من العرب أخذ

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص٦٢ (مطبعة مكة) .
(٢) لامنس : الموسوعة الإسلامية ، مادة Mecca .

من أشرافهم الايلاف (الأمان) حتى قدم مكة »[١] .

ولا شك فى أن الحياة التجارية قد نمت ثروة المكيين ورفعت من شأن بلدهم فى نظر قبائل العرب حتى أن لامنس ذكر أن ثروة مكة تعادل ثروة تدمر[٢] . كما كان من وراء تبادل التجارة وانتشارها فى مكة ماعاد على أهلها بالأرباح الطائلة، ولم يكن حب أبناء الأشراف وأهل الشرف فيهم للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم .

ولم يقتصر تجار مكة على الأرباح الطائلة التى درتها عليهم التجارة والأسفار، بل عمدوا إلى بيع الرقيق فى بلدهم . وكانت مكة فى ذلك مقصد الأثرياء وملتقى التجار ، وظلت مكة سوقا للرقيق منذ القديم ، وظلت كذلك إلى عهد قريب . ولقد شاهد رتر سوق العبيد فى مكة ، فلاحظ أن أعمارهم كانت تتراوح بين الثامنة والتاسعة إلى الخمسين من كلا الجنسين ، وكان الرجال يرتدون القمصان المكية القصيرة[٣] ، أما النساء فكن يلبسن الملاءات الواسعة التى تغطى أجسامهن بما فى ذلك أيديهن[٤] . وكانت هذه السوق تقام فى موضع يسمى « الحَزْوَرة » ، يلى البيت الحرام[٥] .

---

(١) أبوهلال العسكرى : الأوائل ص ١٥ . مخطوط بدارالكتب رقم ٢٧٧٣ تاريخ .

(٢) لامنس: الموسوعه الإسلاميه ، مادة **Mecca** .

(٣) مما يدل على أن معظم الرقيق كان من مكة .

(٤) Rutter: Holy Cities of Arabia,p.134.

(٥) الحزورة ، بفتح الزاى وتشديد الواو ، هو موضع سوق مكة - البكرى : معجم ما استعجم ص ٤ (نشرالأستاذ مصطفى السقا) .

ومما ساعد على علو مكانة قريش بين قبائل العرب ، عقدها حلف الفضول(١) . وسبب ذلك الحلف أن رجلا من زبيد قدم مكة بتجارة له فاشتراها منه العاص بن وائل ، غير أنه حبس ثمنها عنه ، فما كان من الزبيدى إلا أن استعدى عليه الأحلاف من قريش فأبوا أن يعينوه على العاص لمكانته فيهم . فلما عيل صبر الزبيدى صعد جبل أبي قبيس(٢) عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح الزبيدى بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته   ببطن مكة نائى الدار والنفر
إن الحرام(٣) لمن تمت حرامتُه   ولا حرام لثوب(٤) الفاجر الغدَر(٥) .

فقام الزبير بن عبد المطلب واجتمعت هاشم وزهرة وتيم فى دار عبد الله ابن جدعان ، وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى ما عليه . فسمى ذلك الحلف حلف الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى وردوها إليه(٦). وقال الزبير :

---

(١) اختلف المؤرخون فى بيان الأسباب التى من أجلها أطلق اسم الفضول على ذلك الحلف : قيل سمى بذلك لأنهم تحالفوا أن لا يتركوا عند أحد فضلا يظلمه أحدا إلا أخذوه منه ، وقيل سمى به تشبيهاً بحلف كان قديما بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوى والغريب من القاطن، وسمى حلف الفضول لأنه قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل : الفضل بن الحرث والفضل ابن وادعة والفضل بن فضالة فقيل حلف الفضول جمعا لأسماء هؤلاء .

(٢) أبو قبيس أحد أخشبى مكة أى جبلاها، وجاء فى القاموس أن الأخشبين هما أبو قبيس والأحمر ، بينما يقول ابن بطوطة أن جبل قيقعان هو أحد الأخشبين . مهذب رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١١٦ .

(٣) الحرام : الاحترام .

(٤) لثوب : لشخص

(٥) الغدر : الكثير الغدر

(٦) الدكتوران حسن إبراهيم بك وعلى إبراهيم: النظم الإسلامية ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

حلفت لنعقدنْ حلفاً عليهم ... وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا ... يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا ... أباة الضيم نمنع كل عار(١)

وهناك أبيات أخرى لا تختلف عن سابقتها إلا فى اللفظ :

يالَ قُصَىٍّ لمظلومٍ بِضَاعَتُه ... ببطن مكةَ نائى الدار وَالنفَر
وَأشعثٍ مُحْرِمٍ(٢) لم تُقْضَ حُرْمَتُه ... بين المقامِ(٣) وَ بينَ الحِجْرِ وَالحَجَر
أقائمٌ مِنْ بنى سَهْم بذمَّتِهِمْ ... أَوْ ذَاهبٌ فِى ضَلَالٍ مالُ مُعْتَمِرِ(٤)

فأجابهُ العباس بن مِرْدَاس السُّلَمِىّ بقوله :

إنْ كَانَ جَارُكَ لَمْ تَنْفَعْكَ ذِمَّتُه ... وَقَدْ شَرِبتَ بِكَأسِ الذُّلِّ أنفاساً
فأتِ البيوتَ وَكنْ من أهلها صَدَداً(٥) ... لاَ يَلْقَ نادِيهم(٦) فُحْشَاً وَلا باساً
وَمَنْ يكنْ بفناء البيتِ مُعْتَصِماً ... يَلْقَ ابنَ حَربٍ(٧) وَيلْقَ المرءَ عَبّاساً
قومى قرَيشٌ بأخلاقٍ مُكَمَّلَة ... بالجدِ والحزمِ ماعاشا وَماساسا(٨)

---

(١) السهيلى : الروض الأنف ج ١ ص ٩١ .

(٢) الأشعث : مغبر الرأس ، متلبد الشعر أومنتشره لقلة تعهده بالدهن ، وهو ما يحرم على المحرم فعله .

(٣) المقام : مقام ابراهيم . والحِجر « بالكسر » مكان سيدنا إسماعيل بالحرم . والحجر « بالفتح » : الحجر الأسود المعروف فى الكعبة .

(٤) المعتمر : هو الذى يؤدى العمرة ، وهى أفعال مخصوصة تسمى بالحج الأصغر ، وأفعالها : الإحرام والطواف والسعى بين الصفا والمروة . والفرق بينهما وبين الحج : أن الحج يكون فى وقت معلوم من السنة ، والعمرة تكون للانسان فى السنة كلها .

(٥) الصدد « محركة » : القصد .

(٦) فى الأحكام السلطانية : « لا تلق تأديبهم » .

(٧) هو أبو سفيان .

(٨) ورد هذا البيت فى الأغانى ج ١٦ ص ٦٥ هكذا :

قومى قريش وحلاق ذوائبها ... بالجد والحزم ماحازا وماساسا .

ساق الحَجِيجَ وهذا يَاسِرٌ فَالِجٌ[١]   وَالمجدُ يُورَثُ أَخْمَاساً وَأَسْداسَا

وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قد شهد هذا الحلف ، وقال : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حِلفاً ما أُحِبُّ أن لى به حُمرَ النَّعَم لو أُدعى به فى الإسلام لأَجبتُ[٢] .

ولم تكن مكة مدينة تجارية فحسب ، بل كانت فوق ذلك مركزاً دينيا يؤمه فى المواسم كثير من القبائل العربية . كما كان مكانها من الحرم يضمن لها على الغالب سلامة أرزاقها ، ويضعها بعيداً عن سطوة جيرانها من ذوى المطامع الجريئة التى كانت تدفعهم أحيانا إلى غزوة منطقة الحرم . ولا مراء أن موقع مكة كان يجلب إليها عدداً كبيراً من شذاذ القفر وخلعاء العرب خاصة أيام الحج . وطالما فكر القرشيون فى استخدام شجاعة الخلعاء وقوتهم[٣] فى سبيل مصالحهم التجارية ، فكانوا يستخدمونهم للمحافظة على قوافلهم فى رحلاتها البعيدة[٤] ، كما كانوا يرون فى هؤلاء الشذاذ والخلعاء زبائن ذوى أموال لم يبذلوا الجهد الكثير فى تحصيلها فينفقونها بسهولة فى حوانيت مكة .

على أن أهل مكة لم يستطيعوا التغلب على جيرانهم القاطنين حول الحرم إلا بصعوبة كبيرة ، فكثيراً ما قامت تلك القبائل الفقيرة الضاربة فى مرتفعات تهامة المجدبة بمختلف ضروب الاحتيال على الحيـــاة بجميع الطرق المشروعة وغير المشروعة . ومن بين هذه القبائل الفقيرة التى امتازت

---

(١) الياسر : المقامر . والفالج : الغالب .

(٢) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص٨٦ .

(٣) من أهم صفات الخليع : الجرأة والإقدام دون مبالاة بالموت . وخير ما يمثل لنا ذلك قول عباس بن مرداس :

أقاتل فى الكتيبة لا أبالى   أفيها كان حتفى أم سواها .

(ابن الأثير : أسد الغابة جـ٣ ص ١١٣) .

(٤) Lammens : Berceau de L'Islam, Vol. I, p. 334.

بالخبث والدهاء وعدم التحرج ، نجد قبيلتى بنى غفار المتصلة بجذع كنانة وقبيلة بنى أسلم التى تمثل فى قبيلة خزاعة ما يمثله بنو غفار فى قبيلة كنانة . وكانت قبيلتا غفار وأسلم شرّ سكان أهل تهامة .

واشتهر الغفاريون بالتلصص ونهب المسافرين حتى الحجاج فسموا « سرّاق الحجيج » ، وكثيراً ما أفسدوا على تجار مكة آمالهم ومساعيهم فنهبوا تجارتهم وعرقلوا سير قوافلهم حتى أنهم كانوا يقتلون من يستفردونه من أهلها . حدثنا ابن هشام « أن ابنا لحفص بن الأخيف أحد بنى معيص بن عامر لؤى ، خرج يبتغى ضالة له ، وكان غلاماً وضيئاً نظيفاً ، فمر بعامر بن يزيد بن عامر أحد بنى بكر بن عبد مناه(١) وهو سيد بنى بكر ، فرآه فأعجبه . قال : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا ابن لحفص بن الأخيف القرشى . فلما ولى الغلام ، قال عامر بن يزيد : يا بنى بكر ! أما لكم فى قريش من دَم . قالوا : بلى والله أن لنا فيهم لدماء . قال : ما كان رجل ليقتل هذا الغلام برجُله إلا كان قد استوفى دَمَه ، فتبعه رجل من بنى بكر فقتله بدم كان له فى قريش »(٢) .

وقد ظل البراد مثالا أعلى للخلعاء الغفاريين ، وكان يقوم بمغامراته خفية ، ثم ينشرها فى أنحاء الجزيرة العربية بكل ما تقتضيه شروط التمثيل المسرحى من زهو وافتخار ، حتى ضج القرشيون من أعماله ، فاستلحقه بنو أمية وجعلوه حليفاً لهم وأنزلوه مكة . بيد أنه لم يفارق ما شب عليه من أعمال النهب والسلب فعاد القرشيون إلى التذمر منه ، فترك المدينة دون أن يترك حلف الأمويين . ثم علقت الأسطورة بمغامراته وما اتصف به من جرأة

---

(١) كثيرا ما دعيت غفار « بكر بن عبد مناة » حتى عرفت قبيلتهم بهذا الإسم.
(٢) ابن هشام : السيرة ص ٤٣١.

وحيلة وبطش ، فولدت منها آثار أضيفت فيما بعد إلى الآثار الأدبية المختصة باللصوص[١].

كانت غفار شوكة فى حلق قريش ، لما كان لمنزلها من موقع جغرافى بين مكة والشام ، فإن أبا ذر الغفارى لما أسلم بين يدى الرسول أتى المسجد فشهر إسلامه بأعلى صوته ، فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه ، وقال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأنه فى طريق تجارتكم إلى الشام[٢] . لذلك عمل القرشيون على جذب الغفاريين إلى حلفهم حتى يأمنوا شرهم حرصا على مصلحة أهل مكة التجارية والسياسية ، وذلك لما عرف عن الغفاريين من الميل إلى السلب والنهب[٣].

وقد فكر سادة البطحاء[٤] وأسياد مكة فى استخدام بدو تهامة ، سواء أكانوا ينتمون إلى كنانة أو إلى خزاعة ، للدفاع عن منافعهم السياسية والتجارية ، فكان القرشيون يختارون منهم عدداً من العسكر المأجور فى جيشهم المسمى « بالأحابيش » . وكما عَرف أولو الأمر فى مكة شجاعة الغفاريين وغيرهم من بدو تهامة ، فإنهم قدروا كذلك جرأة

---

(١) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Mecque. Journal Asiatique, 1916.

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ٣ ص ١٨٧ .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ص ١٩٠ .

(٤) كانت قريش فريقين : فريقا حل ببطحاء مكة فكانت بيوتهم حول بئر زمزم وقرب ساحة الكعبة فعرفوا بقريش البطاح ، والبطاح جمع بطحاء وهى الأرض ذات الحصى ، وكانت قريش البطاح عشرة أبطن : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم . أما الفريق الآخر فهم فريق الظواهر لأنهم استقروا بظواهر مكة . ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٣١٣

ذؤبان(١) العرب وفتاكهم الذين خلعتهم قبائلهم وتبرأت من جرائر أعمالهم ، فكانوا يلحقونهم بهم ويدخلونهم فى نطاقهم ، ليبذلوا نفوسهم فى سبيل مصالحهم . وتاريخ مكة إبان العصر الجاهلى مفعم بذكر فتكات البرّاد وأبى الطمحان(٢) والحرث بن ظالم الذين كانوا يلقون الرعب فى أنحاء الجزيرة العربية فى سبيل مصالح الأمويين والمخزوميين والهاشميين . وتدلنا النصوص العربية التاريخية على أن القوة العسكرية التى استأجرتها مكة المحافظة على الأمن الداخلى والدفاع عن منافعها التجارية ، كانت عبارة عن أحياء من عرب تهامة وأخرى كانت تنزل ظاهر مكة .

وقد كثر الجدل بين المؤرخين حول كلمة « الأحابيش » والمقصود بها . يقول ابن هشام فى « السيرة » عن ابن اسحق : « الأحابيش بنو الحارث ابن عبد مناة بن كنانة ، والهون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة تحالفوا جميعا فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة »(٣) . لذلك قيل عن الأحابيش « إنهم حلفاء قريش السياسيون » .

غير أن لا ننس ذكر أن القول بأن وصف الأحابيش بأنهم حلفاء قريش هو ما ورد فى السيرة ليس إلا(٤) ، وأن أعمال البطولة المنسوبة

---

(١) الواقدى : تاريخه (Kremer) ص ٥٨ ، الطبرى ج ١ ص ١٤٣٨ . وقد سمى هؤلاء اللصوص ذؤبانا لأنهم يشبهون الذئاب .

(٢) كان شاعرا خلعته قبيلته فالتحق بخدمة القرشيين ويقال إنه كان حليفا للزبير بن عبد المطلب الهاشمى .

(٣) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٤٥

(٤) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Mecque. Journal Asiatique, 1916. pp. 425-482.

لعلى بن أبى طالب وحمزة موضع شك"، "وأن قبيلة قريش الحضرية قد اهتمت شديد الاهتمام بأن تؤيد شهرتها فتحمى نفسها بعدد من الأقوال والوصايا منسوبة إلى الرسول ، وأن البدو كانوا يرون فى قريش تجاراً لا هم لهم إلا جمع المال والإكثار من الأرباح وهم ما عدا ذلك جبناء لا يجرأون على تسيير قوافلهم إلا إذا دفعوا لبعض سادة القفر مبلغاً من المال فى سبيل خفارة تلك القوافل[١]، وأن النظرية التى ترمى إلى إقرار السيادة القرشية فى العصر الجاهلى لا تستند إلى أساس ، وأن ما نسب إلى خالد بن الوليد المخزومى وعمرو بن العاص السهمى وغيرهما من كبار القرشيين ـ قادة الفتوح العربية ـ لا يتفق وما ذكر من ميل قريش عن الحرب والكفاح إلى التجارة وتدبير الأموال وما يتبع ذلك من تأصل الحذر والخوف الدافعين إلى الجبن(٢)، وأن القرشيين قد لجأوا فى الجاهلية إلى

---

(١) راجع كتاب Fatima, p. 29. Berceau de l'Islam, Vol. 1. pp. 332-334.

(٢) وقد بين الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن بك فى «دراسات فى مناهج البحث والمراجع فى التاريخ الإسلامى» (مجلة كلية الآداب مايو سنة ١٩٥٠ ص ١٧٧ـ١٧٨) رأيه فى الأب لامنس ، فقال: كان الأب لامانس من أشد المتعصبين على الإسلام . وهو بعد ذلك من المعجبين ببنى أمية ، لأن الدولة التى أقاموها كانت تعنى بمظاهر الملك وبالعصبية العربية أكثر من عنايتها بالدين وشؤونه ولأنها قامت فى الشام وتأثرت بالمدنيات القديمة التى قامت فى ربوعه . وكان المستشرقون أنفسهم يعرفون فى لامانس هذا العيب ويأخذونه عليه ، ولكنه كان واسع الاطلاع ، وحسب الدارس تمرناً ومراناً فى التاريخ الإسلامى أن يقرأ لامانس وأن يهضم ما يرويه من أبحاث وأن يبحث وينقب ليستطيع الرد على الجزء الباقى فيها وأن يراجع النصوص التى كان لامانس يبنى عليها أحكامه ليرى كيف كان يجحف فى تفسير بعضها ويحمل بعضها الآخر ما لا تحتمل. وقصارى القول أن قراءة لامانس ومن على شاكلته رياضة علمية ميدانها الكتب والمكتبات وتقرع فيها الحجة بالحجة ويدفع النص الواحد بالنصوص الكثيرة ثم قال (ص ١٨٢) من بحثه المذكور « كتب لامانس كثيراً فى تاريخ بنى أمية ولكن ما كتبه يشوبه التعصب الدينى أولا والتعصب لبنى أمية بعد ذلك » . =

مأجورى الأحابيش فى الدفاع عنهم والمحاربة دونهم واعتمد لامنس فى ذلك على ما جاء فى الأغانى من قول الشاعر :

فضحتم قريشا بالفرار وأنتم　　تمدون سودانا عظام المناكب
فأما القتال ، لا قتال لديكم　　ولكن سيرا فى عراض المواكب

واستدل من ذلك على قدم عادة استئجار الأحابيش وأنها ليست من الطرق التى لجأ إليها القرشيون فى عصر قريب من الهجرة وأنها عاطفة متأصلة فى القرشيين منذ فجر تاريخهم . ورأى لامنس أن وصف السودان بعظم المناكب إنما يطلعنا على أنهم من أبناء حام ، فيحول بذلك بيننا وبين ما قد يتوهمه البعض ، إذ ينفون وجود السودان . ويفسرون الأحابيش بالعرب المسودة وجوههم بتأثير شمس الحجاز أو المنسوبين إلى ما يتصوره اللغويون من وجود جبل إسمه الحبشى[1] .

ويرى كليمان هوارت ، أن العرب كلهم ـ حضروا أو بدوا ـ كانوا يولدون رجال حرب ، مما يناقض ما ذهب إليه لامنس[2]. ويقول الأستاذ عبد الحميد العبادى بك : إن المدلول التاريخى لكلمة الأحباش متمش مع

=وقال زكي حسن بك في مجلة المقتطف ـ ديسمبر سنة ١٩٣٧ عن لامنس: « ومع أن هذا الراهب المؤرخ أخذ كثيرا من آرائه عن شيوخ المستشرقين فإنه انتحى ناحية ميزته عنهم وبالغ فى التعصب على الإسلام حتى أفسد ذلك عليه فى بعض النواحى وجعل المؤرخين وعلى رأسهم المستشرقون يشكون فى أمانته العلمية ويتهمونه بركوب متن الشطط » .

(١) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Mecque. Journal Asiatique, 1916.

(٢) Cl. Huart : Journal Asiatique, 1913, p. 216.

مدلولها اللغوى ، غير أنه يجعل مناط التسمية تحالف هذه القبائل ومحالفتها قريشا بمكان معين ، وهو أمر لا يؤثر بحال فى صحة النتيجة التى وصلنا إليها بهذه المقارنة ، وهى أن الأحابيش عرب . والحق إنا بإزاء قبيلة عربية آخذة فى التكون بواسطة الحلف الذى كان سببا فى تكون كثير من القبائل العربية القديمة . ولولا مجىء الإسلام وحيلولته دون تمام المزج بين الأحياء المؤلفة للأحابيش لأصبحت هذه الأحياء قبيلة عربية صحيحة ، على نحو ما أصبحت البطون التى منها تألفت قبيلتا تنوخ والرباب(١). وقال ابن هشام : أنه كان فى معركة أحد « أحابيش وعبدان أهل مكة »(٢).

ولا بد أن نفرق بين عبيد مكة وأحابيشها الذين كانوا يؤلفون القوة العسكرية المدافعة عن تلك الجمهورية التجارية ، التى كثيرا ماتولى قيادتها الغفاريون لاشتهارهم بالجرأة والبطش وعدم احترامهم الكعبة فى بعض الأحيان (٣) . كان عبيد مكة من الحبش من فلول جيش أبرهة ، أو ممن شرى بالمال لخدمة إشراف مكة وتجارها . وكان أقيال اليمن على الرغم مماتناقلوه أبا عن جد من التذكارات المؤلمة عن احتلال الحبش بلادهم يتخذون حرسهم من رجال الحبش . وكان أحباش مكة عبارة عن حلف من العرب قوامه أحياء من كنانة وخزيمة وخزاعة . يقول ابن عبد ربه « ومن بنى كنانة : الأحابيش مَبْذُول وَعوف وأحمر وَعوْن وهم بنو الحارث

---

(١) عبد الحميد العبادى بك : أحابيش قريش ، هل كانو عربا أوحبشا ؟ بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد ، مايو ١٩٣٢

(٢) ابن هشام : السيرة ص ٥٦٠ — ٥٦١ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ١٥٠ .

ابن عبد مناه ومنهم الحُليس بن عمرو بن الحارث وهو رئيس الأحابيش يوم أحد ، (١) .

روى الطبرى فى خبر الحديبية عن ابن اسحق ، أن النبى دعا خراس ابن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له . فعقروا به جمل رسول الله وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش وعندئذ خلوا سبيله حتى أتى رسول الله (٢) . وذلك يبين أن الأحابيش كانو نداً لقريش فى القوة والعدد وأن حلفهم معهم إنما كان يقوم على التناصر والتآزر . وروى الطبرى فى خبر الحديبية أيضا عن ابن إسحق ، أن قريشا بعثوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، الحليس بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحابيش وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناه بن كنانة ، فلما رآه رسول لله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما لما رأى . فقال : يامعشر قريش ! إنى قد رأيت ما لا يحل ، صد الهدى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله قالوا له أجلس فإنما أنت رجل أعرابى لاعلم لك . . .فغضب الحليس ، وقال: يامعشر قريش ! والله ماعلى هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاء معظما له ، والذى نفس الحليس بيده لتخلق بين محمد وبين ماجاء له أو لانفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ، فقالوا له مه ! كف

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٤٠.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ص ١٤١٨ .

عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به» (١).

ورغم مارواه الطبرى ، فقدوجد لامنس أن هناك « شبها غريباً بين لفظ الأحابيش ، وأسم سكان حدود أريتريا الغربية » ، ووجد « أن مخيلات لغويى العرب أخذت تولد الشروح والمشابهات المتنوعة للفظ الأحابيش ولا شئ يصد تلك المخيلات فى سبيل الشرح والتعليل ، فكلما غرب اللفظ غرب شرحه وبعد استخراجه يسهل ذلك ما فى أصول اللغة من مرونة وما فى تصاريفها وصيغها من لين وتنوع» . (٢) ثم قال: « إن يكن الأحابيش ، حلفاء قريش السياسيون ، فأى معنى محقر فى إسمهم وكيف صارت اللفظة ، أحابيش ، من أقذع الشتائم وأقبح النعوت كما نراها فى فم نابغة الهجاء حسان وهو من أعرف أبناء عصره بقيمة الألفاظ الهجائية ومواضع السباب إذ نراه لا يتردد فى استعمالها عندما أراد هجو بعض أعداء النبى من البدو فقال : أنتم أحابيش جمعتم بلا نسب . هذا السهم الدقيق المسدد يقع دون الهدف ، وبالتالى فلا يخلق بحسان أن يريشه إذا فهمنا بالأحابيش مايقصد المحدثون أن يفهمونا إياه من كونهم حلفاء قريش السياسيين ، وهم لا يتعبون هذا التعب إلا فى سبيل تخليص قريش من عار الالتجاء إلى عبدان أجانب عن العرب» .

ولم يرض مؤرخو العرب أن يخلط بين العبيد الحُبشان وأحابيش قريش الذين يعتبرون بدواً من قبائل تهامة وقبائل جنوبى الحجاز من كنانة

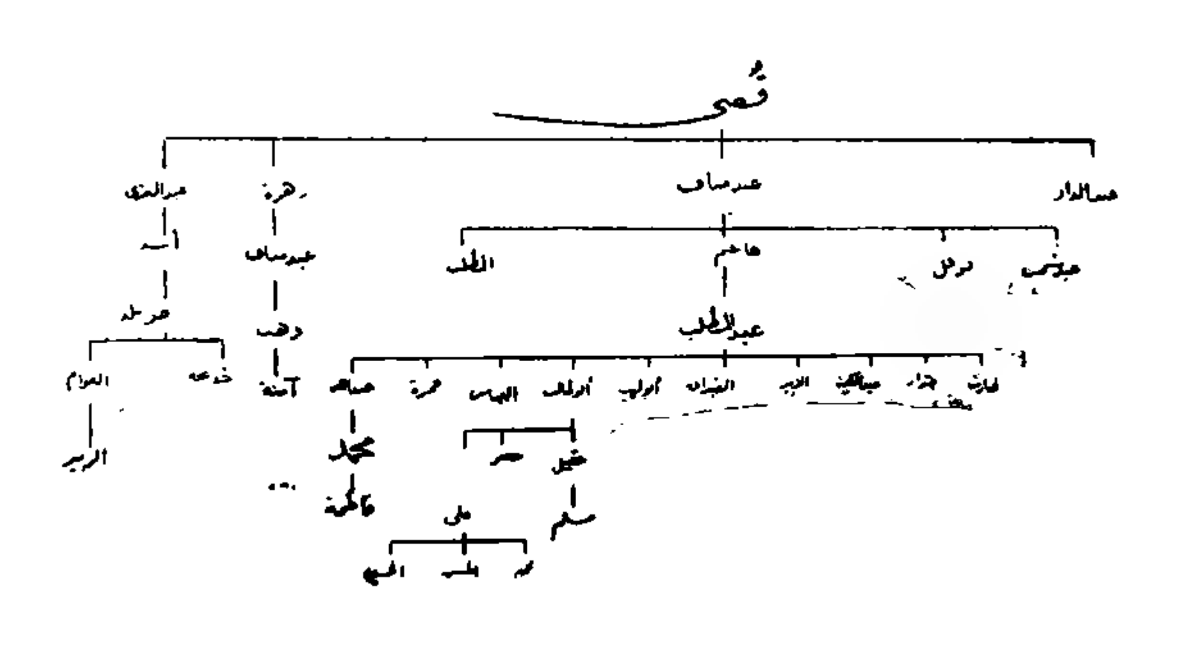
---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١٥٤٢ .

(٢) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Mecque. Journal Asiatique. 1916.

وخزاعة . يقول ابن قتيبة « إنهم عرب خُلص (١) كانت قريش تستدعيهم للاشتراك معها فى الحروب . ولكن الرسول صلى عليه وسلم عرف كيف يغل قوتهم ، بطريق السياسة وطريق العنف معاً : فأما من حيث السياسة فقد اجتذب إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التى تنتمى إليها أحياء الأحابيش ولما كان صلح الحديبية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ودخلت فى عقده كما دخلت بكر بن عبد مناه بن كنانة عقد قريش ، وأما العنف فنتبينه فى غزوة بنى المصطلق »(٢) .

هذه هى قبيلة قريش ، وهؤلاء هم الأحابيش حلفاء قريش السياسيون، الذين كانت تستأجرهم قريش للدفاع عن قوافلها التجارية من بين بدو تهامه الضاربين بجوارها .



(١) ابن قتيبه : المعارف ص ٢٠٧ .

(٢) عبد الحميد العبادى بك : أحابيش قريش ، هل كانوا عربا أو حبشا ؟

٢ — يثرب :

هى إحدى مدن الحجاز المتحضرة ، وقد ورد ذكرها بهذه التسمية فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) ، على أنها عرفت بعد ذلك بالمدينة وظل هذا الإسم ملازماً لها حتى الآن .

وتقع يثرب فوق هضبة بلاد العرب الوسطى ، وبذلك تختلف عن مكة التى تعتبر من مدن السهل الساحلى . ويُحَدد موقعها تقريباً فى منتصف مجموعة من الجبال ترتفع نحوها على شكل حدوة الحصان تاركةً جهتها المفتوحة فى جنوبها الشرقى(١) . وأشهر هذه الجبال ، جبلا أحد وثور ويقعان فى الشمال.

ويمتاز معظم أراضى يثرب بسهولة التربة ، إلا أنها تنحدر نحو الشمال متفقة فى ذلك مع الانحدار العام للهضبة الوسطى من الجزيرة العربية ، وتربتها فى الجهة الجنوبية مشبعة بالمياه التى يندر وجود مثلها فى سائر الحجاز ، وتظهر هذه المياه وتكثر بعد نزول الأمطار وتحدر السيول ، وتغور بعض مياه الأمطار والسيول تحت الأرض وتستقر فى جوفها(٢) . وكان لذلك أثره فى انتشار الزراعة التى تعتمد على مياه الآبار بها ، وهى من هذه الناحية تختلف عن مكة التى وصفت فى القرآن بأنها (واد غير ذى زرع) .

ولقد كان هناك فى المدينة موضع خاص يسمى « العقيق » لا يبعد عنها بأكثر من ميلين أو ثلاثة من جهتها الجنوبية الغربية(٣) . وكانت السيول الهابطة من الجبال حوله تنحدر إليه ، فتكثر به المياه التى تروى البساتين المنبثة

---

(١) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 512.

(٢) بول Buhl : الموسوعة الإسلامية ، مادة Al Madina

(٣) لامنس : الموسوعة الإسلامية ، مادة Akik

هناك ، وتنعش نفوس الأعراب الذين يحلون بالمدينة بعد طول الترحال والتجوال وتعقد حلقات الطرب فى ذلك الموضع الفريد ، فينشد الشعراء ويغنى المغنون تحت ظلال الأشجار والنخيل .

و « المدينة »(١) ، بلدة زراعية تكثر بها الآبار والأشجار ، وتفوق مكة من حيث ثمارها ومنتجاتها ، ومناخها على ما فى صيفها من حر وشتائها من برد خير من مناخ مكة أيضا . ولذلك اختلف تاريخ المدينتين إبان العصر الجاهلى لأنهما تأثرا بطبيعتهما الجغرافية أكثر من أى شئ آخر .

وكان أول من نزل المدينة بعد الطوفان ، قوم يقال لهم صَعْل وفالح ، فغزاهم داود عليه السلام حتى هلكوا (٢) . وكان العمالقة ينزلون غزة وعسقلان وساحل بحر الروم وما بين مصر وفلسطين ، ثم سكنوا مكة والمدينة والحجاز كله . وكان ساكنو المدينة منهم بنو هف ، وبنو سعد ، وبنو الأزرق ، وبنو مطروق ، وكان ملك الحجاز منهم رجل يقال له الأرقم ينزل ما بين تيماء وفدك(٣) .

ولم يستمر العمالقة طويلا فى احتلال المدينة لأنهم كانوا أهل عز وبغى شديد ، مما جعل موسى بن عمران يرسل إليهم بعض جنوده ليقاتلوهم . ويقول السمهودى عن هذه الغزوة اليهودية : « كانت العماليق قد انتشروا فى البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله ، وعتوا عتواً كبيراً ، فلما أظهر

---

(١) يقال إن للمدينة تسعة وعشرون إسما منها طيبة والمباركة والعاصمة . وروى فى قول النبى صلى الله عليه وسلم « رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق » قالوا المدينة ومكة .

(٢) أبو البقا محمد بهاء الدين : تاريخ مكة المشرفة ص٢١٦ ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٠ تاريخ .

(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ١٩ ص ٩٤ .

الله تعالى موسى على فرعون ووطىء الشام ، وأهلك من بها بعث إليهم جندا من بنى إسرائيل للحجاز ، وأمرهم أن لا يستبقوا منهم أحدا بلغ الحلم ، فقدموا ، فأظهرهم الله ، فقتلوهم . وأصابوا ابن ملكهم الأرقم ، وكان أحسن الناس وجها فلم يقتلوه وأخذوه معهم إلى موسى الذى كان قد توفى قبل عودتهم ، فلم يسمح لهم اليهود بالإقامة بالشام لأنهم خالفوا أمر نبيهم ، فرجعوا إلى الحجاز وأقاموا به ونزل جمهورهم بيثرب »(١) .

كان هذا هو أول سكنى اليهود فى يثرب ، فانتشروا فى نواحى المدينة كلها إلى العالية فاتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع . وبعد أن تغلب الرومان على بنى إسرائيل فى الشام ، تشتت اليهود فى أنحاء متفرقة حول فلسطين فى القرنين الأول والثانى الميلاديين . وكانت جزيرة العرب من أنسب البقاع للاعتصام بها من ظلم الرومان ، وذلك لبعدها عن سطوة النسر الرومانى ، ولصعوبة سير الكتائب الرومانية المنظمة فيها إذا ما فكر الرومان فى مطاردة اليهود الفارين . وعلى ذلك فقد استوعبت بلاد العرب الشمالية عددا كبيراً من هؤلاء اليهود المضطهدين ، ونزل معظمهم فى يثرب لسهولة الحياة بها . وقد عدّد لنا الأصفهانى أحد عشر اسماً من أسماء قبائل بنى اسرائيل الذين سكنوا المدينة حتى نزلها الأوس والخزرج وهم : بنو عكرمة ، وبنو ثعلبة ، وبنو محمر ، وبنو زغورا ، وبنو قينقاع ، وبنو زيد ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو بهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص(٢) .

ولقد اختلط اليهود بالعرب المقيمين فى يثرب وأشهرهم : بنو الحرمان ، وبنو مرثد ، وبنو نيف ، وبنو معاوية ، وبنو الشطية . وبلغ من اختلاطهم بهم أن تكلموا اللغة العربية ، ولكنها كانت عربية مشوبة بالرطانة العبرية ،

---

(١) السمهودى : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ص١٠٩ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٩ ص٩٤ .

كما أنهم تأثروا بنظم العرب الاجتماعيه فعاشوا معيشتهم القبلية . ولقد أدخل اليهود إلى بلاد العرب أنواعا جديدة من الأشجار ، وطرقاً للحراسة والزراعة بالآلات ، كما اشتغل اليهود بالتجارة وعنوا بها عناية كبيرة حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كأبى رافع الخيبرى واشتغلوا بصناعة الأسلحة كالسيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية المعروفة وقتذاك(١) . واشتهر بنو قينقاع بصناعة الصياغة حتى كان لهم فى يثرب حى خاص يعرف بحى بنى قينقاع(٢).

ظل اليهود مقيمين فى يثرب مع من بها من العرب حتى حدث سيل العرم فى مأرب ونزح إليهم من بلاد اليمن الأوس والخزرج. ولقد اختلفت روايات المؤرخين فى سبب هجرة الأوس والخزرج إلى المدينة ، كما تضاربت بشأنه أقوال المحدثين : فابن هشام يذكر أن عمرو بن عامر رأى جرذاً يحفر فى سد مأرب ، فعلم أنه لا بقاء للسد بعد ذلك وعزم على الهجرة ، فاختلق سبباً للرحيل بأن أوعز إلى أصغر أولاده أن يلطمه عندما يغلظ له فى القول ، وعندما حدث ذلك قال : لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى ، ولهذا باع عمرو أملاكه وخرج من اليمن، وبعد رحيله قالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ،

---

(١) الدكتور إسرائيل ولنفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٧.
(٢) ولنفنسون : نفس المصدر ص ١٩ .

ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان : فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مرا، ونزلت أزد السراة ، ونزلت أزد عمان(١) . أما السمهودى فيرى أن عمرو بن عامر قد توفى قبل سيل العرم وصارت الرئاسة إلى أخيه عمران بن عامر ، وقد أنذرته طريفة الكاهنة أن ماء غامرا سيغمر البلادَ ويحولها إلى خراب بلقع ، ولما سألها عن موعده أخبرته بأن ذلك سيكون عندما يرى جرذاً يحفر سد العرم ، ولما رأى عمران أن الجرذ تحفر فى السد أيقن أن الأمر قد وقع وأن الخراب حل على مأرب ، فاحتال مع بنى أخيه على الهجرة(٢) . ويرى الأصفهانى أن الهجرة إنما حدثت بعد حدوث السيل الذى خرب السد(٣) .

ولما طال الزمن على هذا السد وأهمله الملوك ، تصدعت جوانبه ، ولم يعد يحتمل تدفق السيول ، ففاضت مياهه على ما حوله من القرى والمزارع . ويظهر أن السيل قد حدث وأهل البلاد مقيمون بها، كما يستدل من قوله تعالى فى سورة سبأ (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) . وكان من أثر ذلك الحادث الذى لا يتطرق الشك فى حدوثه(٤) أن هاجر عدد كبير من بلاد اليمن إلى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة

---

(١) ابن هشام : السيرة ص٨ .
(٢) السمهودى : خلاصة الوفا ص ١١٣ .
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٩ ص ٩٥ .
(٤) O' Leary de Lacy : Arabia before Muhammed, p. 89.

العرب . فنزل آل جفنة الشام ونزلت خزاعة مراً(١) ، ونزلت أزد السراة السراة ،ونزلت أزد عمان ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب .

نزل الأوس والخزرج على اليهود فى المدينة ، فأقاموا معهم وعاشوا بجوارهم ، وكانت علاقتهم بهم أول الأمر علاقة ود وصفاء ، حتى أثرى الأوس والخزرج لاشتغالهم مع اليهود بالتجارة والزراعة وسائر مرافق الحياة الاقتصادية فى المدينة . وفى ذلك يقول السمهودى : « وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدى اليهود والعدة والقوة معهم ، فمكثوا ما شاء الله ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفا يأمن به بعضهم من بعض ، ويمتنعون به ممن سواهم . فتحالفوا وتعاملوا وظلوا كذلك زماناً طويلا ، وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدة ، فخافت قُرَيظة والنضير(٢) أن يغلبوهم على دورهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف »(٣).

وظل الأوس والخزرج أهل عز ومنعة فى بلادهم ، حتى وقعت بينهما حروب طويلة اشتركت فيها بعض القبائل العربية ، ومن هذه الحروب : يوم الصفينة وهو أول يوم جرت الحرب فيه ، ويوم السرارة ، ويوم وفاق بنى خطمة ، ويوم حاطب ، ويوم حضير الكتائب ، ويوم أطم بنى سالم ، ويوم البقيع ، ويوم بعاث ، ويوم مضرس ومعبس ، ويوم الدار ، ويوم بعاث الآخر ، ويوم فجار الأنصار(٤) . وأدت الحروب التى وقعت بين

---

(١) يقول ابن هشام « خزاعة بنو حارثة بن عمرو بن عامر وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران وأقاموا بها » ، السيرة ص ٥٩ .

(٢) كان يقال لبنى قريظة وبنى النضير خاصة من اليهود ، الكاهنان ، نسبوا بذلك إلى جدهم الذى يقال له الكاهن . الأغانى ج ١٩ ص ٥٩ .

(٣) خلاصة الوفا ص ١١٥ .

(٤) اليعقوبى : تاريخه ج ٢ ص ٢٧ .

الأوس والخزرج بسبب ما بينهما من دماء وثارات ، إلى جعل الحياة فى المدينة مضطربة أشد الاضطراب . وكان النصر فى أول الأمر حليف الخزرج على الأوس ، حتى اضطرت الأوس حوالى السنة العاشرة قبل الهجرة أن تسعى لمحالفة قريش على الخزرج . على أن قريشاً كانت أحرص من أن تزج بنفسها فى حرب لا تعود عليها بفائدة . لذلك أبت أن تتورط فى ذلك الحلف وردت رسل الأوس خائبين .

عادت الأوس تلتمس الحلف من يهود يثرب الذين كانوا قد وقفوا فى تلك الحرب موقف الحياد ، واستطاعت أن تعقد حلفاً مع بنى قريظة والنضير ، فلما بلغ أمر الحلف الخزرج ، أرسلت إلى اليهود تحذرهم عاقبة هذا الحلف . غير أن اليهود أخبروا الخزرج أنهم لا يرغبون فى الحرب ، وعندئذ طلبت منهم الخزرج رهنا أربعين غلاما من غلمانهم لتضمن حيادهم ، فامتثل اليهود لأمرهم وسلموا لهم الضمان المطلوب . وما لبثت الخزرج أن خيرتهم بين الجلاء عن يثرب والنزول لهم عن أرضهم أو قتل غلمانهم . وقد اعتزم اليهود الجلاء فعلا عن المدينة ، بعد أن رأوا أن الخزرج قد لجت فى طغيانها ، إلا أن كعب بن أسد القرظى حملهم على العدول عن موقفهم وطلب منهم محالفة الأوس صراحة ، فما كان من الخزرج إلا أن قتلوا الغلمان وعقدوا حلفاً مع قبيلة بنى قينقاع اليهودية .

وهكذا انقسمت يثرب إلى معسكرين كبيرين ، انحازت القبائل اليهودية إلى كل منهما . ولم يلبث أن التقى أولاد قيلة (١) ببعاث ، قبيل الهجرة بنحو

---

(١) هم الأوس والخزرج ، وأمهما قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد . وقال ابن الكلبى : قيلة بنت الأرقم بن عمرو .

خمس سنين ، وانتهى الأمر فيه بانتصار الأوس على الخزرج بعد أن قتل من الفريقين عدد كبير من أشرافهما . وتصالح الأوس والخزرج بعد بعاث ، واتفقا على إقامة حكومة فى يثرب ، ممثلة فى شخص عبدالله بن أبى الخزرجى وهموا بتتويجه فعلا ، وأقبلوا ينظمون له الخرز - شارة الملك عندهم - ولكن حدث ما لم يكن يدور بخلدهم ، إذ بينما كانوا يتأهبون لهذا الحدث الكبير أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ، فدَان له أهلها بالطاعة والولاء ، وعدلوا عن تولية عبدالله بن أبى ، ولذلك ظل معارضاً للنبي فى نزاعه مع قريش ، وسمى هو وأتباعه ، فى القرآن الكريم ، باسم « المنافقين » .

٣ — الطائف :

تقع الطائف فى الجنوب الشرقى من مكة على نحو خمسة وسبعين ميلا ، وترتفع عن سطح البحر نحو خمسة آلاف وأربعمائة قدم[١] ، وتمتاز بخصوبة تربتها وجودة مناخها ، وثمارها لا تختلف عن ثمار الشام حتى قيل إنها كانت قرية بالشام نقلت إلى الحجاز[٢] ، ويقول بركهارت[٣] عن الطائف : « إنها أجمل بقعة فى الحجاز وأبهج موضع شاهدته فى طريقى إلى الحجاز بعد رحيلى من لبنان »[٤] . ولا غرو فقد أعجب بالطائف كل من زارها وقضى بعض

---

(١) الموسوعة الإسلامية، مادة Taif .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٣) ولد جون لويس بركهارت السويسرى عام ١٧٨٤ ، وسافر إلى الحجاز عام ١٨١٤ حيث جال بين ربوعه ، ثم رجع إلى القاهرة حيث توفى عام ١٨١٦ ونشر كتابه المسمى « أسفار فى الجزيرة العربية » فى لندن عام ١٨٢٩ .

(٤) **Burckhardt : Travels in Arabia, p. 65.**

أيامه بين ربوعها . يقول رتر Rutter « لما أصبحت فعلا بين رياض الطائف ، تحققت بما لم تكن تألفه عيناى فى الجزيرة العربية ، فقد كانت أشجار الخوخ واللوز محملة بأزهارها المتفتحة ، ويا له من عجب أن تجد جمال الربيع فى هذه البقعة من جزيرة العرب المحرقة المجدبة ، حتى قلت لرفيقى أن ما يزعمه أهل مكة عن الطائف بأنها كانت فردوساً من رياض الشام ، حمل على أجنحة الملائكة إلى الحجاز ، حقيقة واقعة »(١) .

وكان من أثر ارتفاع الطائف عن سطح البحر وكثرة المزارع والنخيل بها ، أن اتخذها أشراف مكة مصيفاً لهم ، حيث كانوا يتمتعون بالراحة مدة الصيف فى قصورهم التى أنشأوها هناك (٢) . وكانت حاصلاتها تشمل العسل والبطيخ والموز والتين والعنب والزيتون والسفرجل(٣) . ويقول ياقوت « إنها ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وساير الفواكه ، وبها مياه جارية وأودية تنصب منها إلى تبالة ... وفى أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل ، فيها من العنب العذب مالا يوجد مثله فى بلد من البلدان ، وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل ، وهى طيبة الهواء شامية ربما جمد فيها الماء فى الشتاء ، وفواكه أهل مكة منها »(٤) .

وقد زاد موقع الطائف الطبيعى على طريق القوافل - الممتد من جنوب بلاد العرب إلى بلاد الحجر - من أهميتها كمركز تجارى ، فضلا عن كونها مدينة صناعية ، يقول الهمدانى : « الطائف مدينة قديمة

---

(١) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 331—332.

(٢) Lammens : Taif à la Veille de l' Hegire, p. 45.

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ (طبعة باريس ١٨٩٣ م) .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

جاهلية وهى بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة »(١) ، واشتهرت ورود الطائف بالعطر الذى كان يمد أهل مكة بما يحتاجون إليه من طيب ، أما خمر الطائف فقد كان برغم كثرة الطلب عليه أقل ثمنا من النوع الذى كانوا يجلبونه من الشام والعراق .

كانت الطائف تسمى قديما وجا بوج بن عبد الحى ، أحد العمالقة الذين نزلوها وهو أخ لأجاء الذى سمى به جبل طىء(٢) . وقد ذكر على بن عراق عن صاحب كتاب المطالع « أن وادى وج هو أرض الطائف جميعها »(٣) . على أن هذا الإسم لم يذكر فى القرآن الكريم ، وإنما ورد فى بعض أحاديث العرب مثل قول خولة بنت حكم « إن آخر وطأة وطأها الله بوج » ، وقيل إن المراد بالقريتين فى قوله تعالى (لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ، إنهما مكة والطائف(٤).

كانت قبيلة ثقيف تقيم فى الطائف ، ولقد أوضح البكرى سبب إطلاق هذا الإسم عليها بقوله : « بعد أن افترق قسى(٥) والنخع ، مضى قسى حتى أتى وادى القرى فنزل بعجوز يهودية كبيرة لا ولد لها ، فكان يعمل بالنهار ويأوى إليها بالليل. فاتخذها أما واتخذته ابنا . فلما حضرتها الوفاة ، قالت له : يا هذا لا أحد لى غيرك وقد أردت أن أكرمك لإلطافك إياى ، فإذا أنت واريتنى فخُذ هذا الذهب وهذه القضبان من العنب ، فإذا أنت نزلت وادياً

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ١٢٠ (طبع ليدن)

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٣) على بن عراق : نشر الطائف فى قطر الطائف ص ٨ . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٣٣ تاريخ .

(٤) على بن عراق : نفس المصدر ص ٣ .

(٥) هو قسى بن منبه بن بكر بن هوزان .

تقدر على الماء فيه فاغرسها فيه . فإنك تنتفع بها ، وماتت . فأخذ الذهب والقضبان ثم خرج إلى وج وهو الطائف ، وهناك أمّنه عامر بن الظرب العدوانى سيد قيس وحكمها ، وزوّجه ابنته زينب فولدت له عوفا وجشم ودارساً . ثم هلكت زينب فزوجه ابنة له أخرى يقال لها آمنة ، فولدت له ناصرة بن قسى والمسك بنت قسى . ثم غرس قسى تلك القضبان بوادى وج فأنبتت ، فقال أهالى وج : قاتله الله ما أثقفه ! حين ثقف عامراً حتى أمّنه وزوجه ، وأنبت تلك القضبان حتى أطعمت ، فسمى ثقيفاً يومئذ»(١).

وأقامت ثقيف مع عدوان بن عَمرو بن قيس إلى جانب الطائف ، وتكاثر نسلها حتى أضحت قبيلة كبيرة فى العدد والمنعة ، وحدث أن نزلت عامر بن صعصعة ناحية من الطائف مجاورين لعدوان ، ثم استطاعوا أن يخرجوا عدوان من الطائف ويستولوا عليها . أما كيفية استيلاء ثقيف على الطائف جميعها ، فقد ذكر البكرى « عرفت ثقيف فضل الطائف فقالوا لبنى عامر : إن هذه بلاد غرس وزرع ، وقد رأيناكم اخترتم المراعى عليها فأضررتم بعمارتها واعتمالها ، ونحن أبصر بعملها منكم . فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع وتدفعوا بلادكم هذه إلينا ، فنثيرها حرثا ونغرسها أعناباً وأشجاراً . . . فإذا بلغت الزروع وأدركت الثمار شاطرناكم ، فكان لكم النصف بحقكم فى البلاد ولنا النصف بعملنا فيها . فدفعت بنو عامر الطائف إلى ثقيف بذلك الشرط ، فأحسنت ثقيف عمارتها ، فكانت بنو عامر تجىء أيام الصرام ، فتأخذ نصف الثمار كلها كيلا وتأخذ ثقيف النصف الثانى ، وكانت عامر وثقيف تمنع الطائف ممن أرادهم فلبثوا بذلك زمانا من دهرهم ، حتى كثرت ثقيف فحصنوا الطائف وبنوا عليها حائطا يطيف بها فسميت

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ ، نشر الأستاذ مصطفى السقا .

الطائف ، فلما قووا بكثرتهم وحصونهم امتنعوا من بنى عامر فقاتلتهم بنو عامر فلم تصل إليهم ولم يقدروا عليهم »[١] .

وهكذا انتصرت ثقيف وتفردت بملك الطائف فضربتهم العرب مثلا ، قال أبو طالب بن عبد المطلب .

منعنا أرضنا من كل حى   كما امتنعت بطائفها ثقيف
أتاهم معشرٌ كى يسلبوهم   فحالت دون ذلكم السيوف[٢].

كانت الطائف من مدن الحجاز القوية حتى قرنت بمكة وأصبحت تدانيها فى القوة والأهمية ، ولا غرو فقد ورد ذكرها فى عدة أحاديث منسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم تبين مقدار أهميتها وعظيم مكانتها . روى أحمد ابن حاتم الموصلى أن الرسول رأى عبد الله بن عباس فقال : لو كان بعدى نبى مرسل لكان عبد الله بن عباس ، اللهم فقهه فى الدين وانشر منه وعلمه التأويل وبارك فيه أنه سيدفن بالطائف ، فمن زاره بها فكأنما زار قبرى . وعن عبد الملك بن عباد بن جعفر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أول من أشفع له يوم القيامة أهل المدينة وأهل مكة وأهل الطائف (٣) .

وقال كنانة بن عبد ياليل بن عمرو يفخر بالطائف ويذكر فضلها :

كأنّ الله لم يؤثر علينا   غداه تُجزّأُ الأرض اقتساما
عَرَفْنا سهمنا فى الكف يهوى   لدى وَجّ وقد قسمَ السهاما

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٣) على بن عراق : نشر اللطائف فى قطر الطائف ص ٢ . مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٢٣٣ تاريخ .

فلما أن أبان لنا اصطفينا سَنَامَ الأرض إن لها سناما
أسافلها منازل كل حى وأعلاها لنا بلدا حراماً(١).

وصارت الطائف بعد الفتوحات الإسلامية تابعة لمكة ، وانحط شأن البلدين معا ، بينما اتسع نفوذ المدينة وصارت الزعامة إليها على مدن الحجاز(٢). واستمرت الطائف محافظة على مركزها القديم ، وغدت مصيفا لأشراف العرب كما كانت فى الجاهلية تماما ، وكانت زينب بنت يوسف أخت الحجاج تشتو بمكة وتصيف بالطائف ، كما روى الأصفهانى : أن عائشة بنت طلحه لما تأيمت(٣) كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف وقصر كان لها هناك فتتنزه فيه وتجلس بالعشيات فيتناضل بين يديها الرماة (٤) .

وتدين الدولة العربية للطائف بما أخرجته لها من رجالات فى الشؤون الإدارية والحربية ، منهم : زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة وهما القائدان المحنكان فى جيش معاوية ، والحجاج بن يوسف الثقفى عامل عبد الملك على العراق ، ومحمد بن القاسم الذى تغلغل فى قلب آسيا وضم هذه المناطق إلى حوزةالإسلام وعلى أكتاف هؤلاء، ازدهرتالدولة الأموية واستطاعت أن تقضى على كثير من العقبات التى قامت فى وجهها .

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٧٨ ، نشر الأستاذ مصطفى السقا .
(٢) لامنس : الموسوعة الإسلامية ، مادة Taif .
(٣) تأيمت المرأة : مات عنها زوجها ولم تتزوج بعده .
(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ٦ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ (طبعة دار الكتب) .

البَابُ الثَانى

تاريخ الجاهلية الدينى والاجتماعى والاقتصادى

تاريخ الجاهلية الديني والاجتماعي والاقتصادي

تاريخ الجاهليـــــة الديني

تعددت الديانات في بلاد العرب قبل الإسلام واختلفت اختلافاً متبايناً ، وتأثرت عادة بما جاورها من البلاد ، فقد ذكر اليعقوبي « إن أديان العرب كانت مختلفة بالمجاورات لأهل الملل والانتقال إلى البلدان والانتجاعات»[1]، كما أخذ العرب عن الأمم التي اتصلوا بها كثيراً من آلهتها . وأثبتت الدلالات في بلاد العرب وجود ديانات سماوية كالمسيحية واليهودية ، وغير سماوية كالمجوسية والصابئة والوثنية التي كانت العامة والغالبة في شبه جزيرة العرب .

١ — الديانة الوثنية

مظاهر الوثنية الجاهلية :

اختلفت مظاهر الوثنية في بلاد العرب قبل الإسلام باختلاف الأمكنة والبقاع : فهي عند البدوي الضارب في فيافي جزيرة العرب تمثل أول أشكال المعتقدات السامية وأبسطها وأكثرها سذاجة ، ولكنها عند عرب الجنوب بما فيها من المظاهر الفلكية والهيا كل المزخرفة والشعائر الدينية الخلابة وتقديم الذبائح والقرابين تمثل مرحلة من التطور راقية محدثة وهي مرحلة أدت إليها حالة الاستقرار والتحضر في المجتمع[2] .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ١ ص ٢١١ .

(٢) تاريخ العرب ص ١٣٣ .

وديانة البدوي ـ شأنها فى ذلك شأن غيرها من الديانات البدائية ـ مبنية على الإيمان بوجود أرواح فى الأشياء المادية ، مما يرى الإنسان حوله كالأشجار والرمال والحجارة ، أو بما فى مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار والنجوم والشمس والقمر ، فاعتقد البدوى أن لكل من هذه الأشياء روحا تحركها ، وبالتدرج أصبحت القوى الطبيعية الهامة آلهة ، أما القوى السفلى فأحيلت إلى مراتب الجن والشياطين . ثم تكاملت صورة الألوهية فى مخيلة الجاهلى ، إلا أن المحسوسات الطبيعية كالأشجار والآبار والكهوف والحجارة بقيت مقدسة تعتبر وسائط يتقرب العابد منها إلى المعبود(١) .

نزع العرب فى منطقة الحجاز وما يجاورها من أنحاء نجد إلى تكريم الحجارة المقدسة أو المؤلهة ـ على قول بعض المؤرخين ـ تكريماً لا يختص بقبيلة دون أخرى ، ولا ينفرد به بلد دون آخر ، وهذا القرآن الكريم والشعر الجاهلى القديم شاهدان على انتشار الأصنام فى أنحاء الجزيرة . ونسب بعضهم هذا الانتشار إلى شهرة المعبدين القرشيين : الصفا والمروة وكلاهما من أسماء الحجارة(٢) ، حتى قيل إن ذلك أدى إلى إيهام الرواة وجماع الأحاديث النبوية بأن عبادة الحجارة كانت عامة فى بلاد العرب . وأول مؤرخو العرب بوجه عام والعارفون بتاريخهم الدينى على وجه الخصوص مثل هذين الإسمين : فقد ذكر ابن دريد « وربما سميت الحجارة الرقاق البيض التى تبرق فى الشمس مروا والمروة المعروفة بمكة»(٣) ، وقال فى موضع آخر : الصفا الحجارة(٤) . وذهب إلى أن الشخص من البدو « كان إذ وجد حجراً أخذه وعبده »(٥) .

---

(١) فليب حتى : تاريخ العرب ص١٣٤.
(٢) ابن دريد : الاشتقاق ص ٤٦ . ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص٣٢٥ .
(٣) ابن دريد : نفس المصدر ص ٤٧ .
(٤) ابن دريد : نفس المصدر ص٨.
(٥) ابن دريد : نفس المصدر ص ٧٦ . السمهودى : وفاء الوفاء ج ٢ ص ٣٧٣ .

وكانت الحجارة التى تكرمها القبائل مأخوذة فى أصلها من الحرم المكى . وفى ذلك يقول ابن هشام عن ابن اسحق « ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل أنه لا يظعن منهم ظاعن من مكة حينما ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم »(١) .

والحجارة المؤلهة نوعان : النوع الأول هو الحجارة المحمولة أو المنقولة . والنوع الثانى هو الحجارة الثابتة التى لا تتزحزح من محالها كالمعابد الخاصة بالحجاز ولا سيما معبد مكة ، وفى كتب سير الرسول صلى الله عليه وسلم شواهد كثيرة على نقل هذه الحجارة المكرمة ، ومن ذلك شهادة ابن سعد بشأن الحجر الأسود فقد ذكر أنه « لما حج آدم وضع الحجر الأسود على أبى قبيس ، فكان يضىء لأهل مكة فى ليالى الظلم كما يضىء القمر ، فلما كان قبيل الإسلام بأربع سنين . . . أنزلته قريش من أبى قبيس »(٢) ، ويعلق الأب لامنس على شهادة ابن سعد بقوله « إن ما يهمنا من هذا الحادث هو أن المؤرخين إذا ما عرضوا لهذا الموضوع فى العصر الجاهلى المتأخر — ولا سيما فى العصور التى تقدمته — يميزون بسهولة فى القول عن الحجارة المؤلهة أو تلك الأصنام التى تمثل المعبودات الجاهلية : الحجارة المحمولة أو المنقولة ، والحجارة الثابتة ، وهذه الحجارة الأخيرة كانت وحدها

---

(١) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ٥١ .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢ .

مركوزة لا تتزحزح من محالها وقد تكون منها المعابد الخاصة بالحجاز ولا سيما معبد مكة » (١)

واشترك الصنم « يغوث » ، على ماورد فى بعض أساطير الأدب الجاهلى، فى حروب العرب القبلية ، كما نرى العربى يستغيث ويستنصر هبل فى غزوة أحد . وأوضح الطبرى أن أبا سفيان كان فى هذه الغزوة ، يحمل اللات والعزى(٢) ، وكان أبو سفيان فى ذلك الوقت سيد مكة المطاع وقائد الناس(٣) بل « رب تهامة » . وهكذا جمع أبو سفيان بين أعمال السيد المدنية والدينية التى اختص بها فى القبائل العربية الكبرى من جمعوا بين صفة الرب أو السيد وصفة الكاهن(٤) ، ووجد فى حوزته فى آخر يوم بدر تلك الرموز الدينية ، أى الحجرين المقدسين ، وصاح مخاطبا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ألا لنا العزى(٥) ولا عزى لكم(٦) . وتشير أخبار الطائف فى الجاهلية إلى وجود اللات فى إحدى المعارك المهمة من حرب الفجار ، ونصب قبل المعركة خباء أو بيت ليتخذ محلا لآلهة الطائف أو « ربة الطائف » ، وكان مدار الخباء يمثل حد حرم منيع لا يمكن خرقه فيظل ملاذاً أمينا للاجئين . ويشير الشاعر الجاهلى عبيد بن الأبرص إلى أن بنى جديلة تركوا معبودهم الخاص فى ساحة القتال ، فيقول :

---

(١) لامنس : الحجارة المؤلهة وعبادتها عند العرب الجاهليين . بحث مستخرج من مجلة المشرق الكاثوليكية ، ١٩٣٨ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ١٣٩٥ .

(٣) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ٥٥٧ .

(٤) لامنس : المصدر السابق .

(٥) معنى « العزى » القوية والقادرة ، وقد يكون هذا هو السبب فى ذكرها هنا مفردة ، وهى تجمع عادة مع اللات بل تقدمها اللات فى الإيمان .

(٦) ابن دريد : الاشتقاق ص ٣١٦ ، الطبرى : نفس المصدر ج ١ ص ١٤١٨.

وتبدلوا اليعبوب بعد إلاههم صنما فقرُّوا يا جديل وأعذبوا (١).

وكان العرب الجاهليون لا يقومون بغزوة مهمة إلا إذا اصطحبوا معهم : كاهنا يصل بينهم وبين إرادة الله ، وسادنا يخدم هيكل ذلك الإله ، وبعض العائفين والقائفين(٢) من المهرة فى معرفة الغيب وتأويل الإشارات واطلاع القبيلة على حركات أعدائها . وكان هؤلاء الموهوبون يفيدون المحاربين بمعلوماتهم الطبية ومقدرتهم السرية قبل الرحيل وطول الطريق ولا سيما فى أثناء المعركة . ولم يكن غريباً أن يجمع الشخص نفسه فى أيام الجاهلية البعيدة بين رتبتى الكاهن والسيد ، وكان الكاهن برأس الجيش المحارب فيقود الغزوة إلى حيث شاء ، ومن هؤلاء القواد الكهان : زهير بن جناب الكلبي وزهير بن جذيمة العبسى(٣) .

وليس فى بلاد العرب ولا سيما فى منطقة الحجاز نجد طبقة « إكليريكية » خاصةً ، إنما يقوم مقامها طائفة العرافين والزاجرين والقائفين والسدنة . ولم يكن لهذه الطائفة مايميزها أو يرفعها عن سائر الناس : فلا مسحة خاصة لها ولا رتبة ، ولا فرق فى أساليب المعيشة بينهم وبين أبناء قبيلتهم ، لهم ما لها وعليهم ما عليها ، لا يتراجعون عن غزوة ولا يتأثمون من إهراق دم ، بل كان منهم من يقود الجيوش فينعت « كثير الغارات » (٤) ، ويمتطى

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص . القصيدة ٢ بيت ٦ وجاء فى شرحه ، اليعبوب : صنم . قال ابن كناسة ، أعذبوا : كفوا .

(٢) يذكر ابن دريد فى كتابه : الاشتقاق ص ٢٨٨ أن بنى لهب كانوا أعيف العرب وأزجرهم للطير .

(٣) لامنس : الحجارة المؤلهة وعبادتها عند العرب الجاهليين .

(٤) Lammens : Le Berceau de L'Islam, Vol. 1. p.251.

متن الصافنات فيجمع بين الكهانة والفروسية(١) حتى كان اسم الفرس رفيق البطل فى غزواته المشهورة يظل مقرونا باسمه : فعمرو بن الجعيد الملقب بالأفكل(٢) كان له جواد ذائع الصيت نادر الصفات اسمه هبود ينسب إليه فيقال « فارس هبود » (٣) وقتل هذا الكاهن الفارس فى إحدى الغزوات(٤) فقد عرف بالبطش واشتهر بالعسف مدة سيادته بنى ربيعة(٥).

وقد يدعى الكاهن أحيانا « الحكم » وهى رتبة تستتبع عادة رتبة السيادة ، وتدعو الناس إلى استشارة صاحبها قبل القيام بأية غزوة أو غارة ، ولذا كان نفوذ هؤلاء الكهان غير محدود ، ولأقوالهم وإشاراتهم الأثر البعيد ، حتى استشيروا فى طريق الغزو وطلب إليهم الدلالة على الغيب ، وكان لا بد لهذه الاستشارة فى مكة من أن تكون قرب الكعبة أى على مقربة من المعبود الخاص بالقبيلة ، وكانوا لذلك إذا سافروا اهتموا بنقل « بيت إيل » أو « الحجر المؤله ».

---

(١) فى كتاب الاشتقاق لابن دريد ص٢٣٩ ذكر كاهن فارس و « الفارس » من مرادفات « السيد » فى اللغة القديمة .

(٢) راجع نقائض جرير والفرزدق طبعة Bevan ص ١٥٤ ، والاشتقاق ص١٩٧ ، والأفكل اسم لا صفة . راجع ابن السكيت : تهذيب الألفاظ (طبعة شيخو) ص١٨٣ ، وأسد الغابة لابن الأثير ج٣ ص ٢٦٣ .

(٣) كثيراً ما يشتهر الفارس بجواده فى العصر الجاهلى . الاشتقاق ص ٨٥ ، ٨٦ ، ١١٦ ، وذلك أن الجواد حيوان ثمين عزيز لا يتمكن من اقتنائه إلا الأغنياء المترفون ولم يكن العربى يملك إلا جوداً واحداً وإذا زاد فجوادين .

(٤) الأصفهانى : الأغانى ج١٥ ص ٧٥ — ٧٧

(٥) قال عنه ابن دريد ص ١٩٧ « كان سيد ربيعة وكان ذا بغى »

وفى ساحة الوغى ، كان الجاهليون يعمدون إلى وضع جمل وقبة فى صفوف المحاربين ، بقصد إهاجة حمية القوم فى الدفاع عن القبة والموت فى سبيلها ، حتى كانوا يقسمون بأن لا يتراجعوا إلا إذا تحركت القبة ، وكثيرا ما كان السيد يحلف عنهم «أن لا يفر حتى تفر القبة»[١] . وتساءل الأب لامنس : لم هذه الحماسة فى الدفاع عن القبة ، وهذه التضحيات فى سبيلها ، ولم نر البكريين يوم ذى قار يستعيدون حميتهم وشجاعتهم أمام الجيوش الفارسية المنظمة لمجرد ظهور القبة ؟ ثم أجاب على ذلك : بأننا نشهد حفلة دينية تظهر رمزاً مقدساً ، فإن نصب القبة فى ساحة الحرب دليل على أهمية المعركة وخطورة الحالة التى تتعلق بها سلامة القبيلة بل كيانها نفسه ، ولم تكن القبة لتنصب إلا فى مثل هذه الخطوب ، لا فى غزوة بسيطة أو غارة عادية أو ثأر فردى وإن تعلق بشخص السيد نفسه .

وهذه الصفة المقدسة كان العرب يولونها القبة والجمل الذى ترفع عليه ، لأنهما يحملان الحجر المؤله أو الشيء الرامز إلى الإله المعبود ، وأوضح الشاعر الكميت بن زيد الذى كان «خبيرا بأيام العرب» أن القبائل أجمعت أمرها فى الحرب أن لا تولى ظهرها للصنم مناة الموجود فى المعركة فيقول الكميت بن زيد :

وقد آلت قبائل لا تولى مناة ظهورها متحرفينا[٢] .

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٢٠ ص ١٣٦ ، الطبرى ج ١ ص ١٠٢٨ .

(٢) طالما أنعم «الكميت» النظر هو وزملاؤه من الشعراء فى منظومات الشعر الجاهلى ، ولم يورد ابن هشام إلا هذا البيت المفرد من قصيدة الكميت .

على أن اللات والعزى ـ دون الآلهة الوثنية الأخرى ـ تؤلفان زوجاً يمثل وحده أفضل تمثيل آلهة العرب المشركين جميعهم . يؤيد ذلك ، فضلا عن النصوص القديمة ، حديث ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أورده مسلم فى صحيحه وفيه يقول « لا ينقضي الليل والنهار حتى يعود الناس إلى عبادة اللات والعزى »[١]. وقد أراد الرسول عليه السلام أن يصور عودة الناس إلى الشرك أو الوثنية قبل نهاية العالم ، فلم ير أفضل من أن يمثل هذا الشرك بعبادة اللات والعزى[٢] . كذلك ليس ثمة من صدفة عارضة فى ازدواج الآلهتين فى موقعة أحد ، وذكر فى بعض الأحيان الصنم مناة إلى جانب هاتين الإلهتين ، كما جاء فى حديث الغرانيق الذى أورده المفسرون وكتاب السيرة وأخذ به جماعة من المستشرقين أن محمدا عليه السلام لما رأى من تجنب قريش إياه قرأ بعد « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة

---

(١) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٥٠٤ .

(٢) فى دمشق قطعة خزفية مكتشفة وفيها صورة جمل يحمل المتين فى محل الهودج وقرب سنام الجمل ثم على مؤخر عنقه وعلى الشخصين الإلهيين نسيجا يخال الناظر أنه يرى شبه خيمة ابتدىء بتمثيلها أو شبه قبة على شكل نصف دائرة . وفى سورية قطعة أخرى زخرفية مكتشفة ومحفوظة فى متحف اللوفر تمثل كذلك امرأتين على ظهر الجمل تنفخ أحدهما بالزمار وتضرب الأخرى على الدف وعلى رأسيهما تنتصب خيمة نصف مستديرة أو قبة من جلد تحفظهما من وقع حرارة الشمس .Cumont : Etudes Syriennes, 265-278.
وعند لامنس : « أننا لو كنا نعرف الشيء الواضح عن الحالة الوثنية فى بلاد الشام » لـكان « من الممكن أن نرى اللات والعزى ممثلتين فى هذه القطعة الدمشقية » .

الأخرى » ، « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى »(١).

وكان للآلهة مقامات ثابتة ، حتى إذا ارتحلت القبيلة قامت بخدمة المقام وعبادة آلهة القبيلة التى تحل محلها ، وجرت العادة أن تزور القبيلة المرتحلة المقام مرة أو مرتين فى العام أيام الأعياد ، وفى هذه الزيارات كانت القبائل تكرم معبودها أو إلاهها بذبائح تتقرب بها إليه ، وتسمى هذه الذبائح « العتائر » (٢). وكان لحم الضحية يظل متروكا للكواسر ووحوش القفر ، ولم يكن محرما على الحاضرين أن ينالوا من هذا اللحم ، وهو ما حدث فى الأضحية التى فدى بها عبد المطلب ابنه ، فبقيت على قول ابن هشام « لا يصد عنها إنسان ولا يمنع » (٣).

ولما كانت مكة قلب الجزيرة العربية النابض تعج داخل حرمها بالأصنام ، فقد اشتهرت إبان العصر الجاهلى بكثرة حفلاتها الدينية وخصوصا فى أيام الأعياد ، فتزدحم شوارعها الضيقة بالعابدين والمتفرجين ، وتسير مواكبها الدينية متتابعة لتطوف بحجارة الأحياء وفيها ترى جمالا مترنحة حاملة القباب المتمايلة الفاقعة الألوان يقودها زعماء القوم ويسير وراءها على

---

(١) راجع ما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى كتاب « حياة محمد » عن قصة الغرانيق .

(٢) أورد ابن هشام فى سيرة الرسول ص ٦٥٩ هذا البيت

كأنهم عتائر يوم عيد تذبح وهى ليس لها نكير

(٣) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ١٠٠ .

الجمال أيضا نساء قريش وقد حللن الشعور وضربن الدفوف والغرابيل(١) وصحن بأصوات الفرح والحماسة ، إلى أن يصل الجميع إلى الكعبة ، حتى أن القرشيين قد هجوا بأنهم لا يحسنون إلا السير فى هذه المواكب الدينية ، فقيل :

فأما القتال لا قتال لديكم ولكن سيراً فى عراض المواكب

وكانت الآلهة فى نظر البدوى تهيمن على الأراضى الآهلة بالسكان ، كما كانت قوى أخرى أطلق عليها الجن والعفاريت تسيطر فى اعتقاده أيضا على البرارى والقفار ولا تختلف عن الآلهة فى طبيعتها بل فى كنه علاقاتها بالإنسان ، على اعتبار أنها تخاصمه وتؤذيه حتى نسب إليها أهوال البادية (٢) وآفاتها وحيواناتها البرية المخيفة(٣) . وقد قيل إن الشاعر الجاهلى تأبط شراً ـ وهو من نماذج الفروسية فى الجاهلية ـ بات ليلة ظلمة وبرق ورعد

---

(١) لا نسمع عن هذه الآلات الموسيقية عند العرب ، إلا عندما يتبع النساء الرجال إلى ساحات الحرب ، ولولا الدين لاخرجت حرائر مكة فى هذا المشهد تنشد على أنغام الموسيقى تلك المقطوعات التى نسبت إلى الكائنات فى موقعة ذى قار وأيام بكر وتغلب .

(٢) إن الصورة التى تخيلها العربى الجاهلى للجن والعفاريت لم تصل فى بشاعتها حدا يمكن أن يقارن بصورة الجن عند غير العرب كاليونان والهند والفرس ، فإن صورة الجن عند هؤلاء رهيبة مخيفة ومبنية على مغالاة بعيدة عن القياس وتركيب أجسادها على خلاف المعهود وأعمالها خارقة للعادات . فليب حتى : تاريخ العرب ص ١٣٦ــ١٣٧ .

(٣) حتى : تاريخ العرب ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .

فلقيته الغول ، فما زال يقاتلها إلى أن أصبح وهى تطلبه إلى أن قتلها وتأبطها وسار ، وفيها يقول .

فلم أنفك متكئا عليها لا نظر مصبحاً فإذا أتانى
إذا عينان فى رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان
وساق مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان

وتجمع مظاهر الديانة الوثنية عند العرب ، إلى جانب عبادة الأحجار والأشجار والآبار والكهوف ، عبادة النار كذلك ، فقد كانوا يعمدون إلى حفر أخدود مربع فى الأرض يملأ وقودا ، ثم لا يدعون طعاما ولا شرابا ولا عطرا ولا جوهرا إلا طرحوه فيها تقرباً إليها ، وحرموا إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها . ويرجع مؤرخو العرب عبادة النار فى الجزيرة العربية إلى أسطورة فحواها أنه « لما قتل قابل أخاه هابيل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن جاءه إبليس وقال له : إنما قبل قربان هابيل وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها ، فانصب أنت أيضا ناراً تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت نار »(١).

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ١ ص ٨٢ .

الأصنام :

كان لكل قبيلة من قبائل العرب ، إله خاص تتعبد له ، ومن هنا كثرت الأصنام فى بلاد العرب ، حتى قيل إن عددها بلغ ٣٦٠ صنما على ما رواه ابن هشام ، وكانت فى الوقت نفسه تعترف بسلطة الإله الأكبر . ولم تكن الصلة بين القبيلة عند العرب وبين إلاهها وثيقة كما كانت الصلة عند بنى إسرائيل مثلا بين يهوه(١) وشعبه .

وكان الأساس فى معتقدهم ، الذى جعل لكل بئر أو صخرة أو تل من الرمال إله خاص ، إن الله قد خلى لنفر من الآلهة بعض تصرفات مثل ، شفاء المرضى ، والإتيان بالذرية والنسل ، وإبعاد المجاعة ، وإقصاء الوباء ، ولم يكن من اليسير الحصول على المنة السماوية إلا بعد وساطتهم وشفاعتهم(٢).

اختلف المؤرخون فى أصل عبادة الأصنام : فنهم من زعم بأنها محلية ، ومنهم من قال بأنها مجلوبة من الخارج . ويذكر مؤيدو الرأى القائل بأنها محلية أن أهل الموتى من العرب أرادوا إحياء ذكراهم، فنحتوا صوراً من الحجر على شكلهم تمثلهم ، وعبدوها بعد ذلك . يقول السهيلى عن البخارى عن ابن عباس ، صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح ، فى العرب بعد ، وهى أسماء قوم صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن

---

(١) يهوه : أى الله ، باللغة العبرية .

(٢) مولاى محمد على : رسول الله ص ١٥ .

نصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسونها أنصابا وسموها بأسمهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنوسخ العلم عبدت »(١) .

على أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجهلهم بالفنون الجميلة ، فالظاهر أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج (٢) . ويؤكد ذلك ما ذكره مؤرخو العرب فى قصة عمرو بن لحى ، يقول ابن هشام « إن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق . . . رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه ؟ قالوا : نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها فأجابوا طلبه »(٣) ، فقدم مكة بهبل ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنيفية فأجابه الجمهور وأكره من لم يجبه حتى تم له ما أراد(٤) . ويقول الأزرقى : « أحضر عمرو بن لحى هبل من هيت من أرض الجزيرة » (٥) ، مما يبين أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج .

وهناك رأى يذهب إلى أن الأصل فى عبادة الأصنام أن قوما من الأوائل اعتقدوا أن الكواكب تفعل أفعالا لا تجرى فى النفع والضرّ مجرى أفعال الإله ، على حسب ما يعتقده بعض أهل التنجيم فاتخذوا عبادتها

---

(١) السهيلى : الروض الأنف جـ ١ ص ٦٢ .
(٢) الدكتور عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ١١٣ .
(٣) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٥١ .
(٤) أبو هلال العسكرى : الأوائل ص ٦٩ .
(٥) الأزرقى : أخبار مكة جـ ١ ص ٦٨ .

دينا(١) . على أن نولدكة يذكر أنه مما لا نزاع فيه أن العرب عبدوا الشمس والنجوم الأخرى فى عصر متأخر جداً ، أما الأوثان المتعددة غير النجوم فلا يمكن تفسيرها بأنها شكل من أشكال النجوم(٢) .

وكان العربى إذا سافر حمل معه حجرا ، وإذا أزمع العودة تركه . وفى ذلك يقول ابن الكلبى : «كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل ثلاث أثافى لقدره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك»(٣) . وعلل سبب ذلك بأنهم كانوا يفعلونه تعظيما للحرم وصبابة بمكة . وقيل من ناحية أخرى إن عادة حمل الأحجار ، إنما هى بقية من ديانة الساميين الأولى وأن قدماء العرب إنما يحملون الأحجار فى أسفارهم لاعتقادهم أنها جزء من تربة تلك الواحة الخصبة التى يسكن الإله جذوع أشجارها يروى بمائه مددها وأحجارها . وبما أن الحجر جزء من تلك التربة ، ففيه شىء من روح الإله ، ولذا كان العربى القديم يحمله معه فى أسفاره تيمناً به وتفاؤلا ، حتى كان إذا وقع على بئر أو شجرة روى بمائها أو تغذى بثمرها ، ثم رفع عقيرته بالدعاء والتهليل ، بل كان حيثما حل يضع الحجر ويطوف به دلالة على الشكر والحمد والتعظيم والتوقير(٤) .

---

(١) العسكرى : الأوائل ص ٦٩ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) Ency. of Religion & Ethics « Arabs ».

(٣) ابن الكلبى : الأصنام ص ٣٣ .

(٤) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص١٣٩ .

وعبد العرب الأحجار ، ولكنهم لم يعبدوا كل صنف من الحجر بل ما استحسنوه وما أعجبهم منها . وكانت معظم تلك الحجارة المختارة بيضاء اللون ، ولها علاقة بالغنم والجمل ولبنهما[١] . وتعددت أقوال المؤرخين فى هذا الصدد : يقول ابن الكلبى « وكان لأهل كل دار فى مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً »[٢] . ويقول أبو عثمان النهدى [٣] « كنا فى الجاهلية نعبد حجراً ونحمله معنا فإذا رأينا أحسن منه ألقيناه وعبدنا الثانى ، وإذا سقط الحجر عن البعير قلنا سقط إلهكم فالتمسوا حجراً . . . »[٤] . ويقول ابن دريد صاحب الاشتقاق « كان الرجل منهم إذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه وعبده »[٥] .

ولم يكن الوثن فى تصور العرب رباً إلى القرن السادس قبل الميلاد ، لأن عرب الحجاز ونجد لم يكونوا متصلين بالوثنية المجاورة ، ولم يتأثروا

---

(١) الدكتور محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ٩٧ .

(٢) ابن الكلبى : الأصنام ص ٣٣ .

(٣) نهد : قبيلة من قضاعة .

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٣ ص ٣٢٥ .

(٥) ابن دريد : الاشتقاق ص ٧٦ .

بالوثنية البابلية أو الرومانية أو اليمنية قبل ذلك القرن[١] . كما أن الأساطير التى نسجت حول النصب تدل صراحة على أن العربى لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالقه أو خالق الكائنات : لأنه تارة يستسقم عند الوثن ، وتارة أخرى يسبه ويشتمه ، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة(٢) . وعلى ذلك ، لم تكن الوثنية الخارجية ، حتى القرن السادس قبل الميلاد ، قد دخلت بلاد العرب أو تأثر بها العرب أنفسهم إذ لم تكن هناك سوى الوثنية المحلية التى تنحصر فى تقديس الأشياء التى استفاد بها العربى البدوى واستمرت وتطورت تحت تأثير الحضارة المجاورة (٣) .

تأثر العرب بوثنية الأمم المجاورة ، فالثابت أن مردوخ والزهرة عبدا فى جزيرة العرب وأنهما من الأصنام البابلية وانتشرت عبادتهما فى بلاد العرب جميعاً(٤) . وتأثر العرب كذلك بكلديا وآشور ، فقد كان من عادة العرب تقديم الليالى على الأيام ، كما قال البيرونى فى كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية ، أن العرب فرضت أول مجموع اليوم والليلة نقطة المغارب على دائرة الأفق . فصار اليوم عندهم بليلته من لدن غروب الشمس عن الأفق إلى غروبها من الغد ، وهذا يخالف نظرية الروم والفرس ويوافق نظرية الكلدان الذين كانوا يقدمون إله القمر على الشمس .

---

(١) الدكتور محمد خان : الأساطير العربية ص ١٠٧

(٢) الدكتور محمد خان : نفس المصدر والصفحة

(٣) الدكتور محمد خان : نفس المصدر ص ١٠٦

(٤) الدكتور محمد خان : نفس المصدر ص ١٠٩

كذلك قيل إن كلمة « صنم » أصلها صُلْم Solm وهى كلمة آرامية دخلت البادية العربية(١) . وهنا نستعرض أهم الأصنام الجاهلية :

هُبَـــل :

كان هبل من أعظم أصنام قريش ، نصبه عمرو بن لحى على البئر الذى حفره ابراهيم عليه السلام فى بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر ، بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده(٢) ، وعنده فى الكعبة سبعة قداح ، كل قدح منها فيه كتاب ، وكان قربانه مائة بعير (٣) وعبدته قريش واستقسمت عنده بالأزلام (٤) . وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو يزوجوا أحداً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا فى نسب أحدهم ، ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به مايريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا ! ! هذا فلان أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه(٥) ، وكانت له خزانة للقربان وله حاجب .

---

(١) الدكتور محمد خان : الأساطير العربية ص ١١٢ .
(٢) الأزرقى : أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار ج ١ ص ٦٨ .
(٣) الأزرقى . نفس المصدر والجزء ص ٦٨ .
(٤) الأزرقى : نفس المصدر والجزء ص ٦٧ .
(٥) الأزرقى : نفس المصدر والجزء ص ٦٨ .

واختلف المؤرخون فى سبب تسميته بهذا الإسم : يقول ياقوت « هبل أظنه من الهابل وهو الكثير الشحم واللحم ، ومنه حديث عائشة : والنساء يومئذ لم يهبلن اللحم أى لم يسمن ، أو من الهبل والثكل يراد به أن من لم يطعه هبله أى شكله ، أو من الهبل والهبالة وهو الغنيمة أى يغتنم عبادته أويغتنم من عبده »(١). وذهب جورجي زيدان إلى أن لفظ هبل لا اشتقاق له فى العربية من معناه فهو غير مشتق من لفظ عربى ، ويقول إنه عبرانى أو فينيق ، أصله هبعل ومعنى بعل (السيد) ، وزاد على ذلك فقال : إن الهاء فى العبرى أداة التعريف مثل « الـ » العربية فبإضافة هـذه الأداة إلى بعل يريد الأكبر ، وقال : أما العين الزائدة فسهل إهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصا فى لفظ بعـل لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » بإهمال العين وهو اسم هذا الإله عندهم . وقيـل إن هبل القرشى هو بعل الإسرائيلى ، وعلى ذلك إذا صح تعليل الأستاذ جورجى زيدان اللغوى فلا يبقى شك فى أن هبـل هو بعل . ويقول الدكتور محمد عبـد المعيد خان « والذى قد يؤكد صحة هـذا الرأى أن الله سبحانه وتعالى أورد فى التنزيل : أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، فقال الله سبحانه بعلا ولم يقل هبلا ، وفى هذا ما يدل على أنه كان يسمى بعلا عند بنى إسرائيل »(٢) .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) الدكتور محمد خان : الأساطير العربية ص ١١٥ .

وتشير إقامة هبل على البئر الكائن فى بطن الكعبة إلى أنه كان ذا علاقة بالرزق والخصب فى عقيدة العرب أيضا ، كما كان اليهود يعتقدون أنه إله النعمة والسعادة . يقول محمد عبد المعيد خان : « لا أتردد أن أقول إن هبل كان إله الخصب والرزق ومن ثم إله السعادة وشبه رب الأرباب فى عقيدة العرب »[١]. وهبل هو الإله الذى عناه عمرو بن لحى حينما قال : إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ويشتو بالعزى لحر تهامة[٢] .

وهبل هو أعظم الأصنام التى كانت لقريش فى جوف الكعبة وحولها ، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، فجعلت له قريش يدا من ذهب ، وكان لإصلاح اليد المكسورة أثر خالد فى العقلية العربية التى أخذت منذ ذلك الحين تتصور الإله فى صورة إنسان حقيق كما يظهر من الخرافة التى صورت العزى فى صورة امرأة[٣] .

اللاّت والعُزّى

واتخذ العرب فى الطائف معبود « اللاّت » ، وهى أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة بيضاء ، وسدنتها من ثقيف بنى عتاب بن مالك . وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللاّت والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى[٤]. وكان العرب يحلفون بها ، يقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

---

(١) الأساطير العربية قبل الإسلام ص ١١٧ .

(٢) الأزرق : أخبار مكة جـ ١ ص ٧٤ .

(٣) ابن الكلبى : الأصنام ص ٢٧ .

(٤) ابن الكلبى : نفس المصدر ص ١٦ — ١٩ .

وانتشرت عبادة اللات بين العرب ، بدليل كثرة الأسماء المركبة من إسمها ، مثل تيم اللات وعمرو اللات وزيد اللات وغيرها(١) . واختلف المؤرخون فى سبب تسميتها بهذا الاسم . يقول ياقوت : إن اللات كان رجلا من ثقيف ، ويقول الأزرقى إن رجلا ممن مضى كان يقعد على صخرة ثقيف يبيع السمن للحجاج إذا مروا فَيلتُ سويقهم وكان ذا غنم فسميت صخرة اللات فمات فلما فقده الناس قال لهم عمرو بن لحى : إن ربكم كان اللات فدخل فى جوف الصخرة(٢) ، أما الأستاذ رشدى صالح ناشر ومحقق كتاب الأزرقى فيقول إنها كانت بالطائف فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم ، فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله المغيرة ابن شعبة فهدمها وحرقها بالنار(٣) . ويذهب محمد عبد المعيد خان إلى أن اللات كلمة قديمة وردت فى الأدب البابلى الذى يرجع عصره إلى ثلاثة آلاف سنة تقريبا وهى إسم إله من آلهة البابليين الذين رأوا فيها تمثل فصل الصيف(٤) .

واللات من الأصنام التى جاء بها عمرو بن لحى ، أخذها العرب من النبطيين الذين كانوا يعتبرونها إله الشمس ويلقبونها بربة البيت ، ونسب العرب إليها ـ كالبابليين ـ فصل الصيف وقالوا : ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف .

أما العُزّى فكانت من أعظم الأصنام عند قريش ، حتى إنهم كانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح ، وكان لها منحر ينحرون فيه

---

(١) لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية جـ ١ ص ٨٤ .
(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار جـ ١ ص ٨٤ .
(٣) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار جـ ١ ص ٧٤ حاشية ٥
(٤) الأساطير العربية ص ١١٧ ـ ١١٨ .

هدايام يقال له الغبغب ، وبها كانت العرب وقريش تسمى عبد العزى(١) ، وكانت قريش تخصها بالإعظام . قال زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان قد تأله فى الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى غنم أزور
ولا هبلا أزور وكان ربا لنا فى الدهر إذ حلمى صغير(٢)

واختلف المؤرخون فى ماهية العزى : فذهب الأزرقى إلى أن العزى كانت ثلاث شجرات سمرات فى وادى نخلة ، وأن أول من دعا إلى عبادتها عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب ، وأن قريشا وبنى كنانة كانت كلها تعظم العزى مع خزاعة وجميع مضر ، وسدنتها بنو شيبان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم(٣) . أما ياقوت فيذكر أن العزى سمرة كانت فى غطفان يعبدونها وكانوا قد بنوا عليها بيتا وأقاموا لها سدنة ، وقال عن اشتقاق إسمها : والعزى تأنيث الأعز مثل الكبرى تأنيث الأكبر ، والأعز بمعنى العزيزة ، والعزى بمعنى العزيزة . يقول درهم بن زيد الأوسى للعزى :

إنى ورب العزى السعيدة واللـ ـه الذى دون بيته شرف(٤)

وللعزى أسماء كثيرة تختلف باختلاف الألسنة : فاليونان دعتها إفروديت ، والكلدانيون بلتى ، وطىء عوزى مما يظهر لنا أن كلمة العزى

---

(١) ابن الكلبى : الأصنام ص ١٨ .
(٢) ابن الكلبى : نفس المصدر ص ٢١ .
(٣) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥ .
(٤) ياقوت : معجم البلدان .

من لغة بنى طىء(١). وقيل إن أحد ملوك الحيرة قد ضحى للعزى عددا من البتولات المسيحيات(٢)، ولعلهم كانوا يرون فى سفك الدماء وسيلة لإخماد غضب الآلهة وللتقرب منهم وطلب رضاهم. وقد تطورت العزى عند العرب، فقد مثلت فصل الشتاء كما مثلت اللات فصل الصيف ويظهر ذلك من قولهم: إن ربكم يشتو بالعزى لحر تهامة، وصارت إلهة الخصب والرزق حينما قامت على ثلاث شجرات سمرات فى وادى نخلة وصعدت إلى السماء فى صورة إمرأة حسناء، وأصبحت نجم الصباح حينما ظهرت اللات فى صورة الشمس، وسميت الزهرة كما قال البلخى فى قصة هاروت وماروت فى كتابه: البدء والتاريخ(٣).

أصنام أخرى:

وعبد العرب عدة أصنام أخرى، من بينها «مناة»، وهى أقدم الأصنام عند العرب، جاء بها عمرو بن لحى، دخلت عبادتها بلاد الحجاز ولم تولد فيها، وكانوا يسمون بها عبد مناة وزيد مناة، وقيل إنها كانت صخرة لهذيل، وكانت العرب جميعا تعظمها وتذبح حولها ويهدون لها، وخاصة الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة. وقيل إن مناة كانت للأزد وغسان، يحجونها ويعظمونها، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا إلا عند مناة(٤).

وتمثل مناة عند العرب، الموت لا الدهر، لأن الدهر فى تصورهم

---

(١) محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية ص ١٢٠.
(٢) شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ١١.
(٣) محمد عبد المعيد خان: نفس المصدر ص ١٢١.
(٤) الأزرقى: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص ٧٣.

ذكر ، ومناة أنثى ، ولعل هذا هو ما دعا العرب أن يستقسموا عند هبل وذى الخلصة ولم يستقسموا عند مناة ، بل حلفوا أمامها . يقول عبد العزى بن وديعة المزنى :

إنى حلفت يمين صدق برة   بمناة عند محل آل الخزرج(١)

ويؤكد صفة مناة ما قيل من أن سيفين وجدا عند مناة حينما هدمت عام فتح مكة(٢) ، لأن السيف رمز العدالة والإنصاف عند أهل البادية(٣) ، وقيل إن مناة كانت إلهة القضاء والقدر التى تقابل إلهة الحظ المخلص عند الإغريق .

وكان لقريش أيضا صنم عرف باسم « وَدّ » ، وكان بدومة الجندل ، وسدانته فى بنى الفرافصة بن الأحوص الكلبيين ، واشتقاق ود فى اللغة العربية هو من ودد بمعنى أحب ، ومثّل ود دور الحب عند العرب ، وكان أول من أجاب دعوة عمرو بن لحى إلى ذلك الصنم هو عوف ابن عُذرة(٤) الذى تعد قبيلته المثل الأعلى للحب(٥) حتى قيل « الحب العُذرى » نسبة إليها ، قال الشاعر :

حياك وَد فإنا لا يحل لنا   لهو النساء وإن الدين قد عزما(٦)

---

(١) ابن الكلبى : الأصنام ص ١٣ — ١٤ .
(٢) ابن الكلبى : نفس المصدر ص ١٥ .
(٣) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ١٢٩ .
(٤) ابن الكلبى : نفس المصدر ص ٥٥ .
(٥) محمد عبد المعيد خان : نفس المصدر ص ١٣١ .
(٦) ياقوت : معجم البلدان .

وكان « يغوث » من أصنام العرب فى الجاهلية ، وهو من غـثْتُ الرجل أغوثُـه من الغوث أى أغثته ، وقيل إنه كان صنما لمذجح وأهل جرش وإنه كان على هيئة الأسد(١) ، وقيل أيضا إن يغوث مجلوب من مصر ، وعلل جرجى زيدان ذلك بقوله : «وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد أو لبؤه يسمونه تفنوت ولا يخفى مابين هذا اللفظ واللفظ يغوث من المشاكلة الصورية إذا اعتبرنا أن العرب كانوا يكتبون بلا نقط» . وقدوقعت حروب بين بعض قبائل اليمن لاقتناء ذلك الصنم ، من بينها واقعة رَزم بين بنى الحارث وحمدان ومعهم سدنة الصنم من جهة وبين مراد من جهة أخرى، وإلى هذه الواقعة أشار الشاعر بقوله :

وسار بنا يغوث إلى مراد   فناجزناهم حتى الصباح

واتخذت خَـيْـوان « يعوق » . وقيل إنه كان على صورة الفرس(٢) . واتخذت حمير « نسرا » ، وكان قبل ذلك من أصنام قوم نوح عليه السلام ، وكان على صورة النسر(٣) .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هـذه الأصنام فى كتابه العزيز حيث قال (وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرُن وَدا ولا سُوَاعا ولا يَغوث ويَعوق ونسْرًا) (٤) . وينفى صاحب كتاب النصرانية وآدابها ، أن هذه الأصنام قد عبدت فى جزيرة العرب ، فيقول «ولعل كثيراً من هـذه الأصنام لم تعبد فى جزيرة العرب كوَد وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، الذين يقال عنهم إنهم

---

(١) الزمخشرى : الكشاف عن مغالق التنزيل ج ٢ ص ١٥٣٢ (طبع كلكتا) .
(٢) الزمخشرى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) ابن الكلبى : الأصنام ص ١١ .
(٤) سورة نوح ، آية ٢٣ .

من آلهة قوم نوح »(١) . وقد اقترن اسم نسر بالعزى فى الأبيات الآتية التى أوردها ياقوت :

أما ودماءٍ مائرات تخالها على فتنة العزى أو النسر عندما
وماقدس الرهبان فى كل هيكل أبيل الأبيلين المسيح بن مريما
لقد ذاق منا عامر يوم لعلع حساما إذا ماهز بالكف صمما

وكانت قبائل هذيل هى أول من اتخذ « سواعا » للعبادة، وقيل إن موضع هذه القبائل إمافى أرض ينبع ، أوفى رهاط من بطن نخلة ، إذ أن قبائل هذيل وبنى لحيان كانت تقيم فى ضواحى مكة ، ورهاط واد كبير تقع فى غربيه قرية الحديبية (٢) .

ومن أصنام العرب المعروفة ، إساف ونائلة كانا رجلا وامرأة فمُسخا حجرين ، فأخرجا من جوف الكعبة وعليهما ثيابهما ، فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر عند زمزم وكان يطرح بينهما مايهدى للكعبة . وتشير قصة مسخ إساف ونائلة إلى تقديس العرب وتعظيمهم لمكة والبيت الحرام. وكان أهل الجاهلية يمرون بإساف ونائلة ويتمسحون بهما ، فإذا طاف أحدهما بالبيت يبدأ بإساف فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة . ثم اتخذهما قصى بعد ذلك ليذبح عندهما عند موضع زمزم ، بدليل ماذكره صاحب « كتاب الأعلام» عن نذر عبدالمطلب حيث قال: عيّر عدى بن نوفل بن عبد مناف ، عبد المطلب بقلة أولاده ، فقال له عبد المطلب : أوَ بالقلة تعيرنى . . . ؟ فوالله لئن أعطانى الله عشرة من الولد لأنحرن أحدهم عند الكعبة ، فلما كمل

---

(١) شيخو : النصرانية وآدابها جـ ١ ص ٦ .
(٢) الأزرقى : أخبار مكة جـ ١ ص ٧٨ حاشية ٧ .

له عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، فقالوا له أوف بنذرك وافعل ماشئت ،قال : ليأخذ كل واحد منكم قدحا فيكتب فيه اسمه ثم إيتونى به ، ففعلوا ودخلوا على هبل ... وضرب صاحب القداح ، فخرج السهم على عبد الله فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل على إساف — وهو صنم كان على الصفا — ليذبحه عنده(١) .

ولإساف ونائلة، يقول أبو طالب ، وهو يحلف بهما حين تحالفت قريش على بنى هاشم :

وأحضرت عند البيت رهطى ومعشرى　　وأمسكت من أثوابه بالوصائل
وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم　　بمفضى السيول من إساف ونائل

وقال بشر بن أبى خازم الأسدى فى إساف :

عليه الطير ما يدنون منه　　مقامات العوارك من إساف

واختلفت الروايات فى شأن صنم «ذى الخُلَصة» : فقيل إنه بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة ثم أحرقه جرير ابن عبدالله البَجَلى حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم[٢]، وقيل إنه كان لعمرو ابن لحى بن قمعة نصبه بأسفل مكة حين نصب الأصنام فى مواضع شتى فكانوا يلبسونه القلائد ويعلقون عليه بيض النعام ويذبحون عنده وكانوا يعنون بتسميتهم له بذلك الإسم أن عباده والطائفين به من الخلصة(٣) ، وقيل هو الكعبة اليمانية التى بناها أبرهة بن الصباح الحميرى وكان فيه صنم يدعى الخلصة فهدم ، وقيل إن ذا الخلصة كان بيتا تعبده بجيلة وخثعم والحارث بن كعب

---

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص٤٦ . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٤٧ تاريخ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان .
(٣) تاريخ مكة المشرفة ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٠ ، تاريخ ، ورقة ٣٢ .

وَجَرْم وزُبيد والغَوْث بن مُر بن أد وبنو هلال بن عامر وكانوا سدنته بين مكة واليمن بالعَبْلاء على أربع مراحل من مكة(١)، وقيل إن ذا الخلصة كان صنما بتبالة كانت العرب جميعا تعظمه وله ثلاثة أقداح : الآمر والناهي والمتربص(٢) .

أما « رئام » فكان بيت نُسُك يُتنسك عنده ويحج إليه ، وينسب إلى رئام بن نهفان بن تبع بن زيد بن عمرو بن همدان، وعلى مقربة منه جبل «أقوى» من بلد همدان ، وعلى مقربة منه قصر المملكة . وأمام باب القصر حائط فيه بلاط ، فيها صور الشمس والهلال ، فإذا خرج الملك ورآها كفر لها بأن يضع راحته تحت ذقنه عن وجه يستره ثم يخر بذقنه عليها . يقول الشاعر :

إنا بنــو أود الذى بلوائه صعبت رئام وقد غزاها الأجرع(٣)

وكان بحضرموت صنم يدعى « الجَلْسَد » تعبده كندة وحضرموت ، وسدنته بنو شكامة بن الشبيب بن السكون ، ثم بنو علاق ويسدنه منهم الأخرز ابن ثابت . وكان للجلسد حمى ترعاه سوامه وغنمه ، وكانت هوافى الغنم إذا رعت حمى الجلسد حُرِّمت على أربابها . وكان كجثة الرجل العظيم وهو من صخرة بيضاء ، وإذا تأمله الناظر رآه كصورة وجه الإنسان(٤) ، قال الشاعر :

فبات بجتاب شقارى كما يبقر(٥) من عشى إلى الجلسد(٦)

وكان لمالك وملكان ابنى كنانة بساحل جدة صنم يقال له « سعد » ،

---

(١) ياقوت : معجم البلدان .
(٢) ابن الكلبى : الأصنام ص ٤٧ .
(٣) الهمدانى : الإكليل جـ ٨ ص ٨٢ .
(٤) ياقوت : نفس المصدر .
(٥) البيقرة : مشية يطاطىء الرجل فيها رأسه .
(٦) ياقوت : نفس المصدر .

وكان صخرة طويلة(١) ، وقيل إن هذا الصنم كانت تعبده هذيل(٢) . ولدينا قصة رجل من بنى مالك وملكان أقبل بإبل له ليقفها عليه « يتبرك بذلك فيها فلما أدناها منه نفرت فذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه فتناول حجرا فرماه به وقال لا بارك الله فيك إلها ، أنفرت علىَّ إبلى » ، ثم خرج فى طلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا   فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة   من الأرض لا يدعى لغىٍ ولا رشد(٣)

وكان للعرب أيضا « مناف » ومنه كانت تسمى قريش عبد مناف ، ولا يعرف أين كان ولا من نصبه وقل إنه صنم عبد فى الجاهلية(٤) . يقول ياقوت « إنه كان مستقبل الركن الأسود وله غبغبان أسودان من حجارة تذبح بهما الذبائح »(٥) .

ومن الأصنام المعروفة فى الجاهلية : « بَعْل » ، و « أوال » الذى كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل ، و « بلج » وكان فى عميرة وغفَـلية من عنزة ابن ربيعة (٦) ، و « جهار » وهو صنم كان لهوازن بعكاظ وسدنته آل عوف النصريين (٧). أما « بساء » فهو بيت بنته غطفان وسمته كذلك مضاهاة للكعبة

---

(١) ابن الكلبى : الأصنام ص ٣٦ .
(٢) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٠٤ .
(٣) ابن الكلبى : نفس المصدر ص ٣٦—٣٧ .
(٤) الشدياق : الساق ص ١٥٥ — ١٥٨ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان .
(٦) ياقوت : نفس المصدر .
(٧) الشدياق : نفس المصدر ص ١٥٥ — ١٥٨ .

وهو من قولهم: لاأفعل ذلك ما أبَسَّ عبدٌ بناقته ، وهو طوفانه حولها ليحلبها ، وأبس الإبل عند الحلب إذا دعا الفيصل إلى الناقة ليستدرها به ، فكأنهم كانوا يستحلبون الرزق فى الطواف حوله . وسمى هـذا الصنم كذلك باسم « بس » وهو بيت لغطفان بناه ظالم بن أسعد لما رأى قريشا يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت وأخذ حجرا من الصفا وحجرا من المروة ، فرجع إلى قومه فبنى بيتا على قدر البيت ووضع الحجرين وقال : هـذا من الصفا والمروة ، واجتزأ به عن الحج فأغار زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالماً وهدم بناءه[١] .

و « الكعبات » هو بيت كان لربيعة يطوفون به ، وقيل إنه كان لبكر وتغلب ابنى وائل وإياد فى سنداد[٢] ، قال الأسود بن يعفر :

أهل الخورنق والسدير وبارق والبيت ذى الكعبات من سنداد

ومن أصنام العرب فى الجاهلية : « زُون » وهو صنم كان بالأُبُلة ، و« شمس » صنم كان لبنى تميم وله بيت وتعبده بنو أدّ وضبة وتيم وعدى وثور وعكل وسدنته فى بنى أوس وكسره هند بن أبى هالة وسفيان بن أسيد(٣) وذكر الأب لويس شيخو تلبية هذا الصنم وهى : لبيك اللهم لبيك! ما نهارنا نجره ، لامه وحره وقره ، لا نتقى شيئا ولا نضره ، حجاً رب مستقيم بره(٤) . وكان « الضمار » صنما فى ديار سُلَيم بالحجاز ذُكر فى إسلام العباس بن مرداس السلمى(٥) ، وكان لخولان صنم يقال له « عَمّ أنس » بأرض خولان يقسمون له أنعامهم

---

(١) الشدياق : الساق ص ١٥٥ ــ ١٥٨ .
(٢) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٥٧ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان .
(٤) النصرانية وآدابها ج ١ ص ١٥ .
(٥) ابن هشام : نفس المصدر والجزء ص٥٣ .

وحرثهم قسما بينه وبين الله وسمى كذلك عُميانس(١) ، و« المدان» هو اسم صنم ومنه عبد المدان ، و « المحرَّق » صنم كان بسلمان لبكر بن وائل وسائر ربيعة وكانوا قد جعلوا له فى كل حى من ربيعة ولدا وسدنته أولاد الأسود العجليون(٢) .

أما «الغبغب» فقد اختلف فى كونه صنما أوموضعا للنحر . يقول ياقوت : الغبغب هو الموضع الذى كان ينحر فيه للات والعزى فى الطائف وخزانة مايهدى إليها ، وقيل هو بيت كان لمناف وهو صنم كان مستقبل الركن الأسود وله غبغبان أسودان من حجارة تذبح بينهما الذبائح ، وللغبغب حجر ينصب بين يدى الصنم . . . وكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها(٣) ، وذكر صاحب الساق : أن الغبغب هو صنم ليس إلا(٤) . أما ابن سيدة فقد أطلق عليه « عبعب » وذكره على أنه صنم كانت تعبده قضاعة(٥) .

ومن أصنام العرب فى الجاهلية صنم عرف باسم «مَرْحَب»(٦). وكان « الضيزن » صنما يعبد فى الجاهلية(٧) ، وقيل إنه كان لدوس(٨) ثم لبنى منهب ابن دوس(٩) ذكره الأزرقى عندما تكلم عن كسر الأصنام بعد فتح مكة(١٠).

---

(١) الشدياق : صاحب الساق ١٥٥ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان .
(٣) ياقوت : نفس المصدر .
(٤) الشدياق : نفس المصدر ص ١٥٥ .
(٥) ابن سيدة : المخصص ج١٣ ص ١٠٤ .
(٦) الشدياق : نفس المصدر ص ١٥٥ .
(٧) ابن سيدة : نفس المصدر ج ١٣ ص ١٠٤ .
(٨) كانت دوس تنزله في قسم من جبل السراة ، يسمى سراة دوس .
(٩) ابن الكلبي : الأصنام ص ٣٠ .
(١٠) الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص٧٨ .

أما « الضيزنان» فهما صنمان كانا للمنذر الأكبر اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما كل من دخل الحيرة امتحانا للطاعة(١) ، وفيهما قال صاحب كتاب الحيرة « كان لجذيمة الأبرش التنوخي صنمان يقال لهما الضيزنان وكان جذيمة قد تنبأ وتكهن وكان يستسق بهما ويستنصر بهما على العدو »(٢) .

ونصب عمرو بن لحى على الصفا صنما يقال له «نهيك مجاود الريح» ونصب على المروة صنما يقال له «مطعم الطير»(٣) . كما أن «الشارق» كان صنما فى الجاهلية به سمى عبد الشارق(٤) . وكان « الفلس » صنما » لطيء فى الجاهلية وهو على هيئة جمل أسود ثم تآكل بفعل المؤثرات الجوية حتى بدا للرائى كأنه تمثال إنسان (٥) .

ومن أصنام الجاهلية « العتر » ومعناه فى اللغة الذبيحة التى كانوا يذبحونها فى الجاهلية فى رجب ، و« عَوْض» وهو صنم لبكر بن وائل ، و« نهم » صنم لمزينة وبه سموا عبد نهم ، و«الكُسْعة » وثن (٦) كان يعبد ، و« كثرى »

---

(١) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٠٤ .

(٢) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٢٩ .

(٣) الفاكهى : تاريخ مكة ص٦ .

(٤) ابن سيدة : نفس المصدر والجزء ص ١٠٥ .

(٥) محمد محمود جمعة : النظم السياسية والاجتماعية ص ١٢١ .

(٦) إذا كان الصنم من خشب أو فضة أو ذهب على صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن « ياقوت : معجم البلدان .

صنم لجديس وطسم كسره نهشل بن الرئيس ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فأسلم «و «الأشهل» صنم عبد فى الجاهلية ومنه بنو الأشهل وهم حي من العرب . وعبد العرب فى الجاهلية أصناماً منها : البجة والسجة وآزر وباجَـر والدّوار والدار وسفير والأقيصر وجريش والعوف ونصر وشريق ووَدْع وذو الشرى والجبهة وعائم والأسحم وياليل والبعيم ومنهب(١) .

وكان للعرب بيوت تحج اليها ، مثل اللات وذى الخلصة وكعبة غطفان التى بناها ظالم بن سعد بن ربيعة ، فسار إليها زهير بن حباب الكلبي وهدمها ، فقال الرسول عليه السلام : لم يكن شيء من أمر الجاهلية وافق الإسلام إلا ما صنع زهير بن حباب . (٢)

أما بنو الحارث بن كعب ، فكانت لهم كعبة فى نجران يعظمونها ، وقد قيل إنها لم تكن كعبة عبادة ، وإنما كانت غرفة لأولئك القوم(٣) ، دعاها بعضهم دير نجران «وتسمه العرب كعبة نجران ، وهو لبنى الحارث ابن كعب »(٤). وممن دعاها ديراً ، ياقوت فقال : «هو باليمن لآل عبد المدان ابن الديان من بنى الحارث بن كعب ، كانوا قد بنوه مربعا مستوى الأضلاع والأقطار مرتفعا عن الأرض ، يصعد إليه بدرجة على مثل بناء الكعبة ، فكانوا يحجونه هم وطوائف من العرب ممن تحل عليهم الأشهر الحرم

---

(١) الشدياق : الساق ص ١٥٦ — ١٥٨.

(٢) الهمدانى : الإكليل ج ٨ ص ٨٤ .

(٣) ابن الكلبى : الأصنام ص ٤٤ .

(٤) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٥٨ .

ولا يحج الكعبة وتحجه خثعم قاطبة »(١) . وكان لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض بين الكوفة والبصرة(٢) . وعدت كعبة شداد الإيادي من البيوت التي كانت العرب تحج إليها (٣) .

أما أهل الحيرة ، فقد كان لهم صنم أطلق عليه اسم «سُبُد » (٤) يحلفون به ويقولون به « حق سبد »(٥) . وذهب أنستاس إلى أنه ربما كان مصرى الأصل ، إذ عند أبناء وادى النيل إله يعرف باسم « سوبدو »(٦) .

(ب) عبادة الحيوان :

وكما عبد العرب فى الجاهلية الحجارة والبيوت والأصنام ، عبدوا كذلك الحيوان . قال السهيلى : خرج نفر من طىء يريدون النبى عليه السلام بالمدينة وفودا ، ومعهم زيد الخيل ووزر بن سروس النبهانى فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد ودخلوا فجلسوا قريبا من النبى صلى الله عليه وسلم حيث يسمعون صوته . فلما نظر النبى صلى الله عليه وسلم إليهم قال إنى خير لكم من العزى

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٧٨ .

(٢) ابن الكلبى : الأصنام ص ٤٥ .

(٣) الهمدانى : الإكليل ج ٨ ص ٨٤ .

(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١٠٢ .

(٥) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٣٠ .

(٦) صحيفة دار السلام البغدادية : عدد تشرين الثانى ، سنة ١٩١٩ .

ولاتها ، ومن الجمل الأسود الذى تعبدون من دون الله ، وعما حازت مناع من كل ضار غير نفاع » (١). واختلف الباحثون فى تفسير ماذهب إليه السهيلى : فقد قيل إن طيئا كانت تعبد صنما لها يقال له « فلس » ، وأن ذلك الجمل الأسود الذى أورده السهيلى فى روايته لم يكن إلا صورة لذلك الصنم « فلس »(٢). وقيل إن العرب عبدوا الحيوان الحى نفسه ولم ينحتوا الأصنام على صورته (٣) .

وكانت الآرام والظبيان والغزلان بأنواعها المختلفة مقدسة عند العرب ، وظلت تعبد إلى عصر متأخر فى بيوت الأصنام فى مكة وتبالة وغيرهما ، فقد كان العرب فى الجاهلية يعتقدون أن لتلك الحيوانات قوة خفية وأنها قادرة على البطش والانتقام ، وذلك ظاهر من الأساطير التى ظلت متداولة إلى مابعد ظهور الإسلام(٤). وكان الحمام كذلك من بين الطيور التى عبد العرب أصنامها فى الجاهلية ، وقد أقاموا له صنما فى الكعبة(٥) ، فقد ذكر ابن هشام أن رسول الله لما ترك مكة وأتم طوافه « دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها (٦) .

ويظهر أن العربى قد عبد الحيوان الحى نفسه ، ولم ينحت الأصنام على صورة الحيوان ، لأنه كان جاهلا بصناعة الرسم والنحت . وكان معظم

---

(١) السهيلى : الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٢ .
(٢) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٢١ .
(٣) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ٨١ .
(٤) Robertson : The Religion of Semites, Note F.
(٥) محمد محمود جمعة : نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٦) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ٨٢١ .

الأصنام ، التى وجدت على صورة الحيوان فى شبه جزيرة العرب ، مجلوبة من البلاد المجاورة ، وعددها ثلاثة :

١ — النسر : وكان على صورة النسر ، ولقد ورد ذكره فى النقوش القتبانية والسبئية ، ويظهر أن عبادته قد دخلت إلى جزيرة العرب من مصر ، ويرى فلهوزن أن عبادته كانت متصلة بالكواكب وأنها كانت تشير إلى مجموعة الكواكب القريبة من المجرة[١] .

٢ — يغوث : وكان على هيئة الأسد .

٣ — يعوق : وكان على هيئة الفرس .

ومنها عَوْف ، وهو اسم طائر صياد وأحد أسماء الأسد ، ورد ذكره كإله فى الأعلام ، فقالوا : عبد عوف[٢] . ولكن هذه الأصنام الحيوانية لم تترك أثرا فى حياة العرب[٣] .

وهناك ارتباط وثيق بين أرض الحمى وبين الحيوان والطير . فمن حقوق الحمى أن لا يُظلم الناس فى تلك الحدود ، وأن لا يقتنص الصيادُ الحيوانَ ولا الطير فى هذه الأرض المقدسة . وليس ببعيد أن يكون ذلك هو السبب فى أن عمرو بن لحى قد قام بتنصيب الأصنام على مواطن المياه والآبار وساحل البحر ، كما قيل إنه نصب هبل على البئر التى كانت فى جوف الكعبة وسميت « الأخسف »[٤].

قدس العرب الحيوان وعبده ، تحصيلا للبركة ، وشكرا لاستفادته منه ،

---

(١) محمد محمود جمعة : النظم السياسية والاجتماعية ص ١٣٩ .
(٢) شيخو . النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية جـ ١ ص ١٣ .
(٣) محمد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٨١ .
(٤) محمد خان : نفس المصدر ص ١٠٢ .

جريا على عادة الرعاة قديما(١) ، أو لاعتقادهم أنها تشترك مع الإنسان فى بعض الصفات الشخصية ، ومن أجل ذلك كانوا يمتنعون عن أكل لحومها(٢) .

وذهب فريق من العلماء إلى أن العرب لم يقدسوا أو يعبدوا الحيوان من أى نوع كان ، لأن أقدم آلهة العرب كانت آلهة أرضية متصلة بالتربة والسقى والخصب والنتاج ، وهو أمر طبعى لسكان البيد والصحراء ، وصار لذلك صدى فى تعظيم الأشجار والعيون والآبار(٣).

(ح) عبادة الأشجار :

لم يكن نصيب الأشجار من العبادة والتقديس بأقل من نصيب غيرها مما قدسه العرب وعبدوه ، وقد يكون مرجع ذلك إلى ندرة الأشجار فى الجزيرة العربية . وكان لكفار قريش شجرة عظيمة خضراء يقال لها « ذات أنواط » ، يعلقون عليها كل سنة أسلحتهم ، ويذبحون ويعكفون بجوارها يوما ، وكان من حجّ منهم وضع زاده عندها ودخل بغير زاد تعظيما لها(٤) . وكما قيل عن ذات أنواط ، كذلك قيل عن العزى إنها كانت ثلاث شجيرات سمرات بنخلة ، وكان أول من دعا إلى عبادتها عمرو ابن ربيعة والحرث بن كعب(٥) . وجاء فى بعض المصادر ، أن العربى كان يعبد الأشجار ويرى فيها روح الشر ، مثل شجرة الحماطة ، وهى أحب الشجر إلى الحيات(٦) .

---

(١) محمد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٨٣ .
(٢) محمد جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٠٤ .
(٣) محمد جمعة : نفس المصدر ص ١٣٩ .
(٤) الأزرقى : أخبار مكة جـ ١ ص ٧٧ — ٧٨ .
(٥) القرشى : تاريخ مكة المشرفة ، ورقة ٣٢ (مخطوط) .
(٦) محمد خان : نفس المصدر ص ٥٢ .

٢ — الديانة المسيحية

كان لا بد للمسيحية أن تنتشر فى بلاد العرب انتشارا ، أقل ما يقال فيه ، إنه استطاع أن يجذب العديد من القبائل العربية إلى النصرانية ، وذلك لأنها كانت تحيط بتلك البلاد من الشمال حيث يوجد الروم ، ومن الجنوب حيث يوجد الأحباش .

أخذ المبشرون يجوبون بلاد العرب للتبشير بهذا الدين ، يعزز نشاطهم ويشد أزرهم ، النفوذ السياسى للدولتين المسيحيتين المجاورتين لبلاد العرب وهما : مملكة الحبشة فى الجنوب والدولة الرومانية فى الشمال . وذكر المؤرخون الكثير من القصص عن المبشرين الذين كانوا يدعون للمسيحية سراً ، فإذا افتضح أمرهم تركوا تلك البلاد وانتقلوا إلى غيرها حيث لا يعرف أمرهم . ومن بينها ، قصة فيمون ، الذى نشر دين النصرانية فى نجران حسب رواية مؤرخى العرب . الذين يذكرون أنه كان رجلا صالحا مجتهداً فى العبادة مجاب الدعوة . وكان يتعمد الخفاء عن الناس ، ولكن فطن لشأنه رجل من أهل الشام يدعى صالح ملزمه ، وخرجا فارين بأنفسهما حتى وطئا بلاد العرب ، واختطفتهما قافلة وبيعا فى نجران ، وحين كان يؤدى الصلاة فى الليل ، سأله سيده عن دينه ، فأخبره به ، وقال له : إنما أنتم على باطل ، وهذه الشجرة لا تضر ولا تنفع(١)، ولو دعوت عليها إلهى الذى أعبده لأهلكها ، وهو وحده الذى لا ند له . ودعا فيمون ، فأرسل الله ريحا جففت النخلة من أصلها . وأقبل أهل نجران على دين عيسى ، وانتشرت النصرانية فيها(٢) .

وهناك شواهد ثابتة نقلها مؤرخو العرب ، تدل دلالة واضحة على أن

---

(١) كان أهل نجران فى ذلك الوقت يعبدون نخلة طويلة لهم .

(٢) ياقوت : معجم البلدان .

المبشرين المسيحيين لم يحجموا عن الدعوة لدينهم فى الحجاز : فذكر ابن خلدون فى تاريخه بعثة برثلماوس إلى أرض الحجاز والعرب[١]، وسبقه الطبرى إلى ذلك فقال : وكان ممن توجه من الحواريين . . . ابن ثلما (برثلماوس) إلى العرابية وهى أرض الحجاز[٢] ، وكذلك ورد فى سيرة الرسول لابن هشام عن ابن اسحق : وكان ممن بعث عيسى ابن مريم عليه السلام من الحواريين والأتباع الذين كانوا بعدهم فى الأرض . . . ابن ثلما إلى الأعرابية وهى أرض الحجاز[٣] . ويقول شيخو : ومما زاد النصرانية ترقيا فى بلاد العرب عدد كبير من الكهنة والأساقفة والرهبان كانوا فى أيام الاضطهادات على عهد القياصرة الوثنيين أو ملوك الرومان المتشيعين لايجدون أمانا لحياتهم إلا بأن يهجروا بلادهم ويفروا إلى بلاد العرب حيث كان يصعب على المغتصبين أن يدركوهم ويلحقوا بهم الأذى[٤] . كما كان القسس والرهبان يردون أسواق العرب يعظون ويبشرون[٥] .

ولم تكن بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية ، تجهل تعالم المسيحية وتقاليدها ، لاتصالها الدائم بقبائل الشمال التى كانت تدين بالنصرانية . كما أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم فى فلسطين وشبه جزيرة سينا حتى قلب الصحراء كان لهم أثر كبير فى تعريف العرب بالنصرانية . أضف إلى ذلك أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق النصرانية المضطهدة من الكنيسة الرسمية ، فكان طبعيا أن تكون أقدر على النجاح فى نشر تعاليمها من كنيسة الدولة الرسمية .

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٧٣٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة ص ٩٧٢ .

(٤) لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ٣٦ .

(٥) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ص ٣١ .

٣ — الديانة اليهودية

بلغت اليهودية أقاصى الجزيرة العربية ، مجتازة أواسطها ، ولكن فى نفوذ قليل وتأثير أقل . ولعل ذلك راجع إلى نظرة عرب الجزيرة فى ذلك الحين إلى الديانة اليهودية ومعتنقيها وإلى عدم وجود دولة أخذت على عاتقها نشر الديانة اليهودية فى بلاد العرب كما فعلت الدولة الرومانية الشرقية حين روجت للمسيحية بإرسالها الرهبان والمبشرين هناك .

غير أن الديانة اليهودية عند ما دخلت بلاد العرب لم تأخذ تلك الصورة التى أخذتها الديانة المسيحية فى تلك البلاد ، فإن الأحبار اليهود لم يأخذوا على عاتقهم نشر الديانة اليهودية بين العرب كما فعل المبشرون المسيحيون ، بل إن الديانة اليهودية دخلت فى بلاد العرب على يد جماعات من اليهود انتقلت بأسرها إلى بلاد العرب واستوطنتها وسكنت فى أراضيها ، وترتب على ذلك أن العرب المجاورين لتلك الأقوام تهودوا تبعا لمجاورتهم تلك الجماعات اليهودية .

وُجدت الديانة اليهودية - أول ما وجدت - فى بلاد اليمن ، ويدعى يهود اليمن أن أجدادهم ظعنوا إلى ذلك القطر منذ عهد سليمان الحكيم ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن اليهودية كانت منتشرة فى اليمن على عهد الملك ياسر أنعم ، وقيل إن انتشارها كان فى عهد تبان أسعد أبو كرب وهو خليفة ياسر أنعم(١) .

أما عن كيفية ظهور اليهودية فى بلاد الحجاز ، فقد أوضح ياقوت أن « سبب نزول اليهود فى المدينة ، أن موسى بن عمران عليه السلام بعث إلى الكنعانيين حين أظهره الله تعالى على فرعون ، فوطئ الشام وأهلك من كان

---

(١) يوسف غنيمة : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ص ٨٨–٩٩ .

بها منهم ثم بعث بعثا آخر إلى الحجاز وأمرهم ألا تستبقوا أحداً ممن بلغ الحلم إلا من دخل فى دينه ، فقدموا عليهم فقاتلوهم فأظهرهم الله عليهم فقتلوهم وقتلوا ملكهم الأرقم »(١) .

ويمكن القول أن جموعا كثيرة من اليهود فى القرن الاول والثانى بعد الميلاد أخذت تهاجر إلى الأرجاء العربية عموما وإلى الربوع الحجازية بنوع خاص . ولا شك أنه كانت هناك أسباب أخرى دعت هذه الجموع إلى ترك أوطانها والنزوح منها إلى البلاد العربية ، وأهم هذه الأسباب :

١ — زيادة عدد اليهود فى فلسطين زيادة مضطردة ، فقد قيل إنهم بلغوا أربعة ملايين .

٢ — اضطهاد الرومان لليهود فى القرن الأول قبل الميلاد ولجوءهم إلى أرض الجزيرة العربية التى كانت أحب إليهم من غيرها لأنظمتها البدوية الحرة ، ونظراً لوجودها فى أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنع توغلها .

٣ — بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠م التى انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود فى أصقاع العالم ، قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب(٢) .

وُجد اليهود فى بلاد العرب ونشروا فى البلاد التى نزلوها فى جزيرة العرب تعاليم التوراه وما جاء فيها من تاريخ خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان وجنة ونار . كذلك كان لليهود أثر كبير فى اللغة العربية فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم مثل جهنم

---

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٨—٩

والشيطان وإبليس[١] . وكان لليهود تأثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب والدين ، فاقتبس العرب منهم أمورا كثيرة كانوا يجهلونها كالحج والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالأعياد[٢] . ولما استقر اليهود ، انتشرت الحركة الزراعية فى الأراضى التى كانت منذ عهد بعيد قاحلة ماحلة ، ومنهم من حفر الآبار فى الأراضى العالية واشتغلوا بتربية الماشية والدجاج ونسج الأقمشة ، وكانت التجارة من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز[٣] .

وقد استطاع هؤلاء اليهود ، رغم ماقيل من أنهم كانوا قليلى الدعوة لهذا الدين ، أن يؤثروا على بعض العرب ويهودوهم فقد قيل إنه تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير[٤] . كما دانت بعض القبائل باليهوديه ومنها بنو نمير وبنو كنانة ، ولعلها سرت إليهم من مجاورة اليهود لهم فى تيماء ويثرب وخيبر[٥] . وصالح النبى صلى الله عليه وسلم أهل مَقْنَا على ربع عروكهم وغزولهم . . . وعلى ربع ثمارهم وكانوا يهودا[٦] . ومع ذلك لم تستطع اليهودية أن تتغلب على الوثنية فى بلاد العرب ، لأن كثيراً من أحكامها مبنى على المشقة ولأنها إن أباحت قتال الوثنيين — والقتال دين العربى — فإنها لاتبيح الانتفاع بغنائمهم بل تحرقها ، والعربى إنما يقاتل لينتقم من عدوه فى نفسه وينتفع بماله وأهله[٧] .

---

(١) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ص ٢٧ .
(٢) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج١ ص١٥ .
(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص١٠ — ١٩
(٤) اليعقوبى : تاريخه ج١ ص٢١٣ .
(٥) محمد نعمان الجارم : أديان العرب فى الجاهلية ص٢٠١ .
(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص٦٠ .
(٧) نعمان الجارم : أديان العرب ص ٢٠١

٤ — الصابئة والمجوسية والزندقة

ا — الصابئة

ينسب الصابئة دينهم إلى سيدنا نوح وإلى إبراهيم الخليل . بالتلقى عن نوح وعن إدريس ، ومنهم عبدة الأصنام والكواكب . ويعتقدون أن الثواب والعقاب إنما يلحق الأرواح ، وأن النبي هو البرى من المذمومات ، والصابئة تمنع توريث الفاسق ويعتقدون فى بعث الأرواح لا الأجسام وطهارة النفس العاصية بعد ثلاثة آلاف سنة وأن الرسل لم يبعثهم الله بل هم ملهمون من المجردات ، وحرموا تعذيب الحيوان وقتله إلا ما أحل أكل لحمه(١) . وهم ينقسمون إلى كافر ومؤمن ، ولذلك ذكرهم الله تعالى فى الأمم الاربع الذين تنقسم كل أمه منهم إلى ناج وهالك(٢) .

وهم يعظمون الكواكب وينقسمون فى ذلك إلى ثلاث فرق : الأولى : ذهبت إلى أن الكواكب واجبة الوجود لذاتها غير محتاجة إلى مخصص ، والثانية : ترى أن الكواكب آلهة ولكل منها عمل قائم به فى هذا العالم يصدر عنه لا يقدر عليه غيره ، وأنها أبدية الوجود أزلية الأولية تجرى أحكامها لا لغاية ، والثالثة : ترى أن لهذه الكواكب والأفلاك إلها مبدعا أعطاها قدرة وإرادة ذاتيه نافذة فى هذا العالم وفوض إليها تدبيره . وهذه الطوائف كان لها عصبيات فى بلاد العرب فدانت العرب بهذا الدين واعتنقته

---

(١) نعمان الجارم : أديان العرب ص ١٨٥

(٢) الجارم : نفس المصدر ص ١٧٦

وبنوا الهياكل العظيمة وقدموا لها القرابين وحجوا إليها وذبحوا لها الذبائح ، وأول من دان بهذا الدين من العرب قبائل الحميرية(١). ولقد كانت كنانة تعبد القمر ، وحمير الشمس ، وميسم الدبران ، ولخم وجذام المشترى ، وطىء سهيلا ، وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطارد . وكان بعضهم أيضا يكرم زحل والجوزاء والجبار أو الثريا ، يستدل عليه من بعض أقوالهم أو أعلامهم كعبد الثريا وعبد نجم وعبد الجبار(٢) .

وأخص أنواع عبادتهم للشمس كانت بالسجود لها عند شروقها وعند غروبها وعند توسطها السماء . ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صلاة النوافل في هذه الأوقات قطعا لمشابهة الكفار ظاهرا وسدا لذريعة الشرك . أما آثار عبادتهم للكواكب فنها تسميتهم أنفسهم بأسماء مضافة لها بالعبودية كعبد شمس وعبد المشترى . ومن الصابئة أخذ العرب علم النجوم واشتغلوا به كثيراً حتى أن ابن قتيبة ذهب إلى تفضيلهم فيه عن العجم(٣) .

ب — المجوسية :

تدور عقائد المجوسية على قاعدتين : إحداهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة . وهم يعتقدون بوجود فاعلين أزليين يصدر عن أحدهما الخير وعن الثانى الشر ، فاعتقدوا بوجود إلهين أحدهما نور ومبدأ الخير كله ويسمونه أهورا مزدا ، والثانى ظلام ومبدأ الشر كله ويسمونه أهرمان أو أهرمن .

ولقد تحكم سدنة هذا الدين فى رقاب الناس ، وتصرفوا فى معتقداتهم(٤) . وقد دخلت المجوسية بلاد العرب ، يثبت ذلك ماأورده البلاذرى فى « فتوح

---

(١) نعمان الجارم : أديان العرب ص١٨٦
(٢) لويس شيخو : النصرانية وآدابها ج١ ص١١
(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية ص١١١
(٤) روفائيل بابو اسحق : تاريخ نصارى العراق ص١-٢

البلدان ، حيث قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر ومجوس أهل اليمن ، وفرض على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل وامرأة دينارا .

حـ - الزندقة :

هؤلاء الزنادقة هم أتباع مزدك الذى خرج فى أيام قباذ بن فيروز بن يزدجرد ملك الفرس ، فدعا الناس إلى الزندقة فأجابه قباذ إلى ذلك ، ولم يلبث قباذ أن دعا الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ملك نجد إلى ذلك الدين ، فأجابه إلى طلبه ، واستعمله قباذ على الحيرة وطرد المنذر من مملكته . ويقول اليعقوبى فى ذلك « وتزندق حجر بن عمر الكندى »[١] . وقيل إن الزندقة فى العرب كانت فى قريش ، أخذوها من الحيرة[٢] . وخلط بعض المؤرخين بين الزندقة والمجوسية ، فقد جاء فى « بلوغ الأرب » : أن المجوس يلقبون بالزنادقة ، لأن الكتاب الذى زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله ، سمى بالزند ، والمنسوب إليه يسمى زندى ، ثم عُرب فقيل زنديق ثم جمع فقيل زنادقة»[٣] . على أن الزنادقة هم أتباع مزدك ، والمجوس تختلف كل الاختلاف عن الزنادقة ؛ وهذا يثبت عدم صحة هذه الرواية .

ووجد كذلك بين العرب من أخذ بالمانوية ، وهؤلاء هم أصحاب مانى ابن فاتك الحكيم ، الذى ظهر فى زمن سابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز ابن سابور ، وذلك بعد عيسى عليه السلام . وقد أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية ، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام[٤] .

---

(١) اليعقوبى : تاريخه جـ ١ ص ٢١٤ .
(٢) محى الدين العطار : بلوغ الأرب فى مآثر العرب ص ٨٨ .
(٣) العطار : نفس المصدر ص ٦٩ .
(٤) ابن حزم : الملل والنحل ص ٨١ .

تاريخ الجاهلية الاجتماعى

سلطان شيوخ العشائر :

كان تقسيم العرب إلى قبائل ، نتيجة من نتائج البداوة التى عمت أرجاء الجزيرة العربية ، حيث كانت بعض العادات تقوم مقام القانون(١) .

كان كل بطن من العرب يجتمع حول رئيس ، تستند سلطته أولا على حق البكرية ، وكان هذا الرئيس يحمل لقب « شيخ » أو « سيد » وفى بعض الأحيان كان يتلقب « بالأمير » ، وكان هو الذى يقود جماعته فى الحرب وهو الذى ينزلهم منازلهم ، ويرحلهم عنها ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره . ولم يكن لرئيس العشيرة ولا لشيوخها وهم رؤساء بيوتها أى سلطان أو قوة حقيقية ، بل كان سلطانهم معنويا مستمداً من شجاعتهم وهيبتهم الشخصية وما لهم من شرف النسب ونبل الأخلاق وسعة الثروة وحكمة الرأى وكمال التجربة .

ولم يعمد شيوخ العشيرة إلى فرض أوامرهم أو إنزال العقوبات برجالها ، إذ كان كل منهم ولى نفسه وسيدها ، وله الحق فى أن يقتص ممن يناله بسوء(٢) . وكانت سلطة شيخ القبيلة محدودة للغاية حتى أنه لم يكن فى مأمن من الثأر أو فى حمى من مبدأ القصاص الفطرى أو الدية(٣) . ومن العجب أن نجد شيخ القبيلة لا يجد من القوة المادية ما يستطيع به إنفاذ حكمه إذا ما احتكم إليه(٤) .

---

(١) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, Vol. I, p. 20.

(٢) Nicholson : Literay History of the Arabs, p. 83.

(٣) Sedillot : Op. Cit. p. 21.

(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ٣ ص١٩ — ٢٠ ، ج٢ ص ٢٥ — ٢٦ .

وكان الشيخ لايستطيع أن يُجبرَ أحدا — حتى أبناءه — على قبول حكمه أو نصيحته ، بل كان يستعين بفتيان(١) الحى ومشيخة العشيرة .

من ذلك يتبين لنا أن سلطان شيوخ العشائر فى القبائل العربية إنما كان سلطانا معنويا فقط ، لأن السلطة الحقيقية كانت لاتزال بيد العشيرة ، جملة وموزعة بين أفرادها . وبذلك يمكن القول أن مشيخة العشيرة كانت فى الواقع طرازا من الحكم الديموقراطى بالمعنى القديم(٢) ، حيث كان شيخ القبيلة ينصت لرأى باقى الشيوخ قبل الفصل فى الأمور الهامة(٣) .

وكان الرئيس فى الجاهلية يفصل فى الأمور التى تمس حياتها : كالقتل ، والغزو ، والدية ، وطلب الثأر . كما يقضى فى مسائل الزواج ، والطلاق ، والنزاع على الماء والكلأ .

وكان لشيخ العشيرة عدة حقوق هامة أخرى ، مثل : المرباع(٤) ، والصفايا(٥) ، والنشيطة(٦) ، والفضول(٧) ، والنقيمة(٨) ، والحكم(٩) .

---

(١) يراد « بفتيان الحى » أو « فتيان القبيلة » : شبانها الأبطال ، فيقولون فتيان قريش وفتيان تميم .

(٢) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص١٧٧ .

(٣) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, Vol. I. p. 21.

(٤) المرباع : ربع الغنيمة التى يستولى عليها الجيش .

(٥) الصفايا : جمع صفية ، وهى الأشياء التى كان يصطفيها الرئيس لنفسه من خيار مايغنم

(٦) النشيطة : ما أصابه الجيش فى طريقه قبل أن يصل إلى مقصده .

(٧) الفضول : مافضل ، فلم ينقسم ، واصطفى النبى صلى الله عليه وسلم سيف منبه بن الحجاج ذا الفقار يوم بدر .

(٨) النقيمة : كان للرئيس فى الجاهلية « النقيمة » . وهى بعير ينحره قبل القسمة ، فيطعمه الناس ، وقد سقط فى الإسلام .

(٩) الحكم : هو أن يبارز الفارس فارسا قبل التقاء الجيش فيقتله ويأخذ سلبه ، فالحكم فيه إلى الرئيس .

قال الشاعر :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

واجبات رؤساء العشائر .

وفرضت على رؤساء العشائر فى الجاهلية واجبات من أهمها : إيواء الغريب وحماية الحى ، والذود عن النساء ، وإجارة المجير ، وكان يحسب الرجل منهم أن يستجير بقبر أب الرجل أو قبر ابنه حتى يظفر من صاحبه بحق الجوار . قال عمير بن سُلمى :

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره(١) .

وكانت العرب فى الجاهلية «تمتدح بالذب عن الجار فيقولون : فلان منيع الجار حامى الذمار ، حتى كان فيهم من يحمى الجراد إذا نزل فى جواره »(٢). وكان عميد العشيرة يضطر أحيانا إلى مجازاة أحد أفرادها لخصال لا تقره عليها نظم العشيرة وآدابها ، فيخلعه عن ذمته ويقطع صلته به(٣) . فكانت العشائر إذا ما خلعت رجلا من رجالها ، أشهدت على ذلك فى الأسواق والمجتمعات العامة ، وبذلك لا تحمل عنه جريرة ولا تطالب له بقصاص ولا تحميه من عدوان ، فكانت كمن يحكم عليه بالإعدام .

كذلك كانت العشيرة إذا أجارت رجلا ، فعلت ذلك علانية ، وكانت أحيانا تعطيه براءة بذلك ، فكانت تدفع إليه سهما كتب عليه «فلان جار فلان»

---

(١) المبرد : الكامل فى اللغة والأدب ص ٢١٠ — ٢١١ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ١٥٩ (نشر احمد أمين بك)
(٣) الدكتور على عبد الواحد وافي : الأسرة والمجتمع ص ١١ .

كما كان يفعل بنو غنم بن عوف بن الخزرج فى المدينة(١) وكما كان يفعل أيضا بنو حنيفة بالسواقط(٢) .

وقد كان للرجل أن يرد الجوار إذا شاء . فقد ذكر ابن هشام أن عثمان ابن مظعون لما رأى مافيه أصحاب رسول الله من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة ، عز عليه ذلك ، وقال للوليد يا أبا عبدشمس وفت ذمتك وقد رددت جوارك ، قال ، فانطلق إلى المسجد ، فرد علىّ جوارى علانية كما أجرتُك علانية »(٣).

وإذا لم يجد الخليع(٤) من يجيره من رؤساء العشائر أو عمداء الأسر ، راح يجمع حوله عصابة من شذاذ القفر الخارجين عن نطاق قبائلهم من أولئك « الصعاليك » و « اللصوص » و « الذؤبان » الذين خلعتهم قبائلهم « رسميا » فتبرأت من جرائرهم وتخلصت من تبعة أعمالهم(٥) ، حتى يتمكن الخليع من أن يغير على الأحياء الهادئة ويلقى الرعب فى أنحاء الجزيرة بما يقوم به من أعمال العنف والبطش .

وكانت واجبات رؤساء العشائر متعددة وعلى جانب عظيم من الأهمية ، فقد كان عليهم فى وقت الحرب أن يضحوا بما تملكه أيديهم فى خدمة القبيلة ، وإغاثة المعوزين من أفرادها ، والمحافظة على وحدة القبيلة التى كثيرا ماعرضتها المصالح الشخصية لأعظم الأخطار (٦) .

---

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٥١ .
(٢) السواقط : من ورد اليمامة من غير أهلها .
(٣) ابن هشام : السيرة ص ٢٤٣ .
(٤) يتصف الخليع بالجرأة والبطش .
(٥) Lammens : La Berceau de l'Islam, Vol. I. pp. 193—194.
(٦) Brockelmann . History of the Islamic Peoples, p, 15.

أفراد القبيلة :

وكان أفراد القبيلة يعملون كجماعة واحدة : يرحلون سويا ويقاتلون سويا ، وإذا أرتكب أحدهم جناية حملتها قبيلته ، وإذا غنم غنيمة فهى للقبيلة ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما ، وهم يد على مَنْ سواهم .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ماقال برهانا (١)

وكان البدو يحتقرون الزراعة والتجارة والصناعة والملاحة ، ولذا اكتفوا بما تنتجه ماشيتهم : يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويلبسون أصوافها. وإذا اشتد بهم الضيق أكلوا الضب والعقارب والحيات .

ولم يكن البدوى يؤمن إلا بتقليد قبيلته التى كان يعتز بها ويفخر ، وتعد وطنيته بذلك وطنية قبلية لا وطنية شعبية . وهذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه ، هو المسمى بالعصبية ، وفى ذلك يقول المستشرق بروكلمان : « البدوى كان فردى النزعة مفرط الأنانية ، ومع ذلك فالجميع متساوون ضمن إطار القبيلة فى الحقوق والواجبات التى تنبثق عن العصبية القبلية »(٢) .

مكانة المرأة فى الجاهلية :

قد يكون فى ندرة الأخبار عن المرأة فى العصور السابقة للإسلام ، بعض الدلالة على ماخسرته المرأة العربية من مزية الظهور فى ميدان الحياة العامة . وقد يكون تغير الأحوال الاجتماعية الناشئ عن الاتصال بالأمم والممالك المجاورة سببا فى حرمان المرأة العربية النفوذ والمزايا التى تمتعت بها

---

(١) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ص ١١ .

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p.4.

أختها فى العصر القديم . ولا يعنى ذلك أنها أصبحت فى تلك الحقبة عديمة النفوذ ، فقد كانت تمثل دور الزوجة الصالحة والأم الطيبة ، وظهرت أشد ما تكون قوة وأكثر ما تكون حرية .

وكان احترام الرجال للنساء وبطولتهم من أجلهن قوياً ، وقد أنعكست صوره فى الأغانى والقصص والتاريخ . ولم يقتصر ظهورها فى الشعر عند الشعراء الغزليين ، على أنها موضوع للغزل ، يتغنون بها فى شعر عاطفى رقيق ، بل تعدى ذلك إلى جعلها حكما بين الشعراء . فقد روى الأصفهانى أن امرأ القيس بعد أن قُتل أبوه نزل على بنى طيء وتزوج واحدة من نسائهم تعرف باسم « أم جندب » ، وكان امرؤ القيس معاصرا للشاعر المشهور علقمة بن عبدة ، فتنازعا أمارة الشعر . ولم يعترف أحدهما بصاحبه . واقترح علقمة أن تكون أم جندب حكما بينهما ، ورضى امرؤ القيس بذلك ، فدعتهما أم جندب ليصنع كل منهما قصيدة من وزن واحد وقافية واحدة ، يصفان بها الجياد . ولما فرغا من عمل القصيدتين ، حكمت أم جندب لعلقمة على زوجها امرىء القيس ، فغضب وطلقها ، فتزوجها علقمة[١].

وكان حرص المرأة العربية على شرفها واعتدادها بكرامتها فى الجاهلية ، من الأمور التى استفاضت بها المصادر التى عنيت بحوادث ذلك العصر . ذكر صاحب الأغانى أن فاطمة بنت الخرشب كانت إحدى ثلاث عرفن « بالمنجبات » ، وكان لها سبعة أبناء ، ثلاثة يسمون « الكملة » ، وهم ربيع وعمارة وأنس . وفى ذات يوم ، أغار حمل بن الفزارى على قبيلة بنى عبس التى تنتمى إليها فاطمة ، وأسرها . فلما ابتعد بها عن الحى وأهله ، صاحت به : أى رجل ضل حلمك ، والله لئن أخذتنى فصارت هذه الأكمة التى أمامنا بى وبك ، لا يكون بينك وبين بنى زياد صلح أبدا ، لأن الناس يقولون فى

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٧ ص ١٢٦ ــ ١٢٨ .

هذه الحال ماشاءوا ، وحسبك من شر سماعه . قال : إنى ذاهب بك حتى ترعى إبلى . ولما أيقنت أنه ذاهب بها ، رمت بنفسها من البعير على رأسها ، فماتت خوف أن يلحق ببنيها عار منها [١] .

وقد ظهرت فى الجاهلية طبقة من النساء ، كان لهن شأن عظيم ، من بينهن الكاهنة والعرافة وربة البيت والمتلبثات[٢] . وفى مكة نفسها ، كان مفتاح الكعبة بيد امرأة هى بنت حليل الخزاعى استودعته مدة طويلة حتى تنازلت عن ملكيته لقصى[٣] ، وفى زمن الفتح كان المفتاح فى حوزة أم عثمان بن طالحة ولقد مانعت كثيرا فى إعطائه للنبى صلى الله عليه وسلم[٤] .

وكان النساء لا يتأخرن عن مرافقة الرجال إلى الحرب . هذا الفند الزّمانى البطل المشهور يدخل حرب بكر وتغلب وإلى جانبيه ابنتاه « شيطانتان من شياطين الإنس ... حتى إذا احتدمت المعركة تقدمت إحداهما فخلعت ثيابها ورمتها وسط المعمعة »[٥] ، فتقتدى بها أختها وتتقدم بين الصفوف ، لتبث فى رجال قبيلتها الشجاعة والإقدام . وفى هذه الحرب ، قام عوف بن مالك أحد البكريين ، ورفع ابنته على جمل له وسيره ، ثم ضرب عرقوبى الجمل ونادى : لا يمر بى رجل من بكر بن وائل فرّ من القتال ، إلا ضربته بسيفى هذا[٦] .

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٦ ص ٢٢ .

(٢) ابن هشام : سيرة الرسول ص ١٣٢ و ٧٩٧ .

Perron : Femmes Arabes, avant et depuis L' Islamisme, p. 166.

(٣) الأزرقى : أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار ص ٦٢ .

(٤) صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٠٩ و جـ ٣ ص ٥٨٧ .

(٥) Perron : Femmes Arabes, p. 50.

(٦) الأصفهانى : نفس المصدر جـ ٢٠ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

وقد يتبادر إلى الذهن أن النساء فى العصر الجاهلى لم يكن يحلفن بملابسهن: لحالة البداوة التى كن يعشن فيها ولكثرة الحروب الطاحنة التى كانت تنشب بين كل قبيلة وأخرى وتستمر أعواما طويلة ، مما يؤدى بطبيعة الحال إلى إهمال شأن المرأة . ولكن المرأة العربية فى هذا العصر ارتدت ضروباً من الثياب مختلفة أشكالها وفنونها ، مما أخرجته مناسج اليمن والعراق والشام وما اجتلبته من بلاد فارس وسواحل الهند. والآثار الشعرية واللغوية مفعمة بذكر ما كان النساء يتخذنه من الملابس التى تزيد فى حسنهن .

ولم يقتصر لبس المرأة فى الجاهلية على الملابس القطنية والصوفية ، بل لقد اتشحت بالحرير والديباج والدمقس والسندس والاستبرق والخز . قال اليشكرى .

الكاعب الحسناء ترفـ   ـل فى الدمقس وفى الحرير

ومن أزيائها مارق نسجه ودق خيطه ، وكانت تسميه «المهلهل» و«الهفاف» أما ما كثف حوكه فكانت تدعوه «الصفيق» و«الحصيف»[١] ، وما حيك نسجه بخيوط من الذهب كانت تسميه «المذهب». وفيه يقول سلمى بن ربيعة:

والبيض يرفلن كالدمى   فى الريط والمذهب المصون

وقد أولعت النساء بالحلل الشفافة والثياب المطرزة بالذهب والمزينة بأنواع النقوش . أما ما تضعه المرأة على جسدها : فالدرع وهو قميص المرأة الكبيرة ، والمجول قميص المرأة الصغيرة وهما قميصان لا أكمام لهما[٢] . وكان للمرأة العربية ثوب تسميه النطاق تشده إلى وسطها وترخى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل. ومن فوقه البت يحيط بجسمها ويستر جزءاً من وجهها ورأسها ويغلب

---

(١) عبد الله عفيفى بك : المرأة العربية فى جاهليتها جـ١ ص ١٢٥ — ١٣٢ .

(٢) Dozy : Dictionnaire des Noms des Vetements, p. 133.

على هذا الثوب أن يكون أخضر اللون رقيقا . أما أبهج وأغلى ما لبسته النساء في هذا العصر فهو الحبرة وهى برد موشى من برود اليمن . وقد أكثر الشعراء من الكلام عن المرط (١) ووصفوا لنا النساء وهن يمشين فيها ، فمن ذلك قول امرىء القيس فى معلقته :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا   على أثرينا ذيل مرط مرحل

وقد فطنت المرأة الجاهلية إلى ما تسميه أختها المتحضرة «المريلة» تصون بها غالى ثيابها عند مزاولة عملها وكانت تسميها « الميدع » .

أقدمــــه قدام نفسى وأتقى   به الموت إن الصوف للخز ميدع .

على أن هناك ثوبا خاصا يسمى « الإزار » وهو ملاءة واسعة تغطى بها المرأة ، وقد فسر علماء اللغة كلمة « الإزار » بأنه « كل ما يستر »(٢). ومن الأزياء التى انتشرت عند نساء الجاهلية زىّ « جرّ الذيل » وهو إرسال ذيول الأزياء النفيسة فى الأعياد والمآدب ، وأول من اخترع هذا الزى هى هاجر امرأة ابراهيم عليه السلام(٣) ، ومما يدل على شيوعه وصف عنترة العبسى « عبلة » وقد خرجت تجر وراءها ثوبها الحريرى :

وتظل عبلةُ فى الخزوز تجرها   وأظل فى حلق الحديد المبهم

وقد تشبه الرجال بالنساء فى هذا الزى وكانوا يفتخرون بإرسال ذيول أزرهم ويرون أنه من علامات السيادة والقوة . ولما بعث النبى ، حارب هذه البدعة فى الرجال وقال « من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » ،

---

(١) المرط : ملاءة ذات شقتين مصنوعة من الحرير .

(٢) ابن منظور : لسان العرب جـ ٥ ص ٧٥ .

(٣) ابن الجوزى : الأذكياء ص ١٠

فقال له أبو بكر « يارسول الله إن أحد شق إزارى ليسترخى إلا أن أتعاهد ذلك منه » ، فقال النبي « لست ممن يصنعه خيلاء » (١) .

أما حرص النساء على التحلى ، فقد بدا فى اتخاذهن الجواهر النفيسة ، حتى كن جميعاً حاليات إلا من نكبها الدهر فى عزيز لديهـا . فقد تحلين : « بالإكليل » وهو عصابة مرصعة بالجواهر تحيط به جبينها ، والقرط وهو ما علق فى أسفل الأذن ، والشنف وهو ما علق فى أعلاها ، واتخذن للمعصم سواراً ، وللساعد جبرة ، وللعضد دملجا ، ولبسن الخاتم وهو ماله فص ، والفتح وهو مالا فص له وذلك فى أصابع أيديهن وأرجلهن(٢) .

واشتركت المرأة فى المسائل السياسية فى ذلك العصر ، فقد عارضت هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ، النبي والدين الجديد ، واشتركت فى غزوة أحد التى قامت بين قريش والمسلمين ، وعمدت خلالها إلى إيذاء المدافعين عن الإسلام لأنها وزوجها أباسفيان وابنها يزيد وأخاه معاوية لم يسلموا إلا يوم فتح مكة ، وفى هذه الواقعة مثّل نساء قريش بقتلى المسلمين وفاقتهن هند زوجة أبى سفيان ، إذ أنها بقرت بطن حمزة ابن عبد المطلب عم الرسول عليه السلام بعد أن قتل وأخذت قطعة من كبده فلاكتها فلما لم تسغها لفظتها ، وكان ذلك تشفيا وانتقاما من المسلمين(٣) . على أن الباحثة نابية أبوت تقول إنه : من الصعب أن يصدق الإنسان أن هند أبنت عتبة ـ وهى السيدة الشريفة فى مكة ـ قد ذهبت فى الانتقام المروى عنها مذهب البرابرة الغلاظ الأكباد ، وذهب ميور إلى أن مؤرخى السيرة قد بالغوا فى تصوير هند بهذه الصورة ، أما الأب لامنس فذكر أن

---

(١) أبو عبيد الله البكرى الأونبي : سمط اللآلىء جـ ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .
(٢) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامي نصيب ص ١٢٥ .
(٣) الدكتور على ابراهيم حسن : نفس المصدر ص ٥٦ .

حادثة تمثيلها بحمزة لم تكن إلا من مخترعات العباسيين ، ويعزز ذلك ماذكره ابن سعد صاحب الطبقات من أن تلك حفلات قاسية على عقد المسكينة(١) .

وهكذا ظفرت العربية فى الجاهلية بمكانة سامية ، جديرة بها فى المجتمع القبلى ، حتى أن نيكلسون ذهب إلى أن الإسلام لم يرفع منزلة المرأة وإنما رفع مستواها الأدبى فى الحضارة إلى حد عظيم(٢) .

زواج الجاهلية :

الزواج رباط اجتماعى وعقد بين طرفين يترتب عليه حقوق وواجبات تختلف باختلاف الشعوب . وعرف عند العرب فى الجاهلية : زواج المشاركة وزواج الأسر ، وزواج المبادلة أو الشغار ، والزواج بالميراث ، وزواج المتعة ، كما عرف نظام تعدد الزوجات .

ويقوم زواج المشاركة : حين يشترك عدة إخوة فى الزواج بامرأة واحدة ، أو حين تقترن المرأة بعدد عديد من الرجال لا تجمعهم صلة القرابة . ويعرف النوع الأول باسم زواج المشاركة الأخوى ، والنوع الثانى باسم زواج المشاركة غير الأخوى(٣) . وقد أخذت بعض قبائل العرب فى الجاهلية بزواج المشاركة حتى ظهور الإسلام ، ولكن لم يكن يصح أن يزيد عدد الرجال عن عشرة(٤) . وربما كان هذا النوع من الزواج مقصوراً على بعض القبائل ممن كانوا يمارسون وأد البنات فى جزيرة العرب أو ممن كانت لهم ظروف اقتصادية خاصة ، وهذه العادة قد تكون دخيلة على العرب إما من إفريقية أو عن طريق الفرس زمن حكمهم بلاد العرب(٥) .

---

(١) نابية أبوت : المرأة والدولة فى فجر الإسلام ص ٢٢.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 90.

(٣) Smith, R : Kinship and Marriage in Arabia, p 158.

(٤) الدكتور على عبد الواحد وافى : الأسرة والمجتمع ص ٧٩ .

(٥) محمد محمود جمعه : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب ص ٢٧ .

ووجد نوع آخر من الزواج عند عرب الجاهلية هو زواج الأسر ، وكان أسر النساء من العادات الشائعة إذ ذاك ، وكان الرجل العربى يخشى أن تتعرض نساؤه للسبي ، وقد أطلق على المرأة المأخوذة اسم « النزيعة » أى التى انتزعت من أهلها كرها ، وتعتبر ملكا خاصا لسيدها إن شاء تزوجها أو زوجها أو باعها بيع العبيد. وقدترجع عادة زواج الأسر إلى كراهية التزوج من الأهل وذوى القربى مخافة أن ينتج ذلك نسلا ضعيف الجسم والعقل . يقول الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة مخافة أن يضوى علىَّ سليلى

وكان الزواج بالأسر مرغوبا لأنه زواج لا مهر له ولأن العرب كانوا يعتقدون أن أبناء السبايا من خيرة الفتيان ، وظل معمولا به إلى ظهور الإسلام ، ولم يكن معناه إذلال المرأة كما قد يتبادر إلى الذهن :

ما زادها فينا السباء مذلة ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدراً
ولكنا خلطناها بخير نسائنا فجاءت بهم بيضاء وجوههم زهرا

أما زواج المبادلة ، فكان قائما على أساس أن يزوج الرجل ابنته أو أخته على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته. وكان يحدث عادة إذا تعذر على الرجل أن يتزوج بامرأة من قبيلته أو قبيلة خارجية لأسباب اقتصادية كارتفاع مهرها أو نحو ذلك ، ولا يتم هذا النوع من الزواج عادة إلا بين الأسر المتساوية فى الحسب والنسب(١) . ويعرف ذلك الزواج أيضا باسم «زواج الشغار» ، بدليل ما كان يقوله الرجل للرجل فى الجاهلية : شاغرنى ، يقصد زوجنى أختك أو ابنتك أو من تلى أمرها حتى أزوجك أختى أو من ألى أمرها ولا يكون بيننا مهر .

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافى : الأسرة والمجتمع ص ٣٥ .

وكانت الفتاة عند عرب الجاهلية تعطى لمن يقدر ثمنا عاليا ، وعدوا من الشرف ألا تعطى المرأة إلا للكفء ، حتى قال قيس بن زهير : إن لم تجدوا الأكفاء لبناتكم ، فخير أزواجهن القبور[١] . وكان المهر هو ثمن الشراء ، ولذلك عرف هذا الزواج باسم « الزواج بالشراء » ، ويدل هذا النوع على السيادة المطلقة ، إذ فيه تفقد المرأة حقها فى الطلاق وتهجر قبيلتها وتتبع زوجها إلى داره وقبيلته ، ولذا اقترح بعض المؤرخين أن يطلق عليه اسم « زواج السيادة »[٢] . على أن هذا الزواج القائم على المهر أو الشراء ظل شائعا فى الجاهلية إلى قبيل ظهور الإسلام فأبدل بالصداق وهو الهبة التى تعطى للمرأة نفسها ، بخلاف المهر فكان هو المال الذى يعطى لوالد المرأة أو أهلها عوضا لهم عن ذهابها إلى عشيرة زوجها .

أما « الزواج بالميراث » فكان يحدث حيث كان الرجل يرث أرملة أخيه بعد موته أو يرثها أقرب الرجال إلى زوجها[٣] . وقد نجمت عادة الزواج بالميراث لتصور الزواج كعقد بين الجماعات لا بين الأفراد ، وبذلك فإن العقد متى انفصمت عروته بموت الزوج وجب على أهل المتوفى البحث لأرملته عن زوج غيره من عشيرة زوجها السابق . وكان العامل الأساسى فى هذا النوع من الزواج هو الاحتفاظ بالثروة داخل الأسرة والعشيرة ولضمان استقرار الأسرة والمحافظة على أموال الأسلاف فى داخلها[٤] .

وعرف فى الجاهلية « زواج المتعة » وهو أن يتزوج الرجل المرأة إلى أجل مسمى ، على ألا ميراث بينهما ويعطيها ما اتفقا عليه ، فإذا انقضت

---

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ٤٤ .

(٢) Smith : Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 75.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ ص ٩٤ .

(٤) محمد محمود جمعة : نفس المصدر ص ٦٠ — ٦٢ .

المدة فليس له عليها سبيل . وقد فسخ الإسلام هذا النوع من الزواج[١].

ونشأ فى الجاهلية ، نظام « تعدد الزوجات » ، وساعد على زيادة النسل وحل مشكلة العقم الذى قد ينشأ فى حالة الزواج الفردى . وقد يرجع وجود هذا النظام إلى كثرة الحروب التى استعر لظاها بين القبائل العربية .إذ ذاك وذهبت بالعدد الكبير من الرجال ، مما أخل بالتوازن بين عدد الذكور والإناث فى القبيلة الواحدة وجعل الكثرة العددية فى جانب الإناث . وعلى الرغم من أن وجود هذا النظام لم يكن دليلا على انحطاط المرأة ، فكثيرا ما كانت الزوجة فى ذلك العصر تشترط على زوجها أن لا يقترن بغيرها . ولما جاء الإسلام تقبل هذه الحياة الزوجية ولكنه جعلها متكافئة مع مبادئه ووضع لها بعض القيود التى تجعلها صعبة للغاية(٢).

وأد البنات فى الجاهلية :

عادة وأد البنات عند العرب فى الجاهلية ، من أشد وأشنع عاداتهم الاجتماعية المستهجنة . وهى أن يعمد الرجل إلى وليدته وقد بدأت تستقبل الوجود ، فيقذفها فى حفرة من الأرض ويهيل التراب على جسمها ثم يدعها فى غمرة الموت بين طيات الأرض .

ولم تكن عادة وأد البنات متبعة عند جميع العرب فى الجاهلية ، بل كانت مقصورة على بعض قبائل من ربيعة وكندة وطىء وتميم . وكان الزوج يحفر بجوار الموضع الذى اختير لولادة الأم حفرة عميقة ، فإذا ظهر أن المولود أنثى ، قذف بها حية بعد ولادتها وهيل عليها التراب . وكان بعضهم يلجأ إلى

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج ٥ ص ١٣٢ .

(٢) محمد محمود جمعة : النظم السياسية والاجتماعية ص ٧٤ .

وأد بناته فى أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل ، وأشهر مكان كان يجرى فيه الوأد هو جبل أبى دلامة . ولقد تنبه دعاة الإصلاح إلى بشاعة هذا العمل ، فنهض كثير من ساداتهم إلى محاربته والتخفيف من آثاره ، بما بذلوا من مال جم وسعى حميد ، وكان من هؤلاء صعصعة جد الفرزدق ، فقد كان يشترى البنات ويفديهن من القتل[١] وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل[٢] .

واختلف الباحثون فى العوامل التى حملت هذه العشائر على اتباع هذا النظام وانقسموا إلى فريقين : فريق يعلله بالفقر ، وآخر يتلمس أسبابه فيما جبل عليه العربى من شدة حرصه على صيانة عرضه . فقد قيل إن عادة وأد البنات أحياء فى الجاهلية ، ترجع إلى المجاعات الكثيرة التى كثيرا ماتصيب بلاد العرب نظرا لقلة سقوط الأمطار وإلى محافظة موهومة على الشرف ، إذ كانوا يخشون أن يجلبن لهم العار إذا سبين فى حرب[٣] . كما أن حياة الشظف التى كانت تعانيها الدهماء من العرب بسبب جدب أرضهم وضآلة دخلهم ، هى السبب الذى اضطرت من أجله هذه القبائل إلى وأد البنات .

على أنه من الثابت أن نظام الوأد لم يكن معمولا به فى الطبقات الفقيرة وحدها ، بل كان عاما عند الفقراء والأغنياء فى العشائر التى أخذت به . وحدّث التاريخ عن بعض من وأدوا بناتهم فى العصر الجاهلى ، وذكر من بينهم عددا من علية القوم ومنهم عمر بن الخطاب نفسه . هذا إلى أن فى قصر الوأد فى العشائر السالفة الذكر على البنات دون البنين ، دليلا على أن الدافع إليه شىء آخر غير الفقر . إذ لو كان الفقر هو الدافع إليه للحق جميع الأولاد بدون تمييز بين الذكور والإناث . ولم يرد مطلقا ذكر الفقر فى أى آية من

---

(١) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ٢ ص ٩٦ .

(٢) عبد الله عفيفى بك : المرأة العربية فى جاهليتها ص ٥٠ .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 90.

الآيات الكريمة التى نزلت فى وأد البنات . أما الآيات التى ورد فيها قتل الأولاد مقرونة بخشية الإملاق والتى يزعم أصحاب هذا المذهب أنها تؤيد وجهة نظرهم ، فهى لا تتحدث عن النظام الذى نحن بصدده ، بل تتحدث عن نظام آخر كان متبعا عند بعض عشائر العرب وهو قتل الأولاد على الإطلاق بدون تمييز بين ذكورهم وإناثهم تحت تأثير الفقر وعدم القدرة على تربيتهم[١] .

وقيل إن نظام الوأد يرجع إلى المحافظة على الشرف بصيانة الأعراض واتقاء ما يحتمل أن يصيب الفتاة من مكروه . ويروى أنصار هذا المذهب قصة يدعون أن حوادثها كانت السبب الأول فى توجيه العشائر العربية هذا الاتجاه . فهم يرون أن عظيما من عظماء العرب يدعى قيس بن عاصم قد سبيت ابنته فى غارة شنتها عشيرة معادية على عشيرته ، ثم عقد بين العشيرتين صلح كان من شروطه أن ترد السبايا فى مقابل فدية مالية . غير أن ابنة قيس آثرت البقاء عند من وقعت فى يده ولم تقبل الرجوع إلى أبيها وعشيرتها ، فآلى أبوها على نفسه ليئدن كل بنت تولد له ، وسارت عشيرته على سنته . واقتدى بها بعض العشائر الأخرى . على أن هذه القصة تبدو عليها علامات الاختلاق وأمارات الأساطير : فإن قيسا هذا قد شهد الإسلام ومات حوالى السنة العاشرة بعد الهجرة ، فلا يعقل أن يكون هو الذى قد سن نظام الوأد عقب حادث وقع لبنت كبيرة له . فإنه يترتب على ذلك أن نظام الوأد لم يظهر إلا قبيل الإسلام ببضع سنين مع أنه سابق لبعثة الرسول بعهد طويل وكان على وشك الانقراض قبيل الاسلام . كذلك لم ترد إشارة ما

---

(١) الدكتور على عبد الواحد وافى : وأد البنات عند العرب فى الجاهلية ـ عوامله الصحيحة وموقف الإسلام منه . بحث مستخرج من مجلة الرسالة ، العدد ٤٠٠ ، ٣ مارس ١٩٤١ .

لسبب من هذا القبيل فى أى آية من الآيات الخاصة بالوأد ، ولو كان هذا السبب هو الباعث الحقيق عليه لعنى القرآن بإظهاره وتقبيحه(١) .

أنواع التسلية عند العرب :

شغل العرب فى الجاهلية أوقات فراغهم ببعض ضروب التسلية: كالصيد وسباق الخيل ، ولعب الكرة ، والآل والجماح ، والمدحاة والأرجوحة ، والخذروف ووضّاح، وولعوا بلعب الميسر وكان لهم فيه باع طويل . وهذه الألعاب عرفها العرب ، فى جاهليتهم ، وظل بعضها يمارس فى جزيرة العرب حتى بعد ظهور الإسلام .

١ — الصيد وسباق الخيل

كلف العرب بالصيد ، وأضحى من أنواع تسليتهم المفضلة ، فقد كانت الطبيعة البشرية مهيأة له تماما . ولا مراء أن الصيد كان يرمى قبل كل شىء إلى : تعويد العرب الفروسية ، وإدمانهم للرمى بالنشاب ، والضرب بالسيف والدبوس ، واعتياد القتل والسفك ، وتقليل المبالاة بإراقة الدماء وغضب النفوس(٢) .

أما السباق ، فقد كان من الأمور التى ألفها العرب فى جاهليتهم ، وكانت إحدى حلباته داعياً لحرب ضروس بين عبس وذبيان هى حرب داحس والغبراء . ويقول ابن عبد ربه إن العرب كانت تراهن فى السباق على شىء معلوم ، فكان الرجل يراهن صاحبه فى المسابقة ، هذا رهنا وهذا رهنا . فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه » . ثم يقول « وهذا القمار المنهى

---

(١) الدكتور على عبدالواحد وافى : وأد البنات عند العرب فى الجاهلية — نفس البحث .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص٤٥ .

عنه ، فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مسمى على أنه إن سبق لم يكن له شيء، وإن سبقه صاحبه أخذ الرهن فهذا حلال لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر ، وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهنا وأدخل بينهما محللا وهو فرس ثالث يكون مع الأولين ويسمى أيضا الدخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شيء ، ثم يرسلون الأفراس الثلاثة فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه فكان طيبا ، وإن سبق الدخيل أخذ الرهنين جميعا ، وإن سبق هو لم يكن عليه شيء . . . ولا يكون الدخيل إلا رائعا جوادا لا يأمنان أن يسبقهما وإلا فهذا قمار لأنهما كأنهما لم يدخلا بينهما محللا »[١] .

٢ — لعب الكرة :

كان لعب الكرة ، من أنواع التسلية عند العرب فى الجاهلية . وكانوا يتدافعون الكرة بالصوالجة ، والقلة والمقلى وهما عودان يلعب بهما الصبيان . فيرمى الصبى بالقلة فى الهواء ، ثم يضربها بمقلى فى يده وهى خشبة طولها ذراع ، فتستمر القلة فى حركتها ، وإذا وقعت كان طرفاها مجافيين للأرض ، فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثم يعترضها بالمقلى فيضربها فى الهواء فتستمر ماضية(٢) .

روى الفاكهى أن عمر بن الخطاب قدم مكة ، فرأى الكرك تُلعب به، فقال : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرك ، ما أقررتك . لعب قديم كان أهل مكة يلعبون به ولم يزل كذلك حتى كانت سنة عشر ومايتين ، وأن أهل مكة كانوا يلعبون به فى كل عيد ، وكان لكل حارة من حارات مكة كرك يعرف به يجتمعون له ويلعبون به ، ويذهب الناس فينظرون فى تلك

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٧ (نشر أحمد أمين بك)
(٢) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٧ و ١٩

المواضع . ثم قال الفاكهى : قدم رجل من أهل مكة ، فقال له علىّ : كيف تركت قريشا والناس بمكة ، فقال : تركت فتيان قريش يلعبون بالكرة بين الصفا والمروة .

٣ — الأل والجُمَّاح :

قال امرؤ القيس :

لِمَنْ زُحْلُوقَةٌ زُلُّ بِها العَيْنَانِ تَنْهَلُّ
ينادى الآخرَ الأُلُّ ألا حُلّوا ألا حُلّوا

وقال المفضل فى قول امرىء القيس : ألا حُلُّوا ، أن هذا معنى لعبة للصبيان . يجتمعون ، فيأخذون خشبة ، ويضعونها على قوزٍ من رمل ، ثم يجلس على أحد طرفيها جماعة وعلى الآخر جماعة ، فأى الجماعتين كانت أرزن ارتفعت الأخرى فينادون أصحاب الطرف الآخر : ألاحلوا ، أى خففوا من عددكم حتى نساويكم فى التعديل . وهذه هى التى تسميها العرب : الدَّوْدَاة والزحلُوقة(١) .

والجُمَّاح تمرة تجعل رأس خشبة يلعب بها الصبيان ، وقيل إنها سهم صغير بلا نصل مدور الرأس يتعلم به الصبيان الرمى ، وقد يرمى به الطائر فيلقيه ولا يقتله حتى يأخذه راميه .

٤ — المِدْحاة والأرجوحة :

الدَّحْو هو رمى اللاعب بالحجر والجور ونحوهما . والمِدْحاة خشبة يدحى بها الصبى فتمر على وجه الأرض لا تأتى على شىء إلا اجتحفته . وفى حديث أبى رافع : كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمَدَاحى

---

(١) الدكتور احمد عيسى بك : ألعاب الصبيان عند العرب ص ٥٨١ . بحث مستخرج من مجلة مجمع فؤاد الأول اللغة العربية ، الجزء الرابع ، ١٩٣٧

وهى أحجار أمثال القَرَصة كانوا يحفرون حفرة ويدحون فيها بتلك الأحجار ، فإن وقع الحجر فيها غَلَب صاحبها وإن لم يقع غُلب .

أما الأرجوحة فهى خشبة تؤخذ فيوضع وسطها على تل ، ثم يجلس غلام على أحد طرفيها وغلام آخر على الطرف الثانى ، فترجح الخشبة بهما ، ويتحركان ، فيميل أحدهما بصاحبه الآخر . ويقال للحبل الذى يرتج به : الرجاحة والنَّواعة والنَّواطة والطواحة[١] .

٥ — الخُذْروف ووَضاح :

الخذروف هو شيء يدوره الصبي بخيط فى يده . فيسمع له دوى ، وقيل إنه عود أو قصبة مشقوقة يُفرض فى وسطه ثم يشد بخيط ، فإذا أُمِر ، دار وسمع له حفيف ، وهو من ألعاب الصبيان ، المعروفة باسم النعار .

ووضاح هى لعبة صبيان الأعراب ، يعمدون إلى عظم أبيض فيرمونه فى ظلمة الليل ثم يتفرقون فى طلبه ، فمن وجده منهم ، فله الغلبة . وفى حديث المبعث أن النبي عليه السلام كان يلعب وهو صغير مع الغلمان بعظم وضاح[٢] .

ولقد عرف صبيان العرب عدة ألعاب أخرى ، مثل : الجعرى[٣] ، وَجِبي جُمَل[٤] ، والمخراق[٥] ، والأنبوثة[٦] ، وغيرها من الألعاب[٧] .

---

(١) أحمد عيسى بك : ألعاب الصبيان عند العرب ص ٥٨١ .

(٢) أحمد عيسى بك : نفس المصدر

(٣) تعرف هذه اللعبة عند صبيان العامة الآن فى مصر باسم «مقعد السلطان» .

(٤) هى لعبة معروفة الآن عند العامة ، حيث يضع الصبي رأسه على الأرض ثم ينقلب على الظهر .

(٥) منديل أو نحوه يلوى ، فيضرب به أو يلف فيفزع به .

(٦) كان الصبيان يحفرون حفيرا ويدفنون فيه شيئا ، فمن استخرجه فقد غلب .

(٧) أحمد عيسى بك : نفس المصدر .

٦ — لعب الميسر :

كان الميسر من ألعاب العرب المفضلة التى مارسوها طوال جاهليتهم ، حتى حذقوا لعبه ، وكان لهم فيه باع طويل . وهى تلك اللعبة المستهجنة التى نهى الإسلام عنها بعد أن سطع نوره فوق الجزيرة العربية . قال الفيروزابادى: الميسر اللعب بالقداح ... أو هو الجَزُور التى كانوا يتقامرون عليها أو النرد أو كل قمار(١) . وقد يقال للقداح الأزلام ، واحدها زُلم وزَلم ، وهى سهام كانوا يقتسمون بها فى الجاهلية . يقول الجوهرى : الأزلام كانت لقريش فى الجاهلية ، مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولا تفعل . وقد زُلّمت(٢) ووضعت فى الكعبة ، يقوم بها سدنة البيت ، فإذا أراد رجل سفراً أو زواجاً أتى السادن وقال : أخرج لى زلما ، فيخرج وينظر إليه ، فإذا خرج قِدْح الأمر مضى على ما عزم عليه ، وإن خرج قدح النهى قعد عما أراده »(٣) .

ومما هو جدير بالذكر ، أن العرب فى الشتاء ، عند شدة البرد وتعذر القوت على أهل الضُر والمسكنة ، كانوا يتقامرون بالقداح على الإبل ثم يجعلون لحومها للفقراء منهم وذوى الحاجة . وفى ذلك يقول الأعشى :

المطعمو الضيف إذا ما شتوا   والجاعلو القوت على الياسر(٤).

---

(١) البقاعى : لعب العرب بالميسر فى الجاهلية الأولى ص٢٩ — ٣٠.

(٢) زلمت : سويت.

(٣) الزبيدى : نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح ص ٤٤.

(٤) الياسر : هو الذى يلى قسمة جزور الميسر ، وجمعه أيسار .

تاريخ الجاهلية الاقتصادى

التجارة فى جزيرة العرب :

تقع جزيرة العرب فى موقع متوسط بين أعظم الدول وأقدم الحضارات : فنى شمالها الشرقى تقع فارس ، وفى شمالها الغربى بلاد الروم ، وفى جنوبها الغربى بلاد الحبشة . فلموقع بلاد العرب المتوسط بين هذه الأمم الفضل فى إتساع تجارتها ، كما كان من ناحية أخرى السبب فى تطلع الفاتحين لغزوها والاستيلاء عليها . وكانت بلاد العرب ضرورية للفاتحين الذين يرغبون فى امتلاك شواطىء الفرات ، وعلى ذلك طمع فيها قديما ملوك الفرس وبابل ونينوى ومصر .

وقد مارس سكان الجزيرة العربية التجارة ، يساعدهم على ذلك : موقع بلادهم بين أمم اشتهرت بالتجارة منذ زمن بعيد ، وكثرة الطرق التجارية التى تخترق جزيرتهم من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب(١). وكان العرب واسطة بين سكان أوربا القدماء وأهل الشرق الأقصى . ولم تقتصر تجارة العرب على منتجات بلادهم ، بل كانت تشمل السلع التى كانوا يجلبونها من إفريقية والهند ، وكانت النفائس كالعاج والعطور والأفاوية والحجارة الكريمة والتبر والأرقاء هى أهم ما يتاجر به العرب(٢) .

وكانت حركة التجارة فى المحيط الهندى بين سواحل الجزيرة الشرقية والهند منظمة منذ زمن بعيد ، وتحمل السفن التوابل والمنتجات الموسمية والحيوانات النادرة من الهند إلى ساحل عمان(٣) .

---

(١) Sedillot : Histoire Générale des Arabes, Vol. I. p. 26.
(٢) Gustave, Le Bon : La Civilisation des Arabes, p.68.
(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 24.

واستعان العرب بالفينيقيين زمنا طويلا لبيع سلعهم، فكان الفينيقيون يخزنون سلع العرب فى مدنهم الكبيرة كمدينة صور ، ثم يبعثون بها إلى الخارج لبيعها . وتنافس العرب والبابليون فى الاتجار مع الهند : فكان البابليون يصلون إلى الهند بطريق البر أو بطريق البحر ، أما العرب فكان اتصالهم الوحيد بهذا القطر الغنى عن طريق البحر فقط. ولدينا من النصوص التاريخية مايثبت أن العرب قد خرجوا بتجارتهم عن نطاق الجزيرة العربية وتعاملوا مع غيرهم من الأمم . جاء فى كتاب الأوائل أن عمر بن الخطاب قال : خرجت فى جماعة من قريش إلى العراق فى تجارة ، فلما دنونا من الأرياف خرج قوم فقطعوا علينا الطريق(١) .

بذلك لم تقتصر تجارة العرب على جزيرتهم فقط ، وإنما تعدتها إلى غيرها من البلاد ، فإن منتجات الجزيرة متعددة ، وهى ضئيلة فى الشمال ، ولكن فى المناطق الخصبة منها ، الكثير من الأشجار والمزروعات كالمشمش والتين والعنب والقمح والدخن والفول والبن والألبان(٢) . وكانت المواصلات التجارية فى جزيرة العرب عديدة ، إلا أن أهمها طريقان : أحدهما يبدأ من حضرموت ويتجه إلى عمان حيث كانت تنقل بضائع اليمن والهند إلى العراق ثم يتجه الطريق غربا إلى البادية الواقعة فى شمال جزيرة العرب وينتهى به المطاف فى سوريا العليا ، وثانيهما يبدأ من حضرموت ويسير مخترقا الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال حتى ينتهى عند غزة المطلة على البحر الأبيض .

وكانت مكة مدينة تجارية من الطراز الأول ، وذلك على الرغم من وقوعها فى واد غير ذى زرع ومن تعرضها للفح السموم ، لأن مكانها من

---

(١) العسكرى : الأوائل (مخطوط) ص ١٨ — ١٩ .

(٢) Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, p. 6.

الحرم كان يجلب إليها عدداً من شذاذ القفر الخارجين عن نطاق قبائلهم ومن بينهم الخلعاء والفتاك والصعاليك فينفقون أموالهم التي لم يبذلوا الجهد في تحصيلها في حوانيت مكة المكتظة بالبضائع . وأنشأ القرشيون قوة عسكرية من بدو تهامة للمحافظة على جمهوريتهم التجارية .

وشغلت دول العرب القديمة ، مثل تدمر ومعين وسبأ ، المراكز الممتازة في تجارة الشرق ، حتى ذكرتهم التوراه ووصفت ثروتهم وتجارتهم . وحمل أهل تدمر إلى مصر وجنوب أوربا منذ القدم صادرات بلاد العرب والعراق والهند ، وأطنبت المصادر التاريخية في موقع تدمر العظيم على البحر الأحمر واعتبرتها مركزاً تجاريا هاما[1]. وكانت مملكة معين من القوة والغنى ما يفوق مملكة سبأ التي اشتهر أمرها في التاريخ . أما سبأ ، فلم يكن غناها وتجارتها محل شك ، وذكرت التوراه أن مملكة سبأ «قدمت إلى سليمان مائة وعشرين قنطاراً ذهباً وأطيابا كثيرة وحجارة كريمة» ، كما كانت قوافلها العديدة التي ذهبت إلى سليمان تحمل هدايا ملكة سبأ إلى عاهل أورشليم المعظم[2]. ولقد حل أهل حمير محل السبئيين واستولوا على مفاتيح التجارة في الجزيرة العربية ، واستخدموا عرب الحجاز في نقل تجارتهم إلى أن تخلص أهل الحجاز منهم وصاروا هم نقلة التجارة في الجزيرة قبل البعثة .

أما القوافل التي تحمل تجارة العرب ، فقد كان طريقها مقرراً : ففي هذه المراحل الفسيحة من الصحراء الرملية مما كان رجال القوافل يجتازون ، حبت الطبيعة المسافر بضعة أماكن مبعثرة في جدب البادية يتخذها موئلا لراحته ، وهناك في ظلال أشجار النخيل وإلى جانب المياه العذبة التي تجرى من حولها ،

---

(١) J. Hell : The Arab Civilisation, p. 4.
(٢) J. Hell : Op. Cit.

يستطيع التاجر ودابة حمله أن ينهلا من طيبها ما أحوجهما إليه العنت الذى لقياه(١) . وكانت القوافل التى تذهب من بلاد العرب إلى الشام ، تنزل فى أسواق معروفة . عينتها لهم الحكومة الرومانية لتحصل منهم الضرائب المفروضة على الصادرات(٢) .

وقد مارس اليهود تجارة القوافل بنشاط ، حتى أصبحت يثرب تنافس مكة ثراء ، فقد كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز ، حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد ، كأبى رافع الخيبرى الذى أرسل بضاعته بواسطة القوافل إلى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة(٣) .

وكانت مفاتيح التجارة فى أيدى اليمنيين ، وعلى أيديهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار ومنتجات الهند إلى شمال الجزيرة العربية ، حيث كانت تنقل إلى بلاد أوربا الجنوبية . وظل اليمنيون قابضين على ناصية التجارة حتى القرن السادس الميلادى ، عندما قام الرومانيون بمنافستهم فى البحر الأحمر ، وأدت هذه المنافسة التجارية إلى سقوط سبأ على مايقول بعض المؤرخين . على أن أهل الحجاز قد قاموا بعد السبئيين بنقل تجارة الجزيرة إلى غيرها من الممالك(٤) ، ونشأت فى مكة نفسها سوق خاصة لبيع العبيد الذين كانوا يجلبون من الحبشة واليمن وآسيا الصغرى ، وظلت السوق قائمة فى مكة إلى عهد قريب ، فقد شاهده إلدن رتر ، أحد الرحالة الأوربيين الذين زاروا جزيرة العرب(٥) . وبذلك صار المكيون — ومدينتهم مكة الواقعة على الخط التجارى

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد ص ٣٣ .
(٢) أحمد أمين بك : فجر الإسلام ص ١٦ .
(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٨ :
(٤) Hell : The Arab Civilisation, p. 11.
(٥) E. Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 134.

الكبير الممتد من جنوب الجزيرة إلى شمالها — هم وحدهم المسيطرون على شئون التجارة .

واستفادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية : فإن كثرة أسفار القرشيين إلى الشام والحبشة ومصر وغيرها ومخالطتهم لأقوام مختلفين مثل الفرس والروم من ذوى المدنيات القديمة ، قد ساعدتهم على معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والأدبية .(١) كما وقفوا على العلاقات بين فارس والروم وبين اليمن والحبشة ، وألموا بالحساب التجارى وكل ما يتعلق بالمكاييل والمقاييس(٢).

ومما يدل على توسع العرب فى المسائل الاقتصادية ، كثرة الألفاظ الدالة على المال ، فإن منها بضعة وعشرين اسما لكل منها معنى من المعانى الاقتصادية التى ترجع إلى الاستثمار وغيره . فالتلاد المال الموروث ، والركاز المال المدفون ، والتالد المال القديم (٣). ويقول صاحب أسواق العرب : « لنا أن نستأنس بشىء له خطره فى الدلالة على ما شغلت التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم ، وذلك هو اللغة والأشعار والأمثال ، فإنها تكشف لنا إلى حد بعيد عما كان عليه القوم من عادات وأحوال . وأول مانلاحظ فى هذا الباب ، غنى اللغة بالألفاظ التى تتعلق بالأسفار وما إليها من حط وترحال ونزول على الماء ووصف لدواب السفر وضروب سيرها . ولسنا مبالغين إذا قلنا أن أكثر القصائد فى الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء والضيق والعطش والجوع ، عدا ماهناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة الرابحة

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ص ٧٨ .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : نفس المصدر ص ٨٠ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٣١ .

والخاسرة . ولما كانت الخلافة ، لم يجد العرب لفظا يدلون به على بذل الطاعة للخليفة غير المبايعة ، فاشتقوا لهذه الحال المستجدة كلمة من كلمات التجارة التى كانت الشغل الشاغل لهم »[١].

ومن ذلك ترى مدى اهتمام العرب فى الجاهلية بالتجارة ، ومبلغ حبهم لجمع المال واستثماره بشتى الوسائل . يقول الله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما).

معاملات العرب التجارية :

تعامل العرب فى الجاهلية بالنقود الكسروية والرومية من الدراهم[٢] والدنانير (٣)، وبقى هذا حالهم إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذى ضرب الدرهم وجعل وزنه من الفضة أربعة عشر قيراطا (٤) ثم ضرب دراهم أخرى جعل وزن الواحد منها إثنى عشر قيراطا وكان يضربها على صورة الدراهم الكسروية ويزيد فى بعضها عبارات إسلامية مثل عبارة التوحيد أو عبارة الحمدلة .

ووجد فى الجاهلية دراهم مختلفة : طبرية ، وخوارزمية ، وبغلية . فالطبرية منسوبة إلى بلدة ، طبرية ، والبغلية منسوبة إلى ملك يقال له رأس البغل .

---

(١) سعيد الأفغانى : أسواق العرب ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) الدرهم : مأخوذ من لفظ Drachme اليونانى وكان معروفا فى الجاهلية مقدرا بالدوانيق.

(٣) الدينار : لفظ لاتينى مأخوذ من كلمة Deni أى عشرة ، والأصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوى عشرة آسات ، والآس درهم من دراهم الروم . جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ٩٧ .

(٤) القيراط : تعريب اللفظ اليونانى Keration (أنستاس الكرملى : النقود العربية ص ٢٨ حاشية ١) وهو نصف الدانق - إيليا المطران : مقالة فى المكاييل والأوزان ص ٣ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٤١ رياضيات بالمكتبة التيمورية) .

وكانت زنة الدرهم الطبرى ثمانية دوانيق(١) وقيل أربعة ، وزنة الخوارزمى أربعة دوانيق ونصف ، وزنة البغلى أربعة دوانيق وقيل ثمانية . وكان الدرهم الطبرى والدرهم البغلى ، هو غالب ما يتعامل به من أنواع الدراهم فى صدر الإسلام (٢).

وكان العرب فى الجاهلية يتعاملون بالمثاقيل(٣) ، ويتبايعون بأوزان كان أول ما عمل منها هو صنج المثاقيل(٤) ، فجعل المثقال ستين حبة ووزن كل حبة منها مائة حبة من حبوب الخردل البرى المعتدل(٥) الذى يعد ضبط الأوزان به أحسن من ضبطها بحب الشعير لقلة التفاوت فيه(٦) . أما أوزن الدراهم فإنها رتبت على أن كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم ، وكل درهم ستون حبة ، وبذلك أصبحت كل حبة من حبوب الدراهم سبعين حبة من حبوب الخردل(٧). وأما المكيال ، فقد كان المألوف منه فى عصر النبى عليه السلام : المد والصاع والعرق والفرق . والمد زنته رطل وثلث بالبغدادى(٨)، والصاع أربعة أمداد فيكون خمسة أرطال وثلث بالبغدادى ، والعَرَق ستون مداً ـ

---

(١) الدانق ، من الفارسية : دانة ، أى حبة . ويقول ابن الرفعة أن الدانق من حبات الشعير الموصوف ثمان حبات وخمسا حبة (الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ص ٨) .

(٢) ابن الرفعة : الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ص ٨ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣١٢ رياضيات بالمكتبة التيمورية) .

(٣) المثقال : هو درهم ودانق ونصف وهو أربعة وعشرون قيراطا وهو خمس وثمانون حبة . الشيرزى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٦ . وهو أقدم وحدة للوزن عند العرب ويقال Solidius عند الرومان . ولم يختلف المثقال فى جاهلية أو إسلام .

(٤) المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود ص ٣ .

(٥) إيليا المطران : مقالة فى المكاييل والأوزان ص ٢

(٦) ابن الرفعة : الإيضاح والتبيان ص ٧ — ٨ .

(٧) إيليا المطران : مقالة فى المكاييل والأوزان ص ٣ .

(٨) اختلفت النقلة فى الرطل البغدادى : فقيل إنه مائة وثمانية وعشرون درهما ، وقيل مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم ، وقيل مائة وثلاثون درهما .

خمسة عشر صاعا ، والفَرَق ستة عشر رطلا بغداديا . وأما الأردب فلم يعرفه العرب فى جاهليتهم وإنما هو من مكاييل مصر ، يستدل على ذلك بما أخرجه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال الرسول : منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مدّيها ودينارها ، ومنعت مصر أردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم »(١) .

وألف العرب فى جاهليتهم أنظمة متعددة من نظم البيع والشراء ، وظلت بعض هذه الأنظمة إلى قبيل الإسلام . ولما جاء الرسول عليه السلام نهى عن بعضها لأنه رأى فيها غبنا للبائع أو المبتاع ، ولم تكن هذه النظم تتخذ فى جميع الأسواق بل منها ما تمتاز به سوق دون سوق وجماعة دون جماعة .

الأسواق :

لم يتفق مؤرخو العرب على عدد الأسواق وتحديد أزمنتها . وقد كان لما حدث فى هذه الأسواق من وقائع وأحداث ، أثر ملحوظ فى التاريخ العام للجزيرة العربية ، واهتم هؤلاء المؤرخون بالأسواق العامة ولم يأبهوا بالأسواق الضئيلة التى كانت تقام فى القرى ، بل إن عدم الإفاضة فى بحث أمر الأسواق شمل بعض الأسواق العامة الكبرى ، فلم يذكروا عنها إلا شذرات مبعثرة .

وقد قسم صاحب « كتاب الأسواق » هذه الأسواق التى كانت تقام فى الجاهلية إلى ثلاثة أقسام : أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي تدار بنظم

---

(١) ابن الرفعة : الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ص ٩ ــ ١٤ .

خاصة وتتضاءل فيها الصبغة العربية ، وأسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة فصارت مع الزمن تمثلهم أصدق تمثيل فى عاداتهم فى البيع والشراء والدين والزواج والحقوق ، وأسواق ذات صبغة مختلطة لموقعها الجغرافى وهى الواقعة على البحر(١).

أما أسواق القسم الأول فتمثلها سوق هجر والبحرين وعمان . وتمثل أسواق القسم الثانى سوق عكاظ الذى يعتبر مرآة العرب فى الجاهلية حيث لا أثر فيه للنفوذ الأجنبى الذى سيطر على غيره من الأسواق، وتقع عكاظ فى الجنوب الشرقى من مكة على بعد عشرة أميال من الطائف . وتمثل أسواق القسم الثالث : عدن وصحار ودبى . ومن أشهر الأسواق العربية الأخرى : سوق دومة الجندل(٢)، وسوق المشقر(٣)، وسوق حباشة(٤).

---

(١) سعيد الأفغانى : أسواق العرب ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) تقع دومة الجندل فى موقع متوسط بين الشام والخليج الفارسى والمدينة على منتصف الطريق الواصل بين العقبة والبصرة تقريبا .

(٣) المشقر : حصن بالبحرين لعبد القيس ، وهو قريب من هجر .

(٤) حباشة : سوق كانت للعرب فى تهامة .

الباب الثالث

الدولة العربية

من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

البعثة النبوية — الخلفاء الراشدون — الدولة الأموية

الدولة العربية

من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

البعثة النبوية — الخلفاء الراشدون — الدولة الأموية

أولا — البعثة النبوية

نشأة الرسول :

اختار عبد المطلب لابنه عبد الله — وكان في الرابعة والعشرين من عمره — فتاة من أسرة عريقة في الجاهلية، هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة سيد بني زهرة . وبعد أن أقام عبد الله مع زوجه في ديار أهلها ثلاثة أيام، انتقل بها إلى منازل بني عبد المطلب ، وأقام معها أياما قليلة ، ثم خرج في تجارة إلى الشام وتركها حاملا ، ولكنه لم يعد من تلك الرحلة ، حيث مات في يثرب ودفن ، وتقدمت بآمنة أشهر الحمل ، حتى كان مولده عليه السلام في صبيحة يوم الاثنين الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١م ، وهي السنة التي يطلق عليها «عام الفيل» ، وعهدت أمه إلى حليمة السَّعْدية بإرضاعه ، فرحلت به إلى البادية حيث تقيم مع بني سعد ، وبعد أن بقي عندها خمس سنوات ردّته إلى أمه ، وبذلك نشأ محمد في جو بدوي ، وكان لذلك أثره في تعلمه لغة أهل البدو الفصيحة[1] .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٧٣ .

ومحمد عليه السلام من قبيلة قريش ، القبيلة العربية العريقة التى ترأسها قصى ، من أبوين فقيرين فى مالهما ، غنيين فى جاههما وحسبهما . وقد مات أبوه قبل أن يولد ، فكفلته أمه . ولما بلغ السادسة من عمره خرجت به لتزور أخواله فى يثرب فمكثت هناك شهراً ، ثم عزمت على العودة إلى مكة وبينما هى فى الطريق توفيت . فكفله جده عبد المطلب ، ولم يمض على ذلك سنتان حتى توفى جده ، وكفله عمه أبو طالب ومحمد فى التاسعة ، وصار منذ ذلك الوقت يحنو عليه ويعنى به ويخرجه معه فى أسفاره ، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس ماجعله يزداد به تعلقا . بذلك نشأ محمد يتيما فقيرا ، وفى ذلك يقول تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى)(١).

وكان رسول الله يرعى الغنم وهو طفل ، ثم اشتغل بالتجارة وسافر إلى الشام ، وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، جمعته بالسيدة خديجة بنت خويلد المصالح الاقتصادية ، إذ وجدت فيه الشخص الأمين على مالها وبضاعتها ، فأرسلته مع خادمها ميسرة ليتاجر لها بالشام ، فجنى ربحا كثيرا مما جعل السيدة خديجة تعجب بهذا الشاب الأمين ، وزاد إعجابها به أن ميسرة قص عليها من أخباره قصصا حببتها فيه ، فرأته شابا يختلف عن غيره من الشباب ، فهو إلى جانب طيب سمته وقوة شخصيته ، يمتاز بجمال الخلقة وجمال النفس ووقار الشيوخ ، حتى تمنت أن تتزوجه ، ولكن كيف السبيل إليه ، وهو الذى لم يفكر فى التزوج منها ، يمنعه فارق كبير فى السن فقد كان فى الخامسة والعشرين وهى فى الأربعين ، وفارق أكبر فى المركز الاجتماعى فقد كان فقيرا يتيما وهى ابنة خويلد من كبار أشراف مكة وأغنيائهم .

---

(١) سورة الضحى ، آية رقم ٦ — ١١ .

وحارت السيدة خديجة فى أمرها : تمنعها التقاليد والحياء من مكاشفة محمد بالأمر ، فأرسلت إليه صديقتها نفيسة كى تعرف دخيلة نفسه ، فسألته عن السبب الذى يمنعه من الزواج ، فاعتذر بقلة ماله ، فقالت : فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ، ألا تجيب ؟ فسألها : مَنْ ؟ ، فقالت : خديجة ، وقبل محمد وتم الزواج [1]. ودفع صداقه عمه أبو طالب ، وخطب خطبة ، أوضح فيها فضائل محمد ونبله رغم قلة ماله ، قال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ،وجعل لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى من لا يوازن به فتى من قريش ، إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ .

عاش محمد عيشة المتعبدين ، يتردد على غار حراء على مقربة من مكة ، يتعبد فيه شهرا من السنة ويصلى لإله لا يعرفه العرب . وهكذا كانت حياته مثالا للأمانة والإخلاص ، حتى لقب بالأمين ، ووصفه ربه بأنه على خلق عظيم .

البعثة :

كان عليه الصلاة والسلام لا يعتقد فى دين أهله . وإنما كان يتردد على غار حراء يتعبد فيه ويصلى، وشجعته السيدة خديجة على ذلك وكانت ترسل إليه الطعام فى الجبل ، وفى يوم الاثنين ١٧ رمضان وكان قد بلغ الأربعين من عمره ،

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٢١ — ٢٢.

نزل عليه الوحي ، إذ رأى جبريل الذى ظهر أمامه، وقال له : إقرأ، قال: ماأنا بقارىء ، فضمه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له : إقرأ، فقال: ماأنا بقارىء . فضمه مرة ثانية وثالثة وقال له : (إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم) (١). فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده إلى منزله، وقال لزوجه : زملونى زملونى (لفونى) ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع وقص على السيدة خديجة ماحدث فقالت له : والله مايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ، ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وهو شيخ أعمى، قد درس النصرانية ، فقال له : هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك قال : أو مخرجى هم ؟ قال : لم يأت رجل بمثل ما أوتيت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . فاطمأن الرسول .

وبعد فترة عاد محمد إلى الغار ، فنزل عليه جبريل مبشرا أنه رسول الله ، فرجع الرسول إلى داره وقال لزوجه : دثرونى، فنزلت عليه الآية (يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر) (٢). ثم نزل قوله تعالى :(وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) (٣) .

عندئذ صعد الرسول إلى جبل الصفا ، ونادى أهله وعشيرته وقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم ماجربنا عليك كذبا قط ، قال : إنى نذير لكم ، بين يدى عذاب شديد .

---

(١) سورة العلق، آية رقم ١ ـ ٥ .

(٢) سورة المدثر ، آية رقم ١ ـ ٨ .

(٣) سورة ٢٦ ، آية رقم ٢١٤ ـ ٢١٦ .

فقال أبو لهب : تبالك! ألهذا جمعتنا؛ فقال عليه السلام: ماأعلم إنسانا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر يكون أخى ووصيي وخليفتى فيه ؟ فلم يجبه أحد ، فقال على بن أبى طالب : أنا يارسول الله عدتك ، أنا حرب على من حاربت . فقال أبو لهب تبا لك ولمن اتبعت (١) . فأنزل الله قوله تعالى (تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد) (٢) . ثم خطب الرسول قائلا : إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غرّرت الناس جميعا ماغررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو ، إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة .(٣)

أخذ الرسول عليه السلام ينشر الدعوة الإسلامية لأقرب الناس إليه : كزوجته خديجة التى كانت أول من آمن به من النساء ، وعلى بن أبى طالب ابن عم الرسول ، ومولاه زيد بن حارثة ، وأبى بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ابن عبيد الله ، وأبى عبيدة بن الجراح ، كما أسلم الأرقم بن أبى الأرقم الذى اتخذت داره مركزا لبث الدعوة الإسلامية . واستمر الرسول فى نشر الإسلام سرا بين العرب جميعا(٤)، وظل على تلك الحال حوالى الثلاث سنوات حتى نزل قوله عز وجل : (فاصدع بما تؤمر به وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين)(٥). فجهر رسول الله بالدعوة للإسلام ، وصدع

---

(١) الطبرى ج ١ ص ٢١٧ .
(٢) سورة المسد رقم ١١١ آية ١ — ٥
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢١٧ .
(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك - تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٧٠ .
(٥) سورة ١٥ ، آية رقم ٩٤ .

لأمر ربه . وكان عليه أن يوجه الناس نحو عبادة إله واحد لاشريك له وهذا هو أساس الإسلام، وأن يعتقد العرب كذلك فى نبوة محمد عليه السلام وأنه مرسل من قبل الله ، وأن هناك بعثا وعقابا وثوابا ، كما كان على الرسول أن يصلح من شأن المجتمع العربى الفاسد .

كان العرب قبل الإسلام يعبدون الأصنام فى الكعبة وهى عبارة عن أحجار لاتضر ولا تنفع ، لاتروى ظمآنا ولا تشبع جائعا ، ولا تغنى فقيراً ، ولا تسق زرعاً . ولكنها مع ذلك كانت قبلة العرب وأساس الحياة عند قريش زعيمة العرب ، إذ كانت القرابين تقدم لهذه الأصنام التى دان لها العرب ، وفى هذا مصلحة اقتصادية ومنفعة أدبية لقريش ، فقد كانت قريش هى التى تحمى الدار ، فالقضاء على هذا الدين إنما هو قضاء على هذه المنافع وهذه الزعامة .

لذلك كانت مهمة الرسول فى نشر الدين الجديد مهمة شاقة ، فقد ندد بالوثنية وبالمعتقدات التى لا تؤمن بوحدانية الخالق ، أى أنه قلل من قيمة الأصنام ، ولم يكتف بهذا بل أظهر فساد نظمهم الاجتماعية . ولذا نظرت قريش إلى محمد نظرتها إلى رجل خارج على نظمها وعاداتها ، جاء يهدم أسس حياتها الاجتماعية والاقتصادية معا . ولهذا رأت أن تقاومه مقاومة عنيفة حتى تحافظ على كيانها، فأخذت تهزأ به وبأصحابه، وادعت أنه شاعر ساحر، ودعوته إنما هى محض خداع فى سبيل وصوله إلى أغراضه وهى أن يكون ملكا على العرب .

بدأت قريش بأن بعثت إليه عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً فى قومه ، فذهب إليه وهو يصلى بالمسجد وقال له ، يا ابن أخى : إنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسبا ونسبا ، إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم

وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم. فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال عليه السلام: قل يا أبا الوليد أسمع. فقال: يا ابن أخى وإن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رؤيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فقال عليه السلام: لقد فرغت يا أبا الوليد، قال: نعم، قال: فاسمع منى. بسم الله الرحمن الرحيم: (الم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعقلون، بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون)(١). وأنصت عتبة يستمع إلى أحسن الحديث حتى رجع إلى قريش قائلا: إنى سمعت قولا ما سمعت مثله قط: واللات ما هو بالشعر ولا هو بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها لى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فقال النضر بن الحارث: بماذا جاءنا محمد، واللات ما محمد بأحسن حديثا منى»(٢). فأنزل الله قوله تعالى: (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزوا، أولئك لهم عذاب مهين، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا، فبشره بعذاب أليم)(٣).

هكذا كانت مرحلة المقاومة الأولى ولكن الله كان ينزل آياته فيدمغ بها قول الذين كفروا، والذين هم فى ضلالهم يعمهون. فأخذت قريش فى إيذاء الرسول وأصحابه، فكان أبو جهل إذا سمع بإسلام رجل من ذوى الشرف

---

(١) سورة فصلت.
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٨.
(٣) سورة لقمان.

أنبه ، وقال له « تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ولنفيلنّ رأيك ، ولنضعن شرفك »(١) . ويقول ابن الأثير : « إن مشركى قريش كانوا يخرجون عمار بن ياسر وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرها ، فيمر الرسول فيقول : صبرا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة »(٢). وهناك من الأمثلة ما لا يدخل تحت حصر عن تعذيب قريش للسلمين وإهانتهم وإساءتهم حتى إنهم عذبوا النساء ، ولم يقتصروا على تعذيب الرجال ، ولم يكتف الكفار بذلك بل حاولوا أيضا الاستعانة باليهود فى التقليل والحط من شأن محمد والرسالة ولكن الله رد كيدهم إلى نحورهم .

الهجرة إلى الحبشة :

كان من أثر شدة إيذاء قريش للمسلمين أن أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة . ولم يأمرهم بالهجرة إلى أية ناحية من شبه الجزيرة العربية ، لأن القبائل العربية سوف تجامل قريشا زعيمة العرب ، وكانت بعض البلاد العربية مثل يثرب ونجران موطنا للديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية(٣). كما أن هؤلاء المهاجرين كانوا يخرجون وحدانا متخفين حتى لا تشعر بهم قريش ، وقد اختار الرسول الحبشة أيضا لما اشتهر به النجاشى من الكرم والعدل ، فهاجر عدد من المسلمين للحبشة فى رجب من السنة الخامسة للنبوة . وكان عددهم فى أول الأمر أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، ثم ازدادوا حتى بلغوا ثمانين رجلا غير النساء والأطفال ، وكان من بينهم عثمان بن عفان

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠ .

(٣) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٧٦ .

وزوجته رقية(١) ، فأكرمهم النجاشى وأمنهم .

كانت هجرة هؤلاء المسلمين إلى الحبشة خطوة سياسية موفقة من الرسول ، فقد ذاع بين العرب أن جماعة منهم قد فَرُّوا إلى الحبشة ، بدين جديد تلقوه عن محمد . فكان هذا بمثابة دعوة إلى الإسلام ، مما حدا بقريش أن ترسل عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبى ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشى وبطارقته ، وقالا له : « أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه » .

بعث النجاشى فى طلب هؤلاء المسلمين وسألهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ فرد جعفر بن أبى طالب قائلا : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به

---

(١) أنجب النبي من السيدة خديجة كل أولاده إلا ابراهيم ، وهم : رقية وأم كلثوم وفاطمة وزينب والقاسم وعبد الله . وتزوجت رقية وأم كلثوم بادىء الأمر من عتبة وعتيبة ابنى عمه أبى لهب ، ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الاسلام ، فتزوجهما عثمان ، الواحدة بعد الأخرى وحين هاجر عثمان مع الرسول الى المدينه واشترك فى الغزوات ، تخلف عن واقعة بدر ، إذ أبقاه الرسول فى المدينة لتمريض رقية زوجته ، ولكن روحها فاضت والمسلمون فى المعركة ، ثم زوجه ابنته أم كلثوم . ابن حجر الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ٢٢٣ .

شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك . فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شىء تقرؤه على ؟ قال جعفر : نعم ، وتلا من سورة مريم إلى قوله تعالى : (فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم منْ كان فى المهد صبيا ، قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) .

دهش البطارقة وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح ، وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء بموسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما (١) . وقد عاد هؤلاء المهاجرون إلى المدينة بعد هجرة الرسول .

مقاطعة قريش لبنى هاشم :

لما عجزت قريش عن النيل من محمد ، ذهب بعضهم إلى عمه أبى طالب قائلين له إنهم لن يصبروا على هذه الحال . وخيَّروه بين أن يمنعه عما يقول

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

أو ينازلوه وإياه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بخذلان ابن أخيه ، ولـكنه قال له : « يا ابن أخى ، إن قومك جاءونى وقالوا لى كذاوكذا . فابق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالاأطيق ، فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته »(١) .

أخذ الاسلام فى الانتشار رغم مقاومة قريش ، وقد أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب الذى أخذ فى الصلاة جهراً عند الـكعبة ، وصلى المسلمون معه ، ولم يكتف بهذا بل أخذ يناضل قريشاً . فاتفقت قريش على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى المطلب مقاطعة تامة فلا يصاهروهم ولا يتاجرون معهم ، ولا يناصروهم وعلقوا صحيفة المقاطعة بالـكعبة فاضطر بنو هاشم وبنو المطلب إلى النزوح إلى شعب أبى طالب بشرق مكة ، وكانت قريش تظن أن هذه المقاطعة الاقتصادية الاجتماعية السياسية ستضطر بنى هاشم والمطلب إلى تسليم الرسول إلى الـكفار ، ولم يقفوا عند حد المقاطعة بل ازدادوا فى إيذاء المسلمين بشتى الوسائل ، وظل هذا الحصار حوالى الثلاث سنوات .

لـكن الرسول لم يزد مع ذلك إلا اعتصاما وتمسكا بدين الله ، وازداد أصحابه وأتباعه تعلقا بدين الإسلام ، بل إن هذه المقاطعة ساعدت على نشر الدعوة بين باقى أجزاء شبه الجزيرة العربية ، وظل الرسول والمسلمون من خلفه يعانون آلام المقاطعة والجوع ، ولم يكن يتاح لهم الاختلاط بغيرهم من الناس إلا فى الأشهر الحرم حين يفد العرب إلى مكة لزيارة البيت الحرام ،

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧ .

حيث كان الرسول ينتهز فرصة الحج ويدعو القبائل إلى الإسلام ، إلا أن طول مدة الحصار وما لاقاه المسلمون من ضيق وألم جعل أبناء عمومتهم وأصهارهم فى قريش يشعرون بفداحة ما ارتكبوا من إثم ضد إخوانهم ، فدفعت هذه العاطفة بعض شباب قريش إلى إمداد الرسول وأتباعه بالمؤن والطعام سرّا ، وكان فى مقدمة هؤلاء زهير بن أميـــة الذى طاف بالبيت سبع مرات ونادى فى الناس : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْـكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم . والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . فوافقته الأغلبية الساحقة من قريش ، وكان على رأس المعارضين أبو جهل ، وهكذا نقضت هذه الصحيفة ، وعاد الرسول وصحبه إلى مكة مرة أخرى[١] . ولكن العلاقات ظلت عدائية بين المسلمين وقريش .

وفى وسط هذه الظروف القاسية على المسلمين وعلى الرسول ، وبينما هو يناضل قريشا وقريش تناضله وتؤذى صحبه ، إذ يأتيه خبر وفاة عمه أبى طالب[٢] ، ولم تلبث أن لحقت به السيدة خديجة زوج الرسول ، فحزن عليهما الرسول أشد الحزن[٣] . وانتهزت قريش هذه المناسبة واشتدت فى

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) أبو الفداء ج ١ ص ١٢٠ .

(٣) توفيت السيدة خديجة فى السنة العاشرة من نزول الوحى ، قبل الهجرة بثلاث سنين ، بعد وفاة أبى طالب بأيام ، وعمرها خمس وستون سنة . وكان تأثر الرسول لوفاتها بالغا حتى لقد خيف عليه . ولا غرو فقد ظلت معه أربعا وعشرين سنة وبضعة أشهر ، لم يتزوج خلالها عليها . وكانت أول سيدة آمنت برسالة زوجها العظيم ، وواسته بتشجيعها ، فقد كان عليه السلام يخرج يبشر قومه بالإســلام فلا ينال منهم غير التكذيب والإهانة ، فيرجع الى بيته حزينا يائسا ، فتزيل خديجة حزنه وتدعوه إلى استمرار تحمل الأذى فى سبيل دعوته . ابن سعد : الطبقات الكبير ج ١ ص ٤١ .

إيذاء الرسول وأصحابه ، ولكن الرسول ومن حوله المسلمين المؤمنين قابلوا الشدة بالتمسك بالدين وأهدابه .

خرج الرسول بعد ذلك إلى الطائف مستجيراً بثقيف حتى يبلغ رسالة ربه ، ولكن ثقيفا جاملت قريشا ، فلم تستمع لدعواه بل لم تقبل أن تجيره بعد أن فقد عمه . ولم تكتف بذلك بل أخذ سفهاء ثقيف يسبئونه ، حتى اشتد به الكرب والضيق ، ولم يجد ملاذاً إلا أن يشكو لله قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهَوَانِى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهّمنى أو إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

أراد الرسول عليه السلام أن يعود إلى مكة ، ولكنه لم يتمكن من دخولها إلا بعد أن أجاره المطعم بن عدى أحد أشراف قريش . ولم يلبث الرسول قليلا بعد ذلك حتى أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصعد به من الصخرة المقدسة إلى سدرة المنتهى وفرضت الصلوات الخمس على المسلمين فى تلك الليلة المباركة . ولم تصدق قريش حديث الإسراء ، بل إن بعض المسلمين لم تتسع عقولهم لتصديق مثل هذه المعجزات فارتدوا عن الإسلام . ولكن هذه الأزمات لم تزد الرسول إلا تمسكا بدين الله ومن حوله الراسخون فى الإسلام وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وحمزة الذين كانوا منعة للرسول وحصنا للإسلام ضد الكفار .

بيعتا العقبة :

استمر الرسول ينتهز فرصة مواسم الحج ويعرض نفسه على القبائل، فنهم من كان يصدق دعواه ومنهم من كذبه . ولم تطل هذه الحال كثيراً ، إذ أنه عند ماجاءت وفود الأوس والخزرج من يثرب لتحج إلى بيت الله الحرام فى السنة الحادية عشرة من البعثة واستمعوا إلى دعوته ، آمنوا به وصدقوا ، وقال بعضهم إن هذا هو الذى قد وعدنا به اليهود(١) . وفى الموسم التالى للحج التقى الرسول عند العقبة ببعض منهم فدعاهم للإسلام واستمعوا إلى آيات من القرآن الكريم ، فلقيت دعوته لديهم قبولا ورجعوا إلى يثرب حيث أخذوا يبشرون الدعوة للإسلام بين قومهم . وفى العام التالى وفد إلى مكة إثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج وبايعوا الرسول عند العقبه ، وتعرف هذه بيعة العقبه الأولى ، وبعث معهم الرسول عليه السلام مصعب ابن عمير بن ابن هاشم ليقرئهم القرآن ، فاختار إحدى الدور فى يثرب واتخذها مركزاً للإسلام .

وفى موسم الحج التالى ، جاء من يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج واجتمعوا بالرسول عند العقبة وبايعوه وتعهدوا له بالدفاع عنه وطلبوا منه الهجرة إلى بلدهم ، ويقول ابن اسحاق إن أبا الهيثم بن التيهان قال : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يعنى اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم الرسول وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربكم وأسالم من سالمتم(٢) وهذه هى ماتسمى بالبيعة الكبرى أو بيعة العقبة الثانية ،

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٣٠ — ٣٢ . الطبرى جـ٢ ص ٢٣٤ .
(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٤١ —٤٢ . الطبرى جـ ٢ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

وإذا نظرنا إلى هذا الحلف نجد أنه يوضح لنا أن الرسول كان يريد بلداً آمناً، يأوى إليه حتى ينشر رسالة ربه . أما أهل يثرب فقد وجدوا فى هذه البيعة حلفا سياسيا يقوى شأنهم ضد اليهود .

ولكن لماذا كان أهل يثرب أكثر تصديقا للرسول من غيرهم ، ولماذا اختار الرسول هذه البلدة مأوى وملجأ ؟ نجد أن أهل يثرب كانوا يعلمون من اليهود أن هناك نبيا سيبعث ، كما أنه لم يكن هناك مصلحة اقتصادية لأهل يثرب فى تمسكهم بالوثنية كقريش وكان للنزاع بين أهل يثرب من الأوس والخزرج وبين اليهود أكبر الأثر فى محالفتهم للرسول ، إذ وجدوا فى ذلك فرصة لطرد اليهود من المدينة وإجلائهم عن أراضيهم التى تعتبر أخصب بقاع المدينة ، كما أن تزعم الرسول المدينة سيزيل مابين العرب من الأوس والخزرج من نفور وتنازع على السلطة والنفوذ . أما من ناحية الرسول فقد كان بينه وبين أهل يثرب صلة نسب وقرابة ، فهنالك بنو النجار أخوال جده عبد المطلب ، وهناك قبر أبيه الذى كانت تحج إليه السيدة آمنة بنت وهب ، وفى منتصف الطريق بين مكة والمدينة يوجد قبر أمه التى توفيت أثناء عودتها من زيارة قبر زوجها عبد الله . لهذه الأسباب مجتمعة التقت مصالح الرسول بمصالح أهل يثرب فتحالفا وتعاقدا على الإسلام وعلى التفانى فى نشره ونصرته .

الهجرة :

عندما علمت قريش بأمر هذه البيعة ، ذهب سفراؤها إلى المدينة ، حيث قابلوا المشركين من أهل يثرب ، فأقسموا لهم بأن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يشترك المسلمون فى هذه المناقشات ، فانتابت قريشا الفزع والخوف وبالغت فى إيذاء المسلمين .

أمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى المدينة فبدأوا يهاجرون إليها سراً ،

وحدانا وزرافات حتى لم يبق بمكة إلا الرسول وأبو بكر وعلى بن أبى طالب وبعض أقرباء النبى ، وأخذ الرسول يتأهب للهجرة ، وعند ما علمت قريش ذلك ، اجتمعت فى دار الندوة وتشاورت فيما تفعل فاتفقوا على قتل الرسول ، وأمروا فتيانا من بطون قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل ويرضى بنو هاشم بديته[1] ، فنزل قوله تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)[2]. فخرج الرسول من داره ليلا يصاحبه أبو بكر ونام علىٌّ فى فراشه ، وجعل النبى عليه السلام يتلو آيات من القرآن ويضع التراب على رؤوسهم ، فغشيت أبصارهم فلم يروا الرسول ، وسار الرسول وصديقه إلى غار بجبل ثور بالقرب من مكة .

ذهلت قريش من ذلك وراعها ماحدث ، فأخذت تقتفى أثر الرسول وجعلت مكافأة مائة ناقة لمن يدلهم عليه أو يأتى به[3] . ووصلت قريش إلى الغار الذى به الرسول وصاحبه ، ولكنهم وجدوا يمامة راقدة على بيضها ووجدوا العنكبوت قد نسج نسيجه على باب الغار ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله تعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين[4] إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم)[5] .

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦ .
(٢) سورة الأنفال .
(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٨٢ .
(٤) كان أبو بكر الصديق هو رفيق الرسول عليه السلام فى الغار .
(٥) سورة التوبة ، آية ٤٠ .

أمضى الرسول ثلاث ليال فى الغار، ثم تركه إلى قباء، فوصلها ظهر الإثنين ١٢ ربيع الأول بعد مسيرة ثمانية أيام، وهى إحدى ضواحى المدينة، فأسس بها الرسول مسجداً وأقام بها ثلاثة أيام، حيث لحقه على بن أبى طالب ليلا بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من ودائع. ثم يمم الرسول شطر المدينة يحوطه مئات المسلمين، حتى أتى بنى سالم فصلى أول جمعة فى الإسلام وخطب المسلمين، ودخل المدينة راكبا ناقته فى ١٦ ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م، وحاول الأنصار أن يستضيفوا الرسول عندهم، ولكنه أمر أن تترك الناقة تسير حتى بركت أمام دار أبى أيوب الأنصارى، فنزل به الرسول وبنى مسجد المدينة فى هذا المكان كما أقام مسكنه بجواره، ثم أرسل إلى مكة وأحضر أهل بيته.

هكذا وصل رسول الله إلى المدينة المنورة، مهاجرا من مكة. وتعتبر الهجرة أول حادث تاريخى عظيم فى الإسلام: فقد كانت محورا لتغيير مجرى الحوادث، وبداية لذلك النصر العظيم الذى ناله الإسلام على الوثنية وغيرها من الديانات التى دان بها العرب، وجعل عمر بن الخطاب هذه الحادثة بداية للتاريخ الهجرى. وعدت خطوة سياسية عظيمة من الرسول، فقد نفذ برنامجه السياسى الذى وضعه وفشلت قريش فى منعه من الهجرة، فخسرت بذلك خسرانا كبيراً، إذ أن الرسول أصبح فى وسط أنصاره ومن آمنوا به، بل أصبح فى وسط قوم عاهدوه على الدفاع والنصر حتى سموا الأنصار.

بذلك انتهى هذا الدور من حياة الرسول، وترك الكفار فى مكة ليتخذ من المدينة عاصمة للإسلام. وكان هذا الدور الأول بمثابة نضال من أجل المبدأ والعقيدة، بل إنه كان تضحية من الرسول والمسلمين من حوله، فقد ضحوا بأموالهم وأولادهم وأنفسهم فى سبيل نصرة العقيدة التى آمنوا بها والدين الذى اعتنقوه، وجاهدوا باذلين النفس والنفيس، حتى كتب لهم النصر، وكان نصراً عزيزاً.

الرسول فى المدينة :

عند ما وصل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة ، جمع شملها ، وألّف القرآن بين أهلها وأصبحت معقل الإسلام وملجأ للمسلمين جميعاً ، هاجر إليها المسلمون فراراً من ظلم قريش واضطهادها ، وأصبح بالمدينة عدد كبير من المهاجرين والأنصار وبجانبهم اليهود من بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع . فرأى الرسول أن يصلح من شأن المدينة وأن يتخذ الحيطة من اليهود حتى يعيش المسلمون فى أمان ، فيقبل على الإسلام من ظل حتى الآن يخاف بطش قريش . فلم يكن الرسول يفكر فى أن يثرى ولا أن يصبح ملكا على المدينة كما كان يظن الكفار ، ولكنه وضع سياسته منذ البداية ورسمها على أن يبلغ رسالة ربه وينشر الإسلام بين العرب والناس أجمعين ، وما كان هذا يتأتى إلا إذا شعر المسلمون بالأمن والطمأنينة حتى يجاهدوا فى سبيل الله .

شعر أهل المدينة من العرب — الأوس والخزرج — بالطمأنينة بعد هجرة الرسول إليهم ، وزال ما فى نفوسهم من بغضاء وعداوة ، وأصبحوا بفضل الله إخوانا . أما اليهود فقد كانوا — كما هم اليوم — أهل نفاق وخداع ، فأراد الرسول أن يأمن شرهم فعقد حلفا بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس . وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ... ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . . »(١).

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٩٤ — ٩٨ .

بذلك أمن الرسول المسلمين وأوجد التعاون والتضامن بينهم ، وجعل لكل شخص أن يقرر الدين الذى يختاره ، وهو حر فى تفكيره ورأيه . وتعتبر هذه الوثيقة بداية عصر جديد فى التاريخ الإسلامى : فإن المسلمين قد اطمأنوا إلى دينهم ، وأما اليهود فقد عاهدوا الرسول ووقعوا على صحائف مشابهة لهذه الصحيفة ، فأصبحت المدينة حراماً لأهلها يدافعون عنها ويحافظون عليها ، وبذلك أصبح اليهود متساوين مع المسلمين فى الحقوق والواجبات .

ومن أهم ما قام به الرسول فى المدينة المنورة : المؤاخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار ، فقد آخى الرسول بينهم وأسكن كل مهاجر مع أحد من الأنصار حتى يبنى المهاجرون منازلهم ، وكان عليه السلام يحث المسلمين على المحبة والإخوة ، فقال فى أحد خطبه : « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، وتحابوا بروح الله بينكم » . ولم تكن أقواله فحسب تدل على المؤاخاة ، بل كانت أعماله عليه الصلاة والسلام مثلا أعلى للإخاء والمساواة ، كان ديموقراطيا حقا لم يفرق بين كبير وصغير ، فوضع أساس التسامح بين الناس لا فرق بين مسلم وسواه ، فمن دخل فى عهده فهو آمن ، ونادى فى أتباعه من آذى ذمياً فليس منا ، بل بالغ فى التسامح والمساواة حتى جعل للذميين ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . هذه كانت سياسة الرسول فى المدينة ، وهى الأساس الذى سار عليه الخلفاء الراشدون من بعده .

وفى وسط هذا الجو المتسامح الكريم ، ظهر فريق المنافقين يتزعمه عبدالله ابن أبىّ ، وهؤلاء لم يغيروا دينهم الأول وإنما أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر وأخذوا يناقضون المسلمين ويخذلونهم حتى طلب ابن عبدالله بن أَبَىّ أن يقتل والده بنفسه ، ولكن الرسول قال له : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا . »

بنى الرسول مسجده بالمدينة ، ولم يكن الغرض منه مجرد مكان لإقامة

الصلاة بل جعله مركزاً لبث الدعوة ونشر الإسلام ، ومكاناً يجتمع فيه المسلمون للتشاور فى أمرهم ، وكان عليه السلام يستقبل فيه السفراء من قبائل العرب ، وأصبح هذا المسجد مركز المدينة وقلبها النابض الذى يجتمع فيه المسلمون من كافة البقاع ، فمهدت الوحدة الدينية بذلك إلى الوحدة السياسية ، وأصبح المسلمون بنعمة الله إخوانا وقوة متماسكة . وقد سادت المدينة روح الديموقراطية الصحيحة وتلاشت الفوارق القبلية بين الناس .

وفى هذا الوقت ، تزوج الرسول من السيدة عائشة بنت أبى بكر ولما تبلغ العاشرة إكراما لأبى بكر صديقه الحميم ، الذى صحبه فى هجرته من مكة إلى يثرب اتقاء لأذى قريش يوم اشتد به الكرب .

الغزوات والسرايا(١) :

عند ما انتهى الرسول عليه السلام من تنظيم شئون المسلمين ، وتوثيق الروابط بينهم ، اتجه إلى الناحية الخارجية لتنظيم علاقات المسلمين مع بقية أجزاء بلاد العرب . وقد كان عليه السلام فى بداية أمره يعتمد على الحجة والبرهان والإقناع فى نشر الدعوة الإسلامية ، وقد اعتنق الإسلام عدد كبير من العرب خلال هذه السنوات رغم ما كانت تبديه قريش من مقاومة واضطهاد للمسلمين وكان الله يحث رسوله على الصبر والثبات ويقول له : (واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم)(٢) .

وعندما استمرت قريش فى إيذائها للمسلمين ، أمر الله رسوله بالنضال فى

---

(١) الغزوة هى التى خرج فيها الرسول مع المقاتلين ، أما السرية فهى مالم يخرج فيها الرسول . حاشية رقم ٥ للدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٩٠ .

(٢) سورة الأحقاف .

سبيل نشر الدين الإسلامى وأذن للسلمين بالقتال والجهاد فى سبيل الله دفاعا عن أنفسهم ضد إيذاء الكفار (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)(١) ، (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل)(٢) ، (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)(٣) وأمر الله رسوله بكسر شوكة الكفر حتى لايخشى من يريد الإسلام على نفسه وأن يطمئن إلى سلامته ، فأمر بأن يقاتل جميع المشركين : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)(٤) .

هكذا أمر الله المسلمين بالجهاد ، فبدأ الرسول فى تنفيذ أمر ربه ، وحاول استطلاع قوة قريش . فأرسل عدة سرايا منها سرية عبد الله بن جحش فى رجب سنة ٢ هـ الذى نزل عند نخلة (بين مكة والطائف) ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب له الرسول كتاباً أمره ألا يفضه إلا بعد مسيرة يومين ، وعند ما فتح عبد الله بن جحش الكتاب وجد فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا ، فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصدبها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم »(٥). وعند ما مرت قافلة لقريش بهؤلاء المسلمين ، اعترضوها وأسروا منها عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وقدموا بهما وبالعير على الرسول بالمدينة ، فقال لهم الرسول عليه السلام : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر

---

(١) سورة الحج .
(٢) سورة البقرة .
(٣) سورة الأنفال .
(٤) سورة التوبة .
(٥) الطبرى جـ٢ ص٢٦٢ .

الحرام » . فأسقط فى أيديهم وظنوا أنهم خالفوا تعاليم الإسلام . وانتهز الكفار هذه الفرصة واتهموا المسلمين بالقتال فى الشهر الحرام مع حرمة هذا العمل ، ولكن الله تعالى أنزل قوله : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل)(١) ، فكانت هذه الآية إيذانا بقتال المشركين فى أى وقت والجهاد فى سبيل الله ومقاتلة الكفار حيثما وجدوا .

ولا شك أن حكمة تشريع القتال للمسلمين كانت لها أغراض عديدة : فالكفار يتربصون الفرص بالمسلمين ، ويحاولون جهدهم أن يقضوا على محمد وأتباعه ، أى أن المسلمين كانوا معرضين لخطر كبير ، فكان عليهم أن يتخذوا الحيطة ويستعدوا للدفاع عن أنفسهم ضد الكفار ، وكان لا بد لهم أن يلتقوا مع قريش فى موقعة فاصلة حتى ينتهى ما بينهم . وفوق ذلك كله كان على محمد أن يبلغ رسالة ربه بالحجة أولا ثم القضاء على الكفار إن لم يقتنعوا بالحجة والبرهان(٢).

غزوة بدر سنة ٢ هـ :

فى رمضان سنة ٢ هـ ندب الرسول نفراً من المسلمين لاعتراض قافلة قريش وهى قادمة من الشام ، فاستنجد أبو سفيان رئيس القافلة بقريش ثم غير الطريق الذى اعتاد أن يسلكه ، وسار بجانب ساحل البحر وتسلل إلى مكة دون أن يفقد من تجارته شيئا . وعندما علمت قريش بذلك خرج عدد

---

(١) سورة البقرة .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك والدكتور على ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

كبير منهم يتراوح بين تسعمائة وألف ، وكان بينهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول وأبو جهل ، وخرج رسول الله فى ثلثمائة وأربعة عشر رجلا وأمامهم فى مسيرهم رايتان سوداوان . وعنـد ما وجد المسلمون أن عدد قريش يزيد عنهم كثيراً حاول بعضهم التراجع ، فنزل قوله تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لـكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تـكون لـكم ، ويريد الله أن يُحقّ الحق بكلماته ويقطع دابر الـكافرين) (١) . أما قريش فكادت تنقسم إلى فريقين : فريق يريد الرجوع مادامت التجارة قد نجت ، وفريق - يقوده أبو جهل - يريد الحرب ، ونزل هـذا الفريق الأخير عند بدر خلف كثيب من الرمال ، كما بادر المسلمون إلى ماء بدر فنزلوا عنده .

بدأت الموقعة على شكل مبارزة فردية ، ثم التقى الفريقان فى صبيحة يوم الجمعة ١٧ رمضان ، وكان الرسول يحث المؤمنين على الجهاد ويحرضهم على القتال فى سبيل الله ، وكان لوجود الرسول عليه السلام بين صفوف المقاتلين أعظم الأثر فى تقوية روحهم المعنوية وشحذ عزائمهم ، فحملوا على الكفار حملة صادقة وأمدهم الله بجنود من عنده ، ونزلت الآية الـكريمة : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لـكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين)(٢) . وانجلت هذه المعركة عن قتل سبعين من الـكفار واستشهاد أربعة عشر مسلما (٣) ، كما نزلت فى تلك المعركة الآية الـكريمة : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلـكم تشكرون)(٤).

كانت هذه المعركة أولى معارك الجهاد فى سبيل نشر الإسلام ، وكانت

---

(١) سورة الأنفال .
(٢) سورة الأنفال .
(٣) ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٣٠ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٩٧ .
(٤) سورة الأنفال .

ضربة قاصمة لمكانة قريش ، فقد رأى الكفار مبلغ استمساك المؤمنين بدينهم فى سبيل الجهاد ، ومقدار تفانيهم فى الذود عن الإسلام وأطلق المسلمون على هذه الغزوة غزوة الفرقان لأن الله قد فرق فيها بين الحق والباطل . ولقد تأثرت قريش بهذه الهزيمة ، فقد قتل فيها كبارها وكسرت شوكتها بل ضاعت هيبتها بين العرب . ولذلك صممت على الأخذ بثأرها ، فرصدت أموال القافلة للانتقام من محمد وأتباعه .

وفى هذه الغزوة نزلت عدة آيات قرآنية توضح للرسول كيفية معاملة الأسرى وكيفية اقتسام الغنائم .فقد اختلف المسلمون ، كل يحاول أن يستولى على ما جمعه من الأسلاب ، فنزلت الآية الكريمة موضحة ذلك : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شىء قدير)(١) .

ولقد ازدادت قوة المسلمين فى المدينة بعد انتصارهم فى هذه الغزوة ، وأحس غير المسلمين فى المدينة من الكفار واليهود بقوة الإسلام ، وابتدأوا يأتمرون بالرسول وبالمسلمين وقام شعراؤهم يندون بالمسلمين ويكيدون لهم ، وكان الرسول على علم بكل هذه الأعمال فأخذ يحتاط من الكفار واليهود حتى تمكن فى نهاية الأمر من القضاء على المشركين جميعا .

غزوة أحد (سنة ٣ هـ) :

لم تهدأ قريش ولم تستقر بعد هزيمتها فى بدر ، ووطدت العزم على الانتقام من الرسول والمسلمين ، وجمع أبو سفيان حوالى ثلاثة آلاف من

---

(١) سورة الأنفال .

الكفار والمشركين والأحابيش وسار متجها إلى المدينة ، وخرجت معهم نساؤهم . ولما علم الرسول عليه الصلاة والسلام بمسير قريش استشار أصحابه : فأشار بعضهم بالاعتصام بالمدينة وكان هذا من رأى الرسول ، وقال بعضهم بالخروج لملاقاة قريش ، وانضم الصحابة إلى الرأى الأول لما كان للمدينة المنورة من مناعة وحصانة ، وعندما استشار الرسول عبدالله بن أُبى بن سلول رأى البقاء فى المدينة ، ولكن الرسول عليه السلام قرر الخروج من المدينة وملاقاة قريش بعيداً عنها . وسار الرسول وقت السحر من ليلة السبت فى منتصف شعبان سنة ٣ هـ فى ألف من المسلمين ، وبعد أن تقدم المسلمون مرحلة كبيرة من الطريق ، رجع عبد الله بن أبى بثلث الجيش ، وقال : عصانى واتبع الولدان ، وكادت تحل الفتنة بين المسلمين ، فنزل قوله تعالى : (وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(١) .

وعندما وصل الرسول عليه السلام إلى جبل أحد نصب معسكره على سطح الجبل المواجه للمدينة . وكانت قريش فى أسفل الجبل ، وهنا تظهر عبقرية الرسول الحربية ، فقد حصن مواقع جيشه ، واحتمى بالجبل ووضع الرماة فى أعلاه ليحموا ظهر الجيش ، وأوصى عليه السلام الرماة ألا يتخلوا عن مواقعهم سواء انتصر المسلمون أو انهزموا . وبدأت المعركة على عادة العرب بالمبارزة ، وتزعم المشركين أبو سفيان بن حرب ، كما كان على رأس فرسانهم خالد بن الوليد ، ثم دارت رحى الحرب . فانتصر المسلمون بادىء ذى بدء ، إلا أنهم عندما رأوا تقهقر الكفار لم يتذكر الرماة نصيحة الرسول بالبقاء فى أماكنهم فتخلوا عنها وأسرعوا يجمعون الأسلاب والغنائم، وانتهز

---

(١) سورة آل عمران .

خالد بن الوليد هذه الفرصة واستولى على موقع الرماة وأثخن ظهور المسلمين من خلفهم ، فاختلط الأمر على المسلمين واضطربت أحوالهم واختل نظامهم ، ثم صاح ابن قمیئة المشرك قائلا : ألا إن محمداً قد قتل ، فتخاذل المسلمون ودب اليأس فى قلوبهم ، ولكن المؤمنين وعلى رأسهم أنس بن النضر صاح يقول: « ماذا تصنعون بالحياة من بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، والتف الصحابة حول الرسول يصدون عنه سهام المشركين ، وكان على رأسهم طلحه بن عبيدالله الذى تلقى حوالى الأربعين سهما والذى قال فيه رسول الله : من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة(١) . وهكذا استبسل كثير من المسلمين فى الدفاع عن الرسول ، وشج رأس الرسول وكسرت رباعيته . وانخدع الكفار بموته عليه السلام ووقفت المعركة واستشهد من المسلمين حوالى السبعين رجلا ، وقد مثلت نساء الكفار بجثث المسلمين ، حتى أن هنداً بنت عتبة زوجة أبى سفيان بقرت بطن حمزة عم الرسول وأخذت كبده فلاكتها حتى إذا عجزت عن أكلها لفظتها (٢) .

وبعد ذلك عاد الرسول إلى المدينة ، وكان هذا أول هزيمة منى بها المسلمون ، إلا أنها كانت درساً قاسياً عليهم كيف يحافظون على مواقفهم ولا ينصرفون إلى الأسلاب ، كما أن هذه الغزوة كشفت عن المنافقين الذين ظهر السرور على وجوههم مثلهم مثل المشركين واليهود .

---

(١) الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة جـ ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) السيدة هند ، بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، هى زوجة أبى سفيان بن حرب . ويرتبط تاريخ هند ارتباطا وثيقا بغزوة أحد ، إذ أنها عمدت خلالها إلى إيذاء المدافعين عن الإسلام ، لأنها وزوجها أبا سفيان وابنها يزيد وأخاه معاوية لم يسلموا إلا يوم فتح مكة .

غزوة الأحزاب (الخندق) سنة ٥ هـ :

فكرت قريش بعد انتصارها فى أحد فى القضاء على محمد قضاء نهائيا ، حتى تتخلص من المسلمين وتستعيد هيبتها ، وانتهزت القبائل الأخرى هذه الفرصة ، فأخذت تعتدى على المسلمين حيثما وجدوا مجاملة لقريش وانتقاما لدينها الوثنى ، أما الرسول فإنه عندما وجد من اليهود نقضهم للمعاهدة بدأ فى طردهم من المدينة(١) ، فلجأوا إلى خيبر حيث أخذوا يحرضون الكفار من قريش وغيرهم ضد الرسول ، واتفقت القبائل العربية واليهود من بنى النضير على المسير للقضاء على محمد . وعندما علم الرسول بمسيرهم استشار أصحابه فيما يفعل ، فأشاروا عليه بحفر خندق حول المدينة يحميها من قريش ، وكان الرسول يعمل فى حفر الخندق بنفسه ، وكان هذا الخندق فى شمال المدينة المنورة لأن باقى جهاتها كان محصنا بالنخيل والمنازل . وعندما أقبلت قريش والأعراب وكان عددهم يربو على العشرة آلاف ، وقف المسلمون فى ثلاثة آلاف ، ووُضِعَ النساء والأولاد فى الحصون ، والخندق يفصل بينهم وبين المشركين(٢) .

وفى أثناء ذلك نقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول واشتد كرب المسلمين ، وظهر كثير من المنافقين الذى كان إسلامهم ضعيفاً ، واستمر حصار الكفار للمدينة شهراً كان الرسول فيه يوصى المسلمين بالصبر ويخفف من آلامهم ، وحاول الرسول أن يفاوض غطفان ليصرفهم عن قريش فيضعف بذلك من قوة الكفار . وفى خلال ذلك جاء نعيم بن مسعود إلى الرسول مسلما . وعرض على الرسول أن يؤدى أية خدمة للإسلام ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : خذل عنا فإن الحرب خدعة ، فذهب نعيم إلى بنى قريظة ولم يكونوا

---

(١) سيأتى تفصيل الكلام على النزاع بين المسلمين واليهود فيما بعد .
(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥٠ — ٥٩ .

قد علموا بإسلامه وأخبرهم أن قريشاً سوف تتركهم تحت رحمة الرسول وعليهم أن يأخذوا رهائن منهم ، ثم جاء إلى الكفار وأخبرهم أن بنى قريظة ندموا على نقضهم عهدهم مع الرسول وأنهم سيطلبون منهم الرهائن لإعطائها إلى الرسول ، وعندما طلبت قريش من بنى قريظة أن تفى بوعدها قال اليهود إنهم لا يحاربون يوم السبت وطلبوا من قريش إعطاءهم رهائن ، فتأكدت قريش من صدق كلام نعيم وثبت لها خيانة بنى قريظة ، ثم هبت ريح صرصر عاتية اقتلعت أوتاد خيام الكفار ، فقرر الكفار الرحيل ، وبذلك نجت منهم المدينة(١) .

هكذا ظهرت عبقرية الرسول العسكرية مرة أخرى ، فلم يكن العرب يعرفون حفر الخنادق قبل ذلك العهد ، حتى إن قريشاً عندما رأت الخندق قالت : « والله إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها »(٢) ، كما أن مقدرة الرسول السياسية ظهرت فى مفاوضة غطفان ووعدهم بثلث غلة المدينة إن هم تخلوا عن قريش ، ثم رجع الرسول عن المفاوضة فظنت غطفان أن مركز الرسول قد تحسن ، كما أن ما قام به نعيم بن مسعود كان له أكبر الأثر فى تخليص المسلمين من مأزقهم الحرج . أضف إلى ذلك ما أبداه الرسول من صبر وماضربه من مثل عليا فى المحافظة على الروح المعنوية بين المسلمين ، ثم انتقم الرسول أشد الانتقام من بنى قريظة . وخرج بعد ذلك لقتال بنى المصطلق الذين كانوا يضمرون له العداء فهزمهم ، ثم تزوج من جويرية بنت الحارث بنت سيد بنى المصطلق حتى لاينضم إليها فلول قومها، فتكون سبباً فى قيام نزاع جديد بين المسلمين وبنى المصطلق ، وأعتق المسلمون أقرباءها من الأسرى ، إكراماً لها لزواجها من رسول الله(٣) .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٩٨ .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٧٨

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٢٥ . الطبرى ج ٣ ص ٦٣ — ٦٦ .

وفى أثناء عودة الرسول إلى المدينة حدث مايسمى بحادثة الإفك . ذلك أن السيدة عائشة تركت هودجها باحثة عن عقدها الذى فقدته ، ولما عادت كانت القافلة قد رحلت دون أن يشعر الركب بتخلفها، وظلت عائشة وحيدة فى ذلك الطريق القفر حتى وجدها صفوان بن المعطل وأوصلها إلى منزلها[١] . إلا أن حاسدات عائشة وأعداء النبي اختلقوا الإشاعات غير البريئة حول ذلك الحادث العارض فتأذى النبي ، وجافَى زوجته عائشة ، إلى أن أوحى له الله ببراءتها[٢] ، ونزلت الآية الكريمة (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كِبره منهم له عذاب عظيم)[٣] ، ثم نزلت آية أخرى تدافع عن المحصنات ، (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون)[٤].

صلح الحديبية (سنة ٦ هـ) :

فى السنة السادسة للهجرة خرج الرسول للعمرة[٥] فى ألف وأربعمائة من المسلمين ، ولكن قريشا وقفت فى الطريق ، فندب الرسول عليه السلام ، عثمان بن عفان لمفاوضة قريش واستطلاع أخبارهم، فحجزته عندها ، وشاع بين المسلمين أنه قتل فتأهبوا لقتال قريش وبايعوا رسول الله بيعة الرضوان

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٣٢–٣٣.

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣٤٢–٣٤٣.

(٣) سورة النور.

(٤) سورة النور.

(٥) العمرة : زيارة بيت الله الحرام فى غير موسم الحج : الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج١ ص١٠٤ .

وقال عليه السلام «لانبرح حتى نناجز القوم» ونزل قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا)(١) . وبينما المسلمون على استعداد للقتال، علموا أن عثمان لم يقتل ، وجاء عثمان إلى المسلمين وأبلغ الرسول أن قريشا تطلب رجوعه هذا العام ، ثم أوفدت قريش سهيل بن عمرو لمفاوضة الرسول ، وتم بين الرسول وسهيل الاتفاق الآتى ، وهو المعروف بصلح الحديبية : —

١ — أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنوات .

٢ — أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلما بدون إذن وليه .

٣ — لا تلتزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد .

٣ — من أحب الدخول فى عقد قريش وعهدها فله ذلك ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه .

٥ — أن يرجع الرسول هذا العام من غير عمرة ، على أن يأتى فى العام التالى فيدخل مكة مع أصحابه بعد أن تخرج منها قريش ويقيم فيها ثلاثة أيام وليس معهم من السلاح إلا السيوف .

وعند مافرغ الرسول من عقد صلح الحديبية ، رأى المسلمون أن فيه تساهلا كبيرا من ناحية الرسول وتشددا من ناحية قريش، فقام عمر بن الخطاب وقال للرسول عليه السلام : ألست رسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى(٢) . ثم قال الرسول لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا فلم يقم منهم

---

(١) سورة الفتح

(٢) الطبرى ج ٢ص ٧٩

أحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام الرسول فدخل على أم سلمة(١) وذكر لها ما لقى من الناس وما كان من مخالفتهم لأمره ، فقالت له : يانبي الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام الرسول ولم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا(٢) . وهكذا ضربت أم سلمة مثلا أعلى فى أصالة الرأى وبعد النظر ، وتفادت فتنة كاد الشيطان يفلح فى تغذيتها ، لولا حكمة أم سلمة وتمسكها بدينها وبعد نظرها(٣) .

ولقد كان الرسول سياسياً بعيد النظر فى عقده هذا الصلح : إذ أنه أمن جانب قريش لمدة عشر سنوات ، أخذ فى أثنائها ينشر الدعوة الإسلامية فى بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية . وكان عليه السلام عبقريا فى قبوله بعض شروط الصلح ليقينه بأنه إذا ذهب مسلم إلى قريش ليرتد عن دينه فإن الإسلام غنىّ عنه ، ولأنه لم يكن يهتم بدخول أفراد من قبيلة قريش فى الإسلام لأن الدين عقيدة خافية فى النفس لا تستطيع القوة منعها ولأن الرسول اتجه نحو نشر الإسلام بين القبائل الأخرى تاركا قريش جانبا بعدما أشعرها بقوة

---

(١) تعد أم سلمة من أشرف نساء العرب نسبا وأكرمهن أصلا . زوجة رجل من المسلمين المجاهدين يدعى أبا سلمة ، وكان لها منه أبناء عدة . وشهد هذا الرجل غزوة أحد وجرح فيها ثم برىء من جرحه فأرسله النبي عليه السلام لمحاربة بنى أسد فهزمهم وعاد للرسول منتصرا ، ومالبث أن عاوده جرحه القديم ومازال به حتى قضى عليه . وحضره رسول الله عليه السلام وهو على فراش الموت ، وظل الى جانبه يدعو له بالخير حتى فاضت روحه . ومرت بعد هذا أربعة أشهر خطب بعدها رسول الله أم سلمة لنفسه ، فاعتذرت بكثرة العيال وبتخطيها سن الشباب ، ولكن الرسول مازال بها حتى تزوج منها . وامتد العمر بأم سلمة حتى عهد يزيد بن معاوية فى الدولة الأموية ، فشهدت الكثير من حوادث المسلمين وحضرت بعض وقائعهم .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٨٠ .

(٣) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٣٨ .

المسلمين ومقدرتهم العسكرية، وعندما بدأ الرسول فى سيره راجعا إلى المدينة المنورة نزلت سورة الفتح : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفرلك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا) . بذلك اعتبر صلح الحديبية نصراً جديداً وفتحاً مبينافى الإسلام ودل على مقدرة الرسول السياسية ، إذ أن هذه أول مرة تعترف فيها قريش بالرسول ، كما أنها بسماحها للرسول بزيارة مكة فى العام التالى إنما كان اعترافا منها بكيان المسلمين باعتبارهم قوة ذات خطر بعد أن كانوا يعذبون ويشردون .

بين الرسول واليهود :

عند هجرة محمد عليه السلام إلى المدينة ، عقد مع اليهود محالفة تنص على أن ينفق اليهود مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، وأنه لا يخرج منهم أحدا إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم . . . وأن من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته (١). بذلك شرط الرسول عليه السلام لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين من حيث المصلحة العامة ما داموا محافظين على العهود والمواثيق ، كما فتح الطريق لمن يرغب منهم فى اعتناق دين الإسلام ، وكفل لهم التمتع بجميع الحقوق التى يتمتع بها كافة المسلمين . وكان بالمدينة من اليهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، كل منهم يعيش فى بقعة من أخصب بقاع المدينة . ورغم ما عاملهم به الرسول من رفق ولين ، فإنهم دأبوا على نقض العهد : لأنهم كانوا ينظرون إلى دعوة الرسول بعين الشك والريبة ، بل إنهم كانوا يصرحون بالشك فى رسالة النبى لأنه من سلالة

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٩٤ـ٩٨

- بية والنبوة لا تظهر إلا فيهم ، كما أن الأديان السماوية نزلت فى بلاد الشام وليس فى بلاد العرب . وصاروا يهاجمون دعوة الرسول ، ويقللون من أهميتها ويتشككون فى قيمتها حتى قال الله تعالى : (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده)[1] .

ولم يكتف اليهود بمهاجمة دعوة الرسول عليه السلام ، بل إنهم أخذوا يذكرون العرب بثأرهم القديم ، وبما كان بينهم من نزاع وقتال ، وبما كان بين الأوس والخزرج من تشاحن وبغضاء ، وحينما وقعت موقعة بدر ، انضم بنو قينقاع إلى الكفار من قريش ونقضوا عهدهم مع الرسول مؤملين فى نصرة الكفار ، ولكن عندما نصر الله الإسلام وأعز المسلمين وهزمت قريش فى بدر رجع الرسول عليه السلام إلى المدينة ، واليهود ما زالوا يذكرون قتلى الكفار ويعرضون بالمسلمين . ولم يكن لقبيلة بنى قينقاع من حصون أو معاقل تحتمى بها بل كانت لهم بساتين وأشجار ، وكان كلما عاتبهم الرسول قالوا له : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » . ولما لم يجد الرسول بدا من إجلاء هذه القبيلة عن المدينة ، حاصرهم قرابة نصف الشهر حتى رضخوا لأمره ، وعند ما شفع فيهم عبد الله بن أبى ، قَبل الرسول عليه السلام شفاعته ، وأمرهم بمغادرة المدينة ، فأذعنوا لأمره ورحلوا عنها تاركين وراءهم سلاحهم وأموالهم ، واتجهوا إلى أذرعات بالشام . وهكذا خلت المدينة من اليهود لأن بنى النضير وبنى قريظة كانوا بظاهر المدينة ، فتمت بذلك الوحدة السياسية للمدينة .

---

(١) سورة البقرة .

أما بنو النضير فقد ساءت العلاقة بينهم وبين المسلمين عقب غزوة أحد، إذ أن الرسول كان قد أوفد أربعين رجلا من الأنصار ويسمون بالقرّاء لنشر الإسلام فى نجد، وأمر عليهم المنذر بن عمرو فنزلوا عند بئر معونة فى أثناء سيرهم، وكان هذا البئر لبنى عامر، وأرسل المنذر حَرام بن مِلْحان إلى عامر بن الطُّفَيل بكتاب رسول الله فقتله عامر، ثم استعان ببنى سليم لمقاتلة القراء فلم ينج منهم إلا عمرو بن أمية(١)، وفى أثناء رجوع عمرو إلى المدينة قابله فى الطريق رجلان من بنى عامر، كان الرسول قد أعطاهما جواراً وأمانا، ولكن عمرو بن أميه قتلهما انتقاماً لمقتل المسلمين. ولما علم الرسول بذلك قال لعمرو: «بئس ما صنعت، قتلت رجلين كان لهما فىّ أمان وجوار». وأرسل عامر بن الطّفيل يطلب دية هذين الرجلين، فذهب الرسول ومعه كبار الصحابة إلى بنى النضير يستعين بهم فى دفع دية هذين الرجلين، لأن بنى النضير كانوا حلفاء بنى عامر، فقابلوه بترحاب وبشر، وبينما الرسول جالساً تحت جدار أحد المنازل، إذ خلا اليهود بعضهم إلى بعض وقالوا: ألا مِن رجل يعلو على هذا البيت فيلق عليه حجرا فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحّاش: أنا لذلك، ثم صعد ليلقى بالحجر على الرسول، فأعلم الله رسوله بما يأتمر له اليهود، فقام من فوره ورجع إلى المدينة تاركا أصحابه ولم يخبر أحداً منهم، وعند ما استبطأ الصحابة عودة الرسول، قاموا ولحقوا به بالمسجد فى المدينة. فأخبرهم بما رابه من أمر اليهود، وبعث الرسول إلى اليهود محمد بن مسلمة فقال له: إذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم: إن رسول الله أرسلنى إليكم أن أخرجوا من بلادى. لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى. لقد أجلتكم عشرا،

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٤٤ — ٤٥. الطبرى ج ٣ ص ٣٣ — ٣٦.

فمن رُئى بعد ذلك ضربتُ عنقه » . فبدأ اليهود يجهزون لرحيلهم . ولكن رأس النفاق عبد الله بن أبى أرسل لليهود يقول لهم : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم . وتشاورت بنو النضير فى قول ابن أبى ، فأرسل حيى بن أخطب زعيمهم إلى الرسول يقول له : إنا لن نخرج من ديارنا وأموالنا ، فاصنع ما بدالك . ومرت الأيام العشرة دون أن تخرج بنو النضير من المدينة ، فحاصرهم الرسول وحاربهم عشرين ليلة وأمر بتحريق نخيلهم حتى تفل عزيمتهم عن القتال استمساكا بأموالهم ، وفى ذلك نزلت الآية الكريمة : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين)(١) .

لما يئس اليهود من القتال طلبوا العفو من الرسول وجلوا عن المدينة ، وقسم الرسول أموالهم على المسلمين(٢) . ونزلت الآية الكريمة فى ذكر المنافقين وجلاء بنى النضير : (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجَنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، ولئن قوتلتم لننصُرنّكم والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليُوَلن الأدبار ثم لا يُنصرون ، لأنتم أشد رَهْبة فى قلوبهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون)(٣). وهكذا استراحت المدينة المنورة من بنى النضير ، كما استراحت من قبل بجلاء بنى قينقاع ، ولم يبق بالمدينة إلا بنو قريظة .

وعندما وقعت غزوة الأحزاب ، رأى الرسول أن بنى قريظة نقضوا

---

(١) سورة الحشر .
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٥١ .
(٣) سورة الحشر .

عهده ونكثوا بالأيمان ، فعزم على طردهم . فلم تكد الأحزاب تجلو عن المدينة حتى أمر الرسول عليه السلام مؤذنا أن يؤذن : من كان سميعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة . فتلاحق المسلمون وخرج على بن أبى طالب بالراية ، وحاصرهم الرسول خمسة وعشرين يوما ، حتى خضعوا لأمره ، ونزلوا على حكمه ، وسأل بنو قريظة حلفاءهم الأوس أن يتشفعوا لهم لدى الرسول ، فقال الأوس للرسول : يا رسول الله : إنهم كانوا موالينا ، فقال الرسول : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ بلى ، قال : فذاك إلى سعد بن معاذ . فلما جاء سعد قالوا له : يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين إن الحكم فيهم لما حكم ، فأجابوه وأجابه الرسول : أن نعم ، قال سعد : وإنى أحكم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء فقال له رسول الله : لقد حكمت فيهم بحكم الله ، ثم حفرت الخنادق ، وضرب المسلمون أعناق اليهود جميعا وكانوا نحوا من سبعمائة ، ولم تقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة تسمى بُنانة زوجة الحكم القرظى لقتلها خلاد بن سويد برحى طرحتها عليه ، فمات فقتلها الرسول(١) ، وقسمت أموال اليهود بين المسلمين .

غزوة خيبر (سنة ٧ هـ) :

ولم يأمن الرسول شر اليهود بعد خروجهم من المدينة ، ذلك أن اليهود اجتمعوا فى خيبر بعد خروجهم من المدينة ، وانضمت إليهم قبائل بنو قينقاع والنضير وقرروا أن يغيروا على المدينة لمداهمة المسلمين . وكان يتزعم اليهود ،

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٠ . الطبرى ج ٣ ص ٥٩ .

يهود خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى . وعندما علم الرسول عليه السلام بذلك ، رأى أن يهاجم اليهود فى عقر دارهم ، واستعد لغزوهم فى السنة السابعة من الهجرة . وأمر أصحابه أن يستعدوا لغزو اليهود لإجلائهم عن شبه الجزيرة العربية جمعاء ، وأمر ألا يخرج معهم إلا كل راغب فى الجهاد ، وسار بجيش المسلمين حتى وصل خيبر ليلا(١) ، وكان اليهود فى هذه الفترة يقيمون داخل حصونهم ومعاقلهم . وعندما أصبح الصباح ، وبدأ اليهود يتأهبون لعملهم ، فاجأهم المسلمون ، واضطرب اليهود فولى فريق منهم هاربا(٢) . ثم دارت معركة حامية الوطيس بين اليهود والمسلمين ، يدفع المسلمين للقتال حب الجهاد فى سبيل الله والقضاء على معقل اليهود الأخير ، ويدفع اليهود إليه حب العيش والبقاء . ولم يكن اليهود يتركون حصنا من حصونهم إلا بعد دفاع مستميت ، وكان منهم مَرْحب اليهودى الذى أخذ ينشد :

قد علمت خيبر أنىّ مرحبُ   شاكى السلاح بَطَلٌ مُجرَّبٌ
أطعن أحياناً وحينا أضرب   إذا الليوث أقبلت تحرب
إن حماى الحمى لا يُقرَبُ   يحجمُ عن صولتى المُجرَّبُ

فانبرى له محمد بن مسلمة وقتله ، وظلت المعركة سجالا بين الفريقين حين انتصر المسلمون فى النهاية واستولوا على أرض خيبر ، وبذلك قضى رسول الله على شر اليهود فى بلاد العرب وسمح لبعضهم بالبقاء فى خيبر ، إذ أنهم سألوا رسول الله أن يبقيهم فى أرضهم لزراعتها لأنهم أعلم بها وأعمر لها ، فقبل الرسول وسمح لهم باستغلالها على أن يكون للمسلمين نصف غلتها .

---

(١) الترمذى ص ١٩٨ .
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٧١

هكذا تخلص الرسول من اليهود . وتظهر هنا حكمة الرسول السياسية وبعد نظره الاقتصادى ، فإن بعض أراضى اليهود قد فتحت عنوة وبعضها قد فتح صلحا ، فأما النوع الأول فقد أصبح ملكا للمسلمين ، أما النوع الثانى فقد رضى الرسول ببقائه فى أيدى أصحابه إذ فيه مصلحته ومصلحة المسلمين لأن المسلمين لم يكن بينهم عدد كاف للزراعة والحرب . فبقاء هذه الأرض فى أيدى اليهود يوفر كثيراً من المسلمين لأعمال الحرب والجهاد . وقد ظل اليهود فى هذه الأرض حتى جاء الخليفة عمر بن الخطاب فأجلاهم عن أراضيهم ، قائلا إن الرسول عليه السلام قال : لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان وأعطى اليهود عوضا عن هذه الأراضى أرضاً فى بلاد الشام ، وكان الرسول عليه السلام يرسل المندوبين لجمع المحصول من هذه المستعمرات ، وبذلك تمكن عليه الصلاة والسلام من تعميم الإسلام فى شبه الجزيرة العربية كلها ولم يبق بها إلا مكة والطائف .

رسل محمد عليه السلام إلى الملوك :

انتهز الرسول فرصة الهدنة مع قريش وأخذ فى إرسال الرسل والخطابات إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، والاهتداء بنوره ، والابتعاد عن الوثنية وغيرها من الديانات . فأرسل دحية بن خليفة الكلبي برسالة إلى هرقل فتقبلها هرقل قبولا حسناً ، وجاءه فى هذه الأثناء رسول من الحارث الغسانى يخبره أن رسولاً جاء من قبل محمد عليه السلام يدعوه إلى الإسلام ، وأراد الحارث أن يذهب لمحاربة النبي ، ولكن هرقل منعه من ذلك .

وأرسل الرسول عليه السلام عبدالله بن حذافة السهمى إلى كسرى ، ولكن كسرى ثار عندما سمع برسالة محمد ، ذلك لأنه كان يحكم الفرس بذلك الحق الملكى

المقدس ، وشعر أن هذا الدين سيهدم كيانه ويزلزل مكانته بين الشعب ، فأرسل إلى باذان عامله على اليمن يقول له : « إبعث إلى هـذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به » فبعث باذان برجلين من عنده ، وعندما قابلوا الرسول أخبرهم نبأ مقتل كسرى على يد ابنه شيروية . فلم يصدق الرجلان الخبر وهددا الرسول ، ولما عادا إلى باذان علما بالنبأ ، فقال باذان : إن هذا الرجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن (١) .

وأرسل الرسول عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ، وقد كانت العلاقات بينهما طيبة ، منـذ أن هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة فرد ردا طيبا . كما أنه أرسل ـ بنـاء على طلب الرسول ـ المسلمين الذين كانوا بالحبشة وجهزهم بسفينتين على رأسهما جعفر بن أبى طالب ، وقد فرح الرسول برجوعهم فرحا شديداً ، حتى قال إنه لايدرى بأى هو أشد اغتباطا : بالنصر على خيبر أم بلقيا جعفر .

وأرسل عليه السلام كذلك إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، فرد المقوقس رداً جميلا إذ أرسل إلى الرسول يخبره أنه يعتقد أن نبيا سيظهر ولـكنه يعتقد أنه سيظهر فى بلاد الشام ، وبعث إلى النبى بهدية طيبة منهـا جاريتان وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض خيرات مصر ، فتزوج الرسول من مارية التى ولدت له ابراهيم (٢) ، وقد قيل إن المقوقس خشى أن يسلم خوفا من أن يسلبه هرقل مركزه وسلطانه .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٩٠

(٢) لم يأت عفوا زواج محمد عليه السلام ، ممن تزوج بهن من فضليات النساء ، بل كان الدافع له هو جمع القبائل العربية تحت لواء الإسلام وتقريب زعمائها إلى الرسول. وكان زواجه من السيدة مارية القبطية المصرية ، تأليفا لقلوب القبط وحفزا لهم على اعتناق الإسلام . ولجأ =

هكذا أخذ الرسول ينشر الإسلام فى بقية أجزاء شبه الجزيرة وخارجها، وكان رد معظم الملوك والأمراء طيبا، حتى بلغ الحال ببعض المؤرخين إلى القول بإسلام النجاشى والمقوقس.

عمرة القضاء:

مر العام بعد صلح الحديبية، فأمر الرسول المسلمين أن يستعدوا للذهاب إلى مكة ليزوروا البيت الحرام، وقد لبى نداء الرسول جمع غفير من المسلمين وخاصة المهاجرون الذين كانوا يتمنون هذا اليوم منذ أمد بعيد فقد ظلوا سنوات سبعاً بعيدين عن مكة، وأما الأنصار فقد كانوا يودون زيارة المسجد الحرام كما كانت لهم تجارة مع قريش ومكة. وبلغ عدد المسلمين قرابة الألفين، ولم يحملوا معهم إلا سيوفهم، وقد احتاط الرسول خوفا من غدر الكفار فجهز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مَسْلَمَة.

سار هذا الجمع الكبير من المدينة متجها إلى مكة لقضاء العمرة، وعندما علمت قريش بمقدم الرسول وصحبه تنفيذا لصلح الحديبية، خرجت من مكة وضربت خيامها على التلال المجاورة، واتجه المسلمون إلى مكة، يحف كبار الصحابة بناقة الرسول. وعندما رأى المسلمون البيت الحرام نادوا جميعاً: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ. وكان لهذه المظاهرة الكبرى أثر كبير فى نفوس كثير من المشركين، فلم يلبثوا أن جاءوا رسول الله مسلمين. وقد طاف الرسول والمسلمون بالكعبة، وعندما أتموا طوافهم انتقلوا إلى الصفا ثم نحروا الهدى،

= الرسول إلى نشر الديانة الإسلامية خارج الجزيرة العربية، وبعث الرسل لذلك إلى المقوقس، الذى استقبل رسول محمد إليه بالبشر والترحاب، ولكنه لم يجبه إلى ما طلبه الرسول من العمل على نشر الدين الإسلامى، وأرسل له عدة هدايا من بينها السيدة مارية، التى كانت من نصيب الرسول، ووهب شقيقتها سيرين « الجارية الثانية » لشاعره المجيد حسان بن ثابت.

وقام بلال مؤذن الإسلام وأذن للظهر فى اليوم التالى من فوق الكعبة ، وأقام الرسول بمكة ثلاثة أيام زار فيها المهاجرون دورهم ، وتزوج الرسول بآخر زوجاته السيدة ميمونة وهى شقيقة زوج العباس . وقد أسلم بعد هذا الحادث مباشرة خالد بن الوليد سيف الله المسلول وعمرو بن العاص وعثمان ابن طلحة وكثير غيرهم ، ممن بهرت أنظارهم قوة الإسلام والمسلمين .

غزوة مؤتة (سنة ٨ هـ) :

رجع الرسول إلى المدينة المنورة بعد ذلك ، وأخذ فى إرسال بعض القوات الصغيرة لنشر الإسلام ، ثم وجه ثلاثة آلاف من المسلمين إلى مؤتة وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال « إن أصيب زيد ، فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » .

سار الجيش ومعه خالد بن الوليد متطوعا . ولما علم الروم بمقدم الجيش أخذوا يعدون له ويجهزون حتى استعدوا بجيش كبير ، بلغ عدده حوالى مائتى ألف ، والتقى الفريقان عند مؤتة ، وحمل زيد راية الرسول وحارب حرب الأبطال حتى استشهد ، فحمل الراية بعده جعفر وظل يحارب حتى قطعت يمينه ثم حارب بشماله فقطعت فاحتضن الراية بعضده حتى قتل ، فأخذ الراية ابن رواحة واستبسل فى القتال حتى استشهد بدوره ، فأخذ الراية من بعده - باختيار المسلمين - خالد بن الوليد وكان قائداً ماهراً محنكا فتمكن بمهارته من الانسحاب بالمسلمين بسلام حتى رجع إلى المدينة .

غزوة الفتح (فتح مكة سنة ٨ هـ) :

ظل الرسول يأمل أن يفتح الله عليه ويتم نعمته بفتح مكة ، ولكن صلح الحديبية كان يمنع الرسول من مهاجمتها . وظلت الحال كذلك حتى كانت السنة الثامنة للهجرة إذ نقضت قريش هذا الصلح بإغاثتها قبيلة كنانة حليفتها

ضد خزاعة حليفة الرسول فى حرب وقعت بينهما . وحين سمع الرسول باستنجاد خزاعة ، سار إلى مكة فى السنة الثامنة للهجرة ، على رأس نحو من عشرة آلاف من المسلمين ما بين فارس وراجل ، وما أن سمع كبراء قريش بمقدم هذا الجيش الكبير حتى جاءوا هائمين على وجوههم متجهين إلى الرسول: فكان منهم العباس بن عبد المطلب الذى كان سفيراً لقريش عند الرسول ، وأبو سفيان زعيم قريش الأكبر الذى شفع فيه بعض الصحابة حتى قبل الرسول إسلامه بل وأكرمه النبي بقوله « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن[1] ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن » .

هكذا دخل الرسول مكة فى سهولة ويسر ، واتجه إلى المسجد الحرام حيث طاف به سبع مرات ثم أمر بإزالة التماثيل والصور وهو يقول : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)[2] . واجتمعت قريش بين يديه ، فقال لهم : يامعشر قريش ! ماذا تظنون إنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء .

بهذا عفا الرسول عنهم جميعاً ، ودخل مكة ـ بعد ثمانى سنوات من خروجه طريداً ـ دخول المنتصر الفاتح ، فهدم أصنامها وأزال ما بها من آثار الكفر والوثنية ، وكان ذلك تنفيذاً لكلمات ربه : (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم)[3].

ولقد كان لهذا الفتح أكبر الأثر فى انتشار الإسلام : فإن استيلاء الرسول على الكعبة بعد اتجاه القبلة نحوها ، جذب كثيراً من القبائل العربية للإسلام ،

---

(١) تتضح من ذلك قيمة أبى سفيان فى المجتمع العربى ، حتى سوى الرسول بين بيت أبى سفيان وبيت الله ، وهو شرف عظيم .

(٢) سورة الإسراء .

(٣) سورة التوبة.

كما أخضع الرسول ما تبقى من البدو من مسيحيي نجران وعمان وغيرهما ، ولم يأت عام ١٠ هـ حتى كانت البلاد العربية كلها تدين بالإسلام ، ودالت بذلك دولة الكفر .

غزوة حنين (سنة ٨ هـ) :

لم يكد الرسول يقضي خمسة عشر يوما فى مكة ، حتى علم باستعداد ثقيف وهوازن لمحاربته وعلى رأسهم مالك بن عوف ، ذلك الرجل الذى حشد ماله ونساءه وأطفاله خلف الجند حتى يمنعهم من الفرار ونزل عند حنين . وخرج رسول الله على رأس إثنى عشر ألفا من المسلمين من مهاجرين وأنصار . وما كاد ينبعث ضوء الفجر ويلوح حتى فاجأ الكفار المسلمين ، فاختل نظامهم واضطربت حالتهم وصارت كيوم أُحُد ، ويشير الله تعالى إلى هذا بقوله : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ،ويومَ حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)[1] . واحتدم الوطيس وصار الرسول ينادى : أين أيها الناس ؟ هلموا إلىّ ! أنا رسول الله محمد بن عبدالله ، وساءت الحال فنادى العباس بصوت جهورى وتسارع المسلمون نحو الرسول ، وعند ما وضح ضوء النهار وخرج الكفار من مكامنهم استبسل المسلمون فى القتال ، حتى قال الرسول : الآن حمى الوطيس ، وتقهقر الكفار وانتصر المسلمون ، وفر مالك بن عوف ببعض الكفار إلى الطائف ، وتفرق شمل الآخرين ، فتبع المسلمون من فر ، وذهب الرسول إلى الطائف فحاصرها ،

---

(١) سورة التوبة .

وتراشق الفريقان بالنبال ، واستعمل الرسول المنجنيق[١] لأول مرة فى الحرب ، كما استخدم الدبابات والضبور ، وهددوا الرسول بقطع البساتين والأشجار ، ثم حل شهر ذى القعدة فرجع الرسول عنها وفك الحصار حتى تنتهى الأشهر الحرم ، ولكن ثقيفا وجدت نفسها محاصرة بالمسلمين من كل الجهات ، فلقد انتشر الإسلام وعم جميع أرجاء شبه الجزيرة ، فجاءت وفودهم ووفود هوازن إلى الرسول مسلمين ، وأعطى الرسول إلى هوازن ماأخذه منها من النساء والولد[٢] . وفرق الأموال على قريش حتى ظن الأنصار أن الرسول قد تركهم ورجع إلى أهله ، ولكن النبى بحكمته رأى أن قريشا حديثة عهد بالإسلام وإن إعطاءهم مثل هذه الغنائم يشعرهم بأن فى الدين الجديد سعادة فى الدنيا والآخرة . أما الأنصار فقد قال لهم الرسول : أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رجالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، فقال الأنصار : رضينا برسول الله قسما وحظا[٣] .

غزوة تبوك (سنة ٩ هـ) :

وفى السنة التاسعة للهجرة ، اجتمعت على حدود فلسطين قبائل عديدة من الروم لقتال المسلمين ، فخرج إليهم الرسول بجيشه حتى ترك تبوك على حدود الشام وأقام بها ، فصالحه أهلها ، ثم جاءته وفود القبائل مسلمة ، وأرسل بخالد

---

(١) راجع فى تفسير : المنجنيق ، والدبابة ، والضبور ، باب « نظم الحكم » .
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣٠٣ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ١٣٩ .

ابن الوليد إلى دومة الجندل ففتحها وعاد الرسول بعد ذلك إلى المدينة ، وتعتبر هذه الغزوة آخر الغزوات النبوية .

وفى سنة ٩ هـ وفدت إلى المدينة وفود كثيرة من أنحاء الجزيرة ، فسمى هذا العام بعام الوفود(١) ، ونزلت الآية الكريمة : (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد الله واستغفره إنه كان توابا) (٢) .

حجة الوداع ووفاة الرسول :

وفى السنة العاشرة من الهجرة ، خرج الرسول فى حوالى مائة ألف من المسلمين إلى المسجد الحرام ، وعند جبل عرفات ألقى على المسلمين خطبته الخالدة التى تعتبر دستور الإسلام ، فقد بين فيها رسول الله أصول الدين الإسلامى وشرعه ونادى بالمساواة التامة بين الناس بقوله : أيها الناس ! إسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف أبداً ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ... أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » ، وقد تم القرآن بنزول الآية الكريمة فى ذلك الوقت : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)(٣) .

ولم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول عليه الصلاة والسلام بالحمى ، وعندما علم الأنصار باشتداد مرض النبى أحاطوا بالمسجد ،

---

(١) ابن هشام جـ٤ ص ٢٠٥ .
(٢) سورة النصر
(٣) سورة المائدة .

فخرج الرسول وجلس على المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه عليه : أيها الناس! بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم . هل خلد نبى قبلى من بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى وأنكم لاحقون بى . فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول (والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . . . وأوصيكم بالأنصار خيراً ، فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم ، أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ... إلى أن قال : ألا وإنى فرَطٌ لكم وأنتم لاحقون بى . ألا فإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف لسانه إلا فيما ينبغى .

ثم ازدادت الحمى على رسول الله ، حتى انتقل إلى جوار ربه فى يوم الإثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيه سنة ٦٣٢ م) ، وهو فى الثالثة والستين من عمره(١) .

حزن المسلمون لوفاة الرسول حزنا عميقا ، ولم يصدق بعضهم وفاته ، حتى إن عمر بن الخطاب ذهل من هول الخبر فنسى آيات ربه وقال : « إن رجلا من المنافقين زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب كما ذهب موسى ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقطع أيدى رجال زعموا أنه مات » . إلا أن أبا بكر دخل

---

(١) ابن سعد ج ٨ ص ١٢١ .

على الرسول وكشف عنه وقال : بأبى أنت وأمى ؛ طبت حيا وطبت ميتا ؛ وانقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة . . . ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشجون ... اللهم فأبلغه عنا السلام ؛ أذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم نقم ما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا » . ثم خرج للناس وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين . ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وأن الله قد تقدم إليكم فى أمره ، فلا تدعوه جزعا وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر(١) . واجتمع الناس لدفن الرسول ، وقال أبو بكر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مادفن نبى إلا مكانه الذى توفى فيه ، فحفر له فيه (٢) .

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٤٦٧ . الطبرى جـ ٣ ص ١٩٧–١٩٨ .
(٢) ابن هشام جـ٣ ص ٤٧٦ .

ثانياً ـ الخلفاء الراشدون

١١ — ٤٠ هـ = ٦٣٢ — ٦٦١ م

مبدأ ونهاية حكم الخلفاء الراشدين :

السنوات الهجرية	الخلفاء الراشدون	السنوات الميلادية
١١	أبو بكر الصديق	٦٣٢
١٣	عمر بن الخطاب	٦٣٤
٢٣	عثمان بن عفان	٦٤٤
٣٥ — ٤٠	على بن أبى طالب	٦٥٠ — ٦٦١

أزمة الحكم بعد وفاة الرسول :

كان لشخصية الرسول أثر كبير فى نفوس العرب حتى أنهم لم يصدقوا موته عندما علموا به ، فلما تحققوا من ذلك ، شك فريق منهم فى أمر هذا الدين الذى أتى به ، وارتد كثير منهم عن الإسلام لأنه لم يكن قد تمكن من قلوبهم بعد ، فأخذ كبار الصحابة يفكرون فى أمر المسلمين ليواجهوا الموقف الجديد ورأوا أنه لابد للمسلمين من رئيس يتولى شئونهم ويتدبر أمورهم .

وقد اختلفت آراء المسلمين فيمن يتزعمهم وظهرت بينهم روح التعصب القبلى ، وأخيراً استقر الرأى على أن يكون للرسول خليفة ، يأمر بالعدل وينهى عن المنكر ويؤم الناس فى الصلاة . ولكن الصحابة اختلفوا فى كيفية اختياره : لأنه لم يؤثر عن الرسول نص صريح يشير فيه إلى مسألة الحكم من بعده ، كما أن القرآن لم يشر إلى نظام الحكم بعد وفاته .

وكان من أثر ذلك أن ظهر الانقسام بين صفوف المسلمين ، واشتدت وطأة هذه الأزمة السياسية ، وتسابقت القبائل والبطون ليكون لها الأمر دون غيرها وتكشف ما فى الصدور ، وتجلت النفس العربية والطبيعة القبلية ، فكان الأوس والخزرج يخشى كل منهما صاحبه ويخافون المهاجرين ، حتى إذا كثرت المناقشات تصدى لحلها بعض زعماء المسلمين من أمثال : أبى بكر وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح(١) .

١ — أبو بكر الصديق

١١ — ١٣ هـ = ٦٣٢ — ٦٣٤ م

بيعة السقيفة :

ذهب الأنصار إلى سقيفة بنى ساعدة ليختاروا من بينهم خليفة للمسلمين ، وقد خطبهم سعد بن عبادة زعيم الخزرج فقال : « يامعشر الأنصار ! إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب » ، وأوضح لهم أنهم أحق بالخلافة من غيرهم ، واتفقت كلمتهم على اختياره . غير أن كبار الصحابة أمثال أبى بكر وعمر وأبى عبيدة عندما علموا باجتماع الأنصار ، أسرعوا إليهم واشتركوا معهم فى المناقشة واقنعوهم بضرورة اختيار الخليفة من قريش بحجة أن العرب لا يدينون إلا للقرشيين . وقد حاول الأنصار أن يقتسموا السُلطة بأن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير ، ولكن رفض طلبهم ولم يلق قبولا .

عرض أبو بكر على الحاضرين أن يختاروا واحداً من إثنين هما : عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ، ولكن عمر بن الخطاب خشى أن يترك الناس فيختلفوا

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم بك والدكتور على ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٣٣ .

ويضيع الأثر الذى أحدثه كلام أبى بكر ، فقام إلى أبى بكر وبايعه بالخلافة(١) ، وقال له : « ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ، فأنت خليفة ، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول منا جميعاً » . وقد قال عمر بن الخطاب إنه أشفق من أن يختلف المسلمون فقال لأبى بكر : « ابسط يدك أبايعك ، فبسط أبو بكر يده ، فبايعه عمر ومن بعده المهاجرون والأنصار ، وقد أضاف عمر إلى قوله : « وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبى بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة ، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى أو نخالفهم فيكون فساد »(٢) .

وبعد أن بايع عمر أبا بكر ، تبعه الحاضرون فى اجتماع السقيفة ، وقد ساعد على إتمام هذه البيعة خوف الأوس من أن تكون الخلافة فى الخزرج أعدائهم القدماء ، وهذه البيعة تسمى البيعة الخاصة ، وفى اليوم التالى أخذ أبو بكر(٣) البيعة فى المسجد وتسمى البيعة العامة ، وبذلك أصبح خليفة المسلمين .

كان أبو بكر يسمى فى الجاهلية عبد الكعبة (٤) لأن الكعبة كانت رمز العبادة فى الجاهلية ، وسماه الرسول عبدالله ، وسمى بالصديق لأنه أول من صدق برسالة الرسول من الرجال . وهو من كبار رجال العرب فى الجاهلية ، وكان يفصل فى بعض القضايا ، وأنفق معظم ثروته فى نشر الإسلام ، وقد أسلم على يده كثير من العرب أشهرهم : عثمان بن عفان والزبير بن العوام

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٥ — ٣٣٩ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٣) هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى . ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) دحلان : السيرة الحلبية ص ١١٠ .

وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله ، وكان أبو بكر رفيق الرسول وساعده الأيمن فتحمل كثيرا من العنت وتعرض لكثير من الأخطار ، وكان رفيقه فى الغار يوم هاجر من مكة إلى يثرب ، وكان الرسول يثق فيه ويستشيره فى خواص الأمور حتى أنه قال فى آخر خطبة له «... إنى لا أعلم أحداً كان أفضل عندى فى الصحبة يداً منه »(١) .

ورغم ذلك فقد تخلف على بن أبى طالب عن مبايعة أبى بكر ، لاعتقاده بأحقيته عنه فى الخلافة : فهو أول من اعتنق الإسلام من الصبيان ، وهو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته فاطمة التى ولدت له الحسن والحسين ، كما أنه يمتاز بشجاعته وفروسيته . وتأخرت بيعة على لأبى بكر حتى قيل إنها حدثت بعد أربعين يوماً من اختياره خليفة ، وقيل إنها وقعت بعد ثلاثة أشهر ، وفى رأى آخر أنها تمت بعد ستة شهور . وناصر عليا فى موقفه العباس وطلحة والزبير .

وبعد أن أخذ أبو بكر البيعة فى المسجد ، خطب الحاضرين خطبته المشهورة فقال : « أيها الناس ! إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدفت فقوّمونى . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ١٩٢ .

حركة المرتدين :

لم يصدق الناس خبر موت الرسول ، وتسرب الشك إلى نفوسهم ، واستبعدوا أن يكون الشخص الذى أحدث هذا الانقلاب العظيم فى التاريخ بشراً يجوز عليه الموت ، وحدث الهرج والمرج بين الناس لما تحققوا خبر موت الرسول ، ووجد أغلب العرب الفرصة سانحة للخروج على سلطان قريش ، فامتنعوا عن دفع الزكاة وعرف هؤلاء باسم المرتدين ، ولم يبق مخلصاً للإسلام ومطيعاً لأبى بكر إلا سكان المدينة ومكة والطائف . وينقسم المرتدون إلى قسمين : قلة تريد العودة إلى رذائل الجاهلية ، وكثرة لا تعترف بالزكاة مع اعترافها بسائر تعاليم الإسلام .

وقد هزت حركة المرتدين الدولة الإسلامية ، حتى لقد أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر بعدم محاربتهم ما داموا يدينون بوحدانية الله عملا بقول النبى عليه السلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » .

ولكن أبا بكر وقف موقفاً حازما وعزم على محاربة المرتدين ، حتى يثوبوا إلى رشدهم وتعود بلاد العرب يداً واحدة كما كانت زمن الرسول ، وقال « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها » . وكان أبو بكر على حق فى موقفه هذا ، إذ لو تساهل فى الزكاة لفتح باباً للتهرب من تأدية فرائض الإسلام الأخرى .

وقد أرسل أبو بكر إلى كل جماعة من المرتدين كتاباً يبين فيه أن وفاة النبى عليه السلام أمر طبيعى يتفق مع قول الله تعالى « إنك ميت وإنهم ميتون » ، ومع قوله أيضاً « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم

على أعقابكم »، ودعاهم أبو بكر إلى الاعتصام بحبل الله . وبعد أن بعث الكتب للمرتدين سيّر الجيوش لقتالهم ،وأمر أبو بكر كل قائد بالسير إلى ناحية من بلاد العرب ، ومن أشهر هؤلاء : خالد بن الوليد ، وشرحبيل بن حسنة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن العاص ، وسعيد بن العاص، والعلاء ابن الحضرمي . ولم تمض سنة واحدة حتى كانت الجزيرة العربية تدين بالطاعة والولاء للإسلام ولأبي بكر خليفة رسول الله .

المتنبئون :

وقد أدت رغبة بعض القبائل فى تزعم المسلمين والتخلص من نفوذ قريش ، إلى إدعاء بعض أفرادها النبوة . وظهر فى أيام الرسول عليه السلام : مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة ، واستطاع أن يضم قبيلته إلى جانبه ، وقد تزوج مسيلمة من سجاح التميمية وبذلك ضم بنى تميم إليه . وأرسل مسيلمة إلى الرسول كتابا يدّعى فيه النبوة ومشاركته فى الرسالة ويساومه على اقتسام الرياسة . وقد رد عليه النبي بكتاب يقول فيه « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، وتوفى الرسول دون أن يخضع مسيلمة . فلما تولى أبو بكر الخلافة أرسل إليه عكرمة بن أبى جهل ، ولكن عكرمة هزم لتعجله وعدم أناته . فسير أبو بكر خالداً بن الوليد على رأس جيش كثيف . والتقى جيش خالد بن الوليد بجيش مسيلمة ، فاشتد القتال واستمات أنصار مسيلمة حتى كادت الهزيمة تحيق بجيش المسلمين ، ولكن المسلمين صدقوا فى الجهاد وصبروا فى الحرب ، وقد دعا خالد مسيلمة للمبارزة حتى يقتله ، ولكن مسيلمة لم يستطع صبرا أمام خالد فاضطر إلى الفرار ، غير أن المسلمين هجموا عليه وعلى أصحابه ، فهزموه وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، كما قيل إن

وحشياً (١) قتل مسيلمة شر قتلة ، وقضى بذلك على تلك الحركة الخطيرة .

ومن المتنبئين أيضاً الأسود العنسي ، وقد ظهر فى بلاد اليمن وكسب كثيراً من الأنصار ، وغزا بلاد نجران ودانت له كما دانت له مذحج وألقى الرعب فى قلوب ولاة المسلمين على اليمن حتى كتبوا بذلك للرسول ، ولكن ولاة المسلمين ائتمروا به وتوصلوا إلى قتله غيلة فى صبيحة الليلة التى مات فيها الرسول(٢). وبذلك لم يكن الأسود العنسي ممن قضى عليهم أبو بكر من المتنبئين، على أن بعض المؤرخين يذكر أن الأسود قتل فى عهد أبى بكر عند بداية حروب الردة .

ومن المتنبئين كذلك طليحة بن خويلد ، أحد كهنة بنى أسد ، ظهر أمره بعد النبي وانضمت إليه غطفان ومن حولها ، فبعث إليهم أبو بكر عديا ، ثم خالد بن الوليد ، واشتد القتال حتى فر طليحة إلى الشام(٣) ونزل بقبيلة كلب مقيما بين أفرادها حتى أسلمت فأسلم أيضاً ، ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبى بكر بايعه طليحة ، ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم حتى عاد إلى العراق وأبلى مع المسلمين بلاء حسناً .

على أن فريقا من أتباع المتنبئين لم يكونوا يعتقدون فى صدق هؤلاء المتنبئين ، بل إن منهم من دفعه إلى ذلك العصبية القبلية وكراهية الخضوع لقريش . وقد روى أن أحد بنى حنيفة من أتباع مسيلمة قال « أشهد بأن مسيلمة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة ، خير من صادق مضر » . وروى أيضا أن عيينة بن حصن قام خطيباً فى غطفان بعد وفاة الرسول وقال : « ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بنى أسد ، وإنى لمجدد

---

(١) وحشى هذا هو قاتل حمزة عم النبي فى غزوة أحد .

(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٢١٣ — ٢١٩ .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٢ .

الحلف الذى كان بيننا فى القديم ومتابع طليحة (بن خويلد)، والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش، وقد مات محمد وبقى طليحة. وقد انتهت حركة المتنبئين ـ كما انتهت حركة المرتدين ـ بالفشل، وحافظ بذلك أبو بكر على الإسلام فى فترة تعد من أدق الفترات.

حركة الفتح والتوسع:

سير أبو بكر إلى أطراف الشام، الجيش الذى كان النبي قد جهزه قبل وفاته تحت قيادة أسامة بن زيد. وكان عمر بن الخطاب يعارض فى إرسال هذا الجيش لاضطراب أحوال بلاد العرب وصغر سن أسامة، فقال أبو بكر «ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله وتأمرنى أن أعزله». (١) ثم أوصى أبو بكر أسامة فقال: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تفعلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً... وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم[٢] وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله»[٣].

وأنفذ أبو بكر ـ عقب بيعته مباشرة ـ الجيش الذى كان قد أعده النبي بقيادة زيد بن حارثة، للثأر لما نزل بالمسلمين فى مؤتة ولإرهاب الروم ومنعهم من التفكير فى قتال المسلمين. ونزل أسامة بمعسكره فى منطقة البلقاء بعد عشرين يوما حيث تقع مؤتة، وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٣٩.

(٢) يقصد بذلك رجال الدين الذين قضت العادة فى العصور الوسطى بفحص رؤوسهم، أى بحلقها من الوسط تمييزاً لهم عن العلمانيين وهم المدنيين.

(٣) ابن الأثير: نفس المصدر والجزء والصفحة.

الإسلام وأحرق المدن التى قاومت المسلمين ، وبذلك انتقم أسامة لأبيه وللمسلمين . ولما سمع هرقل أنباء هذه الغزوة أرسل جيشاً قوياً عسكر فى البلقاء ، ولكن المسلمين وعلى رأسهم أبو بكر لم يكونوا قد فكروا فى ذلك الوقت فى فتح الشام . ولما كان أبو بكر يريد أن يشغل العرب بأمور تصرفهم عن الفتنة ولا سيما بعد أن قضى على حركة المرتدين ، تداول مع المسلمين فى الأمر ، واستقر الرأى على أن تستمر حركة الفتح ، وأمر أبو بكر بتولية المثنى بن حارثة الشيبانى قائدا ، واتبع ذلك بتولية خالد بن الوليد القيادة العامة .

فى ذلك الوقت كان العلاء بن الحضرمى يقاتل المرتدين ، فانضم إليه المثنى بن حارثة ، وسار بقواته شمالا حتى استولى على القطيف وتركها ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى مصب دجلة والفرات ، وقد قضى فى أثناء ذلك على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين فى البحرين . وأمعن السير بجيشه فى دلتا الفرات ، فلقيه هرمز أحد قواد الفرس ، وحدثت بينهما عدة وقائع سمع بها أبو بكر ، فسأل عن المثنى وعرف ما عمله فى البحرين أثناء حروب الردة ، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد كى يخف إليه ويعينه على هرمز ، ثم يسير لفتح الحيرة عاصمة العرب اللخميين .

ذهب خالد بن الوليد إلى دلتا الفرات ولم تكن له خطة مرسومة ، ولكنه انتصر وتقدم نحو الشمال ، وبعث إلى الخليفة بالغنائم . على أن هذه الانتصارات لم تدم طويلا ، إذ أن يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان أعد جيشاً كثيفاً من الفرس بقيادة القائد رستم ، فتقهقرت أمامه جيوش المسلمين إلى أطراف الصحراء بقيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ، ولكنها تمكنت من إخضاع القبائل العربية التى كانت تقيم جنوب نهر الفرات ، واستولت على الحيرة والأنبار . وظل الحال على ذلك إلى أواخر أيام أبى بكر ، فوجه

خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين فى قتال الروم فى الشام وفلسطين .

أما فى الشام فقد كان للمسلمين أثناء حرب الردة عدة جيوش على حدود هذا الإقليم بقيادة خالد بن سعيد بن العاص ، لحماية تلك الحدود . وعندما علم هرقل بأمر هذه الجيوش أعد العدة لطردها ، وعلم خالد بن سعيد بذلك ، فأرسل إلى أبى بكر يستأذنه فى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام ، واستشار أبو بكر كبار الصحابة ، ودعى الناس لغزو الشام فلبوا الدعوة فى حماسة وحمية ، تدفعهم قوة الإيمان وعدم المبالاة بالموت . وسرعان ما أنفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة ، وعقد اللواء لأربعة من الأمراء هم : شرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، ويزيد ابن أبى سفيان ووجهته دمشق . وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يتعارفوا بعضهم مع بعض ، وأن يكونوا مدداً للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة [١] .

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التى جمعها الروم ، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام ، وانضم الوليد ابن عقبة وعكرمة بن أبى جهل وذو الكلاع الحميرى أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن العاص ، حتى تجمعت لديه قوة كبيرة وخيل إليه أنه يستطيع أن يقضى على الروم كما قضى خالد بن الوليد على الفرس ، ولكنه لم يكن قائداً محنكا ، فإن ماهان قائد جيش الروم استدرجه إلى مكان قريب من وادى الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية ، حتى أحاط به وقطع عليه خط الرجعة واضطره إلى الفرار هو والوليد بن عقبة ، تاركا وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذوا الكلاع متقهقراً . وبذلك فشلت حركة المسلمين الأولى فى الشام ورجعت جيوشهم إلى الحدود .

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ١٩٥

على أن هـذه الهزيمة لم تخمد حماس أبى بكر ، فسير هـذه الجيوش واستطاعت أن تصل إلى حيث يقيم جيش عكرمة بدون عناء ، بعد أن قضت على المقاومة التى أبداها حلفاء الروم من عرب الشام . وكان عدد هذه الجيوش والجيش الذى يقوده عمرو بن العاص ، حوالى ثلاثين ألفاً ، اتخذ كل منهـا فى بادىء الأمر وجهة خاصة . ولـكن قواد المسلمين عنـدما رأوا أن هرقل قد سير لمحاربتهم عدة جيوش كثيفة ، تبادلوا الرأى ، وأشار عليهم عمرو ابن العاص بجمع قواتهم ، وأرسل إليهم أبو بكر كتاباً يقول فيه « اجتمعوا عسكراً واحداً وألقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره » ، وعمل المسلمون بهـذه المشورة واجتمعت قواتهم كلها على شاطىء اليرموك الأيسر . ولما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطىء الأيمن للنهر ونزلوا فى بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاث جهات فى منطقة تسمى واقوصة[1] ، فعبر المسلمون نهر الأردن إلى شاطئه الأيمن ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودها تيودريك[2] .

ووقف الجيشان وجهاً لوجه ، دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين ، مما أقلق الخليفة . فأرسل إلى خالد بن الوليد فى العراق : أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا فليهناك أبا سليمان النية والحظوة ، أتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل ، فإن الله له المن وهو ولى الجزاء[3] . تولى خالد بن الوليد القيادة مكان أبى عبيدة وسار على رأس جيش كبير يتكون من عشرة آلاف جندى ، أدرك به المسلمين فى اليرموك وقاتل الروم ، وصادف مجيئه أن

---

(١) على مسيرة ثلاثين أو أربعين ميلا من مصب اليرموك بالأردن .

(٢) هو أخو هرقل وكانت العرب تسميه تذارق .

(٣) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٧٤ .

هرقل كان قد عزز جيشه بتعيين ماهان(١) ، الذى هزم خالد بن سعيد من قبل ، قائداً .

ولما قدم خالد بن الوليد بجيشه إلى الشام وجد المسلمين يقاتلون متساندين ، فرتب الجيش وجعل أبا عبيدة بن الجراح فى القلب ، وعمرو بن العاص على الميمنة ، ويزيد بن أبى سفيان على الميسرة . ثم دارت رحى القتال ، واشتركت النساء مع الرجال ، لصد هجمات العدو ، الذى اضطرهم إلى التقهقر عدة مرات(٢). وبعد أن لحقت الروم الهزيمة ، جاء يوم الواقوصة ، وهو اليوم الذى كتب فيه النصر للعرب حيث قتل من جند الروم مائة وعشرون ألفاً(٣) .

وفى أثناء قتال العرب فى اليرموك ، أتاهم نعى أبى بكر سنة ١٣ هـ وتولية عمر بن الخطاب الخلافة فعزل خالد عن القيادة وولى مكانه أبا عبيدة .

٢ — عمر بن الخطاب

١٣ — ٢٣ هـ = ٦٣٤ — ٦٤٤ م

ينتهى نسب عمر بن الخطاب إلى كعب بن لؤى ، ويشترك نسبه مع الرسول فى الجد السابع . ولد بمكة قبل حرب الفجار الأعظم بأربع سنين . وكان فى الجاهلية سفيراً(٤) لقريش إذا وقعت حرب بين قريش وبين غيرها من القبائل. أسلم وسنه ست وعشرون سنة بعد أربعين شخصاً ، وكان لا يخفى إسلامه ،

---

(١) يعرف أيضاً باسم ماهان وهو قائد أرمنى عرف فيه هرقل الشجاعة والإقدام .

(٢) الواقدى : فتوح الشام ج ١ ص ١٦٥ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٠ .

(٤) السفير فى اللغة : الرسول والمصلح بين القوم ، وفى حديث على أنه قال لعثمان « إن الناس قد استسفرونى بينك وبينهم » أى جعلونى سفيراً ، والسفارة معروفة فى الجاهلية وهى من المناصب التى كانت فى يد قريش وبطونها .

وهو الوحيد من المهاجرين الذى هاجر دون أن يتخفى ، وصار من أشد المناصرين للرسول والإسلام حتى صحبه فى معظم غزواته ، ولقبه الرسول عليه السلام « الفاروق » لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، وعنه قال النبي : « لو كان بعدى نبي لـكان عمر » (١) . وكان عمر من مؤيدى أبى بكر عند بيعته ، وعاونه فى خلافته فقد ساعده فى حروب الردة وفى جمع القرآن وفى الفصل فى القضايا ، وكان عمر منه بمثابة الوزير .

بيعة عمر :

ترك يوم السقيفة أثراً واضحاً فى ذهن أبى بكر ، فلما اشتد عليه المرض خاف إن هو ترك أمر الخلافة كما تركه رسول الله انقسم المسلمون بعضهم على بعض واقتتلوا وأصبحوا أشد خطراً على أنفسهم من أهل الردة ، فاستقر رأيه على أن يعهد بالخلافة من بعده لمن يعتقد فيه الكفاية وحسن السياسة(٢) . نظر أبو بكر فى أصحابه ليتخير من بينهم : رجلاً حازماً فى غير عنف ليناً فى غير ضعف ، فوجد أن من توفرت فيه هذه الصفة من الصحابة أحد رجلين : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب . ووقع اختياره على عمر بن الخطاب ، ومع ذلك لم يشأ أن ينفرد بالرأى ويفرض إرادته دون مشورة أحد من أصحابه . فسأل عدداً من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان عن رأيهم فى عمر بن الخطاب قبل أن يعهد إليه بالخلافة ، وتأكد أنهم جميعاً راضون عنه ، وبعد أن استقر رأيه على استخلاف عمر ، أطل على المسلمين من المسجد من حجرة بجواره ،

---

(١) ابن الجوزى : سيرة عمر بن الخطاب ص ١٥ — ٢٤ .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك والدكتور على ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٣٣ — ٣٤ .

وخاطبهم قائلا : « أترضون بمن استخلف عليكم ؟ فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة ، وإنى قد وليت عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا » . فأجابه الناس سمعنا وأطعنا . وعند ذلك رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم ما أنت به أعلم ، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم » . وقد أملى أبو بكر على عثمان بن عفان كتاب بيعته لعمر ابن الخطاب وهو يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر ، إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن برّ وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدّل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)(١) » .

وقد بدت سياسة عمر القائمة على الحزم والشدة فى أول خطبة خطبها إذ قال : « إنما مثل العربى مثل جمل أنف أتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق »(٢) . وهنا نلحظ أمرين خطرين أولهما : أن أبا بكر علق خلافة عمر على رضاء الناس ، وثانيهما : أنه لم ينتخب أحداً من أبنائه أو أقربائه بل انتخب شخصاً أجمع الناس على احترامه لما امتاز به من الصفات الطيبة .

---

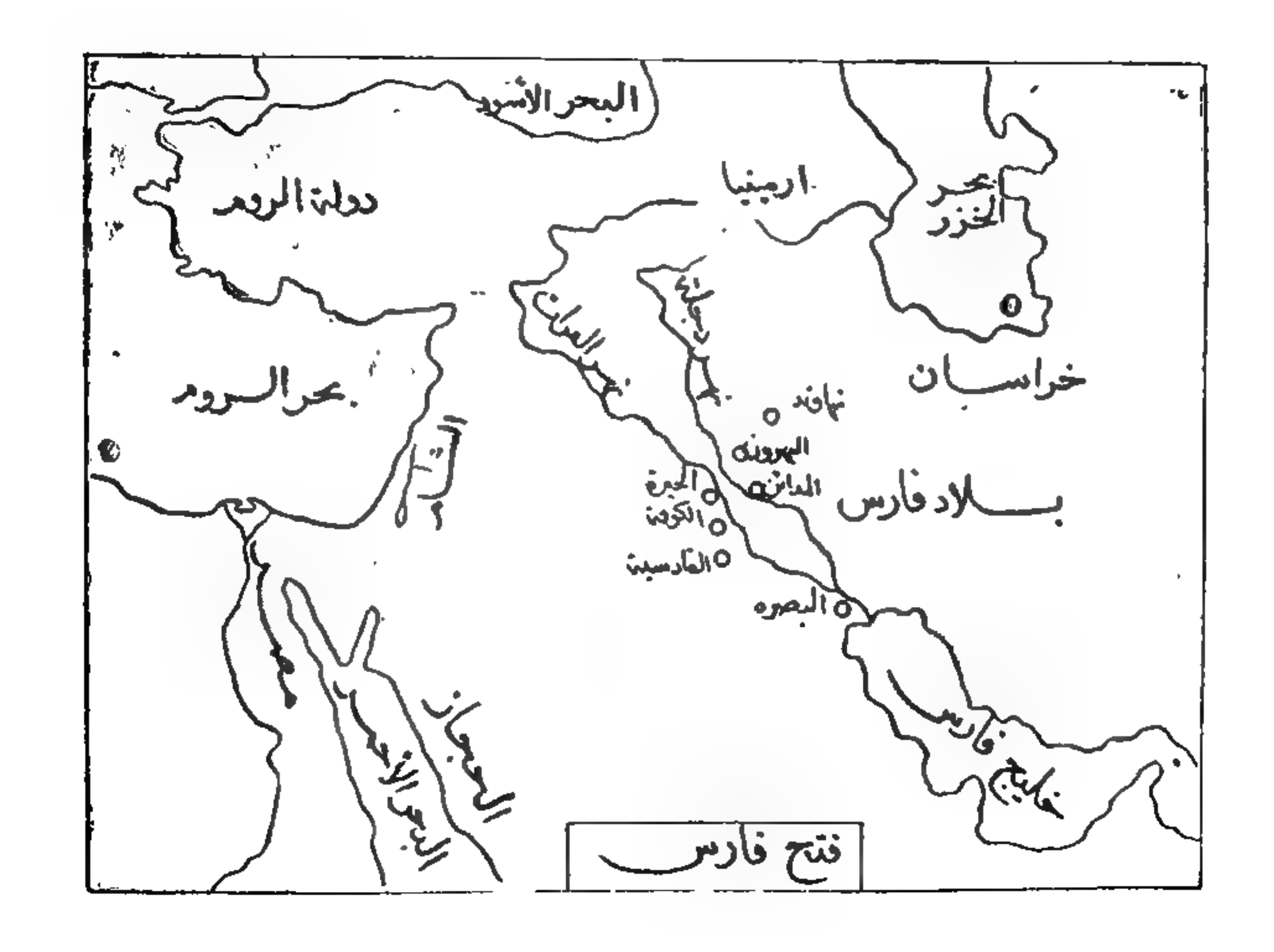
(١) سورة الشعراء ٢٦ آية ٢٢٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٨ .

الفتوح الإسلامية ١ — فتح فارس :

كان أبو بكر قد وجه جيشاً إلى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة . وانتصر على الفرس بعد عدة وقائع واستولى على الحيرة والأنبار وأبرم صلحاً مع أهلها تعهدوا له فيه بأداء الجزية ، ولما سمع أهل القرى القريبة من الحيرة بهذا الصلح سارعوا إلى مصالحة خالد . ولكن يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان أعد جيشاً كبيراً بقيادة رستم ، فارتد العرب إلى أطراف الصحراء ، ثم أمر أبو بكر القائد خالد أن يلحق بجيوش المسلمين لقتال الروم فى الشام وفلسطين .

ولما ولى عمر الخلافة أرسل نجدة إلى العراق تحت قيادة أبى عبيدة ابن الجراح الثقفى ، فاشتبك مع الفرس فى عدة مواقع انتهت بانهزام العرب فى واقعة الجسر . وعند ما علم عمر بذلك عهد إلى سعد بن أبى وقاص أحد كبار القود بإتمام فتح فارس ، فوصل سعد إلى القادسية ، والتقى بجيش الفرس الذى بلغ ثلاثين ألف مقاتل بقيادة رستم ، فى حين لم يزد جند العرب عن ثمانية آلاف ، مما دعا الفرس إلى الاستهتار بهم ، وكان الفرس يضحكون من نِبَـل العرب ويشبهونها بالمغازل . وأرسل سعد رسوله المغيرة ابن شعبة إلى رستم يدعوه إلى الدخول فى الإسلام أو دفع الجزية ، فقال رستم: « قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبونه » ، وقال المغيرة : « إن الله بعث إلينا نبيه صلى الله عليه وسلم فسعدنا بإجابته واتباعه ، وأمرنا بجهاد من


البحر الأسود
دولة الروم
بحر الروم
الشام
ارمينيا
بحر الخزر
خراسان
نهاوند
المدائن
الحيرة
الكوفة
القادسية
البصره
بلاد فارس
خليج فارس
فتح فارس

خالف ديننا ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده والإيمان بنبيه ، فإن فعلت وإلا فالسيف بيننا وبينكم » ، فقال له رستم : « والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غدا حتى نقتلكم أجمعين » ، فقال المغيرة : « لاحول ولا قوة إلا بالله وانصرف عنه »(١).

حدثت واقعة القادسية سنة ١٥ هـ وانتهت بهزيمة الفرس وقتل رستم هو وعدد كبير من جنوده واستولى العرب على غنائم كثيرة . ثم تبعهم سعد إلى « جلولاء » سنة ١٦ هـ وأوقع بهم ، وأسر إحدى بنات كسرى ، وقتل عدداً كبيراً من الفرس ، واتخذ سعد الكوفة مقراً للمسلمين وأسس بها المسجد الجامع(٢) وتابع سعد انتصاراته على الفرس ، فاستولى على المدائن حاضرة بلادهم بعد حصار شهرين ، وغنم العرب غنائم كثيرة من بينها بساط كسرى . وفر يزدجرد ملك الفرس ، ولم يستطع أن يلاقى العرب إلا بعد أربع سنوات قضاها فى الاستعداد لملاقاتهم ، وبلغ عدد جيشه أكثر من ستين ألف مقاتل . وتقابل العرب والفرس فى موقعة نهاوند سنة ٢١ هـ ، وكتب النصر للعرب ، وتعرف هذه الموقعة بفتح الفتوح لما ترتب عليها من القضاء على حكم الأكاسرة . أما يزدجرد الثالث فقد فر إلى الحدود الشرقية وقتل فى خراسان سنة ٣١ هـ فى خلافة عثمان بن عفان .

وهكذا دانت فارس جميعها للعرب وتحولت إلى ولاية عربية ، وبنى المسلمون الكوفة والبصرة ، واتخذوا الكوفة مقراً لحكومتهم بدل المدائن ، واعتنق الفرس الإسلام واختلطوا بالعرب ، وأصبحوا عنصراً إسلامياً مهماً وأظهر المسلمون معهم تسامحا ، وفرضوا على من لم يقبل الإسلام منهم جزية ، وفيما عدا ذلك لم يتدخل العرب فى شئون الفرس الدينية .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٥ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ١٣٢ — ١٤٠ .

ولا شك أن العرب قد جنوا ثمار هذه الإنتصارات التى أحرزوها على الفرس : فضموا إلى بلادهم بلداً جديداً ، وأثروا وأصبحوا فى رغد من العيش بعد أن امتلكوا كنوز الفرس ، وقد بهرت تلك النفائس والأموال العرب الذين اعتادوا التقشف والبساطة . أما الفرس فقد رحبوا بالعرب : الذين خلصوهم من استبداد آل ساسان . واعتنق عدد كبير منهم الإسلام ، ودفع غير المسلمين جزية الرءوس نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية . أما الخراج فقد فرض على الأرض ، إذ تركها المسلمون فى أيدى أصحابها يزرعونها مقابل تلك الضريبة حتى يتفرغ المسلمون للجهاد جنوداً لهم مرتبات ثابتة من بيت المال . على أن زواج الحسين بن على من ابنة يزدجرد آخر ملوك فارس ، كان من العوامل الرئيسية فى انتشار الإسلام فى بلاد الفرس ، فقد رأوا فى أبناء الحسين ورثة ملوكهم الأقدمين ، وهذا أدى إلى تعلق الفرس بعلى بن أبى طالب وذيوع المذهب الشيعى فى بلادهم . (١)

٢ — فتح الشام وفلسطين :

كانت جيوش المسلمين تحت إمرة خالد بن الوليد(٢) قد انتصرت انتصاراً باهراً على الروم فى موقعة اليرموك ، وبدأت تتجه لحصار دمشق ، وقد توفى أبو بكر فى هذا الحين وخلفه عمر بن الخطاب فأمر بأن تستمر

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن بك ص ١٨١–١٨٢.

(٢) أصبح خالد فيما بعد تحت إمرة أبى عبيدة إذ كان عمر بن الخطاب قد عزله وولى أبا عبيدة قيادة الجيش وحدث ذلك عندما كان العرب يقاتلون فى اليرموك واستحى أبو عبيدة أن يقرأ على خالد كتاب العزل حتى فتحت دمشق ، وجرى الصلح على يدى خالد وكتب الكتب باسمه . انظر — الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٧٥ .

الجيوش الإسلامية فى القتال واستطاعت أن تفتح دمشق وكان ذلك فى أواخر سنة ١٣ هـ ، وبعد فتحها انتصرت الجيوش الإسلامية على الروم فى مكان يسمى فِحل (١) ، وبعد قتال شديد انهزم الروم وطاردهم المسلمون ووخزوهم بالرماح حتى أصيبوا جميعاً وكانوا ثمانين ألفا(٢) .

بعد ذلك استولى قسم من الجيش الإسلامى بقيادة أبى عبيدة وخالد ابن الوليد على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب ، فى حين ذهب جزء آخر من الجيش بقيادة شرحبيل وعمرو بن العاص إلى بيسان وطبرية وأرغموا أهلها على الصلح بعد حصار دام عدة أيام ، وتم بذلك صلح الأردن ، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر ينبئه بالفتح(٣) .

انتصر عمرو بن العاص على الأرطبون والى فلسطين الرومانى ، عند أجنادين سنة ١٥ هـ ، وانتصر عليه بعد قتال شديد لا يقل أهمية عن القتال الذى دار عند اليرموك ، واضطره أن يلجأ هو ومن بقى من الثمانين ألفا الذين كانوا يحاربون معه فى أجنادين إلى بيت المقدس ، وكان من نتائجها المباشرة أن خضعت لسلطان العرب : عسقلان ونابلس ويافا والرملة وغزة وبيروت .

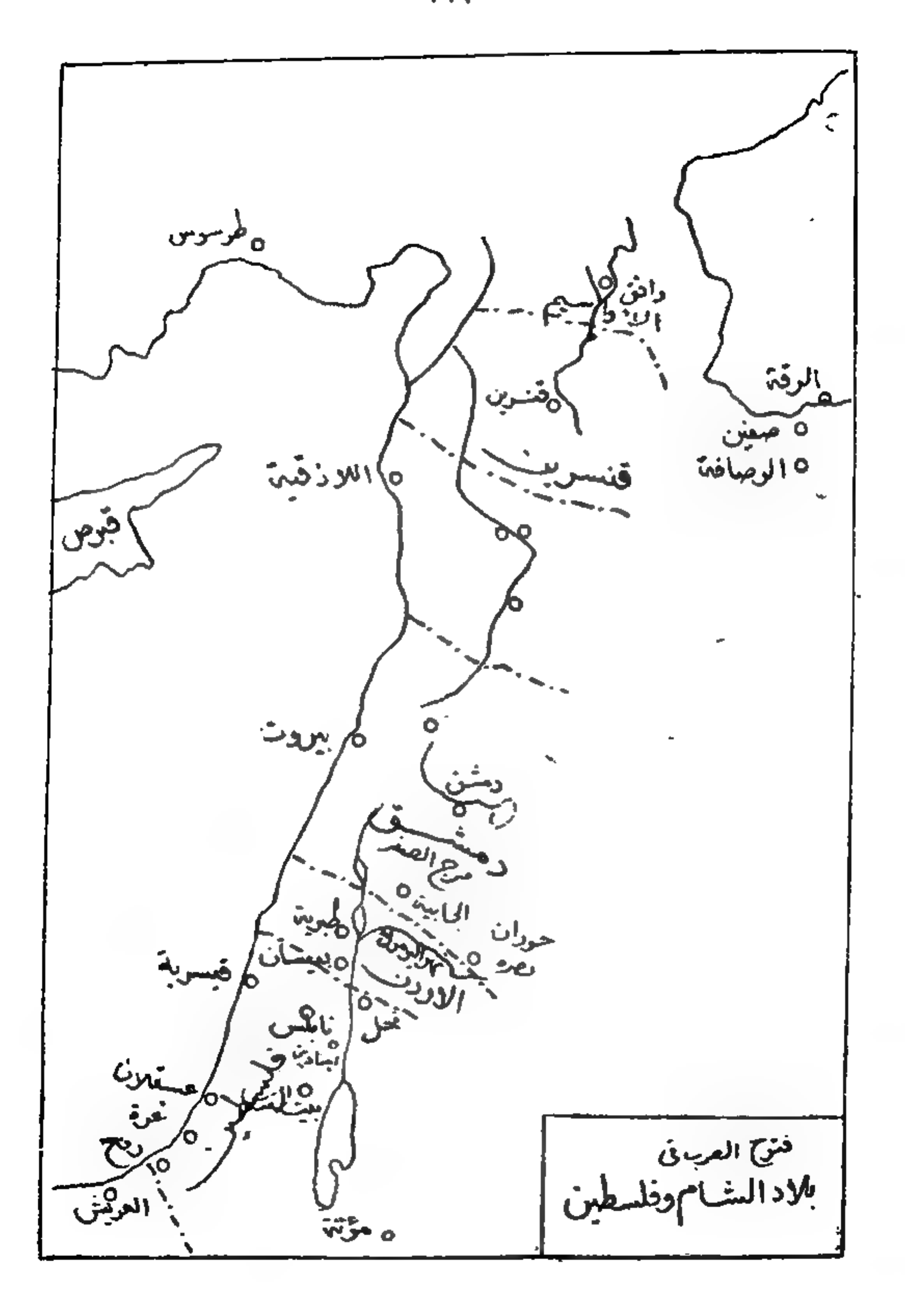
وقصد عمرو بن العاص بعد ذلك بيت المقدس ، وحاصرها أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال ، وأخيراً رضيت المدينة المقدسة بالتسليم على أن يتم ذلك بحضور عمر بن الخطاب نفسه ، ورضى بهذا عمرو ورحل إلى الجابية ، وتم فتح بيت المقدس سنة ١٦ هـ . وسلمت قيسارية للجيش الإسلامى بقيادة عمرو بن العاص بعد أن غادرها قسطنطين بن هرقل خفية، وقد ملئت نفسه خوفاً لأنه

---

(١) فحل: بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره لام ، هو موضع بالشام ، ياقوت: معجم البلدان .

(٢) ياقوت : نفس المصدر .

(٣) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٠١ — ٢١١ .



طرسوس
قنسرين
الرقة
صفين
الرصافة
قنسرين
اللاذقية
قبرص
بيروت
دمشق
دمشق
مرج الصفر
الجابية
حوران
بصرى
طبرية
اليرموك
بيسان
الأردن
قيسرية
نابلس
فحل
أجنادين
فلسطين
عسقلان
غزة
بيت المقدس
رفح
العريش
مؤتة
فتح العرب فى
بلاد الشام وفلسطين

علم أن أباه قد هرب من أنطاكية وأن عمرو بن العاص قد اخترق أسوار قيسارية ، فانسل من قصره هو وأسرته ، وفى الصباح علم الأهلون بهرب أميرهم فسلموا لعمرو (١) .

بذلك قضى على نفوذ الروم فى الشام ، ويكفى لتقدير عظم جهود المسلمين أنهم فقدوا فى حروب الشام مايزيد على خمسة وعشرين ألف مقاتل .

٣ — فتح مصر :

ناقش عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الجابية فى موضوع فتح مصر (٢)، فتردد عمر لإشفاقه على المسلمين من أن يصيبهم الفشل: فقد كانت الجنود الإسلامية فى ذلك الوقت متفرقة فى الشام والجزيرة وفارس لقتال الروم والفرس ولم يكن فى استطاعة عمر أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشاً كبيراً ، كما أن عمر كان يخشى من التوسع فى الفتح لا سيما وأن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فى البلاد التى فتحوها .

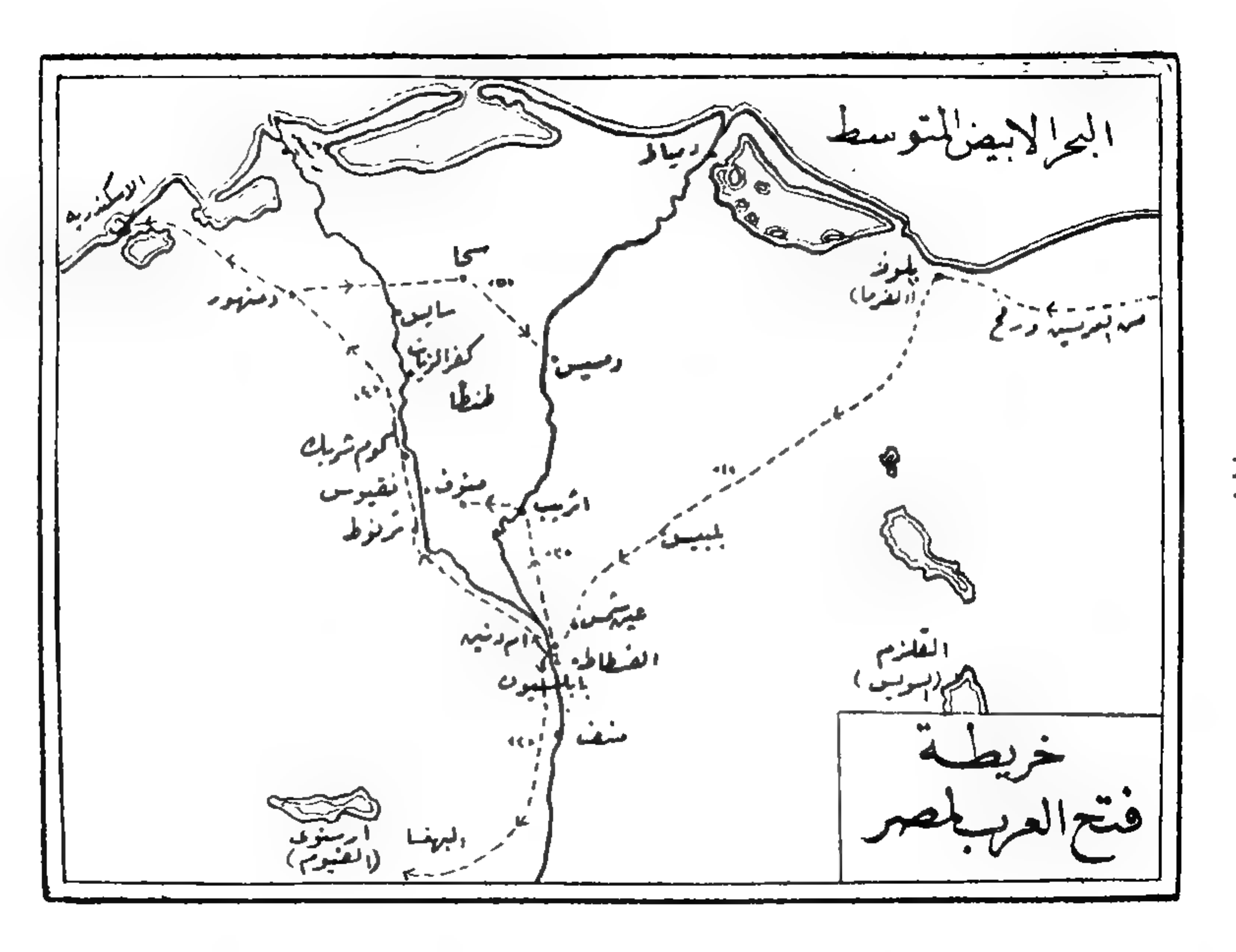
أخذ عمرو يهوّن على عمر فتح مصر ، ويذكر له : أنه دخلها فى الجاهلية وعرف طيب تربتها وخصوبة أرضها ومقدار ثروتها وخيرها ، وأوضح له أن الاستيلاء عليها يثبت فتوح العرب فى الشام وفلسطين ، ويؤمنها من ناحية الجنوب وأن موقع مصر الجغرافى يساعد العرب على الاستيلاء على المغرب والأندلس ، فضلا عن تحقيق أهم غرض للفتوح الإسلامية وهو نشر الديانة الإسلامية فى بقعة جديدة .

لم يزل عمرو بعمر حتى رضى وأذن له بأربعة آلاف مقاتل ، وقال لعمرو:

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) أنظر — الدكتور على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٥ — ٣٣ حيث تجد تفصيلا للفتح العربى لمصر .


خريطة
فتح العرب لمصر
البحر الابيض المتوسط
الاسكندرية
دمنهور
سخا
سايس
كفر الزيات
طنطا
دمياط
بلوز
(الفرما)
من العريش
رمسيس
كوم شريك
نقيوس
منوف
اثريب
ترنوط
بلبيس
عين شمس
ام دنين
الفسطاط
بابليون
منف
القلزم
(السويس)
البهنسا
ارسنوى
(الفيوم)

إنى مرسل إليك كتاباً فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شىء من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض واستعن بالله واستنصره[٢] . وسواء وصل كتاب عمر لعمرو أم لم يصل ، فإنه سار فى طريقه إلى مصر وحارب الروم وهزمهم فى العريش وبلبيس ، وأم دنين ، وعين شمس ، واقتحم حصن بابليون مقر القيادة الرومانية ، وفتح الأسكندرية عاصمة الديار المصرية إذ ذاك ، وواصل فتوحاته حتى تم الاستيلاء على مصر وأصبحت ولاية عربية إسلامية . وقد رحب القبط بالعرب لتخليصهم من عنف الرومان فلم يساعدوا الروم ضد العرب بل أمدوا العرب بالعلوفة والمؤن وغير ذلك .

العوامل التى سهلت انتصار العرب على الروم والفرس :

امتاز العرب على أعدائهم من الفرس والروم بالصبر على مشاق القتال والاكتفاء بالقليل من الزاد ، وامتازوا بالحماسة الدينية التى بثها النبى عليه الصلاة والسلام فى نفوسهم ، وبالحرص على الخروج من دائرة بلادهم إلى بلاد أخرى كثيرة الموارد وفيرة الخيرات . وقد أفسدت المدنية الإمبراطورية الرومانية الشرقية إذ انغمس أهلها فى وسائل الترف والنعيم ، وتصدعت أركانها إذ لم يكن بين شعوبها رابطة أو تآلف لاختلافهم فى الديانة والقومية والجنسية مما جعل اتحادها لصد الفتح العربى عسيراً ، كما رحبت الشعوب الخاضعة لها بالعرب لتخلصهم من اضطهادات الرومان الدينية وضرائبهم الفادحة . كذلك كان العرب يجيدون بعض الفنون الحربية التى لا يجيدها خصومهم كفن الرماية . وكانت معظم الجيوش العربية تتكوّن من الخيالة ، أما الرومان فكانت جيوشهم تتكوّن من المشاة وكانوا يستعملون العُدد الثقيلة التى تعوق

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٥٣ .

حركات الجيش ، على حين كانت عُدد الحرب عند العرب بسيطة، فكانوا يستخدمون الرمح الذى نسمع عنه كثيرا فى تشبيهات العرب وأشعارهم ، والسيف الذى يعتبر من أشرف أسلحتهم .

ترك العرب الحرية الدينية للقبط . وخيروهم بين الإسلام فيكون لهم حقوق المسلمين وعليهم واجباتهم ، أو البقاء على دينهم فتفرض عليهم جزية قدرها ديناران للقادرين واستثنى منهم النساء والشيوخ والأطفال ، وتعهد عمرو بحماية كنائسهم . واستقبل بطريقهم عند عودته إلى الأسكندرية بالترحيب ، وأصبح اليعاقبة والملكانيون سواء أمام العرب ، وتركت الأرض لهم ، فضلا عن الإصلاحات التى تمت مما زاد فى ثروة القبط وحسن أحوالهم ، فشعروا بالطمأنينة تحت حكم العرب(١).

منشأت عمر :

١ — تأسيس البصرة : أسس عمر بن الخطاب فى سنة ١٦ هـ مدينة البصرة ، واتخذها مقرا لحكومة العرب فى فارس بدلا من المدائن عاصمتهم القديمة . وكانت البصرة من أول أمرها أشبه بالقرية منها إلى المدينة ، ولذلك فضلها العرب عن المدائن لأنهم لم يألفوا سكنى المدن الكبيرة كما أن عمر أراد ألا يكون بينها وبينه بحر إذا أراد أن يمد العرب فى فارس بالجنود (٢). وقد أصبحت البصرة بعد فترة قصيرة من أهم المراكز التجارية فى العالم وخاصة فى تجارة الشرق فى العصور الوسطى بين الهند والصين .

٢ — تأسيس الكوفة : كذلك أسس العرب مدينة الكوفة سنة ١٧ هـ

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣١ — ٣٢

(٢) الفخرى ص ٧٨ .

عند ماضاقوا بالبصرة لكثرة مياهها ومستنقعاتها ، واتخذها على بن أبى طالب فيما بعد حاضرة للخلافة بدلا من المدينة المنورة .

وقد أنشأ العرب مساكنهم فى البصرة والكوفة من الغاب والخيام ، ثم بنوها باللبن لما لم تقو على مقاومة النار ، ثم بالحجارة لما زادت ثروتهم ، وقد بنى فى كل منهما مسجدا ثم اختطت الطرق والدروب واتخذت القبائل لها خططا ومقابر ، وروعى فى بنائهما أن تكونا من الرحب والسعة بحيث لايشعر العرب بتغيير بيئتهم السابقة ذات الهواء النقى والفضاء الواسع ، وأصبحت المدينتان بعد فترة وجيزة من أهم مراكز العلم والسياسة والاقتصاد فى العالم الإسلامى .

٣ — تأسيس الفسطاط(١): شرع عمرو بعد فتح الإسكندرية ـ وكان قد نزل بجنده بجوار حصن بابليون ـ فى تأسيس مدينة الفسطاط سنة ٢٠ ﻫ التى لم تلبث بعد إنشائها أن اتسع نطاقها، وأصبحت حاضرة البلاد المصرية . وقد راعى عمرو فى اختياره موضع الفسطاط : أن يجعلها فى مأمن من هجمات العدو ويسهل وصول المؤن والأقوات إليها لما كان حولها من المزارع إذ كان النيل يحوطها غربا وجبل المقطم شرقا ، أضف إلى ذلك وقوعها على رأس الدلتا مما يسهل معه الإشراف على الوجهين البحرى والقبلى . واتخذ عمرو الفسطاط مقراً للحكم ثم جاءت القبائل العربية فتنافست على المواضع ، فعين لهم عمرو أربعة من رؤساء جنده ، جعلوا لكل قبيلة خطة ، وهى أشبه بالحارات الآن . وظلت الفسطاط تتدرج فى العمران حتى وصلت إلى درجة كبيرة من الرقى . ويرجع فى تسميتها « الفسطاط » رأى المؤرخين الذين ينسبون تلك التسمية لفسطاط عمرو (خيمته) الذى باضت فيه اليمامة وقد خلفه عندما ذهب لقتال الروم

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٩٣ ــ ٤٠١

فى الأسكندرية . وفى تلك العاصمة أنشىء « جامع عمرو » الذى بناه عمرو ابن العاص فى خلافة عمر سنة ٢١ هـ ، وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية حتى أطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع . كما أمر عمرو بحفر خليج أمير المؤمنين لتصل الأقوات عن طريقه بالمراكب للحجاز ، وقد تم تجديده فى سنة واحدة سنة ٢٣ هـ فضلا عن مقاييس النيل وما تتطلبه الزراعة من حفر الترع وشق القنوات .

مصرع عمر :

قتل عمر على يد أبى لؤلؤة « فيروز » غلام المغيرة بن شعبة ، وقد قيل إن عمر بن الخطاب خرج يوماً يطوف بالسوق ، فلقيه أبو لؤلؤة فقال : ياأمير المؤمنين أعنى على المغيرة بن شعبة فإن علىّ خراجا كثيراً ، قال : كم خراجك ؟ قال : درهمان فى كل يوم ! قال : وماصناعتك ؟ قال : نجار ، نقاش ، حداد ، قال: فماأرى خراجك بكثير على ماتصنع من الأعمال ، فقد بلغنى أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت ! قال : نعم ! قال : فاعمل لى رحى ، فقال أبو لؤلؤة موريا : « إن عشت لأعملن لك رحا يتحدث بها من فى المشرق والمغرب » ، ثم انصرف عنه ، فقال عمر : لقد توعدنى العبد .

وفى صباح اليوم الثالث ذهب عمر مبكراً كعادته وأمّ الناس فى الصلاة وإذا بأبى لؤلؤة يشق صفوت المصلين وفى يده خنجر ويطعن عمر ست طعنات ، كانت إحداهـا هى القاتلة ، وحاول فيروز الهرب فلم يفلح ، ويقال : إنه قتل نفسـه . ومكث عمر ثلاثة أيام بعد إصابته محتفظاً بقواه العقلية ، وضع خلالها نظاما ليعين بمقتضاه الخليفة من بعده ، ولماحانت منيته

استأذن السيدة عائشة فى أن يدفن بجوار الرسول ، وتم له ماأراد ، وعندما أحس الموت دعا ابنه عبد الله وقال له : إذهب إلى عائشة أم المؤمنين قل لها إن عمر بن الخطاب يقرأ عليك السلام ، ولاتقل أمير المؤمنين فإنى لست المؤمنين أميراً ، ويستأذنك فى أن يدفن مع صاحبه . فذهب عبد عبد الله فقال ذلك لعائشة وعاد إلى أبيه يإذنها ، فقال لابنه : أحملونى على سرير فإذا وصلتم إلى بيت عائشة ، فلا تدخلوا حتى تستأذنوا ، وقد حمل سرير عمر ، حتى إذا بلغوا بيت عائشة قالوا : إن عمر بن الخطاب يستأذن عائشة أم المؤمنين ، ولم يدخلوا السرير حتى أذنت عائشة ، وهنالك دفن عمر ابن الخطاب مع صاحبيه : محمد رسول الله وأبى بكر أول خلفاء المسلمين . ومات عمر وهو فى الثالثه والستين من عمره ، وهى السن التى توفى فيها النبى وأبو بكر .

شخصية عمر :

كانت شدة عمر فى خلافته من أظهر ما امتاز به ، فقد كان إذا أمر بشىء أو نهى عنه بدأ بتنفيذ ذلك فى أهله أولا (١) . كما كان شديداً على ولاته ، فكان يخشى أن يرهبوا الناس فيذلوا نفوسهم ويعلموهم الجبن ، لذلك فتح صدره لأى شكوى من عماله ، وأعلن هذه الخطة لعامة المسلمين فى خطبه ، وكان يسأل الرعية إذا وفدت عليه فى مناسبات الحج أوغيرها عن حال أمرائهم ويتفقد بنفسه أحوال الناس ويطوف فى الأسواق وهو يقرأ القرآن .

---

(١) ذكر ابن الجوزى أن عبد الرحمن بن عمر قد سكر فى مصر فى خلافة عمرو بن العاص وكان عمر قد كتب لعمرو : إياك أن يقدم أحد من أهلى فتحبوه بأمر لا تصنعه لغيره فافعل بك ما أنت أهله ، فجلده عمرو ، ولما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه أيضاً . سيرة عمر بن الخطاب ص ٢٠٧ .

اشتهر عمر بالشجاعة والجرأة ، لهذا رأينا المسلمين بعد أن كانوا يعبدون الله مستخفين فى دار ابن الأرقم قد خرجوا من مكمنهم ، وأعلنوا إسلامهم ودعوا الناس إليه معلنين ظاهرين ، ذلك لأن عمر بارز خصوم الإسلام من قريش ، ودافع عنه بصدره وسلاحه ، وقال للمسلمين : لا يعبد الله سرا بعد اليوم . ولما أذن الله بالهجرة لرسول الله هاجروا مستخفين إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وطاف بالكعبة قائلا : من أراد أن تثكله أمه أو ييتم ولده أو يرمل زوجته فليتبعنى وراء الوادى .

ويدلنا على حرص عمر على مال المسلمين أنه حبس أبا سفيان ابن حرب وهو من سادات قريش وزعمائها ، حتى ردت زوجته هند قرضاً أخذته من بيت مال المسلمين . وكان عمر يدهن إبل الصدقة بالقار(١) وكانت مملوكة لبيت المال مما يجمع من الزكاة وغيرها ويتصدق بألبانها على فقراء المسلمين .

وعرف عمر بالتفقه فى الدين حتى أنه كان يفتى الناس هو وأبو بكر الصديق زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) . واشتهر برغبته فى معرفة أحوال الناس ليتعرف ما يمكن أن يكون قد أصابهم من شر أو نالهم من مكروه ، فكان بعد الصلاة يخرج فى الليل يتجسس أخبار الناس ويسمع أحاديثهم مستخفيا ليتمكن بذلك من إصلاح حالهم .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص٣٣.

(٢) النووى وتهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ١٩٠ .

وتلقب عمر بلقب أمير المؤمنين ، إذ ثقل عليه لقب « خليفة رسول الله » ، ومعنى لقب أمير المؤمنين أن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة ، وأن عمر صار أميراً ورئيسا لهذه القوة ، كما كان عمر أول من اتخذ يوم هجرة الرسول مبدأ للتاريخ الاسلامى .

وكان عمر بسيطاً فى معيشته ، إذ كان فى زيه ومظهره رجلا عادياً وحدث أن الهرمزان كان قد أسر وجىء به إلى المدينة ، وسيق وحوله حاشيته فى أبهته وثيابه الحريرية ، إلى عمر فى المسجد حيث كان نائماً ، فأخذ الهرمزان العجب عندما علم أن ذلك الرجل هو الخليفة . وقيل إن قيصرا أرسل رسولا لعمر ، فلما دخل الرسول المدينة ، سأل أهلها : أين ملككم ؟ فقالوا مالنا ملك بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة ، فجدّ الرسول فى طلبه ، فرآه نائماً فى الشمس على الارض فوق الرمل الحار ، وقد وضع درته كالوسادة والعرق يتصبب من جبينه حتى بلّ الأرض ، فكان ذلك موضع دهشته .

وقد أجمع المؤرخون من العرب والافرنج على أن عمر كان من أعظم رجال السياسة ، فإن الدولة الإسلامية جاءت ثمرة جهود رجال ثلاثة : محمد عليه السلام وهو موجد الديانة الإسلامية ومؤسس الدولة العربية ، وأبى بكر الذى حافظ على ذلك الدين وتلك الدولة من الاخطار ، وعمر الذى أقام الدولة على أسس متينة وشيد صرحها عالياً .

٣ — عثمان بن عفان

٢٣ — ٣٥ هـ = ٦٤٤ — ٦٥٦ م

انتخابه :

طعن أبو لؤلؤة ، عمر بن الخطاب طعناته القاتلة بخنجره المسموم ، فأصبحت حياة عمر فى خطر محقق وبدأ الناس يتكلمون فى أمر الخلافة ، وطلبوا إليه أن يعهد لأحد بها ، فتردد فى الأمر ، ويظهر أنه لم يكن يفكر فى الشخص الذى يخلفه ولم يأخذ للأمر عدته وإنما فوجىء به . ولذلك طلب مهلة يفكر فيها . وعرض عليه بعضهم أن يعهد بالخلافة إلى ابنه عبد الله فرفض وأظهر أنه لم يكترث بالأمر . ويستدل على ذلك من قوله: وانظر فإن استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وأن أترك فقد ترك من هو خير منى ولن يضيع الله دينه .

خشى المسلمون سوء العاقبة إن فارق عمر الحياة دون أن يعهد لأحد ، فجاءوا مرة أخرى مكررين الرجاء ، فاختار عمر ستة من أكابر أصحاب رسول الله وهم : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيدالله . ودعاهم إليه إلا طلحة فقد كان غائباً (١) . ثم خاطبهم قائلا : إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، إنى لا أخاف الناس عليكم أن استقمتم ،

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك والدكتور على ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٣٩ — ٤٠ .

ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلا منكم. فاجتمعوا قريباً منه ، ولم يلبث أن ارتفعت أصواتهم ، فقال لهم : ألا أعرضوا عن هذا أجمعين ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصلّ بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم فى الأمر فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم . وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتمونى فى حفرتى ، فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت ، حتى يختاروا رجلا منهم. وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إذا قدم ، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر ، وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى إثنان فاضرب رأسيهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس(١) .

وبعد أن دفن عمر اجتمعوا تنفيذاً لوصيته ، وكان طلحة غائباً ، ولكن طال بهم النقاش والجدل واشتد التنافس ، حتى أصبح يخشى أن تمضى الأيام الثلاثة دون أن ينتخب الخليفة . إلا أن عبد الرحمن بن عوف أخذ يحادث كلا منهم على انفراد ، ليستطلع آراءهم ويقف على حقيقة ما فى ضمائرهم ، ويمهد السبيل للاختيار النهائى . وقضى عبد الرحمن كل وقته مستطلعاً آراء المسلمين من الصحابة وأشراف

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٤ — ٣٥ .

الناس ومفكريهم ، ولما انتهى من طوافه ومحادثاته دعا الكثير من أهل الفضل إلى المسجد حتى ازدحم بهم ، وبعد أن صلوا الصبح بدأ الجدل والكلام . فقام عبد الرحمن وقال : أيها الناس ! إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم ، وقد علموا أميرهم . فلما اشتد الجدال والنقاش قال سعد بن أبى وقاص لعبد الرحمن : أفرغ قبل أن يفتتن الناس . وأخيرا دعا عبد الرحمن عليا وقال له : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ، قال على : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ على وطاقتى ، ثم أبلغ عبد الرحمن عثمان ما قاله لعلى ، فقال عثمان : نعم ، فبايعه علىّ .

وهكذا أعلن عبد الرحمن مبايعته لعثمان ، فأقبل عليه الناس جميعا يبايعونه ، وبذلك نال عثمان الخلافة ، فقال علىّ لعبد الرحمن : لقد حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان ، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو فى شأن [1] .

وبعد أن بويع عثمان خطب فى الناس خطبته المشهورة التى تتعلق بالدين قال فيها : إنكم فى دار قلعه[2] وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فإن أتيتم صبحتم أو مسيتم . إلا وأن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . . . إرموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا ـ والذى هو خير ـ فقال عز وجل : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) ليست بمستوطن .

أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)(١).

اتساع الدولة العربية زمن عثمان :

كان ميدان الفتوح الإسلامية فى زمن عثمان فى الشرق والشمال والغرب من الجزيرة العربية . فى الشرق خرجت فارس بعد مقتل عمر على السيادة الإسلامية وهمّ الفرس باسترجاع مُلكهم بقيادة يزدجرد بن شهريار آخر الملوك الساسانيين ، فعهد عثمان إلى عبد الله بن عامر عامله على البصرة لقمع هذه الثورة ، فقضى عبد الله على الفتنة فى فارس ثم تابع سيره إلى خراسان وفتحها بعد أن ترك لجنده أمر إعادة سلطان الدولة فى كرمان وسجستان ، وفى أثناء هذه الحروب طورد يزدجرد وتوفى وقيل إنه قتل سنة ٣١ ﻫ على يد بعض الفرس المسيحيين ، وبموته انتهت سلسلة ملوك الدولة الساسانية فى فارس .

وفى عهد عثمان بن عفان فتح سعيد بن العاص بلاد طبرستان ، وقيل إن جيش المسلمين كان يضم الحسن والحسين ابنى على(٢) . وكذلك طلب ملك جرجان الصلح من سعيد بن العاص وتعهد بأن يدفع له مائتى ألف درهم كل عام(٣) . وعبر الأحنف بن قيس نهر جيحون فصالحه أهالى بلاد ما وراء النهر ، ثم توغل فى طخارستان وفتحها مدينة بعد أخرى حتى أرغم أهلها على مصالحته(٤).

---

(١) الطبرى ج٥ ص ٤٣ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٢ .
(٣) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٩٨ .
(٤) البلاذرى : نفس المصدر ص ٤١٥ .

وكانت الشام فى عهد عثمان مقسمة بين الأمراء المسلمين ، وكان معاوية يحكم جزءاً كبيراً منها وعرف بحسن السياسة والتدبير ، وتمكن من جمع الشام كلها تحت حكمه وأصبح أشبه بملك مستقل ، فقد مكث أميراً عليها مدة طويلة بلغت العشرين عاماً ، وصار له فى قلوب أهل الشام مكانة سامية كان لها أكبر الأثر فى تعضيدهم له عند ما عزله علىّ ورفض معاوية أن يطيع ذلك الأمر .

وفى مصر عزل عثمان بن عفان واليها عمرو بن العاص وولى عليها أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وكانت مصر إذ ذاك مهددة من الدولة البيزنطية، ومع ذلك فقد غزا ابن أبى السرح الإقليم المسمى إفريقية(١) لتأمين حدود مصر الغربية(٢) .

كانت الدولة العربية حتى وفاة عمر دولة برية وليست بحرية : فكانت جيوشها تحارب برا ، ولم نسمع إلى ذلك الوقت بواقعة بحرية أو بإنشاء أسطول ، ولكن فى عهد عثمان ابتدأت الدولة الإسلامية فى تكوين قوة بحرية كبيرة . ويقال إن معاوية استأذن عمر فى إنشاء أسطول يغزو به الروم فى البحر ، وذلك لأن معاوية وجد أن أساطيل الروم لا تبرح تهدد شواطىء الشام ، إلا أن عمر امتنع عن ذلك لخوفه على المسلمين من ركوب البحر ، ولكن الضرورة كانت ماسة لإنشاء أسطول ، إذ أصبح العرب أمام البيزنطيين وجهاً لوجه ، فلما جاءت خلافة عثمان عرض عليه معاوية الفكرة من جديد ، فأذن له عثمان على شرط ألا يجبر مسلما على ركوب البحر ، فجدّ معاوية فى إنشاء أسطول جعل رجاله من العرب اليمنيين ، وأمر على الأسطول الإسلامى عبد الله بن قيس الحارثى فكان أول أمراء البحر ،

(١) تونس الحالية .

(٢) الدكتور على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٣ — ٤٤ .

وقد حارب معاوية بهذا الأسطول البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية فى آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتى قبرص ورودس وفتح كثيراً من الحصون ، وسار إلى أرمينية الصغرى حتى وصل إلى قاليقلا(١) فصالحه أهلها ثم استمر فى فتوحه حتى بلغ تفليس .

وفى سنة ٣٤ هـ حدث بين العرب فى مصر بقيادة عبد الله بن أبى السرح وبين قسطنطين ملك الروم موقعة بحرية هامة فى البحر الأبيض المتوسط ، تعرف بموقعة ذات الصوارى بالقرب من مدينة الأسكندرية حين حاول الروم استرجاع مصر ، وكان النصر فيها للعرب ، وسميت بذلك الاسم لكثرة عدد السفن التى اشتركت فى المعركة ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأسطول العربى يقوم بدور هام فى التاريخ الإسلامى .

وكان عمرو بن العاص قد غزا بلاد النوبة ، فلما جاء ابن أبى السرح إلى مصر وتولى أمرها وجه نظره نحو الجنوب ، فغزا بلاد النوبة من جديد وواصل سيره حتى بلغ دنقلة ولكنه لم يتمكن من فتحها ، رغم ما بذله من جهود فى القتال ، وكان ذلك سنة ٣١ هـ ، فاضطر إلى مهادنة أهلها وعقد الصلح معهم(٢) . وكان هذا الصلح أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة : فقد نصت على أن ترسل بلاد النوبة الرقيق إلى مصر ، على أن تصدر مصر إليها الحبوب والعدس(٣) .

مقتل عثمان والأحداث التى أدت إليه :

إذا قارنا بين حال المسلمين فى زمن النبى وأبى بكر وعمر وحالهم فى زمن عثمان ، نجد هناك فرقاً شاسعاً : ففى الزمن الأول كان المسلمون

---

(١) هى البلاد التى فوق زاوية خليج إسكندرونة وهى تعرف باسم كيليكيا وتعرف عند العرب باسم قاليقلا .

(٢) الكندى : كتاب الولاة ص ١٢—١٣ .

(٣) Stanley Lane - Poole : History of Egypt in Middle Ages, pp. 20—21.

فقراء لم يفتنهم المال والعقار وامتلاك العبيد ، أما فى زمن عثمان فقد نشأ من تدفق الأموال على بلاد العرب بعد استقرار النفوذ العربى فى الأقاليم المفتوحة أن تغيرت حالة العرب الاجتماعية تغيراً ملحوظاً . كذلك تغيرت شخصية الخليفة فهناك فرق كبير بين شخصية النبى وأبى بكر وعمر وبين شخصية عثمان : فالنبى عليه السلام كانت له مكانة خاصة ممتازة كما كان زعيما سياسياً قديراً على تصريف أمور الدولة وحكم أصحابه من بعده حكما حازما ، وعرف أبو بكر وعمر بالعدل المقرون بالشدة ، ولكن عثمان من سوء حظه أنه حكم الدولة العربية بعد أن تغيرت أحوالها واتسعت أملاكها وكثرت أموالها وزادت مطامع رجالها وشهواتهم ، ولذلك لم يكن موفقا فى حكمه توفيق النبى وخلفائه الأوائل من بعده . ويمكن إرجاع الفتنة التى أودت بعثمان ، إلى الأسباب الآتية : -

١ - سياسة عثمان فى تولية الولاة :

ترك عثمان ولاة عمر بن الخطاب سنة واحدة فى مراكزهم ، ثم عزلهم الواحد بعد الآخر ، وعين بدلهم ولاة من بنى أمية كانوا حديثى السن وسيرتهم غير محمودة .

عزل عثمان، سعد بن أبى وقاص من ولاية الكوفة ، وولى مكانه الوليد بن عقبة أخاه من أمه ، وكان ذا ماض سيء إذ كان النبى عليه السلام قد ولاه على صدقة بنى المصطلق وأرسله ليجمعها فكذب على الرسول وقال إنهم امتنعوا عن دفعها ، وكذبه القرآن الكريم حيث يقول : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين)[1] . وسماه الرسول : الفاسق ، وعندما عزله عثمان عين مكانه أمويا آخر هو سعيد بن

---

(١) سورة الحجرات .

العاص ابن خاله ، وينسب إليه أنه قال : إن السواد بستان قريش، أى أنه كان يرى إيثار قريش بالأموال والأملاك دون سائر الناس . وعزل عثمان أبا موسى الأشعرى عن البصرة وعين بدلا منه عبد الله بن عامر ، وهو فتى فى الخامسة والعشرين من عمره وابن خال عثمان أيضاً . كذلك عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وعين مكانه أخاه فى الرضاعة عبدالله بن سعد بن أبى السرح مع أنه كان قد ارتد عن الإسلام وكان النبي عند فتح مكة قد أهدر دمه ولم يعف عنه إلا بعد أن أتى به عثمان مسلما .

لذلك نقم المسلمون على عثمان لأنه عزل ولاة عمر من الأمصار، وولاها ذوى قرباه ومن كانوا على صلة به رغم أنهم يكونوا من ذوى السيرة الحسنة .

٢ — سياسة عثمان المالية :

خالف عثمان أبا بكر وعمر اللذين كانا يعيشان عيشة زهد وتقشف ، ويسيران على سياسة ترمى إلى المحافظة على أموال المسلمين وإنفاقها بحرص، فقد مدّ يده إلى بيت المال ليأخذ من أموال الدولة لنفسه ولأهل بيته ويعطيها أقاربه وكبار القرشيين ، وسمح لهم بالتملك خارج الحجاز كما سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها(١) ، بينما منع عمر بن الخطاب أعلام قريش من الخروج إلى البلدان إلا بإذن ، وبذلك أوجد عثمان طبقة أصحاب الثروات الضخمة ، وخرج هؤلاء السادة من المهاجرين والأنصار إلى تلك الأقاليم النائية عن الحجاز وأنشأوا فيها أرستقراطية دينية تمتاز بالسبق إلى الإسلام وصحبة الرسول(٢) . كذلك آوى عثمان الحكم بن أبى العاص أبا مروان بن الحكم وأعطاه

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٣٤

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ٢٧٤ .

مائة ألف درهم ولم يأوه أبو بكر وعمر ، ولما فتحت إفريقية أخذ عثمان الخمس ووهبه كله لمروان بن الحكم . وطلب إليه عبد الله بن خالد بن أسيدْ صلة فاعطاه أربعمائة ألف درهم .

ولم يكتف عثمان بذلك بل إنه سمح لولاته الذين عينهم فى الولايات أن ينهجوا نهجه ، فمدوا أيديهم إلى أموال المسلمين بحجة التقرب إلى الناس بالأموال والعطايا ، فأثار هذا كله الحقد عليه وقوى المعارضة ضد حكمه .

٣ — تصرفات عثمان فى الأمور الدينية :

استحدث عثمان بن عفان فى الدين عدة أمور ، لم توجد من قبل فى عهد الرسول عليه السلام ولا فى عهد أبى بكر وعمر ، فقد جعل من القرآن نسخة واحدة رسمية هى النسخة التى جمعت فى عهد أبى بكر وأغضب بعمله هذا جماعة من المسلمين على رأسهم عبد الله بن مسعود الذى رأى فى إحراق النسخ الأخرى من من القرآن ومن ضمنها نسخته خروجاً على الدين . وكان عثمان أول من قدّم الخطبة فى العيد على الصلاة وأتم الصلاة فى منى مخالفا فى ذلك النبى وأبا بكر وعمر الذين قصروها ، كما أخذ عثمان الزكاة على الخيل ، وخالف بذلك الرسول عليه السلام وأبا بكر وعمر .

وصرف عثمان بن عفان من موارد الصدقة فى الحروب وغيرها من المرافق ، مع أن لأموال الصدقة مصارف معينة بينها الله سبحانه وتعالى فى قوله : (إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) . وبلغ من كره المسلمين لعثمان واعتراضهم على تصرفاته ، أنهم لم يقدروا تلك الإصلاحات التى قام بها ، ومن بينها توسيع مسجد الرسول عليه السلام .

٤ — حركة ابن سبأ(١) ضد عثمان :

صادفت دعوة عبدالله بن سبأ ضد عثمان مرعى خصيبا فى البصرة ، ولكن عبد الله بن عامر والى عثمان عليها تمكن من طرده منها ، فرحل ابن سبا من الكوفة ، وهناك ظهر استياء الناس من عثمان وواليه ، وطُرد ابن سبأ من الكوفة أيضا ، فسار إلى بلاد الشام وحرّض على عثمان أبا ذر الغفارى وكان من المعارضين لسياسة الخليفة . وأخيراً رحل ابن سبأ إلى مصر وأخذ ينشر دعوته ، واتصل بالثائرين فى كل من البصرة والكوفة ، وكان يتبادل مع أهلها الكتب والرسائل والرسل ، وقد سهل على ابن سبأ تنفيذ سياسته فى مصر اشتداد سخط أهلها على عثمان بن عفان وعلى واليه عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، كما ساعد انضمام محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر إليه على إذكاء نيران السخط فى مصر ونجاح ابن سبأ فى سياسته التى سارعت بخلافة عثمان إلى الزوال .

٥ — اعتراض الصحابة على سياسة عثمان :

غضب كثير من الصحابة على عثمان ، لاشتطاطه فى جباية الأموال وإغداقها على أقاربه وإسراف ولاته فى سفك الدماء . وكان أبو ذر الغفارى من أشد الصحابة سخطا عليه ، فأخذ يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء ، ودعا إلى عدم كنز الأموال ، وإلى صرف الفائض من أموال الأغنياء على الفقراء متمثلا بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها

---

(١) هو يهودى من أهل صنعاء ، أمه حبشية ، واعتنق الإسلام فى عهد عثمان ، وأخذ يتنقل فى البلاد الإسلامية : فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة فالشام ومصر .

(٢) الدكتور على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦ — ٣٧ .

جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون) (١) .

وقد غضب عثمان على أبى ذر الغفارى فأرسله إلى معاوية بالشام ، ولكن معاوية خاف على ولايته من دعوة أبى ذر ، وخاصة أن ابن سبأ حينما وفد إلى الشام حرض أبا ذر على معاوية ، فسيره معاوية إلى المدينة لما وجد فيه معارضا لسياسته ، فلما دخلها أبا ذر وجد المجتمعات تعقد بها للتآمر على عثمان ، فنادى فى المجتمعين : بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار (٢) ، وأخيراً نفاه عثمان إلى الربذة (٣) حيث مات سنة ٣١ هـ (٤).

وكان عبد الرحمن بن عوف ، وهو ممن بايعوا عثمان بالخلافة ، من بين الغاضبين على عثمان ، وأخذ فى بادىء الأمر ينصحه فلما ضاق ذرعاً بسياسته قاطعه وابتعد عنه . ولم يرض علىّ بن أبى طالب عن عثمان واعترض علناً على سياسته وتصرفاته وأكثر من نصحه بدون جدوى ، حتى ساءت العلاقات بينهما ، وتدخل العباس بن عبد المطلب للتوفيق بين الرجلين ولكنه لم ينجح فى مسعاه . وغضب كذلك عمار بن ياسر على عثمان وناله منه أذى كثير بسبب معارضته له ، وهدد بالنفى فذهب إلى مصر وانضم هناك إلى المعارضين . وكان من بين الذين غضبوا أيضاً على عثمان بسبب تصرفاته عبد الله بن مسعود ، وطلحة بن عبيد الله الذى قيل إنه كان من بين الذين حاصروا عثمان فى داره .

كان هؤلاء المعارضون من كبار الصحابة الذين لم تتجاوز معارضتهم

---

(١) سورة التوبة ٩ : ٢٤ .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك . تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٧٥ .

(٣) الربذة : قرية صغيرة على مقربة من المدينة .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٨ .

حد النصح . ولا شك أن موقفهم من عثمان ، كان بسبب ما رأوه من تنكبه الطريق السوى الذى سلكه الرسول وأبو بكر وعمر .

الحالة فى الأمصار :

١ — فى المدينة :

لم تكن المصلحة العامة وحدها هي التى دعت إلى الثورة على عثمان : فقد رأى على بن أبى طالب نفسه أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر ، وكذلك راعى طلحة والزبير مصالحهما . على أن كبار الصحابة جميعا كانوا خلال معالجتهم للحالة فى الأمصار يعتبرون أنفسهم حماة للمصلحة العامة ، يمثلون النظم والتقاليد التى سار عليها النبي وأبو بكر وعمر . وأنتجت معارضة هؤلاء ظهور روح الثورة فى المدينة ، وهى بلدة كانت فى حاجة ماسة إلى العون المادى والمدد العسكرى ، ولذلك عمد أهل المدينة إلى الاتصال بالمسلمين فى الأمصار ، وخاصة البصرة والكوفة والفسطاط ، فيما عدا بلاد الشام التى لم تثر على عثمان بفضل سياسة معاوية .

٢ — فى الكوفة والبصرة :

ابتدأت الفتنة فى الكوفة فى سنة ٣٤ هـ ، وكان والى الكوفة سعد بن أبى وقاص قد عزله عثمان ، وولى مكانه الوليد ، ثم عزله وولى سعيد بن أبى العاص الذى اشتدت فى عهده الحالة فى الكوفة حتى اضطر إلى الخروج إلى المدينة ليطلع الخليفة على حقيقة الحال فانتهز أهل الكوفة فرصة غيابه ومنعوه بن دخولها عند عودته إليها . وهنا يتضح ضعف عثمان ، فقد رضى بعزل سعيد وولى مكانه أبا موسى الأشعرى ، وهو رجل ضعيف لم يستطع كبح الثوار . وكانت الحالة فى البصرة مثلها فى الكوفة ، غير أن الثورة فى الكوفة كانت أشد منها فى البصرة لكثرة عدد الجند بها .

٣ — فى الفسطاط :

أما فى الفسطاط ، فإن عثمان لما تولى الخلافة ، عزل عمرو بن العاص عن

ولاية مصر وولى مكانه عبدالله بن سعد بن أبى السرح، فخسر بذلك صداقة عمرو وهو رجل من أدهى رجال عصره ، فقد خرج من مصر بعد عزله وسار إلى المدينة ناقماً على عثمان، فلما اشتدت الحال فى المدينة ذهب إلى فلسطين، ولكن حنقه على عثمان كان فى ازدياد .

وفى مصر كان على رأس الثوار المصريين رجلان من كبار المحرضين على عثمان هما : محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة ، فقد حقد ابن أبى حذيفة على عثمان لأنه كان يأمل أن يوليه بعض أمور المسلمين ، ولكنه رفض (١)، وظهر مسلكه العدائى لعثمان عند ما شجر الخلاف بينه وبين ابن أبى السرح فى واقعة ذات الصوارى سنة ٣٤ هـ ، وابتدأت الثورة فى مصر على الخليفة فى أثناء الغزوة التى انتهت بتلك الواقعة ، فقد خرج المصريون ومعهم محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة وانضم إليهما فريق ممن على رأيهما ويظهر أنهما سخطا على عبد الله بن أبى السرح لأنه استأثر بالأموال والخزائن وعاونه الخليفة على ذلك . ولما وضعت الحرب أوزارها رجع ابن أبى حذيفة وابن أبى بكر إلى الفسطاط ، حيث انضما إلى ابن سبأ(٢)، وهكذا نجح ابن سبأ فى مصر فى تأليب الناس على عثمان ، وانضم إليه كثير من ذوى النفوذ والسلطان ، وبذا كانت معارضة الأقاليم لحكم الخليفة أقوى من معارضة المدينة .

الدور العملي فى الفتنة :

أوجس عثمان خيفة من المعارضة التى قامت ضده فى الأقاليم . ولذلك انتهز فرصة موسم الحج سنة ٣٤ هـ ووجود ولاته المقربين إليه وهم معاوية وابن أبى السرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، واستشارهم فى

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٣٥ .

(٢) انظر هامش «١» من كتاب الدكتور حسن إبراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص٢٧٣

السياسة الواجب اتباعها إزاء أهل الأمصار . على أن المعارضين لم يعطوا فرصة لولاة عثمان لتنفيذ السياسة المرسومة : فأهل الكوفة حالوا دون رجوع سعيد بن العاص إلى ولايته واضطروا عثمان أن يولى بدلا منه أبا موسى الأشعرى ، كما أن ابن أبى حذيفة فى مصر كاتب الثوار فى البصرة والكوفة واتفقوا على الذهاب إلى المدينة .

خرج وفد مصر وكان يتألف من ستمائة شخص قاصداً المدينة ، وكذلك سارت وفود من الكوفة والبصرة ، ووصلت هذه الوفود إلى مكان قريب من المدينة واتصلت بعثمان ، ودارت بينه وبين هذه الوفود محادثات . وكان على بن أبى طالب هو السفير بين الثوار وبين عثمان ، وظهر ضعف عثمان من إجابته مطالب الثوار بعزل الولاة وإرجاع الأموال ، ولكنه صمم على البقاء على عرش الخلافة عندما طلب إليه الثوار أن يعتزلها .

ظن الناس أن الثورة قد انتهت بإجابة مطالب الثوار وهموا بالرجوع، ولكن فى اليوم التالى هجم الثوار على المدينة واستعملوا أساليب العنف أثناء الهجوم ، ويرجع سبب ذلك إلى أن المصريين أثناء رجوعهم رأوا رجلا على جمل البريد ، ولما شكوا فى أمره فتشوه ، فوجدوا معه كتابا بختم عثمان يأمر فيه واليه ابن أبى السرح بقتل كبار الثوار من المصريين ، وعندئذ عاد الوفد إلى المدينة ورجعت الوفود الأخرى وبدأوا يحاصرون دار عثمان . وقد ادعى عثمان أنه لم يكتب هذا الكتاب ولم يوقع عليه ، ولكن هذا الاعتذار لم يجد نفعاً ، وفى يوم الجمعة التالى لدخول الثوار المدينة خطب عثمان الناس ونصحهم بالهدوء والسكينة ، ومنذ ذلك الوقت منع عثمان من الخروج من داره ومن الاتصال بالناس .

بدأ منذ ذلك الحين حصار دار عثمان ، فقد حاصرها الثوار أربعين يوما وهددوه بالقتل ، فقال « والله لئن قتلتموني لاتتحابون من بعدى أبداً ، ولا تصلون بعدي أبداً ، ولا تقاتلون بعدى عدواً جميعاً أبداً » . وحاول أن يقنع الثوار بما قدمه من خدمات للإسلام والمسلمين ، ولكن الحماس كان قد أخذ من الثوار كل مأخذ ، فلم يعبأوا بقوله ، فاستنجد عثمان بعلى ابن أبى طالب الذى حاول جاهدا أن يهدىء من حماس الثوار ، وأن يبعدهم عن دار عثمان ولكنه أخفق فيما أراده . ثم استنجد بمعاوية بن أبى سفيان فكتب إليه كتاباً قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم — أما بعد ، فإن أهل المدينة قد كفروا ،وأخلفوا الطاعة ، ونكثوا البيعة ، فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول » .

وأرسل الثوار يستدعون أهل مصر خشية أن تحضر قوات من الأمصار لتنقذ الخليفة . ثم تسلق المنزل محمد بن أبى بكر الذى كان المصريون يودون أن يكون والياً عليهم ومعه رجلان ، ودخلوا على عثمان وهو جالس مع زوجته ، وطرحه ابن أبى بكر أرضاً وأخذ يشد لحيته ، فذكره بأبيه ، فتركه محمد وخرج ، فانتهز عثمان فرصة خروجه وأسرع يطلب ماء الوضوء فتوضأ وأحضر المصحف ومسك به ، حتى يجعل منه وقاية تقيه وحرزا يحميه.

ولما صح عزم الثوار على الهجوم على الخليفة وجدوا أن أبناء الصحابة وفى مقدمتهم الحسن والحسين يقفون بباب الدار لحماية الخليفة ، فأحرق المصريون الباب والسقيفة ، فسقطت السقيفة . ودخل الثوار على عثمان ، فطعنه رجل من أهل الكوفة بسهم ذى نصل عريض ، وجاء آخر فضربه برجله ثم تتابع ستة رجال حتى دخل رجل من أهل مصر ، فنتف من لحية عثمان خصلة ، وضربه بقضيب من حديد على صدغه الأيسر ، وأرادت زوجته

نائلة أن تحول بينه وبين الثوار ولكنها عجزت ، إذ دخل رجل من أهل مصر وضربه بالسيف ، فتلقت نائلة الضربة بيدها فقطعت أصابعها ، ولم تزل تدافع عن زوجها ، وتضرب أروع الأمثلة فى الوفاء والإخلاص، حتى دخل كنانة ابن بشر التجيبى ، فوضع طرف سيفه فى بطن عثمان فبقره(١)، وحاولت نائلة أن تمسك بالسيف فقطع أصابعها ، وأسلم عثمان أنفاسه الأخيرة ، فأخذت نائلة تصيح ، فخرج الثوار هاربين واندفع الصحابة إلى عثمان حيث وجدوه صريعاً ، فبكى كثير منهم ، وجاء على بن أبى طالب فصفع ولديه لعدم حمايتهما لعثمان .

كان مقتل عثمان يوم الجمعة ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ ه . وقد رثته ابنته عائشة فقالت : « رحمة الله عليك يا أبتاه . . . احتسبت نفسك ، وصبرت لأمر ربك حتى لحقت به ، وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوض الباطل وكوامن الأحقاد »(٢) . أما زوجته نائلة(٣) فقالت « . . . رزئت جليلا وتذوقت ثكلا من عثمان بن عفان ثالث الأركان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فليعلمن الذين سعوا فى أمره ، ودبوا فى قتله ، ومنعونا من دفنه(٤)، اللهم إن بئس للظالمين بدلا ، وإنهم شر مكانا وأضعف جندا . . . هيهات والله ما مثله بموجود ، ولا مثل فعله بمعدود » .

وكان مقتل عثمان بداية الفتن والانقسامات فى الإسلام حتى يومنا هـذا

---

(١) محمود الغزاوى : مقتل عثمان بن عفان ص ٨٣

(٢) أشهر مشاهير الإسلام ج ٤ ص ٨٢٣ .

(٣) صارت نائلة مثالا لوفاء الزوجة لزوجها ، ولو أدى ذلك إلى بذل دمها رخيصة فى سبيل الدفاع عنه والمحافظة على حياته ، فقد دافعت عن زوجها دفاع الأبطال ، وقت أن حفت بها المصائب من كل جانب ، مما خلد إسمها فى التاريخ رمزاً للبطولة وعنوانا للاخلاص . على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٦٢ .

(٤) تقصد هذه السيدة من قولها « ومنعونا من دفنه » : أن الثوار لم يكتفوا بقتله والتمثيل بجثته ورميها بالأحجار والنعش محمول على الأعناق ، بل أنهم لم يسمحوا بجنازته ولا بدفنه مع بقية الصحابة والخلفاء ، فدفنت جثته بمقبرة مجاورة لمقابر اليهود .

وانتهت من ذلك التاريخ الخلافة الحقة القائمة على الفكرة الديمقراطية وابتدأ ماسُمّى بالملك واعتبر عهد على بن أبى طالب الذى خلف عثمان فترة انتقال بين العهدين .

شخصية عثمان :

كان عثمان عند ما اعتلى عرش الخلافة قد تقدم فى السن تقدما كبيراً ، فقد قيل إنه كان فى ذلك الحين فى السبعين من عمره . وشفع له فى الوصول إلى الخلافة ماضيه المجيد فى سبيل الدعوة الإسلامية ، إذ كان أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض(١) .

كان عثمان غنياً أنفق معظم أمواله فى سبيل نشر الدعوة الدينية(٢) ، شديد الإيمان بصدق رسالة النبى عليه الصلاة والسلام وقد تزوج بينتين من بناته ، كما كان طيب القلب خالص العقيدة سخياً ، وذاع عنه الجود والكرم والبذل للقريب والبعيد حتى قلده عماله وكثير من أهل عصره فى طريقته واقتدوا بفعله(٣) .

ومع ذلك لازمه سوء الحظ فى خلافته فإنه لم يؤثر عنه مواقف تدل على شجاعته فى الحروب ولذا كانت خدمته للإسلام بماله لا بسيفه ، كما أنه تجرد من قوة الإرادة وبعد النظر والدهاء السياسى وهى مما اتصف به أبو بكر وعمر .

---

(١) ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة جـ ٤ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) المسعودى . مروج الذهب جـ ١ ص ٤٣٣ .

(٣) المسعودى : نفس المصدر والجزء والصفحه .

٤ ـ على بن أبى طالب

٣٥ - ٤٠ هـ = ٦٥٦ - ٦٦١ م

ولد على قبل البعثة بعشر سنين ، وهو ابن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . وكان لعلى المقام الأول بين صحابة الرسول : إذ آمن برسالته وهو صبي لم يبلغ الثالثة عشرة ، وعد فى طليعة الذين دافعوا عن الرسول وناصروه فقد بات فى موضع الرسول فى الليلة التى هاجر فيها النبى عليه السلام من مكة إلى يثرب[١] ولم يهاجر على إلا بعد أن أدى الودائع التى كانت عند الرسول لأهلها ، وزوجه الرسول من ابنته فاطمة فى السنة الثانية للهجرة فأعقب منها الحسن والحسين [٢] .

كان على يرى أنه أحق المسلمين بالخلافة بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام: فهو ابن عم النبى وزوج ابنته فاطمة ، وكان أبو بكر يستشيره فى مهام الأمور ، كما كان عمر لا يعمل إلا بمشورته لما يعهده فيه من الفقه والذكاء والدين ، وبعد مقتل عمر دخل على الشورى وكان يظن أن الخلافة ستؤول إليه فلما آلت إلى عثمان بايعه على ولازمه ، وكان عثمان فى صدر خلافته يستشيره فى كثير من الأمور ، ولكن محاباة عثمان ذوى قرباه غيرت رأى على فيه فظن الناس أن العلاقة قد توترت بينهما (٣) .

انتخابه:

بعد موت عثمان ، مال بعض الثوار إلى تولية على ولكن بيعته لم تكن عن إجماع من المسلمين ، فقد كان أكثر الصحابة متفرقين فى الأمصار ، ولم

---

(١) ابن أبى الحديد : شرح منهج البلاغة ج ٣ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٤٣ .

(٣) ابن أبى الحديد : نفس المصدر والجزء ج ٣ ص ١٩٢ .

يكن بالمدينة سوى عدد قليل على رأسه طلحة والزبير ، كما تردد فى بيعته بعض الصحابة كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ، وتخلف على بيعته بعض الأنصار كحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وبنى أمية وقد لحق بعضهم بالشام ولحق البعض الآخر بمكة (١) .

ولما قتل عثمان بن عفان ، أقبل الناس على على بن أبى طالب ليبايعوه ، فقال : ليس ذلك لكم ، إنما ذلك لأهل بدر ، أين طلحة والزبير وسعد ؟ فأقبلوا فبايعوا ، ثم بايعه المهاجرون والأنصار ومن بعدهم سائر الناس . وكان ذلك فى يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ . وكان طلحة أول من بايعه (٢) ، وكانت المبايعة له فى المسجد لأن عليا اشترط ذلك .

وبذلك تكون خلافة على انتخابية كخلافة أبى بكر وعمر ولكنها لم تكن إجماعية ، لذلك بدأ الانقسام من عهد خلافة على ، إذ قيل إنه تلقى البيعة عمن اشتهروا بإثارة الفتن وإراقة الدماء ، وحط خصومه من بيعته فقد قالوا إن بيعته غير صحيحة لأن من ولوه كانوا ممن يجب على علىّ أن يقتص منهم بدل أن يقبل الخلافة عن طريقهم .

وكان على يعتبر نفسه الخليفة الحق ، ولذا حاول إصلاح المفاسد التى وقعت فى زمن سلفه عثمان ، وبدأ بعزل عمال الأمصار من أقرباء عثمان وهذه الخطوة كانت غير موفقة ، فإن بيعته لم تكن عامة ، وسار فى تنفيذ خطته رغم نصيحة المخلصين من أتباعه بالعدول عما اعتزمه من أمر هؤلاء الولاة . وكان من أثر ذلك ، تلك الفتن التى أثارها فى وجهه طلحة والزبير من جهة ، ومعاوية ابن أبى سفيان من جهة أخرى .

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٠٥

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٩٣

بين علي وطلحة والزبير:

وجد في عهد علي فتنة داخلية ، بدأت بعزل عمال الأمصار من أقرباء عثمان : فقد أحفظ هذا العمل قلوب أولئك الولاة الذين أثروا في عهد عثمان، كما أن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بعد أن بايعا عليا نقضا بيعته وذهبا إلى مكة واتفقا مع السيدة عائشة على الخروج على عليّ (١) ، ولما ذهبت إليها انضم إليها بنو أمية وطلحة والزبير (٢) كما وصل إلى مكة وقتئذ ولاة الأمصار الذين عزلهم علي . وبعد قليل وجدوا أن مكة لا تصلح لأن تكون مقراً لحركتهم ، فخرجوا إلى البصرة بعد أن عمل طلحة والزبير على استمالة زعمائها وهم المنذر بن ربيعة سيد ربيعة والأحنف بن قيس سيد مضر وكعب بن سور سيد اليمن وحاولا أن يستميلا عبد الله بن عمر ولكنهما فشلا ولم يجدا منه إلا التمسك ببيعته لعلي ، وكان عبد الله بن عمر يرى في انزواء عائشة المحافظة على كرامتها والإشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم . وقال عبد الله لطلحة والزبير: وأعلمها أن بيت عائشة خير لها من هودجها، وإنما المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ، ولن يقاتل عليا إلا من كان خير منه ، وأما الشورى فقد والله كانت ، فقدم وأخرتها ولن يردها الا أولئك الذين حكموا فيها ، فما كفياني أنفسكما (٣) . على أن طلحة والزبير لم يستمعا للنصح ولم يكن لنصيحة أم سلمة زوج الرسول أي أثر في نفس عائشة (٤) .

---

(١) ربما كان مسلك السيدة عائشة من علي راجعاً إلى كراهيتها عليا منذ موقفه في حادث الإفك

(٢) يقال إن سبب خروج طلحة والزبير على علي أن طلحة كان يريد الولاية على اليمن ، وكان الزبير يريد الولاية على العراق ولكن علي لم يوافقهما .

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠ و ١٠٣

(٤) أنظر الكتب التي دارت بين عائشة وأم سلمة ، في العقد الفريد ج ٣ ص ٩٦-٠٩٧

خرجت عائشة[1] وطلحة والزبير إلى البصرة فى ستمائة رجل ، وعمد على إلى الإقناع بالحجة والبرهان وكاد ينجح فى سياسته ، ولكن السبئية وهم أنصار عبد الله بن سبأ وكانوا فى جيش على ، خشوا حدوث الاتفاق بين الفريقين المتنازعين وانسلوا ليلا من جيش على وهاجموا جيش عائشة فى البصرة. ولم يكن على يرغب فى تطور الحوادث ، ولكن قامت حرب طاحنة بين على وبين أعدائه برئاسة عائشة فى مكان يقال له الخريبة فى منتصف جمادى الأخرى سنة ٣٦ هـ ، وقيل إن عدد القتلى من الفريقين فى يوم الجمل كان عشرة آلاف[2]. ودامت هذه الواقعة سبعة أيام، وفيها انتصر بادىء الأمر جيش السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ولكن عليا لم يلبث أن أخذ الراية من ابنه محمد بن الحنفية وهاجم أعداءه وعاونه أصحابه ، حتى دارت الدائرة على الأعداء فقتل طلحة وابنه محمد وأسر مروان بن الحكم والسيدة عائشة ، وأما الزبير فقد انسحب قبل بدء المعركة تنفيذا للوعد الذى وعده لعلى ولكن عمر بن الجرموز وهو يمنى قتله وأخذ رأسه وأتى بها لعلى .

وسميت تلك الواقعة واقعة الجمل، لأن عائشة كانت تركب جملا وتحرض الجند على القتال وهى فى هودجها المصفح بالحديد ، ولم ينته القتال إلا عندما عقر الجمل بالسيف ، ورغم ذلك أحسن على معاملة السيدة عائشة وسيرها إلى المدينة معززة مكرمة ، ويقال إنه ودعها بنفسه وجهزها بما تحتاج إليه فى سفرها[3]، وبذلك لم يعامل السيدة عائشة بما عاملته . وعقب انتهاء تلك الواقعة

(١) يجب أن نشير هنا إلى أن السيدة عائشة عارضت عثمان بن عفان فى حياته ، فقد وقفت — حين كان عثمان يخطب فى المسجد — ممسكة بيديها جلباب الرسول ، وقالت : « يا معشر المسلمين ? هذا جلباب الرسول لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته » . على أن ذلك لم يمنعها من أن تعترم الانتقام ممن تسببوا فى قتله وتهاونوا فى المحافظة على حياته ، ولما ذكرها بعض الناس بخصومتها القديمة للخليفة المقتول ، ردت قائلة : « إنهم استتابوه ، ثم قتلوه » .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٢٥ .

ومقتل طلحة والزبير ورحيل السيدة عائشة(١) إلى المدينة ، استقرت الامور وسارت الأحوال فى مجراها الطبيعى .

بين على ومعاوية :

كان معاوية واليا على الشام منذ عهد عمر بن الخطاب فاتسع نفوذه وسلطانه فى عهد عثمان بن عفان ، ولما قتل عثمان وبويع على أرسل إلى معاوية الرسل والكتب يطلب إليه مبايعته ولكنه رفض ، وبعث إلى على ابن أبى طالب كتاباً يقول فيه : من معاوية إلى على ، أما بعد فإنه ليس بينى وبين قيس عتاب . . . غير طعن الكلى وضرب الرقاب . وبعد أن انتصر على فى موقعة الجمل أرسل أيضا إلى معاوية يدعوه إلى بيعته ، ولكن معاوية رد عليه بكتاب عنوانه : من معاوية إلى على ، وداخله : بسم الله الرحمن الرحيم ، لاغير ، ولم يكتب معاوية بالامتناع عن بيعة على ، بل يقال إنه أخذ البيعة لنفسه من أهل الشام بعد أن أقنعهم بضرورة محاربته لأنه تخاذل فى الدفاع عن عثمان ، ويقال إن على بن أبى طالب كتب إلى معاوية فى كتاب بعثه مع جرير بن عبد الله البجلى يقول فيه : وقد كثر الكلام فى قتلة عثمان ، فأدخل فى الطاعة ثم حاكم القوم ، فإنى أحملك وإياهم على كتاب الله . فلما ذهب رسول على إلى معاوية ماطله واستنظره ، وكتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد فإنه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ، فقد قدم علىّ جرير بن عبدالله فى بيعة على ، وحبست نفسى عليك حتى تأتينى ، فأقدم على بركة الله تعالى(٢).

سار على ومعه أتباعه من المهاجرين والأنصار وأغلبهم من أهل الكوفة إلى صفين على شاطىء الفرات الغربى فى تسعين ألفاً لخمس بقين من

---

(١) عقب واقعة الجمل ، عدلت السيدة عائشة عن الحياة العامة إلى الحياة الخاصة ، وكان ذلك بمثابة نهاية حياتها السياسية ، وتوفيت عام ٥٧ هـ ودفنت ليلا فى البقيع ، وصلى عليها أبو هريرة.
(٢) اليعقوبى جـ ١ ص ٢١٥ .

شوال سنة ٣٦هـ(١) ، وكان جيش معاوية من أهل الشام ويربو عدده على ثمانين ألف قد سبقه إلى هناك حيث سهولة الأرض وقرب الفرات ، بينما بات على وجيشه فى البر عطاشا لأنه حيل بينهم وبين الماء (٢) ، ولكن جنود على أجلوا جند معاوية عن الماء بالقوة ثم سمحوا لهم بالشرب منه بعد ذلك . وبعد يومين من نزول على هذا الموضع دعا معاوية مرة أخرى إلى توحيد الكلمة ، واستمرت المراسلات بينهما مدة واتفقا أخيراً على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧هـ ، ثم دارت رحى الحرب بينهما من جديد .

وانقضى المحرم وبدأ صفر فل كلاهما هذه الحال ، وبدأت واقعة صفين وفيها بدأ القتال بين ميمنة على وميسرة معاوية ، فانتصرت ميسرة معاوية فى أول الأمر . ولكن عليا استأنف القتال وهاجم معاوية وقائده عمرو بن العاص . فلما أحس معاوية الهزيمة طلب إلى عمرو بن العاص أن يخلصه من هذا المأزق ، ففكر فى حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح وتعليقها فى أعناق الخيل طالبين تحكيم القرآن وقد أخذ أصحاب على وبخاصة القراء (الفقهاء) بهذا الرأى ، ولم يستمعوا له عند ما حاول أن يبين لهم أنها حيلة وخديعة ، واضطروه إلى قبول التحكيم . وعلى أثر هذه الخدعة انقسم جيش على . وانتهى الأمر بخروج بعض المتحاربين فى صف على من القتال احتجاجا على وقف الحرب . وقد عرف هؤلاء باسم « الخوارج » . وعلى رأس الذين رأوا ضرورة قبول على مبدأ التحكيم ، الأشعث بن قيس وكان والياً على أذربيجان منذ أيام عثمان ، ولما ولى على الخلافة بايعه وكان على رأس أهل الكوفة وهم غالبية أنصار على . لذلك اضطر على النزول على رأى الأشعث كارها ، مع أنه لم يكن مخلصاً للخليفة لمطالبته إياه بالأموال التى جمعها من ولايته .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص١٥—١٧ .
(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص١٧٢ .

التحكيم :

ارتضى الفريقان التحكيم واتفقا على أن يختار كل منهما مندوبا عنه في النزاع ، للحكم طبقا لكتاب الله ، فاختار معاوية وأهل الشام عمرو بن العاص واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى وكان على لا يريد اختياره فقال : قد عصيتمونى أول الأمر فلا تعصونى الآن ، وبين لهم تخوفه من أبى موسى ولكنهم لم يطيعوا عليا وأصروا على انتخاب أبى موسى فأذعن على على كره منه[1] .

انعقدت محكمة التحكيم فى « دومة الجندل » الواقعة على الطريق بين دمشق والمدينة وظل الفريقان يجتمعان ويتفاوضان فى الأمر حتى اتفقا على خلع على ومعاوية وترك الأمر شورى ، يختار المسلمون من يريدون على نحو ماحدث فى اختيار أبى بكر وعمر وعثمان ولكنهما لم يتفقا على من يخلف عليا.

قدم أبو موسى الأشعرى للكلام من قبيل الاحترام لسنه ، حتى يبدأ أبو موسى بخلع صاحبه ثم يعمل عمرو ما يريد . نهض أبو موسى وخطب مضمنا خطابه هذا الاتفاق ، وفيه يقول : أيها الناس ! إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا لمشعثها من أن نخلع على ومعاوية ، فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت عليا ومعاوية . ثم أقبل عمرو بن العاص فأكد ما قاله أبو موسى خاصا بعزل على ثم أيد صاحبه معاوية وثبت سلطانه ، فقام مقامه وحمد الله وأثنى عليه وقال : أين هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية فإنه ولى عثمان ، والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه (٢) وأخيراً

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٢٨٧ .

(٢) الطبرى جـ١ ص ٣٩ .

تنابذا وركب أبوموسى راحلته ولحق بمكة ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة(١) .

وزاد موقف على حراجة أنه كان ملزما أمام الصحابة بالخضوع لهذا الحكم، إلا أن عليا رفض قبول التحكيم على هذا النحو واعتزال الخلافة . وقامت على أثر ذلك اضطرابات وفتن شملت معظم أرجاء الدولة العربية . وبذلك لم يحل التحكيم النزاع بين على ومعاوية لأن الحكمين اختلفا . وفى الوقت الذى استفاد فيه معاوية من فكرة التحكيم ومن الصورة التى تم عليها ، فإنه قد أضر بعلى ضرراً بليغاً ، لأنه فرق أتباعه شيعاً وكان سببا فى ظهور الخوارج ، مما أضعف من قوة على وكسر من شوكته ، فلم يستطع حين أراد السير لقتال معاوية أن يجد الأنصار الذين يستطيع الاعتماد عليهم .

الخوارج فى عهد على:

رجع على إلى العراق بعد واقعة صفين انتظارا لقرار الحكمين ، وكان الخوارج يقاطعونه عند ما يخطب على منبر الكوفة ويقولون : « جزعنا من البلية ، ورضينا بالقضية وقبلت الدنية ولاحكم إلا لله » . وهكذا نرى أن الذين كانوا مع على فى صفين متوادين خرجوا عليه ، وعرفوا لذلك باسم الخوارج ، وكان عددهم إثنى عشر ألفا ، استطاع على أن يقنع منهم ثمانية آلاف وبقى أربعة آلاف على عدائهم له وذهبوا إلى بلدة النهروان ، واضطر على أن يذهب لقتالهم . وقد دارت فى النهروان معركة شديدة كان على رأس الخوارج فيها عبدالله بن وهب ، إلا أن عليا هزمهم هزيمة منكرة وأبادهم ، وبعد أن انتهى من قتالهم عاد إلى الكوفة حيث دعا الناس إلى قتال معاوية ، ولكنهم تقاعدوا عن نصرته .

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٨٨ .

مقتل على :

أصبح موقف على بذلك فى غاية الحرج ، وسئم الناس الحالة التى كان عليها المسلمون فى ذلك الوقت وخصوصاً الخوارج ، فاتفق ثلاثة منهم على أن يقتل كل واحد منهم أحد زعماء هذه الفتنة وهم : على ومعاوية وعمرو ، غير أن من من توليا قتل معاوية وعمرو لم يصيباهما ، وتمكن عبد الرحمن بن ملجم من طعن على عدة طعنات مميتة وهو خارج من صلاة الصبح فى مسجد الكوفة وذلك فى ١٥ رمضان سنة ٤٠ ﻫ وتوفى بعد ذلك بيومين (١٧ رمضان) ، وبوفاة على ينتهى عصر الخلفاء الراشدين ، وهو العصر التى تستند فيه الخلافة إلى الدين وتقوم على فكرة الشورى ، ويبتدىء عصر خلافة جديد يحول الخلافة إلى ملك وراثى استبدادى ، وهكذا كان عصر على هو الفارق بين العصرين .

شخصية على :

ذهبت طوائف الناس فى تحليل شخصية على مذاهب شتى : فريق يبغضه ويلعنه وينسب إليه كل نقيصة وهم طائفـــة الخوارج التى لم تنس لعلى خروجه من ساحة القتال وهو على وشك الانتصار فى صفين . وفريق يذهب إلى تمجيده ويرفعه إلى مرتبة الآلهة وهم طائفة الشيعة التى تجعل الخلافة من بعد النبي عليه السلام حقاً شرعيا لعلى بن أبى طالب وذريته ، وفريق محايد يصف عليا بالصفات التى رآها فيه دون المبالغة فى مدحه أو الإسراف فى ذمه وهم طائفة السنة التى لا تحاول الانتقاص من قدر على أو رفعه مرتبة فوق ما يستحق .

كان على ذا شخصية عظيمة هى أشبه ما تكون بشخصية عمر بن الخطاب

فقد كان يتحرى العدل ومصلحة المسلمين ، حريصاً على أموالهم ، وأبلى بلاء حسناً وأخلص فى نصرة الإسلام : فقد كان على أول من أسلم من الصبيان ، متفقها فى الدين يرجع إليه فى كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية الحديث ، وكان يقول : «سلونى سلونى عن كتاب الله تعالى فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار فى سهل أم فى جبل» ، وكان فصيحاً ضرب بفصاحته المثل ، كما كان شاعراً حتى قيل : كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان عثمان يقول الشعر وكان على أشعر الثلاثة(١) .

الحسن بن على :

بعد مقتل على ، خلفه ابنه الحسن ، وظل فى الخلافة مدة لاتزيد على ستة أشهر حتى أن كثيراً من المؤرخين لا يعده من الخلفاء ، وذلك للضعف الذى ظهر به أمام العالم الإسلامى .

بويع الحسن بالخلافة بعد مقتل أبيه بيومين ، وشرع فى الزحف إلى الشام لقتال معاوية ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك : لعدم إخلاص أهل الكوفة ، ولأن رسل معاوية نشروا الدعاية ضد الحسن فى الكوفة ، فرأى أن يفاوض معاوية فى أمر التخلى له عن الخلافة . واشترط الحسن على معاوية ألا يسب أباه على المنابر وألا يطالب بالأموال التى استولى عليها من الكوفة ، وقبل معاوية تلك الشروط ، وانتهت بذلك حياة الحسن السياسية ، واجتمع رأى المسلمين على اختيار معاوية بن أبى سفيان خليفة سنة ٤١ هـ ، ولذلك سمى هذا العام «عام الجماعة» لاجتماع كلمة المسلمين على شخص واحد ، هو معاوية .

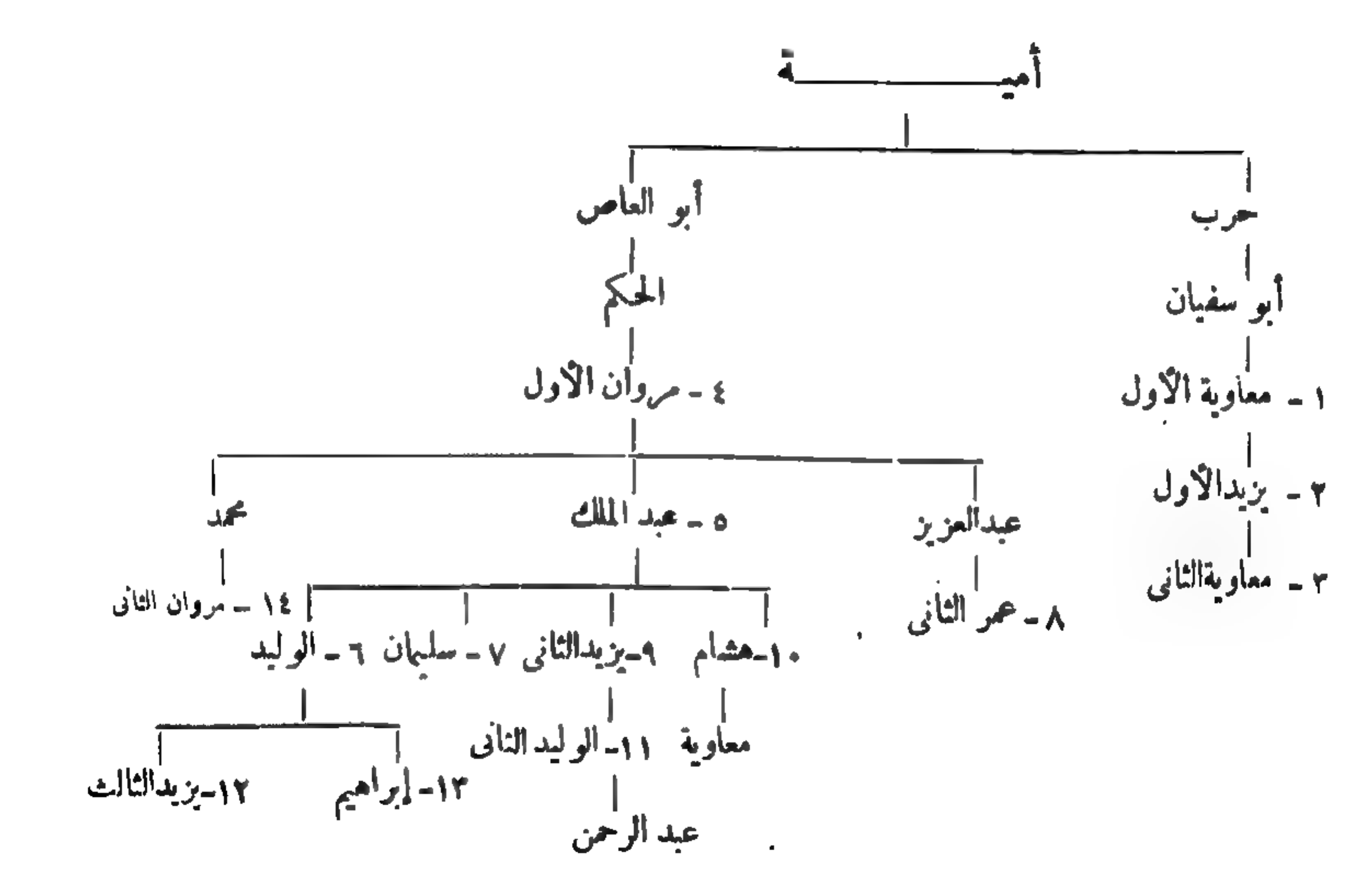
(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٢٢ .

ثالثا — الخلافة الأموية

٤١ — ١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٥٠ م

الخلفاء الأمويون :

السنوات الهجرية	الخلفاء	السنوات الميلادية
٤١	معاوية بن أبى سفيان	٦٦١
٦٠	يزيد الأول	٦٨٠
٦٤	معاوية الثانى	٦٨٣
٦٤	مروان بن الحكم	٦٨٣
٦٥	عبد الملك بن مروان	٦٨٥
٨٦	الوليد بن عبد الملك	٧٠٥
٩٦	سليمان	٧١٥
٩٩	عمر بن عبد العزيز	٧١٧
١٠١	يزيد الثانى	٧٢٠
١٠٥	هشام	٧٢٤
١٢٥	الوليد الثانى	٧٤٣
١٢٦	يزيد الثالث	٧٤٤
١٢٦	إبراهيم	٧٤٤
١٢٧-١٣٢	مروان الثانى	٧٤٤ - ٧٥٠



أميـــــــــة
حرب
أبو سفيان
١ - معاوية الأول
٢ - يزيد الأول
٣ - معاوية الثانى
أبو العاص
الحكم
٤ - مروان الأول
عبد العزيز
٨ - عمر الثانى
٥ - عبد الملك
محمد
١٤ - مروان الثانى
١٠ - هشام
معاوية
٩ - يزيد الثانى
١١ - الوليد الثانى
عبد الرحمن
٧ - سليمان
٦ - الوليد
١٣ - إبراهيم
١٢ - يزيد الثالث

١ ـ معاوية بن أبى سفيان

٤٠ ـ ٦٠ هـ = ٦٦٠ ـ ٦٨٠ م

يرجع نسب معاوية بن أبى سفيان بن حرب مؤسس الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد فى مكة قبل البعثة بخمس سنوات ، وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند وله من العمر ثلاث وعشرون سنة (١).

انتقال الخلافة إلى معاوية :

كان معاوية أطول الحكام المسلمين عهداً ، فقد قضى فى ولاية الشام نحو خمس وعشرين سنة تمكن أثناءها بسياسته ودهائه من أن يجتذب قلوب أهل الشام ويجعلهم طوع أمره ، وظل الشاميون مخلصين للأمويين حتى أواخر عهد بنى أمية .

لم يستقم الأمر لمعاوية على أثر مقتل على بن أبى طالب مباشرة ، فقد ظل العراق يقاومه عدة شهور ، وبايع الحسن بن على ، ولكن الحسن خاف غدر أهل العراق ، كما أنه أحس بضعفه أمام جيوش معاوية ، فأظهر استعداده للنزول عن الخلافة لمعاوية حقناً لدماء المسلمين ، بعد أن تبين له أنه قد أصبح لا قبل له بمقاومة معاوية وجنده ، على أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا ، وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق فى الولايات الإسلامية كافة ، وقيل إن الحسن اشترط

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢١٢ـ٢١٣ .

على معاوية أن تكون الخلافة بعده للحسين . وفى اليوم الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١ هـ دخل معاوية الكوفة حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، وأصبح معاوية خليفة للمسلمين . وقد حرص معاوية منذ ولى الخلافة على مزج القبائل العربية التى وفدت إلى الشام بأهل تلك البلاد ، وبذلك استطاع أن يكون آمناً فى ملكه ، كما وجه اهتمامه إلى تقريب الرجال الأكفاء إليه وتقليدهم المناصب الكبرى فى الدولة العربية .

أشهر الولاة فى خلافة معاوية :

اشتهر عمال معاوية بالدهاء وكان ذلك من أبرز صفاته ، فلا غرو فى أن يختار ولاته من المتصفين بذلك . ومن الدهاة الذين استعان بهم معاوية فى الحكم ، عمرو بن العاص ، الذى ولاه مصر وقد مر بنا ذكره فى الكلام على فتح العرب لتلك البلاد . ومن سيرة عمرو نتبين أنه من الرجال الذين أثروا فى الحوادث تأثيرا عظيما ، ويبدو ذلك من : سياسته فى التحكيم التى أودت بخلافة على ، ويكفيه فخرا بلاؤه فى الفتوح الإسلامية الكبرى وإصلاحاته الهائلة فى مصر .

ويسترعى النظر كذلك فى عهد معاوية ، شخصية المغيرة بن شعبة والى معاوية على الكوفة سنة ٤١ هـ . وكان من الطائف من قبيلة ثقيف وله ماض حافل بالأعمال الجليلة فى خدمة الإسلام : فقد اشترك فى فتوح فارس ، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة ، وفى ٢١ هـ ولاه عمر على الكوفة ، وفى الفتنة التى قامت فى خلافة عثمان بن عفان اعتزل الفريقين .

وفى عهد معاوية ظهر زياد بن أبيه . وكان واليا على فارس من قبل على ابن أبى طالب ، فلما قتل على اعتصم زياد بولايته ، فبعث معاوية إليه المغيرة

ليستميله إلى جانبه ، وقد استطاع المغيرة أن يثنيه عن رأيه ، وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان . فسار إليه وسلمه ما بقى عنده من أموال فارس ، واستلحقه معاوية بن أبى سفيان فاعترف بأخوته كما اعترف أبوه من قبل ببنوته وشهد بذلك نفر من الناس ، وإن كان البعض ينكر صحة هذا النسب ومنهم عائشة أم المؤمنين . لهذا يقال له : زياد بن سمية نسبة إلى أمه سمية . وزياد بن أبيه لجهلهم إسم أبيه ، وبعضهم يلحقه بأبى سفيان . ومن الغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع ما فى هذا الأمر من العار والخزى ، وإنما كان ذلك سياسة من معاوية . وقد امتاز زياد منذ نشأته بنشاطه وحزمه ، فأظهر كفاية فى العمل الذى أسند إليه فى الفتوح العربية كحاسب للغنائم مما جعل عمر بن الخطاب يثنى عليه ويتوقع له مستقبلا زاهرا ، وولاه معاوية البصرة سنة ٤٥ هـ حيث خطب فيها خطبته البتراء المشهورة(١) . ولما توفى المغيرة ابن شعبة ضم معاوية ولاية الكوفة إلى زياد .

تولية العهد ليزيد :

أعجب معاوية بما شاهده من نظام وراثة الملك عند القياصرة الرومان ، ففكر فى نقل هذا النظام إلى الدولة العربية بعد أن رأى أن العامل الأساسى الذى أدى إلى تفرق كلمة المسلمين إنما هو المنافسة على الحكم . ففكر معاوية فى ذلك ، وما لبث أن هداه تفكيره إلى أن تلافى المنازعات على الخلافة لا يتم إلا بتولية ابنه يزيد ولاية العهد من بعده .

كانت هذه الخطوة التى خطاها معاوية طبيعية ، فقد تبين له ما نجم من الويلات والفتن والشرور من نظام الخلافة المتبع عند وفاة كل خليفة ، فرأى أن يعهد بالأمر فى حياته لابنه ولا يترك الأمر لجماعة من المسلمين ،

---

(١) سميت بالبتراء لأنه لم يبدأها بالبسملة أو الدعاء .

حتى لا يتفرقوا ولا ينقسموا ، ولكن كان يحسن ألا يختار ابنه ، كما فعل أبو بكر الذى عدل عن أولاده إلى عمر ، أو يحذو حذو عمر حين رشح للخلافة ستة من كبار الصحابة ليختار منهم المسلمون من أحبوا ولم يكن من بينهم ابنه .

واستعمل معاوية فى أخذ البيعة لابنه يزيد كل أنواع الحيل والدهاء ، فكان « يعطى المقارب ، ويداوى المباعد ويلطف به ، حتى استوثق له أكثر الناس ، وبايعوا ابنه يزيد . فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق ، ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة له ، فقابله الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وتكلم معهم فى شأن البيعة ، فقال له ابن الزبير : نخيرك بين ثلاث خصال ، قال : إعرضهن . قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر . قال معاوية : ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر . قال : ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف . قالوا : صدقت . فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أمية فاستخلفه . وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه . قال معاوية : هل عندك غير هذا ، قال : لا ، فقال معاوية : فأقسم بالله ، لئن رد على أحدكم كلمة من مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، مع كل واحد سيف . فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة تصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفهما ، ثم خرج وخرجوا حتى رقى المنبر .

هكذا بايع الناس يزيد بن معاوية . وكان يصح أن يرتاح المسلمون لهذا

الاختيار لو لم يكن ولى العهد من المتصفين بشرب الخمر والتهافت على اللهو والصيد ، وغير ذلك من الصفات التى كان الخلفاء الراشدون بمنأى عنها ، وسار معاوية فى تنفيذ هذه السياسة بمنتهى الحيطة والمهارة ، فضم ابنه يزيد إلى الحملة البحرية التى أنفذها لفتح القسطنطينية فى الوقت الذى رشحه فيه لولاية العهد ليرفع من شأنه أمام المسلمين.

وكان المغيرة بن شعبة والى الكوفة متحمساً لأخذ ولاية العهد ليزيد ، وذلك حين خاف أن يعزله معاوية ، فأراد بهذه الوسيلة التقرب للخليفة . وللوصول إلى ذلك ، ذهب المغيرة إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وأوضح له أنه من أفضل أبناء كبراء قريش وذوى السن فيهم وأنه من أحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة وأخبرهم بالسياسة ، وأنه ليس هناك ما يمنع أمير المؤمنين من أن يعقد له بالبيعة(١) . فقال له يزيد : « أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم ! » وأعلم يزيد إياه بهذه الفكرة فأحضر معاوية المغيرة وسأله عن هذا الأمر ، فقال له يا أمير المؤمنين ! قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفى يزيد منك خلف فاعقد له ، فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس ، وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة . قال معاوية : ومن لى بهذا ؟ قال المغيرة : أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك(٢) . وقد استطاع المغيرة بن شعبة أن ينجح فى نشر هذه الفكرة ، ووجد من يميل إليها بين أهل الكوفة الذين أنفذوا إلى معاوية وفدا يؤيد بيعة يزيد .

أما زياد بن أبيه فنصح الخليفة أن يتريث ويأمر يزيد بالإقلاع عن

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٤ .

لهو الشباب ، ولما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول : « إنى قد كبرت سنى ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، وقد رأيت أن الخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك فأعرض ذلك عليهم ، وأعلمنى بالذى يردون به عليك » .

أراد معاوية بذلك أن يأخذ البيعة ليزيد من أهل الحجاز خاصة ، لما لذلك من أهمية خاصة ، ولكنه نسى أن فكرة الشورى فى اختيار الخليفة لا تزال قائمة فى أذهان الناس . وأن أهل الحجاز لم يألفوا نظام الأكاسرة والقياصرة ، وفضلا عن ذلك فقد كان ببلاد الحجاز كبار الصحابة وزعماء العرب ومن أبرزهم : الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن العباس وعبد الرحمن بن أبى بكر وكلهم ذوو مكانة عظيمة . فلما قرأ مروان بن الحكم ـ عامل معاوية على المدينة ـ على الناس فى المسجد أن معاوية سيأخذ البيعة لابنـــه يزيد هاجوا وماجوا ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر « ما الخيار أردتم لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل ، قام هرقل » ، وقام الحسين بن على فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك .

قدم معاوية المدينة ، وحاول أن يقنع كبار الصحابة فيها ، فخاطبهم فى شأن البيعة لابنه ، ولكنهم أبوا جميعاً ، فلما رأى منهم إصراراً وعناداً ، أرسل فى طلبهم جميعاً ، ومنهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين ابن على وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وقد عهد هؤلاء إلى ابن الزبير فى أن يتكلم بلسانهم . فلما دخلوا على معاوية رحب بهم وقال : قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم وصلتى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت

أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيبونى ، ثم أشار إلى ابن الزبير أن يتكلم ، فتكلم بما لا يرضى معاوية ، وأقره الآخرون على قوله ، فقال معاوية . «إنى أتقدم اليكم وقد أعذر من أنذر . إنى قائم فقائل مقالة ، فإياكم أن تعترضوا على حتى أتمها . فإن صدقت فعلىّ صدقى ، وإن كذبت فعلىّ كذبى ، وأقسم بالله لئن رد على رجل منكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه . فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ولا يبقى إلا عليها» .

وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه واجتمع الناس ، حتى رقى المنبر فخطبهم قائلا : «قالوا إن حسيناً وابن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نبرم أمراً دونهم ، ولا نقض أمرا إلا عن مشورتهم ، وإنى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا» . ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قربت رواحله فركب ومضى . فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دعيتم وأُرضيتم ، بايعتم . قالوا : لم نفعل ، قالوا : «بلى ، قد فعلتم وبايعتم . أفلا أنكرتم ؟ قالوا خفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم !» [1] .

لم يأبه معاوية لهذه المعارضة التى قامت فى بلاد الحجاز . فكتب لعماله أن يمهدوا لبيعة يزيد فى الأمصار ، وأن يرسلوا إليه الوفود فى دمشق لإعلان رضاهم عن تلك البيعة ، وقد تكلم فى هذه الوفود الضحاك بن قيس الفهرى ودعا لبيعة يزيد ، وتحققت بذلك سياسة معاوية . فأعلن البيعة لابنه بعد أن خطبهم الضحاك وغيره ، فى تعظيم الإسلام وحرمة الخلافة وفضل يزيد وعلمه بالسياسة وما يترتب على بيعته من جمع كلمة المسلمين . وعلى هذا النحو تمت بيعة يزيد .

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

الفتوح فى عهد معاوية :

يمتاز عهد معاوية لا بالتطور السياسى فحسب . بل إن همة المسلمين اتجهت أيضاً إلى الفتح . فقد اتسعت الدولة الإسلامية فى عهد معاوية شرقاً وغرباً ، فى الشرق قام ولاته على خراسان بفتح « هارات » و « خوارزم » ، كما استولوا على بعض بلاد الهند والسند ، بل وعبروا نهر جيحون وهاجموا بخارى(١) وسمرقند . وفى الغرب سار عقبة بن نافع من برقة واستولى على إفريقية(٢) من الرومان . وأسلم على يديه كثير من البربر ، وقد عمل العرب على إدخالهم فى جيوشهم ، وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى الإسلام ، وبنى عقبة على أثر انتصاره مدينة « القيروان » وأقام بها المسجد الجامع ، ولم يكتف عقبة بذلك بل سار سنة ٥٥ هـ حتى وصل إلى المحيط الأطلسى ، ولم ترهبه هجمات الرومان على جيوشه عند تقدمه . ولم يلبث عقبة أن عزل وولى مكانه « أبو المهاجر » مولى مسلمة بن مخلد الذى ولاه معاوية مصر وإفريقية . وبلغ أسطول الشام فى عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة فتح بها عدة جهات كجزيرة رودس وبعض الجزر اليونانية .

اتجه معاوية ناحية الشمال ، حيث الدولة الرومانية الشرقية . التى كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها . ولذلك رتب معاوية أمر غزوها براً وبحراً : عن طريق الأسطول فى البحر ، كما رتب ما عرف باسم الشواتى والصوائف . وفى سنة ٤٧ هـ سار فضالة الأنصارى على رأس جيش كبير ثم أمده بقوة على رأسها يزيد بن معاوية ، وحاصر الجيش القسطنطينية نفسها سنة ٤٨ هـ وهو الحصار الأول فى خلافة معاوية ، وقد بذل القائدان العربيان

---

(١) دخل المسلمون بخارى بقيادة سعيد بن عثمان الذى خلف عبيدالله بن زياد على ولاية خراسان.

(٢) أى تونس الحالية .

فضالة ويزيد جهودا جبارة ضد المدينة العظيمة ، ولكنها فشلت بسبب مناعة حصون المدينة ودفاع قسطنطين الرابع ، ولم يكن هذا الحصار للقسطنطينية هو الوحيد الذي حدث أيام معاوية ، بل إن الأسطول الاسلامي حاصر المدينة سبع سنوات ، ما بين سنتي ٥٤ ، ٦٠ ﻫ وقاست القسطنطينية كثيراً من جراء هذا الحصار ، ولكنها نجت من شره في النهاية بفضل « النار اليونانية » ، التي كانت تشتعل حتى على سطح الماء ، وأخيرا عادت قوات المسلمين البحرية من « البوسفور » بعد أن فشلت في فتح القسطنطينية .

موقف معاوية إزاء الخوارج والشيعة :

كانت الأمة الإسلامية حتى ولى معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب : أتباع بني أمية ، وشيعة علي ، والخوارج وهم أعداء الفريقين . وكانت بلاد المشرق : العراق وفارس ، مركزاً لنشاط الخوارج الذين كانوا يثورون كلما مكنتهم الفرصة . وقد قويت شوكتهم منذ قيام الدولة الأموية ، فواجه معاوية ابن أبي سفيان معارضة قوية منهم ، وعملوا على مناوأة سلطته في كل من الكوفة والبصرة ، كما كانوا يرون أن غيرهم من المسلمين كفار ، وأن دماءهم وأموالهم حلال ، ولذلك كان لابد من أن يتبع معاوية معهم طريق الشدة والقمع ليأمن شرهم ، ويحول دون مايلقونه من بدور التفرقة التي كادت تودي بالأمة الإسلامية .

ولما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ ﻫ ، عول الخوارج على قتاله ، وكان على رأسهم فروة بن نوفل الأشجعي ، الذي اعتزل عليا في خمسمائة من الخوارج في « شهرزور »(١) . فأرسل معاوية إليهم جيشين من أهل الشام ،

---

(١) شهرزور إقليم واسع في بلاد الجبل بن أردبيل وهمذان وأهلها من الأكراد يمتازون بالبأس والشدة . ياقوت : معجم البلدان .

ولكنه هزم على يد الخوارج ، مما دعاه إلى أن يخاطب أهل الكوفة قائلا : « لا أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم(١) » . فخرج أهل الكوفة لقتال الخوارج فقالوا لهم: « ويلكم ما تبغون ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم؟ دعونا نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا » . فأبى أهل الكوفة إلا القتال حتى يغلبوهم .

وقام من بعدهم جماعة بزعامة « حيان بن ظبيان » ودخلوا الكوفة فى عهد واليها المغيرة بن شعبة بعد أن خطبهم حيان خطبة حماسية ، واتفقوا على الخوارج فى غرة شعبان سنة ٤٣ هـ . ولما علم المغيرة بأمرهم قبض على جماعة منهم ومن بينهم حيان وأودعهم السجن ، وضيق على الباقين الخناق حتى غادروا الكوفة ، ثم سير ضدهم جيشاً من الشيعة يربو على ثلاثة آلاف من كبارهم فقضى عليهم قضاء تاماً . وقد ضعفت شوكة الخوارج بفضل ما أبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة فى معاملتهم . ولم تقم لهم قائمة مدة ولايته على العراق .

ولما ولى عبيدالله بن زياد بن أبيه البصرة ، تحركوا سنة ٥٨ هـ ، إذ ظنوه هينا ، ولكنه ما لبث أن شتتهم وقتل منهم كثيرين ، ولكن مقاومة الشيعة لم تكلف معاوية عناء كبيرا كالخوارج ، وقد خمدت روح التشيع فى نفوس أهل الكوفة وانضووا تحت لواء معاوية الذى أصبح صاحب السلطان المطلق على إثر نزول الحسن بن على له عن الخلافة ومغادرته الكوفة . وغضبت الشيعة فى الكوفة عندما رأت المغيرة بن شعبة يلعن علياً كلما قام خطيبا ، وقاطعه زعيمهم « حُجر بن عدى » مرة عندما سمعه يسب عليا ويمدح عثمان وقال له :

(١) البوائق : جمع بائقة ، وهى الأمر المهلك .

إن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل ، وإن من تزكون وتطرون أولى بالذم»(١). فقال له المغيرة : «ويحك ياحجر ! إتق السلطان وغضبه وسطوته ، فإن غضب السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك . وازداد غضب حجر وأصحابه لاستمرار زياد بن أبيه ـ عند ما ولى الكوفة بعد المغيرة ـ فى لعن على ، وعقدوا الاجتماعات لسب معاوية ، وأدى هذا إلى أن اتبع زياد بن أبيه سياسة الحزم والشدة إزاء الشيعة ، وأرسل أخيراً صاحب شرطته فقبض على حجر وأرسله هو وأصحابه إلى معاوية ، فقتله هو ومن ثبت على ولائه لعلى ابن أبى طالب ، وأما من تبرأ من على فقد عفا عنه ، وذلك فى سنة ٥١ هـ(٢). وصار التشيع من ذلك الحين أمراً نظرياً ، ولا غرو فقد كان ينقص بعضهم الحماس والإخلاص للمبدأ الذى كانوا يعتنقونه .

وتوفى معاوية فى رجب سنة ٦٠ هـ ، وقبره فى دمشق .

٢ ـ يزيد بن معاوية

٦٠ـ٦٣ هـ = ٦٨٠ ـ ٦٨٣ م

توليته الخلافة :

اعتلى يزيد عرش الخلافة فى دمشق بعد وفاة أبيه معاوية ، وامتنع عن بيعته : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر . أما عبد الله بن الزبير فقد فر إلى مكة هو والحسين ، وأخذ عبد الله يعمل على بث الدعوة لنفسه ولكنه وجد فى الحسين منافساً قوياً فلم يجرؤ على

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٤٢.

(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٥٠.

مناوأته وذلك لأن ابن الزبير يعلم أن الحسين أحق بالخلافة منه على اعتبار أنه بعد وفاة أخيه الحسن أصبح رجل الشيعة ، وهو فوق ذلك ابن على ابن أبى طالب ، وحفيد النبي صلى الله عليه وسلم . ولذلك عمل ابن الزبير على إخراج الحسين من الحجاز حتى يصفو له الأمر هناك .

ولما طلب عامل المدينة من الحسين بن على أن يبايع يزيدا بالخلافة ، قال له : « أما البيعه فإن مثلى لايعطى بيعته سراً ولا أراك تجتزىء بها منى سراً دون أن تظهرها على رءوس الناس علانية . . . فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً » . فقال له الوليد ، وكان يؤثر العافية : فانصرف على اسم الله . وعلى أثر هذه المقابلة توجه الحسين إلى مكة وكانت الشيعة بالكوفة فاجتمعوا وأرسلوا إليه كتابا جاء فيه : أما بعد ، فالحمد الله الذى قصم ظهر عدوه الجبار العنيد الذى اعتدى على هذه الأمة ، فانتزعها حقوقها واغتصبها أمورها وغلبها على فيئها ، وتأمر عليها على غير رضى منها ، ثم قتل خيارها واستبقى أشرارها ، فبعدا له كما بعدت ثمود إنه ليس علينا إمام ، فأقدم علينا لعل الله إن يجمعنا بك على الهدى » (١) . ثم أتبعوا هذا الكتاب بكتب أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذين حضروا الاجتماع ، وقد قيل إن الحسين تسلم نحوا من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجه سنة ٦٠ هـ (٢) .

بين يزيد والحسين بن على :

كان الحسين رجلا طيب القلب ، اغتر بدعوة الشيعة فأرسل ابن عمه مسلم ابن عقيل إلى الكوفة ليبلغه حقيقة الأمر ، وخرج إليها مسلم والتقى بالشيعة وانخدع بما شاهد ، وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم إلى الكوفة ،

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣—٤ .
(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن بك : الفاطميون فى مصر ص ٣٢ .

والتف الشيعة حول مسلم . على أن والى الكوفة وقتئذ ، النعمان بن بشر الأنصارى ، لم يعمد إلى تتبع مسلم وأصحابه ، ولكن بعض أنصار الأمويين كتبوا إلى يزيد بمسلك النعمان فعزله .

ولى يزيد مكان النعمان ، عبيدالله بن زياد أمير البصرة وجعله أميراً على البلدين ، وعهد إليه فى قمع الشيعة ، فأخذهم عبيد الله بالشدة ، وذهب أولا إلى البصرة وخطب فيها ، ثم انتقل إلى الكوفة حيث قبض على كبار الشيعة وخاصة مسلم بن عقيل وأنصاره ، وهكذا قضى ابن زياد على بوادر الفتنة . ولم يدرك الحسين هذا الموقف من أول الأمر ، إذ أنه لما استبطأ أخبار مسلم عزم على الخروج ، فنصح له عبد الرحمن بن الحارث وعبدالله بن عباس بالتريث ، ولكنه لم يستمع إليهما .

خرج الحسين وسار إلى الكوفة على رأس فئة قليلة لم يتجاوز عددها ثمانين رجلا ، وقد قابله الفرزدق فى طريقه فسأله الحسين عن أهل الكوفة فقال : له « خلفت قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية عليك »(١) . ولما علم ابن زياد بخروج الحسين وأصحابه من الحجاز ، أمر بمراقبة الطرق المؤدية من الحجاز إلى الكوفة ، وعهد إلى قوة من ألف فارس لتأتى بالحسين وأصحابه ، فلما اقترب الحسين من الكوفة مُنع من دخولها فى غير عنف ، وقال له ابن يزيد التميمى قائد القوة : إرجع فإنى لم أدع لك خلفى خيرا أرجوه ، ومن ثم داخل الحسين الشك وطلب الرجوع إلى الحجاز أو الذهاب إلى الخليفة فى بغداد . غير أن القائد عمر بن سعد بن أبى وقاص ، الذى خلف ابن يزيد فى القيادة منعه من ذلك ، كما أن إخوة مسلم بن عقيل صمموا على أن يأخذوا بثأر أخيهم أو يقتلوا دونه، فنزل الحسين عند رأيهم وسار حتى لقيته خيل ابن زياد فعدل إلى كربلاء حيث نشب القتال فى العاشر من المحرم سنة ٦١هـ إذ أن

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٦٥ .

عبيد الله بن زياد أرسل رجلا أشد بأساً من الحر بن يزيد التيمي وهو عمر ابن سعد بن أبي وقاص لتأديب الحسين، ومعه أوامر مشددة بأن يؤتى له بالحسين ومن معه أسرى ، فلما رأى الحسين ضآلة قوته وعجزه عن القتال بها طلب الإذن له بالذهاب إلى الخليفة يزيد أو الرجوع إلى الحجاز فرفض طلبه . وأخيراً دار القتال، وقاتل الحسين وأصحابه قتالا عنيفاً ، وانتهى الأمر بأن قتل وجميع من كانوا معه ولم يبق إلا النساء والأطفال ووقع النهب والسبي في عسكره وذراريه ، ثم حملت النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة . وقد أدت حادثة كربلاء إلى ازدياد إنتشار مذهب التشيع وخاصة بين الفرس، أما قبل ذلك فقد كاد التشيع أن يكون قاصراً على العرب .

على أن الحسين قد خرج في شكل عصيان للخلافة وثورة على الدولة الحاكمة دون أن يستعد بقوات كافية لمواجهة الطوارىء والأحداث ودون أن يعمل حسابا لما سيفعله الخليفة في سبيل احتفاظه بكيانه وتوطيد ملكه . إذ جرد أكبر عدد من قواته للضرب على أيدي الثوار . وتألم الناس لمقتل الحسين حفيد النبي عليه السلام وابن علي ، وخاصة بعد أن اتضح أن عبيد الله بن زياد والي الكوفة والخليفة يزيد بن معاوية لم يعاملا أهل البيت بالإجلال والإكرام الواجبين لمقامهم .

ولقد ألقت مذبحة كربلاء الفزع والهلع في جميع البلاد الإسلامية ، كما أشعلت في نفوس الفرس ذلك الحماس الوطني الذي ساعد بني العباس على إسقاط دولة الأمويين(١) . وكما قيل إن الحسين ـ بصرف النظر عن مكانته ومنزلته في قلوب المسلمين ـ كان خارجا على الدولة ، فإنه اعتبر شهيدا في الوقت الذي عد فيه يزيد سفاكا للدماء (٢) . وتوحدت صفوف الشيعة

---

(١) Sayed Ameer Ali : A Short History of the Saracens, p. 87.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 197.

عقب تلك الموقعة وصمموا على الأخذ بثأر الحسين ، وخاصة الفرس الذين كانوا يرون أن هذا الوقت فرصة تسنح لهم للتخلص من سلطان العرب وسيطرتهم والاستقلال بدولتهم .

بين يزيد وعبد الله بن الزبير :

لم يجرؤ عبد الله بن الزبير على الجهر بطمعه فى الخلافة والحسين على قيد الحياة لأنه يعلم أن الحسين أحق بها منه ، فلما قتل الحسين أظهر ابن الزبير حقيقة ما يرمى إليه ولكنه فى الوقت نفسه أثار السخط على قتلة الحسين وشاد بذكره .

وفى ذلك الحين ، اجتمع أصحاب ابن الزبير حوله وأوضحوا له أنه أحق رجل بالخلافة بعد الحسين وبدءوا فى أخذ البيعة له سراً . ولما بلغ يزيد أن ابن الزبير أخذ البيعة لنفسه أقسم لينتقمن منه كما انتقم من الحسين ولكنه آثر أن يبعث رسولا يعرض عليه الصلح كى تصفو العلاقة بينهما فرفض ابن الزبير ، ولكن يزيد مع ذلك عالج الأمر بالأناة والصبر ولم يتعجل الحوادث حتى اتضح له أن الأمور فى المدينة تسير من سىء إلى أسوأ وفى أشد الحالات فتنة واضطراباً بتحريض ابن الزبير . وتحرجت الأحوال حين ثار أهل المدينة وخلعوا يزيدا وطردوا عامله وضيقوا على من كان بها من بنى أمية حتى استغاثوا بيزيد ، وكان أهل المدينة قد ولوا على أنفسهم « عبد الله بن حنظلة الغسيل » ، وبهذا كان هناك ثلاثة يدعون الخلافة : يزيد فى دمشق ، وابن الزبير فى مكة ، وعبد الله بن حنظلة فى المدينة .

ولم يجد يزيد بدأ من أن يبدأ العمل الجدى فأمر الجيش بالسير إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى وكان من جبابرة العرب طاعناً فى السن مريضاً ، وما كاد الجيش الأموى يصل إلى وادى الحرة الواقع شمال المدينة

المنورة حتى خرج إليه أهلها ، وهناك جرت معركة هائلة هى واقعة الحرة ، وأسفرت عن هزيمة أهل المدينة وقتل عدد كبير منهم ، وقتل فى هذه الموقعة ألف وسبعمائة من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس وكان من بينهم ثمانون رجلا من أصحاب النبي عليه السلام كما قتل عشرة آلاف من سائر الناس من الموالى والعرب سوى النساء والصبيان ، على أن بنى هاشم لم يشتركوا فى معركة الحرة ولزموا بيوتهم ولذلك لم يقتل منهم إلا ثلاثة فقط . وبعد هذه الهزيمة استباح جيش مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وأسرف هو وجنده فى السلب والنهب والاعتداء ولذلك لقبوه « المسرف »(١) .

ويظهر أن العداوة بين الأنصار وبين قريش هى التى أدت فى النهاية إلى حدوث تلك الموقعة ، وقيل [illegible]. على أن موقعة الحرة فى الواقع هى نتيجة للتنافس بين فريق يريد الوصول إلى الحكم ، وفريق يدافع عما صار إليه من السلطان : فالحسين والزبير يطلبون الخلافة ، ويزيد يتمسك بعرشه ، وفى سبيل ذلك ، استباح كل منهما حرمة الخلافة . وخربت المدينة بعد تلك الموقعة وفقدت رونقها ، على أنها ظلت مركزاً من المراكز العلمية الأولى فى الإسلام ومقراً لكبار المفسرين والمحدثين من أهلها .

وبعد واقعة الحرة أمر يزيد قائده مسلم بن عقبة المرى بالمسير إلى مكة حيث يقيم عبد الله بن الزبير ، إلا أن مسلماً أدركه الموت أثناء الطريق فتولى قيادة جيوش يزيد من بعده الحصين بن نمير السكونى ، وكان يزيد قد أوصى بتوليته إذا مات مسلم ، فسار بالجيش إلى مكة وحاصرها فى أوائل سنة ٦٤ هـ وهذه أول مرة تحاصر فيها مكة فى التاريخ الإسلامى ، وكان ابن الزبير قد آوى إليها

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٢ .

واعتصم بها على اعتبار أنها حرم مقدس لا يحل فيه القتال ، وكان كثير من أهل المدينة قد انضوى تحت لواء عبد الله بن الزبير للدفاع عن مكة كما انضم إليه بعض الخوارج ، ونصب على جبل أبى قبيس المواجه للكعبة المجانيق . أما أصحاب ابن الزبير فتحصنوا فى بيت الله الحرام ، ودار القتال فأصابت المجانيق الكعبة وهدمتها وأحرقتها حتى تواردت أحجار المجانيق على البيت مما أدى إلى هدم الكعبة فى الثالث من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ (١).

وبينما كان القتال دائراً بين الفريقين جاءهم خبر وفاة يزيد ، فأرسل الحصين إلى ابن الزبير يقول : «إن الذى وجهنا إلى محاربتك قد هلك ، فهل لك فى الموادعة وتفتح لنا الأبواب فنطوف بالبيت ويختلط الناس بعضهم ببعض» . فأجابه ابن الزبير إلى طلبه وتوقفت الحرب بين الفريقين ، ثم دعا الحصين عبد الله بن الزبير إلى الذهاب معه إلى الشام ليأخذ له البيعة من أهلها ، فأبى ابن الزبير لأنه أراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة . وبذلك عاد الحصين هو وأتباعه ورفعوا الحصار عن مكة ، بعد أن ألحقوا بالكعبة الخسائر الفادحة . وهكذا ضاعت الفرصة من ابن الزبير .

٣ — معاوية الثانى

٦٣ هـ = ٦٨٠ م

بوفاة يزيد ، انتقل الملك إلى ابنه معاوية المعروف باسم معاوية الثانى ، وكانت سنه إذ ذاك ثمانية عشرة عاما ، ولم يزد عهده فى الخلافة على أربعين يوما ، وكان انتقال الملك إليه بوصية من أبيه جرياً على السنة التى سنها معاوية ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٧ .

وهى حصر الملك فى بنى أمية ، ولكن هذه الوصية لم تلق احتراماً وتأييداً ، ولذلك قام الخلاف مباشرة بعد وفاة يزيد ، فقد كان معاوية شاباً مريضاً ضعيف الإرادة ، فلم يلبث أن تنازل عن الخلافة وفكر فى ترشيح رجل للخلافة كما فعل من قبل أبو بكر وعمر بن الخطاب ، ولكنه لم يجد الرجل الذى يصلح لها فاقتدى بعمر فى اختيار ستة ينتخب الخليفة من بينهم رجلا فلم يفلح ، فترك الأمر شورى للناس يولون أمرهم من يشاءون ، ثم لزم بيته حتى مات بعد أيام من تنازله عن الخلافة .

اضطرب أمر بنى أمية على أثر تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة ، ولكنهم استطاعوا أن يسيطروا على الموقف ، وعقدوا اجتماعاً فى الجابية سنة ٦٤ هـ بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة ، وجعلوا ولاية الحكم من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد ، وبهذه الطريقة أرضوا جميع الذين كانت تتوق نفوسهم للخلافة كما وحدوا كلمة أنصارهم .

٤ — مروان بن الحكم

٦٤ - ٦٥ هـ = ٦٨٣ - ٦٨٥ م

مروان بن الحكم من البيت الأموى الذى طالما عادى النبى عليه السلام أيام دعوته ، ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة قرّب مروان إليه واتخذه مشيراً له وأصبح ساعد عثمان وكاتبه ومدبره ، وبعد مقتل عثمان بايع علياً وأقام بالمدينة واعتزل السياسة بعد واقعة الجمل ، وظل على هذه الحال حتى آلت الخلافة إلى معاوية فولاه على المدينة ، ولما مات معاوية الثانى وأصبح منصب الخليفة شاغراً احتدم النزاع بين عرب الشام على الخلافة . وساء قبيلة «قيس» حكم بنى أمية الذى اعتمد على اليمنيين فاجتمعت بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى

فى مرج راهط وبايعت عبد الله بن الزبير ، كما اجتمعت «كلب» بالجابية حيث مال فريق إلى خالد بن يزيد بن معاوية وفريق آخر مال إلى مروان بن الحكم ابن العاص ، غير أنه ظهر لهم أن الفرع السفيانى ليس فيه من يستطيع مناهضة ابن الزبير فقد كان خالد صغيراً ، فعدلوا عنه إلى مروان بن الحكم لسنه وشيخوخته ، واتفقوا على أن يلى الخلافة من بعده : خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد بن العاص .

إنتقال الملك إلى الفرع المروانى

لم يستقر الأمر لمروان بن الحكم إلا بعد أن بذل جهداً كبيرا ، فقد سار إلى الضحاك بن قيس الفهرى وهزمه فى موقعة مرج راهط فى المحرم سنة ٦٥هـ ، وبذلك انتصر العنصر اليمنى على المضرى . وظاهر هذه الموقعة أنها بين الأنصار وابن الزبير وبنى أمية ، ولكنها كانت فى الواقع بين عرب الشام «القيسية» وعرب الجنوب وهم «كلب» . وقد دامت هذه الموقعة عشرين يوماً وانتهت بهزيمة القيسية هزيمة شنعاء ، وقتل فيها الضحاك بن قيس ، وهكذا انتصر مروان بن الحكم . وقد أذكت هذه الموقعة نار العصبية القبلية بين اليمنية والمضرية من جديد ، لا فى الشام فحسب ، ولكن فى سائر الولايات الإسلامية وخاصة فى خراسان ، وظهر العداء بين اليمنية والمضرية فى صورة نزاع متصل بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وامتد لهيب العصبية إلى أقاصى البلاد التى وصلت إليها الفتوح العربية فيما شنه هؤلاء وأولئك من حروب أهلية ومعارك دموية(١) . وقد أسفرت موقعة مرج راهط عن نتائج هامة : فقد انتقل الملك من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى ، وأصبح نظام الملك الوراثى الذى سنه معاوية حقيقة واقعة ، وبعثت العصبية القبلية التى كانت عاملا كبيرا فى مجرى الحوادث فى العصر الأموى .

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٢٢ .

سياسة مروان إزاء الأمصار :

وجه مروان اهتمامه بعد ذلك إلى الأمصار الأخرى غير الشام ، فذهب بنفسه ومعه ابنه عبد العزيز إلى مصر ، حيث كان عبدالله بن الزبير قد أرسل إليها والياً من قبله إسمه « عبد الله بن جَحْدم » . وقد استطاع مروان أن يهزم ابن جحدم وأتباعه فى موقعة الخندق[١] قرب الفسطاط فى أول جمادى الأول سنة ٦٥ هـ ، وبنى بها مروان الدار البيضاء التى اتخذها مركزاً له ، ثم أخذ البيعة من الناس ، إلا أن نفراً قليلا ظلوا على بيعتهم لابن الزبير ، ولم يجد مروان إزاء إصرارهم إلا ضرب أعناقهم[٢] ، وولى مروان ابنه عبد العزيز على مصر وعاد هو إلى الشام . وبعد عودته إلى بلاد الشام سير حملتين إحداهما إلى الحجاز حيث دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة ولكنها هزمت ، والأخرى إلى بلاد العراق حيث كان الشيعة قد قاموا فى الكوفة سنة ٦٥ هـ ، وأظهروا ندمهم على ما فرطوا فى حق الحسين وتابوا إلى الله من مسلكهم إزاءه ، ولذلك سموا « التوابين » وقد عزموا على الأخذ بثأر الحسين وانتزاع الخلافة من بنى أمية وإسنادها إلى أحد رجال البيت ، فلم تقم الحملة بشىء يستحق الذكر .

نهاية حكمه :

لم يحكم مروان مدة طويلة ، فقد كان شيخاً مسناً ، وبعد أن تم له الأمر فى مصر والشام ، حاول تعديل ما تم فى مؤتمر الجابية ، بتحويل الخلافة من بعده لابنه عبد الملك بدلا من خالد بن يزيد ، وكان مروان قد تزوج أم خالد

---

(١) كان أصحاب ابن جحدم قد أشاروا عليه بأن يحفر خندقا وقد تم حفره فى شهر واحد وموقعه الآن بجهة القرافة .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .

« أرملة يزيد » محاولة منه فى إذلال خالد أو ليرجعه عن رأيه فى الخلافة ، وكان يحقر من شأن خالد ليصد عنه أهل الشام . وقد دخل خالد يوما على مروان فسبه وعيره بأمه ووصفها وصفاً قبيحاً . فغضب لذلك وأخبر أمه بما حدث فقالت له . « لا يعرفن ذلك منك وأسكت فإنى أكفيكه » ، وقد انتقمت أم خالد من مروان بأن وضعت على وجهه وسادة لم ترفعها حتى مات ، ولما علم بذلك ابنه عبد الملك أراد أن يقتلها ، فأشير عليه بالعدول عن رأيه حتى لا يتحدث الناس بأن إمرأة قتلت أباه ، فيلحق به العار(١) .

ومات مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه عبد الملك ، ثم لابنه عبد العزيز ، فكان توكيداً للنظام الذى وضعه معاوية وهو نظام الملك الوراثى ، وهكذا نقض مروان العهد الذى أخذه على نفسه فى مؤتمر الجابية .

٥ — عبد الملك بن مروان

٦٥ - ٨٦ هـ = ٦٨٥ — ٧٠٥ م

ولد عبد الملك بن مروان فى المدينة سنة ٣٦ هـ فى خلافة عثمان بن عفان ويجتمع نسبه من جهة أبيه وأمه فى أبى العاص ، وأمه عائشة بنت معاوية ابن المغيرة بن أبى العاص بن أمية . اتصف بالشهامة ، وعرف بالتدين فقد حفظ القرآن الكريم عن عثمان بن عفان وسمع الحديث من أبى هريرة وجابر ابن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٢٣ .
(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٧٣ .

الصعوبات التي واجهته :

١ — ظهور التوابين :

وقد عمل عبد الملك منذ توليته أمر الخلافة على توطيد سلطان الأمويين في الدولة العربية ، فبدأ بإرسال الإمدادات الوفيرة إلى عبيد الله بن زياد والى الكوفة ليتمكن بها من القضاء على نفوذ الشيعة الذين كانوا قد اجتمعوا في الكوفة قبل وفاة مروان بن الحكم ، ونادوا بضرورة العمل على أخذ ثأر الحسين ، وأطلقوا على أنفسهم اسم «التوّابين» وأمّروا عليهم رجلا إسمه سليمان بن صرد ، وانضم إلى تلك الطائفة عدد وافر من الناس حتى بلغ عددهم أربعة آلاف ، واجتمع التوابون وساروا حتى وصلوا إلى «عين الوردة» سنة ٦٥ هـ حيث اشتبكوا بعبيد الله بن زياد الذي أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق ، ثم أمره عبد الملك بن مروان عليها ولحق بالشيعة كثير من أهل البصرة والمدائن ، ولما تلاقى الجيشان حلت الهزيمة بالشيعيين بعد أن أبلوا بلاء حسناً وقتل رئيسهم سليمان بن صرد وفر المنهزمون إلى بلادهم(١) . وقد أدت تلك الواقعة إلى نفس النتيجة التي انتهت إليها واقعة كربلاء .

٢ — ثورة المختار :

ولم يكد عبيد الله بن زياد يفرغ من التوابين حتى فوجىء سنة ٦٦ هـ بظهور المختار بن أبي عبيد الثقفي ، أحد قواد الجيوش الإسلامية في العراق زمن عمر ، إذ أنه لما اضطربت أحوال الدولة العربية بعد مقتل علي ، أراد المختار أن يستعيد نفوذه فاتصل بالحسن بن علي بن أبي طالب . فلما تخلى الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية اتصل بالحسين ، وبعد مقتل الحسين اتصل

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٧٣ — ٧٩ .

بابن الزبير . ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به لما أبداه من التقلب ، فقد كان من الأمويين ثم أصبح من أصحاب ابن الزبير ، ولكنه مالبث أن سجن فى الكوفة لأن واليها أساء الظن به ، إلا أن المختار أعمل الحيلة واستمال إليه الشيعة وأدعى أنه مرسل من قبل محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، للأخذ بثأر الحسين . وبعد إطلاق سراحه استمال أيضا فريق الموالى الذين كانوا بالكوفة ، وكون جيشا من العرب والموالى وقاد حركة عدائية ضد والى الكوفة واستولى فعلا عليها . وأخذ يعد العدة لمحاربة عبيدالله ابن زياد للانتقام منه : لأنه قاتل الحسين ، ولأنه هو الذى سجنه حين كان يدعو للحسين فى الكوفة ، وضربه ضربة أفقدته إحدى عينيه ، وبذلك يمكن القول أن ثورة المختار كانت لأسباب عامة وأسباب خاصة .

التقت قوات ابن زياد مع جيش المختار الذى كان يقوده إبراهيم بن الأشتر عند نهر الخازر ، أحد فروع دجلة ، ودارت الدائرة على ابن زياد ، وقتل فى تلك الواقعة هو وكثير من أشراف أهل الشام ، وكان عبد الملك قد سار فى سنة ٦٦ ﻫ على رأس الجنود الشامية لقتال المختار فى الكوفة ، وبينما هو فى طريقه أتاه فى إحدى الليالى خبر مقتل عبيد الله بن زياد وانهزام جنده(١) ، وبذلك ثأرت الشيعة لنفسها من مقتل الحسين . إلا أن تلك الواقعة ، على الرغم من أنها عدت انتصارا لأتباع الحسين ، فإنها لم تؤد إلى ازدياد نفوذ المختار أو تقوية سلطانه فإن ابن الزبير وابن الحنفية اللذين كان المختار يعلن أنه من أنصارهما ومن أتباعهما كانا يسيئان الظن به ، بل إن ابن الحنفية تبرأ منه حين علم بما يدعيه المختار من أن له نفوذا علويا وبما ينشره من المبادىء الغريبة كقوله : إن الله يجوز عليه البداء(٢) ، وكقوله بمبدأ

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) أى أن الله عز وجل يقول قولا ثم يتبين له خطؤه فى المستقبل فيعدل عنه .

تناسخ الأرواح ، وزعم أن الملائكة تقاتل معه ، وبأنه حصل على كرسى قديم لعلى بن أبى طالب ، يجلس عليه ليجتذب احترام الناس له . وأمر عبدالله بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير بعد أن ولاه العراق بمقاتلة المختار، فوقعت بينهما بالقرب من الكوفة سنة ٦٧ هـ معركة كبيرة ، انتهت بهزيمة المختار وقتله هو ونحو سبعة آلاف من أتباعه ، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «المختارية» .

وهكذا اختفى المختار من عالم التاريخ دون أن يكون للحركة التى قادها من الموالى والعرب أية نتيجة ، بل كل ما يمكن أن يقال عنه إنه رجل قام بدور سياسى فى التاريخ الإسلامى .

٣ — بين عبد الملك وابن الزبير

بالقضاء على ثورات التوابين والمختارية ، استأنفت الخصومة بين ابن الزبير وعبد الملك أى بين الحجاز والشام . وللوصول إلى القضاء على أن الزبير قضاء تاما ، لم يسرع الخليفة فى ملاقاته بل عمد إلى الأناة فى بدء المعركة معه حتى يهزم أعداءه الواحد تلو الآخر ويتفرغ للعدو الأكبر . بدأ عبد الملك بالقضاء على المختار ، وهادن امبراطور الروم ليأمن جانبه أثناء قتاله ابن الزبير ، ثم قضى على عمرو بن سعيد ليتخلص من أمر مطالبته بالخلافة . وأظهر عبد الملك بصبره على حركات ابن الزبير فى الحجاز إلى ذلك الوقت وعدم تعجله فى القضاء عليها أنه رجل سياسى وداهية من دهاة العرب .

بدأ الخليفة بأن هادن إمبراطور الروم سنة ٧٠ هـ حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيغير على بلاد الشام ، وبعث إليه عبد الملك الأموال والهدايا وصالحه على أن يؤدى إليه نحو خمسين ألف دينار كل عام (١).

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص١١٣ .

كذلك نكل عبد الملك بعمرو بن سعيد وهو الذى وعد فى مؤتمر الجابية بأن يأخذ الخلافة بعد موت مروان وخالد بن يزيد ، وكان عمرو بن سعيد يرى أحقيته بالخلافة دون عبدالملك فكتب إليه عبدالملك « إنك لتطمع نفسك ، بالخلافة ولست لها بأهل » ، فرد عليه عمرو يهدده ويتوعده فى كتاب ينم عن الازدراء والاستهتار[1] . وجعل عبد الملك الولاية من بعده لابنه الوليد ثم عبدالعزيز ، وترك عمرو بن سعيد ، وكان هذا هو العامل الأساسى الذى دفعه إلى الانتقام من عبد الملك ، فزحف عمرو على دمشق منتهزاً فرصة غيابه عنها ، ولكن عبد الملك عاد إلى دمشق وقبض على عمرو وقتله بيده مما عده التاريخ وصمة فى جبين هذا الخليفة ، لأن عمراً لم يفعل شيئاً أكثر من أنه طالب بحق اعترف له به من قبل . بذلك قضى عبد الملك على أعدائه وتفرغ لابن الزبير .

خرج عبدالملك بعدذلك سنة ٧١ هـ إلى العراق ، بعد أن صالح القيسيين ، لقتال مصعب بن الزبير ، فأخذ يستعد الأخير لملاقاته ولكن لم يستطع جند مصعب الوقوف أمام عبد الملك . وأرسل عبد الملك كتباً إلى قواد مصعب يمنيهم حتى استمالهم إليه ، إلا أن ابراهيم بن الأشتر أعطى مصعبا الكتاب الذى أرسله إليه عبد الملك وأبلغه خبر القواد الذين أخفوا كتب عبد الملك وطلب ابن الأشتر قتل هؤلاء القواد جميعاً ، ولكن مصعباً رفض ذلك وأمر بحبسهم فقط (٢). وكان لهذه السياسة أثرها فقد خان القواد مصعباً ونشب القتال بين الفريقين بالقرب من باخمرا (٣) وهزم مصعب ومن كانوا معه وقتل أخيراً

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠

(٣) بين الكوفة وواسط وهى أقرب الى الكوفة منها إلى واسط وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخاً . ياقوت : معجم البلدان .

بعد أن أبلى أحسن البلاء ، ودخل عبد الملك الكوفة فبايعه أهلها سنة ٧١ هـ ، وولىّ على البصرة والكوفة عمالا من قبله (٣) .

وكان عبد الله بن الزبير لا يزال فى الحجاز ، حيث دعا لنفسه بالخلافة . ولما كان عبد الملك يرى أن ابن الزبير قوى الشكيمة وأن هزيمته ليست من الأمور الهينة وأنه لابد لكى تصفو له الأمور من القضاء على ابن الزبير ، فقد ندب لقتاله رجلا عرف بالقسوة والصلابة هو الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى كان له فضل كبير فى توطيد عرش عبد الملك وعرش أولاده من بعده .

ينتهى نسب الحجاج إلى ثقيف جد القبيلة ، ولد سنة ٤١ هـ ، فى قرية الطائف فى الحجاز فى بدء خلافة معاوية بن أبى سفيان من أسرة فقيرة ، وهو ابن يوسف بن الحكم زوج الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود . وكان أبواه يعملان فى نقل الطين والحجارة بالطائف . وكان الحجاج قبيح الوجه قمئياً دقيق الساقين أعور معروق الأصداغ ، ولما اشتد ساعده أرسله أبوه إلى معلمى القرية الذين راعهم استعداده وطلاقة لسانه ، حتى أصابت أقرانه الغيرة من براعة بيانه فأخذوا يعيرونه بقبحه ، ومرت الأيام وخرج أقرانه للجهاد إلا ابن يوسف الذى لم يجد من يختاره ، وصار لذلك كئيب النفس إذ أنه لا يحس جبناً ولا نقصاً اللهم إلا ضعف البنية . وزاول الحجاج تعليم الصبيان فى قرية ثقيف سعياً وراء الرزق ، واكتسب من هذه الحرفة الفصاحة والقدرة على الخطابة . وواتته الفرصة ودخل فى خدمة روح بن زنباع الجذامى رئيس شرطة عبد الملك بن مروان ووزيره ، وتقدم بجرأته إلى أن أصبح من رؤساء الجند . وحين صدرت أوامر عبد الملك للجند ورؤسائهم بالسير للجهاد ، تراخى بعض جند ابن زنباع يأكلون ويسمرون ، فانتهرهم

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٨٧ ـ ١٨٨

الحجاج ، فسبوه فأمر بإحراق خيامهم وضربهم بالسياط ، فاشتكوا إلى ابن زنباع ، فذهب إلى الخليفة شاكياً الحجاج . فلما سأله الخليفة عن عوامل ما أقدم عليه ، قال : يا أمير المؤمنين ! إن أمرى من أمرك وإن عصانى جندى فقد عصاك ، وأما خيام ابن زنباع فقدرتك على تعويضه عن خيامه خياماً تغنى عن اللجاج .

لما تبين لعبدالملك عظم مقدرة الحجاج الحربية ، أرسله للقضاء على ابن الزبير فى الحجاز ، وهناك ظهرت قوة إرادة الحجاج . خرج الحجاج إلى الطائف ، ومنها إلى المدينة حيث انضم إليه عاملها ومن معه من الجند ، ثم سار إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيق ، وهى قاذفات الحجارة وبمثابة المدافع فى العصر الحاضر ، وأقبل الحجاج على المنجنيق يضرب وتره بيده فتنزل الحجارة مدمرة حول الكعبة حتى تصدعت جدرانها وما هاب ولا فرق ، حتى أيقن أهل مكة لما رأوا البرق والرعد أن غضب السماء قد حلّ . وأرغم بذلك أهلها على طلب الأمان . فانضم بعض أتباع عبد الله ابن الزبير وغيرهم من ذوى قرباه إلى الحجاج ، وبقى ابن الزبير فى عدد قليل من أنصاره وخرج ابن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالا شديداً واستبسل فى الدفاع وحمل عليه العدو وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

وبعد انتصار الحجاج على ابن الزبير كافأه عبد الملك بتوليته على مكة واليمن واليمامة ، ولم يمض زمن طويل حتى ولاه على المدينة أيضاً . وبذلك أصبح الحجاز كله تحت سلطانه . وكان الحجاز موطن المعارضة الشديدة لبنى أمية ، ولذلك اتبع فى السنوات الثلاث التى أقامها فيه حكم الاضطهاد والشدة وخاصة إزاء أهل المدينة ، إذ أهان كبار الصحابة فيها حتى شكاه عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى الخليفة . فكتب إليه الخليفة بألا يتعرض لعبد الله ولا لأنس بن مالك خادم النبى . ونفذ الحجاج أثناء إمرته على الحجاز سياسة الأمويين ،

فهدم الكعبة التى بناها ابن الزبير فصارت على النحو الذى كانت عليه فى الجاهلية للقضاء على أثر ابن الزبير .

٤ ــ القضاء على فتن العراق :

ظل الحجاج فى الحجاز حتى سنة ٧٥ ﻫ حين رأى عبد الملك أن ينتفع بشدته فى العراق ، حيث كانت الحالة فى غاية الاضطراب لوجود الخوارج الذين دانوا بالديمقراطية التامة ، فكانت الخلافة عندهم حق لكل مسلم يتصف بالتقوى والشجاعة بصرف النظر عن كونه عربياً أو غير عربى قرشياً أو غير قرشى .

خرج الحجاج من الحجاز لا فى جيش ضخم بل فى إثنى عشر راكباً وقصد الكوفة وصعد المنبر متلثما . وحين ارتقى المنبر ازدرته العيون ، وهمّ بعض القوم أن يرميه بالحصى . فما لبث أن قام فألقمهم الحجارة من منطقه العنيف ، فإنه لما تكاثر الناس بالجامع كشف اللثام عن وجهه وخطبهم خطبته المشهورة فى الأدب والتاريخ ، وكلها استهتار بأهل العراق وتوعد لهم ، لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بنى أمية وقد بدأها بقوله :

« أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة ! إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحىّ . . . » وكلها وعيد لأهل العراق عامة وللخوارج خاصة . ولما انتهى الحجاج من خطبته لم يعترض عليه أحد ممن كان فى المسجد ، فقد ارتاعوا وأسلسوا له فى الظاهر القياد ، لما رأوا من تهديده بجنى الثمار التى حان قطافها . وهذه الخطبة تبين سياسة الشدة التى اعتزم الحجاج أن ينتهجها مع أهل العراق ، فقد نشر بينهم حكماً عرفياً

عسكرياً وأسرف فى القتل . فكان يأخذ بالريبة والظنة ويقتل قوماً ليرهب آحرين ، فإنه ما ترك محتجاً على فعل إلا قضى عليه ، وما كان ينكر أنه أجرأ الناس على سفك الدماء .

ولما فرغ الحجاج من أهل الكوفة انتقل إلى البصرة ، وسلك نفس السبيل الذى سلكه فى الكوفة ، فخطبهم خطبة لا تختلف عن خطبته التى ألقاها فى الكوفة .

٥ ـ القضاء على ثورات الخوارج :

من أهم الصعوبات التى اعترضت الخليفة عبد الملك ، الثورات التى قام بها الخوارج الأزارقة ، وكانوا قد اشتهروا بحملاتهم العنيفة وبمفاجآتهم الليلية لأعدائهم ، وولى عبد الملك لقتالهم ، المهلب بن أبى صفرة[1]، ولكنه استعمل الأناة ، ولم يتعجل أمر قتالهم . وكان الحجاج إذ ذاك قد رحل من الكوفة بعد أن استخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة ، وسار إلى البصرة ومنذ وصوله إليها ابتدأت المعركة ضد الخوارج الأزارقة ، وزعيمهم الشاعر المشهور قطرى بن الفجاءة ، إذ أن الحجاج كتب إلى المهلب يعنفه على تباطئه فى قتالهم .

بدأت الحرب بين المهلب والأزارقة ، وفيها انهزم الأزارقة فى واقعة رامهرمز وجلوا عن العراق . ووالى المهلب زحفه حتى أجلاهم عن فارس أيضاً ، وكان الحجاج عقب جلاء الأزارقة عن الأقاليم التى كان لهم نفوذ فيها ، يرسل عمالا لجباية الخراج ، وما لبث الخليفة عبد الملك أن ولى المهلب خراج فارس للإنفاق منه على قتال الأزارقة . ويسر مهمة المهلب ما كان من

---

(١) المهلب من قبيلة الأزد (أو الأسد) ، وهى قبيلة كبيرة ، استقر بعض أفرادها فى عمان وهؤلاء أطلق عليهم أزد عمان وأقام بعضهم فى الحجاز ويقال لهم أزد سراة ، وهى قبيلة مشهورة فى دولتى بنى أمية وصدر بنى العباس ، وزادت شهرة المهلب بعد تلك الوقائع الحربية الهائلة التى خاض غمارها فى صدر التاريخ الإسلامى .

أمر انقسام الأزارقة على أنفسهم فقد كانوا فى بادىء أمرهم فرقة واحدة ثم نقسيموا على أنفسهم : فالعرب التفوا حول قطرى زعيم الأزارقة[١] ، والموالى خرجوا عليه وعرف زعيمهم باسم عبد ربه الكبير ، وكان أنصار قطرى من العرب لا يتجاوز عددهم ربع عدد الأزارقة .

وهنا وجد المهلب الفرصة سانحة ، فحارب الأزارقة وحاصر بلدة جيرفت وكان فيها الخوارج من الفرس واشتد حصار المهلب للمدينة وهزم عبد ربه وأصحابه ، مما أدى إلى كسر شوكة الخوارج . ولكن قطرى زعيم الخوارج من العرب ، سار إلى طبرستان . فسير الحجاج جيشاً من أهل الشام بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي ، وهزم قطرى وقتل أثناء فراره بعد أن ظل نحو عشرين عاما زعيما للأزارقة ، لقب خلالها بلقب أمير المؤمنين . ولم تجد نفعا محاولات عبيدة بن هلال ، الذى خلف قطرى فى الزعامة وحاصر بلدة قومس ، فقد قضى عليه سفيان كما قضى على قطرى ، وكان عبيدة آخر زعماء الأزارقة ، وبذلك قضى المهلب على الأزارقة وزعيمهم فى واقعة جيرفت .

وبعد أن تم القضاء على الأزارقة ، قاتل الحجاج الخوارج الصفرية[٢] الذين كان يتزعمهم شبيب[٣] ، وأبلى الحجاج أحسن البلاء ، ولم تفترهمة شبيب فى القتال فقد دل على جرأة نادرة على كثرة أعدائه وقلة أتباعه ، وحكم المنطقة التى أقاموا فيها فى الجزيرة ثم فى سهل العراق لمدة ثلاث سنوات وهزم جيوش الحجاج طوال هذه المدة الواحد تلو الآخر . زحف شبيب حتى أصبح على أبواب الكوفة ، ولكنه تراجع لكثرة جند العدو ، وما لبث

---

(١) كان نافع بن الأزرق أول زعيم للخوارج الأزارقة .

(٢) ظهر الخوارج الصفرية فى العراق ، ومن مبادئهم : عدم التفرقة بين الكبائر ، وجعل كل كبيرة سبباً فى الكفر .

(٣) نسب الخوارج الصفرية فى بادىء الأمر إلى صالح بن مسرح ، وخلفه فى زعامتهم شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى .

أن هاجم الكوفة بعد أن رحل منها الحجاج إلى البصرة ودخلها ، وكانت غزالة زوجة شبيب تحارب معه . وعلى أثر دخول شبيب الكوفة ، عاد إليها الحجاج مسرعا ، ولكن فى الصباح خرج الحجاج ، إذ رأى أن يتراجع دون قتال ، وفى هذه المناسبة هجاه الشعراء بقولهم :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامةٌ فتخاء(١) تنفر من صفير الصافر .

ولكن القتال استأنف بعد قليل بين الحجاج وشبيب ووقعت بين الطرفين عدة معارك ، من أهمها واقعة سوق حكمة عند الكوفة وواقعة دجيل ، وفيهما هزم شبيب وفر وغرق جزء من جيشه ، وبموته سنة ٧٧ هـ انحط شأن الخوارج .

٦ — فتنة ابن الأشعث :

وتفاقم خطر المشرق ، حين خرج عبد الرحمن بن الأشعث(٢) على طاعة عبد الملك والحجاج . ذلك أن الحجاج كان قد ولى على سجستان عبيد الله ابن أبى بكرة ، وكان ملك كابل فى أرض سجستان قد ماطل فى دفع الأتاوة التى اعتاد أداءها للدولة العربية ، فأمر الحجاج الوالى ابن أبى بكرة بقتاله ، ولكن هذا الوالى قتل ، فجهز الحجاج جيشاً بلغ أربعين ألف مقاتل عرف بجيش الطواويس لحسنه وعظم استعداد رجاله ، وولى قيادته عبد الرحمن بن الأشعث ، فخرج من العراق وسار إلى الحدود الشرقية لقتال ملك كابل ، وكان ابن الأشعث شديد الزهو والحذر ، ولذا عنفه الحجاج واستبطأ الخطط الحربية التى رسمها للقتال بل رماه بالجبن . وكان عبد الرحمن حانقا على الحجاج لشدته وقسوته ، وكذلك كان الجيش . فعاد ابن الأشعث وجنده

---

(١) فتخاء : شديدة الذعر والفزع .
(٢) هو ابن محمد بن الأشعث بن القيث بن الكندى ، من قبيلة كندة .

إلى العراق وعصوا أمر الحجاج وخرجوا عليه دون عبد الملك ، واستوثق ابن الأشعث أن ملك كابل سيحميه فى حالة هزيمته ويأخذ بناصره .

ووقعت الحرب بين الحجاج وابن الأشعث فى منطقة البصرة ، حيث هزم ابن الأشعث فى واقعة الزاوية ، ثم اتجه شمالا إلى الكوفة ، وخشى الخليفة العاقبة فأرسل ابنه عبدالله وأخاه محمد بن رضوان لمفاوضة ابن الأشعث على أن يوليه أى إقليم يشاء على أن يسوى العداء بين أهل الشام وأهل العراق ، ويعزل الحجاج مما أساء إلى الحجاج ، كما أن ابن الأشعث لم يقبل هذا الصلح . ثم حدثت واقعة « دير الجماجم » سنة ٨٢ هـ وفيها هزم ابن الأشعث وفر ، وألقى بنفسه من حصن عال ومات وقبض على كثيرين من أتباعه ونكل بهم الحجاج(١) ، وبذلك انتهت حركة ابن الأشعث بالفشل .

وعلى أثر ذلك عظم سلطان الحجاج وهدأ المشرق ، وبسط عبد الملك يده عليه ، وأضاف إلى أعمال الحجاج خراسان وسجستان وعمان ، وصار بذلك حاكما على نصف الدولة العربية . وضعفت ثقة الحجاج فى جند العراق وعول على جند الشام ، ولكى لايخلط جند الشام بجند العراق ، ترك الكوفة والبصرة وأنشأ بلدة واسط(٢) ، وكان إنشاؤها ختاما للفتن التى قامت فى ذلك العصر(٣) .

٧ — استرداد إفريقيا

هذه الأحداث لم تشغل عبد الملك عما كان يدور فى إفريقيه ، إذ أن

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٣٢٧ .

(٢) تقع واسط بين مدينتى الكوفة والبصرة ، وقد سميت كذلك لتوسط موقعها بين هاتين المدينتين .

(٣) الدكتور على ابراهيم حسن : الحجاج بن يوسف الثقفى ، بحث فى مجلة العلوم ، العددان الثامن والتاسع ، اكتوبر ونوفمبر ١٩٣٧ .

البربر كانوا قد جمعوا جموعهم فى مستهل خلافته ، وهاجموا العرب فى القيروان وكانوا قليلين فهزموهم وقتلوا معظمهم ، كما قتلوا عقبة بن نافع والى إفريقية وسقطت القيروان فى أيديهم . وقد أرسل عبد الملك جيشاً لاسترداد تلك البلاد سنة ٦٩ هـ ولكن البربر والرومان قضوا عليه ، كما أرسل جيشاً آخر على رأسه حسان بن النعمان ، استرد القيروان وقرطاجنة ، وهزم الرومان والبربر ، ومدّ النفوذ الإسلامى حتى شواطىء المحيط الأطلسى ، ولكن نهاية جهوده لم تكن موفقة لأن البربر استجابوا لدعوة امرأة أطلق عليها لقب « الكاهنة » وملكوها عليهم ، واضطروا الجيش إلى الانسحاب إلى برقة ، وقد ملكت الكاهنة خمس سنوات . وأخيراً أمد عبد الملك قائده حسان بن النعمان بمدد حربى سنة ٧٩ هـ ، فسار لاسترداد شمالى إفريقية وفشلت الكاهنة فى مقاومته وهزمت بعد أن خاضت موقعة هائلة على سفوح جبال أطلس . وقتلت فى تلك المعركة ، وبعد قتلها استطاع حسان أن يحكم إفريقية وأن ينشر السلام بين أهلها .

تقدير عبد الملك :

كان عبد الملك أول من تجبر من الملوك ، وأظهر أبهة الملك بخلاف من سبقه من الأمويين ، وقد تجلى بأسه وجبروته حين منع الناس من الدخول عليه ومن التكلم بحرية فى حضرته . خطب عبد الملك الناس يوماً فقال : « أيها الناس ! إنى والله ما أنا بالخليفة المستضعف(١) ولا بالخليفة المداهن(٢)، ولا بالخليفة المأفون (الضعيف الرأى)(٣) ، فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا » (٤) . واشتهر عبد الملك بالحزم وأصالة الرأى كما كان أديباً فصيحا وشاعراً مجيداً .

---

(١) يقصد عثمان بن عفان .

(٢) يقصد معاوية .

(٣) يقصد يزيد بن معاوية .

(٤) العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٨٨ .

وفى سنة ٨٦ هـ أراد عبد الملك أن يجعل ابنه الوليد ولياً للعهد دون أخيه العزيز ، وطلب إلى أخيه أن ينزل عن حقه بنفسه ، فرفض ، إلا أنه توفى ، وتمكن بذلك عبد الملك من أخذ البيعة لابنه الوليد. وتوفى عبد الملك سنة ٨٦ هـ .

٦ — الوليد بن عبد الملك

٨٦ — ٩٦ هـ = ٧٠٥ — ٧١٥ م

اعتلى الوليد عرش الخلافة فى وقت كان أبوه قد قضى على الأزمات التى واجهت الدولة ، وثبت قواعد العرش الأموى بعد أن تزعزعت أركانها بعد موت يزيد بن معاوية . وكان قد قضى كذلك على المنافسين أمثال ابن الزبير وابن الأشعث ، فانتهى بذلك أمر الفتن الداخلية ، ولذا تمتع المسلمون فى عهد الوليد بحياة هادئة مثمرة واتسعت أطراف الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً . وعد عصره عصر التوسع والفتح، لأنه فى السنوات العشر الذى قضاها فى الخلافة استؤنفت الفتوح الإسلامية التى وقفت منذ عصر عثمان بسبب اضطراب أحوال الخلافة ، وأضيفت إلى الدولة الإسلامية أقطار واسعة كان لها أعظم الأثر فى نشر المدنية الإسلامية والنفوذ العربى . وقامت الفتوح الجديدة على أساس كسب المال ، لا على أساس نشر الدين الإسلامى كما كان الغرض من الفتح أيام الخلفاء الراشدين . وتم فى عهده فتح : إقليم ما وراء النهر ، وحوض نهر السند ، وشمال إفريقية ، والأندلس . وقام بهذه الفتوح ثلاثة من القواد كان لهم فضل إتمامها وهم : قتيبة بن مسلم الباهلى ، ومحمد بن القاسم ، وموسى ابن نصير .

Trans Oxiana

الفتوح فى عهده ١ — إقليم ما وراء النهر (نهر جيحون)

طمع المسلمون منذ عهد عثمان بن عفان فى هذا الإقليم فأرسلوا إليه عدة غزوات لم تؤد إلى نتيجة ما وكان مقسما إلى عدة وحدات سياسية ، مثل : سمرقند وبخارى ، وعلى رأس كل منها ملك من الترك ، هم أشبه بمشايخ قبائل يحارب بعضهم بعضا ، مما نفع المسلمين فى غزوهم .

ثم فتح هذا الإقليم على يد قتيبة بن مسلم ، وكان الحجاج قد ولاه خراسان . خرج قتيبة أولا إلى « بلخ » واحتلها سنة ٨٦ هـ ، ثم غزا « بيكند » سنة ٨٧ هـ ولكن أهلها انتهزوا فرصة غيابه فى الصغد وغدروا بعامله وقتلوه فاضطر إلى الرجوع إليهم وهزمهم وغنم منهم مغانم كثيرة بعد أن فتح المدينة عنوة ، وفى سنة ٨٨ هـ واصل فتوحاته فكان النصر حليفه فى بلاد كرمينية(١) ، وفى سنة ٨٩ هـ استولى على بخارى بعد عناء شديد واستخدم فى جيشه كثيراً من أهلها ، وفى سنة ٩٣ هـ استولى على خوارزم ، ثم فتح سمرقند بعد قتال شديد وبفتحها وطد مركزه فى بلاد ما وراء النهر وقرر مد حدود الدولة العربية فى أواسط آسيا . وعبر نهر جيحون حيث التقى بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل من بخارى وخوارزم وغيرهما ، وفى العام التالى سار إلى فرغانة وهو الإقليم المتاخم لبلاد تركستان ، ومنها تابع السير حتى وصل خجندة ، على نهر سيحون ولقى مقاومة ولكنه انتصر انتصاراً باهراً(٢) ، وفى سنة ٩٥ هـ استولى على خوقند وقشغر .

لم يكتف قتيبة بما أحرزه من انتصارات وبما فتحه من بلاد ما وراء النهر ، بل مضى قدماً يتابع فتوحاته ، وبينما هو فى الطريق جاءه خبر وفاة الخليفة الوليد ، فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو بل ظل فى سيره حتى قرب من

---

(١) بلدة من نواحى الصغد بين سمرقند وبخارى . ياقوت : معجم البلدان .
(٢) الطبرى جـ ١ ص ٩١ — ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٣٨ .

حدود الصين ، وإذ ذاك أرسل إلى ملكها وفداً يعرض عليه شروط التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة اضطر ملك الصين إلى أن يقدم له الخضوع ويدفع الجزية .

وهكذا أصبح هذا الإقليم كله تحت سلطان الدولة العربية . وسلك العرب في معاملة أهل هذا الإقليم نفس السبيل التى سلكوها فى الأقاليم الأخرى التى فتحوها فشجعوا أهله على اعتناق الإسلام حتى اعتنقه كثير من الترك ، وتتضح أهمية هذا الإقليم إذا علمنا أن كثيرين من علماء المسلمين من أمثال البخارى والفارابى والزندى والخوارزمى قد ظهروا فيه .

٢ — إقليم السند :

فتح هذا الاقليم محمد بن القاسم ، من أقرباء الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان عاملا على مكران . عهد إليه الحجاج فى غزو بلاد الهند ، لاعتداء بعض القبائل الهندية على العرب المقيمين هناك . فسار إليها سنة ٨٩ هـ وتمكن من احتلال أهم بلدانها حتى بلغ نهر السند ، وهناك التقى بملك السند حيث كان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، وانتهى القتال بينهما بهزيمة ملك السند وقتله . وبذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه حتى وصل إلى الملتان فى جنوب بلاد البنجاب ودخلها(١)

وكانت هذه البلاد وثنية ، ثم عم النفوذ الإسلامى بلاد الهند ، وتاخمت تلك البلاد الدولة العربية ووجد بذلك اتصال بين البلدين مما كان له أثر كبير ، فإن كثيراً من علوم العرب كالفلسفة والرياضيات نقلت من الهند واقتبست عنها .

٣ — فتح شمال إفريقية :

يعد موسى(٢) بن نصير(٣) بطل هذا الفتح . وكان هو ومولاه طارق بن زياد

---

(١) Muir: The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p.353.

(٢) ولى موسى البصرة فى أوائل عهد عبدالملك ، وكان محبا لجمع المال .

(٣) كان نصير من السبى ، الذين أسرهم خالد بن الوليد ، ثم اتصل بالأمويين وأصبح من مواليهم .

من البربر ، ويرجع السبب فى غزو هذا الإقليم إلى أن العرب عوّلوا بعد فتح مصر على تقوية حدودهم الغربية والاستيلاء على بقية الساحل الإفريقى الشمالى . فخرج موسى بن نصير على رأس جيش قاصداً إفريقية ، فلما بلغها ضمّ إليه جيشا آخر ، جعل على مقدمته طارق بن زياد ، وقاتل موسى البربر ، وبسط نفوذ الأمويين ونشر الإسلام فى أرجاء بلاد المغرب ، حتى بلغ طنجه وهى قصبة تلك البلاد وأم مدائنها . فحاصرها حتى فتحها وأسلم أهلها وقلد طارقاً ولايتها(١).

وقد لقى العرب فى فتح تلك البلاد مشقات جمة ، لم يلقوها فى فتوحاتهم الأخرى : إذ أنها بلاد جبلية يقيم فيها من قديم الزمان البربر ، وهو جنس ألف البداوة منذ القدم يعيش كما تعيش قبائل العرب محباً للحرب والغزو ، شديد التأثر بالدوافع الدينية إلى حد تصديق الخرافات والاعتقاد فى الأوهام ، ولذا لقى العرب فى حربهم معهم كثيراً من الصعاب لبسالتهم ولمساعدة الدولة البيزنطية لهم ومدها إياهم بالجنود والمال لقتال العرب .

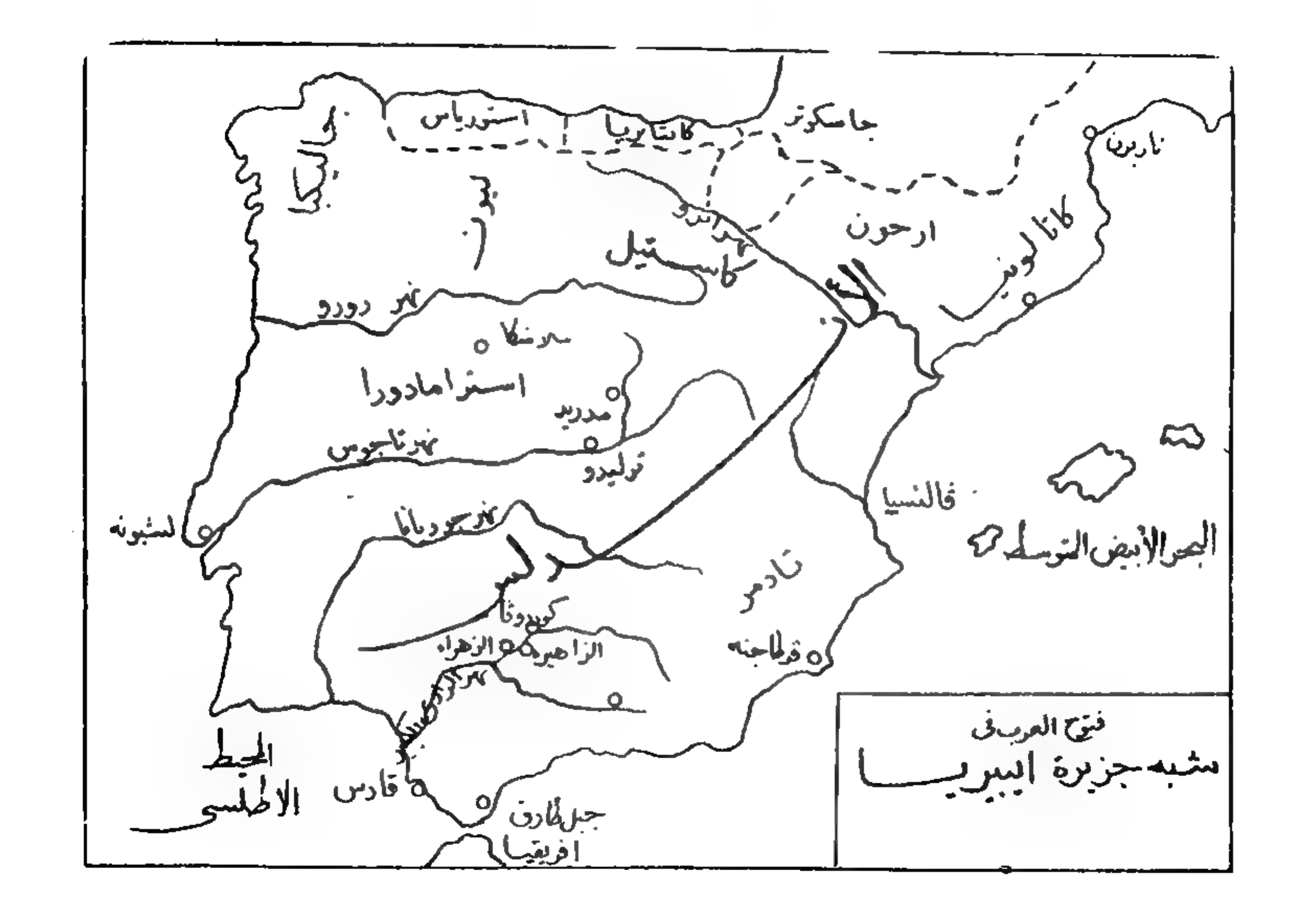
استمر موسى فى قتاله فى بلاد المغرب حتى بلغ شاطىء المحيط الأطلسى وقضى على نفوذ الدولة البيزنطية فى تلك الجهات إلا مدينة « سبتة » . ولقد أتبع موسى هذا النصر الحربى بالنصر الدينى ، فقد أدخل البربر فى الإسلام ونشر بينهم القراء يقرؤونهم القرآن ، وأصبحت المغرب منذ سنة ٩٠ هـ خاضعة للدولة العربية . وهكذا أصبح موسى شخصية عظيمة ، وذاعت شهرته فى المغرب .

٤ — فتح الأندلس .

بعد أن استقر أمر المسلمين فى بلاد المغرب ، اتجهت أنظارهم إلى أسبانيا التى كان قد نزل بها الوندال فى القرن الخامس الميلادى على أثر

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ٢٣٩ .


جاليكيا
استورياس
كانتابريا
جاسكونيا
ناربون
ليون
نهر ابرو
كاستيل
ارجون
كاتالونيا
نهر دورو
استراماذورا
مدريد
نهر تاجوس
توليدو
لشبونه
كوردوبا
الزهراء
الزاهرة
تادمر
قرطاجنه
فالنسيا
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلسي
قادس
جبل طارق
افريقيا
فتوح العرب في
شبه جزيرة ايبريا

ضعف الدولة الرومانية وسميت بذلك وندلوسيا أى بلد الوندال ، وبعد ذلك نزل بها القوط الغربيون ، وكان المسلمون يسمونها الأندلس .

وكانت مساوىء الحكم القوطى فى بلاد الأندلس مما سهل أمر فتح هذه البلاد أمام المسلمين ، ذلك أن الطبقات الممتازة من الأشراف ورجال الدين قد استأثرت فى العهد القوطى بكل المزايا ، فكانت معفاة من الضرائب كما كانت تضع يدها على معظم الأراضى ، بينما كان التجار مرهقين بالضرائب الفادحة ، وكان الزراع من العبيد هم الذين يقع عليهم عبء الحياة الثقيلة . ولما ثار نبلاء القوط والكهنة على الملك « أخيلا » ، وولوا مكانه قائد الجيش القوطى « رودريك » Roderic ، انقسم الجيش القوطى إلى فريقين : فريق يشايع رودريك وآخر يعارضه ، وكان على رأس هذا الفريق الأخير أخيلا الذى حاول استرداد عرشه المسلوب ، وقد كان هذا الفريق قوياً ، وازداد قوة حين انضم إليه الأمير جوليان حاكم « سبتة » الذى صد جيوش موسى بن نصير عنها .

وقد سنحت للعرب فرصة الإغارة على السواحل الأسبانية ، منتهزين فرصة استمانة الأمير جوليان بموسى بن نصير ضد الملك رودريك ، وذلك لما كان يضمره له من العداء ، واتصل جوليان بقوات العرب ، وأخذ يعدّ لهم وسائل الإغارة على أسبانيا والقضاء على رودريك ، ووصف جوليان لموسى ما جمعت بلاد الأندلس من شتى المنافع وهوّن عليه حال رجالها وذلك عقب عام ٩٠ هـ .

ورحب موسى بن نصير بدعوة جوليان ، واستشار الخليفة الوليد الذى تردد أولا ، ثم سمح له بمحاربة رودريك على أن يتبع طريق الحيطة والحذر ويتأكد أن جوليان لا يريد التغرير بالمسلمين . وقد أرسل موسى بن نصير طريف ابن مالك على رأس خمسمائة مقاتل سنة ٩١ هـ (٧١٠م)، فغزا بعض ثغور بلاد الأندلس الجنوبية بمساعدة جوليان وعاد بالأسلاب والغنائم .

وبعد ذلك سيّر موسى جيشاً كبيراً بلغ عدده سبعة آلاف معظمهم من البربر، بقيادة مولاه طارق بن زياد حاكم طنجة سنة ٩٢ هـ، وقد عبر هذا الجيش الخليج الفاصل بين إفريقية وبلاد الأندلس، ونزل فى المكان الذى يسمى الآن «جبل طارق»، ثم سار فى الولاية المجاورة وفرّ من قوات القوط التى اعترضته، واتجه شمالا حيث انضم إليه خمسة آلاف ووصل إليه مدد من موسى بن نصير.

ثارت مخاوف المسلمين حين علموا بدنو جيش رودريك، ولكن طارق خطبهم خطبته المشهورة: أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام. قد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلفونه من أيدى عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقادكم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهب ريحكم وتعوضت القلوب فى رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة الطاغية ... وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً .... واعلموا إنى أول مجيب لما دعوتكم إليه، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله (١).

والتقى الجيشان فى منتصف رمضان سنة ٩٢ هـ، وكان الملك رودريك على رأس جيش يبلغ مائة ألف مقاتل وذلك على ضفاف نهر جوادى فى أسبانيا، وانتصر جيش طارق على العدو انتصاراً باهراً، وفر رودريك ولكنه غرق فى مياه النهر.

ويعزى هذا النجاح الذى أحرزه المسلمون فى هذه المعركة، إلى مابذله

(١) المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ١١٣ — ١١٤.

جوليان من جهود فى استمالة كثير من جند رودريك إليه ، مما رجح كفة العرب وفرق شمل جيش رودريك (١) . وقد قسم طارق بن زياد جيشه بعد ذلك إلى أربع فرق : وجه ثلاثة منها نحو « ملقا » ، وغرناطه وقرطبة ، فى حين سار هو بنفسه على رأس الفرقة الرابعة نحو « طليطلة » ، عاصمة القوط واستولى عليها ، وكان طارق قد أرسل المغيث بن الحارث على رأس سبعمائة فارس إلى قرطبة واستولى عليها كذلك .

ولما سمع موسى بن نصير بانتصارات طارق ، دبت الغيرة فى نفسه وأرسل إليه أمراً بالتوقف ثم أعد جيشاً يبلغ عدده ثمانية عشر ألف مقاتل يتألف من العرب والبربر وسار به إلى الأندلس ، واستولى على إشبيلية وكانت من أعظم مدن الأندلس شأناً وأفخمها بناءاً وكانت حاضرة إسبانيا حتى غلب عليها القوط فاتخذوا طليطلة حاضرة لدولتهم ، وقد سار طارق حتى وصل إلى مدينة «ماردة» التى تمتاز بقصورها وكنائسها واستولى عليها يوم عيد الفطر سنة ٩٤هـ .

والتقى موسى بطارق فى طلبيرة وأنبه على عصيانه الأوامر التى أصدرها إليه بالتوقف بل وضربه بالسوط ووبخه على استبداده برأيه وطالبه بالأموال والنفائس التى استولى عليها ثم سجنه . وقد استطاع طارق أن يتصل بالخليفة الوليد وشكا له سوء معاملة موسى بن نصير ، فكتب الخليفة إلى موسى يأمره بإطلاق سراح طارق ورده إلى عمله ، فرده موسى إلى قيادة المسلمين .

سارت قوات موسى وطارق من طليطلة ففتحت أقاليم أرغونة ، وقشتالة ، وقطالونيا على الساحل الشرقى ، واستولت على مدن مهمة منها سرقطة وبرشلونة ، وأصبحت أسبانيا كلها حتى جبال البرانس فى أيدى المسلمين فى أقل من سنتين . وذلك فيما عدا الأقاليم الجبلية فى الشمال الغربى التى تسمى جليقية ، وقد التجأ إليها أشراف القوط وكبراؤهم وصمدوا ضد التوسع الإسلامى ، وترك موسى أمر

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٢ .

إخضاع جليقية إلى طارق وعبر البرانس إلى فرنسا وترك الجزء الجنوبي منها ، ولكن الخليفة الوليد مالبث أن دعاه إلى الكف عن التوسع ، فعاد موسى إلى أسبانيا ، وأخذ يوجه جهوده إلى إخضاع الجزء الشمالى الغربى منها ودخل جليقية واستولى على قلاعها . وأراد موسى متابعة الفتح والغزو ، ولكن الوليد استدعى موسى فى ذلك الوقت لأنه كان يخشى ازدياد نفوذه واستقلاله بتلك البلاد . ورحل موسى بن نصير إلى دمشق سنة ٩٦ هـ ، بعد أن ولى ابنه عبد العزيز على الأندلس كما ولى ابنه عبد الله إفريقية .

وهكذا تم فتح اسبانيا ، فامتدت حدود الدولة وازدهرت المدنية الإسلامية لتأثرها بالحضارة الأندلسية الزاهية ، وبذلك يعتبر عهد الوليد عهد التوسع والفتح فى الدولة الأموية .

تقدير الوليد :

كان عصر الوليد عصر عظمة ومجد للأمويين : فقد اتسعت أطراف الدولة العربية ، وبرزت مواهب قواد العرب ، كما ارتقت الفنون وازدهرت العمارة إذ أنشأ المسجد الأموى الباقى إلى اليوم فى دمشق(١) وأعاد بناء المسجد النبوى فى المدينة المنورة .

وتوفى الوليد سنة ٩٦ هـ بعد الحجاج بسنة واحدة .

---

(١) كان هذا المسجد فى الأصل كنيسة ، فاقتسمه المسلمون وجعلوا نصفه كنيسة للنصارى والنصف والآخر جامعا للمسلمين ، ثم اشترى النصف الذى جعل كنيسة ولكنه لم يضمه إلى مساحة المسجد .

٧ — سليمان بن عبد الملك بن مروان

٩٦ - ٩٩ هـ = ٧١٥ - ٧١٧ م

سياسته :

ارتقى سليمان عرش الخلافة بعد أخيه الوليد طبقاً للنظام الذى كان قد وضعه عبد الملك بن مروان لولاية العهد . على أن سليمان قد غلبت عليه العصبية القبلية : فقد كانت أمه يمنية مثل يزيد بن معاوية ولذلك كان سليمان متعصبا لأخواله من اليمنيين ، وكان ذلك التعصب القبلى من عوامل سقوط الدولة .

أراد الوليد أن يجعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز من بعده وقد شجعه على ذلك الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم ، ولكن الوليد مات قبل أن ينفذ رغبته ، فحقد سليمان عليه . وكان الحجاج قد توفى قبل الوليد ، أما محمد بن القاسم وقتيبة فقد حلّ بهما غضب سليمان . ويقال إنه لما ارتقى سليمان عرش الخلافة ولىّ يزيد بن أبى كبشة على السند وأمره بحبس محمد بن القاسم فحبسه فى بلدة واسط وانتهى أمره أخيرا بالقتل (٢) . كذلك عزل سليمان : قتيبة بن مسلم ، وأساء معاملة موسى رغم كبر سنه وسوء صحته وفرض عليه مبلغاً كبيرا من المال ومالبث أن سجنه حتى مات أرسل إلى بلاد الأندلس من قتل ابنه عبد العزيز وعزل ابنه عبد الله عن شمال إفريقية ولكنه عفا عنه وسمح له بالتردد على مجلسه فظل على ذلك حتى مات فى حياة سليمان ، وهكذا بدأ سليمان خلافته بالانتقام من قواد أخيه . على أن سليمان رغم ذلك كان يقدر الناس حق قدرهم ،

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٠٣ .

فقد أبى أن يسلم طارق بن زياد إلى موسى بن نصير بعد أن عفا عنه ، كما أنه كان يجالس العلماء من أمثال ابن شهاب الزهيرى ، وقدّر عمر بن عبد العزيز حق قدره . وفى عهده ارتفع شأن أعداء الحجاج وخاصة أسرة المهلب ورئيسها يزيد بن مهلب الذى ولاه سليمان على المشرق ، فسار إلى خراسان وغزا إقليمى طبرستان وجرجان .

حصار القسطنطينية :

استطاع سليمان فى مدة خلافته ، رغم قصرها ، أن ينفذ الحملة التى كان قد أعدها الوليد فى أواخر أيامه لفتح القسطنطينية ، فلم يتوان فى تجهيزها ومضى فى تنفيذ المشروع دون تردد ، وشجعه على ذلك أن القسطنطينية كانت فى حالة ضعف تام ، فأرسل سنة ٩٨ هـ قوة برية تبلغ ثمانين ألفاً إلى آسيا الصغرى تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، كما أمر عمر بن هبيرة قائد الأسطول العربى على القوة البحرية وأمره بالإبحار إلى القسطنطينية ، ورابط سليمان نفسه بقوة حربية عند « دابق » بالقرب من حلب ليمد الحملة بما يلزمها وقت الحاجة .

اجتاح مسلمة بن عبد الملك آسيا الصغرى ووصل إلى بلدة « عمورية » وأخذ فى محاصرتها ، وكان يتولى الدفاع عنها ليو الأزورى البيزنطى الذى عرف بمطامعه السياسية فى عرش بيزنطة ، فحاول الاستعانة بالعرب للوصول للملك ، ومن ثم دخل فى مفاوضات مع مسلمة . ولم يكن مسلمة بالقائد الفطن ، فقد صدق ما تعهد له به ليو بأنه إذا ساعده على ارتقاء عرش الدولة البيزنطية فإنه يؤدى جزية سنوية للدولة العربية ، ورفع الحصار عن عمورية وسار إلى بلدة أبيدوس على ساحل آسيا الصغرى الغربى ، وسار ليو فى الوقت نفسه إلى القسطنطينية وأوهم أهلها أنهم إن جعلوه ملكاً عليهم تمكن من صد غارة

العرب لأنه قد تمكن من خديعة القائد العربى ، فلم يشك أهل القسطنطينية فى قوله وجلس على عرش بيزنطة .

كان مسلمة إذ ذاك يرابط بجيوشه أمام القسطنطينية منتظرا أن يبر ليو بوعده ويرسل إليه الأموال ، وكان الأسطول العربى قد دخل مضيق القسطنطينية ورابط فى البسفور . ولما لم يف ليو بوعده صمم مسلمة على مداومة الحصار وأمر رجاله بزرع الأراضى وادخار المؤن والذخائر ، ولكن ليو تمكن من أن يدخل الغفلة مرة أخرى على مسلمة قائد الجيش الإسلامى . فأوهمه أن الروم قد علموا أنه لن يحاربهم مادام الطعام وفيرا ، فلو أحرق الطعام فإنهم يظنون أنه سيبادر إلى الحرب فيقدمون إليه فروض الولاء والطاعة ، وهكذا أمر مسلمة بإحراق المدن دون أن يدرك نتيجة هذا العمل ، فلما اشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر وهاجمها أسطول المسلمين ، استدرج ليو سفن المسلمين حتى فتكت بها النار الإغريقية ولم يبق معهم من المؤن والذخيرة مايساعدهم على مهاجمة المدينة الحصينة(١) .

وأقبل الشتاء على الجيش وقد نفدت أقواته بعد أن أحرقت ، واضطر الجند إلى أكل الدواب حتى جاءت الأخبار بوفاة سليمان فى صفر سنة ٩٩ هـ وتولية عمر بن عبد العزيز ، فعادت الحملة خائبة ، بعد أن أمرها الخليفة الجديد بالرجوع . وهكذا قدر لحملة سليمان على القسطنطينية الإخفاق .

ولا غرو فقد اشتهر سليمان بالضعف ، فقد نشر الفرقة والانقسام بين أفراد الدولة بعد أن شطرها إلى شطرين : يمنية ومضرية ، كما كان نهما محبا للترف ، فلم يكن من المنتظر أن ينجح فى إنجاز مثل هذا المشروع الضخم .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن بك : تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ٢٤٦ .

٨ — عمر بن عبد العزيز
٩٩ - ١٠١ هـ = ٧١٧ - ٧٢٠ م

بيعته :

لما مرض سليمان بن عبدالملك عزم على مبايعة بعض أبنائه، فنهاه أحد خاصته وأشار عليه أن يختار رجلا صالحا(١)، فاستشاره فى عمر بن عبدالعزيز فأثنى عليه ، فكتب سليمان عهده ، ودعا أهل بيته وقال لهم : « بايعت لمن عهدت إليه فى هذا الكتاب » ، ولم يعلمهم به فبايعوا ، ولما مات سليمان جمعهم ذلك الرجل الذى أشار بمبايعة عمر وكتم موت سليمان عنهم وقال لهم : « بايعوا مرة أخرى » ، فبايعوا ، ولما رأى أنه قد أحكم الأمر ، أعلمهم بموت سليمان فبايعوه ، ولم يتخلف عن بيعته إلا سعيد وهشام ابنا عبدالملك(٢). وقيل إن سليمان بن عبد الملك خبره ، فوجد أنه لم يكن من بين الأمويين من يصلح لهذا الأمر غيره : لورعه ، وتمسكه بأهداب الدين ، وحفظ العهود والمواثيق .

سياسته :

كان البون شاسعا بين عمر وبين غيره من خلفاء بنى أمية ، حتى اعتبر حكمه : غرة فى جبين ذلك القرن الذى امتلأ بالزيغ عن الدين والتلطخ بالاستبداد وسفك الدماء (٣) ، ويعد المسلمون خلافته كخلافة عمر بن الخطاب . ينتهى نسب عمر بن عبد العزيز إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ، أما أمه فهى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فلا عجب إذا اشتهر كجده بالتقوى

---

(١) هو رجاء بن حيوة .
(٢) الفخرى ص ١١٧ .
(٣) Nicholson : Lit. History of the Arabs, p. 209.

والورع والعدل ، ومع أنه نشأ فى مصر مع أبيه ، إلا أن أباه بعثه إلى المدينة فاتصل بشيوخها وتعمق فى الفقه وبرع فى الحديث ، وولى الحجاز فى زمن عبد الملك بن مروان والوليد ، وتم على يده تجميل المسجد النبوى فى المدينة المنورة . وأبطل عمر سب على بن أبى طالب من على المنابر (١) ، وهى العادة التى كانت متبعة فى العصر الأموى ، و هذا حدا بالعلويين إلى الرضى عن خلافة عمر . وكان بلاطه مملوءاً بأهل الورع والتقوى حتى لم يكن للشعراء نصيب فى بلاطه .

إصلاح عام :

كان عصر عمر عصر سلم وإصلاح واستقرار ، بعيدا عن الفتن التى سادت الدولة الإسلامية منذ عهد عثمان ، فقد عزل الولاة الذين عرفوا بالظلم وولى مكانهم الأكفاء والصالحين وجعلهم مسؤولين أمامه وحد من سلطتهم . ثم بدأ فى نشر الدعوة الإسلامية على النحو الذى كانت عليه أيام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقد وصل عمر بالوسائل السلمية فى نشر تلك الدعوة إلى ما عجز عنه أسلافه عن طريق القوة : فقدم لأهالى البلاد التابعة للدولة العربية هبات من المال ليدخلوا فى الإسلام ، وأرسل إلى بلاد المغرب عشرة من الفقهاء ليعلموا أهل البلاد أصول الدين الإسلامى وتعاليمه ، كذلك أرسل كتاباً إلى ليو الثالث ملك الروم يدعوه فيه إلى الدخول فى الإسلام ، وكتب إلى ملوك الهند والسند وماوراء النهر و البربر بإفريقية لإقناعهم باعتناق الديانة الإسلامية على ألا يدفعوا جزية ولا يمس استقلالهم فاستجاب له أكثر هؤلاء الملوك ، وقيل إن عامله على خراسان أدخل فى الإسلام نحوا من أربعة آلاف شخص .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

وحاول عمر إصلاح حالة البلاد المالية بأن أمر عماله بأن يرفعوا الجزية عن كل من أسلم . ولما شكا إليه بعض الولاة كثرة دخول الناس فى الإسلام ونقص إيرادات بيت المال نقصاً محسوساً تبعاً لذلك واستأذنوه فى فرض الجزية على من يعتنق الإسلام ، قبح رأيهم ، ورد على أيوب بن شرحبيل الأصبحى والى مصر بكلمته الخالدة : ضع الجزية عن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ، ولم يبعثه جابياً . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه .

واستقدم عمر الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية ، فقد بعث بأوامره إلى مسلمة بن عبد الملك ليرفع الحصار عن القسطنطينية بعد أن ساءت حال المسلمين واستعصى عليهم فتح تلك المدينة .

حاول عمر إرضاء الشيعة والخوارج وإقناعهم بمناصرة الأمويين عن طريق الأدلة والحجج والبراهين . ولم يحرك الخوارج ساكناً فى عهد الوليد ابن عبد الملك وأخيه سليمان ، ولما ولى عمر بن عبد العزيز ولاية العهد ظهر « بسطام اليشكرى » من بنى يشكر وكان يعرف باسم شوذب ، ولم يرد عمر أن يأخذ هؤلاء الخوارج الذين التفوا حوله بالشدة والقسوة ، فأرسل إلى شوذب كتاباً يقول فيه : « بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست أولى بذلك منى ، فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان بيدك نظرنا فى أمرنا » . فكتب شوذب إلى عمر : « قد أنصفت . وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » . ولم يستطع أن يرد على اعتراضهما فى شأن ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك من بعده ، فطلب إليهما أن يستمهلاه ثلاثة أيام ، ولكنه مات قبل مضى هذه المدة لأن بنى مروان دسوا له السم خوفاً من أن يخلع يزيد وأن يضيع ما فى أيديهم من السلطان .

وفاته :

توفى عمر سنة ١٠١ هـ فى «دير سمعان» فى شمال الشام، وسنه لا تزيد على تسع وثلاثين سنة، بعد أن ولى الخلافة مدة سنتين وخمسة أشهر. وقد عدّه بعض المؤرخين من الخلفاء الراشدين وخاصة أنه رد المظالم التي ارتكبها بنو أمية، لذلك نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبره لأعماله الجليلة التى قام بها فى سبيل رفع شأن الإسلام والدولة العربية.

ولكن للأسف لم يعمل بإصلاحات عمر بعد وفاته، وسارت الأمور فى مجراها الأول من حيث تعصب القبائل العربية، وازدياد أحوال الموالى سوءا، وانقسام الأسرة المالكة الأموية على نفسها.

٩ — يزيد بن عبد الملك

١٠١ — ١٠٥ هـ = ٧٢٠ - ٧٢٤ م

هو ابن الخليفة عبد الملك، من زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية. وقد اعتلى عرش الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز، طبقاً للنظام الذى وضعه سليمان بن عبد الملك. وفى عهده تعرضت الدولة الأموية لبعض الأخطار، فنجاها منها وهزم الخارجين عليها.

الفتن الداخلية والخارجية :

سار يزيد على سياسة أخيه الوليد، فإنه بعد أن أعلن الخوارج العصيان وهزموا الأمويين فى عدة وقائع، ولى الكوفة مسلمة بن عبدالملك وأرسل إلى الخوارج سعيد بن عمرو الحريش فى جيش كثيف، فتمكن من هزيمتهم وتشتيت شملهم.

وقامت فى عهد يزيد فتنة جامحة قادها يزيد بن المهلب، وهو الذى ولاه

سليمان على المشرق ، وافتتح طبرستان . فلما جاء عمر بن عبد العزيز طالبه بخمس الأموال التي جباها ، فعجز عن أدائها ، فسجنه في جزيرة دهلك في البحر ثم نقل إلى حلب وظل في السجن إلى أن مرض عمر مرض الموت ، ففر من محبسه معتزماً الثورة ، وذهب إلى البصرة وأسر واليها ، ثم واصل السير إلى الكوفة فانضم إليه خاصته كما انضم إليه الأزد ، وبذلك عظم أمره واشتدت سطوته . فبعث إليه الخليفة يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة وابن أخيه العباس ابن الوليد في جيش عظيم ، فالتقى الجيشان واقتتلا قتالا شديداً ، وقتل يزيد ابن المهلب في المعركة وتفرقت جموعه وفر إخوته إلى كرمان والسند ، ولكن يزيد بن عبد الملك تعقبهم ونكل بهم .

لم يقف الأمر في عهد يزيد عند حد القضاء على الأخطار الداخلية ، بل أن الجيوش الإسلامية في أسبانيا وجهت أنظارها من جديد إلى البلاد الواقعة شمال البرانس ، وتقدمت في فرنسا بقيادة السمح بن مالك الذي ولى بلاد الأندلس (١٠٠ - ١٠٢ هـ) ، واخترقت جبال البرانس وزحف على مقاطعة بروفانس ثم أغار على أكيتانيا وحاصرت تولوز ولكن نهاية السمح كانت سيئة : لأن « بورد » دوق أكيتانيا قابله بجيش كبير وهزمه وقتله ، كما قتل معظم جيشه وعاد الباقون بقيادة عبد الرحمن الغافقي إلى مدينة ناربونة ، مما يدل على أن العرب وإن هزموا في عهد يزيد بن عبد الملك في فرنسا فإنهم لم يغادروها وظلت السلطة في أيديهم في الجزء الواقع منها شمال البرانس .

غير أن سوء أخلاق يزيد بن عبد الملك أضعفت هيبة الخلافة : فقد اشتهر باللهو والخلاعة والتشبيب بالنساء ، كما تجدد في عهده الخلاف بين اليمنية والمضرية وأصبحت اليمنية من أعداء الدولة بعد أن كانت من أنصارها وصار العنصر المضرى حزب الأمويين ، وكذلك لم يأخذ بإصلاحات سلفه فقد نقض كل ما فعله عمر حين أمر بوضع الجزية عمن أسلم وجعل الخراج

على الأرض ، وفرض يزيد الجزية على من أسلم مما أدى فى النهاية إلى نتائج تعد على أعظم جانب من الخطورة .

وكانت وفاة يزيد فى شعبان سنة ١٠٥ هـ ، وهو فى الثامنة والستين من عمره .

١٠ — هشام بن عبد الملك

١٠٥ — ١٢٥ هـ = ٧٢٤ — ٧٤٣ م

هشام هو ابن عبد الملك من زوجته المخزومية ، تولى عرش الخلافة سنة ١٠٥ هـ ، ولم يقم فى دمشق كما فعل أسلافه من خلفاء بنى أمية وإنما أقام فى الرصافة الواقعة شمال شرقى الشام ، قضى مدة خلافته فى بحث حالة الموالى وفى إيجاد توازن بين اليمنية والمضرية وفى العمل على توسيع نطاق الدولة باستئناف الفتوح .

سياسته إزاء القبائل :

لم يكن موقف هشام بالنسبة للقبائل العربية ثابتا بل كان مضطربا ، فقد لحظ هشام من بادىء الأمر ارتفاع شأن القيسية وانخفاض المضرية نتيجة لما حدث فى عصر سلفه يزيد ، فأحب هشام أن يوجد التوازن بين الفريقين ، وافتتح عصره بتولية عمال من القيسية واليمنية : فولىّ على العراق خالداً بن عبد الله القسرى من قبيلة « قسر » وهى قبيلة ضعيفة ، وفى سنة ١٢٠ هـ أخذت سياسة هشام تتغير بالنسبة للقبائل ، فتحول هشام عن اليمنية إلى المضرية وأصبحت الدولة تعول على الفريق الأخير ، فقد كان هشام محباً لجمع المال ، وكان عمال القيسية وهم من المضرية كالحجاج وزياد ، مهرة فى انتزاع الأموال على العكس من اليمنية ، كما أن هشاماً تأثر بنسبه إذ كانت أمه قيسية .

التوسع والغزو :

امتاز عصر هشام بالتوسع في الفتوح ، فقد أراد ولاة الأندلس أن يسيروا قدماً في تنفيذ سياسة الفتوح في فرنسا ، التي استؤنفت في عهد يزيد بن عبد الملك وتوقفت على أثر مقتل السمح بن مالك . وقد غزا عنبسة بن سحيم الكلبي - الذي ولي على بلاد الأندلس في أواخر عهد يزيد بن عبد الملك - بلاد الغال واستولى عليها ولكنه قتل أثناء عودته فاضطر العرب إلى التقهقر إلى ناربونة .

ولما ولى عبد الرحمن الغافقي حكم الأندلس وأصلح أحوالها وقوى الجيش ، خرج في ثمانية آلاف مقاتل واستولى على أكيتانيا التي استعان دوقها بالفرنجة ، فقابله جيش يقوده شارل مارتل ، وحدثت بين العرب والفرنجة في رمضان سنة ١٢٤ هـ واقعة تور أو بواتيه ، ودارت الموقعة ثمانية أيام وكاد النصر يتم للمسلمين ، ولكن في اليوم التاسع دارت الدائرة عليهم ووجد العرب أنفسهم في مركز حرج ، وانتهزوا فرصة الظلام وانسحبوا بعد أن أصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته . وكان لهذه الموقعة أثر كبير في سياسة الأمويين إذ لم يحاولوا بعدها الاستيلاء على بلاد الفرنجة وبدأوا يتراجعون إلى بلاد الأندلس .

الفتن والثورات :

واضطر عبد الرحمن الغافقي إلى ترك أسبانيا والذهاب إلى شمالي إفريقية ، حيث قامت الثورات ضد الحكم الأموي ، لأن العرب لم يعاملوا البربر معاملة تحمل معنى المساواة معهم ، فقد أكرهوهم على دفع الجزية وصاروا بذلك في مستوى أقل عن العرب . وساعدت هجرة كثير من الخوارج إلى بلاد المغرب إذ ذاك على إشعال نيران الثورات بها . ولم يحاول هشام إصلاح حال البربر ، بل استخدم معهم أساليب القوة ، وسير جيشا من

جند الشام بقيادة كلثوم بن عياض القشيرى ولكنه هزم فى واقعة بقدورة بشمالى إفريقية وعدت أعظم هزيمة لقيها العرب .

وفى أيام هشام ، خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، الذى تنتسب إليه طائفة الزيدية ومن كبار أهل البيت وكان يمنى نفسه بالخلافة ، وقد عرف هشام ذلك عنه . وأراد زيد الذهاب إلى المدينة ليتخذها مركزاً له وسار فعلا فى طريقه إليها ، ولكن أهل الكوفة تبعوه وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً وأغروه بالرجوع إليها فرجع ، وهناك أقبلت الشيعة عليه وانضموا إليه كما انضم إليه أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وجرجان والجزيرة . وإذ ذاك أعلن زيد حقيقة مراميه ، والتقى بيوسف بن عمر الوالى الأموى ودارت بينهما معركة حامية ، أبلى فيها زيد بلاء حسناً وقاتل قتالا عنيفا ولكنه أصيب بسهم أرداه قتيلا(١).

وثار فى عهد هشام على الدولة الأموية ، الحارث بن سريج التيمى ، وذلك لأن هشاماً فاجأ الموالى بضريبة خراجية لا قبل لهم باحتمالها . وكان الحارث يزعم أنه المهدى الذى بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين . وقد استغل الحارث الكراهية التى كان يضمرها الموالى للدولة الأموية ، فجمع حوله عدداً كبيراً منهم كما جمع عدداً من العرب الناقمين ، واستطاع أن يستولى على المدن الواقعة على شاطىء نهر سيحون ، ولكن أسد ابن عبدالله القسرى الذى تولى خراسان فى عهد ولاية أخيه خالد على العراق استردها منه واضطره إلى الانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر سنة ١١٨ هـ . وانضم الحارث بعد ذلك إلى الأتراك أعداء العرب ، ولكنه لم يفز بطائل لأن نصر بن سيار ولى أمر خراسان سنة ١٢٠ هـ وكان من الولاة الأقوياء

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٣ — ٤٤ .

الموالين للعرش الأموى ، فاستطاع أن يوطد دعائم حكم الأمويين فى بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣ هـ (١) .

* * *

يعد هشام من مشهورى خلفاء بنى أمية ، بلغت مدة خلافته عشرين عاما ، اتصف خلالها بالدقة والإخلاص في العمل . ولكن أحوال البلاد ظلت فى عهده تنتقل من سىء إلى أسوأ ، نتيجة ذلك السخط العام على السياسة الأموية فى المشرق ، وخاصة لإعادة فرض الجزية على المسلمين بعد أن كان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد ثبت إلغاءها ، وكان انقسام المسلمين إلى موال وعرب وإلى يمنية ومضرية داعيا إلى إيقاف حروب الفتح والتوسع .

وكانت وفاة هشام فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ ، فى الرصافة ، وبوفاته بدأ الضعف يدب إلى جسم الدولة الأموية .

١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثانى)

١٢٥ - ١٢٦ هـ = ٧٤٣ - ٧٤٤ م

لم يمتد حكم الوليد بن يزيد بن عبد الملك أكثر من سنة واحدة ، وفى عهده أسرعت الدولة ناحية الانحلال ، وكان أسوأ بنى أمية سيرة ، أدمن على شرب الخمر وعرف بالجور والظلم وهو لا يزال ولى عهد الدولة . ولما وصل إلى الخلافة ، بالغ فى إظهار سروره بموت هشام لأنه كان قد أراد منعه من ولاية العهد ونكل بأولاد هشام وبكل أموى فكر فى منعه من الوصول إلى الخلافة وسجنهم وعذبهم ، ولذلك انقسمت الأسرة المالكة على نفسها انقساماً شنيعاً ، وزاد هذا الانقسام أن الوليد حاول أن يجعل الخلافة لابنيه الصغيرين مع وجود الراشدين من أسرته ، فتصدى له يزيد

(١) فان فلوتن: السيادة العربية، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٦١ـ٦٣ .

ابن الوليد بن عبد الملك، مما زاد الأمر فساداً وأدى إلى سخط بنى أمية عليه .

وسلك الوليد مسلك هشام من حيث التعصب للقبائل ، وكان هشام قد ناصر القيسية المضرية على اليمنية . واتبع الوليد هذه السنة فمال إلى القيسية وعادى اليمنية ، فكان هذا خروجاً على التقاليد المرعية ، إذ كان كل الخلفاء حتى سنة ١٢٠ هـ يعولون على اليمنية .

وقد قتل الوليد بقرية من قرى دمشق فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، بسبب قبح سيرته وسوء معاملته لأكابر أهل بيته ورجالات دولته ، فاجتمعوا وهجموا عليه ، فلما أحس بهم دخل داره وفتح المصحف وقال : يوم كيوم عثمان بن عفان(١) . ثم تقدم إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وقتله ، وكانت مدة خلافته سنة وشهرين وأياماً .

١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك

جمادى الآخرة - ذى القعدة سنة ١٢٦ هـ

جاء بعد الوليد ، يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، ومكث فى الخلافة ستة أشهر . ويختلف عن سابقه فى : أنه كان محبوباً لدى المتدينين فقد كان يزيد ورعاً تقياً على عكس الوليد ، وأغضب الوليد اليمنية فى حين أن يزيد اكتسب ودهم بأن عزل ولاة القيسية وولى مكانهم اليمنية ، ومع ذلك فقد أخذ عليه بعض العامة ميله إلى القدرية أو المعتزلة التى عظم شأنها إذ ذاك وكان لها آراء فلسفية ولعل ميل الخليفة يزيد إلى القدرية يرجع إلى سعة ذهنه فى المسائل الفلسفية .

وكان تحزب يزيد لليمنية دون المضرية وميله إلى طائفة المعتزلة ، داعياً إلى كرهه . وقد مات فى ذى القعدة سنة ١٢٦ هـ تاركا الخلافة لأخيه ابراهيم

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢١ — ١٢٢ .

ولكن لم يعترف بسلطان ابراهيم ، ولذا لم يذكر اسمه بين الخلفاء الأمويين وإنما يذكر بعد يزيد هذا مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ولم يمكث ابراهيم بن الوليد فى الخلافة أكثر من شهرين .

١٣ — مروان بن محمد

١٢٧ - ١٣٢ ﻫ = ٧٤٤ - ٧٤٩ م

لما بويع ابراهيم بن الوليد لم تأت بيعته بطائل ، ولم يلبث مروان ابن محمد أن سار إليه وخلعه ، وهرب ابراهيم من دمشق فظفر به مروان وقتله وصلبه وقتل من مالأه ومن بينهم العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسرى ، وحينئذ اشتعلت نار العصبية بين المضرية واليمنية ، وتعصب مروان ابن محمد للمضرية على اليمنية ، ولذلك انصرفت اليمنية عنه ومالوا إلى الدعوة العباسية[١] . وبويع مروان فى دمشق فى شهر صفر سنة ١٢٧ ﻫ ، وهو آخر خلفاء بنى أمية .

وفى عهد مروان ، اشتدت الثورات التى قام بها اليمنية ضد الحكم الأموى فى كل أنحاء الشام وفى العراق ، إلا أن مروان بمهارته الحربية التى اشتهر بها وبإخلاص القيسية له استطاع أن يخمد تلك الثورات الواحدة بعد الأخرى .

وكانت الحالة فى العراق قد بلغت النهاية القصوى من الفساد ، ففيها تطاحنت الأحزاب السياسية كالخوارج والعلويين ، بل ظهر إذ ذاك الساخطون من بنى أمية ، ولكن بشكل غير منظم . وكانت أعظم الفتن فى العراق فتنة الخوارج ، فقد سار رئيسهم الضحاك بن قيس إلى الموصل ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣ .

وكان هذا الخارجي يسعى إلى الخلافة، فسار الخليفة لقتاله، وحدثت بينهما واقعة كبرى قتل فيها الضحاك. وتلا ثورة الخوارج ظهور العباسيين في خراسان، مما هزّ الدولة الأموية هزاً عنيفاً وقرّب من نهايتها، وقضى عليها بعد قليل.

سقوط الأمويين

على أن العامل الهام الذي أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعضعها بشكل جلي، ماكان من تعصب الأمويين للعرب مما أدى إلى خروج الموالي على الدولة الأموية، وهم غير العرب الذين دخلوا في الإسلام عقب الفتح العربي في فارس ومصر والمغرب، وما لبث هؤلاء الموالي أن أصبحوا أعداء العرب لتفضيل العرب أنفسهم عليهم وتمتعهم بحقوق لم يتمتع بها الموالي(١). لذلك كان الموالي ينتهزون كل فرصة ليكيدوا للدولة الأموية وظهروا مع كل خارج على الأمويين. ولم تكن حركاتهم منظمة، ولكنها اشتدت في أواخر العهد الأموي حين فسدت الأحوال بشكل واضح، واستمرت الحروب بين الموالي والدولة الأموية، مما كان له أكبر الأثر في نجاح الدعوة العباسية حيث احتضن دعاة العباسيين قضية الموالي وأيدوهم ضد بني أمية.

ولا يقل عن ذلك أهمية، ماكان من انصراف بعض خلفاء بني أمية كيزيد ابن معاوية ويزيد بن عبدالملك والوليد بن يزيد بن عبدالملك إلى اللهو والمجون والخلاعة، حتى ضعفت هيبة الخلافة لضعف أخلاقهم وسوء تصرفاتهم.

---

(١) من بين الحقوق التي حرم منها الموالي في عهد الأمويين: أنهم لم يحصلوا على عطائهم الذي يستحقونه نظير إلتحاقهم بالجيش كالعرب، ولم يكن يسمح لهم بركوب الخيل أثناء القتال، وقصر إلتحاقهم بالجيش على فرقة المشاة، وحتم عليهم أن يكون لهم مسجد خاص يؤدون فيه الصلاة وجبانة خاصة يدفنون فيها موتاهم، كما كان العربي لا يرضى أن يزوج ابنته من مولى.

ومما قوّض أركان الدولة وعجّل بزوالها ، ما كان من تولية العهد لأكثر من واحد مما أدى إلى جلب العداوة والخصام وإحداث القطيعة والانقسام بين أفراد البيت المالك الأموى ، وانتهى الأمر إلى تدهور الدولة وسقوطها . وظهر ذلك بوضوح فى عهد خلافة مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك بن مروان .

وهزّ استقرار الدولة وهدد كيانها ، ظهور روح العصبية بين القبائل ، ويتبين خطر هذا التنافس القبلى الذى ظهر بشدة فى الدولة الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز : من أن يزيد بن عبد الملك أخذ جانب المضرية حتى أصبح العنصر اليمنى ضعيفاً ، بينما لم تكن لهشام بن عبد الملك سياسة ثابتة إزاء كل من المضرية واليمنية إذ أنه بعد أن انحاز إلى اليمنية ورجحت كفتهم تحوّل عنهم إلى المضرية وعين من بينهم ولاة ، ولما جاء الوليد ابن يزيد بن عبد الملك تحيز للمضرية لأن أمه كانت مضرية مما أثار سخط اليمنية ودبروا المكائد لقتله وتم لهم ما أرادوا ، وانحاز يزيد بن الوليد إلى اليمنية لأنهم هم الذين ساعدوه على الوصول إلى الخلافة وأخذ اليمنيون ينتقمون من المضريين الذين ثاروا فى حمص وفلسطين والأردن ولكن الخليفة يزيد تمكن من التغلب عليهم ، وتعصب مروان بن محمد للمضرية فثارت اليمنية ولكنه تمكن من إخماد ثوراتهم . وأصبح بذلك كل خليفة يعتمد على شيعة تؤيده للوصول إلى مآربه فى الخلافة .

وقد أعطت تلك القلاقل والاضطرابات ، الدعوة العباسية فرصة للظهور وتقوية دعائمها وتثبيت أركانها ، إذ شغل مروان بإخماد الفتن حتى باغته العباسيون وقتلوه ، وبمقتله قضى على الدولة الأموية .

• • •

وهكذا زالت الدولة الأموية بعد أن حكمت نحو تسعين عاما كان العنصر العربى خلالها هو عمادها ونصيرها وصاحب السلطان المطلق فى تصريف شئونها . وفيها ظهر ولاة على جانب عظيم من الكفاية وقوة الشخصية كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وغيرهم . كما حكمها خلفاء أقوياء كمعاوية الأول وعبد الملك بن مروان وابنه الوليد وهم الذين أقاموا الدولة على دعائم متينة وأظهروا أبهة الملك وابتدعوا أنظمة للحكم لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وأعادوا عهد الفتح والغزو على نحو أعاد إلى الأذهان عهد عمر بن الخطاب ، لولا ظهور خلفاء ضعاف اتسموا بذميم الصفات وظهرت خلال عهودهم الفتن وشبت الثورات ، مما أدى فى النهاية إلى اضمحلال تلك الدولة ثم انهيارها وقيام الدولة العباسية على انقاضها .

الباب الرابع

الدولة العباسية

العصر العباسى الأول — العصر العباسى الثانى

الدولة العباسية

العصر العباسى الأول — العصر العباسى الثانى

١٣٢ - ٦٥٦ هـ = ٧٥٠ — ١٢٥٨ م

انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين

يمكن اعتبار عهد مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ) آخر خلفاء الأمويين بدء سقوط الدولة الأموية وانهيارها ، والتمهيد لقيام الدولة العباسية . فى ذلك العهد شبت الثورات ضد الحكم الأموى فى أنحاء الشام ودبت الفوضى فى العراق . وكانت أعظم الفتن فى العراق فتنة الخوارج بزعامة الضحاك بن قيس الذى سار إلى الموصل ، يسعى للوصول إلى الخلافة ، ورغم أنه قتل ، فإن الدولة الأموية أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الانهيار .

ولم يكن مروان ينتهى من قتال الخوارج ، حتى بلغه نبأ ظهور العباسيين فى خراسان التى تقع شرق بلاد فارس . وساعد هؤلاء على الظهور ، فساد أحوال الشام والعراق ، وانقسام القبائل اليمنية والمضرية على بعضها ، وتفكك الأسرة المالكة الأموية وسوء علاقات أفرادها بعضهم مع بعض . وانتقلت الحالة من سىء إلى أسوأ ، حين ولى أمور الدولة خلفاء من أصحاب السيرة السيئة ، أدمنوا الشرب وحكموا البلاد بالعسف والجبروت . وتصدعت أركان الدولة ، حين نزل خلفاؤها إلى مستوى التعصب الحزبى والقَبَلى وعجزوا عن صد تيار الانقسام بين القبائل .

ولكن العامل الهام الذى أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعضعها فى عصر مروان بشكل جلى ، ما كان من انقسام المسلمين إلى عرب وموال وهم المسلمون من غير العرب ، وعداء الموالى لتلك الدولة وقيامهم ضدها ، لحرمانهم من الحقوق التى تمتع بها العرب ، فأصبح الموالى بذلك فى مستوى منحط ، وبينما الحرب بين الموالى والأمويين على أشدها ، انتهز دعاة العباسيين ذلك الظرف ونصروا الموالى . وصارت الحركة التى قام بها العباسيون لنيل الخلافة ما هى إلا حركة الموالى ضد العرب ، لأن العباسيين اعتمدوا على الموالى باعتبارهم حزباً كبيراً ساخطا على الحكم الأموى .

بدأت طلائع الدولة العباسية تظهر ، منذ أن بدأ أبو مسلم الخراسانى سنة ١٢٩ هـ - أى قبل سقوط الدولة الأموية بثلاث سنوات - ينشر الدعوة للعباسيين فى خراسان . وتداعت الدولة ، حين عقد فى الحجاز فى أواخر العصر الأموى مؤتمر ضم أقطاب آل هاشم من العلويين والعباسيين ، وتناقشوا فى الوسائل التى تؤدى إلى القضاء على الخلافة الأموية بعد أن اشتد البلاء بالمسلمين على أيدى خلفائهم ونظروا فيمن يرشح للخلافة إذا نجحت مساعيهم . فوقع اختيارهم على أحد الحاضرين وهو محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية . ولكن الخلافة لم تسند فيما بعد إلى هذا العلوى ، بل أسندت إلى رجل من العباسيين هو أبو العباس . ولم يعدل العلويون بعد وصول العباسيين إلى الخلافة عن المطالبة بدعواهم وظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إليها فى غير طائل ، واضطهدهم العباسيون كما اضطهدهم الأمويون من قبل .

وكان ذلك التحول من الأمويين إلى العباسيين والقضاء على محاولات العلويين فى إقامة خلافة علوية ، راجعاً إلى جهود أبى مسلم الخراسانى ، الذى وجد فى الحالة السيئة التى كانت فى خراسان فرصة سانحة ، فأذكى

نيران الفتن ضد الأمويين ، وكللت جهوده فى هـذا السبيل بالنجاح بمساعدة الموالى الذين تدفقوا من كل جانب على خراسان وانضموا إلى دعاة العباسيين ، والتف حول أبى مسلم مائة ألف من الموالى . وتمكن من بذر بذور الشقاق بين أنصـار بنى أمية النـازلين فى خراسان ، واستطاع أن يرابط عدة أشهر بظاهر مدينة مرو حاضرة خراسان ، وأن يستميل اليمنية أعداء الأمويين فى ذلك الإقليم . وتمكن من الاستيلاء على مرو ، وتخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة وقتلهم عن آخرهم . وذاع صيت أبى مسلم ، وبعث نصر بن سيار الوالى الأموى فى خراسان عدة رسائل متتابعة إلى مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين مستغيثا ، فلم تأته نجدة ، وأخيرا هزم نصر وفر ثم مات عند مرو .

وكانت الدعوة إلى انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين سرية فى بادىء الأمر ، ثم انتقلت إلى خرسان ، وكونت فيها جمعية سرية ، قوامها إثنا عشر رجلا ، كان يطلق عليهم إسم النقباء ، وعدد أعضائها سبعون داعياً انتشر معظمهم فى زى التجار . وظلت الدعوة سرية ، حتى وقع فى يد مروان بن محمد ، خطاب مرسل من إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن على ابن العباس إلى أبى مسلم الخراسانى يأمره فيه بتشديد الوطأة على من يتكلم العربية فى خراسان . لأن وجود العرب فى خراسان فى نظره سواء كانوا يمنية أو مضرية من شأنه أن يؤدى إلى فشل الدعوة العباسية ، ونصحه بالتنكيل بكل من يتهمه بالعمل ضد الدعوة العباسية ، وزج بإبراهيم الإمام فى سجن حران شمال الشام ، وقتل مسموما فى النهاية .

وتولى الدعوة للعباسيين من بعده أبو سلمة الخلال ، واتخذ الكوفة مركزا لدعوته لأنها بلد شيعية . وسار أبو العباس (السفاح فيما بعد) إلى الكوفة ومعه كبار بنى هاشم من ولد العباس ، ومن بينهم أخوه أبو جعفر

(المنصور) وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ومن كبار بنى هاشم أيضـا عبد الله بن على العباسى عم السفاح والمنصور . وبعد سنتين ، هزم ابن هبيرة القائد الأموى بظاهر الكوفة وأرغم على السير إلى واسط التى تقع بين مدينتى الكوفة والبصرة جنوبى العراق ، ونزل أبو سلمة فى أوائل سنة ١٣٢ هـ بالكوفة . وكان أبو العباس وأخوه أبو جعفر مختفيين فى هذه المدينة قبل ذلك بزمن يسير ، وقد هربا إليها بعد مقتل ابراهيم الإمام ، واهتم أبو سلمة بأمرهما ، وأبقاهما عنده عدة أسابيع ، دون أن يكشف أمرهما ودون أن يبايع أحدهما بالخلافة ، مما أوجد الريبة فى نفوس العباسيين ، وجعلهم يظنون أن أبا سلمة يعمل على تحويل الخلافة إلى رجل من العلويين ، ولكن أشياع العباسيين أخرجوهما من مخبئهما وبايعوا أبا العباس ، وفى أواخر سنة ١٣٢ هـ رفع العلم الأسود على حصون دمشق ، وكان ارتفاعه يعنى سقوط الدولة الأموية وزوالها نهائيا .

وانتقلت جيوش العباسيين عقب ذلك من خراسان إلى العراق . وتمكنت من أن تأخذ مدنها الكبرى مدينة تلو مدينة ، ووجد مروان نفسه بجيوشه على نهر الزاب فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ ، وكان جيشه منقسما على نفسه فى حين كان الموالى أعداؤه متحدين ، فدارت الدائرة على مروان . وقد عهد أبو العباس إلى عمه عبد الله بن على بمقاتلة الخليفة الأموى مروان ابن محمد ، فتبعه عبد الله حتى أوصله إلى نهر الزاب الصغير . وسار مروان منهزما إلى الموصل وعبر الفرات ، فاضطره عبد الله إلى الهرب إلى فلسطين والأردن . ثم فر إلى مصر حيث تعقبته جنود العباسيين وقضت عليه فى بلدة بوصير من أعمال الفيوم ، وأرسل رأسه إلى السفاح فى الكوفة (١) .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .

بذلك انتهى حكم الأمويين ، وقامت على أنقاضهم دولة العباسيين التى حكمت العالم الإسلامى زهاء خمسة قرون ، وكان خلفاؤهم من السفاح إلى الواثق رجالا عظماء ، ما عدا الأمين فإنه لسوء حظه لم يساير هؤلاء فى عظمتهم ومقدرتهم السياسية . واعتبر العصر العباسى الأول وحدة منسجمة متناسقة ، إذ لم يكن لكل خليفة سياسة شخصية ، بل سار الجميع على سياسة واحدة . وكانت الحوادث الكبرى التى وقعت فى ذلك العصر تسير كلها فى تيارات عامة : كإسقاط العرب وإيثار الفرس عليهم ، ثم تشجيع الترك على الفرس والعرب معاً ، ونهضة العلم والأدب ، وظهور حرية الفكر فى البحث والجدل والمناظرة ، وتقريب العلماء والأدباء والمغنين وترقية الفنون الجميلة كالعمارة والشعر والموسيقى . وهو على الجملة يعد العصر الذهبى للإسلام .

بدء ونهاية حكم الخلفاء العباسيين الأول :

	اسم الخليفة	بدء الحكم ونهايته		
١ —	السفاح	١٣٢ — ١٣٦ هـ	=	٧٥٠ — ٧٥٤ م
٢ —	المنصور	١٣٦ — ١٥٨ هـ	=	٧٥٤ — ٧٧٥ م
٣ —	المهدى	١٥٨ — ١٦٩ هـ	=	٧٧٥ — ٧٨٥ م
٤ —	الهادى	١٦٩ — ١٧٠ هـ	=	٧٨٥ — ٧٨٦ م
٥ —	الرشيد	١٧٠ — ١٩٣ هـ	=	٧٨٦ — ٨٠٩ م
٦ —	الأمين	١٩٣ — ١٩٨ هـ	=	٨٠٩ — ٨١٣ م
٧ —	المأمون	١٩٨ — ٢١٨ هـ	=	٨١٣ — ٨٣٣ م
٨ —	المعتصم	٢١٨ — ٢٢٧ هـ	=	٨٣٣ — ٨٤٢ م
٩ —	الواثق	٢٢٧ — ٢٣٢ هـ	=	٨٤٢ — ٨٤٧ م

أولا — العصر العباسى الأول

١٣٢ — ٢٣٢ هـ = ٧٥٠ — ٨٤٧ م

العباس
|
عبدالله
|
على

محمد — داود — عبد الله — موسى — صالح — سليمان

محمد:
ابراهيم — ١ـ السفاح — ٢ـ المنصور

٢ـ المنصور
|
٣ـ المهدى

٤ـ الهادى — ٥ـ الرشيد

٥ـ الرشيد:
٦ـ الأمين — ٧ـ المأمون — ٨ـ المعتصم

٨ـ المعتصم:
٩ـ الواثق — المتوكل

١ — أبو العباس السفاح

١٣٢ — ١٣٦ هـ = ٧٥٠ — ٧٥٤ م

ماذا يقصد بلفظ « السفاح » ؟

إعتلى أبو العباس أول الخلفاء العباسيين عرش الخلافة فى ٣ ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، وخطب فى صبيحة اليوم التالى لخلافته خطبة أشاد فيها بفضل آل محمد ، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ولما اقترفوه من آثام وذنوب ، وأطنب فى مدح أهل الكوفة وزاد فى أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس(١) ، وختم خطبته بقوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح » .

قال السفاح : « . . . زعمت السبئية الضلال ، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بِمَ ولِمَ أيها الناس ؟ وبنا هَدَى الله الناس بعد ضلالتهم . . . حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم . فتح الله ذلك منةً ومنحةً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه ، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم . فعدلوا فيها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها ، وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه (أغضبوه) ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا . . . وما توفيقنا أهلَ البيت إلا بالله . . . يا أهل الكوفة ! أنتم محل محبتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣٦

فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبيح »(١) .

وعقب هذه العبارة البليغة التى ختم بها أبو العباس أول خطبة له فى مسجد الكوفة ، شاع لقب « السفاح » عن أبى العباس . ويظهر أنه قصد من هذا اللفظ إشعار الحاضرين بأنه عوّل على سفك دماء كل من تحدثه نفسه بالخروج عليه والوقوف فى سبيله وسبيل دولته ، وأن يتوعد أيضاً الأمويين بالتنكيل بهم وإزهاق أرواحهم . ولكن مما يسترعى النظر أن لفظ السفاح كان يطلق فى الجاهلية على بعض شيوخ القبائل(٢)

أما لفظ « المبيح » الذى ورد كذلك فى ختام هذه الخطبة ، فقد يعنى الرجل الكثير العطايا ، وقصده من إثباته أن يبشر فى الوقت نفسه من يقوم بنصرته بإغداق الأموال عليه . وهذا يدلنا على أنه لم يكن سفاحا فى كل أدوار حياته ، فقد اتصف بالكرم والحلم والعقل والوقار والحياء وطيبة الخلق(٣) . ولكن اعتلاءه عرش الدولة العباسية فى بدء قيامها ، والأعداء يتربصون بها من كل جانب ، أوحى إليه أن ينتهج فى إدارة الدولة خطة العنف والتهديد وأن يتبع سياسة الوعد والوعيد .

اتخاذ الأنبار عاصمة :

كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية وظلت مقراً للخلفاء حتى اعتلى السفاح العرش ، فاتخذ الأنبار عاصمة لدولته ، وهى تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات فى الشمال الشرقى للعراق ، على مسيرة ثمانية وستين كيلومترا من بغداد . وقيل إن سابور الثانى من ملوك آل ساسان فى فارس هو الذى

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p.253.

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٥ .

اختطها . وأطلق العرب عليها « الأنبار » وهى كلمة فارسية تعنى السوق أو مخزن الغلال ، وأضحت هذه المدينة مقراً للخلافة العباسية مدة قصيرة من الزمن (١٣٢ — ١٤٥ هـ) .

واستقر المنصور الخليفة العباسى الثانى ، فى الأنبار ، إلى أن أسس مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ، ومنذ ذلك الحين ، أخذت المدينة تقل أهميتها شيئا فشيئا . وفى سنة ٣١٥ هـ (٩٢٧ م) استولى أبو طاهر زعيم القرامطة على الأنبار وخربها ، فأصبحت كأن لم تغن بالأمس .

اضطهاد الأمويين :

كانت مهمة أبى العباس ، باعتباره أول خلفاء الدولة العباسية ، مهمة شاقة إذ كان عليه أن يثبت أقدام العباسيين فى الخلافة ويوطد أركانهم ، ليكون الأمر خالصاً لهم . ومن ثم سار على سياسة الثأر والانتقام من الأعداء فى غير هوادة . فقد عمل على القضاء نهائياً على بنى أمية ، ووقعت تبعاً لذلك مذابح عديدة ذهب ضحيتها كثير من الأمويين ، حتى اضطر الكثير منهم إلى التنكر والهرب . وتغلب أبو العباس على حيلتهم بالمكر والخديعة ، إذ أعلن صفحه العام عنهم وأمنهم على حياتهم ، فانخدع الأمويون وظهروا من مكامنهم ، وإذ ذاك انقض عليهم وقتلهم شر قتلة .

اشتدت حوادث التقتيل والتشريد فى مكة والمدينة ، وفى الكوفة ، وفى فلسطين . وأغرى الشعراء ورجال البلاط الخليفة باستعمال الشدة والقسوة ، وأن يكون رائده عدم الثقة بالأمويين . قيل : « إن السفاح كان جالساً يوما فى مجلس الخلافة ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفاح ، فدخل عليه سديف الشاعر ، وقال :

لا يغرنك ماترى من رجال　　إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا(١)

ودخل شاعر آخر على أبي العباس، وعنده نحو السبعين رجلا من بني أمية. وقد قدم لهم الطعام، فأنشده قصيدة جاء فيها:

واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس(٢)
والقتيل الذي بحران أضحى(٣) ثاويا بين غربة وتناسى

وقد أعاد إنشاد هذين البيتين ذكرى الماضي، وماجره الأمويون على أنفسهم من سخط الناس لتنكيلهم بأهل البيت. فأمر أبو العباس بسليمان بن هشام فقتل، ثم أمر بمن كان في داره من بني أمية فضربوا بالسياط، وتتبع أبو العباس البقية الباقية من الأمويين وأنصارهم ولم يبق على أحد.

ولم يكتف أبو العباس بالقضاء على الأحياء من بني أمية، بل عمد بعد ذلك إلى الأموات منهم، فأمر بالتمثيل بجثثهم وإحراقها: فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان، وقبر ابنه يزيد، وقبر عبد الملك بن مروان، كما ضربت جثة هشام بن عبد الملك بالسياط وذرى في الهواء. إلا أن السفاح أمر ألا تمس جثة عمر بن العزيز بسوء اعترافا منه بفضله وجليل صفاته.

ولما تم لأبي العباس قتل رجال بني أمية ومصادرة أموالهم، اطمأن على دولته من ناحيتهم، وقال:

بني أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالأول الماضي ؟
يطيب النفس أن النار تجمعكم عوضتموا لظاها شر معتاض(٤)

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤.

(٢) ماء بجبل أحد، قتل عنده حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ودفن.

(٣) هو ابراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤.

عدم احترام العهود والغدر بالأنصار :

لم يكتف السفاح بالقضاء على أعدائه الأمويين ، الذين يصح أن يلتمس له العذر فيما فعله معهم ، بل إنه لم يرع فضل الذين ساعدوه فى إقامة الدولة العباسية ، فغدر بهم ، ولم يحترم العهود والمواثيق التى كان يعطيها لأعدائه ولأنصاره على السواء .

قضى السفاح معظم عهده فى محاربة قواد العرب الذين ناصروا بنى أمية ، ووقف لهم بالمرصاد . فابن هبيرة قائد جيوش مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، كان مقيما فى بلدة واسط ، وأرسل إليه أبو سلمة الخلال وزير السفاح الجيوش لمحاربته ، وحاصرته فى تلك البلدة ، وطال أمد الحصار ، فأرسل السفاح أخاه أبا جعفر الذى تولى الخلافة فيما بعد باسم المنصور ، لحاصر ابن هبيرة أحد عشر شهرا . وحين بلغ ابن هبيرة خبر مقتل الخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد ، فاوض أبا جعفر فى الصلح ، على أساس أن يسلم ويعطى له الأمان على حياته . وانتهى الأمر بأن أعطاه السفاح الأمان ، وتسلم ابن هبيرة كتابا بذلك يحمل إمضاء الخليفة . ولكن لم تمض على ذلك بضعة أيام حتى قتل ابن هبيرة وكان هذا واحداً من حوادث الغدر فى الدولة العباسية ، وتتابعت أمثال هذه الحوادث ، حتى أصبحت أمراً مألوفا .

وقتل السفاح وزيره أبا سلمة الخلال ، الذى كان من أهم العوامل التى ساعدت فى تأسيس الدولة العباسية . كان أبو سلمة من أهل اليسار فى الكوفة واشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية . على أنه لما خبر أحوال بنى العباس ، عزم على العدول عنهم إلى أولاد علىّ بن أبى طالب . ولما بويع السفاح استوزر أبا سلمة على كره منه لمكانته من الساسانيين وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ولقبه وزير آل محمد . إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، إذ خاف على نفسه إن هو قتله أن يقوم أهل خراسان

بالثأر له ، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبى مسلم ، وكتب له مع أخيه أبى جعفر كتابا يخبره فيه أن أبا سلمة الخلال يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين وعهدله بعاقبته ، وأسلوب الكتاب ينم عن رغبته فى قتله . فأرسل إليه أبو مسلم رجالا من أهل خراسان ، فقتلوه ، وتخلص منه السفاح وأبو مسلم الذى كان يكرهه ويحقد عليه مقامه .

وبذلك هيأ أبو مسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عول السفاح على التخلص من أبى مسلم كذلك ، إذ كان شجى فى حلق دولته ، إلا ان المنية وافت السفاح قبل أن يحقق ما اعتزمه من قتله .

ووضع السفاح بذلك قاعدة الغدر بالأنصار وعـــدم احترام العهود والمواثيق ، وسار على هذه القاعدة من جاء بعده من الخلفاء العباسيين .

الثورات ضد حكم السفاح :

هذه المعاملة القاسية للأمويين لم تؤد إلى صرف العرب عن العباسيين فحسب ، بل جعلت نفوس العرب تضطرم بالكراهية والبغضاء لبنى العباس وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم ولمالأة العباسيين لهم واعتمادهم عليهم ، وزاد الطين بلة والحالة سوءا ، غدر السفاح بأنصاره ، لذلك قامت الثورات فى كل مكان . وكان أشدها خطرا ، الثورة التى اندلع لهيبها فى بلاد الشام بقيادة أبى الورد وهو رجل من العرب ، وتزعمها من بعده أبو محمد السفيانى ، ولكن سرعان ما غلب على أمره وقتل . وقامت ثورة فى الجزيرة ، اشتد خطرها حتى أرسل السفاح أخاه أبا جعفر وعمه عبد الله بن على للقضاء عليها ، فتمكنا من إخمادها ، وظل أبو جعفر بعد أن انتهت مهمته واليا على الجزيرة حتى تولى الخلافة بعد أخيه السفاح . وقامت كذلك ثورات فى عمان وفى السند وفى خراسان ، وكلها تأخذ على العباسيين كثرة سفكهم للدماء وإزهاقهم الأرواح ، ولكن قضى على تلك الثورات ، كما قضى على سابقاتها . ولولا شدة السفاح فى قمع أعدائه ، لزالت الدولة العباسية ، وهى لاتزال فى مهدها .

تقدير السفاح :

حكم السفاح أربع سنوات وتسعة أشهر أمضاها فى القضاء على بقايا الدولة البائدة ، دولة الأمويين . ولم يجد طوال هذه الفترة وقتا ينصرف فيه إلى النظر فى ترتيب شئون الدولة . إلا أننا نلاحظ أن السفاح ابتدع أمورا جديدة على نظام الحكم فى العصر العباسى لم يكن لها وجود فى العصر الأموى : فقد ظهر نظام الوزارة لأول مرة منذ ظهور الإسلام وأول مَنْ تولاها هو أبو سلمة الخلال وزير السفاح ، وأصبح الناس يخطبون وهم وقوف بعد أن كانوا يخطبون وهم قعود ، وانتقل مقر الملك من دمشق حاضرة الأمويين إلى الأنبار عاصمة الدولة الجديدة فانتقل بذلك مقر الدولة من الشام إلى العراق .

اختلف المؤرخون فى تحليل شخصية أبى العباس : فوصفه بعضهم بالقسوة والميل إلى إزهاق أرواح الناس وخاصة أنه قتل عددا كبيرا من بنى أمية ، ولعل تلقيبه نفسه بالسفاح هو الذى حدا بهذا الفريق إلى وصفه بتلك الصفات . على أننا نستطيع أن نقول إن الظروف هى التى أملت عليه تلك السياسة توطيداً لأركان الدولة العباسية الناشئة ، خاصة وأن مؤرخين آخرين وصفوا السفاح أنه كان شابا يميل إلى الأدب والشعر وسماع الغناء ، وكان يظهر لندمائه ويجلس معهم فى مجلس واحد ويجزل لهم العطاء (١) .

وقد توفى السفاح فى سنة ١٣٦ هـ ، ودفن فى مدينة الأنبار .

---

(١) جاء فى مجلة الثقافة أنه لا يستبعد أن « يكون شاب جميل عفيف وفى كريم طروب كأبى العباس سفاكا للدماء » . العدد ٥١ ، السنة الأولى .

٢ — أبو جعفر المنصور

١٣٦ - ١٥٨ هـ = ٧٥٤ - ٧٧٥ م

شخصيته :

تعتبر الفترة التى قضاها المنصور على عرش الخلافة من أهم عصور الخلافة العباسية ، واستمرت تلك الفترة نحواً من إثنتين وعشرين سنة ، توطدت فيها دعائم الدولة ، وانصرفت إلى العناية بالشئون السلمية فشيدت مدينة بغداد ، وبدأت الحركة الأدبية فى العصر العباسى . وساد فى عهد المنصور نظام الإدارة المركزية ، إذ كان المنصور يقيم فى بغداد عاصمة ملكه وأضفى على الخلافة ظلا قدسياً فأشاع أنه يحكم بتفويض من الله ، وركز جميع سلطات الدولة فى يده فلم يكن للوزير من الأمر شىء ، وأصبح اختصاص الولاة على الأقاليم ضيقا ولم يعودوا ثابتين فى مراكزهم حتى أنه لم يظهر طوال حكمه وال من طراز عمرو بن العاص أو زياد بن أبيه أو الحجاج بن يوسف الثقفى . والمنصور من أقوى خلفاء الإسلام ، أعاد إلى الأذهان حكم عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان ، فقد كان ذا شخصية ممتازة ، ووجه سياسته نحو المصلحة العامة والحرص على ما فيه تقدم العباسيين فى الإدارة والحرب والثقافة والعلم .

قضاء المنصور على المعارضة :

غدر المنصور بكثير من كبار أنصاره وبعض أقربائه ، فى سبيل الاحتفاظ بملكه ، وصار ذلك من سمات العباسيين الواضحة فى طوال مدة حكمهم للعالم الإسلامى .

١ — موقفه من عمه عبد الله بن علي :

أوصى السفاح بأن تكون الخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر ومن بعده لابن عمه عيسى بن موسى . إلا أن السفاح لم يراع العدل حين أسند الخلافة من بعده لهذين الشخصين ، لأن السفاح حين سير عمه عبدالله بن علي إلى الشام ومصر لتتبع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية للقضاء عليه ، وعده بأن الخلافة من بعد السفاح ستؤول إليه . وكان المنصور يعلم بأمر هذا الوعد ، ومن ثم فقد أحس الخطر من ناحية عبدالله بن علي منذ بلغه نبأ وفاة السفاح ، وكاشف أبا مسلم الخرساني بتخوفه فوعده أبو مسلم أن يريحه من عمه عبدالله بتدبير مقتله ، مقتدين في ذلك بسياسة الخليفة السفاح حين أمر بقتل وزيره أبي سلمة الخلال . ولم يكن غريبا إذ ذاك أن تتبع سياسة الغدر بالأقرباء كما اتبعت مع الأنصار والأعوان ما دامت تحقق للعباسيين مصلحة شخصية . ولكن موضع الدهشة أن عبد الله بن علي هو الرجل الذي قضى على قوات الأمويين في موقعة الزاب ، وتتبع الأمويين بالقتل والتشريد وقضى على الفتن الكبرى التي قامت في الشام ضد حكم السفاح .

لما بلغ عبد الله نبأ اعتلاء أبي جعفر عرش الخلافة بعد السفاح ، أعلن أنه أدى ما كلف به على خير وجه وهو التنكيل بالأمويين ، ثم حرم مما وعد به وهو الخلافة ، فأعلن خروجه على أبي جعفر ، وأبى أن يبايعه ، وسار بجيشه إلى أعالي الجزيرة وحاصر حران شمال الشام . فبعث المنصور إليه أبا مسلم الخراساني ، فخاف عبد الله النتيجة ، وأراد الصلح ، ولكنه لم يجب إلى طلبه . وأخيرا حدثت الواقعة بين الطرفين ، ودارت الدائرة على عبدالله وفر إلى أخيه سليمان في البصرة ، وظل مختبئا عنده مدة من الزمن . وهنا كان يصح أن تنتهي المسألة عند هذا الحد . ولكن انتهى أمر عبد الله بالقتل(١) ، وهو الرجل الذي أبلى أحسن بلاء في خدمة الدولة العباسية .

---

(١) الطبري ج ١ ص ١٧٢ .

٢ — موقفه من أبى مسلم الخراسانى :

لم يكن حظ عبد الله بن على . أسوأ من حظ رجل آخر كان له فضل نشر الدعوة للعباسيين وقيام دولتهم ، وهو أبو مسلم الخراسانى . ذلك أن العلاقات بين أبى مسلم والمنصور لم تكن يسودها الصفاء ، قبل أن يعتلى المنصور عرش الخلافة وبعد أن اعتلاها : ذلك أن المنصور حين توجه إلى خراسان بأمر أبى العباس لاستشارة أبى مسلم فى أمر أبى سلمة الخلال ، لاحظ عظم نفوذ أبى مسلم واستبداده بالأمر وقتله الناس لمجرد الشك ، فعاد المنصور وحرض السفاح على قتل أبى مسلم . أضف إلى ذلك أن أبا مسلم حين استأذن الخليفة السفاح فى الحج . ندب السفاح أخاه المنصور لرياسة الحج ، حتى لا يظهر أبو مسلم وحده بمظاهر الفخامة والأبهة . فغاظ ذلك أبا مسلم وانتقم لنفسه حين عودتهما من الحج هو والمنصور بأن تقدم المنصور أثناء السير بمسافة ، مما يتنافى مع التقاليد المرعية . وزاد العلاقات سوءا بين أبى مسلم والمنصور ، أن أبا مسلم بعد أن انتصر على عبدالله بن على وحاز عدة غنائم أرسل المنصور من قِبَله رسولا ليحصى الغنائم ويسجلها ، فغضب أبو مسلم ، وقال : كيف أؤتمن على الأرواح ، ولا أؤتمن على الأموال .

لذلك رأى أبو مسلم ألا يقصد الأنبار مقر الخلافة العباسية ، بل يذهب إلى خراسان . فعمد المنصور إلى منعه من الوصول إليها ، بأن عين عليها الوالى الذى خلفه أبو مسلم أثناء غيابه عن خراسان ، ثم عزل أبا مسلم عن تلك

الولاية لرحيله إلى المشرق دون استئذانه وعينه على مصر والشام بدلا منها ، فرفض ذلك أبو مسلم ، وصمم على الرفض على الرغم من نصح المنصور له . وسار أبو مسلم فى طريقه حتى صار على مقربة من خراسان ، وإذ ذاك رأى أن يرجع ليزيل سوء التفاهم القائم بينه وبين المنصور . على أن أبا مسلم حين عاد من خراسان ، كان المنصور قد صمم على قتله ، وتمكن منه بالفعل .

وتفصيل ذلك أن أبا مسلم سار إلى المنصور ، فلقيه فى المدائن عاصمة بلاد الفرس . فلما علم المنصور بوصوله ، أمر الناس جميعا بتلقيه ، ولما دخل على الخليفة ، قبّل يده ، فأدناه المنصور وأكرمه ثم أمره بأن يعود إلى خيمته ويحضر فى الغد . ولما أصبح الصباح أتاه رسول المنصور يستدعيه ، وقد أعد المنصور جماعة من رجاله خلف الستور بأيديهم السلاح ، وأوصاهم أنه إذا ضرب إحدى يديه على الأخرى يخرجون فيقتلون أبا مسلم . فلما دخل أبو مسلم عليه ، شرع فى توبيخه وتقريعه على ما اقترفه من ذنوب وأبو مسلم ينتحل الأعذار . فذكر له أمورا ، فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ! مثلى لا يقال له هذا ولا تعد عليه مثل هذه الذنوب . فاغتاظ المنصور ، وقال : أنت فعلت ، والله لو كانت مكانك أمة سوداء ما فعلت ما فعلت ، وهل نلت ما نلت إلا بنا وبدولتنا ؟ فقال أبو مسلم : دع هذا فقد أصبحت لا أخشى غير الله . فضرب المنصور بيده على الأخرى ، فخرج أولئك النفر وضربوه بالسيوف ، وصاح أبو مسلم : استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوك ، فقال المنصور وأى عدو لى أعدى منك ؟ ثم أمر به فلف فى بساط ، ودخل ابن أخ المنصور عيسى بن موسى أمير الكوفة ، وقال : أين أبو مسلم يا أمير المؤمنين ؟ فقال المنصور : هو ذلك فى البساط ، فقال قتلته ؟ قال نعم ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! بعد بلائه وأمانته ؟ وكان المنصور قد أمنه ، وأشهد عيسى بن موسى

على ذلك ، فقال المنصور : خلع الله قلبك ! والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه ، وهل كان لكم ملك فى حياته ؟ ثم أمر المنصور بمال لجند أبى مسلم ، فتفرقوا ، وكان ذلك سنة ١٣٧ هـ .

وعقب مقتل أبى مسلم ، خطب المنصور فى الناس ، فكان مما قاله : « أيها الناس ، لا تخرجوا عن أنس الطاعة ، إلى وحشة المعصية ، إنه من نازعنا هذا القميص ، أوطأناه ما فى هذا الغمد ! وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا ، على أنه من نكث ببيعتنا ، فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بنا هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا ، حكمه على غيرنا لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق من إقامة الحق عليه »(١) .

ويظهر أن المنصور إنما قام بما قام به مدفوعاً بعوامل الغيرة من أبى مسلم متأثرا بما استولى عليه من الهواجس وخامرته الريب فى إخلاصه . وزاد أبو مسلم النار اشتعالا بتماديه فى زهوه وإسرافه فى قتل النفوس البريئة . على أن أبا مسلم إذا كان يستحق القتل ، فإن قتله يجب أن لا يكون على يد المنصور (٢) ، لأنه مدين لأبى مسلم بما أداه له وللخلافة العباسية من خدمات جليلة ، نقلت الإسلام من حالة إلى حالة أخرى .

بذلك استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيه من حزم ودهاء أن يأسر عمه عبد الله بن على ثم يقتله ، وأن يقتل أبا مسلم الخراسانى ، وكلاهما يعد من مؤسسى الدولة العباسية . وقد علق ابن طباطبا صاحب كتاب الفخرى ، على هذه الظاهرة ، بقوله : « وكأن المخترع للدولة ، يكون عنده من الدالة والتبسط ، ما تأنف من احتماله نفوس الملوك ، كلمازاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به » .

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٣١٣ .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ١٠٠ .

النحل الدينية :

ظهرت فى عهد المنصور العباسى عدة نحل دينية ، من أشهرها حركة الراوندية ، والمعتقدات المستمدة من الأفكار الفلسفية القديمة التى نشرها الفرس ودعا إليها دعاة ظهروا على أثر مقتل أبى مسلم الخراسانى ، أمثال : « سنباذ » و « إسحق » و « أستاذ سيس » .

بدأ ظهور حركة الراوندية فى قرية راوند قرب أصفهان، وقلدوا الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويعتبرونهم آلهة . ويعتقد أصحاب هذا المذهب أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم قد حلت فى على بن أبى طالب ثم فى الأئمة حتى وصلت إلى إبراهيم بن محمد (سبط العباس عم الرسول)، وكانوا يعتقدون فى تأليههم ويستحلون ما حرم الله . وما لبثوا أن عبدوا الخليفة المنصور ، وصعدوا إلى الخضراء (القبة التى بناها المنصور ببغداد) ، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون ، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح ، فأقبلوا يصيحون بأبى جعفر : أنتَ أنتَ (أى أنت الله) » (١) . إلا أن المنصور عد ذلك خروجا على الدين ، وحاربهم بنفسه وحاول القضاء عليهم ، على الرغم من تأليههم له ، وحبس عددا كبيرا منهم ، ولكنهم تمكنوا من اقتحام السجون وإخراج من فيها ، وحاولوا قتل أبى جعفر بعد ذلك إلا أنه نجا من الموت(٢) . وهم يعدون أنفسهم من أتباع أبى مسلم الخراسانى ، وحاربهم العباسيون فى

---

(١) الطبرى جـ ٩ص ٣٠٧ .

(٢) قيل إن المنصور فر على دابة

عهد المنصور وفى عهد من جاء بعده من الخلفاء ، وخاصة بعد أن أخذت الراوندية تتشكل فى أشكال مختلفة كالمقنعية والخرمية .

وظهرت كذلك على أثر مقتل أبى مسلم،عدة نحل دينية : فإن سنباذ(١) وإسحق(٢)وأستاذسيس قد أعلنوا على التوالى أن أبامسلم لم يقتل،لأنه حين أراد المنصورقتله ردد الاسم الأعظم وتحول إلى حمامة وطار وسيعود ثانية . ويبين لنا ظهورهذه الآراء الدينية أن الفرس قد اتسع سلطانهم فى دولة بنى العباس، لأن الفرس يعتقدون فى أن أبطالهم لايموتون ولكنهم يختفون فترة يعودون بعدها إلى الظهور وفى قدرة هؤلاء الأبطال على الطير فى الهواء حين يشاءون وأنهم حين عودتهم بعد غيبتهم يعمدون إلى إصلاح ما فسد، كما يتجلى فى حركة أستاذ سيس الذى رمى بها إلى ضرورة المساواة بين الناس وإقامة النظام الاجتماعى على أساس جديد حتى ادعى النبوة وقطع أصحابه الطرق وارتكبوا كثيرا من الآثام ولكن كان مصيره الاندحار وقتل كثير

---

(١) سنباذ : رجل مجوسى ، ظهر فى مدينة نيسابور ، ودامت الحرب بينه وبين المنصور نحو سبعين يوما .

(٢) عرف إسحق باسم اسحق التركى ، مع أنه ليس تركيا . اعتقد أن أبا مسلم متغيب فى بلدة قريبة من مدينة الرى قرب طهران وأنه سيظهر قوما ويعيد ديانة زرادشت ، وهو رجل من إقليم أذربيجان ، نادى أن للعالم قوتين مسيرتين له أو إلهين : إله الخير وإله الشر ، وأنه يجب نصرة إله الخير بالتحلى بالفضيلة والامتناع عن الرذيلة .

(٣) بنى أستاذ سيس حركته على أساس المزدكية ، وهى ديانة فارسية نادى بها مزدك الذى ظهر فى مدينة نيسابور فى فارس فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

من أتباعه ، وانتهت حركته بالفشل ،كما انتهت حركة سنباذ وثورة إسحق التركى وكما قضى على الراوندية .

لذلك يمكن القول ، أنه كما ظهرت فى أواخر عصر الخلفاء الراشدين وعصر الأمويين بعض المذاهب الدينية كالشيعة والخوارج وغيرهـا ، ظهرت كذلك فى العصر العباسى نحل دينية ترجع إلى أصل فارسى قديم ، وكان ظهورها نتيجة غلبة العنصر العجمى على العنصر العربى ، واصطبغت تلك النحل بصبغة دينية وسياسية معاً .

موقفه من العلويين :

العلويون هم كل من ينتمى إلى على بن أبى طالب الخليفة الراشد الرابع ، وهؤلاء اعتبروا أنفسهم أحق بالخلافة من الأمويين ، وبدأوا منذ مقتل الحسين بن على يتذرعون إلى نيل حقوقهم بكل وسيلة ، وكانوا إذا وجدوا الفرصة سانحة لاستخدام القوة، لم يترددوا فى انتهازها. وفى أواخر الدولة الأموية كان الدعاة قد نشطوا للدعوة للعباسيين حتى كونوا لهم عصبية قوية ، وحين غلب الدعاة على الكوفة ، ووجدوا أبا العباس بينهم وقد عهد إليه أخوه ابراهيم الإمام بالخلافة ، لم يجدوا من بين آل على من يستطيع أن يحولهم عن بنى العباس ، إذ لم يكن للعلويين فى ذلك الوقت من القوة وكثرة الأنصار ما يعبد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة .

لم يرق للعلويين أن يظفر العباسيون بالخلافة دونهم ويقيموا دولتهم على أنقاض دولة بنى أمية ، ولم تطب نفوسهم بقيام خلافة عباسية لأنهم اعتبروا أنفسهم أحق بها منهم ، فنابذوا العباسيين العداء ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل . وأدرك العلويون أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة ، لأنهم باتحادهم مع بنى العباس ضد بنى أمية واشتراكهم معهم فى

العمل على إزالة دولتهم قد مهدوا الطريق للعباسيين . ولم تكن استكانة العلويين فى بدء الخلافة العباسية معناها التسليم بالأمر الواقع ، لأنهم انتظروا حتى تتهيأ لهم الأحوال ، فيبدأوا دور الكفاح والنضال ضد العباسيين كما كافحوا وناضلوا الأمويين من قبل ، ابتغاء الوصول إلى حقهم فى الخلافة . وعملوا فى هذه المرة فى طى الخفاء والكتمان ، وأصبح تاريخ العلويين حافلا فى ذلك العصر بضروب الخدع والمكائد . ولكن العباسيين أذاقوهم مرارة الفشل ، كما سقاهم الأمويون كأس الذل والهوان من قبل .

بدأ العلويون ، من شيعة الحسنيين سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، فى رفع صوتهم عالياً للمطالبة بالخلافة بعد زوال الأمويين ، إذ اعتبروا أنفسهم أحق بها من العباسيين لأن الحسن تنازل عن حقه فى الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، وهذا التنازل كان للبيت الأموى لا للعباسى ولما بدأ نجم مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى الأفول ، اجتمع الحسنيون والعباسيون للتشاور فيمن تؤول إليه الخلافة بعد القضاء على الدولة الأموية ، فتنازل العباسيون لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . كذلك استندت سلالة الحسن فى المناداة بالخلافة بعد الأمويين ، إلى حقهم الشرعى فيها عن طريق الحق الإلهى .

وكانت حركات الحسنيين أتباع الحسن بن على تجرى فى المدينة ، وبذلك ظهرت المدينة مرة أخرى على مسرح السياسة فى التاريخ الإسلامى . وكانت الفظائع التى ارتكبها العباسيون ، هى السبب فى ظهور المعارضة من سلالة المهاجرين والأنصار للخلافة العباسية بشكل جدى . وكان يقود بنى الحسن رجلان أحدهما يقال له محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية وكانوا يعتبرونه محمداً المهدى الذى سيخلص العالم الإسلامى مما لحقه من ظلم وجور ، والثانى شقيقه ابراهيم

ابن عبدالله . وهذان الأخوان من نسل على وفاطمة بنت الرسول عليه السلام، وعرفا بالعلم والزهد والورع .

قلق المنصور على ملكه من هذين الأخوين ، لأنهما كانا قد رفضا إقرار البيعة له بالخلافة ، وتبعهما أولا على وجعفر وعقيل وأولاد عمر بن الخطاب والزبير وسائر قريش والأنصار . وجدّ المنصور فى طلبهما دون جدوى ، إذ أنهما اختبآ منذ قيام الدولة العباسية ، فاهتم بأمرهما ، وعهد إلى زياد بن عبيد الله بالبحث عنهما ، إلا أنه تهاون فى الأمر بل ساعد محمد ابن عبد الله على الهرب فقبض المنصور على زياد وسجنه ، وولىّ مكانه محمد ابن خالد القسرى ولكنه عزل لأن المنصور استبطأه .

بلغ اهتمام المنصور أقصاه لإخراج محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم من مكمنهما . فولىّ على المدينة رجلا بدوياً قاسياً وبسط له الأموال ليستخرجهما من مخبئهما . وهو رياح بن عثمان بن حيان ابن عم مسلم بن عقبة المرى الذى نكل بأهل المدينة فى واقعة الحرة فى عهد يزيد بن معاوية . واتبع رياح مع أهل المدينة نفس أساليب الحجاج بن يوسف الثقفى مع أهل الكوفة ، فقد خطب فى أهل المدينة قائلا : « يا أهل المدينة ! أنا الأفعى ابن الأفعى رياح ابن عثمان بن حيان ، وابن عم مسلمة بن عقبة المبيد خضراءكم المفنى رجالكم ، والله لأدعنّها بلقعاً لا ينبح فيها كلب » . ولكن أهل المدينة اجترأوا عليه وسبوه ولعنوه ووصفوه بأنه « المجلود حدّين لتكفنّ أو لنكفنّك عن أنفسنا » . ولما بلغ المنصور ذلك ، أبلغ أهل المدينة أن « أمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا ، ليبدلنكم بعد أمنكم خوفا ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام »[1] .

---

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٥١ .

وتتابعت بعد ذلك حوادث تعذيب أقرباء محمد بن عبد الله وأنصاره ، فقد حَبَس الوالى رياح إخوة عبد الله ، وأعلن سب ابنيه محمداً وابراهيم على المنابر . ثم شخص بنفسه إلى المدينة وأمر بأن يمثل العلويون بين يديه وهم مكبلون ، وسألهم عن مقر محمد بن عبد الله فلم يظفر بشيء ، فعنفهم وبعث بهم إلى الكوفة حيث حبسوا فى سرادب تحت الأرض لايفرقون ، كما يقول المسعودى : بين ضياء النهار وسواد الليل (١) .

وأخيراً لما استوثق محمد النفس الزكية من أمر أتباعه ونجاح دعوته ، أعلن نفسه . ويظهر أن محمدً بن عبد الله لم يحسن اختيار الوقت الذى يخرج فيه من مكمنه ، فقد قيل إن جماعة دخلت عليه بعد أن اشتد بها البلاء ، وقالت له : « ما تنتظر بالخروج ؟ ما الذى يمنعك من أن تخرج وحدك ؟ » واجتمع الناس حول محمد وبايعوه . وفى الحال وصل خبر ظهوره إلى المنصور ، فأخذ عدته الأمر لأنه موقن من النتائج الخطيرة التى تترتب على التهاون مع مثل هـذا الرجل ، إذ كان قد خرج فى مائتين وخمسين رجلا وتوجه إلى السجن وأخرج من فيه وأمر بحبس عامل المنصور على المدينة المنورة ، وخطب أهلها خطبة كلها طعن فى المنصور والدولة العباسية ، وفيها قال : « أما بعد ، أيها الناس ! فإنه كان من أمر هـذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا الله فى ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . . . »(٢) .

سير المنصور إلى محمد بن عبد الله جيشاً ضخما بقيادة ولى عهده عيسى

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

ابن موسى . ولكنه أحب أن يتقدم إلى محمد قبل القتال بالدعوة السلمية ، فجرت بين الرجلين مراسلات ، لم تأت بنتيجة ما ، تجد نصوصها فى الطبرى(١). قال المنصور فى أولى كتبه إلى محمد : «لك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إن تبت ورجعت من قبل ، أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ... » .

لم يعبأ محمد النفس الزكية بهذه الوعود ، ورد على المنصور بكتاب أثار ثائرته ، وجاء فيه : « .. وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على ، فإن الحق حقنا ، فإن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء . . . وإنا بنو أم رسول الله ، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم . إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاما على ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . . . ولك على إن دخلتَ فى طاعتى وأجبتَ دعوتى ، أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى ، فأى الأمانات تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ » .

وقد بلغ بالمنصور الغضب أقصاه بعد وصول هذا الكتاب إليه ، فرد بنفسه على محمد بن عبد الله ، يفند أقواله ، قال : « . . . أما ما فخرت به من فاطمة أم على .. فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٩ — ٢١٣

وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أما وأبا ... فانظر ويحك أين أنت من الله غدا ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأبا ، وأولا وآخرا ، ابراهيم ابن رسول الله ، وأما ما فخرت به من على وسابقته ، فقد حضرت رسول الله الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها ، أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته ، ثم حكم حكمين رضى بهما فاجتمعا على خلعه ، ثم كان الحسن فباعها معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، ثم خرج عمك الحسين بن على على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران و نفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت إنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا على حمزة والعباس وجعفر ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له وذكرناهم فضله ... ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ... فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام ، فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه ... » .

تحرجت النفوس وتمكنت العداوة وتأصلت فى قلوب الفريقين المتنازعين ،

مما أدى إلى قيام القتال بين الطرفين . وهنا لجأ محمد النفس الزكية إلى حيلة قديمة اتبعها فى القتال ، وهى حفر خندق ، فكان ذلك وبالا عليه ، إذ أحدق القائد وولى العهد عيسى بن موسى بالمدينة وبذل الأمان لكل من يريد أن يخرج ، فخرج منها عدد كبير وبقى محمد ومعه نفر قليل . وانتهى أمر محمد بالقتل وأرسلت رأسه إلى المنصور ، وعاقب الخليفة المدينة عقابا شديدا بأن أمر بقطع المؤن عنها وصادر أموال بنى الحسن .

بقى بعد ذلك أخوه ابراهيم ، الذى استقر فى البصرة ، وكان المنصور يخشى أمره ، لأن معظم أهل العراق كانوا من شيعة على بن أبى طالب . وأخيرا أخذ ابراهيم البيعة سرآ من الناس ، وأعلن الثورة واستولى على البصرة وعلى الأقاليم المجاورة لها فى فارس والعراق . فاستولى الهلع على المنصور ، وبعث إليه بالجيش الذى قاتل به محمدا من قبل ، فرأى ابراهيم أن يهاجم الكوفة حتى تنضم إليه لأن أهلها شيعة . وعندما بدأ الهجوم عليها ، التقى بالقائد العباسى عند « باخمرى » ، وهى بلدة واقعة بالقرب من الكوفة ، وهنا دارت الواقعة الفاصلة بين الطرفين فى ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ وهزم ابراهيم وقتل .

وهكذا قضى المنصور على العلويين ، ومما يدل على شدة خوف المنصور أيام هذه الأزمة ما يرويه ابن الأثير من أنه : رمى كل ناحية بحجرها ، وقعد على سجادة صلاته خمسين يوما ، وعليه جبة متسخة لا يغيرها . ويمكن القول بأن المعارضة قد انتهت بانتهاء حياة هذين الأخوين ، وولى العلويين وجههم شطر المغرب فى إفريقية بعد تلك المصائب التى تتابعت عليهم فى المشرق .

تأسيس مدينة بغداد :

من الأعمال الخالدة التى يحرص الفاتحون على إتمامها ، تأسيس المدن لتتخذ عواصم للأقاليم المفتوحة والعناية بأمرها وتوسيع نطاقها بمرور الزمن ، لكى تضم دواوين الحكومة الجديدة وبيوت أنصارها من القواد والجند والموظفين ، ولتكون مقراً لأرباب الحرف والصناعات . فقد اتخذت المدينة والكوفة ودمشق والأنبار عواصم للدولة الإسلامية ، حتى بنيت بغداد فاتخذت عاصمة للعباسيين فى بلاد العراق .

بنى الخليفة العباسى المنصور سنة ١٤٥ هـ مدينة بغداد ، وبدأ مشروعه الضخم بالبحث عن موضع يصلح لإنشاء عاصمته الجديدة . فبعث رجالا يثق بهم لاختيار مكان صالح لذلك ، فدلوه على موضع قريب من مدينة بارما الواقعة جنوبى الموصل ، وفى هذا المكان أقام المنصور يوما وليلة لتكوين رأى نهائى عنه وذلك فى فصل الصيف ، فأعجب بطيب هوائه وجودة غذائه ، واستقر رأيه على أن يتخذ ذلك الموضع لبناء مدينته الجديدة ، ويقع فى هذه الأراضى الخصيبة التى يرويها ماء الدجلة والجداول التى تأخذ ماءها من الفرات ، وهو مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته وتتوافر سبل المعيشة(١) .

وسميت العاصمة الجديدة باسم « بغداد » . وقد وردت عدة اشتقاقات لهذا اللفظ منها : أن بغداد تتكون من بغ ومعناها بستان ، وداد ومعناها الله ، أى أنها بستان الله . وقيل إن معنى بغ معبود أو صنم ، وداد معناها عطية ، أى أن هذه المدينة هى عطية الله . وسميت كذلك : المدينة المدورة لأنها بنيت على شكل دائرة ، وأطلق عليها مدينة السلام لأن السلام هو الله ، ومدينة الإسلام ، ودار السلام تشبيها لها بالجنة ، وسمى الجانب الغربى منها « الزوراء » لازوراء نهر دجلة عند مروره بها . كما سمى الجانب الشرقى « الروحاء » لانبساط مجرى النهر عنده(٢) .

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) البغدادى : تاريخ بغداد ص ٧٧ — ٧٨ .

وأمر الخليفة بضرب اللبن وطبخ الآجر استعدادا لبناء المدينة، ووضع المنصور أول لبنة بيده وقال: بسم الله والحمد لله والأرض لله . . . يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنو على بركة الله . واحتفل بوضع الحجر الأساسى احتفالا شائقا شهده الأمراء والوزراء والقواد والأعيان والعلماء . ثم أخذ البناءون يبنون المدينة، وفى وسطها قصر الخليفة والجامع ودار حرسه ومنازل أولاده ومنازل من يقوم بخدمتهم وقصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ودور الأهالى تتخللها الأسواق(١). ولكن البناء ما لبث أن وقف أثناء خروج محمد النفس الزكية سنة ١٤٥ هـ على المنصور، وبعد أن تم للخليفة القضاء على هذا العلوى الثائر على الخلافة العباسية، أمر بأن تبنى المدينة فى أقرب وقت .

وكان المنصور يشرف بنفسه على مالية الدولة وينفق منها بحساب، فكان يدقق فى عملية الصرف على بناء المدينة، حتى سمى المنصور الدوانيقى، نسبة إلى حرصه على أصغر عملة فى العراق وهى الدانق . وصرف على بنائها نحو تسعة ملايين من الجنيهات، وخاصة أنه عمل على تحصينها لتحاكى فى العظمة والجلال، الحواضر الكبيرة فى الشرق والغرب، وبخاصة القسطنطينية حاضرة الدولة الرومانية الشرقية .

وتدرجت بغداد فى العمران، فبنيت فيها المبانى الفخمة والقصور الشاهقة، التى من أشهرها قصر «القبة الخضراء» الذى استخدم للضيافة، إذ كان يقيم فيه السفراء الذين يفدون على بغداد من مختلف الممالك حتى يحين وقت السماح لهم بالمثول بين يدى الخليفة، وكان على رأس هذا القصر تمثال على صورة فارس فى يده رمح ويدور التمثال مع الريح، ووصفت قبة القصر

---

(١) Le Strange: Baghdad during the Abbasid Caliphate, p. 18.

بأنها كانت « تاج البلد وعلم بغداد » . وبنى قصر الخلد على شاطىء دجلة الغربى خارج بغداد ، فى مكان طيب الهواء ، إذ أن المدينة الجديدة قد ازدحمت بالعلماء والتجار والصناع الذين وفدوا عليها من كل صوب وحدب ، وسمى بهذا الإسم تشبيها له بجنة الخلد ، لأن التأنق فى بنائه كان بادياً للعيان. أما قصر الذهب فيعتبر مركز الدائرة فى المدينة الجديدة . كذلك بنى الأمير عيسى بن على عند مصب الرفيل فى دجلة قصراً فخما يسع أربعة آلاف نفس .

ولم يحل بناء بغداد دون شغب الجند على المنصور ، لذلك بنى مدينة « الرصافة» التى كانت فى الأصل عبارة عن ثكنات للجيش ، وسميت رصافة بغداد وبغداد الشرقية لأنها تقع فى الجهة الشرقية من نهر دجلة المقابلة لمدينة بغداد ، وبنى لها الخليفة المنصور سورا وحفر حولها خندقا وجعل فيها ميدانا فسيحا ومسجداً وبستانا وأجرى الماء فيها . وسرعان ماعمرت الرصافة حتى قاربت بغداد فى الاتساع ، فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات والميادين الواسعة والمبانى الفخمة ، كما كثرت بها الملاهى . واهتم اليعقوبى بوصف مدينة الرصافة ، فبين طرقها ودروبها ووصف أسواقها وتجارتها ، فقال إنه كان بها ٤٠٠٦ من الدروب ، ١٥٠٠ مسجد، ٥٠٠٠ حمام إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مبالغة (١) .

واتسعت بغداد والرصافة اتساعا عظيما ، حتى أصبحتا أشبه بمدن صغيرة متلاصقة ، وأصبحت بغداد أم مدائن الشرق فى ذلك العصر ، وبلغ عدد سكانها مليونى نسمة .

وفى سنة ١٥٧ هـ ، أمر المنصور ببناء « الكرخ » ، بواسطة حاجبه الربيع ابن يونس ، فى الناحية الجنوبية لمدينة بغداد . ويرجع السبب فى بناء

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٣٨ — ٢٤٠ .

مدينة الكرخ إلى ارتفاع الدخان المتصاعد من الأسواق واسوداد حيطان بغداد ، مما ضايق المنصور ، فأمر بنقل هذه الأسواق التى كانت تشغل جزءاً عظيما من مدينته إلى الجنوب حيث الكرخ . ووضع تصميم بناء الكرخ بعد أن وسع طرق بغداد ، حتى بلغ اتساع كل منها أربعين ذراعا ، وعين مواضع الأسواق كما عين موضع بناء جامع يصلى فيه أهل هذه الأسواق حتى لا يدخلوا المدينة ، وعهد بتنفيذ هذا المشروع إلى مولاه الوضاح ، وأفرد لكل حرفة سوقا خاصة بها (١) .

وشهدت بغداد فى عهد منشئها أبى جعفر ، حركة تدوين العلوم والنقل عن الأمم القديمة ، فترجمت الكتب من الفارسية واليونانية إلى العربية : فنقل حنين بن إسحق بعض كتب بقراط وجالينوس فى الطب ، ونقل ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية ، وترجم كتاب السند هند ، وكتاب إقليدس فى الهندسة . وبذلك كانت بغداد بعد إنشائها مسرحا لنهضة علمية واسعة النطاق ، وساعد على ذلك أن المنصور نفسه كان راوية للحديث ، بارعا فى العلوم والفنون ، ولعاً بالطب .

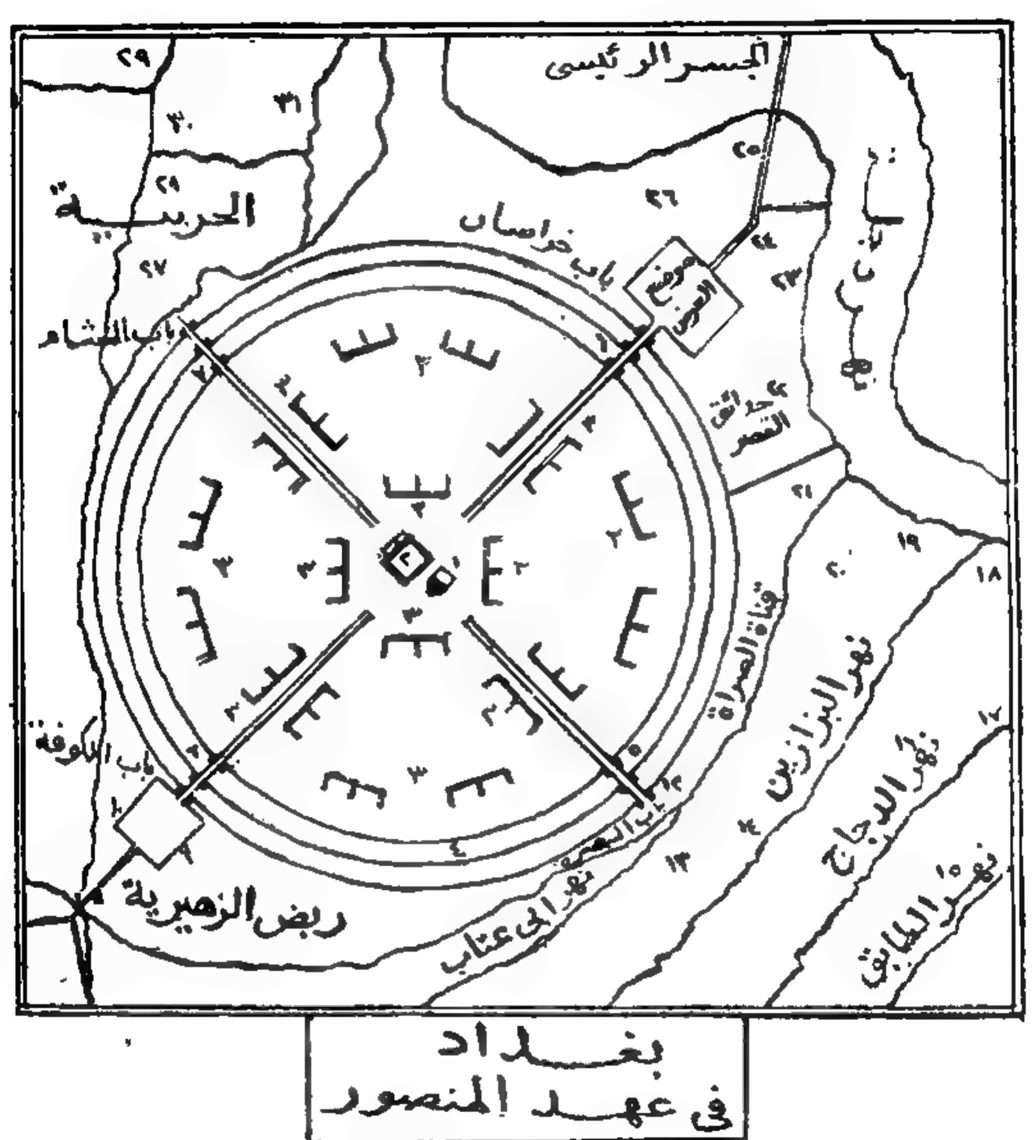
ومن بعد المنصور ، نمت بغداد نموا عظيما ، وشيدت فيها مبان وأنشئت حدائق ، واستحال العمران من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى ، واشتهرت هذه المدينة فى التاريخ والأدب والقصص فى العصور الوسطى ، وازدهرت فيها الفنون المختلفة ، وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامى (٢) ، وقال عنها المؤرخون إنها : جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام » .

وظلت بغداد على ذلك منذ إنشائها سنة ١٤٥ هـ حتى كانت سنة ٦٥٦ هـ ، حيث خربها التتار بقيادة هولاكو بعد استيلائهم على هذه المدينة .

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٨ — ٧٩ .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٨٢ و ١٤٠ .



بغداد
في عهد المنصور

دليل خريطة بغداد : (١)

١ — جامع المنصور .
٢ — قصر باب الذهب والدهليزان المقابلان لباب الشام .
٣ — دواوين الدولة المختلفة : بيت المال ـ دار السلاح ـ دار القضاء ـ ديوان الخراج ـ المخابز العامة ـ ديوان الرواتب ـ ديوان الحاجب ـ قصور أبناء الخليفة الأصاغر
٤ — السجن ويسمى المطبق
٥ — باب البصرة .
٦ — باب خراسان .
٧ — باب الشام.
٨ — باب الكوفة .
٩ — مسجد المسيب .
١٠ — دار الحرس وديوان الصدقة والإسطبلات وثكنات المجانة.
١١ — الجسر القديم .
١٢ — الجسر الجديد .
١٣ — قصر ومسجد الوضاح .
١٤ — الطريق الذى يجتاز قوس الحرانى .
١٥ — جامع ضاحية بغداد الشرقية .
١٦ — ضريح معروف الكرخى .
١٧ — مشهد على المعروف بمشهد المنطقة .
١٨ — دار الجوز .
١٩ — قصر حميد بن عبد الحميد وباب الشعير .
٢٠ — قصر عضد الدين الوزير .
٢١ — الدير القديم بأقرب من ملتقى دجلة بالبصرة .
٢٢ — دار القرار : قصر زبيدة .
٢٣ — قصر الخلد .
٢٤ — إسطبلات الخليفة .
٢٥ — ديوان أشمال الجسر ودار عامل الشرطة .
٢٦ — قصر الأميرين سليمان وصالح .
٢٧ — سجن باب الشام .
٢٨ — قصر سعيد الكاتب ومعهد الأيتام .
٢٩ — دكاكين الأبناء ـ الفرس .
٣٠ — رحبة الفرس .
٣١ — رحبة شعيب .

---

(١) الخريطة ودليلها :
Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate

سياسة المنصور الخارجية : ١ — بين العباسيين و البيزنطيين

حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : الأولى فى خلافة عثمان بن عفان ، والثانية فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، والثالثة فى عهد سليمان ابن عبد الملك . وتحولت الحرب النظامية بين الأمويين والبيزنطيين إلى غارات تخريب وتدمير فى عهد العباسيين . وانتهز البيزنطيون فرصة عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى يضارع أسطول الأمويين واعتمادهم على الجنود البرية دون القوات البحرية ، وبدأوا يشنون غاراتهم على أراضى الدولة العباسية وذلك فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، فغزا قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة البيزنطية بعض أراضى الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على ملطية فى آسيا الصغرى . غير أن العباسيين تمكنوا من استردادها فى السنة التالية ، وأقاموا فيها حامية كبيرة من جندهم . وفى سنة ١٥٥ هـ طلب الإمبراطور قسطنطين الصلح مع العباسيين ، على أن يؤدى لهم جزية سنوية(١).

٢ — سياسة المنصور إزاء الأندلس :

فى عهد المنصور العباسى ، استقلت الأندلس عن الدولة العباسية ، وبدأ بذلك تيار التجزؤ ، أى استقلال الولايات الخاضعة للخلافة العباسية عن سلطان الخلفاء . واستمر هذا التيار فى الاندفاع فى عهد من جاء بعده من الخلفاء ، حتى أصبح نفوذ الخليفة الفعلى مقصورا على بغداد ، ولكن بقى له نفوذه الروحى على العالم الإسلامى . وفى أواخر القرن الثالث الهجرى استقلت بلاد المغرب . وتلتها مصر فى منتصف الرابع الهجرى عن العباسيين ، وتأسست دولة الفاطميين التى نافست الدولة العباسية .

فتح الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى بلاد الأندلس ، ولكن تلك البلاد فى السنوات السبع الأخيرة من عصر بنى أمية أى منذ سنة ١٢٥ هـ ،

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٩٧ .

كانت تغلى كالمرجل بالفتن والقلاقل السياسية . وكان سقوط الدولة الأمويه بداية للتدهور العام فى كافة أرجاء الدولة الإسلامية : فنى بلاد الأندلس ضعف سلطان الأمويين كما ضعف سلطان العباسيين من بعدهم ، وقام النزاع الداخلى بين القبائل وخاصة بين المضرية واليمنية ، انتهى بتولية يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى(١) وهو من المضريين إمرة الأندلس ، حتى جاء عبد الرحمن(٢) بن معاوية بن هشام .

وقد هرب عبد الرحمن من العباسيين عند ما أخذوا فى التنكيل بالأمويين ، فذهب إلى المغرب حيث لاقى كثيراً من الصعاب ، بسبب محاولة عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية القبض عليه . ولكنه لجأ إلى إحدى قبائل البربر التى حمته ، فأخذ يراسل الأمويين فى الأندلس منتهزا فرصة النزاع بين المضرية واليمنية ، وأخيرا تمكن سنة ١٣٨ هـ من دخول

---

(١) حاول الخليفة المهدى القضاء على عبد الرحمن ، فأرسل جيشاً من البربر بقيادة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى لغزو الأندلس ، فهزمه عبد الرحمن بالقرب من برشلونة وتحصن ابن حبيب فى بلنسية وأخذ يحارب عبد الرحمن الداخل إلى أن تمكن رجل من البربر من اغتيال ابن حبيب . ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٣

(٢) ولد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، فى دمشق سنة١١٣هـ، فهو من نسل الأمويين ، وتوفى أبوه معاوية وابنه لا يزال طفلا ، إلا أنه نشأ نشأة أبناء البيت المالك وتعلم تعليمهم ، فأتقن الفروسية وركوب الخيل ، وأجاد قرض الشعر وحفظ القرآن وعرف باسم عبد الرحمن الداخل ، ولم تزد سنه عن الخامسة والعشرين وقت رحيله إلى الأندلس، بقصد إحياء دولة الأمويين فيها .

الأندلس والاستيلاء عليها والقضاء على يوسف بن عبد الرحمن والى قرطبة(١).

وقد أراد أبو جعفر المنصور القضاء على سلطان عبد الرحمن ، فأرسل العلاء بن مغيث اليحصبي إلى الأندلس لمحاربة عبد الرحمن ، فاجتمع إليه نفر كثير ، ولكن عبد الرحمن هزمهم عند إشبيلية . وهكذا فشل العباسيون فى استرجاع الأندلس وضمها إلى حظيرة الدولة ، فعمل أبو جعفر المنصور على استمالة عبد الرحمن بإرسال الهدايا إليه كما كان يشيد بجليل صفاته وعظيم مقدرته ، فيقول : « ... اقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها ... إن ذلك لهو الفتى كل الفتى الذى لا يكذب مادحه »(٢) .

ولما فشل المنصور فى سياسة التودد إلى عبد الرحمن ، أخذ يؤلب عليه ملوك دول الفرنجة ، مما جعل عبد الرحمن يأخذ الحيطة لنفسه من هجوم الفرنجة عليه . وزاد من متاعبه فى ذلك الحين ، ما دبره المنصور العباسى بقصد إعلان خلافته على الأندلس ، فقد اتفق أن يغزو شارلمان الأندلس على أن تصل لمعاونته قوة من إفريقية . ولكن هذه المؤامرة التى دبرت فى الخفاء لم تنجح : إذ أنه وقت هجوم شارلمان على الأندلس لم تكن حملة البربر قد وصلت ،

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) المقرى : نفس المصدر والجزء ص ١٥٧ .

ففشلت الخطة ، وقضى عبدالرحمن بذلك على خصومه وأصبح أميرالأندلس دون منازع ومحي دولة الأمويين بالمغرب ، وحكم الأندلس منذ سنة ١٣٨ﻫ إلى سنة ١٧٢ ﻫ ، وهى مدة طويلة ، قضاها فى توطيد عرشه فى تلك البلاد واكتساح أعدائه .

على أن المنصور العباسى ، حاول رغم ذلك استرجاع هذا الإقليم ، لأن خروجه عن حوزته وعن سلطان العباسيين معناه قيام دول أخرى تحاول عصيان النفوذ العباسى ، واتحد المنصور فى سبيل ما اعتزمه مع شارلمان ، بقصد القضاء على عدوهما المشترك : عبد الرحمن الداخلى . وتزعم هذه المؤامرة إلى جانب المنصور : سليمان بن الأعرابى صاحب برشلونة ، وابن حبيب الفهرى صهر يوسف بن عبد الرحمن آخر أمراء الأندلس وكان عبد الرحمن قد عزله من الإمارة فقام مطالبا بها وبإقصاء عبد الرحمن عنها . ورتبت الخطة على أن : يذهب ابن حبيب إلى إفريقية ويجمع جيشا من البربر يركب به البحر وينزل فى الجهة الشرقية من الأندلس ، ويهاجم شارلمان فى الوقت نفسه بلاد الأندلس من الجهة الشمالية الشرقية ويعاونه فى ذلك سليمان بن الأعرابى ، ثم يلتقى ابن حبيب وابن الأعرابى وشارلمان ، وينادى بأبى جعفر المنصور حاكما . ولكن ابن حبيب تعجل ونزل شاطىء الأندلس قبل تحرك شارلمان ، كما أن جيش ابن الأعرابى لم يساعد شارلمان حين عبر الحدود وحاصر بلدة سرقسطا . ولما بلغ مسامع شارلمان أنباء ثورة السكسونيين رحل عن الأندلس ليقضى على تلك الثورة فى بلاده . وبذلك لم تكلل الخطة بالنجاح ، وعاقب عبدالرحمن الداخل كل من اشترك فى تلك المؤامرة ، وثبت سلطانه فى الأندلس .

ويلقب عبد الرحمن الداخل ، نتيجة أعماله الباهرة وجهوده الجبارة ، بلقب « صقر قريش » . ويرجع سبب تلقيبه بهذا اللقب إلى أن الخليفة

المنصور ، سأل بعض جلسائه : « من صقر قريش ؟ » فأجاب بعضهم أنه « أمير المؤمنين » يقصدون المنصور ، وأجاب البعض الآخر أنه معاوية ابن أبى سفيان . ولكن المنصور قال لهم إن صقر قريش هو عبد الرحمن الداخل ابن معاوية (١) ، ذلك الشاب الذى خرج إلى الأندلس ليجدد ملك أجداده بعد أن لم تكن هناك بارقة أمل فى إحيائه فى أية بقعة من بقاع الأرض .

٣ — بين المنصور والفرنجة :

رغب أبو جعفر المنصور إلى پپن Pepin ملك الفرنجة ، أن يعاونه على عبد الرحمن الداخل ، الذى استقل ببلاد الأندلس عن الدولة العباسية . فأرسل أبو جعفر السفراء إلى پپن وأقاموا عنده عدة سنين عادوا بعدها إلى بغداد ، دون أن تؤدى مفاوضتهم إلى نتيجة ما ، سوى أنها ولدت فى نفس عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس الخوف من هجوم الفرنجة على بلاده ، وبذلك لم يقدم على إظهار عدائه الحربى للخليفة المنصور العباسى .

* * *

توفى المنصور سنة ١٥٨ هـ ، على مقربة من مكة وهو ذاهب إلى الحج ، وعمره نحو ٦٣ سنة ، وترك الدولة العباسية ثابتة مستقرة وطيدة الأركان ، بعد أن قاد ذلك العراك الهائل ضد أعداء الدولة ، ووضع أسس النظم التى سار عليها خلفاء بنى العباس وعمل إصلاحات هائلة فى الدولة الإسلامية ، جعلت من المنصور حاكما مستنيراً ومصلحاً كبيراً .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

٣ — المهدى بن المنصور

١٥٨ — ١٦٩ هـ = ٧٥٥ — ٧٨٥ م

حكم المهدى إحدى عشرة سنة ، لم تشهد هذه الدولة الواسعة خلالها حروباً أو فتناً بالنسبة لما وقع من قبل ، وساعد على ذلك أنه كان مسالما لا يميل إلى الشدة والعنف ، وتولى الخلافة بعد أن تمهدت الأمور واستقرت أحوال الدولة .

أعماله :

اهتم المهدى اهتماما بالغا بالفنون وخاصة فن العمارة : فقد أقام سور الرصافة ، وبنى مسجد الرصافة ، ووسع المسجد النبوى فى المدينة المنورة وجمله وزينه بالفسيفساء والعمد الرائعة ، وكسا الكعبة بعد أن نزع الكسوة القديمة عنها ، وزاد المهدى فى مسجد البصرة وجمله وأمر بأن تكون المنابر فى جميع المساجد متوسطة الارتفاع (كالمسجد النبوى)، وبنى محطات ومنازل على جوانب الطرق التى يسلكها الحجاج ، وأقام أحواضا لخزن المياه ليشربوا منها ، ووضع علامات على طول طريق الحج ليهتدى بها المسافرون ، وأمر بمنع المرضى بالجذام من أن يتسولوا وأجرى عليهم الأرزاق ، وبأن يكون طعام المسجونين على حساب الدولة بعد أن كان يرسل إليهم من بيوتهم ، وهذا العمل يوضح لنا اتصاف حكومته بصفة البر بالفقراء والمحتاجين .

ومنذ عهد المهدى، بدأت ظاهرة جديدة لم تكن موجودة من قبل فى الدولة العباسية ، فقد أقبل الخليفة المهدى على سماع الغناء . ولم تكن هذه الظاهرة الجديدة فى تاريخ الدولة العباسية مقصورة على الخلفاء ، بل تعدتهم إلى الأوساط الأخرى حتى اصطبغ تاريخ بغداد خاصة وتاريخ الدولة العباسية بوجه عام بمظاهر الترف والأبهة .

الحركات الدينية فى عهد المهدى :

من الظواهر الخطيرة التى أقلقت المهدى ، ظهور بعض الحركات الدينية التى كادت تزعزع خلافته ، من أهمها حركة المقنعية بزعامة المقنع الخراسانى وحركة الزندقة .

قاد الحركة الأولى رجل مولود فى خراسان موطن النحل والتقاليد الفارسية ، وكان أعور دميم الخلقة ، وكان ملثما حتى لا يرى الناس وجهه فسمى المقنع ، ونادى بأن الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح وهكذا حتى أبى مسلم الخراسانى ثم تحول إلى هاشم . وهاشم فى دعواه هو المقنع ، أى أن الله قد حل فيه بعد أبى مسلم . وبايعه خلق كثير كانوا يسجدون له ، وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبى عليه السلام . على أن حركة هذا الرجل لم يطل أمدها وانتهت بقتله سنة ١٦١ هـ(١) .

أما الحركة الثانية ، فهى الزندقة ، وهى كلمة تطلق على الملحد . ومبادىء هؤلاء الزنادقة على جانب عظيم من الخطورة ، إذ أنهم كانوا ينادون بالإباحة المطلقة والفوضى والتحلل من جميع الروابط الاجتماعية . وعلى الرغم من أن الخلفاء تسامحوا مع كل الفرق النصرانية واليهودية وغيرها ، فإن الزنادقة لم يلقوا شيئاً من التساهل أو العطف من جانب الخلفاء ، إذ أوجد المهدى هيئة جعل اختصاصها مقصوراً على البحث عن الزنادقة والتنكيل بهم وجعل عليها رئيساً أطلق عليه اسم صاحب الزنادقة ، وتتبعتهم هذه الهيئة ، فقُتل منهم فى عهد المهدى عدد وفير وارتكب فى سبيل ذلك كثير من أعمال العسف والظلم ، لأن هذه الهيئة كانت تعاقب على الظن ، وتعذب وتحرق كل من يتطرق الشك إليه بأنه من الزنادقة ، وكان منهم عدد كبير من رجال العلم والأدب (٢) .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٤١ — ٢٤٣ . الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٥—٢٠٧ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠١ . الطبرى ج ١٠ ص ٤٢ .

صفاته :

كان المهدى من خلفاء بنى العباس الذين أحبهم الشعب ، فقد أجزل العطاء للعلماء والشعراء وذوى الحاجة حتى قيل إنه صرف جميع ما خلفه المنصور . ولقد تعلم المهدى تعليما عربياً محضاً ، فدرس القرآن وتأثر به وعكف على دراسة الأخبار والأشعار ، فنشأ فصيحاً بليغاً ، يجيد قول الشعر ، ويحفظ كثيراً من أمثال العرب ، وجمع له المفضل الضبى أمثال العرب ومختارات من شعرهم . وممن ظهر فى أيامه من الشعراء أبو العتاهية ، وكان مولاه عمرو بن ربيع يقول الشعر ويجيده . وعرف عن المهدى الحياء والعفو والجود والحلم والكرم ، والامتناع عن شرب النبيذ ، وعمل على نشر العدل ، وجلس للمظالم بنفسه ، فأنصف المظلوم ورد المظالم لأصحابها .

السياسة الخارجية : ١ — مع بلاد الأندلس :

لم تجرؤ دولة على مناهضة العباسيين فى عهدى المهدى ، سوى ما كان من عداء المهدى لعبد الرحمن ، وهى تلك السياسة التقليدية التى سارت عليها الدولة العباسية إزاء الأندلس منذ عهد الخليفة المنصور . ولكن المسألة لم تتعد ذلك الحد بين الطرفين : المهدى وعبد الرحمن ، وذلك لما رآه المهدى من قوة عبد الرحمن وما قد يتكبده جند العباسيين من المصاعب والمشاق فى فى سبيل الوصول إلى بلاد الأندلس ، وتوترت العلاقات بين الأندلس والخلافة العباسية فى ذلك العهد(١) .

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢—٢٣ .

٢ — بين العباسيين والبيزنطيين :

عادت العلاقات بين العباسيين والبيزنطيين فى عهـــد المهدى إلى أسوأ مما كانت عليه فى عهد المنصور ، فإن الحروب البرية والبحرية بينهما لم تنقطع . ذلك أنه منذ سنة ١٥٩ هـ وما بعدها توالت حملات المهدى على البيزنطيين ، فخرج قواد المهدى : العباس بن محمد ، وثمامة بن الوليد ، والحسن بن قحطبة بقصد غزو بلاد الروم ، ولكن صلاتهم باءت بالفشل ، مما شجع الروم على الإغارة على حدود الدولة العباسية فى سنتى ١٦٢و١٦٣ هـ ، بل استولوا على مرعش وأحرقوها . وخرج المهدى بنفسه ، بعد أن استخلف على بغداد ابنه موسى الذى تولى الخلافة بعد أبيه وتلقب بالهادى ، كما خرج ابنه هارون [الرشيد] على رأس جيش كبير سار به إلى بلاد الروم فاستولى على حمص، بعد أن تعهد لواليها ألا يقتل أحداً من أهلها أو يكرههم على الرحيل عنها فى نظير تعهد الروم لهارون بدفع غرامة حربية وإطلاق سراح الأسرى ، ثم عاد هارون إلى حلب التى اتخذها أبوه المهدى قاعدة لأعماله الحربية ، فسر أبوه بعودته وبما أبلاه من همة وإقدام فى مناجزة الروم .

ولكن الروم نقضوا شروط الصلح ، فعاد هارون لقتالهم ، كما جمع المهدى جيشاً بلغ مائة ألف جندى جعل على رأسه ابنه هارون ، فوصل هذ الجيش إلى سواحل البسفور، وأرغم الملكة إيرينى ، أرملة ليو الرابع وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع ، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية تقضى على دفعتين ، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء فى الطريق عند أوبتهم إلى بلادهم ، وأن تسلم أسرى المسلمين ، وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الروم والعباسيين لمدة ثلاث سنوات (١) .

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤٢ .

٤ — الهادى بن المهدى

١٦٩ — ١٧٠ = ٧٨٥ — ٧٨٦ م

اعتلى الهادى عرش الخلافة بعد أبيه وكانت وفاة أبيه المهدى حائلا بينه وبين تنفيذ ما اعتزمه من جعل الخلافة من بعده لابنه الرشيد دون أخيه الأكبر هارون ، وكان الهادى قد قضى أكثر أيامه قبل اعتلاء العرش فى بلاد المشرق ، واستمرت خلافته سنة واحدة . وفى عهده كانت الخلافة ضعيفة: فقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين وعلى المتصلين بالخليفة من الشعراء وغيرهم ، كذلك بدأ نساء القصر يتدخلن فى شئون الدولة مما قلل من هيبتها ، ودب الفساد فى الجيش إذ كان الجند يتعصبون بعضهم على بعض ووصلت الحالة إلى حد مخيف حتى أنهم طالبوا بمرتباتهم عن سنوات مقبلة ، وازدادت ظاهرة التجزؤ وضوحا فى عصره باقتطاع أجزاء جديدة من أراضى الدولة العباسية وضمها إلى دول أخرى .

سياسته إزاء العلويين :

اقتطع من الدولة العباسية بعض دويلات إثر حوادث معينة ، وهذه الدويلات كانت تابعة للعباسيين ، وكانت جزءاً من دولتهم ثم استقلت عنهم ، وبذلك انتابها تيار التجزؤ .

وقد أدى قيام العلويين ضد العباسيين فى عهد الهادى ، إلى فرار أحد زعمائهم إلى المغرب(١) ، حيث أسس دولة علوية شيعية . وتفصيل ذلك أن الحسين بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب من زعماء بنى الحسن فى المدينة المنورة ، ثار ومعه كثير من العلويين فى أوائل خلافة الهادى سنة ١٦٩ هـ

---

(١) يقصد بها شمال إفريقية .

على عمر بن عبد العزيز الوالى العباسى المعين على المدينة ، وهو من سلالة عمر بن الخطاب . وكان شديد الوطأة على العلويين تمشيا مع سياسة العباسيين إزاءهم ، إذ أمر بالقبض على من يشتبه فى أمره منهم وحبسه والتضييق عليه وإهانته بالضرب والتشهير والطواف به فى الطرقات . وقد اعترض الحسين على الحط من كرامة أهل بيته ، فقصد مع أتباعه دار الإمارة فى المدينة ، ولكن عاملها تحصن بها ، ثم كسروا السجون وأخرجوا من فيها وبويع الحسين(١) .

على أن ثورة العلويين لم تؤد إلى نتيجة ما ، فقد خاف زعيمهم الحسين ورحل من المدينة إلى مكة ، حيث أثار بعض الحجاج والشيعة على الخلافة العباسية . فلما اتصل ذلك بمسامع الخليفة الهادى ، بعث إليه جيشاً هزمه فى « فَخ » ، وهو واد فى طريق مكة ، يبعد عنها بستة أميال ، حيث قتل الحسين بعد أن أبلى أحسن البلاء(٢) ، وقتل معه بعض أهل بيته . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ » ، وكثر شعر الشيعة فى رثاء قتلاهم ، ومن ذلك قول أحدهم :

فلأبكين على الحسين بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة(٣) الذى واروه ليس بذى كفن
تركوا بفخ غدوة فى غير منزلة الوطن
كانوا كراما هُيّجوا لا طائشين ولا جُبُن
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدَّرَن(٤)
هُدِى العبادُ بجدهم فلهم على الناس المِنن

---

(١) الفخرى ص ١٧٢ — ١٧٣ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٢٦ .
(٣) هو الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على ، قتيل فخ .
(٤) الدرن : القذارة .

وعلى أثر تلك الموقعة ، هاجر العلويون إلى المغرب ، وهناك أظهر إدريس بن عبد الله صحة نسبه وقرابته من الرسول ، وأظهر حقه فى الخلافة . والتف حوله البربر ، وبايعوه فى يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان سنة ١٧٢ هـ(١) .

وكانت سلطة العباسيين على تلك الجهات إسمية ، وبذا قامت هناك الدولة المعروفة باسم « دولة الأدارسة » . ومن ثم فإن موقعه « فخ » ، على الرغم من أنها بسيطة فى حقيقة أمرها ، إلا أنها أدت إلى اقتطاع جزء من الدولة العباسية . ومهد قيام الدولة الإدريسية السبيل لظهور الفاطميين والدولة الفاطمية فى شمالى إفريقية(٢) .

اضطراب نظام ولاية العهد :

فى عهد الهادى ، اتضح بجلاء اضطراب نظام الخلافة : فقد خلف المهدى أباه المنصور ولم يخلفه ولى عهده عيسى بن موسى ، وبعد المهدى كان المقرر أن يلى عيسى بن موسى الخلافة ولكن المهدى حمل عيسى على أن يخلع نفسه فصارت الخلافة للهادى ، ثم أراد الهادى أن تكون الخلافة لابنه جعفر دون أخيه هارون ولكن الهادى مات سنة ١٧٠هـ دون أن تتم رغبته . وهنا نلاحظ عدم وجود نظام لوراثة العرش(٣) مما أدى إلى الفوضى وعدم الاستقرار.

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٨٦ .

(٣) كان ذلك الاضطراب فى نظام ولاية العهد ، من أبرز عوامل سقوط الدولة الأموية: فلم يأبه مروان لترتيب وراثة العرش من بعده الذى وضع فى مؤتمر الجابية وحصرت فيه ولاية العهد فى عبد الملك ثم خالد بن يزيد ومن بعدهما عمرو بن سعيد وولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز . ولما اعتلى عبد الملك العرش بعد أبيه مروان ، جعلت وراثة العرش فى ابنيه : الوليد ثم سليمان ، دون أن يكترث لأحقية أخيه عبد العزيز ، لولا أن عبد العزيز توفى . وعمل الوليد على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وتوليتها ابنه عبد العزيز ، ولما ولى سليمان الخلافة بعد أخيه الوليد انتقم ممن اشتركوا فى إبعاده عن وراثة العرش .

تدخل النساء في شئون الدولة :

وفى عهد الهادى بدء نساء القصر يتدخلن فى الشئون السياسية ، وبدأت حياة القصر تتعقد ، وظهرت دسائس البلاط ، حتى قيل إن الهادى قتل بسبب دسائس بعض الجوارى . فقد كان للمهدى جارية يمنية تسمى الخيزران، قيل إنه اشتراها بمائة ألف درهم ، أنجبت له ولديه اللذين وليا الخلافة العباسية من بعده وهما : الهادى وهارون الرشيد . وكان لهذه الجارية الكلمة النافذة فى بغداد تأمر وتنهى كيفما شاءت ، حتى كان الناس يتوافدون على دارها ويلجأون إليها . فلما أرادت أن تتابع نفس سياسة الأمر والنهى التى اعتادتها ، وقف منها ابنها الهادى موقفاً مغايراً لموقف أبيه منها . وذات يوم ، سألت الخيزران ابنها الهادى قضاء مسألة رجل لم يجد إلى قضائها سبيلا ، فألحت فى الطلب ، وازداد هو فى الرفض مبيناً الأسباب التى تحمله على ذلك ، ورغم هذا انصرفت غاضبة معلنة أنها لن تقصده فى حاجة بعد اليوم . ولكنه لم يجب طلبها ولم يسترضها ، بل نهرها(١) . فلما سمع الناس ذلك انقطعوا عن سؤال أمه الخيزران ، وامتنعوا عن التردد عليها(٢) . وأثار موقف الهادى منها حفيظتها وجلب كراهيتها لابنها ، وعز ذلك عليها إذ كان لها مكان بارز فى الحياة السياسية فى بغداد ، رغم أنه قصد من إبعادها عدم دسها فى تيار الحوادث كى لا يضرها فى طريقه .

ظل العداء بين الهادى وأمه الخيزران على أشده إلى يوم وفاته ، وتردد على صفحات التاريخ أن موت الهادى بعد مرضه كان بتدبير أمه ، إذ دست إليه ببعض الجوارى لقتله بالجلوس على وجهه حتى مات . إلا أن عاطفة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٦١ . الطبرى ج ١ ص ٣٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧٣ .

الأمومة أشد حنواً من أن تجعل الخيزران تقترف مثل هذا الإثم ، ولكن رغم استبعادنا لمسألة مقتل الهادى بإيعاز أمه ، فإن محاولة الهادى عزل أخيه هارون من ولاية العهد وكان محببا إلى أمه ، ربما جعلت الخيزران تفكر فى قتله ، كى لا تمكنه من إقصاء أخيه عن عرش الخلافة من بعده ، وكانت بذلك ذات أثر فعال فى إقرار ولاية العهد للرشيد حتى فى وقت انزوائها(١).

٥ — هارون الرشيد

١٧٠ - ١٩٣ هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩ م

ولد هارون فى أواخر ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ ، وهو ابن المهدى وأمه الخيزران . ويعد الشخصية الثانية البارزة فى العصر العباسى بعد أبى جعفر المنصور . وفى عهده بلغت بغداد درجة لم تصل إليها من قبل ، فقد أصبحت كعبة رجال العلم والأدب ومركز التجارة . واشتهر إسم الرشيد فى الغرب ، لما كان بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود .

عوامل شهرة الرشيد :

يعتبر الرشيد أشهر خلفاء بنى العباس قاطبة : لما اتصف به من الكرم والجود ، إذ كان يعطى الكثير من الهبات للشعراء الذين يمدحونه ، كما كان يغدق الأموال على الناس فى المواسم . وعرف عن الرشيد التقوى والورع فإنه كان فى كل سنة إما حاجا أو غازيا ، وإذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج حج عنه ثلاثمائة بالنفقة السابغة ، وكان يحج ماشيا

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٧٩ .

ولم يحج ماشيا خليفة سواه(١) . على أن ذلك لا ينفى محبته لأمور لا تتفق وورعه ، منها حب الغناء والموسيقى وشرب النبيذ . واشتهر عن الرشيد الميل إلى الأدب وتقريبه للأدباء ، وإجزاله العطاء عليهم ، حتى أصبحت بغداد فى عهده مقرا لمشاهير العلماء والأدباء من أمثال أبى العتاهية والعباس بن الأحنف والأصمعى والواقدى وأبى يوسف صاحب كتاب الخراج . وعنى الرشيد كذلك برجال الفن الجميل وظهر فى بغداد فى عهده عدد منهم كابراهيم الموصلى وإسحق الموصلى وغيرهما(٢) .

وصار عصر الرشيد عصراً فارسيا من حيث نظم الحكم ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وكان كل شىء فارسى محبوبا مرغوبا فيه : فاحتفى بالأعياد الفارسية القديمة كالنيروز ، وأصبحت الملابس على النمط الفارسى ، وصار الطعام والشراب فارسيا ، وأمراء الجيش وقواده صاروا كلهم من الفرس ، وتولى الوزارة رجال من الفرس هم البرامكة .

الثورات ضد حكم هارون : ١ — ثورات العرب :

كانت الدولة فى عصر الرشيد عربية من جهة اللغة والدين ، أما من جهة الإدارة والحكم والقائمين بأمرها فإنها كانت فارسية ، وبذلك كانت الغَلَبة للفرس . وكان اصطناع العباسيين للفرس أمراً طبيعيا ، لأن الدولة قامت على أكتافهم . ولكن ذلك أدى إلى إقصاء العرب عن المناصب الهامة وعن الجيش ، فحدث الجفاء بين العرب والعباسيين ، وأحس عرب الشام بالحالة التى انحدروا إليها وفكروا فى الثورة وعصيان الحكم العباسى . ومن تلك الثورات أيضا ثورة عرب الحوف بمصر وسكان الجهة الشرقية من الدلتا ،

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٨٨ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧٥ .

إلا أن ثورتهم انتهت بالفشل وقضى عليها والى الرشيد فى مصر بشدة . كذلك ثار عرب الموصل فى الجزيرة ومنعوا الخراج ، واستمرت فتنتهم وقتا طويلا ، حتى خرج إليهم الرشيد بنفسه ونكل بهم وبمدينتهم .

٢ — فتنة الخوارج :

فى عصر الرشيد ، قام الخوارج بفتنة تزعمها الخارجى المشهور الوليدبن طريف ، وهو من تغلب أى من عرب الجزيرة ، وتبعه عدد كبير بلغ ثلاثين ألفا ، فإن الوليد رمى الخليفة هارون بالظلم والجور . ولكن الرشيد أرسل إليهم قائده يزيد الشيبانى ، وحين برز طريف لقتال جند يزيد ، ارتجز

أنا الوليد بن طريف الشارى   قسورة لا يصطلى بنارى

جوركم أخرجنى من دارى

واشتدت شوكة الوليد وكثر أتباعه ، وانتصر أكثر من مرة على جند هارون وقتل والى نصيبين وأذربيجان ، وعاث فيهما فسادا ، ثم عاد إلى الجزيرة ، وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان ، ولكنه هزم وقتل على يد يزيد ، ورثته أخته بقولها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف

حليف الندى ماعاش يرضى به الندى   فإن مات لا يرضى الندى بحليف

فقدناك فقدان الشباب وليتنا   فديناك من فتياننا بألوف

وقد أرادت أخته الفارعة قيادة الحرب من بعد مقتل الوليد ، ولكنها كفت عن ذلك بعد قليل (١)

٣ — خروج العلويين :

تابع العلويون ثوراتهم فى عهد الرشيد كما ثاروا من قبل فى عهد المنصور

---

(١) محمد الخضرى : الدولة العباسية ص ١٤٢ — ١٤٣ .

والهادى ، رغم أن الرشيد أراد أن يستميلهم إليه حتى أطلق سراح كثير ممن كان منهم فى بغداد. ولم يعدل العلويون عن اعتقادهم الراسخ فى أحقيتهم للخلافة ، فقاموا بزعامة رجلين : أحدهما يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى صاحب الديلم أو طبرستان الواقع جنوب بحر قزوين وأحد أقاليم فارس وهو أخو محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية الذى ثار زمن المنصور ، وثانيهما إدريس أخو يحيى بن عبد الله الذى فر إلى بلاد المغرب .

كان يحيى بن عبد الله قد اتخذ إقليم طبرستان حصنا منيعا يتحصن فيه ويجتمع إليه هناك عدد كبير من الشيعة لتدبير أمر الثورة ضد العباسيين . ولما استفحل أمر يحيى أرسل إليه الرشيد قائده الفضل بن يحيى على رأس جيش بلغ نحو خمسين ألف جندى . وهذا القائد لم يحارب يحيى بن عبد الله بل فاوضه فى التسليم دون قتال ، فرضى بذلك إذا كتب له الرشيد يؤمنه على حياته ، فكتب الرشيد الأمان بخطه ، ولكنه ما لبث أن نقضه وحبس يحيى وظل فى حبسه حتى مات (١) .

أما إدريس بن عبد الله أخو يحيى ، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢ هـ ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التف حوله البربر ، وقد عجز الرشيد عن إخضاعه بحد السيف ، ففكر فى بلوغ غايته عن طريق المكايد والخدع ، فأرسل إليه رجلا عرف بالمكر والدهاء وأمره بأن يتقرب إليه وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم . ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب ، تقرب من إدريس حتى صار من خواصه ، ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧ هـ ، دون أن يترك ولدا يؤول إليه الأمر من بعده ، فانتظر أتباعه أمه وكانت حاملا ، فوضعت ولدا سموه إدريس وبايعوه بالخلافة . وبذلك ازداد خطر الأدارسة ، فأصبح الرشيد يخاف

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧٦ — ١٧٧ .

العلويين كافة ويعمل على استئصال شأفتهم(١) .

وماعمله الرشيد مع يحيى وإدريس ، سبق أن عمله الخلفاء العباسيون الذى سبقوه مع المعارضين لسياستهم ومع من حاولوا تعريض دولتهم للخطر .

٤ — ثورات فى المغرب والمشرق :

نازعت قبائل البربر فى إفريقية بين سنتى ١٧٨ و ١٨١ هـ سلطان العباسيين، فأرسل إليهم الرشيد جيشاً بقيادة هرثمة بن أعيَن ، فهزمهم ، ولكن هذا القائد مالبث أن تخلى عن القيادة وعاد إلى المشرق . ثم قامت فى هذه البلاد دولة الأغالبة على يد ابراهيم بن الأغلب ، الذى عين أميراً على هذه البلاد من قِبَل الخليفة العباسى ، لتأديب البربر والوقوف فى وجه الأدارسة إذاما أرادوا الإغارة على أراضى الدولة العباسية . على أن دولة الأغالبة استقلت بعد قليل عن الخلافة العباسية فى بغداد ، ولم يصبح للعباسيين سوى السيادة الإسمية على هذه الدولة ، واتخذت مدينة القيروان الواقعة فى الجنوب الغربى من تونس الحالية حاضرة لها ، وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون سنة ٢٩٧ هـ على بلاد المغرب .

أما فى المشرق ، فقد ثارت خراسان على علىّ بن عيسى الوالى المعين عليها من قِبَل الرشيد ، لسياسة الظلم والعسف التى اتبعها . وأرسل كبار رجال خراسان إلى الرشيد يشكون إليه من تصرفات هذا الوالى ، فخرج إليه الرشيد بجيش كثيف ، عسكر به فى الرى ، ولكن الوالى قابل الرشيد بهدايا ثمينة ووزع مثلها على من صحبه من رجال دولته ، فعاد الرشيد إلى بغداد ، واستمر هذا الوالى فى ظلمه وجبروته ، حتى انتهى الحال بقيام ثورة عنيفة ضده فى خراسان ، هجم الأهالى خلالها على قصره واستولوا على مافيه . ولما بلغ ذلك الرشيد ، تحقق من

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

استبداده ، وأنبه على سياسته العقيمة وتحديه شعور الأهالى ، وقرر عزله(١)، وأرسل إليه القائد هرثمة بن أعين . فقبض عليه هو وأتباعه وصادر أموالهم ، وبعث بهم إلى الرشيد ، وهدأت الفتنة فى خراسان واستقرت الأحوال(٢) .

البرامكة :

ينتمى البرامكة إلى أسرة فارسية ، دفعت النهضة العلمية إلى الأمام، وشجعت الفنون ، وصار لها اليد الطولى فى إدارة شئون الدولة العباسية ، وما لبثت أن سقطت فى ظروف خاطفة غامضة . وجد هذه الأسره هو « برمك »(٣) وكان رجلا فارسياً عالماً بالطب والتنجيم ، قدم إلى دمشق فى عهد بنى أمية سنة ٨٦ هـ، حيث داوى مسلمة ثم هشام ابنى عبد الملك بن مروان .

ويُعد خالد بن برمك ممن شاركوا فى بناء الدولة العباسية ، عينه السفاح وزيراً له ثم ولاه المنصور على طبرستان ثم الموصل ، وكان حسن التدبير يصرف الأمور بحكمة وروية .

وظهر من بعده يحي بن خالد بن برمك الذى تولى فى زمن المهدى تربية ابنه هارون . وقويت الصلة بين هارون ويحي حتى كان الرشيد يناديه وهو خليفة « يا أبى » . ولما اعتزم الهادى نقل ولاية العهد عن الرشيد إلى ابنه جعفر نهاه يحي عن عمل ذلك(٤)، وتولى الوزارة(٥) فى عهد الرشيد . واستعان

---

(١) راجع خطاب هارون الرشيد لعلى بن عيسى - الطبرى جـ ١٠ ص ١٠٢ .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٥٨ .

(٣) صفة تطلق على كل من كان يلى فى الزمن القديم سدانة معبد قريب من مدينة بلخ يقال له النوبهار ، والسدانة عبارة عن الكاهن الأول فى المعبد . وهذا المعبد من المؤسسات الدينية الكبيرة التى أنشئت فى الزمن السابق للاسلام ، ويظهر أنه كان يتخذ فى الأصل العبادة البوذية أى للديانة الهندية القديمة ، ولكن الفرس جعلوه بيتاً من بيوت النار للتعبد فيها حسب الديانة الزرادشتية القديمة .

(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٦١ .

(٥) كان يحي وزير تفويض ، أى وزير تام السلطة يمثل الخليفة فى كل شىء .

فى تصريف شئون الدولة بأبنائه الأربعة : الفضل ، وجعفر ، ومحمد ، وموسى ، وإن كانت مكانة الفضل وجعفر ومقدرتهما الإدارية قد فاقت مكانة ومقدرة محمد وموسى . وحين قلد الخليفة الوزارة ليحيى البرمكى ، قال لوزيره : «قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى» . ثم دفع إليه خاتمه الخاص وسلمه خاتم الخلافة ، حتى صار بيده الحل والعقد فى كل شئون الدولة ، فانصرف الناس إليهم ، ونظموا القصائد الرائعة فى مدحهم والتغنى بكرمهم والإشادة بجودهم.

وفى عهد جعفر بن يحيى قبض البرامكة على أمور الحكم ، وصار بيدهم الدخل والخرج ، حتى كان هارون يطلب البسيط من المال فلا يصل إليه إلا عن طريق البرامكة ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، فعظمت آثارهم وبعُد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها لأنفسهم عمن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك ، وأفاضوا على رجال الشيعة العطاء» .

بذلك سيطرت الأسرة البرمكية على الدولة العباسية ، سياسياً واقتصادياً وإدارياً وأدبياً ، وأصبحت مقصد العلماء والشعراء والأدباء ، وتجمعت الوفود على أبوابهم أكثر من وقوفهم على باب الخليفة ، لما عرف عنهم من الجود والكرم والحماسة فى النهوض بالعلوم وترقية المعارف ، وعظم ثراء البرامكة إذ كان الخليفة يغدق عليهم الأموال الوفيرة فوق ما كانوا يستحوذون عليه من مال. وزاد سلطان الأسرة البرمكية فى أيام الرشيد ، حتى أن صاحب الفخرى روى: «أن عبد الملك بن صالح العباسى طلب إلى جعفر البرمكى أن يخاطب الرشيد فى فى ثلاث حوائج هى : أن يقضى عنه ديناً مقداره ألف ألف درهم ، وأن يولى ابنه إحدى الولايات ليرفع بذلك قدره ، وأن يزوج هذا الابن من ابنة الخليفة ، فقضى له جعفر هذه الحوائج الثلاث من فوره»(١) .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٨٥ — ١٨٦ .

نكبة البرامكة :

اختلف المؤرخون فى العوامل التى دفعت الخليفة هارون الرشيد إلى التنكيل بالبرامكة : قيل إنه غضب عليهم لأن جعفراً البرمكى أطلق سراح يحى بن عبد الله العلوى بعد أن كان الرشيد قد أمره بحبسه . وقيل إن استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استمال الناس إليهم مما أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم ، وساعد على إشعال نار العداوة والبغضاء سعاية الفضل بن الربيع وكراهية زبيدة أم الأمين للبرامكة ، أضف إلى ذلك ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك بن صالح العباسى كان يدعو لنفسه وأن البرامكة يساعدونه ، كذلك أظهر البرامكة الدالة على الرشيد بما لم تحتمله نفسه ، كما أنهم عاشوا عيشة البذخ والإسراف وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء مما أثار عوامل الغيرة فى نفوس أعدائهم وحسادهم .

على أن أهم عامل أفاض المؤرخون فى القول عن أهميته فى حدوث نكبة البرامكة ، ماقيل عن وجود علاقات بين جعفر بن يحى وبين العباسة أخت الرشيد . فإن العباسة يقترن اسمها باسم رجل من أقطاب أسرة البرامكة ، هو جعفر بن يحى بن خالد البرمكى الذى كان مقربا من نفس الرشيد ، لما عرف عنه من رجاحة العقل والحزم وحسن تصريف أمور الدولة ، وكان الرشيد لا يبت فى أمر دون مشورته ، حتى لازمه جعفر فى غدواته وروحاته ، ولم يستطع الرشيد أن يجتمع فى مجلس من غير وجوده فيه . وكان الرشيد يعمل فى نفس الوقت بمشورة أخته العباسة ، فقد كانت ذات ثقافة عالية وذكاء نادر كما كانت حلوة الحديث ، لطيفة المعشر ، ولذا كانت دائماً تحضر مجلس الرشيد ، شأنها فى ذلك شأن جعفر البرمكى .

وكان حرص الرشيد على أن تحضر العباسة مجالسه كما يحضرها جعفر ،

داعيا إلى تفكيره فى طريقة شرعية تبيح لجعفر أن يجلس فى حضرة الرشيد مع وجود العباسة . وللوصول إلى ذلك ، اجتمع الرشيد يوما بجعفر البرمكى وقال له : ويحك ياجعفر ليس فى الأرض طلعة آنس إلىّ وإليها أميل سوى رؤيتك ، وأن للعباسة أختى منى موقعا ليس أقل من ذلك ، وقد نظرت فى أمرى معكما ، فوجدتنى لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتنى ناقص الحظ والسرور يوم أكون وحدى معها ، وكذلك يوم وجودى معك دونها ، وقد رأيت رأياً يجتمع لى به السرور ويزداد به الأنس . فردعليه جعفر : وفقك الله يا أمير المؤمنين . وأخذ الرشيد عليه عهد الله أن لا يظله وإياها سقف بيت إلا والرشيد ثالثهما ، فحلف له جعفر على ذلك ، ورضى به . وظلوا يجتمعون على هذه الحالة وجعفر صارف بصره عنها ، هيبة لأمير المؤمنين ووفاء بعهده له . وتضاربت الروايات بعد ذلك فى حقيقة ما روى عن العباسة وجعفر وما ذاع عن عقد قرانهما . .

على أن بعض المؤرخين الذين يعتد برواياتهم قد نفى حدوث ذلك ، على اعتبار أنه أمر يستبعد حدوثه كل البعد ، لما هو معروف عن نسب العباسة وحسبها ودينها : فهى بنت الخليفة المهدى بن المنصور وهى قريبة عهد ببداوة العرب وسذاجة الدين[1] ، إذ كيف يقبل الرشيد مع ما عرف عنه من بُعد النظر وعلو الهمة والإباء والشمم أن يزوج أخته مولى من موالى دولته . وأين قدر العبّاسة ابنة المهدى ، وحفيدة المنصور، وأخت الهادى ، وأخت الرشيد ، وسليلة الخلفاء ، من جعفر ! كما أن مسألة قبول الرشيد أن تجتمع أخته مع رجل فى مجلس واحد لا تصدر عنه : لأن حرص العربى على عرضه أبقى لديه من كل مايملك من متاع وسلطان ، وكان الرشيد فقيهاً يعلم المدى الذى يصل إليه فى الأمور التى تتصل بشرف الأسرة ومكانتها .

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٤ .

ويمكن القول أن مثل هذه الحادثة لايمكن أن تؤدى إلى الفتك بالأسرة كلها ومنع الشعراء من رثائها ومصادرة أموالها . فقد كان السبب الرئيسى لنكبة البرامكة هو نفوذها الذى بلغته فى الدولة وتحدث عنه الشعراء والكتاب، لقد كان نفوذاً غير محدود واستئثارا بالأموال إلى درجة أخافت الخليفة (١). ولذا أعرض عنهم الرشيد ، وقسا فى معاملتهم ، وتتبعهم بالتشريد والتقتيل ، فقضى عليهم بعد العز ونضرة الأيام وتشردوا بعد اجتماع الشمل وعظمة الملك . أما ماقيل عن مسألة العباسة أخت الرشيد وزواجها سراً من الوزير جعفر البرمكى ، فلا يوجد فى التاريخ ما يؤيدها ولا تنهض مبرراً لإيقاع الرشيد بوزرائه من البرامكة (٢) .

ويظهر أن نكبة البرامكة أصبحت منذ تجمع هذه العوامل محتملة الوقوع ، بدليل ما رواه صاحب الفخرى عن بختيشوع الطبيب . قال : «دخلت يوما على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر وبينه وبينهم عرض دجلة . قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على جانب باب يحيى بن خالد ، فقال : أجزى الله يحيى خيراً ، تصدى للأمر وأراحنى من الكد ووفر أوقاتى على اللذة . ثم دخلت عليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحيى بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها إلا

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٤ .

(٢) الدكتور على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٨٥ — ٨٨ .

إسمها فقلت إنه سينكبهم . فنكبهم عقب ذلك ، (١) .

ويمكن القول أن سقوط أسرة البرامكة كان نتيجة حوادث متتابعة ، دفعت الرشيد ، لا إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب ، بل إلى القضاء عليها ومحو آثارها والقسوة فى معاملة رجالها : فأمر بقتل جعفر وحبس يحي وبقية أولاده ، ومات يحي والفضل فى السجن ، وظل به الباقون حتى عفا عنهم الأمين . وهذه النكبة كانت ضربة موجهة إلى الأمة الفارسية ، كما أنها تبين لنا إلى أى حد كانت سلطة الخليفة سلطة استبدادية ، وتظهر كذلك جانب الغدر والجحود فى الرشيد .

العلاقات الدولية فى عهد الرشيد :

كان للدولة العباسية فى عهد الرشيد علاقات دولية منها : علاقته بدولة بنى أمية فى الأندلس ، وبالدولة البيزنطية ، وبشارلمان ملك الفرنجة :

١ — *علاقة العباسيين بدولة بنى أمية فى الأندلس* ، لم تكن علاقة عدائية ، إلا أنها فى الوقت نفسه كانت خالية من المظاهر التى يصح أن تعد ودية .

٢ — وكانت هناك علاقة للدولة العباسية *بالدولة البيزنطية* . وقد بدأت تلك العلاقة منذ عهد الخليفة المهدى العباسى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) ، فقد غزا المهدى حدود آسيا الصغرى الشرقية . ولما ولى هارون الرشيد الخلافة ، سار بنفسه فى سنة ١٨١ هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى ، وحارب البيزنطيين ، وانتصر عليهم فى كثير من المعارك . وظل يتابع فتوحه حتى

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٠

وصل إلى القسطنطينية ، فسارعت إيرينى Irene إمبراطورة الدولة البيزنطية إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية . ولكن الإمبراطور نقفور الذى اعتلى العرش بعدها ، نقض فى سنة ١٨٧ هـ هذه الهدنة ، وطالب بالجزية التى دفعتها الإمبراطورة للرشيد .

غضب الخليفة من ذلك العمل ، ورد على طلب الأمبراطور بكتاب جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه » .

سار الرشيد بجيوشه عقب ذلك مخترقا آسيا الصغرى ، وتابع فتوحه حتى استولى على هرقلة ، واضطر نقفور إلى إبرام صلح تعهد فيه بدفع الجزية من جديد(١) . على أن البيزنطيين نقضوا هذه الهدنة كما نقضوا سابقتها ، وأغاروا فى السنة التالية على حدود الدولة العباسية وهزموا المسلمين جنوبى آسيا الصغرى ، منتهزين فرصة التفات الخليفة إلى القضاء على الفتن الداخلية فى البلاد . ولكن الرشيد مالبث أن استولى على المدن الكبرى فى الدولة البيزنطية ، وأسر من الروم عشرة الآف ، وأخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية(٢) . واتسع نطاق الحروب بين الرشيد والبيزنطيين حتى تعدت آسيا الصغرى إلى البحر الأبيض المتوسط ، فقد غزا العباسيون جزيرة قبرص ، وأسروا ستة عشر ألف نفس ، من بينهم أسقف هذه الجزيرة نفسه(٣) .

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٩٢ .

(٢) Muir : The Caliphate, p. 488.

(٣) الطبرى جـ ١٠ ص ٩٩ — ٢١٣

٣ — وقامت أيضاً علاقات ودية للرشيد بشارلمان Charlemagne ملك الفرنجة ، ويظهر أن التحسن فى العلاقات بين العاهلين ، كان مصدره عداوتهما للأمويين فى الأندلس والبيزنطيين ، وبلغ من تحسن العلاقات بينهما أنهما تبادلا السفراء والهدايا . وتودد هارون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان سعياً وراء مصلحة بلاده ، كما أن شارلمان من ناحيته خطب وُد الرشيد وسعى إلى محالفته فأرسل إليه بعثة مؤلفة من رجلين من المسيحيين ورجل من اليهود رغبة فى تسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس وإنماء التجارة بين البلدين والحصول على علوم المشرق.

أدت هذه السفارات بين الرشيد وشارلمان إلى إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى امبراطور الفرنجة . وأصبح شارلمان بعد ذلك حامى المسيحيين الذين يحجون إلى هذه البلاد ، وأكسب ذلك إمبراطور الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة فى فلسطين ، مما أدى إلى نتائج خطيرة فى المستقبل ، مع أن شارلمان لم ينظر فى ذلك الوقت بعين الاعتبار إلى مسألة إرسال مفاتيح تلك الكنيسة إليه . كذلك أدت هذه السفارات إلى تبادل الهدايا بين الطرفين ، وكان من ضمن ما أرسله الرشيد إلى شارلمان وأثار الإعجاب فى امبراطورية الفرنجة ، ذلك الفيل الذى وصل إلى مدينة إكس لاشابل قاعدة إمبراطورية شارلمان وكان يسمى أبا العباس ، وتلك الساعة المائية الدقاقة التى ظن أهل الإمبراطورية أنها آلة سحرية ، وقد أفاضت مصادر الأفرنج فى وصف هاتين الهديتين .

تقدير الرشيد :

رغم شهرة الرشيد وما نعمت به الدولة فى عهده من الهدوء والاستقرار ، أخذ عليه : عدم اهتمامه بما ظهر من ميل بعض الولايات إلى الاستقلال عن الخلافة ، وعقده ولاية العهد من بعده لأولاده الثلاثة ، واتصافه بالغدر والقسوة :

في عهد الرشيد بدأت *ظاهرة التجزؤ*، وهى محاولة بعض الولايات الخاضعة للدولة العباسية الاستقلال بالسلطة والنفوذ عن بغداد: فإفريقية، ويقصد بها إذ ذاك تونس وجزء من طرابلس، استقل بهما ابراهيم بن الأغلب وأسس دولة الأغالبة وتعهد بأن يدفع إلى الرشيد سنويا أربعين ألف دينار، وبذلك خرج المغرب شيئاً فشيئاً عن حكم الخلفاء العباسيين. وانتهز الخوارج في خراسان فرصة قيام بعض الولايات الخاضعة للعباسيين بالثورة والاستقلال وقاموا ضد الدولة، ولكن قضى على تلك الفتنة على يد طاهر ابن الحسين قائد علىّ بن عيسى بن ماهان الوالى على خراسان. وظهرت بعد ذلك فتنة خطيرة فى خراسان، قام بها رافع بن الليث، وعجز عن قمعها الوالى علىّ بن عيسى والقائد هرثمة بن أعين، واستفحل أمر الفتنة حتى خرج الرشيد بنفسه سنة ١٩٣ هـ ميمما شطر خراسان، واستمر فى سيره حتى بلدة طوس. وهذه الفتن المتعاقبة فى المشرق والمغرب، توضح أن بلاد الخلافة لم تكن كلها خاضعة خضوعا تاما للخليفة. وتنحصر مسئولية الرشيد فى أنه لم يقض بحزم وعزم على تلك الظاهرة الخطيرة، ظاهرة الاستقلال فى بعض الدويلات عن الخلافة.

وعقد الرشيد الخلافة من بعده لأولاده الثلاثة، وذلك سنة ١٨٦ هـ. فقد كان للرشيد أربعة أولاد ذكور: محمد الملقب بالأمين، وعبد الله الملقب بالمأمون، والقاسم الملقب بالمؤتمن، ثم المعتصم. وعهد الرشيد إلى الثلاثة الأول بولاية العهد من بعده، الواحد بعد الآخر: أولا الأمين، وثانياً المأمون، وثالثاً المؤتمن إذا قبل المأمون أن يوليه من بعده. وهذا الترتيب فى ولاية العهد تصرف غير طبيعى، لأن ترتيب الرشيد الخلافة لأولاده من بعده على هذا النظام لا يكفى لإقراره والسير بمقتضاه تنظيم الخليفة له، بل لابد لنفاده من رضاء الإخوة وموافقة الأمة. وخرج الرشيد سنة ١٨٦ هـ حاجا

ومعه أولاده إلى مكة ، وهناك أعلن البيعة لأبنائه على الحجاج فى ثلاث وثائق رسمية(١) هى عهد مأخوذ على الأمة كلها بأن تكون عند ما اشترط الرشيد لأولاده . ولم يكتف بذلك ، بل قسّم الدولة إلى ثلاثة أقسام : القسم الشرق وهو خراسان يعهد به إلى المأمون ويعتبر والياً لأخيه الأمين ، ويعهد بإقليم الجزيرة والعواصم إلى المؤتمن ، وتصبح سلطة الأمين مطلقة على ما يلى ذلك من الأقاليم كالعراق والشام وغيرهما . ولما حصل ذلك التقسيم وأعلن على الناس توقعوا من وراء ذلك شراً ، ورأوا أن الخليفة لم يكن بعيد النظر فى إجراء هذا الترتيب .

وتجلت فى الرشيد صفة الغدر التى دفعت به إلى الفتك بالبرامكة ، وصفة القسوة حتى أنه قتل أخا رافع بن الليث الذى قام بالفتنة فى خراسان قتلة شنيعة بأن أمر بتجزىء جسمه أجزاء وهو حى .

* * *

على أن تلك الصفات التى اتصف بها الرشيد وكان لها أثرها على بعض أعماله ، لا تمنع من وصفه بأنه كان حاكماً نشيطاً شجاعاً إذا أحس بالخطر كما يتجلى فى نكبة البرامكة وقضائه على البيزنطيين ، وأنه كان حاكماً محباً للآداب والفنون ، أجزل العطاء للعلماء والشعراء مما أطلق ألسنتهم بمدحه والثناء عليه والتغنى بجميل خصاله وجليل أعماله . وكان حبه للغزو ونجاحه ضد البيزنطيين وجوده وكرمه وإقباله على العلم وتشجيعه العلماء مصدر ذيوع شهرته .

وتوفى الرشيد فى طوس بعد مرض انتابه ثلاثة أيام ، أثناء خروجه إلى خراسان لقتال رافع بن الليث ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، ودفن بها ولم تنقل جثته إلى بغداد .

---

(١) تجد نصوص هذه البيعة فى الطبرى جـ ٩ ص ٧٦ — ٧٧ .

٦ — الأمين

١٩٣ - ١٩٨ هـ = ٨٠٨ - ٨١٣م

ولى الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد ، ولم يعمر فى الخلافة طويلا ، لأن الرشيد كان قد عزم على تولية ابنه المأمون من بعده ، باعتباره أكبر أولاده سنا ، إلا أنه عاد فعدل عن ذلك وبايع ابنه الأمين ، بسبب تدخل أمه زبيدة فى الأمر[1] . ولما آلت الخلافة إلى الأمين ، عوّل على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع وحثه على تولية ابنه موسى العهد من بعده ، فولاه وسماه « الناطق بالحق » . ومن ذلك الحين بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون ، وسببها فى الواقع نكث الأمين العهد والميثاق الذى أخذه على نفسه فى حياة أبيه ، مما أغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالى الأمصار الإسلامية ، وتطورت الفتنة حتى أصبحت نزاعا بين الفرس أنصار المأمون والعرب أنصار الأمين .

الفتنة بين الأمين والمأمون :

ظل الأمين خليفة بالاسم دون الفعل مدة خمس سنوات ، لأن سلطته لم تكن تامة على جميع أقاليم الدولة الإسلامية . ووقع منذ اعتلائه العرش ، الخلاف بينه وبين أخيه المأمون ، ووجدت الدولة نفسها أمام فتنة داخلية ، صدّعت وحدة الخلافة ، وكشفت عن دور من أدوار النزاع بين العرب والفرس . وفيما سبق هذه الفتنة وما لحقها ، بذلت جهود جبارة من ناحية العنصر الفارسى فى سبيل استرداد نفوذ الفرس ، الذى كاد أن يتلاشى وينمحى ، وكافح العنصر العربى فى الوقت نفسه فى سبيل الاحتفاظ بالمكانة

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٥٣ .

التى كانت له وعدم إتاحة الفرصة لعودة النفوذ والسلطان للفرس .

كان الأمين شابا مولعاً بالصيد والموسيقى والشراب ، ووقف إلى جانبه فى نزاعه مع الفرس وزيره الفضل بن الربيع(١) وأشهر قواده على بن عيسى ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة ، ولم يكن لهؤلاء ذكر فى التاريخ . أما المأمون ، فقد شغف بالعلم وتعمق فى الفلسفة ، واعتبر فى عداد أساطين علماء العصر أكثر من وضعه فى صفوف الدهاة السياسيين . ووقف إلى جانبه وزيره الفضل بن سهل السرخسى(٢)، وأطلق عليه لقب ذى الرياستين(٣) ، وعرف بالدهاء والكفاية فيما يتولاه من الأعمال . ومن قواد المأمون هرثمة ابن أعين وطاهر بن الحسين(٤) وهما فارسيا الأصل .

بدأ النزاع بين الأخوين ، حين حاول الأمين خلع المأمون عن الخلافة ، فقد أمر بأن يدعى لموسى بن الأمين كى يلى الخلافة قبل المأمون والمؤتمن . ولما بلغ ذلك المأمون قطع صلته بأخيه . فبعث الأمين رسلا تطلب إلى المأمون الرجوع إلى بغداد وأن يقدم موسى بن الأمين على نفسه فى الخلافة ، ولكن المأمون رفض العودة إلى بغداد أو تقديم موسى على نفسه . فبايع الأمين لولده موسى فى صفر سنة ١٩٥ هـ ولقبه « الناطق بالحق » ، ونهى عن ذكر المأمون والمؤتمن على المنابر ، وأحضر الوثائق الرسمية التى كتبها الرشيد وأودعها الكعبة بترتيب ولاية العهد من بعده ومزقها .

ولما تحرجت الأمور بين الأمين والمأمون على هذا النحو ، عهد المأمون إلى قائديه: هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين بالدفاع عن خراسان، وتدفقت

(١) كان الفضل ممن دبر لدى الرشيد نكبة البرامكة .

(٢) نسبة إلى بلدة سرخس . وهى « مدينة قديمة من نواحى خراسان بين نيسابور ومرو، سميت باسم رجل من الدعار فى زمن كيكاوس ، سكن هذا الموضع وعمره ثم تم عمارته ذو القرنين الإسكندر ، وقالت الفرس إن كيكاوس أقطع سرخس أرضا فبنى بها مدينة سماها باسمه وهى سرخس » . ياقوت معجم البلدان .

(٣) رياسة القلم ورياسة السيف .

(٤) لقب طاهر باسم « ذى اليمنتين » لأنه كان يعمل بكلتا يديه .

جموع الخراسانيين للعمل تحت إمرتهما ، وعهد الأمين إلى قائده على بن عيسى(١) فى غزو خراسان . ودارت الحرب بين على بن عيسى قائد الأمين وطاهر بن الحسين قائد المأمون ، فانتصر جيش المأمون فى واقعة الرى وهزم جيش الأمين وقتل على بن عيسى ، وبعث طاهر إلى المأمون كتاباً قال فيه: «كتابى إلى أمير المؤمنين ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى أصبعى ، وجنده مصرفون تحت أمرى والسلام». وهزمت جيوش الأمين التى كان قد وجهها إلى خراسان وأخذت البيعة للمأمون فى ذلك الإقليم . واستولى طاهر على الأقاليم الخاضعة للأمين إقليما بعد إقليم : فاستولى على إقليم الجبال جنوب بحر قزوين ، ثم سار إلى الأهواز فواسط والمدائن ، حتى أصبح على مقربة من بغداد ، وأقيمت الخطبة للمأمون على منابر الحجاز فى مكة والمدينة . وعقب ذلك بدأت استعدادات المأمون لحصار بغداد .

حصار بغداد :

حاصر هرثمة بن أعين الجانب الشرقى من بغداد وطاهر بن الحسين الجانب الغربى منها ، وظل الحصار على الجانبين إثنى عشر شهراً ، مما ألحق ببغداد أذى يجل عن الوصف . ودافع العامة عن الأمين ، وارتكب أثناء هذا الدفاع كثيرا من أعمال النهب والسلب واستخدمت المجانيق وآلات الحصار المختلفة ، حتى هدمت أسوار بغداد ، وخربت المبانى واستعرت النيران فى كل مكان ، وعزت الأقوات وانتشرت المجاعات . وسرعان ما نفدت أموال الأمين . واضطر لبيع كل مافى خزائنه من الأمتعة وضرب مافى قصوره من آنية الذهب دنانير ودراهم لينفق منها على الجند ، ثم استولى طاهر بن الحسين على بعض أحياء مدينة بغداد وعلى أسواق الكرخ وقصر الخلد(٢) .

---

(١) كان على بن عيسى مبغضاً لدى أهل خراسان ، منذ كان واليا عليهم .
(٢) الطبرى ج ١٠ ص ١٧٤ — ١٧٦ .

ورغم ذلك لم يقدر الأمين الظروف السيئة التى أحاطت به وبدولته ، فقد استمر فى عبثه ولهوه ، واعتمد على قواده ، فى الوقت الذى صمم فيه طاهر قائد المأمون على فتح بغداد ، وأمر جنده بحسن معاملة الأهلين ، مما كان له أثر يذكر فى تحول كثير من رعايا الأمين إلى جانب قائد المأمون(١) . واشتد البلاء بأهل بغداد وساءت حالهم ، حتى خرج منهم كل من استطاع الخروج وأصبحت قاعدة العباسيين فى حالة يرثى لها ، إذ قوّضت الفتنة كثيراً من معالمها بعد أن كانت كعبة العلوم والآداب ومركز التجارة وحاضرة الإسلام . ويقول الشاعر :

بكيت دما على بغداد لما فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من سرور ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق
فلا ولد يقيم على أبيه وقد هرب الصديق بلا صديق(٢)

وبذلك غدا مركز الأمين حرجا ، حتى فكر فى الهرب إلى الجزيرة والشام . ولكن قواده اختلفوا فيما بينهم ، فى النتائج التى تترتب على تنفيذ الأمين لما اعتزمه . ودخل عليه بعض من يثق فى صدق مشورتهم وقالوا له : لقد بلغنا الذى عزمت عليه ، فنحن نذكرك الله فى نفسك ، إن هؤلاء صعاليك ، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار ، وضاق عليهم المذهب ، وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم . وأموالهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة ، لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها ، ولسنا نأمن إذا برزوا بك وحصلت فى أيديهم ، أن يأخذوك أسيراً ، ويأخذوا رأسك ، فيتقربوا

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٥٦ .
(٢) الطبرى ج ١٠ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

بك ويجعلوك سبب أمانهم(١) .

وأخيراً نصحه خلصاؤه أن يستسلم لأخيه المأمون ويتنزل له عن الخلافة .
فقبل أن يسلم الأمين لطاهر : الخاتم والقضيب والبردة وهى مخلفات الرسول عليه السلام واعتبرت فى الدولة العباسية شارات الخلافة على أن يبعث بها طاهر للمأمون ، ويسلم الأمين نفسه إلى هرثمة . ولكن طاهرا خشى ألا يكون الأمين جادا فى تنفيذ ما اعتزمه ، فقرر الاستيلاء على بغداد . لذلك فإنه حين نزل الأمين فى زورق مع هرثمة ، هاجمه أصحاب طاهر وحاولوا إغراقه ، ولكنه عبر النهر سباحة إلى الجانب الشرقى ، حيث قتل ، وأرسلت رأسه إلى المأمون(١) الذى حزن لقتل أخيه ، ولم يكن يرغب فى تطور الحوادث إلى هذا الحد ، وبعث طاهر بن الحسين إلى الأمصار الإسلامية بكتاب قال فيه :

« أما بعد ، فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة ، وقد فرق الله بينه وبينه فى الولاية والحرمة ، بمفارقته عصم الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين . يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ ابن نوح (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) فلا طاعة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة فى جنب الله . وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد قتل المخلوع ورداه رداء نكسة وأحصد لأمير المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، وما ينتظر من صادق وعده حين رد به الألفة بعد فرقتها . وجمع الأمة بعد شتاتها ، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها » (٢).

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٢١٤ — ٢١٥

تقدير الأمين :

انتهت بمقتل الأمين الفتنة بين العرب والعجم . وكان كل من الرشيد والأمين ، مسئولا عن تلك النكبة التى حلت بالخلافة العباسية ،وعن ظهور هذه الفتنة الجامحة التى قضت على الأمين :

فالرشيد أعطى الأمين الخلافة وهو أصغر سنا من أخيه المأمون ، وعهد إلى المأمون بولاية خراسان فاستطاع أن يستقل بها ويناوئ منها الأمين ويتغلب عليه ، كما أن الرشيد جعل ولاية العهد فى أبنائه الثلاثة مما أدى إلى قيام النزاع بينهم .

وأخطأ الأمين بتولية على بن عيسى الحرب فى خراسان ضد المأمون مع ما عرف عن هذا القائد من القسوة التى نفرت منه أهالى هذا الاقليم ، كما انصرف الأمين عن أمور الخلافة إلى اللهو والغناء وعيشة البذخ والترف مما أدى إلى سخط الناس ، ويؤخذ على سياسة الأمين رغبته فى حرمان أخيه المأمون من الخلافة ونكثه العهد الذى تركه أبوه الرشيد . وقد سبقه إلى ذلك المنصور حين حرم ولى عهده عيسى بن موسى من الخلافة بعده وجعلها فى ابنه المهدى ، وفعل ذلك المهدى وجعل الخلافة للهادى ، وجعل الهادى الخلافة لابنه جعفر بقصد حرمان هارون الرشيد .

وبمقتل الأمين ، انطلقت ألسنة الشعراء بذكره ، وكانت الطريقة التى قتل بها هى سبب رثائه ، إذ لم يكن شخصه إذ ذاك محل عطف أو موضع تقدير .

زبيدة أم الأمين :

حزنت السيدة زبيدة زوجة الرشيد على ابنها الأمين (١) ، وكان لها أكبر الأثر فى توليته الخلافة قبل أخيه الأكبر المأمون ، وبعثت إلى الخليفة المأمون بقصيدة ترثى فيها ابنها ، دلت بها على تضلعها فى الأدب والشعر والسياسة وكشفت فيها عن هلعها على انتهاء حياة ابنها الأمين على هذا النحو (٢) . وهاك بعض أبيات منها : —

لخير إمام قام من غير عنصر	وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم	وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعينى تستهل دموعها	إليك ابن عمى مع جفونى ومحجرى
أصبت بأدنى الناس منك قرابة	ومن زال عن كبدى فقل تصبرى
أتى طاهر لا طهر الله طاهرا	وما طاهر فى فعله بمطهر
فأبرزنى مكشوفة الوجه حاسرا	وأنهب أموالى وأضرب أدؤرى
يعز على هارون ماقد لقيته	وما نالنى من ناقص الحق أعور
فإن ما أسدى لأمر أمرته	صبرت لأمر من قدير مقدر (٣)

(١) انتابت السيدة زبيدة العلل ، نتيجة هذا الحزن البالغ ، وقد أكرمها المأمون بعد وفاة الأمين وأسكنها قصر الخلافة محاطة بمظاهر الفخامة والأبهة ، حتى توفيت فى بغداد فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ .

(٢) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٨٤ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٦ .

٧ — المأمون

١٩٧ — ٢١٨ هـ = ٨١٣ — ٨٣٣ م

عصر المأمون من العصور الإسلامية الزاهرة ، ولم يكن المأمون شخصية سياسية بقدر ماهو شخصية أدبية : فقد شجع النهضة العلمية وحرية الفكر ، ودفع حركة النقل والترجمة إلى الأمام ، ولكنه كسياسى أصبح تحت سيطرة الفرس الذين نصروه فى نزاعه مع أخيه الأمين ، كما أن المأمون بعد وصوله إلى الخلافة لم ينتقل إلى أقاليم الدولة العباسية الغربية فى الشام والعراق بل ظل فى مرو عاصمة خراسان ، ملتفتا إلى المسائل الفلسفية والعلمية دون الأمور السياسية والإدارية التى عهد بها إلى وزيره الفضل بن سهل ذى الرياستين ، وهذا أناب عنه فى العراق والشام أخاه الحسن بن سهل ، وهذان أدارا شئون الدولة حسب نزعتهما الفارسية ، مما شجع العلويين على الظهور مرة ثانية والمناداة بأحقيتهم فى الخلافة . كما أن المأمون حاول نقل الخلافة إلى العلويين ، فدل فى هذه المسألة على أنه سياسى قصير النظر ، ولم يقدر العواقب الخطيرة التى تترتب على تنفيذ ما اعتزمه ، ولكنه عاد فعدل عن رأيه فى إقامة خلافة علوية تقوم مقام الخلافة العباسية ، مما أدى إلى استمرار النزاع بين العلويين والعباسيين ، ووقوع الدولة العباسية بين براثن العرب الساخطين على الدولة والعلويين الذين كانوا ينتهزون كل فرصة لإثارة الفتن كى يصلوا إلى الخلافة . كذلك كانت حروب المأمون مع الدولة البيزنطية لا تخرج عن كونها غازات لم تؤد إلى نتيجة حاسمة . ولا تعرف للمأمون إصلاحات مبتكرة .

سياسته إزاء العلويين

ظهرت فى العراق فى سنة ١٩٩ هـ فتنة ضد العباسيين ، قام بها العلويون ، بقيادة القائد العربى أبى السرايا السرى بن منصور الشيبانى ، كى يصلوا إلى الخلافة ، وسيرت العراق الجيوش لمساعدته ، وتمكنت هى وجيش أبى السرايا من هزيمة جيش العباسيين ، حتى تمكن أبوالسرايا من تولية الولاة من قِبَله على مكة والمدينة وسائر بلاد العرب ثم احتل الكوفة وسير جيوشه إلى البصرة وواسط ، وأقام فى العراق حكومة علوية ، إلا أن الحسن بن سهل أمير العراق استقدم من خراسان هرثمة بن أعين أكبر قواد الدولة فى ذلك الوقت ، فقاتل أبا السرايا وهزمه هزيمة ساحقة . وانتهى الأمر بفراره وقتله سنة ٢٠٠ هـ . وقضى بذلك على العلويين ، وعاد النفوذ والسلطان للعباسيين .

ولكن العلويين لم يفقدوا الأمل فى إقامة خلافة علوية ، فإن نفوذ الفضل بن سهل كان قد وصل إلى الذروة عند المأمون وهو فارسى شيعى عمل على تحقيق ماتصبو إليه الشيعة منذ نشأتها ، وهو تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين . ومن الغريب أن المأمون هو الذى أتم هذا التحول ، بأن أمر فى سنة ٢٠٠ هـ بأن يحصى بنو العباس جميعاً كى يتبين أجدرهم بالخلافة من بعده ، فيسندإليه ولاية العهد ، فلم يجد هذا الشخص ، فأعلن فى سنة ٢٠١هـ انه تمثل فى العلويين فى شخص على الرضا ، الإمام الثامن من أئمة الشيعة الإثنى عشرية ، ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب .

كان على الرضا واسع العلم والمعرفة ، صحيح الفكر ، متزن العقل . قيل لأبى نواس : علام تركتَ مدح ابن موسى والخصال التى تجمعن فيه ؟

فقال : لا أستطيع مدحَ إمام كان جبريل خادماً لأبيه ، والله ماتركت ذلك إلا إعظاماً له ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله :

قيل لى أنت أحسن الناس طرا فى فنون من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديح يثمر الدر فى يدى مجتنيه
فعلا ما تركت مدح ابن موسى والخصال التى تجمعن فيه
قلت لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه

ثم أنشد :

مطهرونَ نقيات جيوبهم يجرى عليهم ثناء أينما ذكروا
من لم يكن علويا حين تنسبه فما له فى قديم الدهر مفتخر
الله لما برا خلقا فأتقنه صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملأ الأعلى وعندكم علم الكتاب وما جاءت به السور[١]

وقصد المأمون من إسناد ولاية العهد لعلى الرضا ، إنصاف العلويين عما حاق بهم من ظلم واضطهاد منذ مقتل الحسين بن على بن أبى طالب ، وقيل إن الخليفة «هم» بخلع نفسه ، وبأن يفوض الأمر إليه . . . وضرب الدراهم باسمه ، وخطب له مع الخليفة على المنابر ، وزوجه ابنته ». ولما نبهه الحسن بن سهل إلى سوء العاقبة فى حالة تولية على الرضا ولاية العهد ، قال المامون : « عاهدت الله إن ظفرت بالمخلوع ، أخرجتُ من الخلافة إلى أفضل آل أبى طالب ، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض». وفى جمع حاشد من أعيان الدولة وأمرائها ، أعلن المأمون بيعة الرضا وتلقب « الرضا من آل محمد » .

وقد صدق حدس الحسن بن سهل ، فإن المأمون ما لبث أن توجس

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

خيفة من تولية على الرضا عهده ، حتى «أن الخليفة المأمون وجد فى يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنده ثقلا عن الخروج إلى الصلاة بالناس . فانتدب أبا الحسن عليا الرضا للصلاة بالناس ، فخرج وعليه قميص أبيض وعمامة بيضاء وهى من قطن وفى يده قضيب . فأقبل ماشيا يؤم المصلى وهو يقول : السلام على أبوى آدم ونوح ، السلام على أبوى إسماعيل وإبراهيم ، السلام على أبوى محمد وعلى ، السلام على عباد الله الصالحين . فلما رآه الناس هرعوا إليه وانثالوا عليه لتقبيل يده . فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال : يا أمير المؤمنين تدارك الناس وأخرج وصل بهم ، وإلا خرجت الخلافة منك الآن . فحمله هذا الأمر على الخروج بنفسه ، وجاء مسرعا والرضا لم يخلص إلى المصلى ، لكثرة ازدحام الناس عليه ، فتقدم المأمون وصلى بالناس » .

ولكن المأمون عدل نهائياً عن فكرة تحويل الخلافة إلى العلويين بعد أن ثار عليه أهل بغداد وبايعوا ابراهيم ابن الخليفة المهدى بولاية العهد ، وما لبث المأمون أن صمم على الرحيل إلى بغداد .

قبل رحيل المأمون إلى بغداد ، قضى على قائده هرثمة بن أعين . وتفصيل ذلك أن هرثمة رأى أن يطلع المأمون على حقيقة أحوال البلاد واستبداد الفضل وأخيه الحسن بن سهل ، ولذا رأى الحسن أن يوغر صدر المأمون على هرثمة ، بالقول بأنه يتشيع للعلويين وأنه لهذا لم يقض على كل أتباع أبى السرايا زعيم العلويين فى ثورتهم ضد الخلافة العباسية رغم تمكنه من ذلك ، واستمع الخليفة لهذه الوشايات فأمر بحبسه ثم قتل . وبذلك يكون المأمون قد فتك برجل خدم الدولة العباسية أجل الخدمات ، كما ظل نفوذ الفضل بن سهل وأخيه الحسن على ما كان عليه ، وزاد الحالة شدة . أن البلاد كانت إذ ذاك تغلى كالمرجل نتيجة محاولة المأمون نقل الخلافة العباسية للعلويين ، وجاء

مقتل هرثمة على هذا النحو، دافعا لتحفز أتباعه ، وأصبحت بغداد مسرحا للفوضى مرة أخرى ، وانتهز العامة تلك الفرصة وقاموا بنهب الأموال والفتك بالسكان .

المأمون فى بغداد :

سار المأمون فى سنة ٢٠٢ ﻫ من مرو حاضرة خراسان قاصد العراق ، ولو أن المأمون انتقل إلى بغداد بعد اعتلائه العرش . لتفادى ماجره بقاؤه فى خراسان من نكبات حلت بالخلافة . وقبل رحيله عين غسان واليا على خراسان .

اعتزم المأمون القضاء على من أقلقوا خلافته بالتخلص من الفضل بن سهل وعلى الرضا : أما الفضل فقد قتل فى الحمام فى مدينة سرخس على يد أربعة رجال . وتوفى على الرضا فى مدينة طوس سنة ٢٠٣ ﻫ وصلى المأمون عليه ، وأثارت وفاته هواجس الناس . وقيل إنها لم تكن طبيعية لأنها جاءت فى وقت كان فيه العباسيون ثائرين فى العراق على المأمون لمحاولته نقل الخلافة إلى العلويين . وردد الناس القول بأن المأمون قد دس له السم عند تناوله بعض العنب ، وكتب المأمون إلى الحسن بن سهل وإلى العباسيين فى العراق يعلمهم وفاة على الرضا ويدعوهم للرجوع إلى طاعته .

وزاد من طمأنينة المأمون عندما اقترب من بغداد ، اختفاء ابراهيم ابن الخليفة المهدى ، لأن أهل بغداد كانوا قد بايعوه بالخلافة بدلا من المأمون عند ما حول ولاية العهد إلى على الرضا العلوى ، وظل ابراهيم مختفيا ثمانى سنوات ثم شفع فيه لدى المأمون وعاد إلى الظهور . وكذلك اختفت شخصية من الشخصيات التى أوقدت نيران الفتن ضد المأمون . وهى شخصية

الفضل بن الربيع ، وظل مختفيا مدة ثم صفح عنه المأمون ، ولكنه لم يظهر له الرضاء عنه ولم يعمر طويلا ثم مات .

وهكذا خدم الحظ الخليفة المأمون ، لأنه قبيل دخوله بغداد ، كان الفضل بن سهل وعلى الرضا قد توفيا ، واختفى أيضا ابراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع . وكلهم من الشخصيات التى سببت الثورة والفتنة فى العراق وأقلقت خلافة المأمون .

دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ ، وبمجرد وصوله إليها عمل على إرجاع الحال إلى ما كان عليه : فبدأ إقرار الخلافة للعباسيين ومنعها عن العلويين ، وزاد على ذلك أن أمر بلبس الملابس السوداء شعار العباسيين. وتقدم المأمون إلى الأمام خطوة أخرى ظنها تؤدى إلى إعادة سلطانه على الدولة ، إذ أمر سنة ٢٠٥ هـ بتولية طاهر بن الحسين على خراسان ، وكان الفضل بن سهل قد استبد بأهالى هذا الاقليم . وأضعف شأن المأمون حتى أصبح إشراف الخليفة على هذا الإقليم إسمياً وثار الأهالى على خلافة المأمون وإمارة الفضل. ولكن خاب ظن الخليفة فى الوالى الجديد ، فإنه فعل ما لم يفعله الفضل فى عنفوان سطوته ، إذ أنه لم يجعل نفوذ الخليفة إسمياً فحسب كما كانت الحال أيام ولاية الفضل ، بل إنه عمد إلى حذف اسم المأمون من على المنابر فى خراسان . وتفصيل ذلك أن كلثوم بن ثابت صاحب البريد العباسى (١) فى خراسان ، لاحظ أنه حين حضرت صلاة الجمعة صعد المنبر وقطع إسم الخليفة المأمون(٢)، فأبلغ كلثوم ما حدث للخليفة ، ولكن طاهرا توفى سنة ٢٠٧ هـ بالحمى ، قبل أن يصل أمر الخليفة بتدبير قتله ، ومن ذلك يتضح أهمية

---

(١) مهمة صاحب البريد : التجسس على كبار الموظفين وإنهاء أحوالهم إلى الخليفة .

(٢) عدم ذكر اسم الخليفة فى خطبة الجمعة معناه : استقلال الوالى بإقليمه وخروجه على الخليفة .

صاحب البريد فى إقليمه، وولى على خراسان من بعده طلحة بن طاهر بن الحسين.

وبذلك تأسست فى خراسان دولة وراثية، عرفت باسم «الدولة الطاهرية»، وابتدأت عملية تجزئ الدولة العباسية فى الظهور فى المشرق، كما ظهرت من قبل فى المغرب، وتسبب عن ذلك استحالة الدولة العباسية إلى دويلات عديدة لا تتبع بغداد إلا فى الإسم، إذ أن كلا من أمراء هذه الدويلات تشبه بالخلفاء، وتقلص بذلك نفوذ الخليفة العباسى على الولايات التابعة للدولة وضعفت السلطة المركزية.

ثورات العرب ضد المأمون:

كثيراً ما ثار العرب ضد العباسيين لإهدارهم حقوقهم وإيثار الفرس عليهم. وقد ثاروا فى عهد المأمون بزعامة نصر بن شبث العقيلى، من زعماء العرب، من بنى عقيل الذين أقاموا شمال حلب، وكان للخليفة الأمين العربى الأبوين بيعة فى عنقه. لذلك غضب أشد الغضب حين علم بمقتل الأمين، وقام بفتنة جامحة ضد المأمون الفارسى الأم. واستفحل أمره واشتد خطره وكثر أتباعه من العرب ومن العلويين الساخطين على العباسيين، وتغلب على ما جاوره من البلدان، ثم حاصر مدينة حران شمال الشام. ولكن حين رغب إليه بعض العلويين أن ينضم إليهم، رفض ذلك بشدة، وقال: إن هواى مع بنى العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب.

بذلك يمكن القول إن حركة نصر كانت ثورة من العرب ضد العجم، وليست خروجاً على الحكومة العباسية. على أن هذه الثورة انتهت بالفشل فإن عبد الله بن طاهر الذى ولاه المأمون بعد رحيله سنة ٢٠٤ هـ إلى بغداد على الجزيرة والشام ومصر، قاتل زعيم حركة العرب نصر بن شبث وهزمه وقبض عليه وأرسله إلى المأمون. وكان عبد الله من طراز أبيه طاهر بن الحسين فى المقدرة السياسية والمهارة الحربية، فقد استمع لنصائح أبيه

التى ضمنها كتابه إليه ، الذى أوضح فيه آداب السياسة وأساليب الإدارة .

والتفت عبدالله بن طاهر إلى فتن العرب فى مصر ، وكان أخطر ما واجهه من مشاكلهم ، مسألة مهاجرى الأندلس الذين كانوا قد ثاروا فى وجه الحكم ابن هشام الخليفة الأموى فى الأندلس فأمر بنفيهم من الأندلس فخرجوا منها آلافا إلى فاس بالمغرب الأقصى . ثم يمموا بعد ذلك شطر مصر وهاجموا الأسكندرية ودخلوها ، فتصدى لهم عبد الله بن طاهر والى مصر ليحملهم على الخروج ، فطلبوا إليه أن يمدهم بالمال والسلاح ويرحلوا إلى جزيرة كريت ، فأجابهم الوالى إلى طلبهم ، وساروا من الأسكندرية إلى تلك الجزيرة ، وغلبوها على أمرها ، وكان ذلك سنة ٢١٠ هـ . ويعد هذا التاريخ بدء دخول العرب والإسلام فى كريت .

ولكن الفتن عادت إلى مصر بعد رحيل عبد الله بن طاهر عنها عقب تعيينه والياً على خراسان ، فتقدم المعتصم بنفسه إلى مصر لإخماد ثوراتها ومعه أربعة آلاف جندى ، فقضى على الفتنة وقتل زعماءها ، وعاد إلى الشام، ولكن الفتنة لم يقض عليها نهائياً بخروج المعتصم ، بل عم السخط البلاد . ويلغ من خطورة الحالة فى مصر ، أن حضر المأمون إليها بنفسه سنة ٢١٧ هـ . وقد لبث فى مصر أكثر من شهر ، وعاد إلى بغداد ، بعد أن قضى نهائياً على هذه الفتنة ، وارتكب فى سبيل ذلك كثيراً من أعمال الاضطهاد والعسف ، ودفعه إلى ذلك إساءته الظن بكل العرب وتقريبه للفرس دون سواهم .

علاقة المأمون بالبيزنطيين :

فى عهد الأمين ، لم تقع حروب بين الدولتين العباسية والبيزنطية : لانشغاله بالفتن الداخلية . أما فى عهد المأمون ، فقد عادت المشادة بين الدولتين إلى أشد مما كانت عليه فى عهد الرشيد ، فقد لجأ كل من المأمون والإمبراطور البيزنطى تيوفلس Theophilus إلى الحيل السياسية ، بأن شجع

كل منهما الثائرين على خصمه : فإن المأمون شجع توماس الصقلبي الذى ثار فى آسيا الصغرى على الإمبراطور ، لا بالمال والرجال فحسب ، بل بالعمل على تتويجه إمبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها ، ولكن سرعان ما انكشف تدبيره ولم يتم له ما أراد . واتبع الإمبراطور هذه السياسة نفسها نحو الخليفة ، فجعل بلاد الروم موئلا للخرمية أتباع بابك الخرمى الفارسى الذى ثار سنة ٢٠١ هـ على المأمون واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية فى منطقة حران شمال الشام واستقل عن الدولة العباسية إثنتين وعشرين سنة (٢٠١-٢٢٣هـ) ، نشر خلالها مذهبه فى الإباحية(١) . إلا أن إمبراطور الروم سئم فى النهاية هذه المحاولات السياسية ، وعرض على المأمون الهدنة . فرفضها ، إذ طمع فى فتح القسطنطينية نفسها ، وخرج بنفسه لقتال الروم فى سنة ٢١٨ هـ ، ولكن وفاته حالت بينه وبين تنفيذ ما اعتزمه .

بوران زوجة المأمون :

بعد أن استقر الأمر للمأمون فى بغداد ، أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل ، وطلب الزواج من ابنته بوران ، فرحب الوزير بهذه المصاهرة . ولما زار المأمون وزيره الحسن بن سهل ليزف إلى ابنته بوران ، ركب من بغداد زورقا حتى وصل إلى باب الحسن ، وكان يصحبه ابنه العباس ، فتلقاه الحسن خارج عسكره فى موضع اتخذه على شاطىء دجلة ، وكان وصول المأمون وقت المغرب فى شهر رمضان سنة ٢١٠ هـ ، فأفطر هو والحسن والعباس . وفى الليلة الثالثة تزوج المأمون ، بوران ، وزفت إليه فى مدينة فم الصلح بالقرب من بغداد . فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، وجمع المأمون تلك الدرر فى الآنية ووضعها فى حجرها وقال : هذه غلتك ، فاسألى حوائجك ، فأمسكت فقالت لها جدتها :

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج٣ ص ١٨٩ .

كلى سيدك واسأليه حوائجك فقد أمرك ، فسألته الرضا عن ابراهيم بن المهدى فقال : قد فعلت ، وسألته الإذن لأم جعفر فى الحج فأذن لها ، وتزوجها فى نفس الليلة ، وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر ، فيها أربعون مناً .

وبذل الحسن بن سهل على زفاف ابنته للمأمون كثيرا من الأموال ، حتى لقد قدر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم ، وأسرف فى هذا الزواج ، ونثر من الأموال ما لم ينثره وما لم يفعله ملك فى جاهلية أو إسلام . ذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقية إذا وقعت فى يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، ونثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر . وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ، ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده وعلى المكارين والخدم والملاحين ، وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق عنده ، فلم يكن أحد من الناس يشترى شيئاً فى عسكر المأمون (١) .

النهضة العلمية فى عهد المأمون :

كان عصر المأمون من أزهى عصور العلم فى الدولة العباسية : لميل المأمون نفسه إلى تحصيل العلوم والمعارف ونشر المعرفة بين أفراد الأمة الإسلامية ، وقد تجلى ذلك فى إمداد « بيت الحكمة » فى بغداد الذى وضع أساسه الرشيد بالكتب فى مختلف العلوم والفنون ، مما جلبه من بلاد الهند والروم والفرس وغيرها ، حتى أصبح أشبه بجامعة علمية ، تحوى دارا للكتب ، يجتمع فيه العلماء للترجمة والتأليف والدرس ، وبه أماكن خاصة للناسخين لنسخ الكتب لأنفسهم ولغيرهم بأجور معينة ، وأشرف عليه موظف عرف باسم « صاحب

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣٠ .

بيت الحكمة ، كان الخلفاء يختارونه ممن اتصف بسعة العقل والأمانة العلمية (١) .

وكان المأمون مثقفاً ثقافة فارسية ، لأن أمه كانت فارسية ، وكان يميل إلى حرية الفكر والبحث ، مما دفعه إلى إيجاد « مجالس المناظرة » حتى يتمكن عن طريقها من إزالة الخلاف بين العلماء فيما يدلون به من آراء علمية . فقد روى عن القاضي يحيى بن أكثم أنه قال : « أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون ، فسأل عن مسائل،وأفاض فى فنون الحديث والعلم . فلما انفض المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد . . . إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا ـ بتوفيق الله وتأييده ـ سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين » .

كان المأمون يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء من كل أسبوع . يقول المسعودى : فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد ، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ومن خفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها ، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون ، قال : فإنه يوما لجالس إذ دخل عليه على بن صالح الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ويطلب الدخول للمناظرة ، فقلت : إنه بعض الصوفية ، فأردت بأن أشير أن لا يؤذن له ، فبدأ المأمون

(١) قضى هؤلاكو زعيم التتار على هذه المكتبة ، عند إغارته سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) على بغداد وتخريبها .

فقال : ائذن له ، فدخل عليه رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله فى يده ، فوقف على طرف البساط فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقال المأمون : وعليك السلام ، فقال : أتأذن فى الدنو منك ؟ قال : إدن ، فدنا ، ثم قال : اجلس ، فجلس ، ثم قال أتأذن فى كلامك ؟ فقال : تكلم بما تعلم أن لله فيه رضا ، قال : أخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت قد جلسته أباجتماع من المسلمين عليك ورضا منك أم بالمغالبة لهم بالقوة عليهم بسلطانك ؟ قال لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم ، إنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلى ، أحمده المسلمون إما على رضا وإما على كره ، فعقد لى ولآخر معى ولاية هذا الأمر بعده فى أعناق من حضره من المسلمين ، فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاج البعيد لى ولآخر معى ، فأعطوا ذلك إما طائعين وإما كارهين ، فمضى الذى عقد له معى على هذا السبيل التى مضى عليها ، فلما صار إلىّ علمت أنى احتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على الرضا ، ثم نظرت فرأيت أنى متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام وانتفضت أطرافه وغلب الهرج والفتنة ووقع التنازع ، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى ، ولم يحج أحد بيته ، ولم يجاهد فى سبيله ، ولم يكن له سلطان يجمعهم ويسوسهم ، وانقطعت السبل ، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ، ومجاهدا لعدوهم ، وضابطا لسبلهم ، وآخذا على أيديهم ، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم عليه على الرضا به ، فأسلم الأمر إليه وأكون كرجل من المسلمين ... » (١)

اشتغل الناس فى عهد المأمون بعلوم الدين والحديث ، وظهر المجتهدون الذين يحاولون تفسير ما هو محل الاختلاف ، واجتهد المأمون فى بحث مسألة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .

القرآن وخلقه ، وعقد لهذا الغرض مجالس للمناظرة ، يتناقش فيها فى حضرته العلماء من القضاة والمحدثين . وكثر الجدل والنقاش فى هذه المسألة ، بعد أن بعث المأمون فى سنة ٢١٨ هـ إلى إسحق بن إبراهيم بن مصعب كتاباً مطولا يقيم فيه الدليل على صحه الرأى الذى ذهب إليه المعتزلة فى القول بأن القرآن مخلوق ، أى أن كلام الله سبحانه وتعالى ليس قديما ، ويتوعد فى هذا الكتاب كل من يخالف القول بذلك من الموظفين بإقالته من وظيفته . ومما جاء فى هذا الكتاب : قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، ذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن على أنه قديم لم يخلقه ولم يخترعه . . . فأجمع من يحضرنك من القضاة واقرأ أغلبهم كتاب أمير المؤمنين وامتحنهم فيما يقولون واكشفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أنى غير مستعين فى عملى بمن لا يوثق بدينه »

وظهر فى عهد المأمون جماعة من كبار العلماء ، على رأسهم واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وابن الهزيل وابن سيار والجاحظ وغيرهم من رؤساء الاعتزال . وهؤلاء تعمقوا فى بحث مسألة خلق القرآن ليصلوا هل هو قديم أم حادث ، وليثبتوا أن ما وصل إليه المأمون من أن القرآن مخلوق هو الصحيح ، وتناولوا بالبحث صفات الله سبحانه وتعالى ووصلوا فيما وصلوا إليه إلى أن الله لا يرى جهرة يوم القيامة .

وتناقش العلماء فى تلك المجالس فى مسألة الخلافة ومن يستحقها شرعا بعد الرسول عليه السلام . وعمد العلماء إلى حض الناس على عدم ذكر معاوية بالخير ، وعلى تحبيذ القول بأن علياً هو خير الناس بعد النبى . ولم يصادف

المأمون شيئاً من النجاح فى بحث هذه المسائل وفيما وصل إليه من نتائج ، فقد عاب الناس عليه تدخله فى الأمور الدينية البحتة وتفضيله علىّ بن أبى طالب على سائر الخلفاء الراشدين واعترافه بأحقية العلويين فى الخلافة حتى جعل ولاية العهد لعلىّ الرضا ، مما أساء إلى العباسيين .

ويظهر أن المأمون كان يرمى من عقد هذه الاجتماعات أن يصل إلى الاتفاق على رأى واحد فى مسألة خلق القرآن وموضوع الخلافة ، حتى تتفق كلمة الأمة فى تلك الأمور ، التى كانت مصدر شقائها وبلائها . ولكن لم يكتب له التوفيق فيما رمى إليه(١) .

ونهض المأمون بالبلاد نهضة علمية جديرة بالتقدير والإعجاب ، فقد اهتم بحركة الترجمة من اللغات الأخرى وخاصة اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية . وقويت تلك الحركة بفضل تشجيعه للعلم وبما بذله من الأموال الضخمة فى هذا السبيل . وأرسل لذلك البعوث إلى القسطنطينية ، لنقل ما فيها من الكتب إلى العربية ، ورحل كثير من العلماء إلى بلاد الدولة البيزنطية ، ومن بينهم حنين بن إسحق ، فأحضروا الكتب الفريدة فى الهندسة والموسيقى والطب(٢) ، وبعث المأمون فى طلب كتاب أرسطاطاليس فى الفلسفة على وجه السرعة . وممن مهر من العلماء فى عصر المأمون فى الترجمة إلى العربية : بختيشوع ، والحجاج بن مطر ، وثابت بن قرة ، وذلك عدا حنين بن إسحق . ووجد بين العرب أنفسهم كثير من العلماء ألفوا كتباً هامة فى العلوم الفلسفية ، وعلى رأسهم الكندى صاحب كتاب الولاة والقضاة ، وحذا فى تأليفه حذو أرسطو ، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح ما فيها من النقط الغامضة .

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج٢ ص٢٥٧ .

(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

تقدير المأمون :

توفى المأمون سنة ٢١٨ هـ فى شمال مدينة طوس بالحمى ، وذلك أثناء رحيله لفتح القسطنطينية ، وهو فى الثامنة والأربعين من عمره ، بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال ، فقد كان أديباً ، عالما ، شجع العلم ، وقرّب الأدباء ، وأغدق عليهم الهبات حتى عد عصره من عصور الأدب الزاهرة فى الإسلام . كما اتصف بكثير من الصفات الحميدة ، فقد كان يكره الانتقام من أعدائه ، ويميل إلى العفو عند المقدرة فقد عفا عن إبراهيم بن المهدى الذى جلس على كرسى الخلافة نحوا من سنتين أقلق خلالهما خلافة المأمون .

وكان المأمون من الخلفاء الذين عرفوا بالكرم ، فقد أمر بمنح وزيره الحسن بن سهل والد زوجته السيدة بوران عشرة آلاف درهم وأطلق له خراج فارس وكور والأهواز مدة من الزمن . ولما أراد أن يصعد فى دجلة إلى مدينة السلام قال للحسن بن سهل : حوائجك يا أبا الحسن ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ علىّ مكانى من قلبك ، فإنه لا يتهيأ لى حفظه إلا بك . فقال فى ذلك الشعراء فأكثروا وأطنب الخطباء وتكلموا . ومما استظرف مما قيل فى ذلك من الشعر ، قول محمد بن حازم الباهلى :

بارك الله للحسن ولبوران فى الختن

يا إمام الهدى قد ظفرت ولكن ببنت من

فلما نمى هذا الشعر إلى المأمون ، قال: والله ماندرى خيراً أراد أم شراً[1].

وعرف عن المأمون أنه رغب فى أن تستمر الخلافة العباسية من بعده

---

(١) أحمد بن طاهر بن طيفور : كتاب تاريخ بغداد ص٢٠٦ — ٢١١ .

فى اتباع آرائه ومعتقداته التى نادى بها فى خلافته ، فقد أوصى خلفه إسحق ابن هارون الرشيد الذى تولى الخلافة وتلقب بالمعتصم ، بأن يطارد القائلين بعدم خلق القرآن ، وأن يحسن معاملة العلويين .

اتصف المأمون بالغفلة وعدم تقدير العواقب ، فقد لبث السنوات الأولى من حكمه فى خراسان ، وكان الأوفق أن يعجل بالخروج إلى بغداد ، ولـكن غلب عليه الفضل بن سهل ذو الرياستين واحتبسه فى خراسان وجعله شبه سجين بها تقضى الأمور دونه ولا يطلع إلا على مايسمح به الفضل ، حتى فسد أمر المغرب وقامت الفتن فى كل الأنحاء : فتنة نصر بن شبث ومن تبعه من الأعراب ، وفتنة العلويين أو الطالبيين بزعامه أبى السرايا وعجز الحسن ابن سهل أمير العراق عن مكافحتهم ، وما صحب الفتن العربية والعلوية من الشوائب . وأعجب من ذلك وأقطع فى الدلالة على إغفال المأمون أحوال البلاد ، أن هرثمة بن أعين حين عزم مخلصاً على أن يطلع المأمون على مجرى الأحوال ودرجة انتشار الفساد فى البلاد ، تمكن الفضل بن سهل والحسن ابن سهل من أن يكيدا له لدى المأمون حتى أمر بقتله . وهذا يبين لنا أنه رغم تقدير ما اتصف به هـذا الخليفة من الكرم والميل إلى العفو ومن الإقبال على العلم وتكريم العلماء ، فقد أخذ عليه استئثار بعض الشخصيات ممن عرف عنها الجور والعسف بالنفوذ والسلطان، وذلك أفسد على المأمون إدارة الدولة فى حزم وعزم ، يمكناه من القيام بأعمال الإصلاح التى كانت البلاد ترجو أن تتم فى عهده .

٨ — المعتصم

٢١٨ — ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٢ م

بويع المعتصم بن الرشيد يوم وفاة أخيه المأمون فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ وهو فى غزوته الأخيرة لبلاد الروم ، ورفض الجند أن يقدموا له الطاعة فى مبدأ الأمر وأرادوا تولية العباس بن المأمون ، ولكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لوصية أبيه فخذا الجيش حذوه بعد ذلك .

سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون ، فى حمل الناس على القول بخلق القرآن فقد أوصاه المأمون قبل وفاته بقوله : « يا أبا إسحاق (المعتصم) أدن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن[1] وزاد على ذلك أن ألحق الأذى بكل من يعترف بغير ذلك من العلماء وأهل الرأى ، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه[2] ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لأن يضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأى المعتزلة فى القول بخلق القرآن .

سياسته إزاء العلويين :

تابع المعتصم إزاء العلويين نفس سياسة الشدة ، التى اتبعها الخلفاء العباسيون قبله عدا المأمون . فقد تخلص المعتصم من محمد الجواد بن على

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٩٤ .

(٢) كان لتمسك ابن حنبل أحد كبار المحدثين برأيه فى القرآن وقوله إنه قديم وأنه غير مخلوق أكبر الأثر فى علو شأنه بين الناس واحترام العلماء والمحدثين له ، واضطر المعتصم بعد أن كان قد أمر بحبسه أن يفرج عنه ويسترضيه ترضية للرأى العام .

الرضا الذى كان المأمون قد زوّجه ابنته أم الفضل ، حتى لا تحدثه نفسه بالمطالبة بالخلافة على أساس : أن أولاده من سلالة المأمون ، وأن أباه عليا الرضا قد ولاه الخليفة المأمون العهد قبل وفاته وبذلك تؤول الخلافة إليه بعد وفاة أبيه[1] . كذلك خرج محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب على المعتصم ، وكان قد علم أن الخليفة يضمر له الشر ، ورحل عن الكوفة إلى خراسان ، حيث انضم إليه خلق كثير وحارب جيوش الخليفة فى عدة مواقع ، إلا أن عبد الله بن طاهر والى خراسان قبض عليه وأرسله إلى المعتصم فحبسه فى سامرا حتى مات ، ويزعم أتباعه أنه حى لم يمت وأنه المهدى المنتظر ، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم[2] .

اعتماده على الأتراك :

اعتمد المعتصم لأول مرة فى تاريخ العباسيين ، اعتماداً كلياً على الأتراك ، بعد أن كان اعتماد من سبقه من الخلفاء على الفرس ، ولا عجب فى ذلك إذ كانت أمه تركية : فأسقط العرب من ديوان العطاء ، وأهمل العنصر العربى والفارسى معاً ، وأسند إلى الأتراك مناصب الدولة ، وكان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك ، وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق فى بلاد ماوراء النهر . واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام ، سبباً للاعتماد عليهم : فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٨ .
(٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٠٥ . المسعودى : نفس المصدر والجزء ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

الولايات الكبيرة ، وخلع عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء[١] .

أخذ هؤلاء الأتراك ، الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم ، يندمجون فى طبقات الأمراء المثقفين : فتعلموا العربية ، ووقفوا على أحكام القرآن ، ودانوا بالإسلام ، ودرسوا العلوم والآداب . وكان كل من يصل منهم إلى مرتبة خاصة من التهذيب والتثقيف يتولى المنصب الذى يتناسب مع كفايته ومواهبه ، ومن ثم تمكن كثير منهم من الوصول إلى أعلى المراتب ، فاندمجوا فى سلك البلاط وتقلدوا ولايه الإمارات ، وعظم نفوذهم واشتد ، حتى أصبح فى أيديهم تولية الخليفة وعزله أو حبسه ونفيه أو قتله ، وما لبث عددهم أن زاد حتى أربى على الخمسين ألفا[٢] ، فقويت شوكتهم ، وتدللوا على الخليفة حتى ألبسهم حلل الديباج والمناطق المذهبة والحلى ، فداخلهم الغرور وارتكبوا كثيراً من أعمال العسف والشدة ، حتى أنهم كثيراً ما آذوا السكان وداسوهم بخيولهم فى الأسواق والطرقات ، مما أثار غضب العامة وحنقهم عليهم .

وكانت نتيجة إهمال المعتصم للعرب واستعانته بالأتراك وإجزاله العطايا لهم دون غيرهم ، أن دب فى نفوس العرب دبيب الغيرة والحسد ، وقام عجيف القائد العربى بثورة على قواد الترك الذين أساءوا معاملة العرب ، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه ، وأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه ، واشترك قواد العرب فى هذه المؤامرة واتفقوا على قتل المعتصم ، إلا أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم ، فمنع الماء عن

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٩٩ .

(٢) Gibbon: Decline and Fall of the Roman Empire, Vol. IV. p. 47.

العباس حتى مات ولحق به عجيف[1]، وثار العرب على المعتصم فى بلاد الشام ، كما أثار الأكراد الفتنة ضده فى الموصل ، ولكن هذه الثورات باءت بالفشل فى مهدها . على أن المعتصم بعد أن تمكن من إقصاء قواد العرب والفرس تدريجياً وأسقطهم من ديوان العطاء ، وقع فى أيدى الأتراك، وهؤلاء كانت الرغبة فى انتزاع السلطة من الخليفة قد تغلبت على نفوسهم ، إذ لم يكونوا جادين فى إخلاصهم للخليفة ، وفى سبيل ذلك عملوا على حصر السلطة فى أيديهم . وعد عهد خلافة المعتصم وخلافة الواثق من بعده ، فترة انتقال إلى حكم الأتراك الفعلى فى بغداد ، وسلطان الخلفاء الإسمى منذ وفاة الواثق ، واتضح بجلاء فى العصر العباسى الثانى خطر اعتماد العباسيين على الأتراك .

سامرا :

لم يكن بد من أن يعمل المعتصم على تلافى الشر قبل وقوعه ، بعد أن استفحل خطر الأتراك ، وأثاروا سخط العامة وآذوا أهل بغداد . لذلك عول على اتخاذ موضع يبنى فيه مدينة جديدة ، تسع جنده من الأتراك ، فبنى فى سنة ٢٢١ هـ مدينة سامرا التى عاشت حوالى الستين عاما .

وهكذا بنيت مدينة سامرا شرقى نهر دجلة ، على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، وتبعد عنها ستين ميلا من ناحية الشمال ، وتقع فى مكان طيب الهواء جيد التربة ، يسهل منه الوصول إلى بغداد براً وبحراً ، وشيد فى طرفها مسجداً جامعاً للمسلمين ، وأفرد سوقاً لأرباب الحرف والصناعات ، ونقل إلى حاضرته الجديدة الأشجار والثمار ، وغرس الحدائق والبساتين ،

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٤٤ ، الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٧ .

وشيد المتنزهات ، وأقام المبانى الشاهقة والقصور الفخمة التى قيل إن عددها بلغ سبعة عشر قصراً(١) .

أصبحت سامرا مدينة عامرة زاهرة ، حتى سميت « سرور من رأى» . وصفها ابن المعتز بقوله : « إنها معشوقة السكنى ، حبيبة المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، حصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، يومها غداة ، وليلها سحر ، طعامها هنىء ، وشرابها مرىء ، تاجرها مالك ، وفقيرها فاتك » . ووصفها الحسين بن الضحاك فقال :

سر من رآ أسر من بغداد　　فاله عن بعض ذكرها المعتاد
جنداً مسرح لها ليس يخلو　　أبداً من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزهـ　　ـر عليها مجد الأبراد
واذكر المشرف المطل من التـ　　ـل على الصادرين والوراد(٢)

وظلت مدينة سامرا فى أوج عظمتها ، محتفظة برونقها وبهائها منذ بنائها سنة ٢٢١ﻫ إلى نهاية خلافة المعتضد ، فانتابها الخراب والدمار ، بعد أن تقوضت معالمها عام ٢٨٩ ﻫ ، حتى كان الناظر إليها يستوحش منها ، بعد أن لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ، ولا آنس ولا أوسع ملكا منها ، فسبحان من لا يحول ولا يزول » .

ومنذ ذلك الحين ، أطلق عليها « ساء من رأى » ، ثم اختصر فقيل « سامرا » ، يقول ابن المعتز :

قد أقفرت سر من رآ　　وما لشىء دوامُ
فالنقض يحمل منها　　كأنها آجام
ماتت كما مات فيلُ　　تسلُّ منه العظام

---

(١) ياقوت : معجم البلدان : لفظ سامرا .

(٢) ياقوت : نفس المصدر .

النحل الدينية : البابكية والمجوسية .

فى عهد المعتصم ، ظهرت بجلاء خطورة الحركة التى قادها منذ عهد المأمون، الرجل الفارسي بابك الخرمى(١) ، الذى اعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية فى منطقة حران منذ سنة ٢٢١ ﻫ وحصنها . فقد ادعى بابك أن روح جاويدان قد حلت فيه ، وجاويدان كان زعيما نسب إليه أتباعه صفات الألوهية ، وزاد بابك على ذلك أن نشر مبادىء الإباحية وأخذ فى العبث والفساد وجنح إلى الوحشية والفوضى ، وكلها من تعاليم المجوس ، كما أن هذا الرجل كثيراً ما أثار البيزنطيين على الدولة العباسية وعقد محالفات مع الروم ضد الدولة ولذا تمكن من المقاومة مدة طويلة ، وساعده على ذلك أيضاً أن المأمون كان مشغولا بالقضاء على الفتن الداخلية فى أنحاء البلاد وبقتال البيزنطيين . ولكن المعتصم دفع كل قوات الدولة للقضاء على بابك ، وعهد بذلك إلى الإفشين قائد الخليفة ، الذى حاصره مدة طويلة فى مكمنه فى حران ، ثم أطبقت جيوشه عليه واضطرت بابك إلى التسليم ، وحاول الفرار ، ولكن قبض عليه وسيق إلى سامرا ، حيث لاقاه المعتصم هو ومن حمل معه من الأسرى، وقتل بابك أشنع قتلة وطيف برأسه فى الأقطار ليكون عظة لمن يحاول أن يقوم بمثل حركته ، وكافأ الخليفة قائده الإفشين ، فعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه . وقضى بذلك على حركة كانت ستصبح خطراً جسيما على كيان الدولة ، وخاصة أنها كانت ترمى إلى التحرر من كل نظام اجتماعى والعودة إلى الإباحية .

وظهر فى زمن المعتصم ، فى إقليم طبرستان ، رجل يعرف باسم « مزيار المجوسي » ، وحدث خلاف بين مزيار وبين عبدالله بن طاهر والى خراسان،

---

(١) المقدسى: البدء والتاريخ ج ٥ ص١٣٤.

فإن مزيار كان لايؤدى الأتاوة المفروضة على إقليمه لعبدالله بن طاهر ، باعتبار أن طبرستان خاضعة من الناحية الإدارية لخراسان ، بل كان يؤديها للخليفة المعتصم مباشرة متخطياً والى خراسان ، وكان المعتصم بدوره يرسلها لهذا الوالى . وانتهز الإفشين قائد المعتصم تلك الفرصة ، وعمل على اتساع هوة الخلاف بين عبدالله بن طاهر ومزيار ، وكان الإفشين بعد بلائه المجيد فى واقعة عمورية وانتصاره على البيزنطيين وقضائه على بابك الخرمى وتقدير المعتصم له بعد هذه الخدمات ، قد علا صيته وزادت مطامعه ، فعمل على أن يتولى إمرة خراسان بدلا من واليها . لذلك كاتب مزيار سراً ، وحرضه على عبد الله بن طاهر ، وانتهى الأمر بقطع الأتاوة التى كان يدفعها مزيار . وكان من نتيجة ذلك العمل ، أن ابن طاهر حارب مزيار بأمر المعتصم . ورغب الإفشين فى أن يتولى قيادة الحملة ضد مزيار ، توصلا إلى غرضه فى عزل ابن طاهر عن خراسان ، ولكن ابن طاهر استطاع بوساطة قواده الآخرين القضاء على مزيار وقبض عليه وأرسله إلى المعتصم . وهناك أفشى مزيار إلى الخليفة أمر الرسائل التى بعث بها الإفشين إليه يحرضه فيها على الخليفة ووالى خراسان . وعلى أثر ذلك تنكر المعتصم للإفشين وأمر بحبسه، وعقد له بعد ذلك مجلساً لمحاكمته ، وكان ذلك فى سنة ٢٢٥ هـ ، وتولى أمر محاكمته محمد ابن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وأحد شخصيات العباسيين البارزة . وانتهت المحاكمة بإعادته إلى السجن ، وظل به حتى مات سنة ٢٢٦هـ ثم أحرق بالنار(١) . ووجدت فى حوزته عدة أصنام وبعض كتب المجوس التى تشرح دياناتهم ، واتضح أنه كان يسر المجوسية ويظهر الإسلام . وبذلك يتصل تاريخ حياته بموضوع النحل الدينية القديمة التى ترجع فى أساسها إلى الفرس وحاولت

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٦٥ — ٣٦٧ .

الظهور فى عهد العباسيين وهى فى عهد المعتصم تتعلق بمحاولة نشر الإباحية كما ظهر فى حركة بابك الخرمى وبنشر المجوسية التى كان يحتنقها سرا الإفشين وافتضح أمره(١) .

علاقته بالدولة البيزنطية :

فى زمن المعتصم ، عادت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية إلى أسوأ مما كانت عليه . ولكن المعتصم كان بعيد النظر ، فوجه كل همته إلى القضاء على فتنة بابك الخرمى أولا ، وانتهز الإمبراطور البيزنطى تلك الفرصة وأغار على مدينة زَبِطرة وأحرقها وأسر من فيها ، وعاث فساداً فى بعض بلاد سورية ، وأعمل فيها السلب والنهب والتخريب والتقتيل ، حتى ثار الناس واستغاثوا . وكان المعتصم إذ ذاك قد قضى على بابك ، فسار إلى أنقرة فى جيش ضخم بقيادة الإفشين وأشناس وهزم الإمبراطور البيزنطى واستولى على أنقرة ، ثم عزم على تخريب مدينة عمورية فى آسيا الصغرى ، وكان الإمبراطور تيوفلس قد نشأ فيها ، وعسكر المعتصم غربى دجلة ، حيث التف حوله جنده ، وعلى رأسهم نخبة من مشاهير قواده من الترك أمثال الإفشين وأشناس وبغا الكبير ، ومن العرب أمثال عجيف بن عنبسة ومحمد ابن ابراهيم . وبلغ جيش المعتصم خمسمائة ألف مقاتل أومائتى ألف فى رواية أخرى . وخرج بهذا العدد ، وتابع السير فى أراضى آسيا الصغرى ، حتى وصل إلى عمورية سنة ٢٢٣ هـ فحاصرها ، وأسرف فى قتل الأهلين ، حتى

(١) Muir : The Caliphate, pp . 518—519.

قيل إنه قتل ثلاثين ألفاً من سكانها ، وتركها للنهب والسلب والتهام النيران لها من كل جانب ، أربعة أيام كاملة ١) .

ولما عاد المعتصم إلى سامرا ، بعد ذلك النصر الحاسم فى عمورية، احتفل باستقباله احتفالا باهراً ، ومدحه أبو تمام الشاعر المشهور ، بقصيدته التى مطلعها :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب ... فى حَدِّه الحد بين الجِدِّ واللعب ٢)

تقدير المعتصم :

توفى المعتصم فى ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، وهو نفس الشهر الذى مات فيه الإمبراطور البيزنطى تيوفلس عدوه القديم ، بعد أن حكم المعتصم البلاد حكماً استبدادياً مقرونا بالعطف وحسن التدبير ، وبعد أن ثبت له أنه لم يكن بعيد النظر حين استخدم الأتراك ، فقد شكا منهم ومن تغلغل نفوذهم فى أخريات عهده .

والمعتصم من شخصيات العباسيين الجليلة ، تتمثل فيه روح الجندية ، فقد كان من أبرز صفاته : الصراحة وحب البساطة . وظهرت مقدرته الحربية فى قضائه على الخرمية ، وعلى مزيار والإفشين ، وعلى البيزنطيين ، وتغلبت عليه الصفة الحربية حتى اشتهر بها .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٢٠٢ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢١٠ — ٢١١. السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ .

٩ — الواثق

٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م

ولى الواثق الخلافة بعد أبيه المعتصم ، وكانت أمه رومية . وشارك أباه فى ميوله وآرائه الفلسفية وزاد عليه . وكانت تشوب إدارته مظاهر الضعف أحياناً والاستبداد أخرى ، فقد اشتد على كتاب الدواوين حين تبين له تفشى الرشوة و الفساد بينهم ، واستولى منهم على مبالغ تتراوح بين أربعة عشر ألف دينار ومليون دينار .

وفى عهد الواثق ، استمرت الحروب بين العباسيين والبيزنطيين ، وسببها وجود جماعة من النصارى المتحنفين فى آسيا الصغرى لا يرون عبادة الصور ، فكانوا لذلك محل اضطهاد الحكومة البيزنطية مما دفعهم إلى الاحتماء بالخليفة الواثق والهجرة للالتجاء إليه ومعهم زعيمهم قربياس Karbeas ، وهؤلاء قاتلوا مع جند العباسيين ضد الروم ، وانتهى الأمر بهزيمة البيزنطيين والإمبراطور البيزنطى ميشيل الرابع هزيمة شائنة فى سنة ٢٤٥ هـ ، فى عهد المتوكل الذى خلف الواثق على عرش الخلافة العباسية .

سياسته إزاء مسألة خلق القرآن :

غلا الواثق فى نشر آرائه الدينية الخاصة بمسألة خلق القرآن ، جرياً على السياسة التى سار عليها أبوه . فأثار خواطر أهل بغداد مما دعاهم إلى التآمر على حياته وعلى حكومته . وكان احمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، وحملوا على الواثق حملة شعواء ودعوا إلى عزله ، والتف حوله كثير من أنصاره ، وعينوا يوما ينفذون فيه مؤامرتهم،

على أن يضربوا الطبل فى الليلة السابقة لذلك اليوم . إلا أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ هـذا الأمر أكثرا من شرب الخمر فى تلك الليلة ، وأخذ الفريق الذى رابط على الجانب الشرقى يدق الطبل ، فلم يجبهم أصحابهم الذين فى الجانب الغربى ، وكشفت المؤامرة قبل أن يستفحل خطرها .

وعقب ذلك ، قبض على أحمد بن نصر وأعوانه وسيقوا إلى الواثق فى سامرا قاعدة خلافته . وهناك عقد لهم الخليفة مجساً للمناظرة ، ولم يكترث لمسألة الشغب الذى أحدثوه وخروجهم على الخلافة ، بل اهتم بمناظرة أحمد ابن نصر فى مسألة خلق القرآن ، فقال له : يا أحمد ! ماتقول فى القرآن . قال : كلام الله . قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله . قال فما تقول فى ربك ، أتراه يوم القيامة ؟ قال : يا أميرالمؤمنين ! جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر . فقال الواثق لمن حوله : فما تقولون فيه ؟ فقال القاضى عبد الرحمن بن اسحق: هو حلال الدم ، وقال غيره : اسقنى دمه يا أمير المؤمنين . ووافقه الحاضرون إلا ابن أبى دؤاد قاضى القضاة ، فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل . ولكن الواثق دعا بالصمصامة ـ وهو سيف عمرو بن معدى كرب الزبيدى[1] ـ وضربه به على عنقه وحز رأسه وحمله إلى بغداد وصلب ، ووضعت فى أذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين ، بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن ، ونفى التشبيه ، وعرض عليه التوبة ، ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى ، والحمد لله الذى عجل به إلى ناره وأليم عقابه[2] .

---

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدى : هو ذلك الفارس العربى الذى ذاع صيت سيفه ، واشتراه الخليفة المهدى العباسى وورثه خلفاؤه .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٧ — ١٨ .

تقدير الواثق :

كان الواثق يعطف على أهل بيته ، ويتفقد أحوال الرعية ، أفرد فى قصره مكاناً للمناظرة والجدل ، ولذا أطلق عليه « المأمون الأصغر » ، وشغف بالوقوف على آراء العلماء ، حتى أنه طلب من حنين بن اسحق أن يؤلف كتابا يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء ، فأتمه وسماه « كتاب المسائل الطبيعية » ، وعاش فى أيامه الشاعر أبو تمام صاحب ديوان الحماسة ، الذى أجزل الواثق العطاء له ولكثير غيره من الشعراء الذين زخر بهم عصره ، فقد كان الواثق نفسه شاعراً يقول الشعر . ونبغ فى عهده الكندى فيلسوف العرب ، وحنين ابن اسحق فى الطب ، واليعقوبى والبلاذرى وأبوحنيفة الدينورى وهم من فطاحل المؤرخين . وكان الواثق يتقن فن الغناء والموسيقى إتقاناً لم يسبقه إليه خليفة أو ابن خليفة ، وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة . على أنه ينبغى أن نشير إلى أن حكم الواثق كان فترة ركود فى تاريخ العصر العباسى ، إذ جعل الترك يشعرون بأهميتهم ويتدخلون فى شئون السياسة ، حتى فتح لهم باب التدخل فى آخر مراحل السلطة وهى اختيار الخليفة ، فكانت هذه سابقة جرت الويلات على العباسيين .

حكم الواثق الدولة العباسية أقل من ست سنين ، ولم يول عهده أحدا ، وسئل فى مرض الموت أن يوصى بالخلافة لولده فلم يقبل ، وقال : لا أتحمل أمركم حياً وميتاً . وتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، بعد أن أثار خواطر الأهالى : لتمسكه بهذه البدع الدينية ، وتوغل العنصر التركى فى الإدارة الحكومية ، وكان ذلك من أقوى عوامل انحطاط الدولة العباسية وسقوطها فى النهاية .

ثانيا — العصر العباسى الثانى

٢٣٢ — ٦٥٦ ﻫ = ٨٤٧ — ١٢٥٨ م

خلفاء العصر العباسى الثانى :

عدد	السنوات الهجرية	الاسم	السنوات الميلادية
١	٢٣٢	المتوكل	٨٤٧
٢	٢٤٧	المنتصر	٨٦١
٣	٢٤٨	المستعين	٨٦٢
٤	٢٥٢	المعتز	٨٦٦
٥	٢٥٥	المهتدى	٨٦٩
٦	٢٥٦	المعتمد	٨٧٠
٧	٢٧٩	المعتضد	٨٩٢
٨	٢٨٩	المكتفى	٩٠٢
٩	٢٩٥	المقتدر	٩٠٨
١٠	٣٢٠	القاهر	٩٣٢
١١	٣٢٢	الراضى	٩٣٤
١٢	٣٢٩	المتقى	٩٤٠
١٣	٣٣٣	المستكفى	٩٤٤
١٤	٣٣٤	المطيع	٩٤٦
١٥	٣٦٣	الطائع	٩٧٤
١٦	٣٨١	القادر	٩٩١
١٧	٤٢٢	القائم	١٠٣١
١٨	٤٦٧	المقتدى	١٠٧٥
١٩	٤٨٧	المستظهر	١٠٩٤
٢٠	٥١٢	المسترشد	١١١٨

عدد	السنوات الهجرية	الاسم	السنوات الميلادية
٢١	٥٢٩	الراشد	١١٣٥
٢٢	٥٣٠	المقتفى	١١٣٦
٢٣	٥٥٥	المستنجد	١١٦٠
٢٤	٥٦٦	المستضىء	١١٧٠
٢٥	٥٧٥	الناصر	١١٨٠
٢٦	٦٢٢	الظاهر	١٢٢٥
٢٧	٦٢٣	المستنصر	١٢٢٦
٢٨	٦٤٠ - ٦٥٦	المستعصم	١٢٤٢—١٢٥٨

١ ـ الخلافة العباسية منذ وفاة الواثق إلى أن استولى بنو بويه على بغداد

عهد سيطرة الأتراك : ٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ = ٨٤٧ - ٩٤٦ م

يعد العصر العباسي الثاني في بغداد والذي يمتد أكثر من أربعة قرون ، عصر ضعف وانحلال ، كان فيه الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك أولاً وبنى بويه ثانياً ثم السلاجقة أخيراً ، وكان الخلفاء بذلك كالريشة فى مهب الرياح ، يتوقف بقاء كل منهم على العرش حسب رغبة المسيطرين عليهم من الأتراك وسلاطين البويهيين والسلاجقة ، وكثر التغيير والتبديل فى وظائف الحكومة ، وانتشرت الرشوة فى سبيل الوصول إلى المناصب الكبرى ، وشمل الضعف معظم مظاهر الحياة فى بغداد ، وزال بقيامه سنة ٢٣٢ هـ ، العصر الزاهر فى الدولة العباسية .

* * *

كان الخليفة فى فترة سيطرة الأتراك فى العصر العباسى الثانى كالأسير فى يد الأتراك ، إن شاءوا أبقوه أو خلعوه أو قتلوه . ولذلك كان الخلفاء العباسيون ضعافاً ليس لهم نفوذ ولا سلطان ، ويتوقف بقاؤهم فى الخلافة على مقدار رضاء الأتراك عنهم . قيل إن الخليفة المعتز لما جلس على العرش أراد بعض خواصه

أن يعرف المدة التى سيمكثها على العرش ، فقال بعض الحاضرين : إن ذلك مرهون بإرادة الأتراك . وكانت عهود الخلفاء فى تلك الفترة ، عهود فتن وقلاقل واضطرابات .

تدخل النساء فى أمور الدولة :

وقد ترك الخلفاء النساء يتدخلن فى أمور الدولة ويصرفن شئونها ، وكانوا يرجعون إلى أقوالهن ويأخذون بآرائهن . ومن نساء العصر العباسى الثانى ، من كانت لهن السطوة على أولادهن من الخلفاء ، حتى كن يشرفن على شئون الدولة ، ويشتركن فى تدبير أمور الحكم ، وكان لهن أكبر الأثر فى سير الحوادث فى بغداد .

كان الخليفة العباسى المتوكل مدمناً على شرب الخمر ، معجباً بزوجته قُبيحة أم ولده المعتز ، وقد سميت بذلك لحسنها وجمالها . كما كان يسمى الأسود كافور . فلما تولى المعتز الخلافة أهداه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف ، وفى الهدية جارية يقال لها محبوبة ، كانت لرجل من أهل الطائف وقد أدبها وثقفها وعلمها مختلف صنوف العلم وحلت من قلب المتوكل فى أسمى مكان ، ولم يكن أحد يعدلها عنده (١) ، حتى فضل ابنها المعتز على سائر أولاده فى وراثة عرش الخلافة ، رغم أحقيتهم عنه فى شغله .

فى سنة ٢٣٥ هـ ولى المتوكل العهد أولاده : محمدا وسماه المنتصر ، وأبا عبد الله بن قبيحة ولقبه المعتز ، وابراهيم وسماه المؤيد . على أن المتوكل قد رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه المؤيد والمنتصر لمحبته لقبيحة أم المعتز ، ولكن المنتصر غضب لذلك ، ودبر مع الأتراك مؤامرة اغتيل فيها المتوكل . وخلفه المنتصر ، وعلى الرغم من أنه كان يعطف على الأتراك قبل قتل أبيه ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول هؤلاء

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

قتلة الخلفاء ، ففكروا بدورهم فى قتله وأغروا طبيبه ابن طيفور وأعطوه ثلاثين ألف دينار ، فمات مسموما وهو فى السادسة والعشرين من عمره فى ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ . وبموت المنتصر ، بويع المستعين بالله . لأن العباسيين لم يأمنوا جانب الأتراك فعملوا على تولية الخلافة من يطمئنون إليه من أمراء البيت العباسى ، فلم يولوا أحدا من أولاد المتوكل .

وظهرت قبيحة مرة ثانية على مسرح السياسة فى بغداد ، فإنه لما رأى الأتراك تنكر المستعين لهم ، خلعوه . واعتلى عرش الخلافة ابن عمه المعتز بن المتوكل ولد قبيحة ، وله من العمر تسع عشرة سنة ، وأخرج الخليفة المعزول إلى بلدة واسط ، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه ، فأحسن إليه وأطلق له الحرية فى التنقل والصيد ، وعلى الرغم من ذلك الفوز الذى أحرزه الأتراك بخلع المستعين ونفيه ، فإنهم أوجسوا شرا من بقائه حياً ، وأوعزوا إلى المعتز أن خلافته لن تثبت إلا إذا قتل المستعين ، ووافقتهم على ذلك قبيحة أم المعتز التى خافت على حياة ولدها أن تمتد إليها يد الأعداء ، فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون إليه قتل المستعين ويمنونه بولاية واسط ، فلم يرض أن يقتل خليفة له فى رقبته بيعة ، فأرسلوا سعيدا الخادم أحد حجاب القصر فى شرذمة من الجيش إلى بلدة واسط ، فتولى قتل المستعين بنفسه (١) .

وما لبث الأتراك أن قبضوا على المعتز وقتلوه ، ويصف ابن الأثير قتل المعتز فى هذه العبارة : «فدخل إليه جماعة منهم فجروه برجله إلى باب الحجرة ، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه ، وأقاموه فى الشمس فى الدار فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، وأدخلوه حجرة ، وأحضروا ابن أبى الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه ، وشهدوا على أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان ، وكانت أمه قد اتخذت فى دارها سردابا فخرجت منه هى وأخت المعتز ، وكانوا قد أخذوا

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٩٣ — ٩٥ .

عليها الطريق ومنعوا أحدا يجوز إليها ، وسلموا المعتز إلى من يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة(١) من ماء البئر فمنعوه ، ثم أدخلوه سردابا وجصصوا(٢) عليه ، فمات »(٣) .

اختفت قبيحة بعد موت ابنها المعتز خوفا على حياتها من شر صالح بن وصيف وأخفت ماعندها من المال وقدره ٠٠٠ و ٨٠٠ و ١ دينار ، عدا كثير من الجواهر والحلى والزمرد واللؤلؤ والياقوت التى لاتعرف له قيمة، ومن الغريب أنها عرضت ابنها للقتل ورفضت أن تدفع للثائرين من الأتراك الذين تأخرت رواتبهم خمسين ألف دينار (٤) .

وقد رثى الشعراء المعتز بقصائد ، تبين مدى تغلغل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وانتهاكهم حرمة الخلافة ، ومن ذلك :

قتلوه ظلماً وجوراً فألفو ه كريم الأخلاق غير جذوع
أصبح الترك مالكى الأمر والعالم ما بين سامع ومطيع

الخليفة ألعوبة في يد الأتراك :

بعد وفاة المعتز ولى المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) بن الواثق الخلافة ، وهو من أحسن الخلفاء سيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة ، وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويقول : « إنى أستحى أن يكون فى بنى أمية مثله ولا يكون مثله فى بنى العباس » . جلس للمظالم ، وحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم . وكان كغيره من الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل ألعوبة فى يد الأتراك . وليس أدل على ما وصل إليه الخليفة من ضعف ومابلغته الخلافة من انحلال ، ماروا، الطبرى من أن المهتدى « رفع يديه إلى السماء ، ثم قال :

---

(١) حسوة : جرعة

(٢) جعلوه فى بيت وسدوا بابه .

(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ٦٨ — ٦٩ .

(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ٣٢ — ٣٣ .

« اللهم إنى أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا . . . اللهم تول كيد من كايد المسلمين . . . » . وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتله على أثر قتله بعض الموالى ، فقاموا بثوره ضده ، ثم أسروه وخلعوه من الخلافة ، ولم يكتفوا بذلك بل عذبوه حتى مات .

ويتمثل ضعف الخلافة العباسية المطلق فى العصر الثانى ، فى خلافة المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ) بن المتوكل . وفى عهده غلب عليه أخوه الموفق حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها . يقول صاحب الفخرى : «كان المعتمد مستضعفاً وكان أخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء »(١) .

تقسيم أملاك الدولة :

صار الموفق صاحب الأمر والنهى فى بغداد ، إذ كان الموفق لا يرى أخاه المعتمد أهلاً للخلافة ، وزاد حقد الموفق على المعتمد تقديمه ابنه المفوض عليه فى ولاية العهد . وقسم الخليفة المعتمد أملاك الدولة بينه وبين ابنه المفوض وأخيه الموفق ، على أن يخص المفوض الأملاك الشرقية وتضم إليه البصرة والكوفة ، ويخص الموفق الأملاك الباقية وهى القسم الغربى من الدولة العباسية. ووضع المعتمد تلك الشروط فى الكوفة ، ونص فيها على أنه إذا حدث فى القسم الخاص بأحدهما ما يستدعى إنفاق شىء من المال ، فإن نفقته تكون من مال خراج ذلك القسم ، وكانت مصر من القسم الذى يشرف عليه المفوض ابن الخليفة (٢) .

فلما بدأ الموفق قتاله مع صاحب الزنج (٣) ، وطلب ابن طولون الأموال

---

(١) الفخرى ص ٢٢٦ .

(٢) الدكتور على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٣) الزنج : هم طائفة من عبيد إفريقية .

التى يستعين بها فى قتاله ، أرسلها إليه ابن طولون على أساس أنها تساعد على صيانة الدولة العباسية وتحافظ على كيانها ، ولكن حين استقل الموفق المبلغ المرسل إليه ، كتب إليه ابن طولون ينبهه إلى أنه ليس تابعاً له وأن مصر ليست من القسم الذى يشرف عليه أو يحق له جباية الأموال منها وأنه لم يرسل تلك الأموال تلبية لطلبه أو تنفيذاً لأمره بل ليبعد الخطر الذى يهدد سلامة الدولة العباسية(١). ومن هنا اشتد العداء بين الموفق وابن طولون ، حتى كانت مهمة الموفق إقصاءه عن ولاية مصر ، ولكنه فشل فى كل محاولاته ضده .

الخليفة يستجير بدولته :

اتجه الموفق ناحية الخليفة المعتمد وضيق عليه وغل يده عن كثير من أعمال الدولة ، دون أن يترك له شيئاً من حرية التصرف . ذلك أن حال الخليفة المعتمد بلغت من الضعف حدا لا يمكن تصوره ، حتى قيل إنه احتاج مرة إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها ، فقال :

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قل ممتنعاً لديه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا ... ويمنع بعض ما يجبى إليه ؟

شكا المعتمد حاله إلى ابن طولون ، فرد عليه بكتاب يشير فيه عليه بالحضور إلى مصر ، وارتاح الخليفة إلى فكرة ابن طولون ، وكتب إليه يخبره بعزمه على المسير إلى مصر . وانتهز المعتمد فرصة غياب أخيه الموفق وانشغاله بحرب صاحب الزنج ، وخرج من سامرا ، واستقر فى الرقة سنة ٢٦٩ هـ . وما لبث الموفق أن علم بمسير الخليفة إلى مصر ، فعمل على إحباط المشروع ، وعهد بذلك إلى ابن كنداج ، عامله على الموصل والجزيرة . وفى الرقة كثر الجدل بين أتباع كل من الخليفة وابن كنداج على النتائج التى تترتب على تنفيذ المشروع الذى اعتزمه الخليفة . وبعد أن اشتد النقاش ،

---

(١) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٢٠ ، ٤٠ .

أمر ابن كنداج بالقبض على كل من حضر مع المعتمد من سامرا ، وعنف الخليفة بشدة على ترك ملكه وفراقه أخاه وهو منشغل بحرب صاحب الزنج والاحتماء بأحد ولاة الدولة العباسية وهو ابن طولون ، ثم أمر بأن يكبل كل من الخليفة وأتباعه بالقيود ويعودوا من حيث أتوا .

فشلت بذلك محاولة الخليفة الاستقرار فى مصر ، وأحبط مشروع ابن طولون وهو نقل مقر الخلافة إلى الديار المصرية ، ومايتبع ذلك من تقوية مركزه الدولى ورفع شأن مصر بين الأمم . واستاء ابن طولون من عمل الموفق وعامله على البصرة ، فأرسل إلى أهل مصر كتابا قرئ عليهم ، وفيه « أن أبا أحمد (يقصد الموفق) نكث بيعة المعتمد وأسره وحرش عليه وأنه يبكى بكاءاً شديداً »(١). وخطب الخطيب بمصر يوم الجمعة ، فذكر ما آل إليه أمر المعتمد وقال : « اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه .... » .

وبعد موت ابن طولون سنة ٢٧٠ﻫ ، تحسنت العلاقات بين مصر والموفق أخى الخليفة المعتمد وبين خمارويه بن أحمد بن طولون ، وأصبح خمارويه بموافقة الخليفة العباسى والياً على مصر والشام هو وأولاده من بعده مدة ثلاثين سنة . ومات الموفق وابن كنداج سنة ٢٧٨ ﻫ ، وتوفى الخليفة بعدهما سنة ٢٧٩ ﻫ ، بعد أن بقى فى الخلافة ثلاثة وعشرين سنة ، وكان عهده عهد فتن واضطرابات وأيامه أيام محن وخطوب ، رغم ازدهار عصره بطائفة من العلماء كالبخارى ومسلم ومحمد بن عبد الحكم المؤرخ المصرى والقاضى بكار.

ازدياد خطر التجزؤ :

وزاد حالة الخلافة العباسية سوءا ، أن نفوذ الدولة قد تقلص عن جزء كبير من ولاياتها ، مما فت فى عضدها ، وعد استمرارا لظاهرة التجزىء التى انتابت الخلافة ، إذ استقل عن الدولة العباسية قبل ذلك العهد :

---

(١) الكندى : كتاب القضاة ص ٢٢٦ .

الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ - ٨٩٧ ﻫ) زمن عبد الرحمن الأول الملقب بالناصر ، وتأسست دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى (١٧٢ - ٣١١ ﻫ) ، ودولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ - ٢٩٦ ﻫ) ، وفى مصر كانت السيادة للطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ ﻫ) . وقام فى الشرق فى بلاد الفرس وبلاد ماوراء النهر عدة دويلات ، يرجع قيامها إلى انتعاش الروح القومية التى ظهرت منذ أيام المأمون . فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩ ﻫ) فى خراسان على يد طاهر بن الحسين فى عهد المأمون ولكنها كانت تعترف بسلطان الخليفة العباسي وامتد نفوذهم إلى بلاد الهند ونقلوا قاعدتهم إلى نيسابور حيث بقوا بها حتى سنة ٢٥٩ ﻫ ، ومنها انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هى الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ ﻫ) التى قامت على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة السامانية (٢٦٦ - ٣٨٩ ﻫ) على يد نصر بن أحمد السامانى فى بلاد ماوراء النهر وتفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٧٩ ﻫ) لأن ألبكتين مؤسس هذه الدولة كان من بين الموالى الأتراك الذين استخدموا فى البلاط السامانى . وتفاقم خطر هذه الدويلات ، فقويت شوكة بنى بويه (٣٣٤-٤٤٧ﻫ) وكانوا من الشيعة الغلاة ، وامتد شرهم إلى حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم الذين أصبحوا من الضعف ، بحيث لم يعد الخليفة قادرا على الدفاع عن بغداد نفسها ، وبعد أن كانت بغداد مركز الحضارة فى العالم الإسلامى ، ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين ، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى ، وأصبح كل منها قبلة العلماء والأدباء والشعراء (١) . تلك كانت حالة الخلافة العباسية فى العصر الثانى .

على أن عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ ﻫ) يتميز بخروج عمرو بن الليث الصفار أحد زعماء الصفارية ، واستيلائه على كثير من بلاد الفرس .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ١٤١ — ١٤٢ .

فقد تمكن يعقوب مؤسس الأسرة الصفارية من الاستحواذ على ولاية خراسان وبلاد فارس وشرطتى بغداد وسر من رأى وعقد له على كرمان وسجستان والسند وطبرستان وجرجان والرى وأذربيجان وقزوين ، وذلك بموافقة الخليفة العباسى ، ولم يكتف يعقوب بذلك بل قصد بغداد نفسها ، ولكنه هزم فى سنة ٢٦٢ ﻫ فى خلافة المعتمد ، وبوفاته سنة ٢٦٥ ﻫ أقر الخليفة المعتمد عمرو بن الليث على ما كان يتولاه أخوه يعقوب من البلاد ، ولكن العلاقات لم تلبث أن ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ، وعزل المعتمد عمرو بن الليث الصفار عن البلاد التى ولاه إياها وقلد محمد بن طاهر ابن الحسين بلاد خراسان وأمر بلعن عمرو على المنابر ، ولكن محمد بن طاهر آثر البقاء فى حاضرة الخلافة وأناب عنه رافع بن هرثمة على خراسان . ولما ولى الخلافة المعتضد عزل رافع وأعاد عمرو بن الليث الصفار إلى ولاية خراسان . ولم يكتف عمرو بذلك بل طلب من الخليفة ولاية ما وراء النهر وكانت تحت إمرة إسماعيل بن أحمد السامانى ، فرفض اسماعيل تسليمها له وحاربه وأسره وشتت شمل جيشه . وكانت هذه الواقعة من المواقع الحاسمة ، فقد كانت عاملا هاماً فى سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على انقاضها وذلك سنة ٢٨٧ ﻫ (١) . وبذلك يكون مؤسس الدولة السامانية فى بلاد ماوراء النهر ، نصر بن أحمد السامانى قد خرج كذلك على المعتضد . وتنسب هذه الدولة إلى أسره فارسية عريقة فى المجد ، ونال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون ، فولاهم بلاد ماوراء النهر ورفع من شأنهم . وكان لأحمد سبعة أولاد اشتهر منهم نصر بن أحمد بن أسد بن سامان ، وإسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان . وفى عهد اسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة وقامت بدور

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

Browne : Lit. Hist. of Pesia, Vol. 1. p. 345.

خطير فى إزالة الدولة الصفارية ، وقضى على هذه الدولة سنة ٣٤٣ ه على أيدى الغزنويين وخانات تركستان ، رغم ما كان لأمراء السامانيين من فضل كبير فى تشجيع العلم والأدب وبخاصة الأدب الفارسى ، من ذلك كتاب الشاهنامة للفردوسى والكتاب المنصورى الذى ألفه أبو بكر الرازى ، وهو من أشهر كتب الطب فى ذلك العصر ، وقد أهداه إلى أبى صالح منصور بن إسحق السامانى الذى ولى سجستان نيابة عن السامانيين . وقد روى ابن سينا الفيلسوف المشهور أنه رأى فى مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب مالم يسمع بمثله من قبل .

وكان ضعف الخلافة العباسية فى بغداد من عوامل ظهور الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢ ه = ٩٦٢ - ١١٣٦ م) فى بلاد الأفغان والبنجاب . وذلك على النحو الذى ظهرت به الدولة الصفارية فى خراسان والدولة السامانية فى بلاد ماوراء النهر . ويرجع تأسيس الدولة الغزنوية منذ أقصى ألبكتين عن مناصبه الكبرى فى الدولة السامانية ، فعاد إلى غزنة (شمال غرب الهند) حيث خلف أباه فى حكمها ، واستطاع أن يناوىء سادته من سلاطين سامان . وبعد موته خلفه ابنه إسحق ، وكان لإسحق هذا مملوك يدعى سبكتكين آلت إليه السلطة (٣٦٦ - ٣٨٧ ه) ، وضرب النقود باسمه ومدّ سلطانه فى الشرق حيث أسس دولة حاضرتها بشاور ، وانتشر نفوذه فى فارس حيث استولى على خراسان ، فمكنه ذلك من الاستيلاء على أجزاء فى الهند بعد حروب طاحنة ، ثم اتسعت رقعة ولايته حتى استعان نوح بن أسد السامانى بسبكتكين الذى يعتبر أعظم سلاطين الغزنويين . وخلف سبكتكين ابنه محمود الذى ظهرت قوته فجأة ، وغزا الهند إثنتى عشرة مرة ، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب ، وأخضع بلاد ماوراء النهر ، ووالى ضرباته لبنى بويه ، وانتهى الأمر باستيلائه على أصبهان وخضعت له خراسان وعين أخاه نصراً على جيوشها فاتخذ نيسابور

مركزاً له وخطب للخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) . وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوى الذى كان أول من اتخذ لقب سلطان بعد لقب أمير ولقبه الخليفة القادر بالله : « يمين الدولة وأمين الملة » ، وظهرت هذه الألقاب على السكة التى كانت تظهر باسمه . ومن أهم سلاطين الدولة الغزنوية ابنه مسعود (٤٢١ — ٤٣٢هـ) ، ثم السلطان مودود بن مسعود (٤٣٢ — ٤٤١ هـ) ، ومن بعده تداعى سلطان الغزنويين فى الهند وانقسمت دولتهم إلى أسرات إسلامية مستقلة .

بذلك نرى أن قيام الدويلات كان شرا مستطيرا على الخلافة العباسية ، ولم يعد الأمر مقصورا على ظهور دويلات تتمتع بجميع مظاهر الاستقلال وتقلل من نفوذ الخليفة العباسى وسلطانه ، بل أن الدولة العباسية حرصت على أن تخطب ود الدول القوية التابعة لها . وأكبر دليل على ذلك مسألة زواج الخليفة العباسى المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون والى مصر ، مع أن مصر لم تعد فى ذلك الحين أن تكون ولاية من الولايات التابعة لها ، وتوفيت قطر الندى قبل زوجها بقليل ، إذ توفى المعتضد سنة ٢٨٩ (١) .

وفى عهد الخليفة العباسى المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥هـ) ظهر ضعف الخلافة العباسية بجلاء وزادت ظاهرة اقتطاع أجزاء من أراضى الدولة العباسية : فقد أصبح السامانيون أصحاب النفوذ المطلق فى فارس ، وتفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة وفى سورية واليمن بزعامة زكروية وألقوا الرعب والفزع فى قلوب الأهلين ، وكان الخليفة مبذرا كثير البذل والإنفاق .

وكان اعتلاء المكتفى العرش إيذانا بزوال سلطان الطولونيين عن مصر ،

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ١٦٣ .

فقد بعث قائده المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر ، فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) ، وأشعل فيها النار ، فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة أثرا بعد عين . وتقلد محمد بن سليمان ولاية مصر مكافأة له على مابذله من جهود ، فى سبيل إعاده مصر إلى سيطرة العباسيين المطلقة .

ظهور أم المقتدر على المسرح السياسى :

وقد أدى تدخل النساء فى أمور الدولة فى العصر العباسى ، إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفاء واستهتار العامة بها ، ووضحت تلك الظاهرة فى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) حين أصبح الأمر والنهى بيد أمه ، وكانت تسمى « السيدة » ، وهى سيدة رومية ، بلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هى أو قهرماتها من أحد الوزراء أصبح مصيره العزل لا محالة .

وليس هذا كل ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين فى سنة ٣٠٦ هـ قهرمانتها(١) ثومال ، صاحبة للمظالم ، وبذلك تعدى الأمر جلوس الوزراء للمظالم إلى جلوس بعض النساء ، إذ كانت ثومال تجلس فى الرصافة وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة ، وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها ، وكان من أثر هذا التعيين أن استهتر العامة بالخلافة ونظروا إلى أحكامها نظرة احتقار وازدراء . ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة .

---

(١) القهرمانة : المسيطرة على من تحت يدها .

وفى ذلك يقول صاحب الفخرى : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ، ولاستيلاء نسائه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء ، فخربت الدنيا فى أيامه وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة ، فخلع ، ثم أعيد ، ثم قتل »(١) .

واستأثرت السيدة أم المقتدر بنفوذ كبير فى الدولة العباسية . وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها فى شئون الدولة وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة ، من ذلك الكتاب الذى بعث به إليها الوزير المصلح على بن عيسى ، يتنصل فيه من التصرفات التى نسبتها إليه فى إدارة شئون الدولة المالية، وكان مصير هذا الوزير العزل ، رغم ماقام به من إصلاح ، وحرمت الدولة من الاستفادة بمواهبه الممتازة وسياسته الرشيدة .

وفى ذلك يقول ابن الأثير : « ولما كان آخر ذى القعدة سنة ٣٠٤ هـ ، جاءته أم موسى القهرمانة ، لتتفق معه على إصلاح ما يحتاج إليه حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات ، فوصلت إليه وهو نائم ، فقال لها حاجبه : إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه ، فاجلسى فى الدار ساعة حتى يستيقظ . فغضبت من هذا وعادت ، واستيقظ على بن عيسى فى الحال ، وأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر ، فلم تقبل منه ، ودخلت على المقتدر وتخرصت (٢) على الوزير عنده وعند أمه ، فعزله عن الوزارة وقبض عليه ثامن ذى الحجة »(٣).

كذلك عملت السيدة على عزل الوزير أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الخصيب ، وصودرت أمواله فى سنة ٣١٤ هـ . وفى عهد الوزير حامد ابن العباس ازداد نفوذ السيدة ، على حين كان الخليفة قابعا فى داره(٤).

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٤٠ .
(٢) تخرصت : كذبت .
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٣٧ .
(٤) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الإسلامية ص ١٦٠ .

وقد قص الصولى الذى تتلمذ عليه الراضى بن المقتدر وهو أمير ، قصة تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرماناتها بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر على العلم وتوجيههم وجهة صالحة فى الإلمام بنظم الحكم والوقوف على أحوال الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول ، بل على العكس من ذلك لم يأبهن أن يكون الأمير أو ولى العهد متعلماً مثقفاً ، إنما يردنه ضعيفاً غير ملم بشئون الحكم(١) .

وفى ذلك يقول الصولى :

« وإنى لأذكر يوما فى إمارته وهو يقرأ على شيئاً من شعر بشأنه ، وبين يديه كتب لغة وكتب أخبار ، إذ جاء خادم من خدم جدته السيدة فأخذ جميع مابين يديه من الكتب ، فجعلوه فى منديل كان معهم وما كلمونا بشىء ، فرأيته قد وجم لذلك واغتاظ . . . ومضت ساعات أو نحو ذلك ، ثم ردوا الكتب بحالها . . . وقالت السيدة مانريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء ، وهذا أبوهم قد رأينا كل مانحب فيه وليس بعالم . فاعمل على ذلك(٢) .

ازدياد شوكة الأتراك :

فى عهد الخليفة المقتدر أيضاً ، بدأت ظاهرة جديدة فى العصر العباسى الثانى، هى كثرة تولية كبار الموظفين وعزلهم ، حتى قيل إنه عين فى يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة وأخذ من كل واحد منهم رشوة . وساءت الأحوال فى عهد المقتدر واضطربت أمور الدولة ، من جراء السياسة التى اتبعها فى تعيين وزرائه وعزلهم، فقد ولى الوزارة فى عهده إثنى عشر وزيراً . وكان لكل وزير أتباع ومحاسيب يرتفع ذكرهم وتتحسن أحوالهم بتوليه الوزارة ، فإذا ماعزل

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامي نصيب ص٩٦ ـ ٩٨ .
(٢) الصولى ص ٢٤ ـ ٢٥ .

عزلوا معه وشتتوا . وكان الوزير يحرص على تقديم المال للخليفة ونساء قصره وحاشيته ليضمن بقاءه فى الوزارة ، وكان لذلك يثقل كاهل الأهالى بالضرائب ويستعمل أساليب العسف والشدة مع الأهالى فى جمعها ويصادر أموال الوزير المخلوع وأموال أتباعه .

وعلى الرغم مما عرف به المقتدر من الضعف ، فقد ظهرت الدولة العباسية فى عهده بمظهر القوة ، فإن الخليفة لما علم أن رسول إمبراطور الروم فى طريقه إلى بغداد لطلب الهدنة وتبادل الأسرى ، أنشأ داراً لاستقبال رسول إمبراطور الروم ، عرفت بدار الشجرة (١) . وقد وصفها الخطيب البغدادى فى هذه العبارة : « ففرشت الدار بالفروش الجميلة ، وزينت بالآلات الجليلة ، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشى على طبقاتهم ، على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها ، ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة » (٢) .

على أن حالة الخلافة العباسية فى عهد المقتدر كانت مضطربة فى الداخل والخارج بسبب : ازدياد نفوذ الأتراك ، وتدخل الجند فى أمور الدولة ، وضعف الوزراء ، وصغر سن الخليفة ، وعجزه عن مباشرة شئون الدولة ، حتى تشجع مؤنس الخادم كبير قواده وخرج على المقتدر وحاربه بجنده ، وانتهى الأمر بقتل الخليفة .

ولى الخلافة بعد المقتدر أخوه « القاهر بالله » (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) . وفى عهده انتشرت الفتن وشغب عليه الجند ، وعوّل كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقلة على خلعه ، فهجموا عليه وسملوه (٣) ،

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٧٢ .

(٢) تاريخ بغداد ص ١٠٠

(٣) سمل العين : فقؤها بحديدة محماة .

ثم حبس ، وصار يفرج عنه حيناً ويحبس حيناً آخر ، ومات فى حبسه فى جمادى الأولى سنة ٣٢٩ هـ .

وفى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ازداد ضعف الخلافة العباسية ، بسبب ازدياد شوكة علىّ بن بويه فى فارس . واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر ، واستقل الإخشيد بمصر ، واستقل نصر بن أحمد السامانى بخراسان ، وتلقب عبد الرحمن الثالث الأموى (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) بالأندلس بلقب أمير المؤمنين . وأصبح فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات : العباسية فى بغداد ، والفاطمية فى بلاد المغرب ، والأموية فى الأندلس .

إمرة الأمراء :

واختلت أمور الدولة فى أوائل عهد الراضى الذى أسند الوزارة إلى رجال لم يقوموا بأى عمل فى سبيل إصلاح شئون البلاد وإقالتها من عثرتها ، لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة ، مما دعا الخليفة الراضى إلى استمالة ابن رائق الذى كان يلى واسط والبصرة ، وسلم إليه مقاليد الحكم ولقبه أمير الأمراء . فازدادت سلطته وعلت على مرتبة الوزير « وقلده الإمارة ورئاسة الجيش ، ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع ، وفوض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وبطل يومئذ أمر الوزارة ولم يكن للوزير غير إسم الوزارة فقط » . ثم تغير الخليفة الراضى على ابن رائق ، وتقلد بجكم إمرة الأمراء ، واشتد الضعف فى عهد ولاية كل من ابن رائق وبجكم . روى الصولى فى كتابه « الأوراق » أن الراضى عبر عن ألمه من هذا الحال ، فقال : « كأنى بالناس يقولون : أرضى هذا الخليفة أن يدبر أمره عبد تركى يتحكم فى المال وينفرد بالتدبير » .

ولم تستفد الخلافة العباسية من نظام إمرة الأمراء شيئاً ، بل على العكس من ذلك ازدادت أحوالها سوءاً حتى لم يتمكن الخليفة الراضى أن يدفع أرزاق الجند أو يحصل على ما يكفيه ، ولم يكن تاريخ الراضى سوى سلسلة منازعات بين رجال الدولة العباسية على الاستئثار بالسلطة والنفوذ .

وكذلك كان عهد الخليفة المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) عهد اضطراب . ويتميز بإقراره ولاية مصر لكافور ، حتى صار صاحب السلطان المطلق فى إدارة الدولة الإخشيدية . وظلت علاقات الود والوئام سائدة بين العباسيين ومصر ، حتى سار كافور بابنى الإخشيد : أنوجور وعلىّ إلى بغداد ، وعاد بهما إلى مصر ، بعد أن قاما بتجديد ولاء الأسرة الإخشيدية للخلافة العباسية.

وفى عهد المتقى ظهرت الفوضى ، بسبب قيام النزاع على منصب إمرة الأمراء ، إذ قام نزاعٌ بين ابن رائق وأبى عبد الله البريدى صاحب الأهواز، ثم خرج بجكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء سنة ٣٢٧هـ ، وظل فيها إلى أن قتل سنة ٣٢٩ هـ ، ثم دخل البريدى بغداد ولحق به منافسه ابن رائق . وانتهى الأمر بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المتقى إلى ناصر الدولة ابن حمدان بالموصل ، الذى قتل ابن رائق حتى لايقف فى وجهه ولا يحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء . وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة العباسى ، وتقلد أعباء هذه الوظيفة فى مستهل شعبان سنة ٣٣٠ هـ . على أن أيام الحمدانيين (٣٣٠ - ٣٣١ هـ) لم تطل فى بغداد ، ولم تكن حال بغداد فى عهدهم بأحسن منها فى عهد مَنْ سبقهم من أمراء الأمراء ، فقد طردهم منها توزون التركى رئيس الشرطة فى شهر رمضان سنة ٣٣١هـ ، وطارد جيوشهم إلى الموصل ، وتقلد إمرة الأمراء . بيد أن الصفاء لم يدم بين توزون والخليفة المتقى بسبب عمله على صرفه ، فقبض توزون عليه فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ ونهب أصحابه معسكره ، وأخذ الخاتم من يده ، ثم سجن وظل

مسجونا خمساً وعشرين سنة إلى أن مات فى شهر شعبان سنة ٣٥٧ ﻫ (١) .

ويعد المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ ﻫ) آخر الخلفاء فى العصر العباسى الثانى ممن وقع تحت سيطرة الأتراك على بغداد . وكان كغيره من خلفاء ذلك العصر ألعوبة فى أيدى الأتراك ، حتى أن توزون الذى أقره الخليفة فى إمرة الأمراء واستبد بالسلطة دونه « ضم إليه غلاماً تركيا من غلمانه ، يقف بين يديه»(٢)، وذلك حتى يقف هذا الغلام على أسرار الخليفة وما يجرى فى دار الخلافة . وفى هذا منتهى الدلالة على مدى الضعف الذى كان عليه الخليفة ، والهوّة التى انحدرت إليها الخلافة العباسية إذ ذاك .

ولا غرو فقد أصبح فى يد أمير الأمراء حبس الخليفة وخلعه وقتله ، فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة فى النفوس . ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى ، إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء . فكان إنقاذه تحولا عما كان فيه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بنى بويه إلى معونته وتخليصه ، فإذا ما وقع تحت رحمتهم صار ألعوبة فى يدهم(٣) .

ولم تكد فترة التنافس على إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ ﻫ) تنتهى ، حتى كان الضيق قد استحكم بأهل بغداد ، فصاروا يأكلون الكلاب والقطط ، وانتشر النهب والسلب بينهم ، وفر كثير منهم من بغداد إلى البصرة . ولكن أغلبهم كان يموت جوعا من شدة الضعف والفقر . وكان من أثر التنازع على إمرة الأمراء أن استعان بعضهم ببعض ذوى النفوذ ، مما أدى إلى الفوضى والاضطراب ، ودخول معز الدولة بن بويه سنة ٣٣٤ ﻫ مدينة بغداد . ومنذ ذلك الحين أصبحت الخلافة العباسية فى قبضة بنى بويه .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٣٢ .

(٢) المسعودى : نفس المصدر والجزء ص ٥٤١ .

(٣) Gibbon, VI. pp.54-55.

٢ — الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه

٣٢٤ — ٤٤٧ هـ = ٩٤٦ — ١٠٥٥ م

ينتسب بنو بويه إلى بهرام بن يزد جرد من ملوك آل ساسان ، وكان أبوهم أبو شجاع بويه فقيرا معدما من أهالى بلاد الديلم . وكان بنو بويه من الشيعة المغالين ، ولذا كانوا لا يعترفون بحق الخليفة العباسى السنى فى السيادة على جميع العالم الإسلامى ، وقد عمل سلاطين بنى بويه على أن يكونوا مطلق التصرف فى العراق ، ولم يتورعوا عن التعدى على أشخاص الخلفاء العباسيين وانتقاص حقوقهم .

الشروع فى إقامة خلافة فاطمية فى بغداد :

كان أول من تولى الحكم فى بغداد من بنى بويه ، على بن بويه ، الذى استولى على العراق سنة ٣٢٤ هـ فى عهد الخليفة العباسى المستكفى ولقب بلقب «معز الدولة بن بويه» (٣١٤-٣٥٦ هـ) ، أحد سلاطين الذين استحوذوا على السلطنة فى بغداد ، وقوى أمره واشتد نفوذه وخلع الخليفة المستكفى وسمل عينيه (١) . ولم يسلم بقية خلفاء بنى العباس من عسف بنى بويه فقد اتبعوا معهم سياسة تنطوى على الأثره والأنانية ، بل وفكر معز الدولة فى وضع حد للخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية أى فاطمية مكانها . ولكن بعض خاصته أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأى ، وأبانوا له أن الخليفة العباسى فى بغداد ضعيفا جدا ، ومن الممكن حبسه أوقتله متى خرج عن طاعة البويهيين ، أما خلفاء الفاطميين فإن فى استطاعتهم الاستبداد بالسلطة فى بغداد والقضاء على معز الدولة متى أرادوا (٢)، وانتصح بنو بويه بهذا الرأى

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٢ .

وعدلوا عن مسألة تحويل الخلافة من العباسيين إلى الفاطميين . ولو تم ذلك لتحقق للعلويين أملهم فى الخلافة ، الذى ظلوا يناضلون من أجل تحقيقه منذ قيام الخلافة الأموية .

قتل معز الدولة سنة ٣٦٣ هـ على يد عضد الدولة وذلك فى عهد الخليفة الطائع العباسى ، فانتقلت سلطة بنى بوية فى بغداد إلى عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٨٣ هـ) وخلع عليه الخليفة الطائع خلعة السلطنة وقلده سيفا وعقد لواءين أحدهما مفضض على رسم الأمراء والآخر مذهب على رسم ولاة العهود . ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغير عضد الدولة ، وكتب له الخليفة عهد وقرئ بحضرته(١)، ولم يكتف عضد الدولة بذلك بل عمل على ذكر اسمه فى الخطبة ، وحمل الخليفة على أن يمنحه تفويضا كالذى يعطيه الخلفاء لولاة عهودهم . وأمر عضد الدوله بأن يقرأ هذا التفويض على ملأ من الناس ، مع مخالفة ذلك لتقاليد الخلافة ، إذ كان الخليفة يعطى التفويض لولى عهده مغلقاً . كذلك اضطر الخليفة الطائع إلى أن يخرج لاستقبال عضد الدولة عند عودته إلى بغداد من إحدى رحلاته ، وهذا يبين لنا مدى نفوذ بنى بويه فى بغداد وسيطرتهم على الخليفة العباسى وأمور الدولة العباسية ، ويتضح ذلك جليا من أنه حين ساءت العلاقة بين الخليفة الطائع وبين عضد الدولة أمر الأخير بحذف اسم الخليفة من الخطبة فى بغداد وغيرها من المدن، وظل الحال على ذلك مدة شهرين.

الاعتراف بإمامة الفاطميين :

ويظهر لنا أن خلفاء بغداد اعترفوا بإمامة الفاطميين ، رغم ذلك العداء المستحكم بين الدولتين ، يدل على ذلك ، الكتاب الذى بعث به العزيز سنة ٣٦٥ هـ ، إلى عضد الدوله سلطان بنى بويه فى بغداد . يقول العزيز

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .

فى كتابه إلى عضد الدولة : « من الإمام العزيز بالله إلى عضد الدولة الإمام نصير ملة الإسلام . . . وبعد فإن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك ، فأدى ماتحمله من إخلاصك فى ولاية أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته ، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين ، فسر أمير المؤمنين بماسمعه عنك » . ورد عضد الدولة على كتاب العزيز بكتاب يعترف فيه بفضل أهل البيت ويقر للخليفة « أنه من أهل تلك النبعة الطاهرة وأنه فى طاعته » . ووجه الغرابة فى أمر هذه المراسلات أن عضد الدولة أرسل خطابه هذا الذى يعترف فيه بإمامة الفاطميين ، بعلم الخليفة الطائع العباسى ، مما يوضح لنا عظمة الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من تاريخها ، وعجز العباسيين عن الوقوف أمامها .

وبوفاة عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ ، تتابع على السلطة من بنى بويه فى بغداد ثلاثة إخوة ، هم : صمصام الدولة (٣٧٢-٣٧٦ هـ) وشرف الدولة (٣٧٦ - ٣٧٩ هـ) وبهاء الدولة (٣٧٩ -٤٠٣ هـ) الذى انتقلت السلطة إليه فى النهاية وخلع عليه الخليفة الطائع سبع خِلَع وعمامة سوداء ، ومشى الحجاب بين يديه ، وقرئ عهده (١) . إلا أنه مالبث سنة ٣٨١ هـ أن قبض على الخليفة الطائع ، لأنه حبس رجلا من خواصه ، ثم أفرج عن الخليفة بعد أن خلع نفسه من الخلافة وعهد بها إلى القادر بالله .

استبداد بنى بويه بالسلطة فى بغداد :

وعلى الجملة ، أصبح الخلفاء العباسيون لا قيمة لهم فى الوقت الذى أصبح فيه غيرهم أكثر قوة ونفوذا وأصبحوا يديرون العالم الإسلامى من

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم والدكتور وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٨٨ .

غير أن يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين . وأصبح هؤلاء الخلفاء ألعوبة فى أيدى سلاطين بنى بويه يجلسونهم على العرش ويعزلونهم عنه متى شاءوا وشاءت أهواؤهم ، ولم يعد للخليفة العباسى شىء فى عهد سيطرة بنى بويه سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ، وقد احتفظ بنو بويه للخلفاء بهذين المظهرين احتفاظا للخليفة بمركزه أمام الجمهور على اعتبار أنه لا يزال محتفظا بالسلطة الروحية على رعاياه ، رغم أنه مسلوب السلطة السياسية ، ومع ذلك فينبغى أن نذكر أن بنى بويه راعوا مظاهر احترام الخليفة العباسى فى الحفلات ، باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين : فكان الخليفة يستقبل السفراء ، ويلبس بردة النبى عليه السلام ، ويضع أمامه مصحف عثمان توكيدا لسلطته الدينية .

على أن نفوذ بهاء الدولة قد ازداد فى عهد الخليفة القادر (٣٨١ - ٤٢٤ هـ) واستبد بالسلطة دون الخليفة ، وتعصب للمذهب الشيعى دون السنة مذهب العباسيين وأضمر كل منها للآخر العدواة والبغضاء ، ونادى بذلك السلطان بهاء الدولة بن بويه سنة ٣٩٨ هـ فى زمن الخليفة العباسى القادر (٣٨١- ٤٢٢ هـ) . ولكن تحويل الخلافة إلى الفاطميين كان معناه القضاء على سلطان بنى بويه فى بغداد الذين جعلوا الخليفة ألعوبة فى يدهم ، فعندما تعرض نفوذهم فى العراق للخطر سنة ٤٠١ هـ حين أمر قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل ، الذى آلت إليه السيادة فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى الحاكم ، سارع بهاء الدولة ، رغم ميوله الشيعية ، بإرسال جيش اضطره إلى رد الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد ، قاصدا بذلك الاحتفاظ بسلطان بنى بويه فى العراق . وبذلك فشلت المحاولة الثانية التى بذلت فى سبيل إقامة خطبة فاطمية فى بغداد ، وكانت الأولى فى عهد البويهيين أيضا زمن

معز الدولة بن بويه ، حين كان خلفاء الفاطميين لا يزالون فى المغرب ولم تكن دولتهم قد تأسست بعد فى مصر (١).

تشهير الخلفاء العباسيين بنسب الفاطميين :

لجأ الخليفة العباسى القادر بعد تلك الحادثة ـ حادثة محاولة إقامة الخطبة للحاكم فى بلاد الخلافة العباسية ـ إلى سياسة التشهير بنسب الفاطميين . وتفصيل ذلك أن الخليفة القادر أمر فى ربيع الثانى سنة ٤٠٢ ه بكتابة محضر يقدح فى أنساب الخلفاء الفاطميين وعقائدهم ، على أن يقرأ فى بغداد وينشر فى الأمصار ، وجاء فيه : « وهم (أى الفاطميون) منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى إخوان الكافرين ونطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ومعتقدون ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس ، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر ، وهو منصور نزار الملقب بالحاكم ، هو ومن معه من سلفه الأرجاس الأنجاس ، عليه وعليهم اللعنة ، أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب وأن ذلك باطل وزور . . . وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار ، فساق ، فجار ، زنادقة ... عطلوا الحدود ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية »(٢) .

ويقول أبو المحاسن تعليقاً على موقف الحاكم إزاء الخليفة القادر أنه « لما بلغ الحاكم ذلك قامت قيامته ، وهان فى أعين الناس ، لكتابة هؤلاء الأعلام فى المحضر »(٣) .

وسار الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ ه) بن القادر على سياسة أبيه فى الطعن فى نسبهم ، تحقيراً لهم وصرفا للمسلمين عن أن يولوا وجوههم شطرهم .

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم والدكتور على إبراهيم : النظم الاسلامية ص ٨٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٠ .

واستكتب علماء بغداد سنة ٤٤١ هـ محضراً يمثل المحضر الذى كتب فى عهد أبيه طعناً فى الفاطميين .

إلا أن خطة الخليفة القادر والخليفة القائم فى محاربة الفاطميين بسلاح التشهير بنسبهم لم تؤد إلى الغرض المقصود ، وهو إضعاف نفوذ الفاطميين وحث الخاضعين لسلطانهم على الثورة عليهم . بل على العكس ما كاد عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ينتهى ويتولى عرش الخلافة الفاطمية المستنصر ، حتى امتد سلطان الفاطميين فى الشطر الأول من خلافته ، فشمل : الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالى إفريقية بما فى ذلك مصر ، وأصبح اسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقا ، كما أذيع اسمه على منابر اليمن والحجاز والموصل . وذلك الاتساع أكبر دليل على أن الدول الفاطمية اتسعت على حساب العباسيين .

ذكر اسم الخليفة الفاطمى على منابر بغداد :

إلا أن الأمر الخطير الذى حدث إذ ذاك ، وأثبت مدى الضعف الذى وصلت إليه الخلافة العباسية فى العصر الثانى ، هو ذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمى على منابر بغداد حاضرة العباسيين . فإن الأمير أبا الحارث أرسلان البساسيرى انتهز فرصة ضعف الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانشغال طغرلبك أول ملوك السلاجقة بفتح بعض بلاد العراق ، واشتباكه مع إبراهيم ينال الذى شق عصا الطاعة عليه ، ودخل البساسيرى بغداد فى اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ حاملا الرايات المستنصرية . فرحب به أهل الكرخ والذين كانوا شيعيين ، وازداد نفوذهم فى بغداد وأدخلوا فى الأذان عبارة « حىّ على خير العمل » كما انضم أهل السنة إلى الخليفة القائم بأمر الله[١] .

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

ودار القتال بين كل من السنيين وعلى رأسهم الخليفة العباسى ، وبين الشيعيين تحت قيادة البساسيرى . وانتهى الأمر بانتصار البساسيرى وأتباعه ، وخطب يوم الجمعة ١٣ ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ على منابر بغداد للمستنصر الفاطمى بجامع المنصور ، وانتهز بعض الأهالى هذه الفرصة ونهبوا دار الخلافة العباسية .

ولما استتب الأمر للبساسيرى فى بغداد قبض على الوزير أبى القاسم بن المسلمة ، وقال له « مرحباً بمدمر الدولة ومهلك الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد » . فقال له له ابن المسلمة : « أيها الأجل ! العفو عند المقدرة » . فقال له البساسيرى : وقد قدرت فما عفوت ، وأنت تاجر صاحب طيلسان ، ولم تبق على الحريم والأموال والأطفال ، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف ، وقد أخذت أموالى وعاقبت أصحابى ودرست دورى وسببتنى وأبعدتنى » [١] ، ثم أمر البساسيرى بحبس الوزير أبى القاسم .

أما الخليفة القائم فحمل إلى معسكره راكباً ، وعلى كتفه البردة ، وبيده سيف مسلول ، وعلى رأسه اللواء . ولما رأى ماحل به من الإهانة امتنع عن تناول الطعام وسار به إلى قلعة الحديثة حيث ظل مسجونا بها . وعند ما وصل الخليفة العباسى إلى الأنبار شكا البرد وبعث يطلب من واليها بعض الملابس ، فأرسل إليه جبة ولحافا .

وسار البساسيرى فى حكم أهل بغداد سيرة طيبة : فقد أحسن معاملتهم ، وبذل الأموال للفقهاء ، وأفرد لوالدة الخليفة داراً وعين لها راتباً شهريا ، وحبب إليه بحسن سياسته وعدم تعصبه كل من السنيين والشيعيين .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٩ .

ولما استقر الأمر للبساسيرى ، وأصبح مطلق التصرف فى بغداد ، أرسل إلى المستنصر بالله يبشره بامتداد نفوذه إلى بلاد العراق ويبلغه أن اسم الخليفة الفاطمى الشيعى فى مصر قد ذكر فى الخطبة على منابر بغداد ، مقر الخلافة العباسية . وفى الوقت الذى كان منتظراً فيه أن يحمد المستنصر للبساسيرى عمله ، ، فإنه لم يجبه إجابة تنم عن تأييده لعمله ولم يمده بالأموال الكافية . وكان ذلك بتأثير الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى الذى كان يحقد على البساسيرى ، فاستطاع أن يوغر صدر المستنصر عليه ويخوفه من عاقبة اتساع نفوذ البساسيرى فى العراق .

إلا أن البساسيرى لم يقابل السياسة التى اتبعها المستنصر إزاءه بسياسة مثلها ، بل على العكس واصل فتوحه فى بلاد العراق ، واستولى على البصرة وواسط وخطب على منابر جوامعهما بإسم المستنصر الفاطمى . وظلت الخطبة تقام بإسم المستنصر على منابر بغداد نحوا من سنة أى أربعين أسبوعا . واشتد نفوذ البساسيرى فى بغداد ، واتصل بالخلافة الفاطمية فى مصر ، حتى أنه فى أثناء السنة التى أقيمت فيها الخطبة بإسم الفاطميين فى بغداد ، أخذ عمامة الخليفة العباسى وعرشه وخلعته ، وأرسلها إلى المستنصر حيث حفظت فى قصر الخلافة الفاطمية ، حتى عرضت للبيع فى أثناء الشدة العظمى التى حلت بمصر فى عهد ذلك الخليفة .

ومن أطرف ما روى فيما يتعلق بإقامة البساسيرى الخطبة للمستنصر فى بغداد ، أن مغنية علمت بتوغل البساسيرى فى أراضى الدولة العباسية ، يفتتحها بإسم المستنصر ، فأنشدت :

يا بنى العباس صدوا	ملك الأمرَ معدَ
ملككم كان معارا	والعوارى تسترد (١)

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢ .

وطرب المستنصر لتلك الأغنية ، ووهبها أرضاً بمصر تعرف الآن بأرض الطبالة ، نسبة إلى هذه السيدة التي غنت هذه الأبيات بدف فى يدها . وأرض الطبالة تحد اليوم من الشمال والغرب بشارع الظاهر ، ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكة الفجالة ، ومن الشرق بشارع الخليج المصرى .

على أن الخليفة العباسى لم يقف مكتوف الأيدى إزاء ماقام به البساسيرى من نشر سلطان الفاطميين فى بلاد العراق ، فكتب إلى طغرلبك أول ملوك السلاجقة يطلب منه القدوم إلى بغداد وإخراج البساسيرى منها ، وكان الخليفة بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وقد لبى طغرلبك طلبه وسار بعساكره إلى بغداد ، ففر البساسيرى منها ، إلا أن طغرلبك ظفر به وقتله شر قتله سنة ٤٥١ هـ ، ثم أطلق سراح الخليفة القائم وأعاده إلى بغداد وخطب له على منابرها . وحين ذاك يصدق المثل الذى ذكرناه ، فإن الخليفة تخلص من سلطان البساسيرى والفاطميين ليقع تحت سلطان السلاجقة ، ويصبح حاله تحت إشرافهم أشد هوانا ومذلة ، لو استمر سلطان البساسيرى فى بغداد .

٣ – الخلافة العباسية في عهد سلاطين السلاجقة

٤٤٧ - ٦٥٦ هـ = ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م

ينتسب السلاجقة ، الذين استولوا على السلطة فى بغداد بعد بنى بويه ، إلى سلجوق بن تُقاق أحد رؤساء التركمان ، وموطنه الأصلى بلاد ما وراء النهر .

ولم تكن حالة الخلفاء العباسيين فى أيام السلاجقة ، تختلف اختلافا كبيرا عما كانت فى أيام بنى بويه . فبينما كان أمراء بنى بويه يقيمون فى بغداد ويجمعون كل السلطة فى أيديهم ، كان نواب السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة . ولم يكتف السلاجقة بما حل

بالبساسيرى ، بل عمدوا إلى استعادة نفوذ الخليفة العباسى أو على الأصح نفوذهم على الأقطار التى فقدتها الدولة العباسية ، نتيجة سياسة الفاطميين الخاصة بتوسيع رقعة إمبراطوريتهم على حساب العباسيين . وتنفيذاً لتلك السياسة التى رسمها طغرلبك ، أرسل السلطان ملكشاه ، أول سلاطين السلاجقه فى بغداد ، الجيوش إلى الشام سنة ٤٦٢ هـ ، فتمكنت من فتح الرملة وبيت المقدس . ولكنها عجزت عن فتح دمشق فعادت إليها ثانية سنة ٤٦٧ هـ ، حيث نجحت فى فتحها وحذفت اسم المستنصر من الخطبة وأحلت اسم الخليفة المقتدى العباسى محله . ولم يكتف بذلك بل سارت جيوش العباسيين بأمر ملكشاه إلى مصر ، وكان وزيره إذ ذاك بدر الجمالى ، ولكنها هزمت ، فعادت ثانية إلى دمشق ، وكانت الجيوش المصرية قد احتلتها ، فعادت تلك الجيوش إلى مصر سنة ٤٧٠ هـ .

كان الخلفاء العباسيون يعيشون فى أيام السلاجقة من إقطاعات مقررة يديرها عمال على رأسهم الوزير وكاتب الإنشاء كما كانت الحال أيام بنى بويه ، ولم يكن لهم من الأمر شىء سوى ذكر اسمهم فى الخطبة . ويدل على ضعف الخلفاء العباسيين فى عهد السلاجقة أن أهل بغداد طلبوا من الخليفة القائم (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ) هدم الحانات وإبطالها ، فوعدهم أن يكاتب السلطان (السلجوقى) فى ذلك [١] . وكان الخلفاء يقضون أوقات فراغهم فى الإشراف على بناء القصور وترميمها [٢] .

تحسن العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة :

إلا أن معاملة السلاجقة للخلفاء كانت أفضل بكثير من معاملة بنى بويه لهم ، يدل على ذلك : إن تلك العلاقات الطيبة التى سادت بين الخلفاء العباسيين

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٨

(٢) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, p. 327.

وسلاطين السلاجقة ، مما تجلى فى الخلع التى كانوا يتبادلونها ، فقد كان الخليفة ، إذا ما ارتقى عرش الخلافة يبعث فى طلب السلطان السلجوقى لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا ، كما كان السلطان السلجوقى يلتمس بعد توليه السلطنة التفويض من الخليفة العباسى .

٢ ـ كذلك راعى سلاطين السلاجقة أن يعاملوا الخليفة العباسى ، فى المناسبات المختلفة بالاحترام والإجلال اللائقين بمقامه . يدل على ذلك أن طغرلبك لما عاد سنة ٤٤٩ ﻫ إلى بغداد بعد إخضاعه الموصل حضر عند الخليفة القائم ، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع ، وعليه بردة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبيده القضيب الخيزران ، فقبل السلطان الأرض وقبل يده وأجلس على كرسى » .

٣ ـ وتظهر لنا تلك العلاقة الطيبة جلية من ارتباط البيتين السلجوقى والعباسى برباط المصاهرة ، وهى أحكم رباط يربط الأسر بعضها ببعض ، فقد تزوج طغرلبك فى سنة ٤٥٤ ﻫ من ابنة الخليفة القائم ، وتزوج المقتدى ابن القائم من ابنة السلطان ألب أرسلان (٤٦٤ﻫ) ، وتزوج الخليفة المستظهر من ابنة السلطان ملكشاه (٥٠٢ ﻫ) ، وتزوج الخليفة المتقى من فاطمة بنت محمد بن ملكشاه وأخت السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (١) .

٤ ـ زاد تلك العلاقات وثوقا بين البيتين العباسى والسلجوقى ، أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السنى مذهب الخلفاء العباسيين ، وقيل إن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسى لا لمركزه السياسى بل لأنه خليفة الله .

النزاع بين العباسيين والسلاجقة :

على أن هذه الروابط الوثيقه بين العباسيين والسلاجقة لم تحل دون قيام النزاع بينهم . يدل على ذلك :

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٨ و ٢٩ و ١٩٩

١ — أن سلاطين السلاجقة تعدوا على سلطة الخلفاء وانتهكوا حرمتها ، فلما غضب السلطان ملكشاه على الخليفة المقتدى ، بسبب تدخله فى شئون الحكم ، أمره بالخروج من بغداد والإقامة فى البصرة .

٢ — واتخذ سلاطين السلاجقة لقب « ظل الله » ، وهو لقب كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم ، واتخذ ملكشاه لقب أمير المؤمنين ، وهو لقب لم يكن يطلق إلا على الخلفاء فقط (١) .

٣ — أخذ السلاجقة من الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) بردة الرسول التى كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم الخلافة أو حضورهم الحفلات الدينية (٢) .

إلا أن هذه الأعمال العدائية لم تصدر عن السلاجقة إلا فى القليل النادر. وكانت معاملة السلاجقة لخلفاء بنى العباس بالحسنى ، عاملا من عوامل إحياء الأمل فى نفوسهم بإعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان ، حتى استطاعوا فى أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشىء من السلطة ، وبخاصة عند ما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقى . يستدل على ذلك من محاولة الخليفة المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) التدخل فى شئون الحكم ومحاولة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) إعادة ما كان لخلفاء بنى العباس الأول من نفوذ وقوة ، وذلك بخروجه على السلطان محمود (بن محمد بن ملكشاه) وهزيمة قواته . إلا أن محاولة هذين الخليفتين قد فشلت : وانتهى أمر الأول بإبعاده عن بغداد كما ذكرنا ، أما الثانى فقد أسره جند السلطان مسعود وقتلوه . وحاول الخليفة الراشد (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ) بن المسترشد الخليفة المقتول الثأر لأبيه ، ولكن مسعوداً سار إلى بغداد وحاصرها وأرغم الخليفة على الهرب إلى

(١) Camb. Med. Hist. Vol. IV. p 307.

(٢) Arnold : The Caliphate, p. 80.

الموصل والاحتماء بعماد الدين زنكى ، وإذ ذاك جمع مسعود القضاة والشهود وكتب محضراً بخلعه .

مات السلطان مسعود سنة ٥٤٦ هـ ، وبموته أفل نجم البيت السلجوقى ، فقد خلفه سلاطين من السلاجقة ، قضوا وقتهم فى اللهو واللعب والإدمان على شرب الخمر ، وتصادف أن كان على عرش العراق فى ذلك الوقت خليفة عباسى على جانب كبير من الشجاعة والشهامة يدعى المقتفى (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) ، وفيه قال السيوطى إنه « قليل المثل فى الأئمة ، لا يجرى فى دولته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه ، جدد معالم الإمامة ، ومهد رسوم الخلافة ، وباشر الأمور بنفسه ، وغزا غير مرة ، ولم ير مع سماحته ولين جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة فى شهامته وصراحته وشجاعته ، مع ماخص به من زهده وورعه وعبادته » . وكان السلطان مسعود قد تنبأ قبل وفاته بما سيكون للخليفة المقتفى من عظم الشأن ، فقال : « لقد أجلسنا فى الخلافة رجلا عظيما ، فالله تعالى يكفينا شره » (١) . وفى الوقت الذى ضعف فيه سلاطين السلاجقة ، جلس على العرش خلفاء أقوياء من بنى العباس .

وكانت وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ إيذانا بانتهاء العهد السلجوقى ، وتقاسم ملك السلاجقة دول شتى تعرف باسم دول الأتابكة . وكان أقوى الدول منافسة للسلاجقة ، هى دولة خوارزم إحدى دول الأتابكة التركية ، وفى عهد الخليفة المستضىء بالله العباسى (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) تمكن أحد ملوك تلك الدولة وهو علاء الدين تتش من الاستيلاء على بلاد خوارزم والاستقلال بها ومن القضاء بعد ذلك على ملك السلاجقة بالعراق .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ .

اتسع ملك علاء الدين تكش حتى امتد من أقاصى ماوراء النهر شرقا إلى بلاد الرى التى استولى عليها بعد قضائه على السلاجقة . ولكن ملكه بالرى لم يكن ثابتاً ، فقد عوّل الخليفة الناصر لدين الله العباسى (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) على أن تكون له سيادة الرى بعد رحيل خوارزم شاه عنها ، فأرسل إليها جيشاً استردها من عامل علاء الدين تكش فعاد هذا إلى الرى واستردها من جند الخليفة . وبعد وفاة علاء الدين تكش ، خلفه سنة ٥٩٦ هـ ابنه قطب الدين خوارزم شاه محمد ، فطلب إلى الخليفة أن يأمر بذكر اسمه فى الخطبة بدل السلاجقة ، فرفض الخليفة ذلك ، واشتدت العداوة بينهما حتى حذف خوارزم (أى ملك خوارزم) قطب الدين محمد إسم الخليفة من الخطبة على منابر بلاده .

وكان من أثر ازدياد العداوة بين الخليفة العباسى وخوارزم شاه ، أن استنجد الخليفة الناصر بالمغول (التتار) ، ليشغل بهم خوارزم شاه حتى يأمن شره ، ويحول بذلك دون ما قد يحوق ببلاده من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه. وليست هذه أول مرة يستنجد فيها خلفاء العباسيين بغيرهم . فقد راسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقى لينتشلهم من تحكم البساسيرى ، وأوفدوا الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة ، ثم استنجدوا أخيراً بالتتار ليمنعوا أذى خوارزم شاه عنهم ، ومن ثمّ فقد عاش خلفاء العصر العباسى الثانى تحت كنف الأتراك وبنى بويه والسلاجقة وخوارزم شاه والتتار .

وسرعان ما أغار التتار على بُخارى وسمرقند قصبة بلاد ما وراء النهر وكعبة العلماء ومعين الثروة والرخاء ، ثم استولوا على نيسابور والرى وهمذان وأذربيجان ، وغزوا جرجان وأرمينية الكبرى ، مرتكبين أقسى الفظائع وأشدها هولا ، وقضوا بذلك على دولة خوارزم ، وامتدت فتوحهم إلى

أوربا . وفى عهد كوبيلاى خان (٦٥٥ - ٦٩٣ هـ) إيلخان (أو إمبراطور) المغول فى فارس ، زالت الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وذلك فى عهد الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد .

٤ — زوال الخلافة العباسية من بغداد و نقلها إلى القاهرة ثم إلى القسطنطينية

زالت الخلافة العباسية من بغداد على يد هولاكو التترى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، فى عهد الخليفة المستعصم ، آخر خلفاء العباسيين فى بغداد ، وكان ضعيف الرأى ، غير ملم بحقائق الأمور فى دولته ، منصرفا إلى اللهو واللعب ، لذلك لم يستمع إلى نصح وزيره مؤيد الدين بن العلقمى حين حذره بالاحتياط والاستعداد لمواجهة خطر المغول ، فلم يزد إلا استهتاراً بقوة العدو (١) .

وسار هولاكو بجنده إلى بغداد سنة ٦٥٥ هـ (نوفمبر ١٢٥٧م) ، وبصحبته كثير من أمراء المسلمين ، واستولى عليها وأسر الخليفة المستعصم ، وأودعه هو وأسرته فى معسكرهم ، ثم استقر فى قصر المأمونية فى شرق بغداد ، وذبح المغول السواد الأعظم من الأهالى كما تذبح الشاه ، وأضرموا النيران فى المدينة فأتلفت مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم ومقابر الخلفاء فى الرصافة ، كما خربت معظم الشوارع والطرقات والبيوت حتى أصبحت المدينة أثراً بعد عين (٢) .

انتهت هذه الحوادث المحزنة ، بقتل الخليفة المستعصم وأولاده وسقوط

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٩٤ .

(٢) الفخرى ص ٢٩٧ .

بغداد فى أيدى التتار ، بعد أن ظلت زهاء خمسة قرون حاضرة للدولة العباسية ومركزا للعالم الإسلامى ومهبطا للعلماء .

على أن تلك الخلافة العباسية الزائلة ، مالبثت أن أحييت بعد قليل ولكن فى مصر ، فإن السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ) عند ماشعر بشك الناس فى مبلغ أحقية المماليك فى تولى أمور مصر ، استقدم أحد رجال الدولة الذين نجوا من المغول واسمه احمد بن الإمام الظاهر ، واستقبله بيبرس عند وصوله إلى مصر بمظاهر التكريم والإجلال ، وعقد مجلسا بقلعة الجبل ، حضره القضاة والعلماء والأمراء لبحث نسب هذا الإمام ، فأقروا جميعا بأنه متصل النسب بالعباسيين وبايعه بيبرس بالخلافة ولقبه المستنصر بالله . إلا أن بيبرس ومن جاء بعده من سلاطين المماليك لم يجعلوا للخليفة شيئا من السلطة ، إذ أصبح كل عمله إسباغ الصبغة الدينية على السلاطين بتوطيد دعائم ملكهم . ولم يباشر الخليفة العباسى فى القاهرة أى عمل من الأعمال التى تخص الدولة ، بل كان يقضى وقته فى العبادة ، وزيارة بعض ذوى الحيثية ، كما كان يؤتى به فى الحفلات الرسمية وبخاصة عند تولية سلطان جديد ليعترف بلقب السلطان باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين ، كما كان يبارك الجيش ويدعو له بالنصر ، ويتبع السلطان فى حملاته الحربية ، وقد استمرت هذه الخلافة العباسية الإسمية فى مصر زهاء قرنين ونصف قرن من الزمان (٦٥٩ - ٩٢٣ هـ) .

استمرت الخلافة العباسية بمصر إلى أن فتحها العثمانيون على يد السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ م . وقيل إن السلطان سليم أخذ معه الخليفة المتوكل آخر خلفاء العباسيين بمصر إلى القسطنطينية ، وتنزل له هذا عن الخلافة وسلـّمه شاراتها ، أى مخلفات الرسول وهى البردة التى كان يلبسها الخلفاء العباسيون فى بغداد وبعض من شعر لحية الرسول وسيف الخليفة عمر بن الخطاب . وأسهب المؤرخون المعاصرون فى ذكر ما آل إليه أمر الخليفة

المتوكل بعد فتح مصر ، إلا أننا لا نقف من ثنايا هـذه المعلومات على أية إشارة تتضمن انتقال لقب الخلافة إلى سليم ، حتى بعد أن رحل الخليفة العباسى إلى القسطنطينية . وأدلة ذلك :

١ ــ أنه لم يرد عن «الخليفة» أية إشارة ، فى ذلك الكتاب الطويل الذى بعث به السلطان سليم إلى ابنه سليمان ، يصف فيه مدى انتصاراته التى انتهت بفتح مصر .

٢ ــ أن سليما لم ينقش على السكة التى ضربت باسمه ، لقباً آخر من الألقاب غير لقب سلطان .

٣ ــ أن اسم سليم ورد فى الخطبة التى أقيمت له فى مساجد القاهرة فى اليوم الذى أحرز فيه النصر الأعظم ـ ٢٣ يناير سنة ١٥١٧م ـ مصحوباً بلقب سلطان .

٤ ــ أن سليمان لم يذكر فى مراسلاته مع أبيه سليم لقب الخلافة .

٥ ــ أن السلطان سليم وجد أن لقب الخلافة أصبح شائع الاستعمال مبتذلا ، وأن هذا اللقب صار يلقب به صغار الأمراء ، ولم يعد له شىء من مظاهر التقديس التى كانت له فى العصور الوسطى .

٦ ــ أن السلطان سليم وأسلافه ، رأوا فى أخذ التنازل من الخليفة المتوكل العباسى أمرا لا معنى له ، إذ أنهم بذلك يصبحون عالة على شخص ليس له نفوذ ، كالخليفة العباسى فى القاهرة .

وحذا السلاطين الذين خلفوا سليما حذوه ، فلم يحفلوا بلقب الخليفة . أما لقب الخلافة الذى يقصد به السيطرة على كافة المسلمين والذى كان يلقب به سلاطين العثمانيين فيما بعد ، فلم يظهر إلا فى القرن التاسع عشر فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى حيث ورد فى دستور ١٨٧٦م «أن حضرة صاحب العظمة السلطان بصفته خليفة المسلمين قد أصبح حامى الدين الإسلامى» . وزالت الخلافة نهائيا فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤م على يد مصطفى أتاتورك رئيس الجمهورية التركية السابق . ومنذ ذلك الحين لم يجمع المسلمون أمرهم على شىء فيما يتصل بهذا النظام ، وأصبح المسلمون اليوم بلا خليفة أو خلافة (١) .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٣٣ ــ ١٤٣ .

الباب الخامس

نظم الحكم والحياة الاجتماعية

من ظهور الإسلام إلى سقوط بغداد

نظم الحكم والحياة الاجتماعية

من ظهور الإسلام إلى سقوط بغداد

نظم الحكم (١) هى مجموعات القوانين والمبادىء والتقاليد التى تقوم عليها الحياة فى الدولة ، فمنها: النظم السياسية ، والإدارية ، والقضائية ، والحربية ، والمالية .

ويقصد بالنظام السياسى : الخلافة من حيث كونها نظاما للحكم ، ومن حيث نشأتها وارتقاؤها وضعفها . أما النظام الإدارى : فيقصد به إدارة الأقاليم من حيث بيان مدى سلطة الولاة فى ولاياتهم ودواوين الدولة وموظفيها ، والبريد ، والحجابة ، والكتابة ، والوزارة وعلاقتها بالهيئة العليا الحاكمة . ونعنى بالنظام الحربى : الجيش والأسطول وما بلغه كل منهما من عظمة وسؤدد ، والآلات الحربية المستعملة وأثرها فى القتال . أما النظام القضائى : فيبحث فى القضاء والحسبة التى تعتبر وسطا بين القضاء والمظالم . ويقصد بالنظام المالى : موارد بيت المال ومصارفه ، ونظام الضرائب وطرق جبايتها .

أما الحياة الاجتماعية : فهى بيان طوائف السكان ، ومكانة المرأة ، والملابس والطعام والشراب ، والأعياد المواسم والمواكب ، ومظاهر الفخامة التى كانت تحيط بكل منها ، والرياضة والألعاب ، والغناء والموسيقى .

---

(١) للمؤلف ، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن ، كتاب « النظم الاسلامية » (٣٨٤ صفحة) ، ولمن يريد الاستزادة من موضوع « نظم الحكم » الرجوع إليه .

أولا — من ظهور الاسلام إلى سقوط الأمويين

١ — النظام السياسي

حكومة الرسول :

فى القرن السابع الميلادى ، ظهر الدين الإسلامى الحنيف فى شبه جزيرة العرب ، على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقد قام النبى بالدعوة إلى الدين الجديد سراً وجهرا ، ونزل عليه القرآن مشتملا على الشرائع التى فرضت على المسلمين ، فكانت مهمة النبى من هذه الناحية مهمة القائم بالتشريع ، يفهم الناس معنى القرآن ، ويشرح لهم ماغمض عليهم منه بأحاديثه النبوية ، ومن ذلك الحين أصبح القرآن والأحاديث دستور المسلمين .

وكان لظهور سيدنا محمد أثره السياسى كذلك ، فقد نجح فى تكوين أمة واحدة تخضع لحكومة واحدة ، بعد أن كانت القبيلة هى الوحدة السياسية التى قام عليها المجتمع العربى قبل الإسلام . وقام الرسول بالإشراف على تلك الأمة خير قيام ، فوضع الأسس العامة لسياسة الدولة الجديدة ، وشرع لها القوانين . وتلك كانت مهمة شاقة ، إذ لم يكن العرب قبل الإسلام يسيرون على قانون خاص .

كانت حكومة الرسول حكومة دينية ، تعتمد إلى حد كبير على اعتقاد الناس أن النبى إنما يصدر فى أحكامه وتصرفاته عن وحى الله وأمره . وكانت هذه الحكومة تقوم على أساس إحلال الوحدة الدينية محل الشعور القبلى ، مما سهل على القبائل المختلفة طاعته والانضمام تحت لوائه .

ولكن بجانب ذلك ، كانت كل مظاهر الحكومة السياسية فى يد النبى :

فكان يقود الجيوش ، ويفصل فى الخصومات ، ويجبى الأموال . وفى كل الأمور التى لم يتعرض لها الوحى ، كان النبى - على مثال شيخ القبيلة - يستشير كبار المهاجرين والأنصار ، من أمثال أبى بكر وعمر وعلى ، وكان يقول : أشيروا على أيها الناس ، أما المسائل التى نزل بها الوحى فلم يكن للنبى ولا أصحابه رأى فيها .

انتخاب الخلفاء الراشدين :

تعد خلافة (١) الخلفاء الراشدين ، شورية انتخابية : ففى انتخاب أبى بكر ، رشح الأنصار سعداً ورشح أبوبكر أباعبيدة وعمر ، وسارع عمر إلى مبايعة أبى بكر فبايعه (٢) الحاضرون ، وأقر هذه البيعة عامة المسلمين ، وحضر الاجتماع أكثرية الصحابة بصرف النظر عن كونهم أنصاراً أو مهاجرين . وفى انتخاب عمر لم يستبد أبوبكر برأيه ، ولم يرغم جماعة المسلمين على قبول خلافة عمر ، بل استشار الصحابة فيه ، فأجمعوا على حسن هذا الاختيار ، وأعطت هذه السنة التى سنها أبو بكر من الشورى وعدم التوريث ، الحرية للخليفة فى انتخاب من يخلفه من غير قيد ولا شرط . وطريقة انتخاب عثمان أقرب إلى الشورى ، فقد تعدد المرشحون للخلافة ، وكان للمجتمعين فى مسجد المدينة من الصحابة وغيرهم أثر كبير فى توجيه الانتخاب وحصر الخلافة فى واحد من اثنين وهما : عثمان وعلى . وبايع علىّ أهل المدينة ، فصار خليفة بمقتضى هذه البيعة ، وإن لم يبايعه جمهور المسلمين فقد بايعته الأكثرية . وبذلك لم يتم انتخاب على على الصورة التى تم بها انتخاب من سبقه

---

(١) الخلافة : مصدر «خلف» ، يقال خلفه ، كان خليفته وبقى بعده ، والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء ، وهو نظام من أنظمة الحكم ، خاص بالاسلام .

(٢) البيعة : مصدر باع ، لأنها تشبه فعل البائع والمشترى ، وهى العهد على طاعة الخليفة ومعاهدته على التسليم له بالنظر فى أمور المسلمين .

من الخلفاء : فقد انتخب أبو بكر عن رضى من الصحابة الذين اجتمعوا بالمدينة وإن كانوا قد اختلفوا فى بادىء الأمر ، وبعد وفاة أبى بكر لم يكن ثمة اختلاف فى الرأى لأنه قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته ، ولما توفى عمر انتخب عثمان على أساس قانون الشورى الذى سنه عمر .

وكانت سلطة الخلفاء الراشدين مطلقة ، فلم تكن هناك حدود مرسومة تحدد واجباتهم بالدقة . والواقع أن سلطة الخليفة كانت تحدد بوجه عام بالشرع ورضاء الأمة ، فإذا لم يحكم حسب حدود الشرع ، سقط حقه فى الخلافة ووجب عزله على يد أهل الحق والعدل فى الأمة التى ولته . ويبين لنا التاريخ أن كل خليفة من الخلفاء الراشدين كان يتوخى أن يحكم وفق الحدود الشرعية ، إذا استثنينا عثمان بن عفان الذى رماه أعداؤه بأنه يقرب الأصهار ويبعثر الأموال ولا يحكم بالعدل . ويمكن القول أن الخلافة الحقيقية المستوفاة للشروط الشرعية لم تعد عهد الخلفاء الراشدين .

مميزات الخلافة الأموية :

صحب تحول الخلافة من الخلفاء الراشدين إلى الأمويين ، عدة مظاهر ليست من مقتضيات الخلافة ، كمظاهر الأبهة والجبروت . وكان معاوية يرمى إلى جعل الخلافة ملكا ، وليس أدل على ذلك من قوله : « أنا أول الملوك » ، وابتدع فى الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد ، ومنها أنه :

١ ـ اتخذ السرير[١] أو «العرش» ، وهو مألوف عند الأعاجم ، واعتذر إلى الناس بأنه قد سمن واحتاج إليه ، ويعد السرير من شارات الملك .

---

(١) السرير : هو أعواد مرتفعة عن الناس ، بحيث يكون الملك ظاهرا .

٢ ـ اتخذ المقصورة فى المسجد ، بعد أن كان الخليفة يصلى مع الناس ولا ينفرد دونهم ، فأصبح معاوية ومن جاء بعده يترفعون عن مخالطة رعيتهم ، واعتذر معاوية عن ذلك بأنه اتخذها بعد حادثة الخوارج الذين أرادوا اغتيـاله .

٣ ـ سن سنة الجلوس أثناء الخطبة ، بعد أن كان النبى عليه السلام والخلفاء الراشدون من بعده إذا خطبوا الناس خطبوهم وهم وقوف .

٤ ـ أحاط نفسه بحرس خاص ، وبذلك ظهرت فى الخليفة صفة الحاكم السياسى ، وأصبحت الخلافة الأموية ذات نزعة سياسية بجانب صفتها الدينيـــة .

٥ ـ عمل معاوية على تلافى الاختلاف بين المسلمين عند انتخاب الخلفاء ، بأن عهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد ، وأوجد بذلك لأول مرة فى التاريخ الإسلامى نظام ولاية العهد . واستعمل معاوية فى أخذ البيعة لابنه يزيد كل أنواع الحيل والدهاء ، وخالف شروط الخلافة وانتقل بها من خلافة شورية انتخابية إلى ملكية وراثية ، وتحولت الخلافة إلى ملك آل إلى صاحبه بقوة السيف والسياسة والكيد (١) .

وكان للوسط والبيئة أثر فى هذه المظاهر التى تجنح إلى الملك ، فقد كان معاوية يحكم الشام على حدود الدولة البيزنطية التى ألفت الترف والأبهة . وعند ما توجه عمر إلى الشام فى سنة ١٦ هـ لقيه معاوية فى حرسه وخيله ، فدهش عمر لذلك وقال : أ كسروية يا معاوية ؟ فقال : إننا بإزاء قوم يجب أن نتباهى أمامهم حتى يكونوا هائبين .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٥٠ ــ ٥١ .

٢ — النظام الإدارى

الدواوين :

بعد أن توالت الفتوح الإسلامية وأثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز الفرس ، رأى عمر بن الخطاب توزيع هذه الأموال على المسلمين. ولذا دوّن الدواوين[١] : فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء ، وجعل لكل واحد من المسلمين عطاء ، مراعياً فى ذلك السَّبق إلى الإسلام ونصرة الرسول ، ورتب الناس طبقات مبتدئين بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ثم بنى هاشم ثم بمن بعدهم ، وأنشأ بعد ذلك ديوان الخراج والجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال .

وكان سبب تدوين عمر للدواوين ، أن أبا هريرة قدم على عمر من البحرين ومعه مال ، فقال له عمر ماذا جئت به ؟ قال : خمسمائة ألف درهم . فقال عمر : أتدرى ما تقول ! قال : نعم : مئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم . فقال عمر: أطيِّب هو[٢] ؟ قال : لا أدرى . وصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلناه كيلا ، وإن شئتم نعده عدا ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدوِّنون ديوانا لهم ، فقال : دونوا الدواوين[٣] .

وفى عهد بنى أميه ، كانت دواوين الدولة العربية هى :

١ ـ ديوان الخراج : ولصاحبه الإشراف على جباية الخراج وطرق إنفاقه.

---

(١) الدواوين : مفردها ديوان ، وهى كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر ، وأطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذى يحفظ فيه الديوان .

(٢) يريد : أحلال هو .

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٦ ــ ١٧ .

٢ - ديوان الرسائل : وكان لصاحبه الإشراف على الرسائل التى ترد من الولاة .

٣ - ديوان المستغلات أو الايرادات المتنوعة .

٤ - ديون الخاتم : وقد أنشأه معاوية بن أبى سفيان ، وهو أكبر دواوين الحكومة ، كان فيه نواب مهتهم نسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان ، بعد أن تخرم بخيط وتختم بالشمع بخاتم هذا الديوان ، كما هو الحال اليوم فى قلم السجلات . وما زال ديوان الخاتم معدودا من الدواوين الكبرى من خلافة معاوية إلى أواسط الدوله العباسية ، ثم ألغى لتحول الأعمال إلى الوزراء والسلاطين وغيرهم . يقول الجهشيارى «وكان للأكاسرة أربعة خواتيم : فكان على خاتم الحرب والشرطة الأناة ، وعلى خاتم الخراج والعمارة التأييد ، وعلى خاتم البريد الوحاء (العجلة والإسراع) ، وعلى خاتم المظالم العدل»(١) .

٥ - ديوان الطراز(٢) : اقتدى المسلمون بالأكاسرة والقياصرة ، فاتخذوا الطراز عن الروم ، ولكنهم لم يستحسنوا اتخاذ الصور لتحريمها فى الإسلام ، بل استعاضوا عنها بكتابة أسمائهم وكلمات أخرى تجرى مجرى الفأل والدعاء .

وارتقى نظام الدواوين فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) ، فقد كانت السجلات فى أوائل عهده تكتب باليونانية فى الشام وبالفارسية فى فارس ، فأمر بتعريبها . وكان لتعريب الدواوين أثر عظيم ، فقد أصبحت لغة الدواوين هى اللغة العربية ، مما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين

---

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص٣.

(٥) هو أن ترسم أسماء الملوك والسلاطين أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج . مقدمة ابن خلدون .

من غير العرب ، بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدى المسلمين من العرب ، وأصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية ، وابتدأت من ذلك الوقت تظهر طبقة الكتّاب . ونقل الحجاج بن يوسف الثقفى لما ولى بلاد العراق دواوينها من الفارسية إلى العربية(١) . وقد ظلت الدواوين تدوّن باليونانية فى مصر إلى أن انتقلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ، فسار على سياسة أبيه فى تعريب الدواوين ، وحوّل ديوان خراجها إلى العربية ، وقام بتنفيذ هذه السياسة واليه على مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان وذلك سنة ٨٧ هـ .

وقرر عبد الملك بن مروان سنة ٧٣هـ سك عملة عربية إسلامية بعد أن كان العرب إلى ذلك الوقت يتعاملون بالدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية ، وبنى داراً لضرب النقود فى دمشق ، وأمر بسحب العملة المستعملة فى جميع أنحاء الدولة وضرب بدلها عملة جديدة مصنوعة من الذهب والفضة ونقشت عليها بعض الآيات القرآنية . ولما رأى الروم أن الأموال التى تؤدى إليهم قد كتبت عليها بعض الآيات القرآنية ، استاءوا من ذلك واعتبروه إهانة لهم ، مما أدى إلى وقوع الحرب بين العرب والروم .

الكتابة :

كان من أكبر أعوان الخليفة بعد الوزير ، هو الكاتب . وقد كان السواد الأعظم من العرب لا يعرف القراءة والكتابة ، وكان الخليفة يختار كاتبه من بين الذين يجيدون الخط ، وممن يعبرون عن رأيه بأبلغ العبارات وأفصحها ، وعرف من الكتّاب فى صدر الإسلام من الصحابة : عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان ، وهؤلاء كتبوا للنبى

---

(١) الجهشيارى : الكتاب والوزراء ص ٣٨ .

عليه السلام القرآن وحرروا الكتب التى أرسلها إلى الملوك والأمراء . ومن كتاب الرسول كذلك : عثمان بن عفان وسعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة (١) ، ولما ولى أبو بكر الخلافة اتخذ : عثمان بن عفان وعمر بن زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم كتابا له . وفى عهد خلافة عثمان كان مروان بن الحكم من أبرز الكتاب وصار عبد الله بن الأرقم كاتبا له ، وفى عهد خلافة عثمان كان مروان بن الحكم من أبرز الكتاب ، وصار عبد الله ابن أبى رافع كاتبا لعلى بن أبى طالب ، وهو الذى قال له الخليفة : ياعبد الله ألق (٢) دواتك ، وأطل شباه (٣) قلمك ، وفرج بين السطور ، وقرمط (٤) بين الحروف (٥) .

ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية ، تعدد الكتاب ، لتعدد مصالح الدولة ، ومن ثم أصبح الكتاب خمسة : كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى . وأهم هؤلاء فى الرتبة : كاتب الرسائل ، وكان الخلفاء لايولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم ، وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين (٦) .

الحجابة :

الحاجب موظف كبير ، يشبه كبير الأمناء فى أيامنا ، وكان يشغل منصباً سامياً فى البلاط ، ومهنته إدخال الناس على الخليفة ، مراعياً فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولم توجد هذه الوظيفة فى عهد الخلفاء الراشدين ، لأنهم

---

(١) الجهشيارى : كتاب الكتاب والوزراء ص ١٢ — ١٤ .
(٢) أصلح موادها .
(٣) سنه .
(٤) راعى الدقة فى الكتابة ، ودقق بين الحروف .
(٥) الجهشيارى : نفس المصدر ص ٢٣ .
(٦) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٣٤٩ .

كانوا يسمحون للناس بالدخول عليهم دون حجاب .

ولما انتقل الحكم إلى بنى أمية ، اتخذ معاويه بن أبى سفيان ومن جاء بعده من الخلفاء ، الحجاب ، بعد تآمر الخوارج على حياة على ومعاوية وعمرو ابن العاص ، خوفا على أنفسهم وتلافياً لازدحامهم على أبوابهم وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة[١] ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة فى أى وقت شاء : المؤذن للصلاة ، وصاحب البريد ، وصاحب الطعام . قال عبد الملك بن مروان لحاجبه : قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فإنه داعى الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد[٢]. وقال لأخيه عبدالعزيز بن مروان واليه على مصر : انظر حاجبك : فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يقف أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده[٣] .

البريد[٤]

يرجع نظام البريد إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، على أن مقاديره أو مسافاته لم تكن ثابتة بل كانت متفاوتة . وكان معاوية بن أبى سفيان أول من أدخل نظام البريد فى الإسلام ، أخذه عن الروم أثناء حكمهم فى الشام ، ولما تولى عبد الملك بن مروان خلافة الأمويين أدخل على البريد عدة تحسينات حتى أصبح أداة هامة فى إدارة شئون الدولة .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٨٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١١٥ .

(٤) البريد فى الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرسا مستريحا ، وكذلك فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة . وأما معناه اللغوى : فهو مسافة معلومة مقدرة بإثنى عشر ميلا . ابن طباطبا : الفخرى ص ١٠١ — ١٠٢ .

٣ — النظام القضائى

(أ) القضاء : فى عهد الرسول

لم يكن للمسلمين فى عهد الرسول قاض سواه ، لقلة عدد القضايا المرفوعة إليه وضيق رقعة الدولة . وكان يحكم بين الناس على أساس أحكام القرآن ، فيحضر المتخاصمان إليه مختارين، فيسمع كلام كل منهما . وكانت طرق الإثبات عنده: البيّنة(١) واليمين وشهادة الشهود والكتابة والفراسة والقرعة . ثم أذن عليه السلام لبعض أصحابه بفض الخصومات طبقا : للكتاب وهو أحكام القرآن ، والسُّنّة وهى ما صدر عن النبى من قول أو فعل ، والقياس وهو اتفاق مجتهدى الأمة على حكم شرعى لم يكن قد صدر فيه نص من القرآن أو السنة . وكان الحبس فى عهد الرسول لا يتعدى منع المتهم من الاختلاط بغيره ، وذلك بوضعه فى بيت أو مسجد وملازمة الخصم أو من ينيبه عنه ، له .

فى عهد الخلفاء الراشدين :

وسار أبو بكر سيرة النبى عليه السلام واهتدى بهديه وترسم خطواته وفعاله . وقد أسند أبو بكر القضاء إلى عمر بن الخطاب ، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان ، لما عرف عنه من الشدة والحزم ، على أن عمر لم يطلق عليه لقب قاض طوال خلافة أبى بكر .

ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة واتسع نطاق الدولة ، وكل أمر القضاء إلى أشخاص سموا «قضاة» . وبذلك كان عمر أول من عين القضاة فى الولايات الإسلامية ، فولى : أبا الدرداء قضاء المدينة ، وشريحا بن الحارث الكندى قضاء الكوفة ، وأبا موسى الأشعرى قضاء البصرة ، وعثمان بن قيس بن أبى

---

(١) البينة فى الشرع : إسم لما يبين الحق ويظهره ، بمعنى أن المدعى ملزم بإظهار مايبين صحة دعواه ، فإذا ظهر صدقه بإحدى الطرق ، حكم له .

العاص قضاء مصر ، وجعل قضاء الشام مستقلا . وسن عمر لهؤلاء القضاة دستورا يسيرون على هديه فى الأحكام ، ويعتبر الكتاب الذى تضمنه أساسا للقضاء فى الإسلام(١) ، وبعث عمر بهذا الدستور إلى أبى موسى الأشعرى وغيره من القضاة .

وكان القضاة يعينون من قِبَل الخليفة ، ويراعى فى اختيارهم : غزارة العلم ، والتقوى ، والورع ، والعدل ، والذكاء . ولذا كان القاضى فى عهد الخلفاء الراشدين مستقلا ، محترم الجانب . وكان اختيار القضاة فى الولايات يفوض أحيانا إلى ولاة الأمصار (٢) ، وأصبح الاجتهاد مبدأ يعتد به فى الأحكام القضائية . ولم يكن للقضاء كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام ، لأنها كانت تنفذ على أثر صدورها ، ويقوم القاضى بتنفيذها بنفسه ، وكان القاضى يجلس للحكم فى منزله ، ثم أصبح يعقد جلساته فى المسجد .

فى عهد بنى أمية :

وفى عهد الأمويين ، كان القاضى يحكم بما يوحيه إليه اجتهاده ، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التى تقيد بها القضاء فيما بعد قد ظهرت ، فكان القاضى يرجع إلى الكتاب والسنة للفصل فى الخصومات . ولم يكن القاضى فى ذلك العصر متأثرا بالسياسة ، فقد كان القضاة مستقلين فى أحكامهم لا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة ، وكانوا مطلقى التصرف وكلمتهم نافذة على الولاة وعمال الخراج .

وكان القضاة من خيرة الناس ، شريفى النفوس ، موفورى الكرامة ، يخشون الله ، ويحكمون بين الناس بالعدل . وكان الخلفاء بالمرصاد لمن شذ منهم

---

(١) يوجد نص هذا الكتاب فى كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ جـ ٢ ص ٢٣.
(٢) يقصد بالأمصار : الأقطار الإسلامية .

عن الطريق السوى ، فقد أمر الخليفة هشام بن عبد الملك بصرف يحيى بن ميمون الحضرمى عن قضاء مصر لأنه لم ينصف يتيما احتكم إليه . ومن قول عمر بن عبدالعزيز ، نتبين الشروط التى كان يجب أن تتوافر فى القاضى: «إذا كان فى القاضى خمس خصال فقد كمل : علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع . وحلم على الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاركة أهل العلم والرأى » .

وظهرت الحاجة فى ذلك العصر إلى وجود سجلات تدون فيها الأحكام التى يصدرها القضاة ، ولم يعرف هذا فى عهد الخلفاء الراشدين ، إلا أن تناكر الخصوم أدى إلى إيجاد هذه السجلات .

مرتبات القضاة :

كان عمر بن الخطاب أول من خصص راتبا للقاضى : ففرض للقاضى سليمان بن ربيعة خمسمائة درهم فى كل شهر، وجعل لشريح قاضى البصرة مائة درهم ومؤونته من الحنطة . واستمرت رواتب القضاة على هذا النحو زمن الخلفاء الراشدين ، ثم ارتفعت رواتب القضاة فى عصر الأمويين ، تبعا لزيادة موارد الدولة . وكان راتب القاضى يزيد إذا أسندت إليه أعمال أخرى : فقد كان عبد الرحمن بن حجيرة قاضى مصر فى ولاية عبد العزيز ابن مروان يتقاضى مائتى دينار(١) على القضاء ، ومائتى دينار على القصص ، ومثلها على بيت المال ، كما كان عطاؤه مائتى دينار ، وجائزته كذلك ، فكان يأخذ ألف دينار فى السنة . ولكن معظم القضاة فى زمن عمر بن عبد العزيز لم يتناولوا راتبا أصلا ، لأنه رأى أن القاضى لا يجوز له أن يتناول راتبا مقابل قيامه بهذه الخدمة الدينية . وبلغ راتب القاضى فى زمن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية عشرة دنانير فى الشهر ، كما ثبت من براءة وجدت فى

---

(١) الدينار = ٥ر١٥ قرشا تقريبا .

ديوان مروان كانت قد صدرت إلى خازن بيت المال بإعطاء عبد الرحمن بن سالم القاضى رزقه الشهرى فى ربيع الأول سنة ١٣١ هـ .

(ب) ديوان المظالم :

لم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين ، لأن الوازع الدينى فى عهدهم كان له سلطان على نفوس المسلمين الذين كانوا يجدون من أنفسهم زاجراً يمنعهم عن الظلم والاستهتار بحق الناس . غير أن على بن أبى طالب اضطر إلى النظر فى المظالم فى عهد خلافته ، ولكنه لم يعين لذلك يوماً معيناً ولا زمناً محدوداً ، بل كان ينظر فى شكاية من يأتيه من المتظلمين ويعمل على إنصافه .

ولكن تطور الأحوال وتغير طباع الناس واتساع الملك فى أيام بنى أمية ، دفع بعض خلفائها إلى تخصيص يوم للنظر فى مظالم رعاياهم . وأول من فعل ذلك ، عبد الملك بن مروان ، الذى كان يستعين بقاضيه ابن إدريس الأزدى فيما أشكل عليه ، فكان ابن إدريس هو المباشر وعبدالملك هو الآمر ، وقد أفرد يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين[١] .

وديوان المظالم هيئة قضائية عالية ، تشبه محكمة الاستئناف فى الوقت الحاضر ، ولذلك كانت سلطة صاحب المظالم ، أعلى بكثير من سلطة القاضى . قال ابن خلدون عن ولاية المظالم : « وهى ولاية ممتزجة من سطوة السلطة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة ، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدين ، وإليها النظر فى البينات والتقرير ، واعتماد الأمارات والقرائن ، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق ، وحمل الخصم على الصلح ، واستحلاف الشهود ، وذلك أوسع من سلطة القاضى » .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

وكان من اختصاص هذه الهيئة ، أن تنظر فى ظلامات الشعب ، وقد تكون هذه الظلامات من قضاة لم ينصفوا المتقاضين ، أو من ولاة استبدوا بالأمر وظلموا رعاياهم ، أو من جباة أموال حادوا عن الطريق المستقيم ، أو من أبناء الخلفاء أو أهل الجاه وأصحاب النفوذ ممن اغتالوا أموال الناس وأملاكهم ظلماً وعدوانا ، أو ماشابه ذلك من الشكاوى التى ربما لايستطيع القضاة تنفيذ أحكامهم فيها . ولم يقتصر اختصاص صاحب المظالم على النظر فى تظلم أصحاب الأرزاق إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم ، وتنفيذ مايعجز القاضى عن تنفيذه من الأحكام ومراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد(١) . ولهذا كانت تسند رياسة ديوان المظالم لرجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم « قاضى المظالم » .

وكانت محكمة المظالم تعقد برياسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما . وكان صاحب المظالم يعين يوما يقصده فيه المتظلمون ، إذا كان من الموظفين ، ليتفرغ لأعماله الأخرى ، أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال أيام الأسبوع . وكانت المحكمة تعقد فى المسجد ، ويحاط صاحبها بخمس جماعات ، لاينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم ، وهم :

١ — الحماة والأعوان : وكانوا من القوة ، بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف ، أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ — الحكام : ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ، والعلم بما يجرى بين الخصوم ، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين ، وكان القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات ، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا فى جلساتهم .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٧١ — ٧٢ .

٣ — الفقهاء : وكان يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتاب : ويقومون بتدوين أقوال الخصوم ، وإثبات مالهم وما عليهم من الحق .

٥ — الشهود : ومهمتهم إثبات مايعرفونه عن الخصوم ، والشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل .

(ح) الشرطة :

وبجانب هذه السلطة القضائية ، الممثلة فى القضاة وصاحب المظالم ، كانت توجد سلطة أخرى تتمثل فى صاحب الشرطة .

والمقصود بالشرطة ، الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى ، فى استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الأعمال التى تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس فى الليل ، وفى عهد على بن أبى طالب نظمت الشرطة وأسندت إلى رجال من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء فى أول الأمر ، وتقوم على تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمهيد الطريق لإقامة الأدلة على المتهم لإثبات الجريمة . وكان بعض القضاة يجمع بين ولايتى القضاء والشرطة .

(ى) الحسبة :

كان من واجب الخليفة أن يعاقب من يحيدون عن مبدأ الرفق بالحيوان ، ويتسببون فى تعطيل حركة المرور ، سواء كان التعطيل بإقامة بناء فى الطريق ، أو بمجرد الجلوس فيه . وهذه الأعمال التى تهم الجمهور ، ويقوم بها فى عصرنا جمعية الرفق بالحيوان ورجال الشرطة وغيرهم من الهيئات ، كان يقوم بها

الخليفة فى أول الأمر، ثم صارت من واجب القاضى، فلما كثرت وتنوعت عين للقيام بها موظف خاص يسمى « والى الحسبة » .

وكان والى الحسبة يعرف عند المتأخرين باسم « المحتسب » . وهو الذى ينظر فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام ، كما كان يقضى فى الجنايات التى يستدعى الفصل فيها السرعة ، حتى أن القضاء والحسبة كانا يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وعمل المحتسب مبنى على الشدة والسرعة فى الفصل(١) .

والحسبة منصب دينى يتصل بالقضاء . ومما يذكر عن عمر بن الخطاب أن بعضهم رآه يضرب جمالا ويقول : حمّلت جملك مالا يطيق ، وأن بعضهم رآه يضرب التجار إذا اجتمعوا على الطعام (يقصد به القمح) بالسوق حتى يبعدهم عن طرق المارة ويقول : لاتقطعوا علينا سابلتنا ، وأنه دخل السوق وهو راكب فرأى دكانا قد أحدث فكسره . وبذلك كان عمر أول من أدخل هذا النظام عند ما استعمل عبد الله بن عتبة على السوق . قال ابن القيم فى كتاب « الطرق الحكيمة » : وأما الحكيم بين الناس فيما لا يتوقف على الدعوى ، فهو المسمى بالحسبة ، والمتولى له والى الحسبة . وقد جرت العادة بإفراد هذا النوع بولاية خاصة .

وكانت مهمة المحتسب الإشراف على نظام الأسواق : فكان له نواب يطوفون فيها : فيفتشون الفنادق العامة ، ويشرفون على السقائين للتحقق من تغطيتهم القرب ولبسهم السراويل ، كما كان يحول دون بروز الحوانيت حتى لا تعوق نظام المرور ، وكان له أن يمنع الناس من حمل ما زاد على طاقتهم ،

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧١ — ٧٢ .

أو تحميل الحيوانات أو السفن أكثر مما ينبغى ، وكان له أن يشرف على نظافة الشوارع والأزقة ، ويحكم بهدم المبانى المتداعية وإزالة أنقاضها ، ومنع معلمى الكتاتيب من ضرب الأولاد ضربا مبرحا ، كما كان المحتسب يكشف عن صحة الموازين والمكاييل .

وارتقى نظام الحسبة فى الإسلام رقياً كبيراً ، وكان ينال قسطاً وافراً من عناية الخلفاء والفقهاء ، فعملوا على توسيع دائرة نفوذ المحتسب ، حتى جعلوها تشمل : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والنظر فى مراعاة أحكام الشرع ، والإشراف على المساجد للتحقق من إقامة الصلاة فى ميعادها وأن الأئمة يؤدون أعمالهم وفق الأوامر الشرعية .

٤ — النظام الحربى

الجيش : نظام الجيش

لم يكن للعرب فى الجاهلية نظام خاص للجند ، لأنهم كانوا على حالة البداوة الأولى ، فكان رجال القبيلة يذهبون للقتال مشاة وفرسانا إذا دعا داع ، حاملين أسلحتهم المعروفة فى ذلك الوقت وهى : السيف والرمح والقوس ، فإذا ما انتهى القتال عادوا إلى مساكنهم وانصرفوا إلى أعمالهم .

ولما جاء الإسلام ، بدأ العرب يقاتلون فى سبيل نشره بالغزو والفتح ، وكان عمر بن الخطاب أول من جعل الجند فئة مخصوصة ، وأنشأ ديوان الجند للإشراف عليهم بتقييد أسمائهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم ، وكان القتال فى عهد عمر قائماً على العاطفة الدينية والرغبة فى نشر الإسلام فى كثير من الأقطار . ولما تمكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام وفلسطين ومصر ، أقام الجنود فى هذه الأمصار فى معسكرات خاصة بهم ، واشتغلوا بالزراعة وعمدوا إلى تكوين الثروة وامتلاك العقارات الثابتة ،

وبذا فترت الروح العسكرية ، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم بأن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم . وإليه يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ولا يرتاحون أثناء الطريق إلا فى أكواخ مصنوعة من سعف النخل ، ومن ثم أنشئت العواصم وأقيمت الحاميات فى عدة أماكن لصد هجمات الأعداء المفاجئة . وكان عدد جند العرب عند فتحهم حصن بابليون يتراوح بين ١٢٫٣٠٠ و ١٦٫٠٠٠ ، ولما حدثت الفتنة التى أدت إلى انقسام المسلمين على أنفسهم فى عهد عثمان ، أصبح القتال فى سبيل الدفاع عن الرأى الذى يراه كل مسلم صالحاً لاستقامة الأمور فى ذلك الوقت وليس فى سبيل نشر الدين كما كان الحال فى عهد أبى بكر وعمر .

وبلغ عدد رجال الجيش فى عهد معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفاً ، من الجنود المرتزقة والمتطوعة ، وأدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجبارى ، وكان الجيش فى عهده من العنصر العربى ، ولما ملك الأمويون شمال إفريقية وبلاد الأندلس استعانوا بالبربر فى الجيش .

أسلحة الجيش :

كان الجيش يتألف من الفرسان ويتسلحون بالدروع والسيوف والرماح ، ومن الرجالة وأسلحتهم الحراب والأقواس والسهام . وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور ، بينما يرتدى الرجالة أقبية قصيرة متدلية إلى تحت الركبة وسراويلا ونعالا وكانوا يقفون فى صفوف متراصة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان .

وكان العرب يجيدون استعمال الأقواس والرمى بالنبال . وكان الرسول أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق ، وهو أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء ،

واستعمله لأول مرة فى قتال الطائف(١) . وكذلك سيَّر الرسول إليهم الدبابات وهى من آلات الحرب ، يدخل المحاربون فى جوفها إلى جدار الحصن فينقبونه وهم فى داخلها ، يحميهم سقفها وجوانبها من العدو ، واستعمل الرسول الضبُور ليتقى بها المسلمون النبل الموجه إليهم من علٍ وهى بمنزلة السيارات المدرعة اليوم(٢) .

ويرجع السبب فى تفوق العرب على أعدائهم : إلى أسلحتهم التى استعملوها وإلى ما امتازوا به من النشاط ، والخفة ، وسرعة الحركة ، والمثابرة ، والصبر على تحمل الشدائد ، والحماس ، وبذل النفس فى نصرة الدين .

إمرة الجيش :

كان الرسول عليه السلام قائد جيوش المسلمين ، ومن بعده أسندت قيادة الجيش إلى الخلفاء الراشدين . ولما تعددت الجيوش المقاتلة فى البلدان المختلفة ، اختار الخليفة لقيادتها قوادا عرفوا بالشجاعة والنجدة والإقدام واشتهروا بالذكاء وحسن التدبير ، وإذا اجتمع أكثر من قائد واحد فى مكان واحد ، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس فيصبح هذا القائد بمثابة قائد القواد . ومتى انتهى الفتح ووقف القتال ، أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر فى أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وأسلحتهم.

وكان ديوان الجند الذى استحدثه عمر بن الخطاب أكبر مساعد على تحسين نظام الجند وضبطه فى الإسلام . وأخذ المسلمون أيام النبى يقفون للقتال صفوفاً كما يفعلون فى الصلاة ، ثم يسيرون لملاقاة العدو متضامنين ، ليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه ، عملا بقول الله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)(٣) .

---

(١) ابن هشام : ج ٣ ص ٣٠٣ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٨٢ .
(٣) آية ٤ ، سورة الصف .

البحرية :

لما فتح العرب بلاد الشام ، شاهدوا سفن الروم فتطلعت نفوسهم إلى مجاراة أعدائهم وركوب البحر مثلهم ، وألح معاوية بن سفيان على عمر بن الخطاب أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحرا لقربها منه ، فكتب عمر إلى عمرو ابن العاص والى مصر يسأله أن يصف البحر ، فكتب اليه عمرو يقول : «يا أمير المؤمنين ! انى رأيت البحر خلقا كبيرا ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق» . فلما جاء الكتاب إلى عمر ، كتب إلى معاوية يقول «لا ، والذى بعث محمدا بالحق ، لا أحمل فيه مسلما أبدا» . ومما يدلنا على مبلغ كره العرب لركوب البحر ، أن عمرا بعد أن تم له فتح مصر ، أرسل إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى اتخاذ الأسكندرية حاضرة لولايته ، فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين! إذا جرى النيل ، فكتب إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حين أقدم عليكم قدمت ، وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الأسكندرية .

ويرجع الفضل إلى عثمان بن عفان فى إنشاء أول أسطول إسلامى للدولة العربية ، فقد أذن لمعاوية بن أبى سفيان فى غزو الروم بحرا ، على ألا يحمل أحدا على ركوب البحر كرها ، بل يجعل الأمر اختياريا ، ونجح معاوية فى غرضه ، فتشجع المسلمون وأقدموا على ركوب البحر وتفوقوا على الروم وغيرهم . وكثر عدد السفن وأتقن تسليحها ، وكان لهذه القوة البحرية أكبر الأثر فى اتساع رقعة الدولة الإسلامية .

وعنى معاوية بعد أن تولى الخلافة بإنشاء السفن الحربية ، ورتب « الشواتى » و « الصوائف » ، بما يكفل استمرار الحرب بينه وبين الدولة البيزنطية شتاء وصيفا . واستمرت البحرية الإسلامية فى عظمتها طوال العصر الأموى ، حتى بدأت الدول الإسلامية فى الشرق والغرب فى الانحطاط ، وإذ ذاك بدأت القوة البحرية فى الضعف .

إمرة الأسطول :

اهتم العرب بإنشاء الأساطيل ، وأصبح وجود بحرية إسلامية لصيانة الموانى ومنازلة الأعداء أمرا ضروريا . وبنيت السفن فى معظم الموانى البحرية السورية والمصرية ، وكانت السفن العربية أضخم من البيزنطية ولو أنها كانت فى الغالب أقل منها سرعة ، ولقيت التجارة البحرية تشجيعا كبيرا فقد كان بكل مرفأ منارة تدعى « الخشب » . ولم يكن الأسطول مؤلفا من السفائن التى ابتنتها الحكومة للمهام الحربية فحسب ، وإنما كان لزاما على كل مقاطعة أو ثغر تقديم عدد خاص من السفن إذا ما طلب منها ذلك . وكان لكل سفينة حربية قائد (أو مقدم) ، له القيادة فى كل ما يختص بسفينته فى البحر ، ومهمته تدريب الجند وتجهيز الحملات . وكان قائد الأسطول يدعى أمير الماء أو أمير البحر (١) . ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية ، ولكن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة ما لبثوا أن أصبحوا أساتذة أوربا ، حتى أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة فى أوربا تحتفظ بعربيتها إلى اليوم ، ولاتزال كثير من الاصطلاحات العربية البحرية شائعة على ألسنة البحارة فى جنوب أوربا (٢) .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٢) Von Kremer : Orient under the Caliphs, p. 356.

٥ — النظام المالى

كان بيت المال عند العرب بعد الإسلام بمثابة وزارة المالية فى وقتنا هذا : ففيه بيان شامل بمصادر الإيرادات المختلفة وبيان آخر بمصروفات الدولة بجميع أنواعها . ولم تكن الإيرادات كلها نقدا ، بل كان بعضها نوعا (أى من أنواع المحصولات) كالأقمشة والغلال والأسلحة . وكان لبيت المال نصيب فى الفىء والغنيمة ، وإليه ترد ضريبة الخراج والجزية والعشور والزكاة وما شاكل ذلك . وكان بيت المال يسمى « الديوان السامرى » لأنه أصل الدواوين ومرجعها ، وهو عبارة عن عدة بيوت تحفظ فيها أنواع الإيرادات ، يودع كل نوع فى بيت خاص : فكان هناك ديوان الخزانة للقماش، وديوان خزائن السلاح والذخائر . ومن إيرادات بيت المال ، تصرف أرزاق الجند والقضاة والولاة ، وتشترى الأسلحة والذخائر ، وتنفذ المشروعات العامة المفيدة مثل كرى الأنهار وإصلاح مجاريها وحفر الترع .

وأهم مواردبيت المال : الخراج ، والجزية ، والعشور ، والزكاة ، والفىء ، والغنيمة .

موارد بيت المال : (أ) الخراج

كلمة « الخراج » فى معناها ثلاث ضرائب : ضريبة الأرض الخراجية ، والجزية ، والعشور . وخراج الأرض عبارة عن الضريبة التى كان يجبيها المسلمون على الأرض التى كانوا يستولون عليها عنوة أو صلحا وتبقى فى يد أهلها (١) .

وكان الخراج : إماشيئا مقدرا من مال أوغلة كما صنع عمر بن الخطاب

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ .

فى أرض السواد بعد فتحها وقد بلغت ضريبة الفدان المنزرع قمحا فى هذه الأراضى فى عهده أربعة عشر درهما ، وإما حصة معينة مما خرج من الأرض وهذا مايسمى بالمعاملة أو المزارعة كما عامل النبى صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على أساس تقديم نصف ما يخرج من الأرض قليلا أو كثيراً .

ولم يكن مقدار الخراج معروفا تماما فى عهد الخلفاء الراشدين ، واختلف مؤرخو العرب فى تقديره : فقصره بعضهم على جزية الرؤوس التى كانت على أهل الذمة ، وقصره البعض الآخر على ضريبة الأرض ، وجمع آخرون بين الضريبتين ، وربما أدخلوا فى حسابهم كذلك العشور ونحوها . كذلك لم يكن مقدار الخراج ثابتاً ، فقد كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب الاهتمام والتعمير وتحسين وسائل الرى ، كما أن جزية الرؤوس كانت تتناقص بتوالى دخول أهل الولايات الإسلامية فى الإسلام . وكان الخلفاء يعينون فى العادة عمالا مستقلين عن الولاة والقواد للقيام بجباية الخراج . فيدفعون منه أرزاق الجند وما تحتاج إليه المرافق العامة من ضروب الإصلاح ، ويرسلون الباقى إلى بيت المال ليصرف فيما خصص له .

وكان عهد الخلفاء الراشدين عهد عدل وتسامح ، لم يشتد فيه الولاة فى جمع الضرائب . إلا أن بعض الجباة كانوا يسيئون استعمال سلطتهم ويرهقون الناس ، فكان حسن اختيارهم وفرض الرقابة على أعمالهم أمرا ضروريا . وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حسابا عسيرا . وسن عمر بن الخطاب لذلك نظاما ، يقضى بعمل إحصاء دقيق لثروة الولاة قبل توليتهم ، ثم إلزامهم عند إعتزالهم أعمالهم بدفع نصف الأموال التى جمعوها لأنفسهم فى أثناء ولايتهم ، إذا تبين له أن رواتبهم لا تسمح لهم بادخار هذه الأموال كلها . على أن بعض الولاة وعمال الخراج استطاعوا برغم ذلك جمع الثروات الضخمة ، واحتالوا لذلك

بوضع الأموال التى كانوا يجمعونها أمانة عند أصدقائهم أو ذوى قرباهم (١).
أما الأمويون فقد سنوا نظاما دقيقاً للإشراف على جباية تلك الأموال :
ففى عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق مع الجباة وموظفى الخراج
عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية ، وكانوا يعذبون أحيانا حتى يقروا بأسماء
من أودعوا عندهم ودائعهم وأموالهم ، ويردوا إلى بيت المال ما أخذوه
من الأموال .

وكانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج ، وهى : نظام المحاسبة ، ونظام
المقاسمة ، ونظام الالتزام .

ويقضى نظام المحاسبة : بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض أو
مقدار غلتها ، وكانت هذه الضريبة نقدا أو نوعا ، أو نقدا ونوعا معا وهى
عبارة عن مقادير معينة من المال والغلة ، تجبى كل عام على أساس مساحة كل
قطعة من الأرض ، بحسب نوع غلة الأرض .

أما نظام المقاسمة : فيقضى بتخصيص مقدار من المحصول يؤدى
لبيت المال ، بمعنى أن يقدر لذلك ثلث المحصول أو ربعه وهكذا ، كما يفعل
بعض أصحاب الأراضى الزراعية فى مصر الآن عند تأجير أطيانهم
للفلاحين ، حيث يؤجر الفدان نظير استيلاء مالكه على نصف محصوله
أو ثلثه . واتبع بعض الخلفاء طريقة المقاسمة ، وهذه الطريقة ، وإن كانت
أقرب إلى صالح الفريقين ، إلا أنها متعبة مربكة للحكومات .

أما نظام الالتزام : فهو أن يتعهد شخص من ذوى الغنى والنفوذ ، بدفع مال
سنة عن خراج إقليم من الأقاليم أو خراج إحدى المدن أو القرى ، ويقوم
هو بجمع الخراج بنفسه من هذه الجهة ، وكان الكثيرون يتنافسون فى

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٨٧ .

الحصول على هذا الامتياز ، وقد تحدث مزايدة بين المتنافسين ، فيحصل على الالتزام أكثرهم عطاء . وفى هــذه الطريقة ضمان كاف فى تحصيل الضرائب ، وبطريقة عاجلة . وكان الصحابة فى صدر الإسلام يكرهون طريقة الالتزام هذه ، وينهون عن اتباعها . غير أنه بمضى الزمن وتطور الأحوال ، واختلاط العرب بالرومان لجأوا إلى اتباعها بعد أن اقتبسوها منهم ، لأنها كانت شائعة فى الدولة الرومانية . وهـذا النظام قديم ، يرجع إلى اليونان ، ولم يلبث العرب أن أدخلوا نظام الالتزام فى القضاء والحسبة والشرطة .

على أن نظام الإقطاع[1] لم يخل من العيوب ، إذ أن المقطع أو الملتزم يعمل على الإثراء وجمع الأموال الضخمة ولا يتردد فى إرهاق الأهالى وإثقالهم بأنواع الضرائب المختلفة ، ليستطيع أن يؤدى إلى الحكومة ماعليه من مال الخراج ، ويحفظ ما زاد لنفسه ، والأهالى من ذلك مغلوبون على أمرهم ، قلما تصل شكاياتهم إلى السلطة المركزية .

(ب) الجزية :

والجزية مبلغ معين من المال ، يوضع على الرؤوس ، ويسقط بالإسلام ، وثبتت الجزية بنص القرآن فى قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)[2]. والفرق بين الجزية والخراج : أن الخراج يجبى على الأرض ، ولا يسقط

---

(١) يقال اقتطع طائفة من الشيء أخذها ، وأقطعنى إياها أذن أن يقطعه إياها . والاقطاعة طائفة من أرض الخراج يقطعها الجند فتجعل لهم غلتها رزقا

(٢) آية ٢٩ سورة التوبة .

بالإسلام ، وثبت بالاجتهاد . وليست الجزية من مستحدثات الإسلام ، بل هى قديمة ، فرضها الإغريق على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد نظير حمايتهم من الفينيقيين ، كما وضع الرومان والفرس الجزية على بعض رعايا الدول التى أخضعوها ، وكانت سبعة أمثال الجزية التى وضعها المسلمون ، والظاهر أن العرب أخذوا هذا النظام عن الفرس .

وكانت الجزية فى أيام النبي وأبى بكر غير محدودة ، فكان أمر تقديرها متروكا لهما ، حسب مايراه كل منهما من ظروف الأحوال ، أو بالتراضى مع أهل الجزية . ولما كثرت الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر رأى تحديد قيمتها ، وكتب إلى أمراء الجند بما قرره فى ذلك . وساروا على طريقة التحديد ، غير أن القيمة تغيرت ، وقدرت حسب درجات الناس ومقدرتهم ، فجعلت فى السنة :

(١) ٤٨ درهما تفرض على الأغنياء .

(٢) ٢٤ درهما تفرض على متوسطى الحال .

(٣) ١٢ درهما تفرض على الفقراء الذين يستطيعون الكسب .

وفى مصر ، فرض عمرو بن العاص دينارين فى كل سنة على كل رجل من أهل الذمة ، واستثنى من ذلك النساء والصبيان والشيوخ .

وكانت الجزية لا تؤخذ من مسكين يتصدق عليه ، ولا ممن لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ولا من المترهبنين فى الأديرة إلا إذا كانوا من الأغنياء (١) ، ولا تجوز إلا

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ — ٧٢ .

على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على إمرأة ولا صبي ، ولا تقبل الجزية من عبدة الأوثان من العرب ولا من المرتدين ، فأولئك كانوا يخيرون بين الإسلام والسيف ، والحكمة فى ذلك الرغبة فى توحيد الأمة العربية .

وقد فرضت الجزية على الذميين ، فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، حتى يتكافأ الفريقان : لأن الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة ، وينتفعون بمرافق الدولة بنسبة واحدة . لذلك أوجب الله الجزية للمسلمين ، نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى الأقاليم الإسـلامية التى يقيمون فيها . وفرضت الجزية على أهل الذمة ، نظير إعفائهم من القتال فى جيوش المسلمين وحمايتهم من الأعداء والدفاع عنهم وعن أملاكهم ومنحهم حرية العبادة .

(حـ) العشور والزكاة :

أما العشور فهى ضريبة كانت تفرض على السفن التى تمر ببعض الثغور وكذلك على التجارة عند مرورها من إقليم إلى إقليم ، وقيمتها عشر حمولة السفن وثمن المتاجر ، وهى تشبه الضرائب الجمركية فى الوقت الحاضر . وأول من فرض العشور عمر بن الخطاب .

والزكاة (١) والصدقة شيء واحد ، وهى المـال الذى يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع على فقرائهم ، وكانت تجبى من المسلمين فى كل سنة ، ولها فى مركز الخلافة ديوان خاص ، له فروع فى الجهات المختلفة . وقد خص الله سبحانه وتعالى بعض الناس بالأموال دون بعض ، نعمة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يؤدونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيما ضمنه بقوله : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) (٢) . وقد

---

(١) من أزكى الشيء ، يزكيه إذا نماه ، أو من زكاه تزكية إذا طهره .
(٢) آية ٦ سورة هود

سميت الزكاة بهذا الاسم ، لأن إخراج شيء من مال الإنسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وإنزال البركة فيه ، ولأن إخراج شيء من المال يطهره ، ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء ، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة ، قال تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)(١). وكانت أموال الزكاة توزع على ثمانية أصناف من الناس وهم الذين ورد ذكرهم فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين (٢) ، والعاملين عليها (٣)، والمؤلفة قلوبهم (٤)، وفى الرقاب(٥)، والغارمين (٦)، وفى سبيل الله (٧) ، وابن السبيل (٨) فريضة من الله والله عليم حكيم) (٩) .

ويلاحظ أن ما خص الفقراء والمساكين من صدقة مدينة ما ، وجب توزيعه على أهل هذه المدينة نفسها ، ولا يجوز توزيعه على أهل مدينة أخرى ، وللخليفة أن يتصرف فى الباقى كما يرى ، ولكن فى حدود الوجوه التى أوضحها .

---

(١) آية ١٠٣ سورة التوبة .

(٢) اختلف علماء اللغة وأصل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين ، وفى حد الفقر الذى يجوز معه الأخذ من الصدقة .

(٣) العاملون عليها : هم السعاة والجباة الذين يبعثهم الامام لتحصيل الزكاة .

(٤) المؤلفة قلوبهم : هم قوم كانوا فى صدر الاسلام ممن يظهرون الاسلام ، ويتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم ، وقد انقطع هذا الصنف بعد توطيد دعائم الاسلام .

(٥) الرقاب : الرقبة تعتق وولاؤها للمسلمين .

(٦) الغارمون : هم الذين ركبهم الدين ، وليس عندهم ما يوفونه به .

(٧) المراد بقوله تعالى (فى سبيل الله) : الغزاة موضع الرباط ، يعطون ما ينفقون فى غزوهم سواء أكانوا فقراء أم أغنياء .

(٨) المراد بقوله تعالى (ابن السبيل) : الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقره وماله ، فإنه يعطى من الصدقه وإن كان غنيا فى بلده .

(٩) آية ٦٠ سورة التوبة .

(د) الفيء والغنيمة :

والفيء(١) هو كل مال وصل من المشركين للمسلمين عنوة من غير قتال، ولا بإيجاف (٢) خيل ولا ركاب، فهو كمال الهدنة والجزية والخراج. وخمس الفيء يقسم على خمسة أسهم : سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه فى مصالحه ومصالح المسلمين، وقد سقط بموته صلى الله عليه وسلم. أما أربعة أخماس الخمس فسهم لذوى القربى، والمراد بهم قربى الرسول، واختلف فيهم فقيل : إنهم قريش كلها، وقيل بنو هاشم خاصة. وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل عملا بقوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى، فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)(٣)، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم ». وكانت أربعة أخماس الفيء الباقية تقسم فى صدر الإسلام بين الجند فى الأعمال الحربية لشراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند.

وإذا جمعت « الغنائم » (٤) لم تقسم حتى تنجلى الحرب، ليعلم بانجلائها تحقق الظفر واستقرار الملك، ولئلا يتشاغل المقاتلة بها فيهزموا، كما حصل لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد. فإذا انجلت الحرب كان تعجيل قسمتها فى دار الحرب، وجواز تأخيرها إلى دار الإسلام بحسب ما يراه أمير الجيش من الإصلاح (٥). ويبدأ الإمام بإخراج الخمس من

---

(١) الفيء : من فاء يفيء، إذا رجع.

(٢) الإيجاف : سرعة السير. والركاب : الإبل التى يسافر عليها، لا واحد لها من لفظها أى فى تحصيله خيلا ولا إبلا، بل حصل بلا قتال

(٣) آية ٦ سورة الحشر.

(٤) الغنيمة فى اللغة : ما يناله الرجل والجماعة بسعى.

(٥) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٣٤، وما بعدها.

جميع الغنيمة ، فيقسمه بين أهل الخمس على خمسة أسهم وهم من ذكروا فى قوله تعالى : (وأعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)(١) ثم أربعة الأخماس ملك للقائمين ، غير أن الإمام إن رأى أن يمن على الأسرى بالإطلاق فعل ، وبطلت حقوق القائمين فيهم ، وللإمام أن يقتل جميع الأسرى ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم القائمين ، حضر أو غاب ، وسهم الصفى يصطفى سيفا أو خادما أو دابة (٢) .

نظام الضرائب في عهد الامويين :

كان عهد الخلفاء الراشدين والأمويين عهد عدل وتسامح ، لم يشتد الولاة فيه فى جمع الجزية إلا قليلا . على أن الضرائب قد زادت فى عهد بنى أمية عما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يتبع الخلفاء الأمويون القواعد التى قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التى فرضوها . وقد كتب معاوية إلى وردان عامله على مصر : أن زد على كل امرىء من القبط قيراطا ، فكتب إليه وردان : كيف أزيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم ؟ وفى عهد عبد الملك عمل إحصاء جديد للسكان عامة وكلف كل شخص بسداد ما فرض عليه من الضريبة ، وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير عما كانت عليه من قبل(٣)، وفى العراق زيدت الضرائب الاستثنائية . مع ما كان يثقل الأهلين من الضرائب المقررة . وكان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة عند

---

(١) آية ٤١ سورة الأنفال .
(٢) الدكتور حسن إبراهيم والدكتور على إبراهيم : النظم الاسلامية ص٢٨٢ — ٢٨٣ .
(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج ص٤٣ .

اعتزالهم أعمالهم الإدارية ، وكانوا يرغمون على رد ماسلبوه من الأموال(١). وذلك لأنه لم يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يثرون على حساب بيت المال ، بل كانت هناك طائفة من صغار الموظفين لا همّ لها إلا الإثراء من أموال الدولة ، ولم تكن إمرة إحدى الولايات إذ ذاك سوى وسيلة للحصول على الثروة وجمع المال . وكان من أثر تلك الصعوبات التى اعترضت الحكومة فى سبيل استرداد تلك الأموال ، أن فكر عبيد الله بن زياد والى العراق ، فى أن يستبدل بأولئك العمال من العرب غيرهم من الفرس ، ومن ذلك الحين كان يعهد إلى الدهاقين(٢) بجباية الخراج ، لأنهم كانوا « أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة » .

ولم يطمع الخلفاء فى كثرة المال إلا فى أواخر بنى أمية ، فإنه فى خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) اشتط أسامة بن زيد صاحب الخراج فى جمع المال حتى جبى إثنى عشر ألف دينار(٣). فلما تولى عمر بن عبد العزيز ، بعث إليه واليه فى مصر أيوب بن شرحبيل الأصبحى(٤) يشكو كثرة دخول الناس فى الإسلام ، ويذكر له أثر ذلك فى الخراج ، فبعث يستأذنه فى فرض الجزية على من أسلم ، فرد عليه عمر بكلمته الخالدة : قبّح الله رأيك ! إن الله بعث محمداً هاديا ولم يبعثه جابيا ، فضع الجزية عمن أسلم ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه . وقد أمر عمر بن عبد العزيز جباة الخراج ألا يأخذوا من الأهالى من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطا ، وهو ما أمر به عمر بن الخطاب . ورأى أن العمال

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ، ترجمه الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٢٧—٣٣ .

(٢) هم كبار ملاك الأراضى .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٩ .

(٤) قيل إنه حيان بن شريح . خطط المقريزى .

كانو ايأخذون دراهم أثقل وزنا من تلك الدراهم التى فرضها عمر بن الخطاب ، عما كان يزيد مقدار الضرائب التى كان يدفعها الأهالى ، وكانوا يدفعون : عدا الضرائب المقررة ، نفقات سك النقود وضربها ، ونفقات العقود الرسمية ، ومرتبات عمال الإدارة .

مصارف بيت المال :

كان المال الذى يأتى من الموارد المتقدمة ، ينفق على مصالح الدولة على النحو الآتى :

١ — دفع أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين . ولا يصرف للولاة والقضاة شىء من أموال الصدقة ، وكانت زيادة رزق الوالى أو القاضى من حق الخليفة .

٢ — دفع أعطيات الجند ، وهى رواتبهم التى يستولون عليها فى أوقات معينة من العام . وكانت فى أيام الرسول عليه الرسول عليه السلام غير محدودة ولا معينة ، وإنما كانوا يأخذون من أربعة أخماس الغنيمة ، وما يرد من خراج الأرض التى بقيت فى أيدى أهلها كما كانت تقسم بينهم بالسوية . ولما ولى أبو بكر سوى بينهم فى العطاء قائلا : هذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة . ولكن عمر بن الخطاب جعل العطاء بحسب السبق إلى الإسلام ، فكان : لأزواج الرسول ولعمه العباس ١٠٫٠٠٠ درهم إلا عائشة فقد أعطاها ١٢٫٠٠٠ لمكانتها ومكانة أبيها من الرسول(١) ، ولمن شهد بدرا والحسن والحسين ٥٠٠٠ درهم ، ولمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر لم

---

(١) بدر الدين بن جماعة : تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام ، العدد ٧ ص ٣٨٤ . من مجلة Islamica ، سنة ١٩٣٤ .

يشهدوها ٠٠٠ر٤ درهم ، ولعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار ٠٠٠ر٣ درهم ، ولأبناء المهاجرين والأنصار ٠٠٠ر٢ درهم ، ولأهل مكة ٨٠٠ درهم ، ولسائر الناس مبالغ تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ درهم ، ولنساء المهاجرين والأنصار مبالغ تتراوح بين ٢٠٠ ، ٠٠٠ر٣ ، ٠٠٠ر٤ ، ٦٠٠ درهم ، ولأمراء الجيوش ٧٠٠٠ ، ٠٠٠ر٨ ، ٩٠٠٠ درهم بحسب الأعمال التى يقومون بها فضلا عما كان يدفع لنسائهم وأولادهم وما فرض لكل منهم من الحنطة وهو ما يخرج من مساحة جريبين(١) . وظلت أعطيات الجند على هذا النحو أيام الخلفاء الراشدين ، ولكن فى عهد الأمويين زاد معاوية أعطيات جنده ، وذلك رغبة منه فى استرضاء العرب فى بدء قيام دولته ، ولكن بعد أن توطدت دعائم الدولة الأموية أنقص خلفاؤها المبلغ الذى كان يصرف على تلك الأعطيات إلى أقل من النصف .

٣ — حفر الترع وكرى الأنهار وإصلاح مجاريها وخاصة المجارى التى كانت تأخذ من الأنهار الضخمة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة ، وكذلك الإنفاق على المعدات الحربية وعلى ما يلزم المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ، وغير ذلك مما يستلزمه بذل العطايا والمنح للأدباء والعلماء(٢) .

---

(١) الجريب من الأرض والطعام : مقدار معلوم ، وقيل إنه ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، وقيل إنه عشرة آلاف ذراع .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٤ — ١٩٦ .

الحيـــاة الاجتماعية

طبقات الشعب :

كان ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية وانتشاره منها إلى أمم الأرض المختلفة ، أعظم انقلاب شاهده القرن الأول الهجرى ، وكان من نتائجه انقلاب اجتماعى آخر لا يقل عنه خطورة ، ونعنى به المســاواة التامة بين معتنق الدين الجديد .

كانت المساواة بين الناس ، مبدأ من أهم مبادىء الحكومة الإسلامية الأولى التى أنشأها النبى عليه السلام ، يوم دخوله المدينة المنورة واستقر بها زعيما للأوس والخزرج ومن هاجر إليهم من قريش . وكانت الحكومة عربية خالصة فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، ونظر الأمويون إلى غير العرب من أهالى الأقطار المفتوحة نظرة السيد للمسود برغم اعتناقهم الإسلام ، وهؤلاء اصطلح على إطلاق كلمة موالى عليهم ، أما الذين رفضوا اعتناق الدين الجديد من النصارى واليهود فهم أهل الذمة وكانت لهم الحرية التامة فى إقامة شعائر دينهم بشرط أن يدفعوا الجزية للمسلمين .

وقد حرم على « الموالى » بعض الحقوق والامتيازات التى تمتع بهـا إخوانهم العرب مما أثار روح القومية فى نفوسهم ، فثاروا على الحكم الأموى ، وانتهزوا الفرص كلما لاحت لهم للقضاء على الدولة الاموية(١) : فانضموا إلى عبد الله بن الزبير الخارج على الدولة وأيدوه فى مطالبته بالخلافة ، واشتركوا فى ثورة المختار التى يراها البعض أول حركة قوية استغلها الموالى لـكى ينتقموا لأنفسهم ويحققوا مآربهم بإرجاع السيادة القومية لهم وتحطيم

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٤٠٨ .

السيادة العربية(١) . كذلك اشترك الموالى فى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج والدولة الاموية ، وكانت هذه الثورة ذات أثر كبير فى إضعاف الحكومة القائمة ، وهى وإن فشلت فى النهاية بالقضاء على ابن الاشعث ، إلا أنها أيقظت الآمال فى نفوس الأحزاب المعارضة ، فاستسلموا للهدوء حينا من الدهر ريثما تحين لهم الفرصة المناسبة(٢).

هذا إلى أن العنصر العربى نفسه لم يكن متحد الكلمة بسبب اشتعال العصبية القبلية التى حاول الإسلام القضاء عليها ، وكان تفاقم روح العصبية فى خراسان خاصة من أهم العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة العباسية على أيدى الموالى الذين سخطوا على الحكم العربى ، كما ساعد اشتعال العصبية فى الأندلس على قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل الأموى فى هذه البلاد (٣) .

ولم يختلف الحال مع أهل البلاد التى فتحها العرب ، كالشام ومصر والعراق ، فنهم من أسلم عقب الفتح الإسلامى . وهؤلاء أصبحوا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون . أما أهل الذمة فقد فرضت عليهم الجزية ، كفاء حمايتهم ، وتأمينهم على نفوسهم وأولادهم وأموالهم ، على أن ترفع عنهم الجزية متى أسلموا . وقد أحسن العرب معاملة أهل الذمة فى الشام ومصر وبلاد الأندلس ، فسمحوا لهم بمزاولة التجارة وشتى الحرف التى يجيدونها .

المرأة :

بزوغ شمس الاسلام، أخذت المرأة العربية تنعم بمطلع عهد سعيد . ذلك أن الإسلام حبا المرأة بالكثير من التقدير ، وأعلى من مركزها ، ورفعها إلى المكانة السامية الجديرة بها فى المجتمع ، كذلك أحاط المرأة بسياج

---

(١) محمد الطيب النجار : الموالى فى العصر الأموى ص ١٠٧ .

(٢) النجار : نفس المصدر ص ١١١ — ١١٢ .

(٣) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٤٠٨ .

من الحماية ، وكفل لها حياة راضية مرضية .

وقد حرصت المرأة العربية على بساطتها البدوية ، وعلى الحرية التى درجت عليها أيام الجاهلية ، برغم انتشار اللهو والترف فى عهد الأمويين ، لذلك لا نعجب إذا افتخر الآباء بأسماء بناتهم ، فكان الرجل لا يتحرج عن أن يكنى بابنته ، فينادى بأبى ليلى وأبى بثينة ، وكانت نساء العرب يستقبلن الرجال ويتحدثن إليهم ، كما كن يعرفن قيمة أنفسهن ، فكان المجتمع يقدرهن أحسن تقدير .

وممن اشتهر من نساء ذلك العهد عائشة أم المؤمنين التى ضربت بسهم وافر فى الفقه والحديث ، حتى كان الأئمة يقولون عنها : حدثتنى الصديقة بنت الصديق البريئة المبرأة [١] ، والسيدة سكينة بنت الحسين وهى من أبرز نساء العرب اللاتى حزن قصب السبق فى العلم والمعرفة وفى ميدان الأدب والشعر [٢] ، وعاتكة بنت يزيد ، وفاطمة بنت عبد الملك ، وعائشة بنت طلحة ، وزينب بنت موسى الجمحية ، وأم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك التى اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة .

ومما رواه المؤرخون عن شهيرات ذلك العصر ، وبخاصة أحاديثهن فى مجالسهن ومواكبهن إذا سرن إلى حج وصداقهن إذا تزوجن وحريتهن فى الزواج ممن يشأن ، نلمس علو مكانة المرأة العربية فى هذا العصر من عصور الإسلام .

خطب عمر بن الخطاب ، أم كلثوم أخت عائشة أم المؤمنين وكانت صغيرة ، فأرسل إلى عائشة فى ذلك ، فلما ذكرت ذلك عائشة لأم كلثوم قالت لها : لا حاجة لى فيه . فقالت عائشة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم إنه خشن العيش شديد على النساء [٣] . وكانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها زوجها مصعب بن الزبير فى ذلك ، فقالت : إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الاسلامى نصيب ص ٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٦ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٥

فما كنت لأستره ، والله ما فيَّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد (١) .

أما عن صداق النساء الكريمات فى ذلك العهد ، فحدث عنه ولا حرج ، فقد روى الرواة أن مصعباً بن الزبير لما تزوج عائشة بنت طلحة بعد وفاة زوجها الأول ، أمهرها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك (٢) . ولما تزوج مصعب من سكينة بنت الحسين أمهرها ألف ألف درهم ، فقال أحد الشعراء :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يريد خداعا
مهر الفتاة بألف ألف كامل وتبيت سادات الجنود جياعا
لو لأبى حفص أقول مقالتى وأبث ما أبثثكم لارتاعا

فلما سمع عبد الله بن الزبير ذلك ، قال : صدق والله ، لو تقال هذه المقالة لأبى حفص، لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف ، ثم عزله عن البصرة (٣).

ولم تغفل المرأة العربية فى ذلك العصر نصيبها من الدنيا ، فنراها تبتكر وتتفنن فى ملبسها وزيها وحليها . بما صار فى كثير من الأحوال نماذج تحتذى وأمثلة تقتدى بها وطابعا ذائع الانتشار (٤). ومما يشير أيضا إلى مكانة المرأة ، أنها لم تكن تنكر التشبيب بها ، ولا تتأثر أو تغضب إذا ذكرها الشعراء . بل كان من النساء الشريفات كأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، من كن يرغبن فى أن يذكرن فى شعر الشعراء . وفى حديث عبد الله بن الزبير مع أمه أسماء بنت أبى بكر واستشارته لها ونصيحتها له حين سار الحجاج إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق ، ما يدل على بسالة نساء العرب وشهامتهن فى ذلك العصر .

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ١ ص ٥٤ .

(٢) الأصفهانى : نفس المصدر جـ ١٠ ص ٦٥.

(٣) الأصفهانى : نفس المصدر جـ ١٤ ص ١٦٨ — ١٧١ .

(٤) راجع ما كتبناه عن ملابس المرأة فى العصر الأموى ، فى كتابنا « نساء لهن فى التاريخ الاسلامى نصيب » ص ٨ ١ — ١٣٠ .

الغناء والموسيقى :

كانت العرب فى جاهليتها تعرف الغناء ، ولم يكن هذا الغناء ـ على ما يظهر ـ واسع الانتشار فى أنحاء الجزيرة العربية ، بل اقتصرت حفلاته على بعض المدن ، كالمدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة . ولما دان العرب بالإسلام واحتلت جيوشهم بلاد فارس والروم وشمالى إفريقية ، ناشرين دينهم الجديد ، اتصل العرب الفاتحون بسكان هذه الأقاليم ، فتعلموا منهم الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير(١) .

وكان أول من غنى فى الإسلام الغناء الرقيق ، طويس ، وهذا علّم ابن سريج والدلال ونؤمة الضحى(٢) . واختلف الغناء فى العهد الأموى عما ألفه العرب أيام جاهليتهم ، إذ أصبح فناً منظما له رجاله وأصحابه ومعلموه ، وملك هذا الفن الجديد على شباب العرب قلوبهم وعقولهم ، فاتخذوا له أندية خاصة ، يذهب إليها مغنون أخصاء يطربون الحضور من الرجال والنساء .

ولقد ازدهر الغناء فى العهد الأموى ازدهارا عظيما ، حتى حفلت كتب الأدب والتاريخ بذكر أخبار المغنين كابن سريج وحنين الحيرى ، ومن المغنيات جميلة وعزة الميلاء وقد اتخذت كلتاهما المدينة مقاما لإقامة حفلاتهما الغنائية ، وصارت حبابة ورفيقتها سلامة أشهر المغنيات فى العصر الأموى قاطبة وكان لهما شأن كبير عند الخليفة يزيد بن عبد الملك .

وأصبح الحجاز إبان العصر الأموى هو موطن الغناء ، ومنه انتشر إلى الشام والعراق ، ويرجع السبب فى ازدهار الغناء إلى إقبال خلفاء بنى أمية عليه ،

---

(١) ابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ٢٤١ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٤١ .

واستحضارهم المغنين من الحجاز لإقامة حفلات الغناء فى دمشق . وقد أثر هذا الغناء فى نفوس فتيان العرب من أهل هذا العصر ، فرقق من طباعهم ولطف من مزاجهم ، ودفع بعضهم إلى اللهو والعبث ، كما شارك الخلفاء الأمويون المتأخرون عامة الناس فى هذا الضرب من اللهو ، حتى لقد ذهب الجاحظ إلى القول بأن بعض خلفاء بنى أميه « لم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ، ويتجردوا »(١) .

الطعام :

كانت العرب لا تعرف كثرة الألوان فى أطعمتهم ، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح(٢) ، وقلما يعرف البدوى رفاهة العيش والناعم من الطعام ، والابل عندهم أفضل الذبائح ، ولأهل البدو اللباء والسلاء والجراد والكمأة ، والخبزة فى الزائب والتمر بالزبد ، والخلاصة ، والحيس ، والوطيئة(٣) .

وكان العرب يراعون قواعد الصحة ، فلا يدخلون الطعام على الطعام ، ولا يسرفون فى الأكل ، كما كانوا يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده . ولما خالط العرب الأمم الأخرى عقب الفتوح الإسلامية ، تغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها ، واستحدثوا فيها طرقا غير طرقهم الأولى(٤) ، فصاروا يأكلون الأوز والدجاج والفالوذج والخشاف واللوزنيج فى العهد الأموى ، كما حليت موائد الخلفاء الأمويين بأطايب الطعام والشراب .

وروى أن مائدة سليمان بن عبد الملك كانت غنية بألوان الطعام ، فنزل

---

(١) الجاحظ : التاج ص ٣٣

(٢) الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ١ ص ١٦٢ .

(٣) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١٢٨

(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ ص ٤١٧ .

عليه مرة أعرابي ، فلما أتى بالفالوذج جعل يسرع فيه ، فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابي ؟ فقال : بلى يا أمير المؤمنين ! إنى لأجد ريقا هنيا ومزدردا لينا ، وأظنه الصراط المستقيم الذى ذكره الله فى كتابه(١) .
وقد اشتهر سليمان بن عبد الملك ، بحبه للطعام وتفننه فى اختيار ألوانه حتى قيل إن الطاهى كان إذا أتاه بشواء ، لا يصبر حتى يبرد فيتلقاه بأكمامه(٢) .

أنواع التسلية :

تعددت ضروب اللهو عند العرب فى الجاهلية ، وظل بعضها يمارس بعد الإسلام كالصيد وسباق الخيل . أما الصيد فقد ولع به بعض شباب الأشراف فى العصر الأموى ، وشاركهم فيه بعض خلفاء بنى أمية ، كيزيد ابن معاوية الذى كان من أشد الأمويين كلفا بكلابها ، فكان يقيم على كل كلب من كلاب صيده عبدا يتعهده ويقوم على خدمته ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه(٣). وكان الصيد من أحب ألعاب الشباب .

أما السباق ، فكان من الألعاب التى ألفها العرب فى الجاهلية وازداد ولعهم به بعد الإسلام ، حتى قيل إن هشاما بن عبد الملك أقام حلبة سباق اجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس . وظهرت هواية جمع الخيل فى العصر الأموى ، وبخاصة بين الخلفاء وأشراف ذلك العهد ، وقد بلغ التنافس أشده بين كبار الأشراف على اقتناء الخيول الجيدة ، ويشهد على ذلك اهتمامهم الزائد وكلفهم الشديد بتربية الخيل والعناية بها .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٢٧ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٠٩ — ١١٠ ، طبعة الأستاذين محمد عوض وعلى الجارم .
(٣) ابن طباطبا : نفس المصدر ص ٤٥ .

ثانيا — فى العصر العباسى

١ — النظام السياسى

تأثر نظام الخلافة بانتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين. فمن الوجهة النظرية ، أصبح العباسيون يعتقدون أن الخلافة حق شرعى لهم ، ورثوه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا من العوامل التى ساعدت على إطالة عمر دولتهم ، فظلت فى الحكم أكثر من خمسمائة سنة . وقد خطب أبو العباس السفاح ، بعد أن أخذت له البيعة فى مسجد الخلافة ، خطبة أشار فيها إلى أن الخلافة حق شرعى لأسرته ، كما نوه بفضل آل سيدنا محمد ، وحمل على الأمويين لاغتصابهم الخلافة منهم .

أما من الناحية العملية ، فقد تطور نظام الخلافة بقيام الدولة العباسية ، لأن تلك الدولة قامت على أكتاف الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب فى الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لمبدأ المساواة الذى أقره الإسلام .

وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين للفرس ، أن أصبح نظام الخلافة مماثلا لما كان عليه فى بلاد الفرس أيام آل ساسان . وكما اتخذ أكاسرة الفرس الوزراء والسيافين واحتجبوا عن رعيتهم مبالغة منهم فى العظمة والجبروت ، كذلك صار الشأن فى الدولة العباسية ، فأصبح الخليفة لا يخاطب الناس إلا من وراء حجاب ، واتخذ وزيرا وسيافا ، وأحاط شخصه بالقداسة والرهبة ، وعاش معيشة الأكاسرة ، وظهرت الأزياء الفارسية ، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل اعتقد الخلفاء العباسيون أنهم يحكمون

بتفويض من الله لا من الشعب ، لأن الخلافة العباسية أوجدها الفرس الذين يقولون بنظرية الملكى المقدس ، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره . وتتجلى هذه الظاهرة من العبارة التى قالها أبوجعفر المنصور : «إنما أنا سلطان الله فى أرضه » . وهذا يخالف ما كانت عليه الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين الذين استمدوا سلطانهم من الشعب ، ولا أدل على ذلك من قول أبى بكر عقب توليته الخلافة : « أيها الناس ! إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ... » ، وقول عمر بن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ، ولكنى أثقلكم حملا » . ولذا ظل الخليفة فى العصر العباسى مصدر كل قوة ومرجع جميع الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة .

كذلك كان الخلفاء العباسيون يرتدون بردة النبى ، عند توليتهم الخلافة وفى الحفلات الدينية ، على اعتبار أنهم ينوبون عنه فى حكم المسلمين .

وتلقب الخلفاء العباسيون بلقب «إمام» ، توكيداً للمعنى الدينى فى خلافة العباسيين ، أى أنهم أصبحوا أئمة الناس ، بعد أن كان ذلك اللقب لا يطلق فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين إلا على من يؤم الناس فى الصلاة ، بينما كان الشيعة يطلقونه على أفراد البيت العلوى الذين يعتقدون بأحقيتهم فى الخلافة .

واستبد الخلفاء العباسيون بالسلطة : فتسلطوا على أرواح الرعية ، وتتبعوا أعداءهم من الأمويين والعلويين فى قسوة وغلظة ولم يلبثوا أن غدروا بهم بعد أن أمنوهم . على أنه مما يخفف من حدة أعمال العنف التى ارتكبوها أنها كانت محصورة فى دائرة الملك ، وفيما عدا ذلك كانوا أحسن الناس حكما ، فأدخلوا كثيراً من الإصلاحات فى دولتهم ، كما بذلوا كثيراً من الجهد للعمل على ترقية شعوبهم .

أما فى العصر العباسى الثانى ، فقد أصبحت الخلافة العباسية منحلة ، وأصبح الخلفاء مسلوبى السلطة لازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة واستحواذ سلاطين بنى بويه أولا وسلاطين السلاجقة من بعدهم على بغداد . يقول الفخرى : « إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى أيديهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه » . أما بنو بويه فلم يقنعوا بأخذ السلطة من الخلفاء العباسيين فحسب ، بل شاركوا الخلافة فى امتيازاتها الأخيرة : فى الخطبة والسكة .

على أن ضعف الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه ، لا يرجع إلى ضعف الخلفاء أنفسهم فحسب ، بل يرجع كذلك ذلك إلى تلقيبهم سلاطين بنى بويه بتلك الألقاب الضخمة التى رفعت شأنهم وقللت من هيبة الخلفاء مثل : تاج الله وضياء الملك وغياث الأمة وغيرها ، وتلقب محمود الغزنوى بألقاب السلطان ويمين الدولة ويمين الملة ، وتلقب السلطان المعظم مالك الأمم وعدل عنه ولقب نفسه مالك الدولة(١) .

وظل الخلفاء العباسيون فى العصر العباسى يلقبون بلقب أمير المؤمنين ، وكان الخليفة فى نظر الناس إذ ذاك « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » . وعلى الرغم من ضعف الخلافة ، فقد استمر الخلفاء يولون العهد أبناءهم ، وكانوا يهتمون بأن يتم تولية أبنائهم العهود فى احتفال رائع .

ويتضح لنا مدى ماوصلت إليه الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، من أن بنى بويه كانوا يودون تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين ، ولولا خوفهم من ضياع نفوذهم لما تورعوا عن ذلك . كما أن الخليفة المطيع عبر

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨ .

عن شعوره بما وصلت إليه الخلافة من ضعف وعما يجيش فى نفسه من ألم ، بهذه العبارة التى خاطب بها بنو بويه : ليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفافى . . . وإنما لكم منى هذا الإسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعتزل عن هذا المقدار أيضا تركتكم والأمر كله(١).

ووصف البيرونى موقف الخلفاء العباسيين من بنى بويه فى هذه العبارة : وإن الدولة والملك قد انتقل فى آخر أيام المتقى وأول أيام المستكفى من آل العباس إلى آل بويه . والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى لا ملك دنيوى(٢) .

٢ — النظام الإدارى

الإمارة على البلداد :

لم يكن ولاة العباسيين ، على الأمصار التابعة للدولة . من الشخصيات البارزة بعكس ولاة الأمويين كزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، واقتصر عمل الوالى على الصلاة وقيادة الجند ، بعد أن اشتد نفوذ صاحب المال وصاحب البريد والقاضى .

وقد وضع المنصور النظام السياسى الذى سارت عليه الدولة العباسية ، وهو على النحو الذى كان يحكم به آل ساسان قبلهم . وظل نظام الحكم فى الدولة العباسية استبداديا منذ قيام الدولة إلى عهد الرشيد ، فقد كان الخليفة هو مصدر كل قوة ومرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . وأصبح الوزير ساعد الخليفة الأيمن ، ولكن ظهر بتوالى الأيام مدى إرهاق الوزير بهذا

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .
(٢) البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ١٣٢ .

المنصب الخطير ، مما أدى إلى تعيين موظفين يعاونونه فى الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها .

وكان الخليفة يختار بنفسه ولاة الأقاليم ، ولكن سلطتهم كانت ضئيلة ، فلم يكن يترك العامل فى ولايته إلى زمن طويل ، وإذا ما عزل عن منصبه طلب إليه أن يقدم بيانا مفصلا عن شئون ولايته ، وكان أقل شك فى بيانه كافياً لمصادرة أملاكه جميعا . ولم تكن سلطة الوالى فى عهد المنصور أكثر من سلطة صورية ، ومع ذلك فقد اكتسب بعض الولاة امتيازات خاصة ، حيث كانوا يقطعون هذه الولايات نظير اعترافهم بالسيادة للخليفة وتقديم بعض المساعدات المادية[1] . يقول الأستاذ كرد على « لم يبتدع المعتصم ولا ابنه الواثق شيئا جديداً فى الإدارة لم يعرفه المأمون والرشيد ، بل عاشا وعاشت الخلافة العباسية بعد ذلك بالأساس الذى وضعه المنصور . ولم يكن لها بعد منتصف القرن الثالث الهجرى تلك الروعة التى كانت لها فى عهد الخلفاء الأول . وقل بعد المأمون ، الخلفاء النادرون بذكائهم وتجاربهم ، فأصيبت الخلافة بعد عظائها بفتور وأعمالهم بقلة الرواء والاتساق ، ومن أهم الدواعى إلى هذا الانحطاط فساد الإدارة واختلال أحوال القضاء ، فنشأ عن ذلك شراهة نفوس العمال والوزراء وإضاعة الحقوق »[2] .

وكان على رأس كل مصلحة فى الولايات الكبيرة ، عامل مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة ، بل والإشراف على أعمال الوالى . كما كان مندوبا أولته الحكومة المركزية ثقتها . وعلى الرغم من ذلك ، فقد بدأ الولاة يستقلون بولاياتهم الكبيرة ، ويولون من قبلهم الولاة ، حتى أن مقاليد الأمور

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٠٤ — ٢٠٧ .

(٢) محمد كرد على : الادارة المصرية فى عز العرب ص ١٦٧ .

فى حاضرة الدولة نفسها سرعان ما خرجت من أيدى الخلفاء(١) .

ومن وصف ابن الاثير لحالة الدولة العباسية فى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ، نقف على أسماء الولايات التى كانت تتألف منها هـذه الدولة المتداعية واستبداد كثير من الولايات واستقلالها عن الدولة ، فهو يقول : « لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم فى جميعها لابن رائق وليس للخليفة حكم : فكانت البصرة وخوذستان، وفارس وكرمان ، والرى والجبل وأصبهان ، والموصل ودياربكر ومضر ومصر والشام ، والمغرب وإفريقية ، والأندلس وخراسان وما وراء النهر ، وطبرستان وجرجان والبحرين واليمامة »(٢) ، وكلها تحت سيطرة ولاة مستقلين .

الوزارة :

لم تكن الوزارة (٣) معروفة فى الدول الإسلامية قبل عصر العباسيين . ويذكر صاحب الفخرى عن تاريخ الوزارة أنه « لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس ، فأما قبل ذلك فلم تك مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أن استشار ذوى الحجا والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى الوزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيراً » (٤)

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٤٤—٢٥٧ .

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١١٢— ١١٣ .

(٣) كانت « الوزارة » موجودة قبل الاسلام بزمن طويل ، عرفها المصريون القدماء وبنو إسرائيل والفرس وغيرهم . وكان الأعوان المقربون للرسول عليه السلام وللخلفاء الراشدين والأمويين يعملون عمل الوزير ، ولكن لم يطلق عليهم هذا الاسم . والوزر هو الثقل : لأن الوزير يحمل أعباء الحكومة ، أو من الوزر وهو الملجأ والمعتصم بمعنى أنه يلجأ إليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره .

(٤) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٦ — ١٣٧ .

وكان أول وزير فى العصر العباسى هو أبو سلمة الخلال الذى كان يلقب بوزير آل محمد ثم اغتيل على يد السفاح ، واستوزر بعده أبا الجهم ثانى وزراء الدولة العباسية ، ثم استوزر السفاح خالد بن برمك جد البرامكة الذين نبغوا فى ذلك الوقت وعظم شأنهم إلى أن انقضت سطوتهم فى أيام الرشيد .

وإذا ما رشح شخص للوزارة ، أرسل إليه الخليفة إثنين من الأمراء يحملان كتاب الخليفة إليه ، فيسير إلى دار الخلافة ثم يمثل بين يدى الخليفة ثم ينصرف إلى حجرة أخرى ليرتدى لباس التشريف ، ثم يمثل به أمام الخليفة فيقبل يده وينصرف ، فإذا بلغ الباب ألفى حصانا مزينا فى انتظاره فيمتطيه ويذهب به إلى دار الوزارة وقد سبقه كبار الموظفين والقواد ورجال البلاط وحجاب القصر والموالى ، فإذا وصل ترجل وسط مظاهر الاحتفال ثم يقرأ سجل بتعيينه .

وكانت حكومة الخليفة تعرف باسم « ديوان العزيز » ، وكان الوزير أو بعبارة أدق رئيس الوزراء يشرف على هذا الديوان ، ويلقب بلقب وزير ديوان العزيز . وكان رؤساء الدواوين المختلفة يلقبون أحيانا بالوزير ولكنهم كانوا على الدوام تابعين لهذا الوزير الذى كان على رأس الحكومة .

وانقسمت الوزارة فى عهد العباسيين قسمين :

١ — وزارة التنفيذ : وهى التى تكون فيها مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شئون الدولة من تلقاء نفسه ، بل كان يعرض أمور الدولة على الخليفة ويتلقى أوامره فيها ، ولم يكن الوزير إلا وسيطاً بين الخليفة ورعيته[١] .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٧ .

٢ — وزارة التفويض : وهى أن يعهد الخليفة بالوزارة إلى رجل ، يفوض إليه النظر فى أمور الدولة والتصرف فى شئونها دون الرجوع إليه ، ولم يبق للخليفة بعد ذلك إلا ولاية العهد وسلطة عزل من يوليهم الوزير .

وكان الوزير فى الدولة العباسية واسطة بين الخليفة والرعية ، وعليه تنفيذ رغبات الخليفة وأوامره وإسداء النصح إذا ما استأنس برأيه فى أمر من أمور الدولة ، وللمحافظة على حسن سمعة الخليفة عند رعيته . ومن هنا نقف على مبلغ ضعف الوزير أيام الخلفاء العباسيين فى العصر العباسى الأول ، كما نقف على خطورة مركز الوزراء إذ كانوا معرضين للقتل إذا ما تغير عليهم الخليفة ، على رغم ما كان يظهر به الوزير فى عيون الناس من هيبة ونبل .

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول ، يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيرا بعد أن مات أبو الجهم وزير السفاح على يد المنصور ، لأن المنصور كان يحقد عليه ، فلما أحس أبو الجهم بالسم ، قام لينصرف فقال له المنصور : إلى أين؟ قال : إلى حيث بعثتنى يا أمير المؤمنين . واستوزر المنصور بعد خالد البرمكى ، أبا أيوب الموريانى وكان من أهل موريان[1] ، اشتراه المنصور صبيا قبل أن يلى الخلافة فثقفه وعلمه ، واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته ، فأبقاه عنده وأعتقه وجعله من أخص رجاله المقربين إليه ، وأدر عليه عطاءه وصلاته ، وظل على ذلك حتى ولى المنصور الخلافة فقلده الوزارة وكان مصيره القتل . وبعد قتل هذا الوزير استوزر المنصور ، الربيع بن يونس ، وكان نبيلا حازما عاقلا ، فطنا خبيرا بالأمور الحسابية ، ملما بشئون الدولة ، محبا

---

(١) قرية من نواحى خوزستان .

لفعل الخير ، عارفا بآداب الملوك . رأى المنصور يوما فى بستانه شجيرة من شجر يسمى الخلاف، فلم يدر ماهى ، فقال : ياربيع ! ماهذه الشجرة؟ فقال الربيع : إجماع ووفاق ، وكره أن يقال خلاف » . ولم يزل الربيع متقلدا منصب الوزارة إلى أن مات المنصور ، فقام الربيع بأخذ البيعة للمهدى بن المنصور ، وظل على ذلك إلى أن قتله الهادى فى خلافته . وبلغ نفوذ الوزير منتهاه فى عهد هارون الرشيد حين قال لوزيره يحي بن خالد البرمكى : « قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنق إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب » . وفى عهد ابنه جعفر بن يحي بن خالد بن برمك ، قبض البرامكة على أزمة الحكم وصار بيدهم الدخل والخرج ، واشتد نفوذ البرامكة حتى انصرف الناس إليهم ونظموا القصائد الرائعة فى مدحهم والتغنى بكرمهم وجودهم الذى أصبح مضرب الأمثال ، وكان كل ذلك مدعاة لنكبتهم المعروفة .

على أن ضعف الخلافة فى العصر العباسى الثانى ، أدى إلى ازدياد نفوذ الوزراء واشتداد المنافسة على الوزارة ، ومن ثم تفشى الدس وانتشرت الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسى الوزارة . واشتهر من وزراء العصر العباسى فى عهد المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) عبيد الله بن يحي بن خاقان ، وعبيد الله ابن سليمان بن وهب ، والقاسم بن عبيد الله . وظهر من الوزراء فى عهد المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠هـ) أبو الحسن على بن محمد بن الفرات سنة ٢٩٦هـ ، وكان لبنى الفرات ما كان للبرامكة وبنى وهب من الشهرة فى العصر العباسى ، وفيهم يقول صاحب الفخرى : « وبنو الفرات من أجل الناس فضلا وكرما ونبلا ووفاء ومروءة »[1] . ومن أشهر وزراء المقتدر : الوزير المصلح على بن عيسى ، وكان من كبار الكتاب ، اشتهر بالورع والزهد ، وفيه يقول الصولى :

---

(١) الفخرى ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

« ما أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبه على بن عيسى فى زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه ، وكتابته وحسابته وصدقاته ومبراته » . وخلفه فى الوزارة حامد بن العباس ، وكان كريما موفقا فى استخراج الأموال . واضطربت أمور الدولة العباسية فى عهد المقتدر ، بسبب هذه السياسة التى اتبعها فى تعيين وزرائه وعزلهم ، حتى تقلد الوزارة فى عهده نحو إثنى عشر وزيراً ، عزل بعضهم مراراً ، كما أنه اعتمد على وزراء ضعاف كأبى على محمد بن مقلة الذى تدخل فى أعمال الدواوين تدخلا شائنا ابتغاء زيادة ثروته . وعجز الوزراء فى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) عن إدارة الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد ، واضطر هذا الخليفة إلى تقليد ابن رائق شئون الدولة كافة وتلقيبه « أمير الأمراء » ، ولم يبق للوزراء شئ من النفوذ ، واقتصرت أعمالهم على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام المواكب مرتدين السواد ، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعار الوزارة ، وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء .

ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤هـ ، قضوا على نفوذ الخلفاء ، وزال نفوذ الوزراء ، لأن بنى بويه حلوا محلهم . ويقول صاحب الفخرى : « اضطربت أحوال الخلافة ، ولم يبق لها رونق ولا وزارة ، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم » (١) . واتخذ بنو بويه لأنفسهم وزراء استعانوا بهم فى إدارة شئون الدولة ، ومن أشهر وزراء بغداد فى عهد سيطرة بنى بويه أبو الفضل بن العميد والصاحب إسماعيل بن عباد .

---

(١) الفخرى ص ٢٥٨.

الدواوين :

كانت أهم دواوين الحكومة العباسية هى: ديوان الدية ، وديوان الجند ، وديوان الموالى والغلمان لتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده ، وديوان البريد ، وديوان النظر فى المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء وديوان المنح أو المقاصاة ، وديوان الأكرهة للإشراف على القنوات والترع والجسور وشئون الرى ، وديوان الخراج ومهمته جمع ضرائب بلاد العراق وتقديم حساب للضرائب فى الأقاليم الأخرى وجمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن ، وديوان الرسائل ومهمته إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان الأزمة والزمام ويشبه ديوان المحاسبة اليوم وأوجده الخليفة المهدى ويقصد به أن الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان .

واستمر نظام الدواوين فى العصر العباسى قائما على هذا النحو ، إلى أن ولى الخلافة المعتضد (٢٧٩ هـ) ، فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض ، وكون منها ديوانا واحدا أطلق عليه « ديوان الدار » أو « الدار الكبير » . وبلغ نظام الدواوين فى عهده حد الكمال ، يقول هلال الصابىء : « وسمعت مشايخ الكتاب يقولون إنه لم يجتمع فى زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد بالله »[١] . وقسم المعتضد الديوان أقساما ثلاثة : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد (يعنى العراق) ويتولى الوزير ولايته بنفسه . وفى القرن الرابع الهجرى كانت إدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين : أحداهما للداخلية وهى ديوان الأصول ، والأخرى للمالية وهى ديوان الأزمة . وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساما

---

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٨٩ .

كثيرة ، تسمى دواوين أيضا ، لأنه كان لكل ناحية ديوانها . ولم تصل الإدارة فى الدولة العباسية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة ، وكان أصحاب هذه الدواوين على ثلاث طبقات : الطبقة الأولى ، والطبقة الثانية ، والطبقة الثالثة . (١)

الكتابة :

كان مركز الكاتب لا يقل عن مركز الوزير ، فقد كان يرأس ديوان الرسائل الذى يعد من أهم وأخطر دواوين الدولة العباسية . ومهمة صاحبه : إذاعة المراسيم والبراءات ، وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل السياسية ووضعها فى الصيغة النهائية وختمها بخاتمة . كذلك كان يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة ، وكان الوزير يتولى ذلك أحيانا وكثيرا ما كان يتولى الخليفة ذلك بنفسه ، فقد أثر عن المنصور العباسى أنه لما جاءه كتاب محمد بن عبد الله بن الحسن العلوى هم كاتبه أن يجيبه ، فقال له المنصور : لا بل أنا أجيبه ، إذا تقارعنا على الأحساب فدعنى وإياه » . كما كان الكاتب يجلس مع الخليفة فى مجلس القضاء ، للنظر فى المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة ويتسلم الشاكى أو المدعى صورة من الحكم وتحفظ الصورة الأصلية فى دار السجلات .

وكان الخلفاء يختارون كاتبهم من رجال الأدب ومن أعرق الأسر ، ممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب ، لحرصهم على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ . واشتهر من الكتاب فى العصر العباسى الأول : يحى ابن خالد البرمكى والفضل بن الربيع فى عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يونس فى عهد المأمون ، والحسن بن وهب وأحمد بن

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٤٥٦ .

المدبر فى عهد المعتصم والواثق (١). وفى العصر العباسى الثانى ، اشتهر محمد بن عبد الملك الزيات وكان يلى ديوان الرسائل فى عهد الواثق وهو الذى كتب البيعة بولاية المتوكل العهد .

وكثيرا ما كانت الكتابة سبيلا إلى الوزارة ، واتخذ بعض الخلفاء من الكتاب قوادا يعتمدون عليهم فى الغزوات. ولم يكن اتخاذ الكتاب مقصورا على الخلفاء وحدهم ، بل كان أمراء الأمراء وسلاطين بويه وعمال الأقاليم يتخذون كتابا يعاونونهم فى الإدارة : فقد كان الكوفى كاتبا لبجكم الذى تقلد إمرة الأمراء فى عهد كل من الراضى والمتقى ، وكان أبو جعفر شيرزاد كاتباً لتوزون الذى تقلد وظيفة أمير الأمراء فى عهد المتقى (٢). وكان ملوك الفرس يسمون كتاب الرسائل : تراجمة الملوك ، وكانوا يقولون لهم : لا تحملكم الرغبة فى تخفيف الكلام على حذف معانيه وترك ترتيبه والإبلاغ فيه وتوهين حججه (٣) .

الحجابة

اتخذ العباسيون الحجاب ، وصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، ويقابل كل طائفة فى مكان معين . يقول ابن خلدون : « هذا اللقب كان مخصوصا فى الدولة العباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ، ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره فى مواقيته ، وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرءوسة لها ، إذ الوزير متصرف فيها بما يراه » (٤). ومن

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٨٠ـ١٨١ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٤٩ .
(٣) الجهشيارى · كتاب الوزراء والكتاب ص ٣ ·
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

أبرز حجاب العصر العباسى الأول : الفضل بن الربيع الذى أوقع بالبرامكة عند الرشيد وكان له أثر فى إحداث الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون .

وتطور نظام الحجابة فى العصر العباسى الثانى ، فاتخذ حجاباً ثالثاً أشد من الأولين . ولم تقتصر مهمة الحاجب فى ذلك العصر على حراسة الخليفة ومنع الناس من الاتصال به ، بل تعداه إلى التدخل فى أهم شئون الدولة حتى استبد بعضهم بها دون الوزراء . وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم فى المسائل المتعلقة بدواوينهم ولا يفصلون فيها إلا بعد الرجوع إليهم . وكثيراً ما كان الحاجب يصبح هدفا لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه وعظم استبداده بأمور الدولة ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك تدبير الوزير أبى على بن مقلة مؤامرة انتهت بالقبض على محمد بن ياقوت الحاجب(١) .

البريد:

كان ديوان البريد فى مدينة بغداد ، وهو يشبه مصلحة البريد الآن ، وكان مزوداً بمحطات على طول الطريق . وقد ظل الحمام الزاجل يستخدم فى نقل الرسائل حتى ولى الخلافة المعتصم . وكان البريد خاصاً بأعمال الدولة وليس لنقل رسائل الجمهور ، ومن ثم كانت مصلحة البريد من مصالح الدولة الخاصة .

وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر هى توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله فى الأقاليم ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ينقل أوامره إلى ولاته ، كما ينقل أخبار ولاته إليه . واستخدم المنصور ولاة البريد عيونا له وعونا فى الإشراف على أمور دولته ، ووقف بواسطتهم على أعمال الولاة وعلى ما يصدره القضاة من الأحكام وعلى ما يرد لبيت المال من الأموال ، كما كانوا يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم

---

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة فى ابن مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص٣١٨ — ٣١٩ .

وما كولات . وكان عماله يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم ، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى فى الليل من الأمور ، وبهذا كان يقف على كل ما يحدث فى الولايات الإسلامية . وكان بذلك شديد الاتصال بولاته ، فيقف القاضى عند حده إذا ظلم ، ويرجع السعر إلى حالته إذا غلا ، وإن رأى تقصيراً من أحد ولاته وبخه ولامه وعزله عن عمله .

وفى العصر العباسى الثانى ، اهتم الخليفة بشئون البريد ، فكان الخلفاء العباسيون يكتبون لصاحب البريد عهداً عند توليته ، ويرسمون له فيه الطريقة التى يجب أن يسير عليها . فقد ذكر قدامة بن جعفر أنه يجب على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجرى عليه أمرهم ، ويتتبع ذلك شافيا ، ويستشفه استشفافاً بليغاً(١) وينهيه على حقه وصدقه . . . وأن يعرف حال عمارة البلاد وماهى عليه من الكمال والاختلال ، وما يجرى فى أمور الرعية فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرفق والعسف ، فيكتب به مشروحاً . . . وأن يعرف ما عليه الحكام فى حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم ... وأن يعرف حال دار الضرب ومايضرب فيها من العين والورق ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه »(١) . ولم يقتصر عمل صاحب البريد على ذلك ، بل كثيراً ما كان ينقل أيضاً إلى الخليفة الأخبار الطريفة .

ولما استبد بنو بويه بالسلطة ، اهتموا بشئون البريد اهتماماً بالغاً ، حتى أنه لم يعد يخفى عليهم شىء من أمور الدولة ، فلم يخف عندهم أخبار الأقاصى

---

(١) أى يبذل أقصى الجهد ، للوقوف على حقيقة أمره .

(٢) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة أبى ريدة جـ ١ ص ١٢٩ .

والأدانى ، وحال الطائع والعاصى »(١) . وبلغ نظام البريد فى عهد بنى بويه مبلغاً عظيما من الدقة والسرعة . وكانت الدولة توقع أشد العقوبة بكل من يتوانى فى أداء واجبه من موظفى البريد . كما كانت المراسلات البريدية تفض فى حضرة السلطان ، فيأخذ منها الرسائل الهامة ، ويرسل سائر الرسائل إلى ديوان البريد ، فتوزع على أربابها . وكان لبنى بويه أثر فى ترقية البريد ، وأدخل معز الدولة نظام السعاة وكان يقال لهم الفيوج ، واعتمد الخلفاء العباسيون فى العصر الثانى كذلك على حمام الزاجل فى نقل الرسائل .

٣ — النظام القضائى

فى العصر العباسى ، ضعفت روح الاجتهاد فى الأحكام لظهور المذاهب الأربعة ، وأصبح القاضى إذ ذاك ملزما بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب : ففى العراق كان القاضى يحكم وفق مذهب أبى حنيفة . وفى الشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفى مصر وفق المذهب الشافعى ، وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع فى بلد من البلاد أناب القاضى عنه قاضيا يدين بعقائد مذهب المتخاصمين . وتأثر القضاء كذلك بالسياسة ، لرغبة الخلفاء العباسيين فى إكساب أعمالهم صبغة شرعية ، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء خشية حملهم على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ، ولهذا السبب اعتذر أبو حنيفة النعمان عن تولى منصب القضاء فى عهد أبى جعفر المنصور(٢) . ورغم هذا ، نقض الخلفاء العباسيون العهد مع بعض القواد والعلويين بعد أن أعطوهم الأمان ، وذلك عن طريق فتاوى القضاة :

---

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٣ .

(٢) جرجى زيدان : التمدن الاسلامى ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

فقد تسلم ابن هبيرة من أبى جعفر المنصور كتاباً يحمل إمضاء الخليفة السفاح يعطيه فيه الأمان ولكن لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة ، وغدر المنصور بعمه عبد الله بن على وأبى مسلم الخراسانى . وكتب الرشيد بخطه أمانا ليحيى ابن عبد الله أخى محمد النفس الزكية وكان قد ثار فى بلاد الديلم ولكنه لم يلبث أن حبس ونقض الأمان .

وكان «قاضى القضاة» فى العصر العباسى يقيم فى بغداد . وأول من لقب بهذا اللقب هو أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب كتاب الخراج وذلك فى عهد هارون الرشيد . وأصبح فى كل ولاية قضاة ينوبون عنه ، فصار يولى أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، ينظر كل منهم فى النزاع الذى يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه . وصار من اختصاص القاضى : النظر فى الخصومات المدنية والجنائية ، والفصل فى الدعاوى والأوقاف ، وتنصيب الأوصياء ، وقد تضاف إليه الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال [١] .

وكان القاضى فى مصر فى عهد الدولة العباسية يتقاضى ٣٠ ديناراً ، وتقاضى القاضى ابن لهيعة مثل هذه الراتب ، وفى زمن المأمون كان عيسى ابن المنكدر قاضى مصر يتقاضى ٢٧٠ دينارا فى الشهر .

وبعد أن كان الالتزام مقصورا على الخراج ، بمعنى أن تعهد الدولة بالخراج إلى أشخاص يجبونه على أن يؤدوا لبيت المال مبلغاً معيناً ، تعدى هذا النظام إلى القضاء على أن يؤدى لبيت المال أيضاً مبلغا مقابل ما يجبيه من رسوم القضايا . وقد التزم عبد الله بن الحسن بن أبى الشوارب سنة ٣٥٠ هـ لمعز الدولة بن بويه على ٢٠٠,٠٠٠ درهم فى السنة عن قضاء بغداد ، ولكن الخليفة المطيع لم يوافق على تقليد هذا القاضى ، وفيه يقول ابن الأثير : «وهو أول من ضمن القضاء ، وكان ذلك أيام معز الدولة ، ولم يسمع بذلك

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على إبراهيم : النظم الاسلامية ص ٣٣٦ .

قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع بالله بالدخول عليه ، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء »(١) .

على أن كثيراً من القضاة نزهوا أنفسهم عن هذه العيوب ، حتى أنهم كانوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد ، وبعد أن يشترطوا شروطاً تكفل استقلالهم ، وتحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم(٢) . فإن الخليفة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) وقلد القضاء أبا الحسن محمد بن شيبان الهاشمي بعد تمنع ، وشرط لنفسه شروطا منها : ألا يرتزق على القضاء ، ولا يخلع عليه ، ولا يشفع إليه فيما يخالف الشرع ، وقرر لكاتبه فى كل شهر ثلثمائة درهم ، ولحاجبة مائة وخمسين ، وللعارض على بابه مائة ، ولخازن ديوان الحكم والأعوان ستمائة ».
وكتب الخليفة لابن شيبان عهداً بتوليه القضاء ، بيّن فيه الأقطار التى سمح له ببسط نفوذه القضائى عليها ، فهو يقول : « هذا ما عهد به المطيع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن صالح الهاشمى ، حين دعاه إلى مايتولاه من القضاء ، بين أهل مدينة المنصور والمدينة الشرقية من الجانب الشرقى والجانب الغربى ، والكوفة وواسط ، وطريق الفرات ودجلة ، وطريق خراسان وحلوان ، وديار مضر وديار بكر ، والموصل والحرمين واليمن ودمشق وحمص ، وجند قنسرين والعواصم ، ومصر والأسكندرية ، وجند فلسطين والأردن .

ولا يكتفى المطيع فى عهده للقاضى بذكر ذلك ، بل وضح الاختصاصات التى سمح له بمباشرتها ، فهو ينص على أنه يتولى : « قضاء القضاة ، وتصفح أعمال الحكام ، والاستشراف على ما يجرى عليه أمر الأحكام من سائر النواحى والأمصار » .

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٣ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ٤٩٤ .

زاد الخليفة على ذلك ، أن رسم للقاضى الحدود التى يتوخاها عند إصدار أحكامه ، وهى على ما ورد فى هذا العهد : « كتاب الله فى كل ما يعمل رويته ويرتب عليه حكمه وقضيته ، وأن يتخذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم منارا يقصده ومثالا يتبعه ، وأن يراعى الإجماع ، وأن يقتدى بالأئمة الراشدين ، وأن يعمل إجتهاده فيما لا يوجد فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع » . ونصحه فى عهده إليه بالمساواة التامة بين الخصوم ، فينص على « أن يسوى بين الخصمين إذا تقدما إليه فى لحظه (نظرته) ولفظه ، ويوفى كلا منهما عن إنصافه وعدله ، حتى يأمن الضعيف حيفه وييأس القوى من ميله »(١) .

٤ — النظام الحربى

عناصر الجند :

كان يتألف جيش العباسيين من : الجنود النظامية ، والجنود المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا فى الحروب مدفوعين بعوامل مادية أو دينية . وبلغ راتب الجندى أيام قوة العباسيين عشرين درهما(٢) . وكان تقسيم الجند تابعا لجنسية أفراده : فنهم الحربية وكانوا من جند العرب وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين وليس من عجب إذا تغلغل نفوذهم فى جسم الدولة التى قامت على أكتافهم .

وبانقضاء العصر العباسى الأول ، دخل فى الجيوش العباسية عنصر الأتراك الذى آل إليه النفوذ ، وهو عنصر جديد كوّن القسم الرابع من

---

(١) ورد هذا العهد كاملا فى السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .
(٢) الدرهم = ٤ قروش تقريبا .

الجيش العباسى . ذلك أنه لما ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، رأى أن دولته لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك لأن أمه كانت تركية وكانوا يجلبون من بلاد ما وراء النهر ، وولاهم حراسة قصره وأسند إليهم أعلى المناصب وقلدهم الولايات الكبيرة وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء . واشتد خطرهم ، فآذوا الأهلين لما كانوا يرتكبونه من الفساد والعنف وعدم الاكتراث بالصبيان والضعفاء الذين كانوا يدوسونهم بخيولهم فى الأسواق والطرقات مما أثار غضب العامة وحنقهم ، فعمل المعتصم على تلافى هذا الشر وبنى مدينة سامرا شرقى دجلة واتخذها حاضرة لدولته .

ولقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك . ولكن قوة شكيمة المعتصم اضطرت هؤلاء الأتراك إلى التزام حدودهم ، فلما مات وولى الخلافة بعده ابنه الواثق أخذ هؤلاء الأتراك يتدخلون فى أمور الدولة حتى أصبح الخليفة مكتوف الأيدى مسلوب السلطة . ولما ولى المتوكل الخلافة حاول أن يكف يدهم فقتلوه ، وصار ابنه المنتصر الذى اشترك معهم فى قتل أبيه طوع بنانهم ، وأصبحت الدولة العباسية ميدانا للفوضى والدسائس ، وغدا فى أيدى هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله أو حبسه وقتله ، ومما زاد الحالة سوءا وقوع التنافس والتشاحن بين القواد . وقد أثر اشتراك الجند العربى فى الفتن والثورات التى قامت زمن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وانحيازهم إلى فريق دون آخر فى مجرى الحوادث أيما تأثير .

ولم يقتصر الخلفاء العباسيون على استخدام عناصر العرب والفرس والأتراك فى جيوشهم ، فإن الخليفة المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) اصطنع المغاربة والفراغنة دون الأتراك ، واستعان الخليفة الراضى (٣٢٢-٣٢٩هـ) بالقرامطة وأدخلهم فى صفوف جيشه . ولما استبد بنو بويه بالنفوذ فى

الدولة العباسية منذ سنة ٣٣٤ هـ ، تألف الجيش من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراغنة والمغاربة وغيرهم من المرتزقة .

أشهر القواد :

وكان من أكبر القواد المعروفين فى أول عهد الدولة العباسية : أبو مسلم الخراسانى وكان تحت إمرته جند المشرق الخرسانية ، وعبد الله بن على العباسى وكان على جند المغرب وأكثرها عربى من بلاد الجزيرة والشام . فلما خرج عبدالله بن على على المنصور وانتصر عليه أبومسلم الخراسانى بجنده ، كان هذا الانتصار انتصاراً للفرس على العرب ، ومن ثم رجحت كفة الخراسانيين فى الجيش .

بيد أن المنصور خشى شر أبى مسلم وشر جنده فقضى عليه ، ورأى عدم الاعتماد على الخراسانيين لأن العصبية العربية كانت لا تزال فى قوتها ، فاصطنع كثيرين من العرب وسلمهم قيادة جنده ، كما استعان ببعض أهل بيته ومن أعظمهم عيسى بن موسى الذى انتصر على محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن العلوى الملقب بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم .

وقد ظهر من قواد العرب معن بن زائدة الشيبانى ، وكان من قواد الأمويين ، واشتغل تحت إمرة يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق وحارب معه فى واسط ، ولما سلم ابن هبيرة اختفى معن حتى كان يوم الهاشمية الذى ثار فيه الراوندية على المنصور ، فظهر معن وقاتل عن الخليفة وهو ملثم ، وأوقع برجال هذه الطائفة ، ثم كشف للخليفة عن نفسه ، فأمنه ووصله بعشرة آلاف درهم وسماه « أسد الرجال » وولاه بلاد اليمن ثم سجستان ، فبقى فيها حتى قتله الخوارج سنة ١٥١ هـ .

ومن أعظم قواد المنصور عمرو بن العلاء ، وقد وجهه المنصور سنة ١٤١ هـ

لإخضاع أهل طبرستان وكانوا قد خرجوا عليه فنازلهم ابن العلاء طويلا وفتح بلادهم من جديد ، ولم يزل ممتعا بعطف المنصور وابنه المهدى حتى مات فى خلافة المهدى .

تنظيم الجيش :

كان الخليفة العباسى يرغب دواما أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ، فكانت تصف الجنود أمامه فى ثلاثة أقسام : عرب الشمال (مصر) ، وعرب الجنوب (اليمن) ، والخراسانيون(١) . ولما ولى المتوكل الخلافة ، أمر الجنود بتغيير زيهم القديم وألبسهم أكسية رمادية وأمرهم ألا يحملوا السيوف على أعناقهم بل يضعونها فى مناطق حول وسطهم .

وقد وجد نظام الجاسوسية عند العباسيين ، واستخدموا فى ذلك الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة ، متنكرين فى أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار إلى دولتهم .

ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق ، أقاموا الحصون (أو الثغور) على تخوم دولتهم ، وهذا ضرب من الفنون الحربية التى تدل على نشاط العرب وولعهم بالحروب ونبوغهم .

وكانت حدود سورية المقابلة لآسيا الصغرى ، مصدر الخطر بالنسبة إلى العرب ، وكانت هذه الثغور وهى : طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، ومرعش ، وملطية ، تقع طورا فى أيدى العرب وطورا فى أيدى الروم . ولما استولى المنصور على هذه الثغور حصنها وأحكم بناءها من جديد ،

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .

وأنشأ هارون الرشيد فى خلافته ولاية جديدة سميت ولاية الثغور جعل لها نظاما عسكريا خاصا وأقام فيها المعاقل، كما أمدها بحاميات دائمة ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضا قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم. فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتواصلة، وأصبحت أحوالهم فى يسر ورخاء إلى أيام الواثق ثم أخذت بعد ذلك فى الأفول. وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة والدعة يلجأون إلى هذه الثغور للتفرغ للبحث والدرس.

وفى عهد الأمويين والعباسيين، اختلط العرب كثيراً بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة أى تقسيم الجيش إلى كتائب: تكون إحداها فى الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى «قلب الجيش»، وتوضع واحدة على يمينها وتسمى «الميمنة»، وأخرى إلى يسارها تسمى «الميسرة»، ثم تكون أمامها كتيبة تسمى «ساقة الجيش». ولذلك تركوا نظام الصفوف، وبعد تقدمهم فى المدنية تفننوا فى طرق تعبئة الجيوش. وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند، ويشددون العقاب على كل من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالى البلاد المفتوحة بسوء. ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر، كما كان الجندى لا يمكث أكثر من أربعة أشهر إذا كان بعيدا عن أسرته. وكان الجند يكبرون ويتلون الآيات القرآنية أثناء سيرهم للغزو والجهاد فى أثناء المعارك الحربية، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس فى نفوسهم، واتصفوا بالتفانى فى القتال لاعتقادهم بأن من يموت فى سبيل الله يكون مصيره إلى الجنة.

٥ — النظام المالى

عنى الخلفاء العباسيون بشئون الزراع والتخفيف عنهم : فألغى الخليفة المنصور الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الحنطة والشوفان وأحل محلها ضريبة نوعية فرضت بنسبة خاصة من المحصول مع بقاء الضريبة النقدية على النخيل والفواكه وأشباهها . ولكن الخليفة المهدى ما لبث أن عمم النظام الذى أدخله المنصور وجعل الضرائب تجبى دواما بالنسبة للمحصول لما رآه من اشتطاط الجباة فى جمع الضرائب النقدية ، على أن يقدم زراع الأراضى الممتازة الخصب نصف غلة أراضيهم، وفى حالةصعوبة ريها يدفعون ثلث غلتها أو ربعها أو خمسها تبعاً لحالة الأرض ، ولكن غلة الكروم والبساتين والنخيل تقوم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث . وفى عهد المأمون العباسى خفضت ضريبة الأرض مرة أخرى ، فأصبح يجبى الخمسان بدلا من النصف حتى على أكثر الأرض إنتاجا . وفى العراق والجزيرة وفارس ، حيث كثر عدد كبار الملاك والمزارعين ، كانت تدفع ضرائب محددة ، على النحو الذى حددته شروط الصلح التى عقدت وقت فتح هذه الأقطار ، ولم يكن من الممكن تغيير النظام الذى حددته المعاهدات ، وأصبح هؤلاء الملاك بذلك فى مأمن من كل اغتصاب ، وتمتع أهالى شمال فارس وخراسان بنفس هذه الامتيازات . ويسمى نظام دفع الضرائب بنسبة خاصة من المحصول باسم نظام المقاسمة ، تمييزا له عن نظام المحاسبة الذى كان متبعاً ويقضى بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض .

وفى عهود اليسر والخصب ، زاد مقدار دخل الدولة العباسية زيادة كبيرة . وكانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التى كانت تجبى من الضرائب ، حتى بلغت فى أيام هارون الرشيد ما يقرب من إثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التى تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، وقيل إن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول : إذهبي

وانظرى حيث شئت ، فسيأتى خراجك . وبلغت نفقة المأمون ستة آلاف دينار كل يوم أى ٢٫١٩٠٫٠٠٠ دينار فى السنة . وفى العهود التى سادها الجدب والعسر ، أعفيت بعض الأراضى من دفع الضرائب ،كما حدث حين تجاوز الخليفة المعتضد عن ربع الضريبة .

وقد ناط هارون الرشيد بالقاضى أبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان ، أن يضع كتابا يبين فيه الطريقة المثلى لتنظيم جباية الخراج وغيره من الموارد ، فوضعه وسماه «كتاب الخراج» . وفيه تناول الكلام على موارد بيت المال ، وطرق جبايتها ، والواجبات التى يقوم بها بيت المال . وقسم موارد الدولة إلى ثلاثة أقسام : خمس غنائم الحرب ، والصدقات ، والخراج . ويدخل تحت الخراج مايسمى وظيفة الأرض الخراجية ، ثم جزية أهل الذمة ، والعشور وقد حدثت فى عهد عمر بن الخطاب ولم يرد لها ذكر فى القرآن الكريم . وحد أرض الخراج : كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدى أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة ، ويخرج من ذلك أنواع من الأرض لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضا عشرية : وهى كل أرض للعرب غير بنى تغلب ، وكل أرض الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعا ، وكذلك كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين .

وسار خلفاء العباسيين على نظام إقطاع بعض أعيان دولتهم ، قطائع من الأرض يعمرونها ويسكنونها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة . وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها : ومن بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس ، وقطيعة الربيع بن يونس وكان بها تجار خراسان من البزازين (بائعى الثياب) ، وقطيعة صالح بن

المنصور . وظهر ذلك النظام جليا فى عهد المنصور العباسى ، فكان كبار رجال الدولة يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغا من المال عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً فى نظام الإقطاع الذى شمل أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين وسار عليه الخلفاء العباسيون من بعد المنصور : فولى الرشيد مصر صلاتها وخراجها لعبد الملك بن صالح ، وولى المأمون هذه البلاد على هذا النحو الإقطاعى لعبد الله بن طاهر بن الحسين ، وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون فى تلك السياسة فولى أشناس التركى مصر (٢١٩-٢٢٩ هـ) وقلد الواثق ولاية هذه البلاد لإيتاخ (٢٣٠-٢٢٥ هـ)، وساد هذا النظام حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية .

على أن دخل الدولة العباسية قد أخذ ينقص شيئاً فشيئا ، حتى أصبح فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أقل من جزء من واحد وعشرين جزءاً مما كان عليه فى عهد هارون الرشيد ، وأصبحت الحروب عبئا ثقيلا لا يحتمل ، بما أنهك قوى الدولة بعد أن بلغ ما حمل إلى الرشيد فى كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب.

وكان المال الذى يأتى من المواد المتقدمة ، ينفق على مصالح الدولة فتدفع منه : أرزاق القضاة والولاة وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ، وتدفع منه أعطيات الجند أى رواتبهم التى يستولون عليها فى أوقات معينة من العام ، كما ينفق منها على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها والترع التى تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة ، وحفر الترع للزراعة ، والنفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ، والمعدات الحربية ، والعطايا والمنح التى يمنحها الأدباء والعلماء .

وكانت الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة من أهم مصادر بيت المال ،

وقد قسم أهل الذمة طبقات : طبقة دنيا ويدفع الشخص منها ١٢ درهما فى السنة ، ووسطى ويدفع ٢٤ درهما ، وعليا ويدفع ٤٨ درهما ، ولا تؤخذ الجزية من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذى سن عالية ، ولا من ذى عاهة بادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متبتل، ويعطى لمن دفع الجزية براءة تثبت أداءه لها(١) . ومن مصادر بيت المال : ما يؤخذ من تركة من يموت دون أن يترك وارثاً له حيث يؤول ميراثه إلى بيت المال ، وكان هذا مقصوراً على المسلمين . ولذلك أصدر الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) فى سنة ٣١١ هـ كتاباً يأمر فيه برد من يموت من أهل الذمة دون وارث إلى أهل ملته لا إلى بيت المال ، وأنشىء لهذه التركات فى عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ديوان أطلق عليه « ديوان المواريث »(٢) . وكانت مصادرات الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ، مصدراً من مصادر بيت المال كذلك(٣).

الحياة الاجتماعية

طوائف السكان ؟

كان يقيم بين المسلمين ببلاد الدولة العباسية عدد كبير من أهل الذمة . وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى ، نوعا من التسامح . ومما يدل على تسامح الخلفاء العباسيين الدينى مع غير المسلمين ، أن الحكومة الإسلامية لم تدخل فى الشعائر الدينية لأهل الذمة . وكانت الأديرة منتشرة فى كل أجزاء بغداد ، يقيم فيها النصارى واليهود حيث يمارسون شعائرهم فى أمن وطمأنينة . بل أكثر من

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٧٤ — ٧٨ .

(٢) هلال الصابىء : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ — ٢٤٩ .

(٣) الدكتور حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٤٨١ .

ذلك أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يحضرون مواكب أهل الذمة واشتركوا فى إحياء أعيادهم ومواسمهم ، ولم يكن يوجد فى المدن الإسلامية أحياء رسمية مخصصة للنصارى أو اليهود بحيث لا يتعدونها ، وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين . وقد ألزمهم بعض الخلفاء اتخاذ ملابس خاصة يعرفون بها ، كما منعهم البعض الآخر من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين . ولم يتصاهر المسلمون مع غير المسلمين ، ولم يكن يجوز للمسيحى أن يتهود ولا لليهودى أن يتنصر ، واقتصر الدين على الدخول فى الإسلام ، ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ، ولا اليهودى يرث النصرانى ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم يهودياً أو نصرانيا (١) . وقد أصدر الخليفة المقتدر سنة ٣١١ هـ (٩٢٣م) كتابا فى المواريث أمر فيه بأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً ، إلى أهل ملته ، على حين أن تركة المسلم ترد إلى بيت المال .

واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب ، مما كان من عوامل نقمتهم على العباسيين وثوراتهم عليهم . ولما ولى المعتصم الخلافة ، ظهر العنصر التركى الذى استأثر بالنفوذ دون الفرس والعرب ، على أن بعض الخلفاء العباسيين فى العصر الثانى ، أدركوا خطر الأتراك فاستعانوا بالمغاربة والفراغنة ، وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة . ولما انتقلت السلطة فى بغداد إلى بنى بويه ، قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينتسبون إليهم ، وأصبح الديلم خطرا يهدد كيان الدولة العباسية . وانقسم المسلمون فى هذا العصر إلى شيع وطوائف : فهناك السنيون وكانوا يكونون الغالبية العظمى من السكان ويتمتعون بقسط وافر من الحرية فى عهد نفوذ الأتراك وعهد إمرة الأمراء ، وهناك الشيعيون وقد قاسوا كثيرا من المحن فى هذا العهد حتى استولى بنو بويه على العراق فتمتعوا بالطمأنينة فى

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٢ ص ٣٠٦ .

ظلمهم ، ومن ثم قامت المنازعات بين السنيين والشيعيين .

وكان اتخاذ الرقيق منتشرا فى العصر العباسى ، ومن أكبر أسواقه سمرقند ، وكانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء ، بدليل أن كثيرا منهم كانت أمهاتهم من الرقيق ، وقد أولع الخلفاء باتخاذ الإماء من غير العرب ، لأنهن كن فى الغالب أوفر جمالا . وجرت العادة على ألا يرى الرجل من يريد التزوج بها رؤية تامة إلا إذا كانت من الحرائر إلا فى حدود ما يسمح به الشرع الإسلامى ، بخلاف الأمة فقد كان يستطيع أن يراها ويعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم على الاقتران بها ، وكثيرا ما كان أبناء الجوارى أحب إلى آبائهم من أبناء الحرائر ، ولم يكن ثمة فرق فى التوريث بين أبناء الحرائر والإماء . وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد : فكانت أم المأمون فارسية ، وأم المعتصم تركية ، و«شجاع» أم المتوكل خوارزمية ، وأم المقتدر رومية وكذا كانت أم الخليفة المستكفى ، وكانت أم المطيع صقلية .

المرأة :

كان للمرأة فى عهد الدولة العباسية القدح المعلى فى الميادين الإجتماعية والسياسية ، فقد كانت امرأة مثالية ، لها وزنها وقدرها فى توجيه المسائل العامة ، ومن أبرز الشخصيات النسائية فى بغداد فى العصر العباسى : الخيزران وزبيدة والعباسة وقبيحة والسيدة .

تدخل نساء بغداد فى شئون الدولة العباسية ، كالخيزران ، التى كانت كثيرا ماتسأل ابنها الهادى ليقضى حاجات المترددين على بيتها من المسلمين .

غير أن شدة غيرة الهادى على النساء ، حملته على أن يضع حداً لتدخلها فى أمور دولته ، فقال لها مهددا متوعدا حين سألته ذات مرة فى قضاء مسألة لم يجد إلى قضائها سبيلا : « لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو خاصتى أو من خدمى ، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله » . ولما أحس الهادى بدنو أجله ، بعث يطلب أمه الخيزران ، فحضرت إليه وخاطبها بقوله : « أنا هالك فى هذه الليلة ، وفيها يلى أخى هارون ، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى ، مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك ، ولم أكن بك عاقا ، بل كنت لك صائنا وبرا واصلا » .

وهذه السيدة زبيدة ، زوجة الخليفة هارون وأم الأمين ، تمتعت بقسط وافر من الحرية وتدخلت فى شئون الدولة ، حتى أن الأمين بن هارون الرشيد ولى الخلافة بتأثير أمه زبيدة ، ، إذ عدل الرشيد عن عزمه فى تولية ابنه المأمون من بعده باعتباره أكبر أولاده سنا وبايع الأمين .

ولعل من أبرز النساء اللائى ظهرن فى العصر العباسى وأوسعهن شهرة وأظهرهن شخصية ، العباسة ابنة المهدى وأخت الرشيد .فقد قيل إن الرشيد كان يعمل بمشورة أخته ، وكانت ذات ثقافة عالية وذكاء نادر ، حلوة الحديث ، لطيفة المعشر ، وكانت تحضر دائما مجلس الرشيد[١] .

وتمثل بوران ابنة الوزير الحسن بن سهل وزوجة المأمون ، حياة الترف والنعيم التى عاشتها بعض نساء بغداد فى العصر العباسى ، وكانت من أجمل نساء بغداد وأغزرهن علما وأوفرهن أدبا ، وبذل الحسن بن سهل فى زفاف ابنته للمأمون كثيرا من الأموال .

ومن نساء العصر العباسى الثانى ، من كانت لهن السطوة على أولادهن من الخلفاء حتى كن يشرفن على شئون الدولة ويشتركن فى تدبير أمور

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الاسلامى نصيب ص ٨٦

الحكم ، وكان لهن أكبر الأثر فى سير الحوادث فى بغداد ، ومن أبرزهن : « قبيحة » أم الخليفة المعتز بن المتوكل ، التى تسببت فى قتل الخليفة المعزول المستعين ، وكان قد أخرج إلى بلدة واسط ، وذلك خوفا على حياة ولدها من أن تمتد إليها يد الأعداء إذا ظل المستعين على قيد الحياة .

وقد ظهر تدخل النساء جليا فى شئون الدولة فى عهد الخليفة المقتدر . يقول صاحب الفخرى « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير ، لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته » (١) . فقد أصبح الأمر والنهى بيد أمه « السيدة » ، وبلغ من عظم نفوذها أنها كانت إذا غضبت هى أو قهرماناتها على وزير ، أقيل من منصبه ، كما حدث لعلى بن عيسى ، فقد أمرت بالقبض عليه بسبب سوء استقبال حاجبه لقهرماناتها ، وليس هذا كل ما كان للسيدة من نفوذ ، بل أن سلطتها تعدت حدود ذلك فعينت قهرماناتها « ثومال » رئيسة للمظالم .

ولم تعطل مجالس النساء المثقفات إلا فى عهد الخليفة المتوكل ، رغم أن نجم « فضل » الشاعرة المشهورة قد تألق فى عهد هذا الخليفة .

الملابس :

تطور الزى فى الدولة العباسية عما كان عليه الحال قبل قيامها ، وذلك لظهور الأزياء الفارسية فى البلاط العباسى . وقد قرر أبو جعفر المنصور بأن تلبس بصفة رسمية القبعات السوداء الطويلة المخروطة الشكل ، ويطلق عليها اسم القلانس .

وأدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعها على الناس من

---

(١) الفخرى ص ٢٣٥ .

حق الخليفة ، يتبين ذلك من العملة التى ضربت فى عهد الخليفة المتوكل ، حيث تظهر صورته مرتديا ملابس فارسية . ولما ولى المستعين الخلافة (٢٤٨ — ٢٥٢هـ) صغر القلانس ، بعد أن كانت طوالا ، وأدخل لبس الأكمام الواسعة التى لم تكن تعرف من قبل فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار ، وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب ، يحفظ فيها الإنسان كل ما يرغب فى حفظه ، فكان الكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها ، والقاضى يضع فيها الكراسة التى يقرأ منها الخطبة يوم الجمعة .

أما الملابس العادية للطبقة الراقية فى العصر العباسى ، فكانت تشتمل على سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . وتشتمل ملابس العامة على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام ، وينتعلون الأحذية والنعال .

وكان رجال الدولة يتميزون بملابسهم : فيلبس الكتاب الدراعات وهى ثياب مشقوقة من الصدر ، ويرتدى العلماء الطيالسة . أما القواد فيلبسون الأقبية الفارسية القصيرة . وكان من المستحسن لبس الثياب البيضاء ، وفى القرن الرابع الهجرى ، كانوا يرون أنه لا يجوز للرجال لبس الثياب ذات الألوان إلا فى بيوتهم ، على حين أنهم أجازوا لبسها للنساء .

وقد اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس منضدا بالجواهر محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى « علية » أخت الرشيد . وكانت نساء الطبقة الوسطى يزين رؤسهن بحلية مسطحة من الذهب ، ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، كذلك كن يلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن ، ولم يكن يجهلن فن التجميل ، ومن الجلى أنهن أخذنه عن الفارسيات . ويعزى إلى السيدة زبيدة اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر ، وكانت فوق ذلك

تُسرف فى شراء ملابسها وتزيينها ، فقد اتخذت ثوبا من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار .

الطعام والشراب :

بلغ من تفنن العباسيين فى الطهى وإسرافهم فى الإنفاق عليه ، أن بعضهم كان يشترى مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المائدة ، كلون من ألوان الطعام الشهية . فإن ابراهيم بن المهدى لما استضاف الرشيد فى الرقة ، قدم له لونا من الطعام ، فاستصغر القطع ، وقال : لِمَ صغر طباخك تقطيع السمك ، فرد عليه ابراهيم بقوله : يا أمير المؤمنين ! هذه ألسنة السمك ، فأخبره إبراهيم أنه كلفها أكثر من ألف درهم ، فاستكثر الرشيد هذا المبلغ » . وبلغت نفقة المأمون فى اليوم على مطابخه مبلغا كبيرا . واعتاد أهل بغداد جلب ألوان الطعام كالسمك والحبوب والجبن فى فارس وعمان والهند ، ولم يسمح الخلفاء العباسيون بتناول النبيذ على موائدهم على الرغم من أنهم كانوا يشربونه أحيانا [١] .

الألعاب :

ذاعت فى العصر العباسى عدة ألعاب ، مثل : لعب الشطرنج ، والنرد ، وسباق الخيل ، والصيد . ومن بين الخلفاء الذين أقبلوا على لعبة الشطرنج ، الخليفة المأمون بعد قدومه من خراسان إلى بغداد والخليفة المعتضد الذى اشتهر فى عهده نوع من الشطرنج يسمى الجوارحية أو اللعب بالجوارح لأن حواس الإنسان تعمل أثناء لعبها ، وانتشرت بين الناس لعبة النرد وكان يلعب بثلاثين حجرا وفصين على رقعة بها إثنا عشر وأربعة وعشرين منزلا .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٨٠

أماسباق الخيل ، فكان يعد تسلية الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة فى العصر العباسى ، وقد أباح الخلفاء هـذه الرياضة بشرط ألا تلعب طلباً للمال . وكلف بعض الخلفاء بالصيد ، فقد حرص المهدى على القيام برحلات صيد منظمة ، وبين يديه فرسان من الحراس يتقلدون سيوفهم .

ومن الألعاب التى كان يتسلى بها أهل بغداد ، اللعب بالخيال ، فقد كان فى بغداد رجل يعرف بابن المغازلى ، يقف على الطريق ويقص على الناس الأخبار والنوادر المضحكة ، ويقلدهم على اختلاف طوائفهم . وقد سمع الخليفة المعتضد بنوادره ، فأمر بإحضاره بين يديه ، ليقصها عليه ، فأعجب بها ، وأجزل له العطاء(١) .

الأعياد والمواسم والمواكب :

احتفل خلفاء بغداد بعيدى الفطر والأضحى احتفالا باهرا ، كما حرصوا منذ بداية القرن الرابع الهجرى على الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، واحتفلوا بيوم النوروز وهو أول أيام السنة عند الفرس وأحد مواسمهم القديمة ، وكان المسلمون قد أبطلوا الاحتفال بهذا العيد فى بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامى ، غير أنه عاد فى الصدر الأول من أيام العباسيين ، وكان الناس يتبادلون فيه الهدايا (٢) :

وكذلك الحال فى عيد المهرجان ، وهو أول أيام الشتاء ، فكان الناس يتهادون فيه ، وقد جرت العادة أن يخلع الخلفاء فى هذا العيد ملابس الشتاء على القواد وكبار رجال الدولة . وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس ويسمونه رام روز . واهتم الفرس كذلك بعيد الرام ، ويقع

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٣٥ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٢ ص ٣٣٨ .

فى اليوم الحادى والعشرين من المهرجان (١) .

وبذلك احتفل العباسيون بأعياد الفرس وخاصة : النوروز والمهرجان والرام، وأصبحت من أهم الأعياد الرسمية فى الدولة العباسية .

وفى أيام الجمع والأعياد فى العصر العباسى ، كان يسير فى مقدمة موكب الخليفة : الحراس على اختلاف طبقاتهم حاملين الأعلام ، ثم أمراء البيت العباسى على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة لابسا القباء الأسود وعليه قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة ومتمنطقا بمنطقة مرصعة بالجواهر ومتشحا بعباءة سوداء ، وبين يديه كبار رجال الدولة(٢) . ومن أعظم مواكب العباسيين ، عدا موكب الخليفة ، موكب الحج حيث يجتمع فى بغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية .

مجالس الغناء والموسيقى فى بغداد :

بدأت الدولة العباسية على يدى السفاح ثم أبى جعفر المنصور ، والعهد عهد فتن وتنازع وتشيع وتحزب ، فطبع المنصور نفسه على اليقظة والسهر . ولا شك أن خليفة مثل هذا جبل على الحرص وتنكب أسباب الشك ، يجفو الطرب ويصرف نفسه عن الاشتغال بالملاهى ، حتى لا يجد أعداؤه المتربصون به سبيلا إلى اقتحام ملكه . وكان اتصافه بالبخل واشتهاره به ، من الأسباب التى باعدت بينه وبين شعراء عصره « حتى خرج الشعراء فى أيامه من الحضرة إلى غير وجهة » . وذكر صاحب العقد الفريد أن حاجب المنصور قال : إن الشعراء ببابك وهم كثيرون ، طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم ، والغناء يتطلب البذخ والترف ، فلم يكن فى عهد المنصور قبس من

---

(١) Browne : Literary History of Persia, Vol. 1. pp. 114, 259, 475.

(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

الأمل فى الارتقاء ، وكان المنصور ورعا يعير آل الزبير بحبهم للغناء ، وقد سمع ذات يوم ضرب طنبور فى داره ، فكسره على صاحبه ، ولم يسمح بالغناء إلا بعد إنشائه بغداد التى كانت فيما بعد موئل الفن وكعبة الغناء ، بيد أنه يجدر الا ننسى أن العرب فى خلافة المنصور عربوا كتابا لبطليموس فى الألحان الثمانية كان له فى الموسيق إذ ذاك شأن كبير .

ولم تعدم الدولة العباسية فيما بعد خلفاء من أمثال المنصورفىعدم إقبالهم على الغناء وزهدهم فى سماع الموسيقى ، كما فعل المأمون بعد عودته من خراسان ، فقد وجد الملاهى ضاربة أطنابها ، فأمر بمنع الغناء ، ولكن ذلك كان إلى حين ، ريثما صفا له الزمان واتسقت الأمور ، ثم مالبث أن أغرق فى اللهو حتى صار يسمر عنده كل ليلة اسحق الموصلى وابراهيم بن المهدى ، وكان يقول لها : بكرا على قد اشتقنا إلى الصبوح(١). وتشبه الخليفة المهتدى العباسى بعمر بن عبد العزيز فى ورعه وتقواه ، فلما ولى الخلافة سنة ٢٥٥هـ أمر بتحريم الطرب .

على أنه فيما عدا هؤلاء ، نرى الخلفاء العباسيين قد أقبلوا على الغناء ، وشارك الخلفاء فى ذلك الأمراء والعامة ، وأخذ الخلفاء يغدقون الهبات والعطايا على المغنين ، وساعدهم على ذلك ، تلك الثروة التى حفلت بها بغداد . وأكثر من ذلك أن كثيراً من الخلفاء العباسيين اشتغلوا بصناعة الألحان وبرزوا فيها وذاعت لهم أنغام رائعة ، ومن أشهرهم المهدى بن المنصور الذى كان قصره مجمع الموسيقيين ، ومنهم الواثق والمنتصر والمعتمد والمعتضد . وكان أول من دونت صنعته فى الغناء من أبناء الخلفاء : ابراهيم بن المهدى ، وأخته علية ، وأبوعيسى بن الرشيد ، وعبد الله بن موسى الهادى ، وعبد الله

---

(١) الصبوح : الخمر التى تشرب صباحا ، اما الغبوق فهى الخمر التى تشرب فى المساء .

ابن محمد الأمين ، وعيسى بن المتوكل ، وعبد الله بن المعتز . وحفلت دور البرامكة بالجوارى المغنيات ، ويقال إنهم الذين كانوا يعلمونهن الغناء .

ولم تكن عناية الخلفاء العباسيين فى بغداد برجال الأدب والشعراء ، أقل من عنايتهم برجال الفن الجميل من المطربين والمغنين والموسيقيين ، فقد كان كل منهم معطاء للأموال حتى كان يغدق على هؤلاء جميعا الهبات ، مما حببه إليهم ، واتصف الخلفاء بحب الفنون والإقبال على تشجيعها والأخذ بناصر أصحابها .

وقد جرت عادة بعض الخلفاء العباسيين على الظهور فى مجالس الغناء مثل المهدى والهادى ، ولكن السفاح والمنصور لم يظهرا قط فيها على الرغم من محبتهم الغناء والطرب له . وفاق هارون الرشيد الخلفاء فى ولوعه بالغناء والموسيقى وإجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين ، وهو أول من جعل المغنين مراتب وطبقات ، كان آخرها طبقة المضحكين وأهل الهزل والفكاهات ، ولم يكن بينها رغم ذلك – على حد قول الجاحظ – « خسيس الأصل ولا وضيعه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش القول ولا مجهول الأبوين ولا ابن صناعة دنيئة » .

على أنه إذا أظهر أحد المغنين براعة فى فنه ، أمر الخليفة بترقيته إلى الرتبة التى تعلو رتبته ، فإن برصوما الزامر أعجب الرشيد مرة ، فأمره صاحب الستارة أن يزمر على غناء ابن جامع المغنى المشهور ، فرفض ذلك برصوم ، وقال : إن كنت أزمر على الطبقة العالية رفعت إليها ، فإما أن أكون فى الطبقة الثانية وأزمر على الأولى فلا أفعل ، فقال الرشيد لصاحب الستارة : إرفعه إلى الطبقة الأولى(١) .

---

(١) الجاحظ : كتاب التاج ص ٣٨ .

ولم يجتمع على باب خليفة من المغنين والموسيقيين ، ما اجتمع على باب الرشيد . وممن نبغ منهم فى عهده : منصور زازل الذى اشتهر بحسن الضرب على العود ، حتى قيل إنه كان إذا جسه لم يملك أحد نفسه حتى يطرب ، وذاعت شهرة المغنى مسكين المدنى الذى فاق فى الغناء ابن جامع أشهر مغنى عصره ، فقد غنى ابن جامع يوما فى مجلس الرشيد فلم يطرب الخليفة ، وإذ ذاك قال صاحب الستارة لمسكين : يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت أن تغنى ، فاندفع فى الغناء وأعجب به الرشيد وطلب إليه أن يعيد على مسامعه ما غناه فأعاده بقوة ونشاط ، فقال له الخليفة : أحسنت وأجملت .

وحظى إبراهيم الموصلى وابنه اسحق برضاء الخلفاء العباسيين ، وكانا من رجال الأدب ، ولكن الغناء قد غلب عليهما بما وضعاه من الألحان ، وقد أبدع ابراهيم فى تنسيقها ، حتى توهم أن الأرواح هى التى تعلمه الصوت[١].

ولم تقتصر مجالس الغناء على الخلفاء وحدهم ، بل جاراهم فى ذلك المضمار الأمراء والوزراء وسائر رجالات الدولة ، وكان المغنون يلبسون « الثياب المصبوغة ، وكانوا إذا جلسوا فى تلك المجالس لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر ، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات » ، ولم تخل تلك المجالس من النوادر والطرائف التى تملؤها بهجة وسرورا . وكما ارتفع شأن الغناء ، ازدهرت الموسيقى ، وكثيرا ما اشتركت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية فى بغداد فى حفلات موسيقية خاصة[٢] .

وحفلت مجالس الغناء بالأدباء والمغنين ، وأجزل لهم هارون العطاء مما

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧١ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٢ ص ٣١٥ .

جذ بهم إليه . واشتهر من بينهم المغنى زرياب ، الذى أنجب حمدونة وعلية ، فتعلمتا الغناء على يدى أبيهما وأصبحتا من شهيرات المغنيات .

كان زرياب ، والد حمدونة وعلية ، مولى الخليفة المهدى العباسى ، فارسى الأصل . وكان شاعرا مطبوعا وأديبا ملما بعلوم النجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك ، حافظا لكثير من الحكم والأمثال ، كما كان فصيحا حلو الحديث حسن الصوت ، تعلم الغناء على إسحق الموصلى وتفوق عليه دون أن يشعر بذلك . وقد طلب هارون الرشيد من إسحق أن يأتى له بمغن غريب قد حذق الغناء ، وإن لم يكن قد اشتهر فى هذا الفن ، فذكر له تلميذه زرياب ، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب ، وسأله عن معرفته بالغناء فقال : نعم ! أحسن منه مايحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لايحسنونه مما لا يحسن إلا عندك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك ، فأمره الرشيد بالغناء ، فجلس ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائره هارون راح إليك الناس وابتكروا

فأتم النوبة ، وطار الرشيد طربا وأنب إسحق على كتمانه أمر زرياب عنه . فسقط فى يد إسحق وخلا بزرياب وقال : يا على ! إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتاكة ، والشركة فى الصناعة عداوة ولا حيلة فى حسمها ، فتخير فى ثنتين لابد لك منهما : أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع عنك خبراً ، وأما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفا إلىّ . فاختار زرياب الرحيل ، ورحل أولا إلى المغرب ، ومنها إلى الأندلس فى خلافة عبد الرحمن الأوسط ، الذى أحب زرياب حبا شديدا وقدمه على جميع المغنين(١) .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥٠ — ٧٥١ .

تلك هى حياة زرياب الأولى ، وقد ورثه أولاده فى الغناء وكانوا ثمانية ذكور وبنتين هما علية وحمدونة ، وقد تعلموا جميعاً الغناء ومارسوا صناعته وأصبحت أسرته كلها تحترف هذا الفن . وتزوجت علية بنت زرياب من الوزير هشام بن عبد العزيز ، أما حمدونة فقد تفوقت فى فن الغناء على أختها علية ، وتقدمت فى السن ، حتى لم يبق من بيت زرياب على قيد الحياة سواها ، وأخذ عنها الغناء على أصوله التى وضعها والدها .

ويرجع الفضل إلى زرياب فى تعليم الجوارى الغناء ، فقدكانت له جوار أدبهن وعلمهن الغناء على العود . ومن أشهرهن غزلان وهنيدة اللتين كانتا تأخذان عودهما بمجرد أن يهب زيارب من نومه ويأخذ هوعوده ، ثم يكتب الشعر ويعود إلى مضجعه . ومن بين هؤلاء الجوارى ، اشتهرت هنيد بفرط جمالها ، وقد أعجب بها الخليفة عبد الرحمن الأوسط فأهداها زرياب إليه ، وأصبحت من بين محظياته المقربات .

وكان لخلفاء العصر العباسى الثانى مجالس للطرب والغناء ، يحضرها الشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون والملهون ، فقد جمع مجلس المتوكل أول خلفاء هذا العصر مرة بين الشعراء والأدباء والملهين ، وفرح فى ذلك اليوم فرحاً شديداً وسر سروراً لم ير مثله ، وزاد فى تكرمة الشعراء وأجزل لهم العطاء .

وكان الخليفة المعتمد مشغوفا بالطرب والغناء والموسيقى ، سأل مرة عبد الله بن خرداذبة والد أبى قاسم عبيد الله الجغرافى المشهور صاحب كتاب « المسالك والممالك » ، عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغيير . فأجاد فى وصفها فى البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور ، فسر المعتمد وقال له : قد قلت فأحسنت ، ووصفت فأطنبت ، وأقمت فى هذا اليوم سوقا للغناء وعيدا لأنواع الملاهى ، ثم سأله المعتمد عن أنواع الطرب ، فقال على

ثلاثة أوجه : طرب محرك ينعش النفس ودواعى الشيم (الكرم) عند السماع ، وطرب شجن وحزن لا سيما إذا كان الشعر فى وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمراثى لمن عدم من الأحباب ، وطرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس . وسأله المعتمد : فما منزلة الإيقاع وفنون النغم ؟ قال : إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر »[١] ، يقول المسعودى : ففرح المعتمد فى هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضره من ندمائه ، وفضله عليهم ، وكان يوم لهو وسرور » .

وكان الخليفة العباسى فى العصر الثانى يهتم بمجالس الطرب ، فقد تملك الراضى الهم لاستبداد بجكم بأمور الدولة وسكة النقود باسمه ، ولكنه أزال عن نفسه الهم وتمثل بقول المأمون :

صل الندمان يوم المهرجان   بصاف من معتقة الدنان
بكأس خسروانى عتيق   فإن العيد عيد خسروان[٢]

وتعدت مجالس الغناء والطرب ، من الخلفاء إلى الأمراء وكبار رجال الدولة . ويرجع انتشار الغناء إذ ذاك إلى كثرة الجوارى ، وكان معظم القيان اللاتى يحترفن الغناء فى أوائل القرن الرابع الهجرى من الجوارى ، وقليل منهن من الحرائر[٣] . وفى سنة ٤٢١ هـ أمر الخليفة القاهر بتحريم القيان والخمر ، وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو كما فعل الحنابلة فى أوائل هذا القرن ، وأمر ببيع المغنيات من الجوارى ، مع أن هذا الخليفة كان مولعاً بالشراب وسماع المغنيات .

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٦١٩ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢٩ — ٥٣٠
(٣) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٦٦ .

مصادر الكتاب

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولا — مصادر عربية مخطوطة

إيليا المطران :
« مقالة فى المكاييل والأوزان »
مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب رقم ٣٤١ رياضيات .
ابن الرفعة : أبو العباس نجم الدين أحمد بن محمد بن على
« الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان »
مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب رقم ٣١٢ رياضيات .
ابن الضياء المكى : أبو التقا محمد بهاء الدين بن الضياء المكى العمرى
« تاريخ مكة المشرفة »
مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٧٠ تاريخ .
العبيدى : أبو على محمد
« أصول الأحساب وفصول الأنساب »
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٩ تاريخ.
العجيمى : حسن بن على
« إهداء اللطائف من أخبار الطائف »
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٧ تاريخ .
ابن عراق : على بن محمد
« نشر اللطائف فى قطر الطائف »
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٣٣ تاريخ .
العسكرى : أبو هلال الحسين على العسكرى
« الأوائل » . مخطوط بدار الكتب رقم ٢٧٧٣ تاريخ .

ابن قدامة المقدسى (٦٢٠هـ) : أبو محمد عبد الله بن عبدالله بن أحمد
« الاستبصار فى أنساب الأنصار » مخطوط بدار الكتب رقم ٤٣٩
النهروانى (٩٨٨ هـ) : قطب الدين محمد بن أحمد المكى
«الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» مخطوط بدار الكتب رقم ٨٤٧ تاريخ
مؤلفه غير معلوم
«خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار ملوك التبابعة » .
شرح لم يعلم مؤلفه ، على القصيدة الحميرية ، لأبى الحسن نشوان بن
سعيد الحميرى

ثانيا — مصادر عربية منشورة

الأبشيهى : شهاب الدين أحمد .
« المستطرف فى كل فن مستظرف » جزءان
أبكاريوس الأرمنى :
« نهاية الأرب فى أخبار العرب » (مرسيليا ١٨٥٢م)
ابن الأثير : (٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) على بن أحمد بن أبى الكرم
« الكامل فى التاريخ » ١٢ جزء (بولاق ١٢٧٤ هـ)
«أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ٥ أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ)
أحمد أمين :
« فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٢٨ م)
« ضحى الإسلام » ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٣٣ - ١٩٣٦)
« عكاظ والمربد » (بحث فى مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٣٣)
« الفتوة فى الإسلام » (بحث فى مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٤١)
« الصعلكة والفتوة فى الإسلام » ـ سلسلة إقرأ رقم ١١١
«ألعاب الصبيان عند العرب» بحث فى مجلة مجمع فؤاد ، ج ٤ ، ١٩٣٧

الأزرقى : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد
« أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » جزءان
(المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢هـ ، نشر الأستاذ رشدى الصالح)
إسرائيل ولفنسون :
تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام (القاهرة ١٩٢٧م)
أسعد داغر :
« حضارة العرب » (القاهرة ١٩١٨ م)
اسماعيل أحمد أدهم :
« علم الأنساب العربية » (القاهرة ١٩٣٨ م)
الاصطخرى : أبو القاسم ابراهيم بن محمد الفارسى
« مسالك الممالك » (ليدن ١٨٧٣ هـ)
الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين
« الأغانى » (بولاق ١٢٨٥ هـ) ، والجزء ٢١ ، طبع ليدن سنة ١٣٠٥ هـ ، والأجزاء التى نشرتها دار الكتب سنة ١٩٢٧ م
الألوسى : السيد محمود شكرى
« بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » ٣ أجزاء سنة ١٩٢٤ م
البلاذرى (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر
« فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ م)
البغدادى : أبو الفوز محمد أمين
« سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب » (بمباى ، ١٢٩٦ هـ)
البغدادى : عبد القادر بن عمر
« خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » (بولاق ، ١٢٩٩ هـ)
البقاعى : برهان الدين
« لعب العرب بالميسر فى الجاهلية الأولى » (ليدن ١٣٠٢ هـ)

البكرى : عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عمر
« معجم ما استعجم » ، (طبع جوتنجن ، ١٨٧٦ - ١٨٧٧ م)
والأجزاء التى نشرها الأستاذ مصطفى السقا .
بندلى صليبا الجوزى
« الأمومة عند العرب» . (طبع كازان ١٩٠٢) وهو ترجمة كتاب
Wilken : Das Matriarchat bei den Alten Arabern, 1884.
البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى
« فتوح البلدان » (ليدن ١٨٦٦م)
البيرونى : أبو الريحان محمد أحمد الخوارزمى
« الآثار الباقية عن القرون الخالية » (ليبسك ١٨٧٨م)
التبريزى : أبو زكريا يحيى بن على بن محمد بن بسطام
« شرح أشعار الحماسة »
نشر الأستاذ فريتاج Freytag ، طبع Bonnae ، ١٨٢٨ م
الثعالبى النيسابورى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل
« غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم » (باريس ١٩٠٠)
الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد
« لطائف المعارف » (ليدن ١٨٦٧) نشر الأستاذ جونج Jong
جرجى زيدان
« تاريخ آداب اللغة العربية » (القاهرة ١٩١١م)
« أنساب العرب القدماء » (القاهرة ١٩٢١م)
« تاريخ التمدن الإسلامى » ٥ أجزاء (القاهرة ١٩٣١م)
« تاريخ العرب قبل الإسلام » (القاهرة ١٩٢٢م)
ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد
« سيرة عمر بن الخطاب »

الجهشيارى (٣٣١هـ) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس
« كتاب الوزراء والكتاب » (القاهرة ١٩٣٨)
نشره الأساتذة مصطفى السقا وابراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى
الجاحظ (٢٥٥هـ = ٨٦٩م) : أبو عثمان عمرو بن بحر
« كتاب التاج فى أخلاق الملوك » .
حققه المرحوم الأستاذ أحمد زكى (القاهرة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤ م)
ابن حجر العسقلانى (٨٥٣هـ) شهاب الدين بن على
« الإصابة فى تمييز الصحابة » (القاهرة ١٩٢٣م)
حسن ابراهيم حسن
« السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » ،
تأليف فان فلوتن (ترجمة إلى العربية)
« الدعوة إلى الإسلام » تأليف توماس أرنولد (ترجمة إلى العربية ١٩٤٧)
« تاريخ الإسلام السياسى » الأجزاء : ١، ٢، ٣ (القاهرة ١٩٤٥-١٩٤٨)
ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله
« فتوح مصر والمغرب »
ابن أبى الحديد (٤٠٤ هـ) الشريف الرضى محمد بن أبى أحمد الحسنى
« كتاب شرح نهج البلاغة » ٤ مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ)
الحلبى (١٠٤٤ هـ) : على بن برهان الدين ابراهيم بن احمد
« إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون » .
ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن احمد
« المسالك والممالك » ، (ليدن ١٣٠٦ هـ)
الخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على
« تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م)

ابن خلدون (٨٠٨ هـ) : عبد الرحمن بن محمد بن محمد جابر
« العبر وديوان المبتدا والخبر » ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ)
ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم
« وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان » .
ترجمه إلى الإنجليزية De Slane —(باريس ١٨٤٢ — ١٨٤٨)
ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن الأزدى .
« الاشتقاق » . طبع جوتنجن Gottingen ، ١٨٥٤ م
دحلان : احمد زينى
« السيرة النبوية والآثار المحمدية »
(على هامش السيرة الحلبية) ـ القاهرة ١٣٢٠ هـ
الدميرى : كمال الدين
« حياة الحيوان » . القاهرة ١٣٠٥ هـ)
الدياربكرى (٩٦٦ هـ) : حسين بن محمد بن الحسن
« الخميس فى أحوال أنفس نفيس » ، جزءان (القاهرة ١٨٢٣ هـ)
رشاد أبو السعود ، وعبد المجيد هديس
« مختصر تاريخ العرب القديم » (طبعة الشام ١٩٢٠ م)
الزبيدى : أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسينى .
«تاج العروس من جواهر القاموس» ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٠٦-١٣٠٧)
«نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح » (ليدن ١٣٠٢ هـ)
زكى محمد حسن
«مصر والحضارة الإسلامية (الرسالة ١٥ من سلسلة الثقافة العسكرية
التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزارة الحربية) .
« الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٤٥) .
« دراسات فى مناهج البحث والمراجع فى التاريخ الإسلامى » .
(مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٥٠) .

الزمخشرى : محمود بن عمر .
« الكشاف عن حقائق التنزيل » (كلكتا ١٨٥٦ م)
ابن سعيد : على بن موسى المغربي
« كتاب المغرب فى حلى المغرب » (ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م)
ابن سعد (٢٣٠ هـ) : محمد
« كتاب الطبقات الكبير » ٨ أجزاء (ليدن ١٣٢٢ هـ)
السيوطى (٩١١ هـ) الحافظ جلال الدين عبد الرحمن
« تاريخ الخلفاء » (١٣٥١ هـ)
سيد أمير على :
« مختصر تاريخ العرب والتمّدن الإسلامى »
ترجمه عن الإنجليزية الأستاذ رياض رأفت (القاهرة ١٩٣٨ م)
سعيد الأفغانى :
« أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام » (دمشق ١٩٢٧ م)
السمهودى (٩١١ هـ) : أبو الحسن على بن عبد الله بن احمد .
« وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى » ؛ (القاهرة ١٢٢٦ هـ)
السهيلى : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى
« الروض الأنف » جزءان (القاهرة ١٩١٤ م)
ابن سيدة : أبو الحسن على بن اسماعيل
« المخصص » (القاهرة ١٣٢١ هـ)
سيدة اسماعيل كاشف :
« مصر فى فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٤٧)
« مصر فى عصر الإخشيديين » (القاهرة ١٩٥٠)
الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .
« الملل والنحل » (لندن ١٨٤٦ م)

الشيزرى : عبد الرحمن بن نصر
/ « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » نشر الأستاذ السيد الباز العرينى .
(القاهرة ١٩٤٦)
ابن طباطبا : محمد بن طباطبا ، المعروف بابن الطقطقى
«الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٩٢٣).
الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير .
« تاريخ الرسل والملوك » نسخة فى ثمانية عشر مجلداً ، طبع مطبعة
بريل بمدينة ليدن من سنة ١٨٧٩ إلى سنة ١٨٩٨ م .
الطرطوشى : محمد بن محمد بن الوليد الفهرى .
« سراج الملوك » (القاهرة ١٢٩٩ هـ)
طه حسين :
« الفتنة الكبرى ـ عثمان » (القاهرة ١٩٤٨ م)
طيفور (٢٨٠ هـ = ٨٩٣ — ٨٩٤ م) : أبو الفضل احمد بن أبى طاهر.
« تاريخ بغداد » (ليبسك ١٩٠٨ م)
عبد الحميد العبادى :
« صور من التاريخ الإسلامى ، العصر العربى» (الأسكندرية ١٩٤٨)
« أحابيش قريش ـ هل كانوا عربا أو حبشا ؟ » بحث فى مجلة كلية
الآداب ، مايو ١٩٣٣ .
ابن عبد ربه : أبو عمر احمد بن محمد عبد ربه الأندلسى
« العقد الفريد »
نشره الأساتذة : احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابيارى
(القاهرة ١٩٤٠)
العطار : محى الدين بن ابراهيم
« بلوغ الأرب فى مآثر العرب » (مطبعة الصفا فى لبنان ١٣١٩هـ)

العمرى : ابن فضل الله
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » (القاهرة ١٩٢٤)
على ابراهيم حسن :
« النظم الإسلامية » (القاهرة ١٩٣٩)
« نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب » (القاهرة ١٩٥٠)
« مصر فى العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٥١)
على عبد الواحد وافى :
« الأسرة والمجتمع » (القاهرة ١٩٤٥)
« وأد البنات عند العرب فى الجاهلية ، عوامله الصحيحة وموقف الإسلام منه» (مجلة « الرسالة » العدد ٤٠٠ ، مارس ١٩٤١)
فارس بن يوسف الشدياق :
« الساق على الساق فيما هو الفارياق ، أو أيام وشهور وأعوام فى عجم العرب والأعجام » (باريس ١٨٥٥ م) .
أبو الفداء : اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة .
« المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ ه والقاهرة ١٣١٥ ه)
ابن قتيبة الدينورى : أبو محمد عبد الله بن مسلم .
« المعارف » (القاهرة ١٩٣٤)
« الميسر والقداح » (القاهرة ١٣٤٢ه)
قدورة : زاهية .
« عائشة أم المؤمنين » (القاهرة ١٣٦٦ ه = ١٩٤٧ م)
القرطبي : محمد بن احمد بن أبى بكر .
« الجامع لأحكام القرآن » (القاهرة ١٩٣٧)

القلقشندى : أبو العباس احمد
«صبح الأعشى فى صناعة الانشاء» ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣-١٩١٩)
الكاسانى الحنفى :
«بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع» ج ٢ (القاهرة ١٣٢٧ هـ)
الكرملى - الأب أنستاس مارى الكرملى
«النقود العربية وعلم النميات» (القاهرة ١٩٣٩)
ابن الكلبى (٢٠٤ هـ) : أبو المنذر هشام بن أبى النصر محمد بن السائب
«الأصنام» (بولاق ١٣٣٢ هـ).
الكندى (٣٥٠ هـ) : أبو عمر محمد بن يوسف
«كتاب ولاة مصر»
نشره روفن جست باسم «كتاب الولاة وكتاب القضاة» (لندن ١٩١٧م)
الماوردى (٤٥٠هـ = ١٠٥٧م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى
«الأحكام السلطانية» (القاهرة ١٢٩٨هـ ولندن ١٩٠١م)
متز : آدم
«الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»
ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة.
المسعودى (٣٤٦هـ) : أبو الحسن على بن الحسين بن على
«مروج الذهب ومعادن الجوهر» جزءان (القاهرة ١٣٠٢هـ)
مصطفى بدر : محنة الإسلام الكبرى - سقوط بغداد
أبو المحاسن (٨٧٤ هـ) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» (القاهرة ١٩٣٠ — ١٩٤٨)
المقرى (١٠٤١هـ = ١٦٣٢م) : شهاب الدين أحمد بن محمد
«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»
٤ أجزاء (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م)

مسكويه (٤٢١هـ)

« تجارب الأمم وتعاقب الهمم » ٣ مجلدات ، عنى بتصحيحها أمدروز Amedroz (القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤م)

المبرد : أبو العباس محمد

« الكامل فى الأدب » جزءان (القاهرة ١٣٢٤ هـ)

محمد جمال الدين سرور :

« قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم » (القاهرة ١٩٥٢)

محمد الخضرى :

« تاريخ الأمم الإسلامية » ٣ أجزاء

محمد عبد المعيد خان

« الأساطير العربية قبل الإسلام » (القاهرة ١٩٣٧ م)

مولاى محمد على :

« محمد رسول الله » (القاهرة ١٩٤٨ م)

محمد كرد على :

« الإسلام والحضارة العربية » جزءان (القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦م)

محمد نعمان الجارم :

« أديان العرب فى الجاهلية » (القاهرة ١٩٢٣)

محمد لبيب البتنونى

« الرحلة الحجازية » طبعة ثانية ، ١٣٢٩ هـ

المرزوقى . أبو على الأصفهانى

« الأزمنة والأمكنة » ، طبع مجلس دائرة المعارف بالهند ١٣٣٢هـ .

المقريزي : تقى الدين أبو محمد أحمد بن على

« النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم » (ليدن ١٨٨٨ م)

« شذور العقود فى ذكر النقود » (المطبعة الحيدرية فى النجف ١٣٥٦هـ)

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم
« لسان العرب » (بولاق ١٣٠٢ - ١٣٠٧هـ)
نابية أبوت :
« المرأة والدولة فى فجر الإسلام »
بحث ترجمه الاستاذ محمد عبد الغنى حسن عن المجلة الأمريكية للغات السامية وآدابها .
النجيرمى : أبو إسحاق ابراهيم بن عبد الله
« إيمان العرب فى الجاهلية » (القاهرة ١٣٤٣ هـ)
ابن النديم : (٣٨٣هـ = ٩٩٣م) محمد بن اسحق
« الفهرست » جزءان (ليبسك ١٨٧١م)
النووى (٦٧٦هـ = ١٢٧٧م) : أبو زكريا محي الدين بن شرف
« تهذيب الأسماء واللغات » جزءان (القاهرة)
ابن هشام : عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى
« سيرة رسول الله » طبع جوتنجن ، ١٢٧٦هـ — ١٨٦٢م
الهمدانى : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب
« الإكليل » ج ٨ نشره الأب أنستاس مارى الكرملى (بغداد ١٩٣١م)
أبو هلال الصابئ (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م)
« كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » طبعة هـ . ف . أمدروز
هنرى لامنس :
« الأحابيش والنظام العسكرى فى مكة زمن الهجرة » (بحث فى مجلة المشرق الكاثوليكية ، ١٩٣٦ م)
« الحجارة المؤلهة ومظاهر عبادتها عند العرب الجاهلية » (بحث فى مجلة المشرق ، ١٩٣٨م)
الواقدى (٢٠٧هـ) : أبو عبد الله محمد بن عمر
« فتوح الشام » (القاهرة ١٣٠٢هـ)

وستنفلد : فردنند
« تواريخ مكة المشرفة » ، (مدينة غتنفة ، ١٢٧٥هـ)
وهب بن منبه :
« تاريخ ملوك حمير » .
لويس شيخو :
« النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » (بيروت ، ١٩١٢)
ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى
« معجم البلدان »
اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح .
« تاريخ اليعقوبى » ٣ أجزاء (النجف ، ١٣٥٨هـ)
يوسف رزق الله غنيمة :
« الحيرة — المدينة والمملكة العربية » (بغداد ، ١٩٣٦م)
« نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق » (بغداد ، ١٩٢٤م)
أبو يوسف (١٩٢هـ = ٨٠٧م) : يعقوب بن ابراهيم
/« كتاب الخراج » (بولاق ١٣٠٢هـ والمطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦هـ)

ثالثا — مصادر أوربية

Ameer : Sayed Ali.
Short History of the Saracens. (London, 1899)
Brockelmann : Carl.
History of the Islamic Peoples.(London,Routledge & Paul,1949)
Browne : E. G.
A Literary History of Persia. (2 Vols. London,1902 — 1906).
Burckhardt : J. L.
1. Travels in Arabia. (London, 1829)
2. Arabic Proverbs (2 nd. ed. London. 1875)

Burton : R. F.

Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah., (2 Vols. London, 1898)

Caussin de Perceval :

Essai sur L'Histoire des Arabes avant l' Islamisme. (3 Vols. Paris 1847—1848)

Doughty : C. M

Travels in Arabia Deserta. (2 vols. Cambridge, 1888)

Dozy: R.

Supplément aux Dictionnaire detaille des Noms des Vetements chez les Arabes. (Paris, 1845)

Encyclopaedia of Islam. (London and Leyden, 1913—1931).

Freeman : E.A.

The History and Conquests of the Saracens (London, 1876).

Fresnel : F.

Lettres sur l' Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (Paris, 1836)

Gibb : H. A. R.

Arabic Literature. (London,1928)

Gibbon : E.

History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 Vols.

Gilman : Arthur

The Saracens from the earliest times to the Fall of Baghdad.

Hell, Joseph

Die Kultur der Araber. translated from the German by Khuda Bukhsh under the title«The Arab Civilisation»(London,1926)

Hitti, ph.

History of the Arabs, (London, 1927)

Hogarth : N. G.

The Penetration of Arabia. (London, 1905)

Arabia. (Oxford, 1922)

Huart, clément :

Histoire des Arabes. 2 Vols. (Paris, 1912—1913).

Kierman : R. H.

The Unveiling of Arabia. (London,1937)

King : L. W.

A History of Babylon from the foundation of the Monarchy to the Persian Conquest (London, 1919)

Lammens : Henry.

1. Le Berceau de L'Islam. (Romae, 1914)
2. La Cité Arabe de Taif à la Veille de L' Hegire. (Beyrouth, 1922) (Mélanges de L' Université Saint-Joseph, Beyrouth, tome VIII)
3. Fatima et les Filles de Mahomet (Romae, 1912)
4. Mahomet fut- il Sincére ?
   (Extrait des«Recherches de Science Religieuse». Nos I. et 2. Paris, 1911)
5. Les Ahabis et l' Organisation Militaire de la Mecque au siècle de L' Hegire.
   (Journal Asiatique, onzième série, tome VIII, 1916)
6. La Republique Marchande de la Mecque vers l'an 600 de notre ère (Extrait du Bulletin de L'institut Egyptien, 5 serie)
7. La Mecque à la veille de L' Hegire.
   (Mélanges de L' Université Sait-Joseph, Beyrouth, tome IX)

Le strange : Guy

1. Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford, 1924).
2. A Greek Embassy to Baghdad in 917 A. D. (J.R.A.S.).

Lane-Poole, S.

The Muhammadan Dynasties (Paris, 1905)

Levy : R.

Persian Literature. (London, 1923)

Lyall, ch.

Ancient Arabian Poetry (London, 1930)

Margoliouth

1. Mohammed and the Rise of Islam. (London & New York)
2. The Relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam. (London, 1924)

Muir, W.

1. Life of Mahomet. 4 Vols. (London, 1858—1861)
2. The Caliphate, its Rize, Decline and Fall, (Oxford, 1902).

Nicholson, Reynold

A Literary History of the Arabs. (London, 1907)

Noldeke, th.

1. Sketches from Eastern History. translated by J. S. Black. (London, 1892)

2. The Scope and Influence of Arabic History (The Historians' History, of the World. Vol. 8. London, 1908)

O' Leary, de Lacy.

Arabia before Muhammad. (London, 1927)

Perron, M.

Femmes Arabes avant et depuis L' Islamisme. (Paris, 1858)

Robertson Smith.

1. Kinship and Marriage in Early Arabia. (2 nd édition, London, 1903.)

2. Lectures on the Religion of the Semites. (London, 1894)

Rutter, Eldon.

Holy Citie of Arabia. (London, 1949)

Sedillot, L. A

Histoire Generale des Arabes: leur Empire, leur Civilisation, leurs écoles philosophiques, scientifique et littéraires. (Deuxieme édition. 2 Vols. Paris, 1877)

Sykes, Percy

A History of Persia. 2 Vols. (London, 1915—1921).

Thomas : B

The Arabs. (London, 1937).

Von Kremer

Orient under the Caliphs, 2 Vols, translanted by khuda Bukhsh (Calcutta, 1920—1927).

Zaki M. Hasan

Les Tulunides, (Paris, 1933).

تصويب

سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	المحط	المحيط	٤٧	٩ر٤	التوسيع ،يستطيع	التوسع ، يستطع
١٧	Petrée	Pétrée	٥٠	٩ر١٤	ذى نواس ، الدولة	أرياط ، الدلالة
١٨	Deserté	Déserlée	٥٤	١٢	وطأتها	وطأتهما
١٧	تشمل	تشتمل	٥٥	٢ر١٢	بلاطه ، يؤديه	إيوانه ، يؤديانهما
٣	وإبنها	وابها	٥٧	٧	استطاعا أن يقفا	استطاع الروم أن يقفوا
١ر٧	لذلك ، بالتواره	بذلك ، بالتوراه				
١٥ر١٧	أن كان كلا ، اليمين	أن كلا ، اليمن	٦٤	٥	بارداً جديداً ، جثما	تارزاً شديداً ، قبضا
٦	ويلقب سبأ بعبد شمس	ويسمى سبأ «عبد شمس»	٦٥	٢ر٦	Narsres ، إلى	Narses من
			٧١	٦	يعنى	يفى
١١	وكان لسبأ ولدان: حمير	وكان لسبأ عدة أولاد أشهرهم: حمير	٧٢	١٣	بليزريوس	بليزاريوس
			٧٣	٧	القوت	القوات
١٣	أورشيلم	أورشليم	٧٤	٩	عمر	عمرو
٦ر٩ر١٠	الغرب ، لإسمها ، إسمها	العرب ، لاسمها ، اسمها	٧٥ر١١٧	٤ر١٠	مناه	مناة
			٧٦	١	إلى	فى
	حاشيتا ١ر٢ فى كل من الصفحتين	تنقل كل منهما مكان الاخرى	٧٦ر٩٢	١٢ر٩	سوريا	سورية
			٨٠	٤	امه	أمه
١٢	بجتاج	تحتاج	٨٢	١٠	ابيت	أبيَت
١٤	نتيجه إهمال من جانب أمه	نتيجة إهمال من جانب أمة	٨٣	١٥	مرذبة	مرزبة
			٨٦	٧	داقيا	داشيا
٤ر٦ر١٢	مره ، إختفاء ، السلطه	مرة ، اختفاء ، السلطة	٩٠	١٨	وخاصة ابن	وخاصة جاستنيان ابن
١٣	مستقبل ، بإضافه	مستقل ، بإضافة	٩١	٤	كل الرضى عن عن	كل الرضى عن
١٤ر١٥	دو ، القلعه	ذو ، القلعة	٩٩	٢	لم يكن ولده	[illegible] عيسى ولده
٢	يقوله	بقوله	١١٠	١٢	رحلا [illegible]	وأنباء
٣ر١٥	بينهن ، العبريين	[illegible]	١١٣	٥	[illegible]	
٣	سيتم	[illegible]	١١٥	١٢	حف	

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١٦	١٣ر١٩	إشراف ، بحيث	أشراف ، بحث
١١٨	١٢	يقع	لايقع
١٢١	٧ر١٢ر١٩	تأثراً ، ليقتلوهم ،	تأثرنا ، ليقتلوهم ،
		وعشرون	وعشرين
١٢٢	١٧	النصير	النضير
١٢٥	١	أزدالسراة السراة	أزد السراة
١٣٠	١٤	واعتمالها	وأعمالها
١٣١	١٧	غداه	غداة
١٤٦	٣	صنام	صنما
١٤٨	١١	مددها	مدرها
١٧٣	١٧	ياسر أنعم ، قبان	ياسر أنعم (وهو
			ناشر النعم)،تبان
١٧٤	١	تستبقوا	يستبقوا
١٧٥	١٢	خير	خير
١٨٣	٣ر٨	أرتكب ، أكلوا	ارتكب ، أكلوا
١٨٤	١٠ر١٢	أمارة ، ليصنع	إمارة ، لينظم
١٨٥	٥	والمتنبئات	والمتنبئة
١٨٦	١ر١٢	يحلفن، الهفاف	يحفلن ، الهفهاف
١٨٧	١٣	السلم	السلام
١٩٣	١٠	الأمتار	الأمطار
١٩٦	٧ر١٧	رائعاجواداً ، لعب	جواداً رائعا ،
			وهو لعب
٢٢٤	٤ر١١	لتحج ، مصعب ابن	لتحج ، مصعب بن
		عمير بن	عمير
٢٢٥	١ر٥ر١٠ر٢٠	تجد،الله ، سيزيل،	نجد ،ربك ،يزيل،
		فانتابت	فانتاب
			بديه
			نفيه أن يعلمهم أن
			رحى

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٤	٢ر٤	قل، عبد عبدالله	وقا
٢٩٤	٩	رغم أنهم يكونوا	رغ
٢٩٨	١٩	بن	من
٣٠٤	٢	٦٥٠	٥٦
٣٠٥	٢	على	عن
٣٠٦	١٣	وأعلمها ، وإنما	واء
	١٥	كانت ، فقدم	كا
٣٠٨	١٥	فأدخل	فاد-
٣١٠	١٥ر١٨	على ، أين هذا	عليا
٣٢٤	١٨	استبب	است
٣٣١	١٢	يطلبون	يطل
٣٣٨	٢١	البدء	البد
٣٣٩	١١ر١٣ر١٤	استأنفت ، أن ،	استؤ
		اعداؤه	أعد
٣٤٥	٢	تقسموا	انقس
٣٤٦	٦	استأنف	استؤ
٣٤٧	١٧	أفريقيا	إفري
٣٥٤	٢٢	الدين	الذي
٣٦٤	٩	الملالكة	الملائ
٣٦٥	١٥	قابلة	قابله
٣٦٨	٢٠	أعداد	أعدا
٣٧٧	١١	يكن	يكد
٣٧٩	١٢	خرمان	خرا
	١٥ر١٦	بن على بن على	بن ع
٣٨٩	١٦	أنه	بأنه
٤٠٥	١١	ويتفق	وينفق
٤١٣	١٨	سراقسطا	سراق
٤١٧	١٢	عهدى	عهد
		صلاتهم	حملا

سطر	أ	صواب
١٧	خ	الحوادث
١٩	سياسة	سياسية
٢٥	أى وزير تام السلطة	أى وزيرا تام
	ممثل	السلطة ممثلا
١٩	فس	نفس
٧،٣	نكبة ، العباسية	النكبة ، العباسة
٣	نفوذها الذى بلغته	نفوذهم الذى بلغوه
٦	منها	فيها
٧	وأخرج	واخرج
٥	قاصد	قاصدا
١٢	بحضرتك ، أغلبهم	بحضرتك ، عليهم
١٦،١٥	على رأسهم واصل بن	على رأسهم أبو
	عطاء وعمرو بن	الهذيل
	عبيد وابن الهزيل	
٢	على	عليا
١٩	رأسهم الكندى	رأسهم الكندى ،
	صاحب كتاب الولاة	وحذا
	والقضاة ، وحذا	
١٨	وقوله إنه قديم وإنه	وقوله إنه كلام الله ،
	غير	فلا هو قديم ولا
٦	أنباء	إنباء
١٢	المعتز	المتوكل
١٥	حتى فضل ابنها	وفضل المتوكل ،
	المعتز	المعتز ابن زوجته
		قبيحة
١١،٦	له ، جذوع	لها ، جزوع

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٧٨	٨	أخوه الموفق	هو وأخوه الموفق
٤٩٢	١٨،١٢	سلاطين ، ضعيفا	السلاطين ، ضعيف
٥٠٤	١٩	تنش	تكش
٥١١	١٦	الموسم	المواسم
٥١٨	٢١	وزير	وزيد
٥١٩	٣	عثمان بن عفان	عثمان بن عفان كاتبا
		وعمر بن زيد	له ، كما اتخذ عمر زيد
٥٢١	١٩،٩،٨	والقياس ... أو السنة	تحذف
٥٢٩	٢٠	وسراويلا	وسراويل
٥٣١	٣	معاوية بن سفيان	معاوية بن أبى سفيان
٥٣٣	١٢	مثل كرى الأنهار	بكر الأنهار
٥٣٨	٩	م	ثم
٥٤٨	١٣	تقتدى	يقتدى
٥٥٣	٢	بنظرية الملكى	بنظرية الحق الملكى
٥٥٤	١٠	يرجع كذلك ذلك	يرجع كذلك إلى
٥٥٧		إلى	
٥٥٧	١٥،٦	وخوذستان ، الجحا	وخوزستان ، الحجى
٥٥٨	١٢	سجل بتعيينه	سجل تعيينه
٥٦٠	١٢	ازياد	ازدياد
٥٦٢	٩،٥	الأكرهة ، ويشبه	الأكرية ، يشبه
٥٦٣	١٧	كاتبهم	كتابهم
٥٦٤	٦	كان أمراء الأمراء	كان الأمراء
٥٧٢	٥	الخراسانية	الخراسانية
٥٨١	٧	براك	تراك
٥٨٤	١١،٩	فأخبره ، والحين فى	وأخبره ، والجبن من
٥٩٤	آخر سطر	أحمد أمين	أحمد عيسى
٥٩٨	٤	وأبناء	وأنباء

كتب المؤلف

صفحة

١ — جوهر الصقلى [القاهرة ١٩٣٢] ١٢٨

يبحث فى حياة جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمى ، والدور الذى قام به المعز فى تاريخ مصر .

٢ — النظم الإسلامية [القاهرة ١٩٣٩] ٣٨٤

بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن مدير جامعة محمد على السابق . يبحث فى نظام الخلافة ، والوزارة ، والكتابة ، والحجابة ، وسلطة الولاة ، ودواوين الحكومة ، والجيش ، والبحرية ، ومصارف بيت المال ، ونظام القضاء . ترجمه مولاى عليم الله خان صاحب صديقى إلى اللغة الأوردية لغة بلاد الهند الرسمية ، ونشرته ندوة المصنفين فى دلهى .

٣ — دراسات فى تاريخ المماليك البحرية [١٩٤٤ والطبعة الثانية ١٩٤٨] ٤١٦

يبحث فى مميزات الدولة ، وسلطنة المماليك قبل الناصر محمد وفى عهده وعهود أبنائه وحفدته ، والسياسة الخارجية ، ومبدأ الوراثة ، وألقاب السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديريها ، والحرس السلطانى داخل القصر وفى المواكب ، ونظام الخلافة العباسية فى القاهرة ، ودواوين الحكومة المملوكية ، وكبار الموظفين الإداريين ، والجيش المملوكى ، والقضاء والمظالم والحسبة ، والحالة المالية والاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٤ — مصر فى العصور الوسطى [١٩٤٤ و ١٩٤٩ والطبعة الثالثة ١٩٥١] ٦٥٠

يبحث فى تاريخ مصر من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى . ويشمل عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين فى مصر ، وعهود دول : الطولونيين ، والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك . وذلك فيما يتعلق : بالتاريخ السياسى ، والعلاقات الخارجية ، ونظام الحكم ، والمنشآت ، والحالة الاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٥ — استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ المصرى الوسيط [القاهرة ١٩٤٩] ٢٠٨

يبحث فى طرق البحث التاريخى ، ومصادر الآثار ، ودواوين الشعراء ، ومصادر الرحالة والجغرافيين ، والمخطوطات ، ومصادر الأقدمين المنشورة

٦ — نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب [القاهرة ١٩٥٠] ١٤٨

يبحث فى تاريخ النساء فى الدولة العربية ، والدولة العباسية ، ومصر الإسلامية الوسيطة ، ويتناول ملابس المرأة فى الإسلام .

٧ — سيرة القاهرة [الطبعة الثانية ١٩٥١] ٢٧٨

بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن والأستاذ ادوار حليم ، ترجم من الإنجليزية إلى العربية عن Lane-Poole : Ths Story of Cairo

٨ — التاريخ الإسلامى العام [القاهرة ١٩٥٣] ٦١٢

يبحث فى تاريخ الجاهلية ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والعصر العباسى

الناشر : مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة